إليكس هيلي Alex Haley

الجـذور

من العبودية.. إلى الحرية!!

الرواية الأكثر مبيعاً في القرن العشرين !!

إعداد خاص

ابن بشار



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : الجذور .. من العبودية إلى الحرية.

المؤلف : إليكس هيلي

إعداد خاص : ابن بشار

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى 2011

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.co

تقديم

ذات مساء من عام 1976 جلس الملايين من الأمريكيين في منازلهم .. مُسمرين أمام أجهزة التيلفزيون.. والحياة في متاجر مختلف الولايات ليست كعادتها.. إنما تسير ببطءٍ شديد.. فالشوارع شبه خالية تماماً من المارة.. والحدث هو: إذاعة الحلقة الأخيرة من مسلسل " THE ROOTS"أو "الجذور".. وهو ما ظل يحدث بنفس الشكل.. وإن كان بوتيرةٍ متصاعدة من يومٍ ليوم.. وتتكاثر أعداد المتحلقين يومياً حول شاشات التليفزيون يتابعون.. ويتناقشون.. منذ إذاعة الحلقة الأولى من هذا المسلسل الرائع.

ومن الولايات المتحدة الأمريكية.. إلى باقي أقطار العالم.. فرض "إليكس هيلي" روايته على الجميع.. من لم يشاهدها.. قرأها.. ومن لم يقرأها شاهدها.. وبين القراءة.. والمشاهدة سجلت "الجذور" أكثر الروايات ترجمةً إلى لغات العالم المختلفة.. ومبيعاً في النصف الثاني من القرن العشرين.. ولم ينته عام 1977 إلا وكان العالم أجمع تقريباً قد شاهدها.. أو قرأها.. ومازالت كذلك حتى الآن حيث يباع منها سنوياً الملايين من النسخ بمختلف اللغات.

فما هى تلك الرواية؟ وما حكايتها؟

الرواية عن قصة حقيقية عاشتها أسرة المؤلف منذ منتصف القرن الثامن عشر.. وليست تأريخاً لقصة عائلة.. بقدر ما هى تأريخاً لواحدة من أصعب.. وأبشع صفحات كتاب الإنسانية قاطبةً.. وهى صفحة استعباد المستوطنيين الأمريكين للسود من أبناء أفريقيا.. بكل تجاوزاتها.. ولا آدميتها.. بكل ما فيها من قمع.. وظلم..

وقد قضى " إليكس هيلي" حوالي اثنتي عشرة سنة متفرغاً لكتابة تلك الرواية وهو يبحث عن جذوره.. وتاريخ عائلته.. ليقدم لنا في النهاية رصداً غير مسبوق لتلك الظاهرة الاستبدادية.. ملقياً من خلالها الضوء على أدق.. أدق التفاصيل المرتبطة بالحياة في أفريقيا في تلك الفترة.. بعاداتها.. وتقاليدها غير المؤرخة.. وبالتالى المجهولة عالمياً.. وفي هذا السياق ينبغي أن نعترف للرجل بالسبق في ذلك فقد استطاع أن يقدم للأدب العالمي "درةً" غير تقليدية تساهم في بريق عقد الرواية في الأدب العالمي بخصوصيتها الاستثنائية..

ونشير هنا بكل موضوعية لامتلاك (إليكس هيلي) أدواته الحرفية ككاتب وروائي بمهارة شديدة.. تجعل القارئ وهو يتفاعل مع كل انعطافاتها يحتار بشدة.. من قدرته على مزج الحقائق التاريخية بالقالب الروائي.. وينصهر الإثنان في بوتقة الكلمات لتفرز المعانى التى ترصد.. وتصل الحقائق مباشرةً عبر جسر الإنسانية ما بين العقل.. والقلب..

وقد تبكيك هذه الرواية وهى تخاطب نوازع الإنسانية داخلك..

قد تحزنك على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان..

لكنك حتماً ستتفاعل معها.. وهى تؤكد لديك قاعدةً تاريخيةً ثابتة.. وهى أن العدل لابد أن ينتصر في نهاية الأمر.. ويعطى ربك لكل ذى حقٍ حقه.. ويتجاور الأسود مع الأبيض في قطار الإنسانية.. والحياة.. ولا يصبح لأحدٍ منهما فضلاً على الآخر إلا بالتقوى.. والعمل كما قال رسولنا الكريم في حديثه الشهير[1]

وفي هذه النسخة من الترجمة العربية لـ (الجذور) حاولنا قدر الإمكان أن نكون أكثر اختلافاً في تناولنا إياها عن باقي الترجمات الموجودة للرواية في المكتبة العربية.. وذلك وفقاً للآتى:

(1) نص الحديث الشريف: (لا فضل لعربيٍ على عجميٍ إلا بالتقوى والعمل الصالح)

ابتعدنا تماماً عن الحشو الزائد للنص المترجم والذى وَصَمَ تلك الترجمات بالبطئ الشديد في إيقاع الأحداث بها.. مما كان يصيب القارئ بالملل..

- حاولنا أن نُعَرِف القارئ بإشارت هامشية سريعة لمعظم الشخصيات التاريخية التى ورد ذكرها في هذا العمل..
- قفزنا زمنياً ـ عن قصد ـ لنتخطى بعض الفترات التاريخية التى تعرض لها مؤلف العمل وكان المقصود منها التأريخ لعائلته أكثر من الاسترسال الروائي ورؤيتنا لذلك أنه تأريخ شخصي وعائلي خاص لا يهم القارئ العادي ـ فضلاً عن القارئ العربي ـ في كثيرٍ من الأمور .
- وفي النهاية خرجنا بهذه النسخة عن إطار التسلسل الزمنى للأحداث لنبدأها من حيث أنهاها مؤلفها على طريقة (الفلاش باك) من حيث بدأ بحثه الأول عن جذور عائلته وذلك ليس من باب الاختلاف فحسب.. وإنما محتفظين بحقنا في رؤية خاصة لروح النص وهو الحق الذى تعطيه لنا أُسس الترجمة من لغةٍ لأخرى وفقاً لأدبيات اللغة المنقول عنها.. والإطار الأكثر قبولاً لقراءها المستهدفين بالترجمة لهم..
- وكل هذه المعطيات لن تجدها عزيزي القارئ إلا في هذه النسخة التى حاولنا بها أن نكون أكثر تميزاً عن باقي الترجمات الأخرى.

عصام عبد الفتاح

المؤلف



مؤلف العمل هو (إليكس هيلي) الذى وُلِدَ في الولايات المتحدة الأمريكية في الحادى عشر من أغسطس سنة 1921 بمدينة إثاكا بنيويورك.. وعاش سنواته الأولى في مدينة (هينج) بولاية تينيسي.. وفي أماكن أخرى بالجنوب..

حصل (هيلي) عام 1976 على ميدالية (سبنجارن) وهى ميدالية خاصة تمنح في الولايات المتحدة للأشخاص ممن لهم جهود واضحة.. ومتميزة في سبيل الحقوق المدنية.. وعلى إشادة خاصة من مجلس جائزة (بوليتزر[1]) العالمية لما بذله من جهدٍ كبير في صياغة وتوثيق روايته (الجذور).

بدأ حياته بكتابة المقالات.. والقصص القصيرة في بعض الصحف والمجلات الأمريكية حتى أصدر روايته التى أفسحت له طريق الشهرة بشكل لم يكن هو نفسه يحلم به.. أو يتوقعه.. مما أهله ليحتل مكانة متميزة في مسيرة الأدب الأمريكي والعالمي ككل.. ليصبح واحداً من أشهر الكتاب الأمريكيين على الإطلاق..

(1) جائزة بوليتزر Pulitzer Prize هي مجموعة من الجوائز والمنح تقدمها ســـــــنويا جامعة كولومبيا بنيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية في مجالات الخدمة العامة والصـــحافة والآداب والموســيقى. تحظى هذه الجوائز، التي مولت في الأسـاس بمنحة من رائد الصحافة الأمريكي جوزيف بوليتزر بتقدير كبير، وتمنح في شهر مايو من كل عام منذ عام 1917. وتمنح جامعة كولومبيا الجوائز بتوصـــــية من هيئة جوائز بوليتزر، المكونة من محكمين تعينهم الجامعة نفسها.

خدم في سلاح حرس السواحل عشرين عاماً في الفترة بين عامي 1939 و1959 ثم استقال وانضم للزعيم الزنجي المسلم (مالكوم إكس).. وأثناء ذلك أشهر إسلامه كما قال عودةً لدين جدوده.. وتوفيَّ في العاشر من فبراير سنة 1992.

أجواء الرواية

تحكى الرواية قصة عائلة أمريكية سوداء.. (هي أسرة مؤلف العمل) الذى يتابع تاريخياً نضال عائلته.. ورحلتهم من العبودية إلى الحرية.. واستطاع أن يمزج باقتدار في روايته بين الحقائق والخيال..

أقسام الرواية

ويمكننا أن نقسم هذه الرواية إلى أربعة أقسام:

- القسم الأول يتناول الحياة القبلية في أفريقيا منتصف القرن الثامن عشر.. وتحديداً فيما يُعرف حالياً بـ (جمهورية جامبيا) وهي دولة أفريقيا استمدت اسمها من اسم نهر جامبيا والذي يخترق البلاد ويعبرها من الشرق للغرب.. تعرضت للاستعمار البريطاني.. ونالت استقلالها عن المملكة المتحدة 1965 ويعتمد اقتصادها على الزراعة والصيد والسياحة.. وتقع دولة جامبيا في أقصى غرب القارة الإفريقية تحيط بها السنغال من جميع الجهات عدا الغرب..
- حيث تطل سواحلها الغربية على المحيط الأطلنطي.. مساحتها 11.300 كم2 وعاصمتها (بانجول) والإنجليزية هي اللغة الرسمية للدولة حالياً (90%)من أهلها يدينون بالإسلام.. (8%) بالمسيحية.. (2%) معتقدات محلية..

وفي هذا القسم يسرد المؤلف تاريخ أسرته بدءًا من جذورها في أفريقيا.. مع عرض لبعض ملامح الحضارة الإسلامية في ذلك البلد الأفريقي.. وما كان يجرى للشباب من معسكرات شبابية للقرويين عند قرب البلوغ تدريبية وثقافية.. وأشياء كثيرة كانت هي طبيعة الحياة في القرن الثامن عشر..

- القسم الثاني: وفيه يتناول المؤلف سيرة حياة جده (كونتا كينتى) من لحظة اختطافه ورحلته إلى الولايات المتحدة.. وكان عمره لا يتجاوز وقتها السابعة عشرة.. وما مر به من مقاومة شديدة للعبودية.. عرضته للأذى الشديد.. وبتر أصابع إحدى قدميه حين حاول الهرب أكثر من مرة.. ثم استعباده.. وتكوينه أسرته.. إلى لحظة بيع ابنته (كيزي) وتلاشى أخباره فيما بعد.. والإشارة إلى وفاته.

- القسم الثالث: وهو ينقسم إلى عدة محاور: أولها سيرة (كيزي) ابنة كونتا كينتي بعد بيعها.. والثاني: أصداء الحرب الأهلية.. والثالث : ثورة العبيد.. وإلغاء الرِق.. وهو ما اخترنا أن نتوقف عنده زمنياً لإنهاء أحداث الرواية.

- القسم الرابع: وهو صغير نسبياً.. ومتعلق برحلة مؤلف العمل في تتبعه لجذور عائلته.. وبحثه بين كل الوثائق المحفوظة في مكاتب الحكومة الاتحادية.. وتنقيبه في سجلات السفن البريطانية حتى توصل إلى السفينة التي حملت (جده) الأفريقي المختطف من نهر جامبيا إلى ميناء أنا بوليس يوم 29 سبتمبر 1776م.. وتحديده لاسم السفينة (لورد لونجبيه).. وذكر وصولها في جريدة (ميريلاند جازيت) في عدد أكتوبر 1776م.. وكيف ظل على هذا الحال اثنتي عشرة سنة كاملة.. يتابع البحث بين الوثائق والتاريخ.. وسفره إلى بلدة جده المخطوف مستعيناً بإصراره.. على التوصل إلى عائلته المسلمة التي حكت جدات جداته عما تناقلوه عن جداتهم من واقعة خطف جده الشاب..

- وأخيراً توصل الكاتب إلى تعاطف ملايين من الأمريكين مع الحقوق المدنية للجميع.. وها نحن نرى المدى الذي وصلوا إليه من حقوق أدت إلى وصول أحدهم (أوباما) مسلماً مثل أبيه وهو إلى سدنة الحكم هناك.. وهو ما بدأنا به سردنا للرواية على طريقة الفلاش باك.

شخوص وأماكن الرواية:

- (كونتاكنتى): الحفيد وهو بطل الرواية.. وأحد جدود هيلي كان ابناً لأحد رجالات قريته المنحدرين من صلب رجل كان له سلطته وصولجانه دينياً (كمسلم) في قبيلته ووطنه أمير قبيلة مسلمة من جامبيا.. ثم تعرض للخطف عام 1767م على يد تجار الرقيق ليُجلب إلى أمريكا.. ويباعُ عبدًا.. ويعيش في كنف عائلة من الأمريكيين البيض المزارعين.. واستمر يناضل من أجل نيل حريته بشتى الوسائل..
- كايرابا (كونتاكنتى): هو الجد صاحب السلطة والصولجان.. وهو وليٌ صالح.. مسلم..
- أمورو: والد كونتا كينتي.
- بينتا: والدة كونتا كينتي.
- العجوز (نيوبوتو) الجدة بيسا: جدات كونتا كينتى في القرية
- كيزى: ابنة كونتا كينتي.. وجدة إليكس هيلي من ناحية الأب.
- السيد (ويليام وولر): سيد كونتا كينتى الذى اشتراه وعالجه من بتر أصابع قدمه.
- فيدلر: عازف الكمان وأقرب أصدقاء كونتاكينتى إليه.
- بيل: زوجة كونتا كينتى.
- الآنسة (آن): ابنة شقيق السيد (وولر) وصديقة طفولة كيزي.

- الطوبوب: سيرد ذكره في الرواية باعتباره مسمى كان يُطلق على الأشخاص بيض الوجوه..

أشخاص آخرون:

زملاء الطفولة والصِبا في القرية.. زملاء رحلة الاختطاف.. زملاء العمل في المزرعة.. صائدي العبيد.. شريف السجن.. شخصيات تاريخية قمنا بالتعريف لها.



الجذور

من العبودية.. إلى الحرية!

الرواية

وصلت إلى أرض الجدود..

من هنا ذات يومٍ انطلقت السفينة بجدى الأول (كونتا كينتي).. مخطوفاً.. موثوقاً ..

ومن طائرة لأخرى..

ومن قطارٍ لآخر..

وعلى أسطح الزوارق.. والمراكب.. وبين آلاف الأوراق..

قضيت أياماً.. وشهوراً.. وها أنا الآن على حافة البداية التى شهدت لحظة نهاية جدى في وطنه ها هنا.. في طريقي إلى قرية (جوفور) مسقط رأس جدى لأسمع لكبار السن من أهل القرية.. خاصةً ذلك الرجل الذى يقال له (الراوى) اكتشفت أنني إذا كنت أنوي مقابلة ذلك الراوي فإن على القيام بشيء لم أحلم به إطلاقاً أن أفعله وهو تنظيم قافلة سفر صغيرة.. واستغرق الأمر مني ثلاثة أيام من التفاوض واستأجرت لنشاً لصعود النهر.. وكذلك شاحنة.. وسيارة لاندروفر لنقل التموين.. واستأجرت أخيراً مجموعة من الرجال عددها أربعة عشر بما فيهم ثلاثة مترجمين وأربعة موسيقيين قيل لي أن الرواة القدامي خلف البلاد لن يتكلموا دون خلفية موسيقية.

وأخيراً كانت أمامنا جزيرة جيمس حيث كان موقع الحامية قائمٌ هنا لقرنين من الزمان.. عندما قامت الحرب بين إنجلترا وفرنسا باعتبارها نقطة الارتكاز لتجارة العبيد.. سألتُ من حولى: هل نستطيع أن نرسو هنا بعض الوقت؟

رسونا.. وأخذت اتسكع وسط أطلال الحامية المنهارة.. كان أمامها يقفُ مدفعٌ كالشبح.. وأخذت تصورت في ذهني أنواع الوحشية التي حدثت هنا.. عدنا إلى اللنش.. ثم استمررنا في طريقنا.. وعند وصولنا إلى قرية صغيرة تسمى (البريد) رسونا على الشاطئ وأصبحت وجهتنا الآن على الأقدام هي قرية (جوفور) الصغيرة حيث قيل للناس أن الراوي يعيش هناك.

هناك تعبير قمة الخبرة لا يمكن عاطفياً أن يسمو عليه أي شيء في حياتك.. وكان لدى هذا الشعور في هذا اليوم في ذلك البلد الأسود في غرب أفريقيا السوداء.

وعندما وصلنا إلى مدى رؤية (جوفور) أعطى الأطفال الذين كانوا يلعبون بالخارج التحذير.. وأهل علينا الناس في مجموعات.. أنها قرية تعداد سكانها سبعون فرداً فقط.. ومثل معظم قرى البلاد السوداء كانت لا تزال مغطاةً بالحطب.. ومن بين الذين احتشدوا كان رجل ضئيل يرتدي ثوباً أبيض حائل اللون وقبعة صغيرة بلا حواف على وجه أسود معقوف الملامح ويشع حوله مناخ بأنه شخص له أهمية إلى أن عرفت أنه الرجل الذي جئت لأسمعه وأراه.

عندما ترك المترجمون الثلاثة فرقتنا ليتحولوا نحوه تجمع السبعون قروياً الآخرون حولي عن قرب على شكل حدوة الحصان.. ولو مددت ذراعي أو أصابعي للمست أقربهم إليّ من الجانبين.. بدأ إحساس غريزي جياش ومضطرب يرتفع في أعماق نفسي فزعت وتساءلت ماذا يمكن أن يكون الأمر بحق السماء.. ثم بعد فترة قصيرة بدا وكأن قوة عارمة من الإدراك تسارعت داخلي.. لعدة مرات في حياتي واجهت جماهيراً من الناس.. ولكن لم يحدث أن كان كل الجمهور أسود مثل الآن.. اهتززتُ عاطفياً.. وخفضت عيني لأسفل كما نميل دائماً أن نفعل عندما نشرع بعدم الثقة والأمان.. ووقعت نظراتي على بشرتي البنية.. وهذه المرة كانت أكثر سرعة عن ذي قبل.. وأشد قسوة.. صدمتني عاطفة هوجاء.. وأحسست أكثر بأنني خلاسي (أى وُلِدتُ لأبوين أبيض وأسود) من أي وقت مضى لقد أحسست بطريقة ما أنني غير نقي بين الأنقياء.. وكان شعوراً رهيباً بالعار.. ووقتها فجأة ترك الرجل العجوز المترجم.. وفي الحال تركني الناس أيضاً ليحتشدوا حوله.

جاء أحد المترجمين بسرعة وهمس في أذني :

إنهم يحدقون فيك كثيراً لأنهم لم يسبق لهم أن رأوا أمريكياً أسود.

وعندما فهمت المعنى اعتقد أن ذلك صدمني أكثر مما حدث لي قبلها.. أنهم لم يكونوا ينظرون لي كفرد وإنما أمثل في عيونهم رمزاً لخمسة ملايين شخص مثلي نحن الناس السود الذين لم يشاهدوا أو يعيشوا وراء المحيط.

تجمع الناس حول الرجل العجوز وكلهم ينظرون نحوى من آنٍ لآخر.. وهم يتحدثون بلغة الـ(مانديكا).. وبعد فترة استدار الرجل العجوز.. وسار بسرعة بين الناس.. وتجاوز المترجمين الثلاثة واتجه مباشرةً نحوي كانت عيناه تخترقني.. وبدا وكأنني أفهم لغة الـ(مانديكا) وعبر عما قرروا جميعاً أنه ما يشعرون به بشأن هؤلاء الملايين الذين لم يروهم ويعيشون في أماكن كانت وجهات سفن العبيد وجاء المترجمون يقولون :

لقد أخبرنا أسلافنا القدامي أن هناك العديد منا في ذلك المكان الذي كان المنفي وهذا المكان اسمه أمريكا وأماكن أخرى.

جلس الرجل العجوز يواجهني بينما تجمع الناس بسرعة خلفه.. ثم بدأ يحكى لى تاريخ السلف لعشيرة (كينتي) كما مر شفاهة عبر القرون منذ الجدود والأوائل.. لم يكن مجرد حديث عادي وإنما كان أكثر من ذلك وكأنه لفافة مطوية أخذ يقرأ فيها.. وكان الجمهور الصامت يتفاعل معها وكأنها مناسبة رسمية.. وكان الراوي يتكلم وهو منحن من وسطه للأمام.. وجسده متصلب.. وعروق رقبته بارزة.. وكأن كلماته أشياءاً ملموسة.. وبعد فترات من الصمت بدا وكأنه مخدر.. كان يميل للخلف.. ثم يُنصتُ لترجمة المترجم.. ثم يندفع من رأس الراوي تسلسل معقد من الأحداث التى لا تُصدق لعشيرة (كينتي) حدثت عبر عدة أجيال.. من تزوج من.. ومن كان لديه أطفال.. ثم من تزوج من هؤلاء الأطفال.. ثم من هم مواليدهم.. كان الأمر لا يُصدق.. لقد ذهلت ليس من فيض التفاصيل فحسب وإنما أيضاً من طريقة سرد الرجل للأحداث.

كان يذكر كل مولود أو زوجة وعدد مواليدهم الذي لا يُعد ولا يُحصى.. وحتى يعطي تاريخاً للأشياء كان يربط الرواية بالأحداث.. فمثلاً يقول: حدث هذا الأمر في سنة الفيضان.. ولكي يحدد التاريخ عليك أن تكتشف أنت بنفسك متى حدث هذا الفيضان.. وقال: أن عشيرة (كينتي) كانوا حدادين الذين قهروا النار والنساء معظمهن صانعات فخار ونساجات.

وفي الوقت المناسب أحد فروع العشيرة انتقل إلى بلد يسمى موريتانيا ومن (موريتانيا) كان واحد اسمه كيرابا (كونتا كينتي) وهو رجل مقدس مبارك حسن العقيدة الإسلامية قد رحل إلى بلد يسمى (جامبيا) وذب أولاً إلى قرة تسمى بـ (كالي ندبح) وظل هناك فترة ثم ذهب إلى قرية تسمى (جيفارونج) ومنها إلى قرية جوفور.

وفي (جوفور) اتخذ كايرابا زوجته الأولى وهي عذراء من الـ(مانديكا) اسمها سيرنج ومنها أنجب ولدين جانيه وسولوم ثم اتخذ زوجة ثانية واسمها (بيسا) وأنجب منها ولداً اسمه (أمورو) وقد كبر هؤلاء الأبناء الثلاثة في (جوفور) إلى أن بلغا سن النضوج.. بعدها ذهب الاثنان الأكبر سناً بعيداً حيث أسسا قرية سموها (كينتي كوندا) جانيه والابن الأصغر (أمورو) بقى في (جوفور) إلى أن بلغ سن الثلاثين ثم تزوج من عذراء (مانديكا) فيه اسمها (بينتا كيبا) ومن (بينتا كيبا) حوالي 1750 و 1760 أنجب (أمورو) أربعة أولاد أسماؤهم حسب ترتيب مولدهم (كونتا) و(لامين) وسوادو ومادي.

وتحدث الراوي العجوز حوالي ساعتين.. وربما لخمسين مرة كان سرده يتضمن بعض التفاصيل حول شخص ما ذكر اسمه.. والآن بعد أن سمى هؤلاء الأربعة مباشرة ألحق بها بعض التفاصيل وكان المترجم يترجم لى كل ما يقول.

فتقريباً خلال الزمن الذي جاء فيه جنود الملك كان أكبر هؤلاء الأولاد (كونتا) قد ذهب خارج قريته ليقطع الخشب.. ولم يُشاهد بعدها مرةً ثانيةً ثم استمر الراوي في سرده.

جلست وكأنني تمثال من الحجر.. وبدا وكأن دمي قد تجمد.. فذلك الرجل الذي قضي كل حياته داخل أعماق البلاد في قرية أفريقية سوداء لم يكن لديه أي وسيلةٍ على الإطلاق ليعرف أنه يردد الآن صدى ما سبق أن سمعته طوال سنوات صباي .

استطعت أن أخرج من حقيبتي الرياضية دفتر مذكراتي والتي كانت صفحاته الأولى تحوي قصة جدتي التي أريتها للمترجمين.. وبعد قراءة سريعة بدأت تظهر عليهم علامات الذهول.. وتكلم أحدهم بسرعة وهو يريها للراوي العجوز الذي أصبح مُثاراً.. ونهض وهو يصيح في الناس.. ويشير إلى دفتر مذكراتي بين يدي المترجم.. فأصاب الذهول أيضاً الجميع.

لا أذكر أنني سمعت أحداً يعطي أمراً وإنما أتذكر أنني أدركت أن هؤلاء الناس السبعين الغرباء كونوا حلقة واسعة بشرية حولي يتحركون عكس عقارب الساعة وهم يغنون في رقة وصوت مرتفع.. وأجسامهم ملتصقة.. ويرفعون رُكبهم عالياً.. ثم يضربون الأرض الترابية الحمراء مثيرين الغبار.

والمرأة التي خرجت من الدائرة البشرية المتحركة كانت واحدة من حوالي دستة كان أطفالهن مربوطين على ظهورهن بحبل.. وكان وجه السيدة أسود فاحماً وقد التوى بشدة وهي قادمة تهاجمني وقدماها العاريتان تدفعان الأرض.. ونزعت ابنها من خلف ظهرها وحررته.. ثم دفعته نحوي بخشونة وهي تشير.

خذه.

وعندما فعلت ذلك وألصقت الطفل بي.. ثم انتزعت ابنها بعيداً عني وكررت ذلك امرأة أخرى إلى أن احتضنت دستة أطفال آخرين.. ولم أكن أعلم معنى ذلك إلا بعدها بسنة عندما عرفت من أستاذ بجامعة هارفارد الدكتور (جيروم برومر) الباحث في مثل تلك الأمور بأننى لم أكن أعلم أنى أمارس أقدم الطقوس الإنسانية.. وهو ما يسمى بوضع الأيادي.. وإنهم بطريقتهم تلك كانوا يقولون لي من خلال هذا اللحم الذي هو نحن.. أننا أنت وأنت نحن !

يما بعد أخذني رجال (جوفور) إلى مسجدهم المبنى من الخيزران والطين.. وقاموا بالصلاة حولي باللغة العربية.. وأتذكر أنني فكرت وأنا راكع على ركبتي بعد أن اكتشفت من أين جئت.. لم أفهم كلمة مما يقولون ولكن دعوات صلاتهم تُرجِمَتْ لى كما يلي :

الحمد لله بعودة واحد ضاع منا طويلاً.. وعاد بفضل الله..

ولما كان قد أتينا عن طريق النهر أردت أن أعود هذه المرة عن طريق البر.. وبينما أنا جالس بجوار السائق الشاب الغريب خطر ببالي إدراك غريب.. وهو لو أن أي أمريكي أسود استطاع أن يكون محظوظاً مثلي لأنني عرفت بعض المفاتيح السلفية القليلة.. ويستطيع أن يعرف من هو جده الأفريقي القديم لأمه أو لأبيه من أسلافه القدامى.. وأين كان يعيشون عندما أُسِروا.. ثم هذه المفاتيح القليلة ستمكن هذا الأمريكي الأسود من تحديد بعض الرواة الحكماء الذي قد يكشف سردهم للتاريخ عن عشيرة أسلاف الأمريكيين السود.. وربما أيضاً قريته بالتحديد.

وفي عقلي بدا لي الأمر وكأنه معروض على شاشة سوداء.. وأنا أرى العديد ممن استُعبِدوا مثلما حدث مع جدي الأقدم (كونتا) عندما كانت تجيء الصرخات تشقُ ظلام الليل من تلك القرى التي كانت تُهاجم.. وغالباً ما تشتعلُ بها النيران.. ومن يبقى منهم على قيد الحياة يُساقُون أسرى تُربطُ رقابهم في رقاب بعض بحبالٍ على هيئة قوافل كان يبلغُ أطوالها أحياناً أكثر من ميلٍ كامل.. وتصورت عدد الموتى.. أو الذين تركوا ليموتوا لأنهم كانوا أضعف من أن يستمروا في المسيرة المعذبة نحو الساحل.. وهؤلاء الذين ينجحون في الوصول إلى الساحل كانت تُحلقُ شعورهم.. تُدهنُ أجسامهم بالشحم.. ويُختمون بعلاماتٍ بالحديد المحمي.. وتخيلتهم وهم يُضربون بالسياط.. ويُسحبون نحو القوارب الطويلة.. وسمعتُ نوبات صراخهم وهم يغرسون أنيابهم في أرض الشاطئ.. ويعضون على حفناتٍ من الرمال في مجهودات يائسة.. لكي يمسكوا لآخر مرة بأرض أفريقيا.. التي كانت وطنهم.. وتصورتهم وهم يُدفعون.. ويُضربون.. ويُلقي بهم إلى داخل سفن العبيد في حفراتٍ كريهة الرائحة.. مُكبلون بالسلاسل.. ومعبأون محشورين لدرجة أنهم كانوا يضطرون للاستلقاء على جنوبهم مثل الملاعق في درج المطبخ.

وعاد ذهني للخلف بكل تلك الصور عندما اقتربنا من قرية أكبر بكثير من قرية (جوفور) وحدقت أمامي وأدركت تلك الكلمة عما حدث هناك في (جوفور) والتي تركتها بانطباع جيد هناك.. أبطأ السائق من سرعته واستطعت أن أشاهد الناس محتشدين على الطريق أمامي.كانوا يلوحون وسط فوضى الصياح بشيء ما غير مفهوم وقف في السيارة اللاندروفر أراد التلويح وقد بدأ أنهم يجاهدون لكي يفتحوا لنا ممراً للسيارة.

وأعتقد أننا تحركنا ثلث الطريق عبر القرية عندما فجأة سجل عقلي ما كانوا ينادون به.. كان الرجال المجعدون ذوو الثبات من العجائز وكذلك الشباب الأصغر منهم والنساء والأمهات والأطفال العرايا كلهم كانوا يلوحون لي وتعبيراتهم فرحة ومشرقة وكلهم يصيحون معاً ميستر كينتي ودعوني أقول شيئاً ! أنا رجل.. صدمني نشيج في مكان ما حول كاحلي وأخذ يظهر إلى أعلى دفعني إلى أن أرفع كفي إلى وجهي كنت أصرخ كما لم أفعل منذ أن كنت طفلاً رضيعاً ميستر كينتي ! أحسست أنني أبكي بسبب كل قسوة ووحشية غير معقولة لتاريخ الرجال زملائي والذي بدأ أنه أكبر صدع في الإنسانية.

طرت إلى الوطن من داكار وقررت أن أكتب كتاباً.. أن أسلافي أنفسهم هم الذين سيصبحون آلياً ملحمة رمزية لكل الأفارقة الطيبين الذين دون استثناء هم بذور أشخاص مثل (كونتا) الذي ولد وتربى في إحدى القرى الأفريقية السوداء.. وهو واحد أسر وكُبِلَّ بالسلاسل داخل واحدة من سفن العبيد التي أبحرت بهم عبر نفس المحيط إلى واحدة من سلسلة من المزارع ومن وقتها كان الكفاح من أجل الحرية.

والحقيقة أني أرى بدءاً من صباي تتابعاً من الوقائع المترابطة التي لو جمعناها في النهاية لاكتشفنا أنها السبب في وجود هذا الكتاب.. لقد ضخمت جدتي وبقية العائلة هذه القصة في داخلي.. وبضربةٍ من غير رام علمتً نفسي كيف أكتب وذلك عندما كنت أعمل طاهياً فوق سفن حرس السواحل الأمريكية.. ولأنني انتهيت إلى حب البحر فإن كتاباتي الأولى

كانت حول مغامرات البحر الدرامية والمستقاة من سجلات البحرية التي طالعتُ أوراقها في أرشيف حرس سواحل الولايات المتحدة.. ولم يكن لي أن أنال أفضل من ذلك الإعداد الذي أدى إلى إخراج هذا الكتاب.

فدائماً ما كانت جدتي والسيدات العجائز الآخريات يقلن أن سفينةً ما جلبت الأفارقة إلى مكان ما اسمه (نابلس) وكنت أعلم أنهم كانوا يقصدون (أنابوليس) بولاية (ميريلاند) لذلك أحسست الآن أن على أن أحاول أن أفكر إن كنت أستطيع أن أجد أي سفينة أبحرت إلى (أنابوليس) من نهر (جامبيا) مع حمولتها البشرية المتضمنة الأفارقة.. الذي سيصبر بعد ذلك على أن (كين تاي) هو اسمه بعد أن أعطاه سيده (جون وولر) اسم طوبي.

وقد احتجت إلى أن أحدد الفترة الزمنية التي لابد أن أركز بحثي عن هذه السفينة خلالها.. وفي قرية (جوفور) كان الراوي قد حدد زمن أسر (كونتا كينتي) تقريباً خلال الوقت الذي أتى فيه جنود الملك.

عدت إلى لندن بعد أسبوع من البحث في سجلات حركة مهام وحدات بريطانيا الحربية خلال الستينات من القرن الثامن عشر.. وأخيراً وجدت أن مسمى (جنود الملك) لابد وأنه يشير إلى الوحدة التي تسمى قوات (الكولونيل أدهار) وقد أرسلت الوحدة لحراسة قلعة جيش للعبيد على نهر (جامبيا) كانت تديرها بريطانيا.. لقد كان الراوي صحيحاً جداً لدرجة أنني أحسست بالحرج لأنني كنت أبحث من ورائه لأتأكد.

ذهبت إلى شركة لويدز في لندن.. وفي المكتب كان هناك مدير تنفيذي اسمه السيد " لاندرز " وقلت له بالضبط ما جئت من أجله.. نهض من وراء مكتبه وقال :

- أيها الشاب.. أن (لويدز لندن) ستفعل كل ما في استطاعتها لمساعدتك.

وكانت تلك هدية من السماء.. لأنه من خلال أبواب (لويدز) التي بدأت تُفتحُ لي للبحث خلال عدد لا يحصى من سجلات البحرية الإنجليزية القديمة.. لا أستطيع أن أتذكر أنني قمتُ بأية مهمة أخرى أكثر إرهاقاً قبل هذه التجربة.. وخلال الأسابيع الستة الأولى بدأ الأمرُ وكأنه أنه لا جدوى من وراءه..

ولا نهاية له من البحث في محاولة لتحديد سفينة عبيد بعينها.. على رحلة محددة بالذات.. من سجلٍ.. إلى سجل.. ومن بطاقةٍ.. فوق بطاقة خاصة بآلافٍ من سفن العبيد التي كانت تقوم بالرحلات الثلاثية بين إنجلترا وأفريقيا والولايات المتحدة.

وكان مع إحباطي المتصاعد ـ يتزايد غضبي الجامح بداخلي كلما اكتشفت مدى ضخامة تجارة العبيد المسجلة في ذلك الوقت والتي كان يعتبرها المشتركون فيها مثلها مثل أي تجارةٍ.. أو صناعةٍ أخرى.. تماماً مثل بيع وشراء وشحن الماشية.. وبدا لى أن عدة سجلات كأنها لم تفتح قط منذ تخزينها لأول مرة.. وكان من الواضح أن أحداً لم يشعر بالحاجة إلى الرجوع إليها.

لم أعثر على سفينة واحدة من (جامبيا) إلى (أنابوليس)

وفي الأسبوع السابع.. وبعد ظهر أحد الأيام حوالي الساعة الثانية والنصف كنت أدرس بطاقة من سجلات العبيد تحمل رقم (1023) سجلت مرات دخول وخروج بعض السفن لنهر (جامبيا) التى بلغت حوالي ثلاثين مرة خلال عامي 1766 و 1767 وفي أسفل القائمة.. وصلت عيناي إلى السفينة رقم 18 وبطريقة آلية دققت عبر بياناتها المختلفة.

في 5 يوليو 1767 وهو العام الذي جاء فيه جنود الملك أبحرت سفينة أسمها (لورد ليجونير) وقبطانها (توم اس ديفيز) من نهر (جامبيا) وكانت وجهتها (أنابوليس).. تذكرت أنني كتبت المعلومة من قبل.. أوقفت سيارة أجرة.. طلبت من السائق أن يذهب بي مباشرةً إلى مطار (هيثرو).. لم أنم خلال تلك الليلة وأنا أعبر فوق المحيط الأطلنطي.. كنت أرى في مخيلتي ذلك الكتاب في مكتبة (الكونجرس) بواشنطون.. والذي لابد أن أضع عليه يدي ثانية كان له غلاف بني فاتح وحروف الغلاف بنية داكنة.

وفي واشنطون أخذت سيارة أجرة إلى مكتبة (الكونجرس) وهناك طلبت الكتاب.. وأوشكت أن أختطفه من الشاب الذي أحضره لي.. ثم أخذت أتفحصه.. وفيه وجدت تأكيد ما كنت أبحث عنه.. أنها سفينة (لورد ليجونير) وإجراءاتها مع موظفي الجمارك يوم 29 سبتمبر 1767.

استأجرت سيارة وأسرعت إلى (أنابوليس) ثم ذهبت إلى قاعة سجلات (ميريلاند) وطلبت من أخصائية الأرشيف السيدة (فيبي جاكوبسين) نسخاً من أي جريدة محلية صدرت في الأسبوع الأول من أكتوبر 1767 وفي الحال أحضرت لي اسطوانة ميكروفيلم عن مجلة (ميريلاند جازيت) وأمام ماكينة العرض وفي نصف نسخة أول أكتوبر شاهدت الإعلان عن السفينة (لورد ليجونير) بقيادة الكابتن (ديفير) من نهر (جامبيا) في أفريقيا للبيع للقادرين في (أنابوليس) نقداً أو مقابل أي عملات قابلة للتحويل.. ويوم الأربعاء السابع من أكتوبر القادم حمولة من العبيد الأصحاء المنتقين.. وستحمل السفينة التبغ إلى لندن يوم السادس بواقع جنيه استرليني للطن.. وكان الإعلان موقعاً من كلٍ من : (جون ريدوت وجينفر دانيا سان تماس).

ويوم 29 سبتمبر 1967 وجدت أنه من الضروري ألا ادع أي شيء في العالم يمنعني من الوقوف على رصيف (أنابوليس).. لقد مرت مائتا عام منذ اليوم الذي رست فيه (لورد ليجونير) وحتى اليوم.. أخذت أحدث ماء البحر.. هنا أُحضِرَ جدود جدودي.. ووجدت نفسي أبكي بشدة.

والمستند عام 1766 – 1767 الذي جمع من قلعة جيمس على نهر (جامبيا) اشتمل على أن سفينة (لورد ليجونير) أبحرت وعليها 140 عبداً في قاعها.. ياترى كم عدد من تبقى عاش في نهاية الرحلة؟

والآن في بعثة ثانية إلى قاعة سجلات (ميريلاند) وجدت سجلاً يتضمن حمولة السفينة عند وصولها إلى (أنابوليس) كان السجلُ مكتوباً بحروف قديمة ويحتوى على التالى:

- 3265 سن فيل وكانت تسمى (عاجًا) وقتها..
- 3700 رطل من شمع النحل ..
- 800 رطل من القطن الخام..
- 132 أوقية من ذهب (جامبيا)..
- 98 زنجياً.. وكانت قد فقدت 42 زنجياً آخر منهم أثناء الطريق.

أدركت وقتها أن جدتي والعمة (ليز) وابنة العم (جورجيا) كن يروين الحقائق بطريقتهم الخاصة..

ذهبت إلى ريتشموند بـ(فرجينيا) وتطلعت خلال الوثائق الرسمية الميكروفيلمية الخاصة بمقاطعة سبورتسلفانيا بـ(فرجينيا) بعد سبتمبر 1767 عندما رست (لورد ليجونير) ووجدت وثيقة طويلة بتاريخ 5 سبتمبر 1768 فيها نقل (جون وولر) وزوجته إلى (ويليام وولر) الأرض والبضائع والتي تشمل 240 فداناًزراعياً.. ثم في الصفحة الثانية كذلك رجل زنجي واحد اسمه (طوبي يا إلهي) !

وخلال الاثنى عشر عاماً سافرت نصف مليون ميل بحثاً وتنقيباً وتفتيشاً ومراجعةً لاكتشاف المزيد عن الحكايات المتعاقبة الشفهية لأولئك الناس والتى ثبتت أنها ليست فقط صحيحة.. وإنما أيضاً تربط ما بين جانبي المحيط.. وأخيراً استطعت أن انتزع المزيد من الأبحاث بهدف تأليف هذا الكتاب.. وحتى أظفر بمعرفة مرحلة صِبا (كونتاكنتي) استغرق مني الأمر وقتاً طويلاً.. وعندما استطعت التعرف على ذلك جيداً حزنت على أسره.. وعندما بدأت محاولة الكتابة عن عبور سفينة العبيد الخاصة به وهو وغيره من الجامبيين طرت أخيراً إلى أفريقيا.. وبحثت بين خطوط الملاحة لمعرفة الطريق إلى أول سفينة أبحرت من أي ميناء أفريقي مباشرة إلى الولايات المتحدة.. وقد انتهى الأمر إلى معرفة أنها كانت سفينة (نجم أفريقيا) التابعة لخطوط (فاريل).. ركبت السفينة.. وعندما أبحرنا كان كل ما آمل أن أفعله هو أن أجد ما قد يساعدني على كتابة قصة عبور أسلافي.. بعد العشاء.. وفي وقتٍ متأخر من مساء كل يوم كنت أهبط سلالم معدنية متعاقبة إلى مخازن البضاعة المظلمة الباردة للسفينة.

ثم أخلع ملابسي وأبقى فقط بملابسي الداخلية.. واستلقي على ظهري على لوح خشبيٍ عارٍ خشن وعريض.. وأُجبرُ نفسي على البقاء هناك طيلة الليالي التسعة لعبور السفينة.. محاولاً أن أتخيل ما سمعه (كونتا).. وما قد رآه.. وأحسه.. وشمه.. وفوق ذلك ما كان يفكر فيه ؟

وكان عبوري فاخراً دون شك مقارنةً مع العذاب الشيطاني الذي تحمله (كونتا كينتي) ورفاقه وكل هذه الملايين الآخرين في تلك الرحلات التى كانوا يعيشونها مكبلين بالأغلال مرعوبين.. وملقون وسط قاذورات أجسامهم طوال رحلة كانت تمتد من ثمانين إلى تسعين يوماً.. وفي نهايتها كان ينتظرهم أهوال جسدية ونفسية لا توصف..

وعلى أية حال أخيراً كتبت عن عبور المحيط من منظور الحمولة البشرية.

وأخيراً نسجت كل أجيالنا السبعة في هذا الكتاب الذي بين أيديكم.. وخلال سنوات الكتابة تحدثت أيضاً أمام العديد من المستمعين والمشاهدين عن كيف أصبحت الـ(جذور)هكذا؟

وطبيعي من حين لآخر قد يسأل البعض : ما هو حجم الحقيقة في الـ(جذور) وكم منها خيالاً ؟ وهنا أوضح أن كل إفادة مخطوطة داخل الـ(جذور) عن عائلاتي الأمريكية أو الأفريقية مستمداً من التاريخ الشفهي المحفوظ بعناية.. والذي استطعت أن أعزز الكثير منه تقليدياً بالمستندات.. بالإضافة إلى آلاف التفاصيل النصية عن أنماط الحياة الطبيعية التى عاشوها تاريخياً.. وحضارياً.. وما أعطي الـ(جذور) شكلاً وكياناً متكاملاً إنما جاء من سنوات من الأبحاث المكثفة في خمسين مكتبة مختلفة.. وغربية.. وأرشيفات.. ومصادر موثوق بها في قارات ثلاث.

وبالطبع لم أكن موجودًا هناك عندما حدثت معظم أحداث تلك القصة.. فإنه إلى حدٍ ما معظم الحوار ومعظم الأحداث هي بالضرورة مزيج من التحديث لما أعرف أنه قد حدث بالفعل.. وبين ما قادت إليه أبحاثي من شعور بصدق وواقعية تلك الأمور.

وأعتقد الآن أنه ليس جدتي وابنة العم (جورجيا) وتلك السيدات العجائز الآخريات هناك بالسماء يراقبنني فحسب.. وإنما أيضاً كل هؤلاء الآخرين (كونتا) و(بيل) و(كيزي) و(جورج الدجاجة) و(ماتيلدا) و(توم) و(إيرين) و(الحر ديل بالمر) و(برتا) و(أمي) وكذلك الآن آخر من لحق بهم وهو (أبي)

قد كان أبي في الثالثة والثمانين عندما مات.. وجلسنا نحن أولاده نناقش.. وعبر بعضناً عن أن والدنا عاش حياةً كاملةً مليئة وثرية في آنٍ واحد بالطريقة التي يمكن اعتبارها حياة ثرية.. والأكثر من ذلك أنه رحل بسرعة دون معاناة.. كلنا وافقنا على أنه ما كان سيريد منا أن نستمر في البكاء.. وقررنا أنه لا يجب علينا أن نبكي فعلاً.

وجدت نفسي مليئاً بالذكريات لدرجة أنه عندما قال (الحانوتي) كلمة (مرحوم) أذهلني وقع ذلك على نفسي فهو يقصد بذلك والدى.. وقبل المراسم الأولى بوقتٍ قصير والتي أقيمت في كنيسة واشنطون التي حفلت بالعائلة والأصدقاء.. أخبرني (جورج) أن القس (بويد) هو والمسئول عن تلك المراسم أنه عند نقطة معينة علينا نحن أبناء المرحوم أن نتشارك في ذكر بعض مآثر أبي مع أصدقاءه.

ثم نهض (جورج) ووقف بجوار التابوت المفتوح.. وقال أنه يتذكر بقوة عندما كان أبي يدرس فإن بيتنا كان يشاركنا فيه شاب.. تحدث والدي مع أبيه القروي ليترك ابنه الشاب يذهب إلى الكلية وألا يحمل هم مشكلة عدم وجود مال.. فقد قال له أبي : أنه سيعيش معنا.

ثم أردف (جورج) قائلاً: أنه كان هناك حوالي ثمانية عشر مندوباً زراعياً عن الجنوب في المدارس العليا نُظار للمدارس أو مدرسين كانوا يسمون أنفسهم بكل فخر أولاد الأستاذ (هايلي).

وقال (جورج) أنه في أواخر عمر أبي تضايق لأننا لم نعقد اجتماعات سنوية عائلية موسعة بالشكل الذي يحبه وطلب (جورج) من جموع المعزين أن ينضموا إلينا في الشعور حقاً بأنا نعقد الآن اجتماعاً من أجل والدنا.

نهضت عندما عاد (جورج) إلى مقعده ثم ذهبت إلى هناك وألقيت نظرة على والدي.. وقلت للناس إنني باعتباري أكبر الأولاد استطيع أن أتذكر أشياء أكثر عن ذلك الرجل المهذب المسجى هنا.. مثلاً أن أول انطباع لي في صباي كان بالحب.. كيف كنت ألاحظ أبي وأمي ينظر كل منهما للآخر من فوق حافة البيانو عندما كانت أمي تعزف بعض الافتتاحيات.. ووالدي واقف بالقرب منها انتظاراً للغناء في كنيستنا.. وذكرى مبكرة أخرى وهي كيف أنني كنت أستطيع الحصول على بنس دائماً

أو حتى عشر بنسات من أبي رغم ما قاله الناس من مدى ضيق الحال وقتها.. وكل ما كان عليَّ أن أفعله هو أن أذهب إليه وهو بمفرده.. وأبدأ في التوسل إليه أن يخبرني مرة أخرى حول كيف قاتلت الفرقة الثانية والتسعين من المشاة في غابة ميزارجون وكان أبي يصيح في وحشية:

كيف يا بني ! لقد كنا متوحشين ؟

ولكن بدأ لي كما قلت للناس أنه بعد مقابلة أبي لأمي في كلية لين كان لقاؤه المحتوم بالنسبة له ولنا جميعاً هو عندما نقل إلى كلية أوت في جرينبورو بشمال (كارولينا) وكان على وشك أن يترك المدرسة والعودة لبيت في الزراعة بالمشاركة وقال:

ولكن يا أولادي بسبب العمل في أربع مهن مختلفة وغريبة لم يعد لدى وقت للدراسة.

ولكن قبل أن يرحل وصلت كلمة بشأن قبوله كحمال مؤقت بعربات البولمان أثناء فصل الصيف.. وفي ليلة رحيله بالقطار ليلاً من بافالو إلى بتسبرج في حوالي الساعة الثانية صباحاً رن جرس استدعائه وأراد رجل أبيض وزوجته كوبا من اللبن الساخن لكل منهما.. أحضر أبي اللبن وقال أنه حاول أن يغادر المكان ولكن الرجل كان ثرثاراً وبدأ مندهشاً أنه طالب جامعي.. وعامل في نفس الوقت.. وسأل العديد من الأسئلة ثم أعطاني بقشيشاً جيداً في بتسبرج.. وبعد توفير كل سنت ممكن..

وعندما عاد والدي إلى الكلية في سبتمبر 1916 وأراه رئيس الكلية خطاباً من الرجل الذي كان على القطار وهو مدير تنفيذي متقاعد لشركة كيرتس واسعة الانتشار واسمه د.. س.. م بويس الذي كتب يسأل عن تكلفة سنة دراسة كاملة وشاملة كل شيء ثم أرسل الشيك بالمبلغ وقال أبي :

لقد كان حوالي خمسمائة دولاراً بما في ذلك مصاريف الدراسة والإقامة بالقسم الداخلي بكلية الزراعة جامعة كورنيل.. وشاملةً أيضاً الوجبات.. والكتب.. وفيما بعد حقق والدي تفوقاً جعله يحصل على منحة دراسية مجانية بالكلية حتى التخرج والتي كانت قد بدأت تمنحها في تلك السنة لأول طلبة الزراعة من الزنوج.

وأخبرت الناس كذلك كيف حصل والدنا على درجة الماجستير من جامعة كورنيل.. ثم درجة الأستاذية.. وكبرنا ـ نحن أطفاله ـ متأثرين ومقدرين في أبينا كل ذلك.. كنا محظوظين بما يكفي.. وها نحن نودع أبانا الآن وجميعاً ناجحون في حياتهم بالقدر المتميز.. أنا كاتب ومؤلف.. و(جورج) مساعد مدير لوكالة الولايات المتحدة للاستعلامات.. ويوليس مهندس في وزارة البحرية بالولايات المتحدة.. ولوزير مدرسة موسيقى.

وقبل أن نقوم لنحمل جثمان والدنا في تابوته .. بدأت أتخيل كيف كانت رحلة العائلة على امتداد قرابة الثلاث قرون.. وأبدأها من أولى محطاتها..

وأحاول أن أتعايش مع ما حدث في ذلك الزمن البعيد..



فلاش باك

في منتصف القرن الثامن عشر..

وتحديداً مع بدايات الربيع من عام 1750..

وفى قرية (جوفور) المكونة في معظمها من أكواخ طينية مستديرة.. التى تقع على مسافة أربعة أيام من ساحل (جامبيا) بغرب أفريقيا.. وُلِدَ طفل ذكر لـ(أمور و) و(بينتا كنتى).. وُلِدَ الطفلُ قوي البنيان مستمداً قوته من جسد أبيه (أمور و) الشاب القوى.. وكان أسود مثله.. وحسب اعتقاد الأسلاف فإن مولد صبى كأول طفل لأبويه.. يصبحُ بشرى بالبركة من الله ليس لأبويه فحسب.. وإنما أيضاً لأسرتيهما.

وقبل ساعة من صياح الدِيَكَةِ كانت أول صرخة لصوت للطفل تصعد لتشق الآذان.. بينما كانت نساء القرية يطحن الحبوب فى الهون.. ويقمن بإعداد الإفطار التقليدى من العصيدة المطهية فى آنية من الطين على نار أقيمت بين ثلاثة أحجار.

ثم بدأ آذان الفجر.. وصوت مؤذن القرية داعياً للصلاة.. أسرع الرجال من فوق أسرتهم المصنوعة من خيزران البامبو.. وفراء الحيوانات المدبوغ إلى عباءاتهم الخشنة القطنية.. قاصدين مسجد القرية.. بعدها عاد الرجال نحو بيوتهم جماعات من أجل تناول طعام الإفطار.. كان (أمور و) يندفع بينهم مبتهجاً يزف للجميع بشارة مولد طفله الأول.. هنأه أسلافه.. وتمنوا له ولمولوده حظاً سعيداً.

كان الرجال بعد عودتهم إلى أكواخهم يتناولون طعام الإفطار المكون في الغالب من قرعة[1] من العصيدة.. بينما تعود النساء إلى مطابخهن فى خلفية مجمع المباني ليطعمن بعد ذلك أطفالهن.. ثم يتناولن إفطارهن فى النهاية.

(1) القرعة : هى الإناء أو الصحن المقعر الصغير الذى يوضع فيه الطعام.

وعندما ينتهى الرجال من الطعام يأخذون عزاقاتهم المصنوعة يدوياً ذات الشفرات القصيرة التى شكلها لهم حداد القرية من المعدن.. وينطلقون نحو عملهم اليومى لإعداد الأرض للفلاحة.. وزراعة الفول السودانى.. والشعير.. والقطن.. وهى المحاصيل الرئيسية في القرية.. وحيث الأرز هو المحصول الرئيسي للنساء فى هذا البلد العشبى الحار المغطى بالسافانا البرية والمسمى (جامبيا).

وحسب عادة قديمة في القرية فإنه خلال الأيام السبعة التالية لن يكون أمام (أمورو) الأب إلا مهمة واحدة يشغل بها نفسه وهى اختيار اسم المولود الجديد.. كان لابد من أن يكون اسماً تاريخياً.. يحمل في معناه الوعود والبشرى لأهل قبيلته (ماندينكاس[1]) والذين اعتقدوا أن الطفل يحمل سبعاً من الصفات التى تميز أى شخص يسمى على اسمه .

وبالنيابة عن نفسه وعن (بينتا) أسرة وخلال اسبوع التفكير زار (أمور و) كل بيت فى (جوفور) ودعا كل عائلة إلى حفل تسمية الطفل الوليد فى اليوم الثامن حسب التقاليد.. واعتباراً من ذلك اليوم فإن الطفل يصبح عضواً فى القبيلة تماماً مثله مثل والده وجده.

وعندما جاء اليوم الثامن تجمع القرويون فى الصباح الباكر أمام كوخ (أمور و) وقد حملت نساء الأسرتين على رؤسهن قرعات جافة تحتوى على لبن رائب وكعك حلو من الأرز المطحون وعسل النحل..

(1) الماندينكا (Mandinka .. ويعرفوا أيضاً باسم ماندين كو (Mandingo) أو مالينكه(Malinke) هم إحدى أكبر الجماعات العِرقية في غرب أفريقيا بتعداديزيد عن العشرة مليون نسمة.. معظمهم مسلمون.. وهم نسل إمبراطورية مالي التي صعد نجمها تحت حكم ملك الماندينكا العظيم سوندياتا كيتا.. وينتمي الماندينكا بدورهم إلى أكبر مجموعة لغوية عرقية في غرب أفريقيا وهي (مانده).. وهى قبائل تنتشر منذ القدم على ضفتي نهر النيجر وما حوله من حزام الصحراء الكبرى شمالاً وشرقًا، إلى ضفاف المحيط الأطلنطي غربًا وجنوبًا.. وهي المنطقة التي تتوزع اليوم بين كل من: غينيا، مالي، ساحل العاج، كامبيا، سيراليون، ليبيريا، السنغال، غانا، بوركينافاسو، والنيجر، ويطلق على لغتهم "أنكو"، وقد أدى اتساع رقعة المناطق التي يسكنونها إلى انقسام لغتهم إلى أربع لهجات رئيسية: ماندنكا، بمبارا، مندنكو، جولا، وتتفرع عن كل لهجة رئيسية بضع لهجات فرعية، ولكنها تدل على مسمى واحد وعلى شعب واحد.. واستطاعت قبائل الماندينجو المسلمة في شمال ساحل العاج من الاستقلال عن مملكة غانا 1050م قبل أن تتمكن دولة المرابطين من احتلال عاصمة المملكة بعد حرب دامت نحو عشرين عامًا.. والقضاء نهائيًا على مملكة غانا عام 1076م على يد أمير المرابطين في الجنوب أبو بكر بن عمر.

ثم حضر (كارامو سيللا) طبال القرية ومعه طبول (التاتانج) الإفريقية الشهيرة.. وكذلك المؤذن.. والعريف (بريما سيزاي) والذى سيصبح يوماً ما معلماً للطفل.. وكذلك شقيقا (أمور و) (جانيه) و(سولوم) اللذان قطعا الرحلة من بعيد لحضور الاحتفال بمولود شقيقهما الجديد.

وبينما كانت (بينتا) تمسك ابنها الجديد فى فخر.. تم قص خصلة صغيرة من شعره كعادة تلك الأيام.. وصاحت كل النساء تعلن عن حسن تكوين الطفل.. بعدها بدأ الساحر يدق الطبول.. ثم تلا المؤذن وهو الإمام صلاة على قرعات اللبن الرايب.. وكعك المونكو.. وبينما كان يتلو صلاته لمس كل ضيف حافة قرعته بيده اليمني علامة على الاحترام للطعام.. ثم استدار المؤذن نحو الطفل وهو يدعو الله أن يمنحه طول العمر.. هو وباقي أطفال عائلته والقرية.. والقبيلة.

ثم سار (أمورو) بجوار زوجته إلى الخارج أمام جموع كل القرية.. ورفع الطفل لأعلى وبينما كان يشاهده الجميع همس ثلاث مرات فى أذن ابنه بالاسم الذى اختاره له.. وكانت هذه هى المرة الأولى التى ينطق فيها الاسم لأنه وحسب تقاليد القرية فإن كل إنسان لابد أن يكون هو الأول فى معرفة من هو.

ثم همس (أمورو) بالاسم فى أذن (بينتا) التى ابتسمت بفخر وسرور.. ثم همس (أمور و) بالاسم ثانيةً للعريف (بريما سيزاي) الذى وقف أمام القرويين صائحاً لقد سُمِيَّ أول طفلٌ لـ (أمورو) وبينتا باسم (كونتا كنتى).

ولما كان كل فرد يعرف أن هذا الاسم لجد الطفل المتوفى والذى كان يدعى كيرابا (كونتا كنتى) الذى جاء من وطنه موريتانيا إلى (جامبيا) حيث أنقذ أهل حوفور من المجاعة.. وتزوج من (الجدة بيسا) وبعدها خدم أهل القرية بشرف حتى وفاته وأصبح بمثابة رجل القرية المقدس.

ثم ذكر العريف أسماء الجدود القدامى (الموري) تانيين العظماء لجد الطفل.. والتى كانت تعود إلى مائتى عام مضوا.. ثم ضرب الساحر على طبلته وصاح الجميع معربين عن إعجابهم.. واحترامهم لمولود السلالة العريقة.. والمرموقة .

وفى الخارج تحت القمر والنجوم كان (أمور و) بمفرده مع ابنه يكمل طقوس التسمية.. وحمل الصغير (كونتا) بين ذراعيه القويين وسار إلى طرف القرية ورفع طفله إلى أعلى ووجهه نحو السماء ثم همس في أذنه برقة شديدة.. ها أيها الطفل الوليد: شاهد الشيء الوحيد الأعظم من نفسك..كان يقصد بذلك إله ورب السما.



حقول الأرز

كان فصل الزراعة قد بدأ في القرية.. وأوشكت بشائر الأمطار على الهطول لتغمر كل الأراضى الزراعية.. كان رجال (جوفور) قد جمعوا أكواماً عاليةً من العُشب الجاف ثم أشعلوا فيها النيران حتى تستطيع الريح الخفيفة أن تغذي الأرض من حريق الرماد المنثور.. وكانت النساء فى حقول الأرز يفرشن الشتلات فى الطين.. وأثناء فترة النقاهة من الحمل والولادة كانت أرض أرز (بينتا) قد رعتها (الجدة بيسا).. ولكن كان على (بينتا) الآن أن تستأنف واجباتها.. وكان (كونتا) الصغير مربوطاً على ظهرها بوشاح من القطن وهى تسير وسط نساء القرية الآخريات بعضهن بما فيهن صديقتها (جانكاى توارى) كلهن يحملن مواليدهن.. ولفائفهن تتراقص فوق رؤوسهن بفعل تمايل الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار على ضفة القناة المعروفة باسم (كامبى بولونجو) وهى واحدة من القنوات الفرعية التى تسير ملتوية حول الجزيرة من نهر (جامبيا) وتسير الزوارق خلالها تحمل كل واحدةٍ منها ما بين خمس إلى ست نساء.. كانت (بينتا) هى التى تجدف.. وفى كل مرة تجدف فيها كانت تشعر بجسد (كونتا) الطرى والدافىء على ظهرها.

قادت القناة المتعرجة النساء المجدفات إلى منحنى ومنه إلى فرع أوسع.. وعندما وصلن إلى مكان يسمح بالرؤية شاهدن أجنحة ترفرف بعظمة لتملأ الهواء.. فبدت مثل سجادة واسعة عامرة بكل ألوان الطيف.. ملأت السماء.. وساد الظلام سطح الماء من عاصفة الطيور وتجعد من رفرفة أجنحتها وغطاه الريش والنساء ما زلن يجدفن.

كانت الأعشاب محيطة بكل حوض أرز يخص كل امرأة على حِدا.. وكانت النساء قد بدأن يشتلن براعم الأرز الذى بلغ ارتفاعه ذراع يدٍ واحدة فوق سطح الماء.

ولما كانت مساحة كل حوض يخص كل امرأة يتقرر كل عام بواسطة مجلس الكبار في القرية.. وذلك بحسب عدد الأفواه التى على كل امرأة أن تطعمها أرزاً.. وبالتالى كان حوض (بينتا) لايزال صغيراً.. لأن أسرتها كانت صغيرة.

وأخذت (بينتا) توازن نفسها فى حرص وهى تخطو من القارب مع طفلها الجديد.. وخطت خطوات قليلة ثم وقفت فى الحال وهى تنظر فى دهشة وسعادة إلى كوخ ضئيل مغطى بالخيزران مقام على ركائز.. وأدركت أنها حين كانت فى فترة الولادة جاء (أمور و) إلى هذا المكان.. وبن الكوخ كمأوى لحماية ابنها وهو كعادة الرجال لم يخبرها عن ذلك مسبقاً.

وبعد أن اعتنت بالطفل ثم وسدته وسط ملجأه بدلت ملابسها.. وارتدت ملابس العمل التى احضرتها فى ربطة حملتها فوق رأسها ثم اتجهت إلى الحقل.

وبدأت العمل.. وانحنت انحناءة صغيرة وأخذت تنزع الأعشاب الجديدة من الـ(جذور)ها والتى لو تركت لحالها لنمت وخنقت عيدان الأرز الصغيرة.. وكانت كلما بكى (كونتا) تقفز للكوخ لتعنى به فى ملجأه ثم تعود للعمل ثانيةً.

وعندما كانت (بينتا) تعود ثانيةً إلى الكوخ فى كل مساء تطهو عشاء زوجها.. كانت تنعم جلد طفلها بتدليك جسده من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بزيت شجرة الشيا.. وبعدها كانت فى الأغلب تحمله سعيدةً به عبر دروب القرية إلى كوخ (الجدة بيسا) والتى كانت تغمر الطفل بالقبلات والأحضان.. وقد تجلسانه وتظلان تضغطان على رأسه الصغير.. وأنفه.. وأذنيه.. وشفتيه حتى يصلحا من شأنه لدرجة تصيب الصغير بالتوتر.

وأحياناً كان (أمور و) يأخذ ابنه الصغير بعيداً عن النساء.. ويحمل الربطة إلى كوخه الخاص وكان من عادة الأزواج في القرية آنذاك أن يسكنوا منفصلين عن زوجاتهم.. وكان الصغير يستكشف الأشياء التى تجذب انتباهه بعينيه وأصابعه مثل تلك التعاويذ

التى كانت عند رأس سرير (أمور و) والتى وضعت هناك لتطرد الأرواح الشريرة.. وكان أى شيء ملون يحير الصغير (كونتا) خاصة حقيبة صيد والده الجلدية التى غطيت تقريباً بالمحارات والودع.. وكل منها كان دليل عن كل حيوان استطاع (أمور و) شخصياً أن يحضره للقرية كغداء.

ابتسم (أمور و) عندما امتدت يد ضئيلة وأمسكت رمحه الداكن اللامع من كثرة الاستخدام.. لقد سمح لـ (كونتا) أن يلمس كل شيء ما عدا سجادة الصلاة التى كانت مقدسة بالنسبة لمالكها.. وعندما يكون (أمور و) بمفرده مع (كونتا) فى كوخه كان يحدثه وهو ينظر إليه كطفلٍ غير مدركٍ لما يقوله أبوه.. الذى كان يتكلم معه عن الأعمال الشجاعة والرقيقة التى قد يقوم ابنه بها عندما يكبر .

وأخيراً يُعادُ (كونتا) إلى كوخ (بينتا) لأجل أن يأخذ رضعته التالية .

وأينما وُجِدَ (كونتا) فإنه كان سعيداً معظم الوقت.. وكان دائماً ما يستغرق فى النوم إما مع أمه وهى تهزه فوق حجرها.. أو وهى تميل عليه فى سريره تغنى له برقة أغنية مثل:

يا طفلى المبتسم..

المسمى على اسم جدٍ نبيل..

صياد عظيم أو محارب ستصبح يوماً ما..

وستعطى والدك الفخر..

ولكن دائماً سأتذكرك هكذا..

ومهما عظم حب (بينتا) لطفلها وزوجها إلا أنها كانت تشعر دائماً بقلق حقيقى لأن الأزواج المسلمين حسب العادة القديمة غالباً ما قد يتزوجون من زوجة ثانيةً أثناء تلك الفترة التى لاتزال فيها زوجاتهم الأوائل يرضعن أطفالهن..

ولم يتخذ (أمور و) بعد زوجةً ثانيةً.. ولكن (بينتا) لاتريده أن يفعل ذلك.. وكانت تحدث نفسها بأنه كلما أسرع الطفل (كونتا) فى السير بمفرده.. كلما كان الأمر أفضل.. لأنه وقتها ستكون قد انتهت فترة الرضاعة .

ولهذا كانت (بينتا) متعجلة أن تساعد (كونتا) بعد ثلاثة عشراً شهراً قمرياً فى محاولة القيام بأولى خطواته.. ولم يمض وقتٌ طويل إلا وكان قادراً على أن يدرج خطوات قصيرة دون أن يحتاج إلى يد المساعدة.. كانت (بينتا) تشعر بالارتياح فى حين كان (أمور و) يشعر بالفخر.. وعندما صاح (كونتا) طالباً رضعته التالية لم تعطه (بينتا) ثديها.. وإنما ضربته على فخده وأعطته جرعةً من لبن البقرة .



حكايات الجدات ..

مرت ثلاث فصول.. ثم جاء بعد ذلك فصلٌ نُدرة الغذاء.. وأوشكت مخازن القرية للحبوب والأطعمة الأخرى الجافة على النفاذ.. وبدأ الرجال يصطادون.. لكنهم عادوا ومعهم القليل فقط من الظِباء.. والغِزلان.. والدجاج البرى.. فقد كان ذلك الموسم شمسه حارقة.. وجفت الينابيع وسط السافانا.. وتحركت معظم الفرائس الكبرى إلى أعماق الغابة.. فى هذا الوقت بالذات كان يحتاج أهل (جوفور) إلى كل قواهم ليستطيعوا زراعة محاصيل موسم الحصاد القادم.. لقد بدأت أيام الجوع مبكرةً لدرجة أنه وحسب طقوس القرية في مثل هذه المجاعات ـ ومبكراً عن موعده ـ قام الأهالى بالتضحية بخمسة ماعز وثورين من أجل تقوية دعوات كل فرد أن يجنب الله القرية مواجهة المجاعة.

وأخيراً غطت السُحبُ السماء.. وهبت رياحٌ عنيفة ومفاجئة.. وبدأت أمطارٌ قليلةٌ تسقط بدفء.. وبدأ المزارعون يحولون الأرض الطرية إلى خطوط طويلة استعداداً لغرس البذور قبل وصول الأمطار الكبرى.

وفى صباح الأيام القليلة القادمة وبعد الإفطار بدلاً من أن تقود النساء زوارقهن إلى حقول الأرز.. ارتدين ثيابًا أخرى.. وانطلقن إلى الحقول المخصصة للرجال.. وكانت أصواتهن يمكن سماعها تعلو وتنخفض حتى قبل أن يظهرن وهن يرددن ابتهالات الأسلاف داعين الله أن تنمو الـ(جذور) الفول السودانى والشوفان والحبوب الأخرى الموجودة فى القرعات التى حملنها فوق رؤوسهن.. كانت النساء يسرن حول كل حقل فى خطٍ واحد عاريات الأقدام وهن يغنين.. ثم يسرن كل امرأة بجوار فلاح تتبعه أينما تحرك.. هو يحفر حفرة صغيرة.. وتلقى المرأة بحبةٍ فيها.. ثم تغطيها بواسطة أصبع قدمها الكبير.. وكان على النساء أيضاً رعاية وزراعة أحواض الأرز.. وبساتين الخضروات اللاتى كُن يزرعنها بجوار مطابخهن .

وبينما كانت (بينتا) تزرع البصل والبطاطا والطماطم كان الصغير (كونتا) يقضى وقته بجانبها.. وكانت عيون الجدات العجائز يقظة تتابع العديد من أطفال القرية الصغار ممن هم دون الخامسة من العمر.. وكان الأطفال صبياناً.. وبنات يلهون عرايا وهم يضحكون ويصرخون صرخات حادة.. ويجرون وراء بعضهم البعض حول بِركة القرية الضخمة..

ويلعبون الاستغماية باستخفاء.. ويثيرون الكلاب والطيور.. ولكن كان كل الأطفال ومن بينهم (كونتا) يجلسون منطوين على أنفسهم فى هدوء وسكينة عندما تبدأ إحدى الجدات تقصُ عليهم حكاية.. وتمثلها بحركات يديها.. وجسدها.. وكأنه ا تحدث أماهم حقيقة.

وكان (كونتا) وهو صغير فى تلك السن معتاداً على سماع بعض تلك الحكايات التى حكتها له جدته بيسا بمفرده عندما كان يزور كوخها.. ولكن مع زملاء اللعب فى القرية كان يشعر أن أحسن قصاص للحكايات من بين الجميع كانت هى الجدة العجوز المحبوبة والمثيرة والغريبة (نيوبوتو) وكانت صلعاء الرأس.. عميقة التجاعيد.. وسوداء مثل قعر إناء الطهى.. وقد وضعت فى فمها جذر عشب الليمون الطويل تمضغه ويبدو خارج فمها مثل قرن استشعار الحشرة من بين الأسنان القليلة التى بقيت فى فمها.. والتى تحول لونها إلى البرتقالى الغامق من كثرة ثمار الكولا التى مضغتها.. وبالرغم من أنها كانت تمثل بالنسبة لهم الفظاظة والخشونة فإن الأطفال كانوا يعلمون أنها تحبهم كما لو كانوا **أبناء**ها.. وكانوا يحيطون بها عندما تبدأ تتمتم حكاياتها.. وتقول جملتها الشهيرة: (دعونى اقص عليكم حكاية) عندها يصيح الأطفال معاً مثل كورال.. وبدأت تروى لهم تلك الحكاية:

(فى وقت ما فى تلك القرية كان يعيش شخصٌ ما..كان هناك صبيٌ صغير فى مثل عمرهم المطري[1] سار إلى ضفة النهر فى أحد الأيام.. وعثر على تمساح وقع فى شبكة صياد.. وصاح التمساح:

ساعدنى فى الخروج من الشبكة !

صاح الطفل : ولكنك ستقتلنى !

قال التمساح : لا.. لن أقتلك.. اقترب أكثر لتخرجنى..

(1) كانت السنوات في القرية تحسب بعدد فصول الأمطار.

وعندئذ ذهب الطفل إلى التمساح وفى الحال أمسك بالطفل بأسنانه.. ولقمه في فمه الطويل.. فصاح الصبي: هل هكذا ترد لى جميلي؟

قال التمساح من جانب فمه: بالتأكيد هذه هو قانون الحياة.

رفض الطفل أن يصدق ذلك.. ولذلك رفض التمساح أن يبتلعه قبل أن يحتكموا لرأى أول ثلاثة عابرين.. وكان الأول هو الحمار.. وعندما سأله الصبي عن رأيه قال الحمار :

- الآن وقد أصبحت عجوزاً.. ولم أعد قادراً على العمل.. فقد طردني سيدي.. وألقى بي إلى الذئاب لتلتهمنى .

قال التمساح للطفل : أترى؟

وكان العابر الثانى هو الحصان العجوز الذى كان له نفس الرأى فقال التمساح : هل رأيت؟

وأتى بعد ذلك أرنب رزين فقال :

- حسناً لا أستطيع أن أُعطى رأياً جيداً دون أن أرى وأفهم الأمر.. كما حدث منذ البداية..

فتلوى التمساح.. وفتح فمه ليتكلم معه.. فقفز الصبي إلى الخارج سالماً إلى ضفة النهر فسأله الأرنب:

- .هل تحب لحم التمساح؟

قال الصبى : نعم.

وهل يحبه والدك؟

فقال الصبى: نعم مرةً ثانيةً .

إذن هذا هو تمساح جاهز لإناء الطهى .

جرى الولد بكل قواه.. ثم عاد ومعه رجال القرية الذين ساعدوه فى قتل التمساح.. ولكنهم أحضروا معهم كلب صيدهم الذى طارد الأرنب.. وقتله أيضاً.

وهنا قالت (نيوبوتو) : إذن كان التمساح على حق.. هكذا الأمر فى الدنيا.. ومكافأة الخير غالباً ما تكون شراً.. وهذا هو ملخص الحكاية .

بعدها تمر الجدات بين الأطفال بالأوانى المليئة بالخنافس والجراد الطازج المشوي.. وكانت الحشرات المشوية تُقدم كوجبات قمرية لأنه لم يتبق سوى حفنات من الشعير والأرز فى معظم العائلات.



ماين .. ماين ..

كانت المطر الخفيف يتساقط كل صباح تقريباً.. وكان (كونتا) ورِفاق اللعب سعداء وهم يتصايحون (ماين.. ماين) أمام قوس قزح الجميل الذى يسقط على الأرض قريباً منهم.. لكن رخات المطر كانت تجلب أيضاً أسراب الحشرات الطائرة التى كانت تلتصق بأجساد هم الصغيرة بطريقة مقززة.. وتلدعهم.. وسرعان ما تدافع الأطفال للعودة إلى داخل الأكواخ.

ثم فجأة فى وقتٍ متأخر من الليل بدأت الأمطار الكبرى تنهمر بغزارة.. وانزوى الناس داخل أكواخهم القديمة يُهدأون من روع أطفالهم.. الذين كان يخيفهم صوت المطر وهو يضرب سقوف أكواخهم.. والبرق يضوي في السماء.. والرعد يشق ظلام الليل.. وسط عواء ابن آوى.. والضِباع.. ونقنقة الضفادع.

عادت الأمطار ثانيةً فى الليالى التالية والتى تلتها..كانت تمطر فى الليل فقط فتغرق الأراضى المنخفضة بالقرب من النهر.. وتحول الحقول إلى بركٍ من الماء.. والقرية إلى بؤرة كبيرة من الوحل.. ولا يزال الفلاحون كل صباح يصارعون قبل الإفطار وسط الوحل متجهين إلى مسجد (جوفور) الصغير.. ويدعون الله أن يرسل المزيد من الأمطار لأن الحياة تعتمد على المياه التى تغوص داخل الأرض قبل وصول الشمس الحامية.. والتى قد تعصف بالمحاصيل إن لم تجد الـ(جذور) ماءاً كافياً لتنمو.. وتزهر.

وفى كوخ الحضانة الرطب المعتم قليل الإضاءة وقليل التدفئة تحرق الأعواد الجافة.. وأقراص روث البهائم .

وعلى الأرض الترابية حكت العجوز (نيوبوتو) لـ (كونتا) والأطفال الآخرين عن الأوقات الرهيبة التى تذكرها عندما لا توجد أمطارٌ كثيرة كافية.. وتذكرت الجدة ما حدث قبل عدة أعوام.. فبعد يومين من الأمطار الغزيرة أتت الشمس المحرقة.. ورغم أن الناس دعوا الله بحرقة.. ورقصوا رقصة أسلافهم.. وكانوا يضحون بعنزتين وثور فى كل يوم.. إلا أن كل شيء نما فى الأرض كان يموت ويفنى..

حتى آبار الغابة جفت.. هذا ما قالته (نيوبوتو) وبدأت بشائر الطيور البرية وحيوانات الغابة المريضة من العطش تظهر عند ينبوع القرية.. وهبت ريح باردة.. ووقع المزيد من الناس مرضى كان هذا بالنسبة لهم يعنى أن الأرواح الشريرة تحوم حول (جوفور) .

استمر الجميع فى أداء صلواتهم ورقصاتهم.. وأخيراً تم التضحية بآخر ماعز.. وثور.. وبدا وكأن الله غير راضٍ عن (جوفور) والبعض من العجائز والضعفاء والمرضى بدأ يموتون.. وترك البعض الآخر المدينة باحثين عن قرى أخرى ليتوسلوا للبعض ممن لديهم الطعام أن يقبلوهم كعبيد فقط من أجل أن يطعموهم.

قالت (نيوبوتو) أنه في ذلك الزمن أرشد الله خطوات الولى الصالح كايرابا (كونتاكنتى) إلى قريتهم (جوفور) التى تموت بفعل المجاعة.. وعندما رأى بلاء ومحنة الناس ركع ودعا الله.. واستمر فى ذلك دون نوم ولم يتناول سوى قطرات من الماء كغذاء طوال خمسة أيام كاملة.. وفى مساء اليوم الخامس جاءت الأمطار العظمى التى سقطت كالفيضان وأنقذت (جوفور).

عندما انتهت (نيوبوتو) من حكايتها نظر الأطفال الآخرون باحترام إلى (كونتا) الذى يحمل اسم الجد المبجل.. وحتى قبل ذلك كان (كونتا) يلاحظ كيف كان أباء وأمهات الأطفال الآخرين يتصرفون أمام جدته (بيسا) وشعر عندئذٍ كم أن جدته سيدةً مهمة.. بالظبط كما كانت العجوز (نيوبوتو) أيضاً.

استمرت الأمطار الكبرى فى الهطول كل ليلة إلى أن بدا (كونتا) والأطفال الآخرون يشاهدون الكبار وهم يخوضون وسط المطر داخل الرقية.. وقد ارتفع الوحل أحياناً إلى رُكبهم.. بل واستخدموا الزوارق ليتنقلوا من مكانٍ لآخر.. وسمع (كونتا) (بينتا) وهى تخبر (أمور و) أن حقول الأرز غرقت فى الفيضان.. وأمام البرد والجوع ضحى الأباء بالماعز الثمين والثيران لله.. وكانوا كل يوم تقريباً يصلحون الأسقف التى تتسرب منها المياه.. وينقذون الأكواخ الغارقة.. ويدعون الله أن يكفى مخزونهم من الأرز المتناقص حتى وقت الحصاد.

ولكن (كونتا) والأطفال الآخرين الذين لا يزالون أطفالاً صغار لم يكونوا مهتمين بكل ذلك.. بل شغلوا أنفسهم أكثر باللعب وسط الطين.. ومصارعة كلٍ منهم الآخر وهم يتزحلقون على مؤخراتهم العارية فوق الوحل.. لكنهم كانوا مشتاقين إلى رؤية الشمس مرة ثانيةً.. مما دفعهم إلى التلويح وهم يصيحون مقلدين آباءهم.. قائلين مثلهم :(اشرقى يا شمس وسأذبح لك الماعز)

جعلت الأمطار واهبة الحياة كل شيء جيداً.. غردت الطيور.. وتفجرت الأشجار والنباتات بالبراعم ذات الروائح العبقة.. وكان الطين الأحمر المائل إلى اللون البنى تحت الأقدام مثل سجادة جديدة تُملأُ كل صباح بالبراعم ذات الألوان البراقة.. والأوراق الخضراء التى أصبحت ناعمة بفعل الأمطار.

لكن لم ترحم الطبيعة القاسية أهل (جوفور) فقد انتشر بينهم الأمراض.. ولم يكن هناك بين النباتات التى نمت سريعاً ما يمكن أن يُؤكل.. وكان البالغون والأطفال على حدٍ سواء يحملقون فى جوع إلى آلاف الثمار من المانجو غير الناضجة.. وثمار تفاح القرود المعلقة فى كثافة على الأشجار.. ولكن الثمار الخضراء كانت جافة مثل الصخور التي إن قضموها كانوا يتساقطون مرضى وهم يتقيؤون.

كانت (الجدة بيسا) تلعن كل ذلك وهى تصدر من فمها صوت طرقعة من طرف لسانها حزناً على حفيدها الصغير (كونتا) ولم تكن هى أحسن حالاً منه فقد كانت هى الأخرى (جلداً على عظم).

وأصبحت كل مخازن (جوفور)خاويةً.. والعدد القليل من الماعز والماشية والدجاج فى القرية الذى لم يؤكل أو يُضحى به كان من الضرورى الحفاظ عليه حياً.. وإذا أرادوا أن يكون هناك بقيةً منهم للعام القادم كان عليهم أن يتركوا ما تبقى منهم ليتكاثروا.. ويأكلون هم القوارض والالـ(جذور) والأوراق التى تبقت داخل وحول القرية..

وحتى إذا ذهب الرجال إلى أعماق الغابة لصيد الحيوانات المفترسة كما كانوا يفعلون فى أوقات أخرى من السنة فإنهم لن يجدوا في أنفسهم القوة لسحبها عائدين بها..

وكانت الطقوس القبلية تمنع الأفارقة الـ(مانديكا) من أكل الحمير.. والقرود السعدان النافقة.. وألا يلمسوا أبداً بيض الدجاج.. ولا الضفادع الخضراء الضخمة السامة.. وباعتبارهم مسلمين مؤمنين فإنهم قد يفضلون الموت على أن يأكلوا لحم الخنازير البرية التى كانت تاتى فى قطعان غالباً للبحث عن الالـ(جذور) إلى داخل القرية.

وفى المساء المتأخر قد تتقابل بعض العائلات خلف أكواخهم وقد أحضر كل منهم ما عثر عليه وربما كان ذلك أحياناً عبارة عن خُلد ماء.. أو حفنةٍ من الديدان إذا أسعدهم الحظ من أجل إناء حساء الليلة الذى كان يُعد بكمية كبيرة من الفلفل الأسود.. والتوابل الحريفة لتحسين مذاقه.. وهكذا مع تلك الحال كان أهل (جوفور) قد بدأوا فى الموت.

***

وأصبح المعتاد من الآن فصاعداً سماع نواحٍ حاد لامرأة عبر القرية ليعلم الجميع أن أحدهم قد مات.. وفى أوقات ما بعد الظهر كثيراً ما كان يُحملُ جثمان أحد الفلاحين على ظهر ثور بعد موته وهو يحاولُ قطع العشب فى حقله.

ثم بدأت الأمراض تتسبب فى تورم سيقان **أبناء** القرية.. فى حين كانت الحُمى تتفشى فى أجساد الآخرين.. وكان الأطفال قد بدأت مساحات صغيرة تنتفخ على أذرعهم وسيقانهم وتزداد اتساعاً بسرعة.. وتؤلمهم بشدة.. ثم تتشقق مفرزةً سائلاً أحمرًا سرعان ما يصبح صديداً متقيحاً أصفر اللون كريه الرائحة.. يجتذب الذباب الطنان .

وكانت آلام الجرح الكبير على ساق (كونتا) تجعله يتعثر وهو يحاول الجري.. وفى يومٍ ما سقط بقسوة.. وأخذ يصرخ مذهولاً عندما وجد رأسه يُدمى.. ولما كانت (بينتا) و(أمورو) بعيدان يفلحان الأرض.. فقد أسرع رفاقه وحملوه إلى داخل كوخ (الجدة بيسا) التى كانت لم تظهر حتى منذ عدة أيام.. وبدت ضعيفة جداً.. وكان وجهها الأسود مجعداً ومتغضناً وهى تعرق تحت عباءتها من الفرو فوق مقعدها البامبو..

ولكنها عندما شاهدت (كونتا) قفزت لتمسح جبينه الدامى.. واحتضنته بقوة.. وأمرت رفاقه أن يسرعوا ليحضروا لها بعضاً من (نمل الكيلالو) وعندما عادوا ضغطت (الجدة بيسا) طرفا الجرح بقوة.. ثم ضغطت النملات المقاومة واحدة بعد الأخرى على الجرح.. وعندما غرست النملات الغاضبة مخالبها القوية فى اللحم على جانبى الجرح كانت تقفز بعنف خارج جسدها تاركة رأسها فى المكان إلى أن أصبح الجرح وكأنه قد تم تخييطه بالغرز .

أمرت باقي الأطفال بالمغادرة.. وأخبرت (كونتا) أن يستلقي.. ويظل ممدداً بجوارها على السرير.. ثم ظلت صامتة لبعض الوقت.. بعدها أشار ت بيدها نحو كومةٍ من الكُتب على رف بجوار سريرها.. وتحدثت فى بطء ورقة.. وأخبرت (كونتا) بالمزيد عن جده.. وقالت له أن حيث تلك هى كتب جده .

كان (كونتا كنتى) الجد قد بلغ من العمر خمساً وثلاثين فصل أمطار ـ أى 35 عاماً ـ فى وطنه الأم موريتانيا عندما منحه معلمه البركة التى جعلته رجلاً مباركاً.. هذا ما قالته (الجدة بيسا) لقد اتبع جد (كونتا) تقليداً عائلياً من الرجال المباركين يعود تاريخه إلى مئات من سنوات المطر فى مالى القديمة وباعتباره رجلاً من الجيل الرابع فقد توسل إلى الإمام العجوز أن يتقبله كتلميذ.. وخلال الخمسة عشر فصلاً مطرياً التالية سافر مع حزبه المكون من زوجاته.. وعبيده.. وقطيع ماشيته.. وكان يحج من قرية إلى قرية فى خدمة الله وعبيده.. وقالت (الجدة بيسا) أنهم هاجروا جماعةً فى اتجاة الشمال إلى موريتانيا عبر طرق مترية وموحلة على الأقدام تحت الشمس الحارقة.. والأمطار الباردة.. وعندما تلقى كيرابا (كونتا كنتى) البركة كرجل مبارك تجول بمفرده عدة سنوات قمرية بين أماكن مختلفة فى مالى القديمة مثل (كيالا) و(دجيلا) و(كنجابا) و(تمبوكتو) وهو يطرح نفسه أرضاً فى تواضع أمام رجال عظماء عجائز جداً ومقدسين طالباً منهم البركة.. والذين كانوا جميعاً يمنحونها له مجاناً وعن طيب خاطر.. ثم أرشد الله خطوات الشاب المبارك إلى اتجاه الجنوب.. وأخيراً إلى (جامبيا)

حيث توقف أولاً فى قرية (بكالى دنج) وخلال فترة قصيرة عرف أهالى تلك القرية عن طريق النتائج السريعة لصلوات الشاب المبارك أنه يتمتع بتوفيقٍ خاص منَّ به الله عليه.. ونشرت الطبول الأخبار.. وسرعان وماحاولت بقية القرى أن تغريه بترك القرية والذهاب إليهم.. ويرسلون إليه الرسل ومعهم عروض وهدايا من العذارى كزوجات له.. وعبيد.. وماشية.. وماعز.. ولم يمر وقت طويل إلا وقد انتقل إلى قرية (جيفارونج) ذلك لأن الله أوحى إليه بذلك.. بالرغم من أن أهل (جيفارونج) لم يكن لديهم ما يقدمونه إليه سوى عرفانهم وشكرهم على صلواته.. وهناك سمع عن قرية (جوفور) حيث كان الناس مرضى ويموتون بسبب نقص الأمطار لذلك استقر به المقامُ أخيراً في (جوفور).

عندما علم ملك بارا بنفسه عن أعمال جد (كونتا) والذى كان يحكم هذا الجزء من (جامبيا) قدم بنفسه عذراء للشاب المبارك كأول زوجه له.. وكان اسمها سيرنج وقد رزق كيربا (كونتا كنتى) من سيرنج بابنين سماهما (جتنيه) و(سولوم).

وكانت (الجدة بيسا) قد جلست مستقيمة وهى تواصل حكايتها فوق سريرها البامبو المتأرجح وقالت بعينين لامعتين أنه وقتها شاهدها وهى ترقص رقصة (سيوروبال) وكان عمرها آنذاك فقط خمس عشرة سنة مطرية.. ثم ابتسمت ابتسامة واسعة أظهرت فكيها الخاليين من الأسنان ونظرت إلى (كونتا) الذى لم يكن يحتاج إلى الملك من أجل اختيار زوجته الثانيةً.. ورزق من بطنى والدك (أمورو).

وفى تلك الليلة بعد أن عاد (كونتا) إلى كوخ أمه استلقى مستيقظاً طوال الوقت.. وهو يفكر فى كل ما أخبرته به (الجدة بيسا) حتى أغلق عينيه.. واستغرق ببطء فى النوم .



وفاة الجدة بيسا ..

قبل غروب الشمس مباشرة ولعدة أيام تالية وبعد عودة (بينتا) من حقل أرزها كانت ترسل (كونتا) إلى نبع القرية لإحضارجرات الماء الطازج الذى قد تستخدمه لغلي الحساء.. ثم تأخذ هى و(كونتا) بعض الحساء إلى (الجدة بيسا) كانت (بينتا) تتحرك أبطا من المعتاد.. وبدا لـ (كونتا) أن بطنها أصبح كبيراً وثقيلاً جداً.. وبينما كانت (الجدة بيسا) تعترض فى ضعف بأنها سرعان ما ستتحسن صحتها ثانيةً كانت (بينتا) تقوم بتنظيف الكوخ وترتب الأشياء.. وقد يتركان (الجدة بيسا) وهى مكومة فوق سريرها تأكل سلطانية الحساء مع بعض قطع خبز (بينتا) المسمى خبز فصل الجوع المصنوع من مسحوق أصفر يغطى الفول الأسود الجاف لشجرة الخرنوب البرية.

وفى إحدى المرات استيقظ (كونتا) ليجد نفسه ووالده يهزه بعنف.. كانت (بينتا) تصدر أصواتاً منخفضة.. وتتأوه على سريرها بينما داخل الكوخ تتحرك بسرعة كل من (نيوبوتو) وصديقة (بينتا) (جانكى) أسرع (أمور و) عبر القرية مع (كونتا) والذى كان يتساءل في قرارة نفسه ماذا يحدث؟ وفى الحال سقط نائماً مرة ثانيةً فوق سرير والده .

وفى الصباح أيقظ (أمور و) (كونتا) ثانيةً وقال له : لقد حصلت على شقيق آخر .

جلس (كونتا) على ركبتيه وهو نعسان يفرك عينيه.. وفكر أن الأمر لابد خاص جداً مادام قد أسعد والده العبوس عادة.. وبعد الظهر كان (كونتا) مع زملائه فى القرية يبحثون عن شيءٍ ليأكلوه عندما نادت عليه (نيوبوتو) واصطحبته ليري (بينتا) كانت متعبة جداً وجلست فى رقة على حافة سريرها وهى تداعب مولودها بحنان.. وقف (كونتا) لحظة يفحص ذلك الشيء الضئيل المكرمش الأسود ثم نظر إلى المرأتين المبتسمتين له.. ولاحظ أن تضخم بطن (بينتا) الذى تعود رؤيته قد اختفى فجأة .

خرج دون أن ينطق كلمة ووقف فترة طويلة.. بدلاً من أن ينضم لرفاقه ذهب بعيداً ليجلس بمفرده خلف كوخ والده يفكر فيما رآه .

استمر (كونتا) فى النوم فى سرير (أمور و) طوال الليالى السبع التالية.. وكان قد بدأ يفكر أن أمه لم تعد تريده بعد الآن.. وفى مساء اليوم الثامن ناداه والده أمام كوخ أمه ليسمع مع الآخرين منح الطفل الجديد الاسم الذى اختاره له وكان (لامين).

وفى تلك الليلة نام (كونتا) فى سلام وراحة وقد عاد إلى سريره بجوار أمه وشقيقه الجديد.. ولكن خلال أيام قليلة عندما استردت (بينتا) قواها بدأت تأخذ الطفل وتقضى معهم معظم كل يوم فى كوخ (الجدة بيسا) وعرف وقتها (كونتا) أن (الجدة بيسا) مريضة جداً.

وفى وقت متأخر بعد ظهر أحد الأيام بعد فترة قليلة كان هو ورفاقه فى جوار القرية يلتقطون ثمار المانجو التى نضجت أخيراً.. ويجمعون ملء سلال من تفاح القردة.. والكاشو البرى.. عندما سمع (كونتا) فجأة عويل وصوت مألوف يأتى لأسماعه من ناحية كوخ الجدة.. شعر بقشعريرة باردة تخترق جسده لأنه كان صوت أمه.. وانضمت نساء أخريات فى الحال إلى الصراخ الذى سرعان ما انتشر عبر القرية.. جرى (كونتا) كالاعمى ناحية كوخ الجدة .

وسط الفوضى العارمة رأى (كونتا) (أمور و) العابس والعجوز (نيوبوتو) الباكية.. وخلال لحظات بدأت طبلة (التوبولو) تدق.. والساحر يصيح عالياً ذاكر أعمال (الجدة بيسا) الطيبة طوال حياتها فى (جوفور).

كان (كونتا) مذهولاً من الصدمة.. ووقف يراقب دون فهم الشابات غير المتزوجات من القرية يُهلنّ التراب من الأرض بواسطة مراوح واسعة من العشب المجدول كما كانت العادة بمناسبة الموت.. وعندما دخلت بينتا و(نيوبوتو) وامرأتان تولولان سقط الحاضرون على ركبهم.. وأحنوا رؤوسهم.. وانفجر (كونتا) فجأة فى البكاء خائفاً.. ثم أخذ (كونتا) يراقب النساء وهن يخرجن للخارج.. ويضعن الجسد فوق سطح كتلة الخشب المسطح.. وقد غطوها من رأسها لقدميها بقماش مغزول أبيض من القطن .

راى (كونتا) خلال دموعه المعزين وهم يسيرون سبع دوائر حول بيسا وهم يدعون ويغنون بينما ذكر الأمام أنها سترحل إلى دار البقاء لتقضى وقتها مع الله.. وأسلافها الصالحين.. وحتى يعطوها القوة لتواصل رحلتها إلى دار البقاء وضع الشباب غير المتزوج قرون البقر فى رقة وقد امتلات بالرماد الطازج حول جسدها.

وبعد أن رحل معظم المعزين بعيداً أخذت (نيوبوتو) والنساء الآخريات أماكنهن قريباً وهن ينُحنَ.. ويلطمن الخدود..

وسرعان ما احضرت الشابات أكبر أوراق السيبوا التى أمكنهن العثور عليها لحماية رأس المرأة العجوز من الأمطار أثناء السير بها..

وفى الصباح الضبابى حسب عادات الجدود القدامى فإن رجال (جوفور) القادرين فقط على السير انضموا إلى عملية الدفن فى المدافن التى لم تكن تبعد كثيراً عن خارج القرية.. والتى لم يكن أحد يذهب إليها إلا فى مثل هذه المناسبات خوفاً من غضب أرواح الأسلاف.. وخلف الرجال الذين كانوا يحملون جسد (الجدة بيسا) على اللوح الخشبى جاء (أمور و) وهو يحمل الرضيع (لامين) وممسكاً بيد (كونتا) الذى كان خائفاً لدرجة تمنعه من البكاء.. وخلفهم جاء الرجال الآخرون من القرية.. أُنزِلَ الجسد الجاف الملفوف بالبياض في تلك الحفرة التى حُفِرَتْ مؤخراً.. وفوقه وُضِعَتْ حصيرةٌ سميكة من البوص الجاف.. ثم بعد ذلك أُلقِيَتْ أغصان وشجيرات لتبعد الضباع النابشة.. ثم ملئت بقية الحفرة بالحجارة.. وكمية من التراب.

بعد ذلك ولعدة أيام كان (كونتا) بالكاد يأكل أو ينام.. ولم يكن ليذهب لأى مكانٍ مع زملاء اللعب.. كان حزيناً جداً لدرجة أن (أمور و) فى إحدى الأمسيات أخذه إلى كوخه.. وهناك بالداخل بجوار سريره أخذ يتحدث معه برقةٍ لم يسبق له أن فعلها معه من قبل أبداً.. وأخبره بشىءٍ ما ساعده على التخفيف من حزنه.

قال له أن هناك ثلاثة مجموعات من الناس يعيشون فى كل القرى..

أولاً : هؤلاء الذين تستطيع أن تراهم يتجولون.. ويأكلون.. وينامون.. ويعملون..

وثانياً : هم الأسلاف الذين انضمت إليهم الجدة (بيسا)..

الثالثة : الذين ينتظرون أن يولدوا.

***

انتهت الأمطار وبين السماء الزرقاء الساطعة.. والأرض الرطبة.. كان الهواء ثقيلاً.. يحمل عبير البراعم للزهور البرية والفواكه.. ويتردد صدى أصوات النساء وهن يفرشن الحنطة.. والشعير.. والفول السودانى.. ليس من المحصول الرئيسى.. وإنما من البذور النامية مبكراً من العام الماضى.

واصطاد الرجال وأحضروا معهم لحم الظباء الطازجة الدسمة.. وبعد نزع اللحم أخذوا يكحتون الفراء.. ويدبغونه.. بينما النساء منشغلات فى جمع ثمار توت المانكانو الناضجة المحمرة.. وهن يهززن الشجيرات فوق القماش المفرود أسفلها.. ثم يجففن التوت فى الشمس.. ويطحنونه لفصل الدقيق اللذيذ عن البذور.. لم يكن يهدر أى شىء.. كانت البذور تغلى مع دقيق نبات الدخن بعد نقعه.. وتُطهى لتتحول إلى إفطار ثريدٍ حلو.. وكان (كونتا) والآخرون يتقبلونه كتغيير عما اعتادوه فى وجبتهم الصباحية المعتادة من عصيدة الشعير.. ولما أصبح الطعام متوافراً أكثر كل يوم طغت حياة جديدة على (جوفور) بطرق يمكن رؤيتها وسماعها.. لقد بدا الرجال يسيرون بطريقة أكثر سرعة إلى حقولهم وهم يحصدون فى فخر محاصيلهم اليانعة.. ومع فيضان النهر الذى يمتلىء بسرعة فإن النساء كن يجدفن يومياً هنا وهناك وهن ينزعن آخر الأعشاب الضارة من بين صفوف عيدان الأرز العالية الخضراء.

بدأت القرية ثانيةً تضج بالصياح.. والضحك الصادر من الأطفال بعد أن امتلات البطون بالطعام.. وشُفيَّ المرضى منهم.

وكانت واجبات التدريب المنزلى عند (كونتا).. وكانت (بينتا) تطرقع أصبعها فى ضجر.. وتضربه أحياناً بالسوط بقوة.. خاصةً إذا لم ينظف نفسه جيداً من أية قذارة عندما يعود إلى الكوخ بعد يوم لعبٍ شاق.. وقد تأخذ (بينتا) الأسفنجة الخشنة المصنوعة من الأعواد الجافة وقطعة الصابون المصنوعة منزلياً وتخيف (كونتا) بأنها ستزيل كل جلد جسده من الـ(جذور).. وعليه ألا يتحدث إلا بالصدق لأنه لا سبب يدعوه للكذب وهو مالم يفعله قط .

وبذل(كونتا) أقصى مالديه ليكون ولداً طيباً.. وسرعان ما بدأ يزاول دروس تدريباته المنزلية مع أطفال آخرين.. وعندما كان يحدث خلاف بينهم.. ينفجر الأمر دائماً ما كان يستدير (كونتا) ويبتعد.. وبذلك يظهر الكرامة والتحكم فى النفس اللذين علمتها له أمه باعتبارهما من أهم صفات الفخار عند قبيلة (مانديكا) .

ولكن تقريباً كل ليلة كان (كونتا) يُضرب على مؤخرته لارتكابه خطأٍ ما مع شقيقه الطفل.. أو لتعاركه واشتباكه معه فى وحشية.. وقد تصرخ فيه (بينتا) عندما تفقد صبرها إلى درجة الانفجار مهددةً إياه بعقابه ضرباً. .

***

كان الأطفال.. وحتى بالغو (جوفور) يتناولون عشاءهم بسرعة ليتمكنوا من الاجتماع بالخارج فى الغسق ليصيحوا ويصفقوا ويضربوا الطبل عند ارتفاع الهلال رمز الدين .

ولكن عندما تخفى السُحب القمر فإن الناس يتفرقون.. ويدخل الرجال المسجد ليصلوا طالبين المغفرة.. فقد كان القمر الجديد المغطى يعنى بالنسبة لهم أن الأرواح السماوية غير مسرورة من الناس فى (جوفور) وبعد الصلاة يقود الرجال عائلاتهم المذعورة إلى (شجرة الباوباب) حيث يكون الساحر قارع الطبل محاطاً بنار صغيرة سُخِنَت لأقصى درجة جلد الماعز المشدود على الطبلة.

دعك (كونتا) عينيه الليتين دمعتا من الدخان.. وتذكر الأوقات التى تُرسلُ فيها الطبول إشاراتها من مختلف القرى وتقلقُ نومه.. وعندما كان يستيقظ فإنه يظل مستلقياً فى مكانه وهو ينصت بانتباه لأن أصوات الأنغام كانت متشابكة جداً مع الحديث لدرجة أنه قد يفهم من بينها بعض الكلمات التى تعلن عن المجاعة أو الوباء أو الهجوم على بعض القرى وحرقها مع قتل أهلها واختطافهم.. وكان معلقاً على فرع (شجرة الباوباب) بجوار الطبال جلد ماعز عليها علامات الكلام مكتوبة باللغة العربية بواسطة العريف.. وعلى ضوء النار المتذبذب شاهد (كونتا) الطبال وهو يبدأ فى الطرق بعصاه الملتوية بسرعة كبيرة.. وبحدة على مختلف النقاط فى رأس الطبلة.. كانت رسالة عاجلة لأقرب ساحر أن يأتى إلى (جوفور) ويطرد منها الأرواح الشريرة.

لم يجرؤ الناس على النظر إلى القمر وسارعوا إلى بيوتهم واندسوا فى الفراش خوفاً.. ولكن على فترات أثناء الليل كان تتردد رسائل الطبول البعيدة مرددةً نداء (جوفور) للساحر فى القرى الأخرى كان (كونتا) يرتجف غطائه من جلد الماعز وفكر أن اقمار القرى الأخرى مغطاة هى الأخرى بالغيوم .

فى اليوم التالى كان على الرجال من عمر (أمور و) أن يساعدوا الرجال الأصغر سناً فى القرية فى حراسة حقولهم شبه الناضجة من وباء الجوع .

صبية القرية طلب منهم أن يكونوا يقظين بشكل خاص وهم يرعون الماعز.. بينما أخذت الأمهات والجدات يحملن أكثر من المعتاد على الأطفال والصبية الكبار ليراقبوا فى حدة اقتراب أى شخصٍ غريب من شجرة المسافرين.. لكن الغرباء لم يأتوا فى ذلك اليوم.. وظهر فى صباح اليوم التالى رجل عجوز جداً يسير بمساعدة عصا خشبية ويحمل شيئاً ضخماً على رأسه الصلعاء.. وعندما لمحه الأطفال تسابقوا وهم يصيحون عائدين خلال بوابة القرية.. وهنا ثبتت العجوز (نيوبوتو) فى مكانه ا.. و بدأت فى ضرب الطبلة (التوبالو) الضخمة مما جعل الرجال يعودون مندفعين إلى القرية من حقولهم قبل لحظة من وصول الساحر العجوز إلى البوابة (جوفور) .

وعندما اجتمع القرويون حوله سار هو إلى (شجرة الباوباب).. ثم وضع ربطته بعناية على الأرض.. وجلس فجأة.. ثم هز حقيبة من جلد الماعز المكرمش وأخرج منها (بجعة) وأقدام لبعض الطيور المختلفة.. والأشياء غريبة الشكل.. ثم حملق وأشار فى عصبية إلى الجمع من حوله أن يوسعوا له المكان.. وتحرك الناس للخلف عندما بدأ يرتجف.. بدا لهم أنه قد هوجم من أرواح (جوفور) الشريرة .

تلوى جسد الساحر ووجهه ألماً.. ودارت عيناه على اتساعها.. بينما يداه المرتجفتان تتصارعان من أجل أن تلمس عصاه كومة الأشياء الغامضة.. وعندما مست حافة العصا بعد جهد الكومة سقط على ظهره.. وظل مستقلياً وكأنما مسه البرق.. شَهِقَ الناس.. ثم بدأ يعود للحياة ثانيةً.. لقد طرد الأرواح الشريرة.. بعدها جاهد فى ضعف ليجلس على ركبتيه.. البالغون من أهل (جوفور) رغم تعبهم عادوا إلى أكواخهم.. وفى الحال عادوا للساحر بالهدايا ليلقونها عليه.

أضاف الساحر العجوز تلك الهدايا إلى مافى ربطته التى كانت بالفعل كبيرة.. ومثقلة بالهدايا التى تلقاها من القرى السابقة.. وسرعان ما عاود السير في طريقه استجابة لنداء قريةٍ أخرى.. لقد أراد الله برحمته أن يُجنب (جوفور) المحنة مرة أخرى .



فلاش باك

مر اثنا عشر شهراً قمرياً.. وانتهت الأمطار الكبرى مرة أخرى.. وبدأ موسم المسافرين الجامبى وعلى طول شبكة الممرات التى تربط القرية بما حولها.. كان(كونتا) وزملاءه فى حالة مراقبة يومياً.. ليعلموا أهل القرية عندما يظهر شخصٌ غريب يقترب من شجرة المسافرين.. كانوا يتجمعون ويسيرون فى جسارة بجواره.. وقد يثرثرون فى تساؤل عندما تلمح عيونهم الحادة أية علامات تدل على مهمته أو مهنته.. وإذا وجدوا أى علامة تشير لذلك كانوا يتركون الزائر فجأة ويتسابقون عائدين ليخبروا الكبار فى الكوخ المخصص هذا اليوم للضيافة.. وحسب تقليد قديم فإن كل يوم كان يتم اختيار عائلة مختلفة لتتولى مسئولية تقديم الطعام والمأوى للزائرين الواصلين بدون مقابل طوال الفترة التى يرغبون البقاء فيها قبل أن يستمروا فى رحلتهم.

ولما كان (كونتا) و(سيتافا) قد أُوكلت اليهما مهمة المراقبة فى القرية هما وزملاؤهم فإنهم بدؤوا يحسون ويتصرفون بشكلٍ أكبر من سنهم.. والآن وبعد الإفطار كل صباح فإنهم يجتمعون فى جوار فناء كُتاب العريف.. ويركعون فى هدوء لينصتوا إليه وهو يعلم الأولاد الأكبر منهم سناً كيف يقرأون القرآن.. والأحاديث النبوية.. وكيف يكتبون بأقلام من البوص المغموسة فى الحبر الأسود المصنوع من عصير الليمون المر المخلوط بالسناج الأسود المأخوذ من قعر آنية الطهى .

وعندما ينتهى التلاميذ من دروسهم يجرون.. وأذيال قفاطينهم القطنية ترفرف خلفهم.. ورغم أن (كونتا) لم يبح بشىء فإنه لم يكن الوحيد الذى كان يشعر بأنه أكبر من أن يُعامل كطفل وألا يدعوه يسير عارياً بعد ذلك وكانوا يتجنبون الرضع من الأطفال مثل (لامين) وكأنه مرض معد.. وبدأ (كونتا) و(سيتافا) والآخرون يحومون حول الكبار فى عمر آبائهم أملاً فى أن يلاحظوهم وربما يرسلونهم فى مهام .

كان ذلك فقط قبل الحصاد مباشرة عندما أخبر (أمور و) ابنه (كونتا) ذات ليلة أنه يريده أن ينهض مبكراً فى اليوم التالى ليساعده فى حراسة المحصول.. كان (كونتا) مُثاراً لدرجة أنه لم يستطع النوم ليلتها.. وبعد أن التهم إفطاره فى الصباح أوشك أن ينفجر مرحاً عندما ناوله (أمور و) العزاقة ليحملها..

وعندما اتجها إلى الحقل طار (كونتا) ورفاقه فوق خطوط الأرض المليئة بالمحصول الناضج وهم يصرخون ويلوحون بالعصى نحو الخنازير الوحشية.. وكذلك يصرفون الطيور السوداء والغربان بقطع من الخرق والصيحات عندما كانت تحوم منخفضة فوق الشعير لأن حكايات الجدات أخبرتهم كيف خربت تلك الطيور الجائعة والحيوانات الحقول الناضجة..كان الأطفال يجمعون حفنات الشعير والفول السودانى التى جمعها آباؤهم.. ويتبارون في إحضار قرعات الماء البارد للرجال ليشربوا.

وبعد ستة أيام قضى الله أن يبدأ الحصاد.. وبعد صلاة الفجر خرج الفلاحون وأبناؤهم إلى الحقول وانتظرو فى انتباه وهم ينصتون وأخيراً دقت طبلة (التوبالو) الكبرى فى القرية وانطلق الرجال إلى الحصاد.. وكان طبال القرية والطبالون الآخرون يسيرون بينهم وهم ينشدون ألحاناً ويراقبون حركاتهم.. ومن حينٍ لآخر قد يدفع الحماس أحد الفلاحين إلى إطاحة عزاقته فى الهواء ويدور مع لحن الطبلة ليلتقطها من الجهة الأخرى .

كان (كونتا) ورفاقه يشاركون آباءهم وهم يهزون شجيرات الفول السودانى ليخلصوها من التراب.. وفى منتصف الصباح حانت أولى فترات الراحة.. جاءت النساء والفتيات ومعهن الغداء.. وانطلقت صيحات الارتياح.. سرن فى صف واحد يغنين أغنيات الحصاد.. ثم رفعن الأوانى من فوق رؤوسهن.. ووضعن محتوياتها فى قرعات قدموها للطبالين والقائمين بالحصاد الذين أكلوا وأخذوا قيلولة إلى أن دقت الطبول ثانيةً .

وفى نهاية اليوم الأول كانت أكوام المحصول قد انتشرت فى الحقول.. وكان الفلاحون يسقطون من التعب حين خلعوا ملابسهم وقفزوا إلى الماء وهم يضحكون.. ويسبحون.

ثم اتجهوا بعد ذلك إلى أكواخهم.. وكلما اقتربوا كان الدخان يداعبهم حيث رائحة اللحم المشوى الآتية من المطابخ.. والذى كان يقدم لهم ثلاث مرات يومياً طوال مدة الحصاد .

بعد أن شبع (كونتا) فى تلك الليلة لاحظ ولعدة ليال سابقة أن أمه كانت تخيط شيئاً ما لم تتحدث عنه من قبل.. ولم يسألها (كونتا) بدوره ولكن فى الصباح التالى عندما حمل (كونتا) عزاقته وبدأ يسير نحو الباب نظرت إليه وقالت له بخشونة:

- لماذا لم ترتد ملابسك؟

استدار (كونتا)حول نفسه كان هناك قفطانًا جديدًا معلقاً على شماعة.. أخفى إثارته به.. وارتداه.. ثم خرج من الباب حيث اندفع جرياً.. كان الآخرون ممن هم فى مثل سنه بالخارج كلهم مثله قد ارتدوا تلك الملابس لأول مرة فى حياتهم.. وكل منهم يتقافز ويصيح ويضحك لأن عُريهم قد غُطِىَّ أخيراً.. وأصبحوا الآن رسمياً الجيل الثانى وسيصبحون غداً رجال.

عندها سار (كونتا) الهوينى إلى كوخ أمه فى تلك الليلة تأكد من أن كل فرد فى (جوفور) شاهده فى قفطانه الجديد.. ورغم أنه لم يتوقف عن العمل طوال النهار فإنه لم يشعر بالتعب على الإطلاق.. وكان يعلن أنه لن يستطيع النوم فى وقت نومه المعتاد ربما الآن وقد أصبح كبيراً فقد تسمح له (بينتا) أن يسهر إلى وقت متأخر.. ولكن فور نوم (لامين) أرسلته كما تعودت إلى سريره وهى تذكره أن يعلق قفطانه.

عندما استدار عابساً فى مكر وهو يظن أنه يستطيع الإفلات إلا أن (بينتا) نادت عليه ربما لتعنفه على عبوسه كما ظن (كونتا) أو ربما أخذتها الشفقة به وغيرت رأيها.. ولكنها قالت بطريقة عرضية : والدك يريد أن يراك فى الصباح

.

كان (كونتا) يعلم أنه من الأفضل ألا يسأل.. قال لها: حسناً يا أمى.. ثم تمنى لها ليلة سعيدة.. وكان من حسن الحظ أنه لم يتعب لأنه لم يستطع النوم فاستقلى تحت غطائه من جلد البقر وهو يتساءل عما فعله من خطأ.. الآن بدا له أنه كثيراً ما يخطىء

ولكنه عندما فكر لم يستطيع أن يتذكر أى خطأٍ ارتكبه يمكن أن تمسكه عليه (بينتا) ولابد أن الأب سيتدخل من أجل شىء رهيب.. ترى ماذا فعل؟ وأخيراً استسلم وغرق فى النوم .

وعند الإفطار فى صباح اليوم التالى كان (كونتا) بعد تناول الطعام يجول حول المكان فترة وهو يأمل أن تخبره (بينتا) بالمزيد.. ولكنها لم تخبره بأى شيء.. ترك الكوخ فى تردد وسار فى طريقة بخطوات بطيئة إلى كوخ (أمورو) حيث وقف بالخارج وقد عقد ذراعيه.

عندما خرج (أمورو) وناول ابنه فى صمت مقلاعاً صغيراً وجديداً توقف تنفس (كونتا) وقف وهو ينظر للمقلاع ثم إلى والده وهو لا يعرف ماذا يقول له أبوه .

- هذا لك باعتبارك واحداً من الجيل الثانى.. تأكد من أنك لن تضرب الشيء الخطأ.. وعليك أن تصيب ماتصوب إليه..

- قال (كونتا) فقط ولسانه لا يزال معقودا : نعم يا أبى .

استمر (أمورو)

أيضاً باعتبارك من الجيل الثانى فهذا يعنى أنك ستبدأ فى رعى الماعز والذهاب إلى المدرسة.. واليوم ستذهب لرعى الماعز.. اذهب إلى (تومانى توارى) وهو والأولاد الأكبر سناً سيعلمونك.. استمع إليهم جيداً.. ومن صباح الغد ستذهب إلى الكُتاب .

عاد (أمورو) ثانيةً إلى داخل كوخه واندفع (كونتا) إلى مربط الماعز حيث وجد صديقه (سيتافا) وبقية أقرانه وكلهم ممسكين بمقاليعهم الجديدة.. وقد صنع الأعمام والأخوال المقاليع للأولاد الذين مات اباؤهم.. وكان الأولاد الأكبر سناً يفتحون زرائب الماعز التى اندفعت للأمام وهى تموء جائعةً متطلعةً ليوم رعيٍ جديد.. وعندما رأى (كونتا) (تومانى) وهو أول طفل لأحسن صديق وصديقة لـ (أمور و) و(بينتا)حاول أن يقترب منه ولكن (تومانى) ورفاقه كانوا يحاولون الهروب من طريقه.. ولكن سرعان ما وجد الصبية الأكبر.. وكلاب الرعى أن الماعز كان يسرع إلى الطريق الترابى.. ورفاق (كونتا) يجرون خلفها وهم غير واثقين من أنفسهم وقد قبضوا على مقاليعهم ويحاولون إزالة البقع الملوثة من قفاطينهم .

ولما كان (كونتا) معتاداً على الماعز.. فإنه لم يدرك أبداً مدى سرعتها فى الجرى.. وفيما عدا بعض التمشية مع والده فهو لم يبعد أبداً خارج القرية إلى المدى الذى قادته إليه الماعز حيث ساحة الرعى من ناحية الغابة.

أخيراً قرر (تومانى) أن يلاحظ (كونتا) وهو يتبعه ولكنه تظاهر بعدم الاهتمام.. وكأن الصبى الأصغر منه سناً مجرد حشرة.. وسأله..

- هل تعرف قيمة الماعز ؟

وقبل أن يتمكن (كونتا) من الاعتراف بأنه ليس متأكداً له.. قال له الصبي الأكبرسناً :

- حسناً.. لو فقدت واحدة.. والدك سيعرفك مدى قيمتها .

واندفع (تومانى) فى محاضرة حول قائمة المحاذير بالنسبة لراعى الماعز.. ومعظمها يدور حول ماذا لو تكاسل الصبى.. وجعل الماعز تنفصل.. وتذهب بعيداً عن قطيعها.. عندها لا نهاية للأمور الرهيبة التى ستحدث.. وأشار نحو الغابة.. وقال أنه هناك تعيش الأسود والنمور قابعة أو زاحفة وسط العشب العالى.. ولكن قفزة واحدة من وسط العشب قد تمزق الماعز أرباً.. ولكن إذا كان الصبى قريباً بدرجة كافية فإنه يكون ألذ طعماً من الماعز بالنسبه للأسود والنمور.

راقب (تومانى): فى رضا عينى (كونتا) وقد اتسعتا تماماً.. فاستمر (تومانى) قائلاً:

- والأسود والنمور هم آكلة لحوم البشر.. قد يزحفون خلال جدار العشب ليمسكوا بالناس ويأخذوهم بعيداً حيث يأكلونهم.. وخلال الفترة التى رعيتُ فيها الغنم والتى امتدت لخمسة فصول أمطار هناك تسعة أولاد من (جوفور) أكلتهم تلك الحيوانات الضارية.. وآخرون كثيرون غيرهم من القرى المجاورة.. لم يكن (كونتا) يعرف أياً من الأولاد الذين ضاعوا من (جوفور) ولكنه تذكر أنه كان مرعوباً جداً عندما سمع عنهم لدرجة أنه لم يكن يبتعد عن كوخ أمه لمسافة مرمى حجر..

قال (تومانى) وقد بدا أنه قرأ أفكار (كونتا) :

- ولكنت لست فى أمان حتى داخل بوابات القرية قال لـ(كونتا) أن هناك رجلٌ معروف من (جوفور) حُرِمَ من كل ما يملكه عندما قتلت مجموعة من الأسود كل قطيعه من الماعز.. وقد قُبِضَ عليه بعد ذلك ومعه نقود قبيلة (توباب) آكلة لحوم البشر بعد اختفاء اثنين من الجيل الثالث من الصبية من أكواخهم فى إحدى اليالى؟ وادعى أنه عثر على النقود فى الغابة؟

ولكن فى اليوم السابق لمحاكمته بواسطة مجلس الحكماء اختفى هو نفسه.. قال (تومانى) أنت نفسك ربما كنت أصغر من أن تتذكر ذلك.. ولكن مثل هذه الأمور لازالت تحدث.. لذا يجب عليك ألا تبتعد عن أنظار شخص تثق به.. وعندما تكون فى الخارج هنا مع ماعزك لاتدعها أبداً تذهب إلى حيث تضطر لمطاردتها إلى الأدغال العميقة.. وإلا لن تراك أسرتك ثانيةً أبداً .

وبينما كان (كونتا) ورفاقه يكافحون فى رعاية الماعز كان الأولاد الأكبر منهم سناً يصيحون من بعيد وهم غارقين في الضحك من صيحات الأولاد الهستيرية واندفاعهم نحو أى ماعز تحاول حتى أن ترفع رأسها لتنظر حولها.. وعندما يستريح (كونتا) من الجرى خلف الماعز كان يلقى نظرات عصبية نحو الغابة خشية أن يكون هناك ما هو قابع ومتربص ليأكله.. وعندما أوشكت الماعز قد على الامتلاء من العشب نادى (تومانى) على (كونتا) وقال له فى رزانة:

- ألا تنوى أن تجمع الحطب من أجلك؟

عندئذ فقط تذكر (كونتا) عدد المرات التى رأى فيها جامعى الحطب عائدين فى المساء وكل منهم يحمل حملاً على رأسه من الأغصان الجافة والصغيرة من أجل نيران المساء فى القرية..

وبدأ (كونتا) ورفاقه الجرى حول المراعى للبحث عن الأغصان الخفيفة والتقاطها.. وكوم (كونتا) ما جمعه من أخشابٍ جافة فى حزمةٍ كبيرة بالقدر الذى ظن أن باستطاعة رأسه أن يحمله.. ولكن (تومانى) شب على قدميه وأضاف إليها المزيد من الأغصان..

ثم لف (كونتا) حبل من النبات الأخضر المتسلق حول الأخشاب ليربطها وهو يشك أنه سيتمكن من وضعها فوق رأسه طوال المسافة التى سيقطعها عائداً للقرية.. كان الأولاد الأكبر يراقبونه هو ورفاقه وقد تمكنوا بطريقةٍ ما من وضع الحزمة فوق رؤوسهم.. وبدؤوا فى تتبع كلاب الرعى (الوولو) والماعز التى كانت تعرف اتجاه البيت أحسن من الرعاة الجدد.. وبين ضحكات الكبار المحترقة ظل (كونتا) ورفاقه فى المحافظة على الحزمة فوق رؤوسهم ليحفظوها من السقوط.. لم يسبق لـ (كونتا) أن رأى منظر القرية فى مثل هذا الجمال الذى يراها به الآن.. ولكن ما أن خطوا داخل بوابات القرية إلا وأحدث الصبيةُ الكبار جلبةً رهيبة وهم يصيحون بأقصى أصواتهم محذرين ومصدرين الأوامر.. وكانوا يتقافزون بحيث يمكن لكل البالغين الموجودين فى الجوار أن يسمعوا ويشاهدوا ويعرفوا أنهم يؤدون مهمتهم.. وأن يوم التدريب لهؤلاء الأولاد الأصغر سناً والأغبياء كان أكبر محنة متعبه بالنسبه لهم.. ووصلت حمولة رأس (كونتا) سالمة إلى فناء (بريما سيزاى) عريف القرية والذى سيبدأ تعليمه لـ (كونتا) ورفاقه لأول مرة فى الصباح التالى بعد الإفطار مباشرةً.. كان كل من رعاة الماعز الجُدُد قد حمل بكل فخر فرع قطن يستخدم فى الكتابة.. ولوحاً.. وحزءاً من الخيزران يحتوى على السناج لخلطه بالماء واستخدامه كحبر.

كان العريف يعاملهم وكأنهم أكثر غباءً من ماعزهم.. وأمرهم أن يجلسوا على الأرض.. ما أن نطق بالكلام حتى أخذ يمر بين صفوفهم ومعه عصاه الخيزران.. ثم أمرهم بالزحف على بطونهم لأنهم لم يطيعوا أوامره بالسرعة الواجبة.. أخذ يوبخهم ويحذرهم بالعصا التى كان يلوح بها فى وحشية من التهاون في اتباع أوامره بدقة..

ونفس المعاملة ستكون مع أى واحد يأتى إلى الفصل متأخراً بعد الإفطار.. وحال عودتهم مرةً ثانيةً بعد رجوعهم من رعى الماعز.. وقال العريف: لم تعودوا أطفالاً وعليكم مسؤوليات الآن.. وأعلن أنهم يمكنهم أن يبدأوا هذا المساء بقراءة لبعض آيات القرأن الكريم.. وعليهم أن يتذكروها ويحفظوها جيداً قبل الانتقال إلى غيرها.

وعندما صرفهم كان تلاميذه الأكبر سناً والرعاة السابقون للماعز قد بدؤوا فى الوصول.. وكانوا أكثر عصبية من رِفاق (كونتا) لأن اليوم هو موعد امتحاناتهم النهائية فى حفظ القرآن .. وفى الكتابة باللغة العربية.. والتى نتائجها ستكون ذات ثقل كبير فى نقلهم رسمياً إلى الجيل الثالث.. وفى ذلك اليوم كان على كل منهم أن يعتمد على نفسه لأول مرة فى حياتهم.. استطاع رفاق (كونتا) النجاح فى إخراج الماعز من الزرائب والجرى بها فى صفوف متقاطعة طوال الطريق للخارج إلى منطقة الرعى.. ولكن (كونتا) كان يحس أنه مربوط أكثر من قطيعه.. ولا يستطيع أن يستوعب معانى تلك التغييرات المفاجأة فى حياته.. فبعد قضاء النهار كله مع الماعز.. وعند العريف.. وتمرينات النبال والقلاع التى لابد أن يقوم بها قبل حلول الظلام بدأ أنه من المستحيل عليه أن يجد وقتاً لأى شيءٍ آخر بعد ذلك.

***

كان موعد حصاد الفول السودانى والشعير قد انتهى.. وجاء بعده حصاد أرز النساء.. لم يساعد أى رجل زوجته وحتى الأولاد مثل (سيتافا) و (كونتا) لم يساعدوا أمهاتهم لأن ألأرز كان عمل النساء فقط.. وعند أول ضوء فى الفجر كانت (بينتا) مع (جانكاى توراى) والنساء الآخريات منحنيات على حقولهن الناضجة.. وهن يقطعن ألأعواد الطويلة الذهبية والتى تُرِكَتْ لتجف بضعة أيام على الممرات والماشى قبل تحميلها فى الزوارق والعودة بها إلى القرية حيث النساء وبناتهن يقمن بخزن الربطات النظيفة فى مخازن البيت.. ولكن لا راحة للنساء

حتى بعد انتهاء موسم حصاد الأرز.. لأن عليهن إذن أن يساعدن الرجال فى جنى القطن الذى تُرِكَ إلى النهاية حتى يجف قدر المستطاع تحت الشمس الحامية وبالتالى لتصنع منه خيوط أفضل من أجل حياكة النساء.. كان كل فرد يتطلع إلى مهرجان حصاد (جوفور) الذى يستمر لمدة سبعة أيام.. وقد تبارت النساء الآن فى صنع ملابس جديدة لعائلاتهن.. ورغم أن (كونتا) كان يعرف أنه من الأفضل ألا يظهر توتره إلا أنه اضطر لعدة أمسيات أن يرعى شقيقه الثرثار المزعج الصغير (لامين) بينما كانت أمه تغزل قطنها..

ولكن (كونتا) عاد سعيداً مرة أخرى عندما اصطحبته أمه معها إلى نساجة القرية (ديمبو ديبا) التى راقبها (كونتا) فى انبهار وهى تنسج على النول بيديها وقدميها بكرات الخيوط إلى شرائح من قماش القطن.. وعند العودة للبيت سمحت له أمه أن يصب الماء على رماد الخشب ليصنع صبغة قوية ويخلطها بسمحوق أوراق النيلة الزرقاء لصبغ القماش باللون الأزرق الداكن.. وكانت كل نساء (جوفور) يفعلن نفس الشيء.. وسرعان ما نشرن قماشهن على الشجيرات المنخفضة لتجف مما جمل القرية ببقع من جميع الألوان المبهجة

بينما كانت النساء يقمن بالغزل والحياكة.. عمل الرجال بنفس المشقة للانتهاء من مهامهم الخاصة قبل مهرجان الحصاد.. وقبل موسم الحرارة الذى يجعل الأعمال شاقة ومستحيلة.

أخذوا فى ترميم سور البامبو الخاص بالقرية فى الأماكن المكسورة أو المنهارة أو المتهلهلة نتيجة احتكاك الماعز والثيران به.. وأجريت الإصلاحات فى السقوف الطينية التى أفسدتها الأمطار الكبرى.. الأزواج الذين يتزوجون حالاً يحتاجون لبيوت جديدة.. وقد اتيحت الفرصة لـ (كونتا) أن ينضم للأطفال الآخرين فى وضع الماء الملوث فى الطين الناعم السميك الذى يستخدمه الرجال لتغطية الجدران من أجل الأكواخ الجديدة.. وعندما ظهر بعض الماء الملوث بالطين فى بعض الدلاء التى ترفع لأعلى من الآبار هبط أحد الرجال لأسفل فوجد السمكة الصغيرة التى احتفظوا بها فى قاع البئر لتأكل الحشرات قد ماتت من الماء الأسن..

ولذلك تقرر أنه لابد أن تحفر بئر جديدة.. وكان (كونتا) يتفرج على الرجال وقد وصلوا فى حفرهم للبئر الجديدة إلى ارتفاع الكتف.. ثم رفعوا لأعلى بعض قطع الحجارة البيضاء المائلة للخضرة فى حجم البيضة وسرعان ما أخدت فى الحال لتلك النساء الحوامل اللاتى تضخمت بطونهن حيث أكلنها فى نهم.. لأن ذلك الجير كما أخبرته (بينتا) يعطى الطفل عظاماً قوية.

ولم يكن هناك فرد واحد فى (جوفور) أكثر انشغالاً من الجدات العجائز اللاتى كن غالباً من يعملن الآن لوقت متأخر من اليل للوفاء باحتياجات الفتيات غير المتزوجات فى القرية من الطُرح اللاتى سيرتدينها فى المهرجان.. وكذلك كعكات الشعر.. والضفائر الكاملة والجدائل الرفيعة والباروكات كلها تجدل من ألألياف المتعفنة للكتان.. أو من قشور (الباوباب) المنقوعة

وكانت ألياف الكِتان تكلف أقل من تلك المصنوعة من الألياف الناعمة والحريرية من شجرة (الباوباب) والتى يحتاج تجديلها إلى وقتٍ أطول لدرجة أن باروكة كاملة تكلف مايعادل ثمن ثلاث ماعزات.. ولكن العملاء كانوا يفاصلون بقوة وبصوت مرتفع وهو يعلمون أن الجدات يأخذن أجراً أقل عندما يتمتعن بقضاء ساعات فى مجادلات وفصال قبل البيع.. وكانت العجوز (نيوبوتو) بباروكاتها جيدة الصنع بشكل خاص.. وكانت تسعد كل امرأة فى القرية بتحديها الصاخب للتقاليد القديمة التى تفرض على كل امرأة أن تظهر الاحترام الأقصى للرجال.. وفى كل صباح يجدونها قابعةً مستريحة أمام كوخها وقد خلعت ملابسها حتى الوسط وهى تستمتع بحرارة الشمس.. ولكنها لم تكن أبداً مشغولة عن ملاحظة أى رجل عابر.. وكانت تقول: ها.. انظر إلى هذاّ إنهم يسمون أنفسهم رجالاً.

وكان الرجال والمارةُ يتوقعون دائماً ما سيحدث فينطلقون جريًا ليهربوا من سلاطة لسانها إلى أن تسقط أخيراً نائمةً فى فترة ما بعد الظهر.. والأطفال الذين تحت رعايتها كانوا يضحكون من شخيرها العالى.

والجيل الثانى من الفتيات كن أثناء ذلك يساعدن أمهاتهن وأخواتهن الكبيرات فى جمع سِلال الخيزران المملوءة بالجذور الطبية.. وتوابل الطهى حيث ينشرنها تحت الشمس لتجف.. وكن يساعدن الأسرة أيضاً فى الغسيل وضرب الملابس على الحجارة لإزالة الطين وشطف الملابس بالصابون الأحمر الذى صنعته الأمهات من الصبغة وزيت النخيل.. وعندما ينتهى العمل الرئيسى للرجال قبل أيام قليلة من ولادة القمر الجديد الذى سيفتتح به مهرجان حصاد فى كل قرى (جامبيا) وتبدأ تسمع أصوات الألات الموسيقية هنا وهناك فى (جوفور) حيث كان موسيقو القرية يتدربون على آلاتهم المكونة من أربعةً وعشرين وتراً.. وعلى طبولهم وألات البلافون وهى ألات موسيقية مصنوعة من قرعات مربوطة تحت كتل خشبية ذات أطوال مختلفة.. وتُطرق بمطارق خشبية.. ويتجمع جمهور قليل حولهم ليصفقوا وينصتوا..

كان القليل من الرجال يقضون ساعات طويلة بمفردهم وهم ينحتون فى صبر قطعاً من الخشب من أحجام وأشكال مختلفة.. و(كونتا) وأصدقاؤه يضعون نبالهم جانباً ليقفوا ويشاهدوا النحاتين يبدعون التعبيرات المخيفة والغامضة على الأقنعة التى سيرتديها بعد قليل الراقصون فى المهرجان.. والبعض الآخر ينحتون وجوهاً آدمية.. أو حيوانية لها أذرع وسيقان قريبة من شكل الجسد.

(بينتا) وباقي النساء الأخريات ذهبن إلى بئر القرية كعادتهن كل يوم من أجل جلب الماء البارد وحيث يقضين بضع دقائق في الثرثرة وإطلاق الشائعات.. لكن كان أمامهن الكثير ليفعلنه من أجل الاحتفالات.. كان لابد من الانتهاء من حياكة الملابس الجديدة.. وتنظيف الأكواخ.. ونقع الأطعمة المجففة.. وسلخ الماعز من أجل الشواء.. وفوق كل ذلك كان عليهن أن يجعلن أنفسهن يبدون فى أحسن صورة من أجل المهرجان.

لاحظ (كونتا) أن الفتيات الصاخبات ضِخام الأجساد اللاتى كثيراً ما كان يراهن يتسلقن الأشجار بعض أفواههن متورم لأعلى فى حجم قبضة اليد وكانت الشفةُ الداخلية قد ثُقِبَتْ بشوكة ودُهِنت بالسناج.. حتى (بينتا) كانت قد أعدت في الليل حساءاً من أوراق "الفووانو" الطازجة.. ثم بردته وغمست فيه قدميها وراحتى كفيها ليصبح لونهم مثل الحبر الأسود.. وعندما سأل (كونتا) أمه عن ذلك أخبرته: كلما زاد سواد المرأة زاد جمالها سألها (كونتا) ولكن لماذا؟ فرد عليه أبوه (أمور و) قائلاً: يوماً ما ستفهم!!

قفز (كونتا) واقفا عندما تردد صوت طبلة (التوبالو) فى الفجر.. ثم أخذ هو و(سيتافا) والآخرون يجرون وسط الكبار إلى حيث شجرة القطن الحريرى حيث كان طبالوا القرية يطرقون على الطبول.. ويصيحون فيها ويزمجرون وكأنه ا مخلوقات حية.. كان الجمهور المجتمع من القرويين قد بدأ كل منهم يرد ويتستجيب واحداً بعد الآخر بحركات بطيئة من أذرعهم وسيقانهم وأجساد هم.. ثم أسرع فأسرع.. إلى أن انضم كل فرد تقريباً إلى الرقص.. كان (كونتا) قد شاهد العديد من تلك الاحتفالات لعدة فصول زراعية وفصول حصاد.. ومن أجل الرجال الذين يرحلون للصيد ولحفلات الزواج وأعياد الميلاد والوفاة..

ولكن الرقص لم يحركه من قبل قط كما يفعل الآن.. وكان كل فردٍ فى القرية يبدو وكأنه يقول بجسده شيئاً ما فى عقله.. وبجانب الدوران كالدوامة والتقافز والتلوى من الرجال كان البعض منهم يرتدى الأقنعة.. وكان (كونتا) لا يكاد يصدق عينيه عندما شاهد العجوز الفظة (نيوبوتو) وهى ترتجف فجأة فى وحشية وهى تهز كلتا يديها أمام وجهها تركل للخلف فى خوف ورعبٍ غير مرئيين.. ثم وكأنها ا تنتزع حملاً وهمياً وأخذت تركله في الهواء إلى أن تكومت على الأرض.. استدار (كونتا) فى ذلك الاتجاه..

والاتجاه الآخر وهو يحملق في مختلف الناس ممن يعرفهم من بين الراقصين.. تعرف (كونتا) تحت واحد من الأقنعة المرعبة على الإمام العريف وهو يلتوى حول نفسه مرةً تلو الأخرى مثل الثعبان حول جذع شجرة.. ورأى أن بعض من سمعهم كانوا أكبر سناً من العجوز (نيوبوتو) وقد غادروا أكواخهم وهم يتعثرون ويترنحون فوق سيقانهم أذرعتهم المجعدة وهى تغطى أعينهم التى ترمش فى الشمس من أجل أن يرقصوا بضع رقصات.. ثم اتسعت عينا (كونتا) عندما وقعتا على ركبتى والده (أمور و) ترتفعان فى هياج وترفع قدماه التراب.. وتراجع للخلف وهو يطلق صرخاتٍ حادة.. وعضلاته ترتجف.. ثم مال للأمام وهو يدق على صدره.. ثم استمر فى القفز والتلوى فى الهواء ليهبط بكل ثقله على الأرض.. بدت دقات الطبول العالية وكأنها لا تخترق أذنى (كونتا) فحسب وإنما تخترق أيضاً وصاله وشرايينه.. ودون أن يدرى ـ تقريباً وكأنه في حلم ـ أحس بجسده وقد بدأ يرتجف وذراعاه يتطايران.. وسرعان ما أخذ يدور كالنحلة وهو يصيح مع الآخرين بعد أن كف عن مراقبتهم.. وأخيراً تعثر ثم سقط مُرهقاً.. رفع نفسه.. وسار وركبتاه ضعيفتان إلى أحد الجوانب وهو يحس بغرابة شديدة لم يسبق له أن أحسها من قبل قط..كان مذهولاً ومرعوباً ومُثاراً.. ورقص (كونتا) ثانيةً.. ورقص الجميع معه من الأصغر إلى الأكبر سناً.. رقصوا جميعاً طوال النهار حتى لم يضيعوا وقتاً من أجل الطعام والشراب.. وإنما فقط ليلتقطوا أنفاسهم.. ولكن كانت الطبول لاتزال تدق عندما انهار (كونتا) نائماً.

اليوم التالى بدأ الاحتفال باستعراض لرجال الشرف بعد شمس الضحى مباشرةً.. وعلى رأس الاستعراض كان العريف.. والإمام.. والسادة الكبار.. والصيادون.. والمصارعون.. وهؤلاء الذين عينهم مجلس الحكماء لأداء الأعمال الهامة فى (جوفور) منذ مهرجان الحصاد السابق.. أما الرجال الآخرون فجاءوا خلفهم وهم يغنون ويصفقون وكان الموسيقيون يقودونهم فى صفٍ واحدٍ متعرج كالثعبان خلف القرية.. ثم قاموا بدورة حول شجرة المسافرين..

واندفع (كونتا) وأترابه للأمام.. وكونوا استعراضهم الخاص.. ثم ساروا للأمام والخلف متجاوزين الكبار السائرين وهم يتبادلون الانحناءات والابتسامات.. ومعهم آلات الفلوت والأجراس والشخاشخ.. دار الصبيةُ المستعرضون وهم يختارون فى كل مرة صبى الشرف.. وعندما جاء درو (كونتا) دار حول نفسه رافعاً ركبتيه عالياً وهو يشعر أنه مهم جداً.. وعند مروره بالكبار التقت عيناه بعيون (أمور و) و(بينتا) وأدرك كم هما فخوران به.. وقدم كل مطبخ فى القرية مجموعة متنوعة من الطعام فى دعوة مفتوحة لكل شخص يمر.. وأراد أن يتوقف ليتمتع بطبق شهى.. التهم (كونتا) ورفاقه الأطباق الشهية.. وامتلأت بطونهم من العديد من القرعات المليئة بحلو الأرز.. والثريد.. وكذلك لحم الماعز المشوى.. ولحم حيوانات الغابة والتى كانت بوفرة.. وكان أهم واجبات الفتيات هى الحِفاظ على سلال البامبو مليئة بكل أنواع الفواكه المتاحة.. وأحياناً كان الأولاد يندفعون للخارج نحو شجرة المسافرين لمقابلة الغرباء المثيرين الذين كانوا يدخلون القرية.. وكان البعض منهم يبقى إلى الليل.. ولكن معظمهم كان يبقى فقط لبضع ساعات.. ثم ينتقلو إلى مهرجانٍ آخر.. فى قريةٍ أخرى.. وكان الزائرون من السنغال يقدمون عروضاً ملونة بأحزمة مصنوعة من أقمشة مزخرفة.. والبعض الآخر وصلوا ومعهم زكائب من أفضل أنواع جوز الكولا النيجيرى.. وحجم كل جوزة يحدد ثمنها.. وكان التجار يأتون فوق الرافد فى قوارب محملة بالملح يتبادلونه من نبات النيلة.. وجلود الماعز والثيران.. وشمع وعسل النحل..

وكانت (نيوبوتو) الآن مشغولة بعملية البيع.. وكانت تبيع حزمة جذور أعشاب الليمون المفصوصة والمنظفة التى كانت تستخدم فى دعك الأسنان لتجعل رائحة الفم مقبولة.. وكان التجار الوثنيون يسرعون وهم يمرون بـ (جوفور) دون حتى أن يتوقفوا لأن بضائعهم من التبغ والنشوق والبيرة كانت تُباع فقط للملحدين.. حيث أن الـ(مانديكا) المسلمين كانوا لا يشربون الخمور ولا يدخنون التبغ.

وفى كل صباح كانت القرية تنام وتستيقظ على صوت الطبول.. وكل نهار كان يحمل موسيقيين متجولين مختلفين عن السابقين.. وكان أهل القرية يقدمون لهم الهدايا وهم يرقصون.. وقد يتوقفون ويعزفون فترة أخرى قبل أن يتحركوا إلى القرية التالية.. وعندما كان الحكائون يأتون للقرية كانت تخيم على الجميع حالةٌ من الصمت وهو جالسون حول شجرة (الباوباب) ليستمعوا إلى ما يحكونه من أساطير عن الملوك القدامى.. والأسر.. والعشائر.. والمعارك الكبرى الماضية.. وقد يذكر أحد المنشدين الدينيين نبوءات وتحذيرات بأنه يجب الاستغفار لله العظيم

ثم يعرض أن يقوم باللازم من المراسم والطقوس مقابل هدية بسيطة.. وقد أصبح ذلك من الأمور المألوفه عند (كونتا) وكان المنشد بصوته الجهورى يغنى أشعاراً لا تنتهى حول روعة ممالك "غانا" و "السنغال" و "مالى" القديمة.. وعندما ينتهى قد يدفع له بعض أهل القرية من أجل أن ينشد مدائح عن ابائهم..

وما أن ينتهى المنشد من عمله حتى يذكره الأهالى بسرعة الحضور إلى (جوفور) إذا أرسلوا رسالة له عن طريق الطبول لينشد المدائح فى الجنائز والزيجات أو المناسبات الخاصة الأخرى.. ثم يتركهم المُنشد ليسرع نحو القرية التالية.

وبعد ظهر اليوم السادس من مهرجان الحصاد تردد على (جوفور) فجأة صوت طبلة غريب.. وعند سماع الكلمات المهينة التى عبرت عنها الطبلة سارع (كونتا) إلى الخارج

وانضم إلى القرويين الآخرين الذين اجتمعوا غاضبين بجوار شجرة (الباوباب) كان من الواضح أن الطبلة تحذر من قرب وصول مصارعين شجعان.. وأنه على من يدعون أنهم مصارعون فى (جوفور) أن يختبؤوا.. وخلال دقائق أخذ أهل (جوفور) يحيون ويهتفون عندما ردت طبلتهم الخاصة بحدة أن مثل هؤلاء الغرباء البلهاء إنما يسعون إلى أن يصبحوا عجزة إن لم يحدث لهم الأسوأ.. اندفع القرويون إلى حلبة المصارعة.. وارتدى المصارعون ملابسهم..

ولفوا أحزمة من القماش المفتول على الوسط والأرداف.. ودهنوا أجسادهم بمرهم منزلق مصنوع من أوراق شجرة (الباوباب) المطحونة برماد الخشب.. وسمعوا صيحات التى تعنى أن متحديهم قد وصلوا.. لم ينتظر هؤلاء الأغراب ذوو الأجسام القوية أبداً إلى الجمهور الساخر.. كانوا يجرون بجوار طبولهم.. واتجهوا مباشرة إلى حلبة المصارعة وهم يلمعون فى ملابسهم.. وبدأ كل منهم يدعك جسد الآخر بالمرهم الخاص به.. ثم ظهر مصارعو (جوفور) خلف طبالى القرية.. والجمهور يصيح ويهلل لدرجة الفوضى.. حتى أن الطبالين توسلو إليهم أن يلتزموا الهدوء.. تكلمت الطبلتان استعداداً للنزال.. وانقسم الفريقان إلى أزواج ثنائية.. كل مصارع من المصارعين يواجه الآخر.. ويحملق فيه.. وصدرت الأوامر من الطبالين بالبدء.. تشابك الفريقان.. وبدأ كل زوج من المصارعين فى الدوران مثل القطط.. وانطلق الطبالون فى الدق هنا وهناك بين الرجال المتشابكين.. وكانت كل طبلة تنطق اسم المصارعين الأبطال من أسلاف القرية التى تمثلها.. وتذكر المصارعين بأن أرواحهم تراقبهم.. وتصاعدت سُحب الغبار.. وكادت تخفيهم تقريباً عن المتفرجين الذين أخذوا يصرخون عالياً.. كانت سقطات الانزلاق لا تحتسب.. والنصر يأتى فقط عندما يفقد أحد المصارعين منافسه توازنه.. ويرفعه فى شجاعةٍ لأعلى.. ثم يدور به ويسقطه على الأرض.. كانت الجولة الأولى لأحد أبطال (جوفور).. ثم واحدٌ من المتنافسين..

كان الجمهور يقفز ويصرخ ويدق الطبول معلناً اسم الفائز.. وخلف الجمهور الثائر كان (كونتا) ورفاقه يتصارعون فيما بينهم.. أخيراً انتهى الأمر وقد كسب فريق "جوفور" سقطةً واحدة..

وقد قدم للفريق الفائز جوائز من القرون والحوافر من الثيران المذبوحة حديثاً.. ووُضِعَت قطع ضخمة من اللحم لتشوى على النار.. ودعى المصارعون الشجعان ومتحديهم ليقبلوا على الوليمة.. وهنأ الناس الزائرين على قوتهم.. وربطت العذارى غير المتزوجات أجراساً صغيرة حول كواحل المصارعين وأذرعهم.

بدأت الشمس الحامية فى الغروب.. وعندها تجمع الناس ثانيةً حول حلبه المصارعة.. الجميع ارتدوا أحسن ملابسهم.. وعلى خلفية الطبول قفز كلٌ من أعضاء فريقى المصارعة إلى الحلبة.. وبدأوا ينحنون.. ويتقافزون.. وعضلاتهم الضخمة تبرز.. وأجراسهم الصغيرة تصلصل..

والمشاهدون معجبين بشجاعتهم وجمالهم.. فجأة دقت الطبول بشدة.. وجرت العذارى نحو الحلبة.. وهن يتمايلن فى دلال بين المصارعين.. أخذ الجميع يصفقون.. ثم بدأ الطبالون يدقون أسرع وأشد ألحانهم.. وأقدام زأجساد العذارى تتابع اللحن فى سرعته.. ثم بدأت كل فتاةٍ بعد الأخرى تقفز لأعلى وهى غارقةً فى عرقها.. وترفس وسط التراب شالها المصبوغ بألوانٍ متعددة.. كانت كل العيون متلهفة وتنتظر من الرجل غير المتزوج أن يلتقط الشال مظهراً بذلك تقديره الخاص لرقصة تلك العذراء والذى قد يعنى أنه قريباً سيتحدث مع أبيها حول المهر وقيمته بالماعز والبقر.



فى آخر صباح للمهرجان استيقظ (كونتا) على صوت صرخات.. ارتدى جلبابه وانطلق مندفعاً للخارج.. وأحس بمعدته تتقلص من الخوف.. أمام العديد من الأكواخ المجاورة كان نصف دستة من الرجال يرتدون أقنعةً مخيفة وهم يتقافزون ويلتوون فى وحشية.. ويلوحون بالرماح.. وقد وضعوا على رؤوسهم طراطيرًا عالية.. وارتدوا حُللاً من الأوراق والأغصان.. راقب (كونتا) فى رعب أحد الرجال وهو يدخل كل كوخ.. ثم وهو يزرأ ويخرج ويهز فى أحد ذراعيه ولداً مرتجفاً من الجيل الثالث.. انضم إلى (كونتا) شلةٌ من رفاقه من نفس جيله والذين أصابهم الرعب.. وأخذوا يتلصصون بعيون واسعة حول ركن الكوخ.. كان على رأس كل صبى من الجيل الثالث غطاءاً من القطن السميك.. عندما لمح أحد الرجال المقنعين (كونتا) وجماعته من الصبية اندفع نحوهم وهو يلوح برمحه.. ويصيح صيحاتٍ مخيفة.. ورغم أنه يتوقف على مقربة منهم استدار وعاد إلى حمولته ذات أغطية الرأس كان الصبية يتلقفونها وهم يصرخون فى رعب.. وعندما تم جمع كل أطفال الجيل الثالث من القرية تحولوا إلى عبيد.. أخذوهم من أيديهم وقادوهم واحداً بعد الآخر خارج بوابة القرية.. كان (كونتا) قد سمع أن هؤلاء الصبية الأكبر منه سناً سيؤخذون بعيداً عن (جوفور) من أجل تدريباتهم على الرجولة.. ولكن لم تكن لديه أية فكرة أن ذلك سيحدث بهذه الطريقة.. كان رحيل الجيل الثالث من الصبية مع الرجال الذين سيقومون بعملية تدريبهم على الرجولة قد ألقى ظلاً من الحزن على القرية كلها.

وفى الأيام التى تلت ذلك لم يكن (كونتا) ورفاقه يتكلمون عن شىء سوى تلك الأمور المخيفة والأشياء الأكثر إرهاباً التى سمعوا عنها عن تدريبات الرجولة الغامضة.. وفى كل صباح كان العريف يوبخهم لعدم اهتمامهم بحفظ آيات القرآن.. كان (كونتا) ورفاقه لا يفكرون إلا فى أنهم سيكونون ضمن المجموعة التالية من صبية (جوفور) وسيركلون ويسحبون إلى الخارج عبر بوابة القرية.. لقد سمعوا جميعاً أن اثنى عشر شهراً قمرياً كاملاً ستمر قبل أن يعود ذلك الجيل الثالث من صبية (جوفور) إلى القرية..

ولكن وقتها سيعودون كرجال.. وقال (كونتا): أن بعضهم قال له أن الأولاد فى تدريب الرجولة يتعرضون للضرب يومياً.. وقال صبى اسمه (كرامو) أنهم يعودون لصيد الحيوانات المفترسه فى أعماق الغابة من أجل الطعام وقال (سيتافا) أنهم يُرسلون ليلاً بمفردهم إلى أعماق الغابة.. وأن عليهم أن يجدوا طريقهم للعودة بمفردهم.. ولكن اسوأ شىء والذى لم يذكره أى منهم أنه خلال تدريب الرجولة فإن جزءا من جسده لابد أن يقطع[1].. وأصبحت فكرة تدريب الرجولة أكثر إرهاباً لدرجة أن الصبية كفوا عن الحديث فيها.. وكل منهم يحاول أن يخفى مخاوفه بداخله ولايريد أن يظهر بأنه ليس شجاعاً.

والآن يستطيع الأولاد أخيراً أن يتمتعوا بأنفسهم.. فهم الآن يطلقون الأحجار بنبالهم.. وأيضاً بالسهام والأقواس الجديدة التى أعطاها لهم آباؤهم عند تخرجهم إلى الجيل الثانى.. وكانوا يقضون وقتهم فى قتل كل المخلوقات الصغيرة التى يمكنهم أن يعثروا عليها.. أرانب برية.. سناجب.. فئران.. حيات.. وكان الأولاد فى بداية ما بعد الشهر يسلخون وينظفون صيدهم.. ويدعكون بطونها بالملح الذى كانوا يحملونه باستمرار.. ثم يقيمون ناراً ويشوونه ليأكلوه .. وكانوا أحياناً يتصارعون أو يتسابقون.. ويتشابكون.. ويطرح كل منهم الآخر.. ويتضاربون بالعشب السميك إلى أن يرفع أحدهم يده عالياً بحفنة من العشب علامة السلام.. ثم يهدؤون من روحهم القتالية بدعك أقدامهم بمحتويات بطن أرنب.. فقد سمعوا فى روايات الجدات أن المحارب الحقيقى يستخدم معدة الحمل.. وأحياناً ما كان (كونتا) وأترابه يسابقون كلابهم الوفية من فصيلة "الوولو" والتى احتفظ بها شعب الـ(ماندينكا) لقرون لأنها كانت معروفة بأنها واحدة من أحسن سلالات كلاب الصيد والحراسة فى كل أفريقيا.. وكانوا يزحفون حتى جدار أعشاب السافانا العالية التى أنضجتها الشمس عن طرائدهم من وحيد القرن.. والأفيال.. والنمور.. والأسود.. وأحياناً ما كان (كونتا) باعتباره صبى يتتبع ماعزه بحثاً عن العشب والظل يجد نفسه منفصلاً عن أترابه.. والمرات الأولى القليلة التى حدث فيها ذلك قاد (كونتا) ماعزه بأقصى سرعة ممكنة واتجه عائداً ليكون بالقرب من (سيتافا)..

(1) يقصد هنا إجراء عملية الختان للأولاد.

ولكن سرعان ما بدأ يحب تلك اللحظات من الوحدة لأنها تعطيه الفرصة ليطارد خلسةً بعض الوحوش الكبرى بنفسه.. ولم يكن ذلك الوحش العظيم ضبعاً أو نمراً أو حتى أسداً عادياً الذى كان يبحث عنه فى أحلام يقظته لقد كان أشرس الحيوانات جميعاً وأكثرها حشية وهو الجاموس المجنون.. كانت الجاموسة التى طاردها وهو لايزال فى أحلام يقظته قد نشرت رعباً كبيراً فى الأرض لدرجة أن العديد من الصيادين قد أُرسِلوا ليقتلوا الحيوان المتوحش.. ولكن كل ما نجحوا فيه أنهم جرحوه بعد أن اخترق أجسادهم واحداً بعد الآخر بقرونه اللعينة.. بعدها أصبح الجاموس أكثر تعطشاً للدماء بسبب آلام جروحه.. فهاجم وقتل كثيراً من المزارعين من (جوفور) ممن كانوا يعملون فى الخارج فى حقولهم.. توغل الصياد الشهير (كونتاكنتى) فى الغابة.. وأحرق عشوش النمل ليطلق الدخان حتى يحافظ على طاقته بالعمل الشاق.. عندما سمع صوت الطبل البعيد يرجوه أن ينقذ الناس فى القرية التى وُلِدَ فيها.. ولم يكن يستطيع أن يرفض.. لم تتحطم حتى ورقه تحت قدميه حتى يتسلل فى سكون شديد بحثاً عن علامات سير الجاموس وهو يستخدم حاسته السادسة التى تخبر الصيادين أى طريق تسير فيه الحيوانات.. وما أن عثر على الآثار التى كان يبحث عنها حتى وجد أنها أكبر من أى أثار سبق له أن شاهدها.. أخذ يجرى متقافزاً فى سكون.. وأخذ شهيقاً كبيراً وشم الرائحة المجنونة التى قادته إلى روث ذكر الجاموس الضخم.. وبكل مهارةٍ.. واحتراف لمح الصياد (كونتاكنتى) الوحش الضخم بينما كان مختفياً عن العيون.. ومختبئاً وسط العشب العالى والكثيف.. شد قوسه للخلف.. وصوب بدقة.. وأرسل السهم إلى هدفه.. جُرِحَ الجاموس جرحاً خطيراً.. والآن بجرحه هذا أصبح أكثر خطرا عن أى وقت مضى.. قفز (كونتا) فجأة من جانب إلى جانب.. وهو يهرب من هجوم الجاموس اليائس الساحق والذى تماسك على نفسه.. واندفع فى هجومه عليه من جديد.. اطلق (كونتا) سهمه الثانى فى الوقت الذى اضطر فيه لأن يقفز جانباً فى آخر لحظة.. وسقط الجاموس ميتاً.. وأخرجت صفاره (كنتى) الحادة الصيادين مرعوبين.. والذين سبق لهم أن فشلوا فشلاً ذريعاً.. فى حين نجح هو نجاحاً باهراً.. أمرهم أن يزيلوا الجلد والقرنين الضخمين.. وأن يستدعوا المزيد من الرجال ليساعدوهم فى جر الجثة كلها عائدين بها إلى (جوفور).

فرش الناس الهاتفون فى مرح جلود الحيوانات حتى لا تطأ قدما (كونتا كنتى) التراب أخذت الطبول تعلن.. والأطفال تصيح "البطل الصياد (كنتى) وهم يلوحون بالأغصان وبأوراقها فوق رؤوسهم.. كان كل فرد يزاحم ويتدافع حتى يلمس الصياد الشجاع المغوار.. وحتى يمكن أن تحتك بهم وهم يعيدون تمثيل القتل بالصيحات والعصى الطويلة.. والآن من وسط الجمهور الحاشد سارت نحوه أقوى وأجمل وأكثر العذارى السود دلالاً فى (جوفور) إن لم تكن فى كل (جامبيا) وركعت وقدمت له قرعةً من الماء البارد.. ولكن (كنتى) الذى لم يكن ظمآناً بلل بالكاد أصابعه من أجل أن يشرفها.. بينما شربت هى الماء وقد اغرورقت عيناها بدموع السعادة.. وبذلك أظهرت للجميع حبها له.. أخذت الجماهير الهاتفة تتفرق مفسحةً الطريق لـ(أمورو) العجوز المجعد الجلد ذى الشعر الأبيض.. وكذلك لـ"بينتا " اللذين جاءا يتكآن على عصايتهما.. سمح الصياد البطل لأمه العجوز أن تحتضنه و(أمورو) يراقبها وقد امتلئا فخراً.. وغنى أهل (جوفور): (كنتى).. (كنتى).. وحتى الكلاب كانت تنبح معبرةً عن هتافها بطريقتها.. هل كان كلبه "الوولو" الخاص الذى يصيح (كنتى).. (كنتى).

قفز (كونتا) من حلم يقظته فجأة فى اللحظة المناسبة ليرى ماعزه الذى نسيه وقد هجم على مزرعته أحدهم.. وساعده (سيتافا) والآخرون وكلا بهم لإعادة القطيع ثانيةً قبل أن يحدث أى خراب.. ولكن (كونتا) كان مندهشا للغاية حتى أن قمراً كاملاً اختفى قبل أن يستغرق فى مزيد من أحلام اليقظة.

***

كانت الشمس شديدةالحرارة كالعادة عندما بدأت الأشهر القمرية الخمسة للجفاف.. وعرق الناس فى أكواخهم تماماً بمثلما كانوا يعرقون فى حقولهم.. وقبل أن يغادر (كونتا) البيت كل صباح من أجل رعى الماعز كانت (بينتا) تعنى بأن تتأكد من أنه يحمى قدميه جيداً بزيت النخيل الأحمر .. وفي فترة ما بعد الظهر كان يعود إلى القرية من الأدغال مشقق الشفتين.. قدماه جافتان ومشققتان.. وبعض الأطفال كانوا يعودون إلى بيوتهم وأقدامهم تدمى.. ولكنهم كانوا يخرجون صباح اليوم التالى دون شكوى تماماً مثل آبائهم إلى حيث المزيد من الحرارة المتوحشة على أرض الرعى الجافة..

والتى كانت أسوأ من أرض القرية.. وعندما تصل الشمس إلى ذورتها يستلقى كل الأولاد وكلابهم وماعزهم وهم يلهثون فى ظل شجرة منخفضة.. وقد تعب الأولاد لدرجة تمنعهم من الصيد.. وشوى صيدهم وتلك كانت رياضتهم اليومية.. ومعظمهم كان يجلس ويثرثر فى مرح قدر المستطاع.. ولكن بطريقةٍ ما فإنه فى تلك الفترة فقد رعى الأغنام بهجته وإثارته بالنسبة لـ(كونتا).. ربما لأنه ما أن تغيب الشمس حتى يتحول الطقس إلى درجة شديدة البرودة.. عكس النهار تماماً.. وبعد وجبه العشاء كان أهل (جوفور) يتجمعون حول نيرانهم المستعرة.. كان الرجال من عمر (أمورو) يجلسون ليثرثروا حول كومة نيران.. وعلى مسافة قليلةٍ منهم كانت نيران العجائزاللاتى يحكين حكاياتهم الليلية لأطفال الجيل الأول ..كان (كونتا) ورفاقه من الجيل الثانى أكثر كبرياء من أن يجلسوا مع الجيل الأول العارى مثل (لامين) ورفاقه.. لذلك كانوا يقبعون بعيداً لمسافة كافية حتى لا يشاهدوا أحداً من تلك المجموعة المزعجة.. ومع ذلك كانوا قريبين بدرجة كافية حتى يسمعوا حكايات الجدات العجائز.. والتى لاتزال تثيرهم باستمرار.. وأحياناً ما كانوا يسترقون السمع لهؤلاء الموجودين عند النيران الأخرى.. ولكن الأحاديث كانت فى معظمها حول الحرارة.. وسمع (كونتا) الأكبر سناً وهم يتذكرون الأوقات عندما قتلت الشمس الزرع.. وأحرقت المحاصيل.. وكيف جففت البئر.. وجففت الشمس حتى الناس ليصبحوا مثل بذور الفواكه..

وبعد الظهر بدأت رياح الأذى.. لم تكن ريحاً قوية ولا عاصفة.. وإنما كانت تهب فى ثبات ونعومة وهى محملةً بالأتربة.. والجفاف ليلاً ونهاراً لحوالى نصف شهر قمرى.. وكما تفعل فى كل مرة تأتى فيها فإن هبوب رياح الأذى المستمر كان يضغط ببطء على أعصاب الناس فى (جوفور).. وسرعان ما يصيح الآباء فى أطفالهم أكثر من المعتاد.. بل وأحياناً يجلدونهم بالسياط دون سبب وجيه.. ورغم أن الشجار كان أمراً غير عادى بين الـ(ماندينكا) إلا أنه نادراً ما تمر ساعة من النهار إلا ويرتفع الصياح والشتائم بين بعض البالغين خاصةً بين شباب المتزوجين مثل (أمورو) و(بينتا).. وفجأة تمتلىء المداخل بالناس وهم يراقبون الحموات وهن يندفعن إلى أكواخ بناتهن.. وبعد لحظات قد الصياح تبدأ سيول من سلال الحياكة.. وآنية الطبخ.. والقرعات.. والمقاعد.. والملابس تندفع للخارج من خلال الأبواب.. ثم تندفع الزوجه وأمها خارج البيت وتنتزعان الممتلكات.

. ويذهبن كالعاصفة إلى كوخ الحماه.. وبعد شهرين قمريين تقريباً فجأة تتوقف الرياح كما بدأت.. وتبدأ الزوجات في العودة إلى أزواجهن.. وتتبادل حمواتهن الهدايا الصغيرة.. وينتهى الجدال فى القرية.. ولكن أشهر الجفاف الخمسة الطويلة لم ينقض منها سوى نصفها حتى الآن.. ورغم أن الطعام لايزال وفيراً فى المخازن.. إلا أن الأمهات كن يطهين كميات ضئيلة لأنه لم يكن هناك أحد يحس بالرغبة فى تناول الكثير من الطعام حتى أولئك الأطفال النهمين.. وكان كل فرد منهوك القوى بسبب حرارة الشمس.. وتقل أحاديث الناس فيما بينهم.. وكانت جلود الماشية الهزيلة فى القرية قد تشققت بالجروح.. وتقيحت بعد أن وضع فيها الذباب القارص بيضه.. وران هدوءٌ غريب على الدجاجات الصاخبة التى كانت عادة ما تجرى صائحةً عبر القرية.. حتى القرود نادراً ما كانت ترى أو تسمع.. لأن معظمها ذهب إلى داخل الغابة من أجل الظل.. ولاحظ (كونتا) أن الماعز كانت ترعى قليلاً وسط الحرارة ثم أصبحت عصبية ونحيفة.

خمن (كونتا) أنه منذ القديم عاش الناس حياةً قاسيةً وربما كان هذا هو قدرهم وفى كل مساء فى القرية الآن كان الأمام يؤم المصلين داعين الله أن يرسل المطر.. ثم فى يومٍ ما ملأت الإثارة (جوفور) عندما هزت بعض الرياح اللطيفة الغبار لأن تلك الرياح كانت تعنى الأمطار سرعان ما ستأتى.. وفى الصباح التالى تجمع الناس خارج القرية فى الحقول.. حيث أشعل الفلاحون ناراً فى الأكوام العالية من العشب.. وانعقد الدخان كثيفاً فوق الحقول.. وكانت الحرارة لا تطاق تقريباً.. ولكن الناس الذين يتصببون عرقاً رقصوا وهللوا.

بدأت الرياح الخفيفة فى اليوم التالى تكتسح الرماد المنثور.. وتنشره فوق الحقول مما يزيد من خصوبة التربة لتصلح لنمو أى محصول.. ثم بدأ الفلاحون العزق فى همة بعزاقاتهم ليجهزوا الخطوط الطويلة لاستقبال البذور فى وقت الغرس السابع من الدورة التى لاتنتهى من الزراعة التى عاشها (كونتا).

كونتا يؤدب لامين

مرَّ فصلان من الأمطار وعادت بطن (بينتا) تتضخم ثانيةً.. وأصبح طبعها أكثر حدة عن المعتاد.. وكانت تضرب ولديها لأقل هفوة.. لدرجة أن (كونتا) كان يشعر بالأسف على شقيقه الأصغر (لامين) والذى كان فى سن يجعله يقع أكثر منه فى الخطأ.. ويتلقى مزيداً من الضرب.. ولكنه لم يبلغ بعد السن التى تمكنه من الخروج من الكوخ بمفرده.. وهكذا عندما عاد يوماً إلى الكوخ ووجد شقيقه غارقاً فى الدموع سأل (بينتا) إن كان بإمكانه أن يضم إليه (لامين) فى تجواله فردت عليه بحدة وكأنها تتخلص منهما معاً : نعم.. يمكنك ذلك..

وكأنه كابوساً.. كان (لامين) الصغير يُربط عارياً بظهر (كونتا) الذى سرعان ما بدأ يلاحظ أن معظم رفاقه ممن هم فى مثل عمره يحملون هم أيضاً خلفهم أشقاءهم الصغار..

ثم بدأ(لامين) يسال(كونتا) العديد من الأسئلة.. والتى يجيب عن معظمها فى صبر.. لقد كان (لامين) سعيداً لأن شقيقه الأكبر (كونتا) يعرف الكثير.. وهذا يجعل (كونتا) يشعر بأنه أكبر من سنه البالغ ثمانية فصول مطرية فقط..

كان (كونتا) لا يزال من الجيل الثانى ذلك الجيل الذى لا يزال ينام فى كوخ أمه.. والأولاد الأكبر منه سناً والذين هم الآن فى تدريب الرجولة باستمرار ليس عندهم ما يفعلونة سوى السخرية منهم.. وتوجيه الصفعات لهؤلاء الذين من سن (كونتا).. بينما كان الرجال الكبار مثل (أمورو) وباقي الآباء يتصرفون وكأن صبية الجيل الثانى مجرد أشياء لا تستحق التساهل معها.

ومع ذلك فإن أكثر الأشياء إزعاجاً لـ(كونتا) ورفاقه هو كيف أن البنات من الجيل الثانى يكبرن بسرعة عن الأولاد.. ويصبحن مستعدات فعلاً للزواج فى سن الرابعة عشرة و ربما أقل بينما الأولاد ممن هم في نفس السن كان يُنظرُ إليهم وكأنهم ما زالوا أطفالاً.

وبدأت أسئلة (لامين) تتالى..

هل الشمس مشتعلة؟

لماذا لاينام أبونا معنا؟

وفى هذه الأحيان كان (كونتا) قد يعبس.. ثم يكف عن الكلام تماماً كما يفعل (أمورو) عندما كان يتعب من كثرة أسئلته له وهو طفل مثل أخيه.. وعندئذ كان (لامين) لايقول شيئاً آخر لأن تربية الـ(مانديكا) فى المنزل كانت تعلمهم أن على المرء ألا يتكلم أبداً مع شخصٍ لايريد الكلام وأحياناً كان (كونتا) يتظاهر وكأنه استغرق فى تفكير عميق.. وعندئذ كان (لامين) على أن يجلس صامتاً بجواره .. ووقتها قد ينهض (كونتا) ويحذو حذوه.. والحقيقة كان (كونتا) يبدو وكأنه أصبح شخصاً آخر أكبر سناً طالما تحمل مسؤولية شقيقه الصغير.

ولم يمض وقت طويل إلا وبدأ (كونتا) يتحدث فى حدة مع (لامين) حتى فى حضور (بينتا) حول أخطاءه.. أو قد يوبخه لأنه لا يؤدى قفز واجباته كما أمرته بها أمه.. وكانت (بينتا) تتظاهر بأنها لم تسمع أو ترى شيئاً..



من هم العبيد يا أبي؟

بعد ظهر أحد الأيام سأل (لامين) (كونتا): من هم العبيد؟

عبس (كونتا) وصمت.. وبدا أنه غارقٌ فى أفكاره.. وكان يتساءل من أين سمع (لامين) عن العبيد حتى يسأل مثل هذا السؤال؟ فقد كان (كونتا) يعلم أن هؤلاء الذين اختطفوا بواسطة (الطوبوب) قد أصبحوا عبيداً.. نعم أنه سمع الكبار يتحدثون عن العبيد.. ولكن الحقيقة أنه لم يعرف مطلقاً من هم العبيد؟ وكما حدث مراتٍ عديدة أربكه سؤال (لامين) ودفعه لمعرفه المزيد.

وفى اليوم التالى عندما كان (أمورو) يستعد للخروج بحثاً عن بعض أخشاب النخيل لبيني لزوجته (بينتا) مخزن غلالٍ جديد طلب منه (كونتا) أن يذهب معه.. لقد كان يحب أن يذهب مع والده إلى أى مكان.. ولكن أحد منهما لم يتكلم إلا عندما وصلا إلى الدغل البارد المظلم.. ثم فجأة سأل (كونتا): من هم العبيد ياابى؟

فى البداية تجهم (أمورو) ولم يقل شيئاً لعدة دقائق وهو يتحرك داخل الدغل بحثاً عن جذوع النخيل ثم قال أخيراً :

- من الصعب أن نفرق بين العبيد وغير العبيد.. ولكن المرء ألا يتحدث يجب أبداً عن العبيد فى حضورهم.. بدا (أمورو) شديد التجهم ولكن (كونتا) لم يفهم السبب.. ولكنه هز رأسه وكأنه يفهم.

وعندما سقطت شجرة النخيل بدأ (أمورو) يقطع ويشق جذعها السميك.. وعندما جمع (كونتا) لنفسه بعض الثمار الناضجة شعر باستعداد والده للحديث.. وأنه يستطيع الآن أن يطلب منه أن يشرح له كل شىء عن العبيد وسأله: لماذا بعض الناس نشؤوا عبيداً والبعض لا؟

قال (أمورو) أن الناس يصبحون عبيدا بطرقٍ مختلفة.. البعض يولد من أمهات العبيد.. وذكر اسماء بعضهن ممن يعشن فى (جوفور) وهم أناسٌ يعرفهم (كونتا) جيداً.. والبعض منهم أباءُ لبعضٍ من رفاقه..

والبعض الآخر كما قال (أمورو) واجهوا يوماً المجاعة أثناء فصول الجوع فى قُراهم وجاءوا إلى (جوفور).. وتوسلوا أن يصبحوا عبيداً لمن يوافق على إطعامهم وإيواءهم.. وذكر أسماء البعض من أهل (جوفور) العجائز كانوا يوماً ما أعداءاً.. وأُسِروا كسجناء.. فصاروا عبيداً.. وقال (أمورو): لقد أصبحوا عبيداً عندما لم يكونوا شجعاناً لدرجة أن يفضلوا الموت عن الأسر.

ورغم أن كل من ذكر أسماءهم كانوا عبيداً إلا أنهم كانوا جميعاً أشخاصاً محترمين.. وقال (أمورو) وهو ينشر جذع النخلة إلى أجزاء يستطيع الرجل القوى أن يحملها:

- وحقوقهم أيضاً مضمونة بموجب قوانين الجدود.

ثم شرح لابنه أن على الأسياد أن يوفروا لعبيدهم الطعام والثياب والمنزل ومساحة زراعية للعمل فيها بالمشاركة وكذلك زوجاً أو زوجة.

ثم قال(كونتا): وهل على العبيد أن يظلوا عبيداً للابد؟

- لا.. العديد من العبيد يشترون حريتهم بما يقتصدونه من زراعة بالمشاركة مع أسيادهم..

وعدَدَ (أمورو) أسماء البعض فى (جوفور) الذين فعلوا ذلك.. وذكر أسماء البعض الآخر الذين نالوا حريتهم عن طريق الزواج من الأسرة التى تمتلكهم.. وبعض العبيد أصبحوا ناجحين جداً حتى أكثر من أسيادهم.. والبعض اتخذ لنفسه عبيداً.. والبعض الآخر أصبحوا أشخاصاً مرموقين جداً.. وهنا صاح (كونتا): هل صانديا‌تا واحد منهم؟ .

لقد سمع مرات عديدة الجدات والصيادين يتحدثون عن الجد الأعظم العبد الذى كان قائدهم هزم جيشه العديد من الأعداء عبس (أمورو) وأومأ برأسه موافقاً.. وكان من الواضح أنه مسرور لأن (كونتا) يعرف ذلك وأراد (أمورو) أن يختبر ابنه فسأله: ومن هى أم صانديا‌تا؟

قال (كونتا) بفخر: سوجولون المرأة الجاموسة!

ابتسم (أمورو) ورفع فوق كتفه القويين لوحين ثقيلين من خشب النخيل.. وبدأ السير عائداً.. أخذ (كونتا) يأكل البلح الذى جمعه.. وتبع والده.. وطوال الطريق إلى البيت كان (أمورو) يخبر ولده كيف أن إمبراطورية الـ(مانديكا) العظمى ربحها (صاندياتا) ذلك العبد الذكى الأعرج القائد الذى بدأ جيشه بالعبيد الهاربين الذى عثر عليهم فى المستنقعات.. وأماكن الاختباء الأخرى.. وقال لابنه: وستعرف أيضاً الكثير جداً عنه أثناء تدريبات الرجولة.

كان مجرد ذكر تلك الفترة تدريبات الرجولة تدخل الرعب فى جسد (كونتا) ولكن أيضاً فيها إثارة وتوقعات مثيرة .

قال (أمورو) أن صاندياتا هرب من سيده الكريه مثل معظم العبيد الذين فعلوا مع أسيادهم الذين يكرهونهم.. وقال أنه فى غير حالات المجرمين.. فإنه لايمكن بيع العبيد إلا بعد موافقتهم على سيدهم المنتظر.

قال (أمورو) وقد أوشك (كونتا) أن يبتلع حفنة من البلح : الجدة (نيوبوتو) كانت هى الأخرى عبدة !!.

وأوشك (كونتا) أن يختنق وهو يبتلع ريقه لأنه لم يستطع أن يستوعب ذلك.. مرت الصور بسرعة البرق عبر عقله عن العجوز المحبوبة وهى تثرثر أمام بابها.. وترعى الأطفال وهى تجدل السلال من الخيزران.. وتملؤها بالباروكات.. وتوجه لسانها الحاد نحو المارين بها من البالغين والعجائز إذا ما أرادت ذلك.. قال (كونتا) لنفسه: كيف لتلك المرأة لا يمكن أن تكون عبدةً لأحد؟! .

وبعد ظهر اليوم التالى وبعد أن سلم ماعزه إلى زرائبها.. صحب (كونتا) (لامين) إلى البيت عن طريق يجنبهم زملاء اللعب المعتادين وسرعان ما قبعوا فى سرعة أمام كوخ الجدة (نيوبوتو) وخلال دقائق قليلة ظهرت أمام مدخل كوخها.. وقد أحست أن لديها زائرين.. وبمجرد نظرة واحدة إلى (كونتا) الذى كان واحد من المفضلين لديها عرفت أن شيئاً ما يدور فى ذهنه.. دعت الولدين لداخل كوخها.. وأخذت تصب لهما بعض الأعشاب الساخنة ثم سألتهما: كيف حال أبويكما؟

قال (كونتا) فى أدب: بخير.. شكراً على السؤال.. وهل أنتِ بخير يا جدتى ؟

ردت: أنا فى خير حال.. ثم نظرت بحدة إلى (كونتا) و(لامين) وهى تضع الشاى أمامهما.. ثم قال (كونتا) متلعثماً: لماذا كنتِ عبدة يا جدتى؟

قالت أخيراً: سأخبرك.. فى قريتى الأم.. وفى إحدى الليالى.. وبعيداً جداً عن هنا.. ومنذ سنواتٍ مطرية عديدة.. كنت شابة وزوجة.. وذات ليلة استيقظت وسط رعبٍ شديد لتفاجأ باندفاع جذور العشب المشتعلة على الجميع.. أخذ جيرانها يصرخون.. جرت والتقطت طفليها.. وكانا ولداً وبنتاً مات والدهما من فترة قريبة فى الحرب القبلية.. واندفعت للخارج وسط الآخرين.. وكان فى انتظارهم المغيرون البيض.. ومعهم مساعدوهم من السود الخونة.. وفى معركة وحشية كل من لم يستطيع الهرب اقتيدوا معاً.. وهؤلاء الذين جُرِحوا بشدة من العجائز أو الصغار ممن لا يستطيعون السفر فقد قتلوا أمام أعين الآخرين.. وبدأت (نيوبوتو) تنتحب قائلةً: بما فيهم طفلاى الحبيبان وأمى العجوز.

عندما قبض (لامين) و(كونتا) كل منهما على كف الآخر أخبرتهما كيف أن المساجين المرعوبين قد رُبِطوا من رقابهم معاً بالحبال.. وكيف ضربوا واقتيدوا عبر ريف الجزيرة الحار والقاسى لعدة أيام.. وفى كل يوم كان المزيد والمزيد من الأسرى يقعون تحت السياط التى تلهب ظهورهم لتجعلهم يسرعون فى سيرهم.. وبعد أيام قليلة كان المزيد منهم يسقطون من الجوع والتعب.. والبعض قاوم.. ولكن من لم يستطيع المقاومة.. تُرِكوا لتأكلهم الحيوانات المتوحشة..

مر طابور الأسرى بقرى أُحرقت هى الأخرى وخُرِبت.. وتناثرت جماجم وعظام الموتى وسط الطين.. وحطام ما كان فى يوم ما أكواخ القرية أكثر قليلاً من نصف هؤلاء الذين بدؤوا الرحلة.. وصلوا قرية (جوفور) والتى على بعد مسيرة أكثر من أربعة أيام من (كامبى بولونجو) حيث يباع العبيد .. وأردفت المرأة العجوز قائلةً:

- كان وقتها يباع هناك الأسير الشاب مقابل زكيبة من الذرة.. وهكذا باعونى.. وهكذا أصبحت أُدعى (نيوبوتو) ومعناها زكيبة الذرة.. والرجل الذى اشترانى كعبدة خاصة به مات من وقت بعيد جداً.. ومن وقتها للآن عشت هنا.

كان (لامين) يتلوى من الإثارة عند سماعه تلك الرواية.. وأحس (كونتا) بطريقةٍ ما بحبٍ أكثر.. وتقديرٍ أعمق مما كان يحسه من قبل للعجوز (نيوبوتو) التى جلست الآن وهى تبتسم فى رقة للولدين الذين الذين كثيراً ما ناما فى حجرها.. ثم قالت وهى تنظر مباشرة إلى (كونتا) :

- كان والدك (أمورو) فى سن الجيل الأول عندما أتيت إلى (جوفور) وأمه (بيسا) التى هى جدتك كانت أعز صديقاتى.. هل ما زلت تذكرها؟

قال (كونتا) أنه لا ينساها.. وأضاف فى فخرٍ أنه أخبر شقيقه الصغير بكل شىء عن جدتهما قالت (نيوبوتو): هذا جميل والآن لابد أن أعود إلى العمل.. هيا اذهبا للبيت الآن!

شكراها.. وغادرا المكان سائرين ببطء.. عائدين إلى كوخ أمهما (بينتا) وكل قد استغرق فى تفكيرٍ عميق .

....

وبعد ظهر اليوم التالى رأى (كونتا) هو واشقاؤه (الطوبوب) وسفنهم تسبح في مياه النهر.. كان (كونتا) لا يعلم سوى القليل جداً عن (الطوبوب).. وقال لنفسه: من الواضح أن هؤلاء الناس من الأفضل جداً الابتعاد عنهم.. فمن وقت قريبٍ اختفت فتاةٌ كانت تجمع الأعشاب.. ومن قبلها رجلان كانا يصطادان.. وتذكر بالتأكيد كيف حذرت الطبول من القرى الأخرى من أن (الطوبوب) حتماً قد أخذوهم.. كان مقدم هؤلاء معناه أن على رجال القرى أن يتسلحوا.. وأن يضاعفوا الحراسة.. بينما كان على النساء الخائفات أن يجمعن أطفالهن.. ويختبأن فى الدغل بعيداً عن القرية أحياناً لعدة أيام إلى أن يرحل (الطوبوب) .

كانت الماعز قد اقتيدت إلى البيوت عندما سأل (لامين) شقيقه (كونتا) عن (الطوبوب) ساعتها أثار الأخير الموضوع مع رفاقه من رُعاة الماعز.. وفى لمح البصر أخبروه عما سمعوه.. قال أحد الأولاد: أن أحد أعمامه كان شجاعاً جداً.. واقترب منهم جداً لدرجة استطاع معها أن يشم رائحة بعض (الطوبوب) فهم ذوى رائحة مقززة.. البعض قال أنهم سمعوا أن (الطوبوب) يأخذون الناس بعيداً ليأكلوهم.. ولكن البعض سمع أن (الطوبوب) يأخذوا أن المخطوفين ليوضعوا فى مزارع ضخمة ليعملوا هناك.

وفى أقرب فرصة سأل (كونتا) (أمورو) : هل يمكن يا أبى أن تخبرنى كيف أنك ورفاقك رأيتما (الطوبوب) فى النهر أن الأمر يحتاج إلى أن يُقال صحيحاً لـ (لامين) لأنه قد سألنى..

عبس (أمورو) وكان من الواضح أنه لايحب الكلام فى تلك اللحظة.. ولكن بعد أيام قليلة دعا (أمورو) كلاً من (كونتا) و(لامين) ليذهبا معه إلى الخارج بعيداً عن القرية لجمع بعض الأشياء.. كانت هذه أول تمشية لــ (لامين) العارى مع والده.. وكان يضج فرحاً بذلك.. وأمسك فى ذيل جلباب شقيقه بقوة .

أخبر (أمورو) ولديه أنه بعد تدريب الرجولة له ولشقيقه (جانيه) و(سولوم) غادر شقيقاه (جوفور) وبمرور الوقت جاءت الأخبار أنهما أصبحا من الرحالة المشهورين إلى الأماكن البعيدة..

وكانت أول عودة لهما للقرية عندما أخبرتهم الطبول عن مولد أول طفل لــ (أمورو) قضيا أياماً وليالى بلا نوم فى الترحال ليصلا إلى حفل التسمية.. وباعتبارهما رحلا عن الوطن منذ فترة طويلة احتضنا كل رفاقهما من نفس سنهما.. ولكنهما حزنا على هؤلاء الذين رحلوا للعالم الآخر.. بعضهم فى القرية المحترقة.. والبعض فى حرائق مرعبة.. والبعض اختطف.. والبعض ضاع أثناء الزراعة.. أو الصيد.. أو الترحال وكل ذلك بسبب (الطوبوب).

قال (أمورو) أن شقيقيه طلبا منه وقتها فى غضب أن ينضم إليهما فى ترحالهما ليرياه ماذا يفعل (الطوبوب).. وهكذا رحل الأخوة الثلاثة على طول ضفتى نهر (كامبى بولونج) وهم يحرصون بعناية على الاختباء فى الدغل إلى أن عثروا على ما كانوا يبحثون عنه كان هناك عشرين زورقاً ضخماً من زوارق (الطوبوب) راسيةً فى النهر.. وكل زروق منها من الضخامة بحيث يمكن أن يسع داخله كل سكان (جوفور).. وكان كل منها مربوطاً بحبلٍ ضخم أبيض إلى عود يشبه جذع الشجرة بارتفاع عشرة رجال.. وبالقرب من الزوارق كان هناك جزيرة.. وعلى الجزيرة يوجد قلعة.. وكان يتحرك عليها العديد من (الطوبوب) ومساعدوهم من السود.. وكانت الزوارق الصغيرة تحمل أشياء مثل زكائب النيلة المجففة والقطن وشمع العسل والجلود من الزوارق الضخمة.. قال (أمورو) : كان الضرب وأعمال القسوة التى رأوها فى التعامل مع هؤلاء الذين أُسِروا بواسطة (الطوبوب) أفظع مما يمكن أن يُوصف.

والآن لم يعد الكثير من أهلنا يُؤخذون كما كان الحال وقتها.. فقد أمر الملك (يارا) الذى كان يحكم ذلك الجزء من (جامبيا) ألا يقع المزيد من الحرائق والاغتيالات لشعبه.. وسرعان ما توقف ذلك بعد أن قام جنود الملك بحرق الزوارق الضخمة وإغراقها فى الماء بعد قتل كل من عليها من (طوبوب) .

والآن تُطلق تسع عشرة طلقة تحية للملك (يارا) من كل زورق طوبوب يدخل نهر (كامبى بولونج) ويقوم عملاء الملك الشخصيين بتوفير معظم الناس الذين يأسرهم (الطوبوب) وعادةً ما يكونون من المجرمين أو المدنيين أو أى شخص يدان بالتآمر ضد الملك.

ثم نظر بحدة إلى ولديه وقال:

يجب ألا تكونا بمفردكما بالخارج بقدر المستطاع.. فحتى نهاية عمريكما.. وحتى عندما تصبحان رجلين يجب عليكما أن تحذرا (الطوبوب) فهو عادةً ما يطلق سهامه النارية التى يمكنكما سماعها عن بعد.. وكلما رأيتما الدخان بعيداً فى أى قرية فمن المحتمل أنها نيران (الطوبوب) الضخمة.. وعندما تقتربان من مكانه ستكتشفان أن رائحته موجودة هناك.. إنها مثل رائحة الدجاج المبتل..

واستطرد قائلا: والعديد من أهلنا يعملون عندهم.. إنهم خونة ملعنون.. وليست هناك طريقة ما للتعرف عليهم.. وفى الدغل لا تأمنا لأحد لا تعرفانه.

جلس (كونتا) و(لامين) وقد تجمدا من الخوف .

ثم قال أبوهماثانيةً:

يجب أن تعلما ما رأيته أنا وعماكما يحدث لهؤلاء الذين أسرهم (الطوبوب) فهم يضعونهم مكبلين داخل زرائب طويلة من البامبو عليها حراسة قوية على ضفة النهر.. وعندما تحضر الزوارق الصغيرة لتنقلهم إلى السفن الضخمة فإن الناس المسروقين يُجرون خارج زرائبهم بعد أن تُحلق رؤوسهم وتغطى أجسامهم بالشحوم.. ثم يأمرهم الطوبوب بفتح أفواههم عنوةً لينظروا إلى حلوقهم وأسنانهم.. ويتم الفتيش علي الأجزاء السرية للرجال والنساء.. وأخيراً يختمهم (الطوبوب) بأختام معدنية حامية على ظهورهم وأكتافهم.. وبعد ذلك يشحن الناس وهم يقاومون ويصرخون فى تلك الزوارق الصغيرة.

وقال (أمورو):

وقد شاهدت أنا وشقيقاى العديد من المخطوفين يسقطون على بطونهم وهم يبتلعون الرمل ويأكلونه.. وكأنه م يمسكون لآخر مرة بأرض وطنهم.

ولكنهم يُسحبون ويُضربون وحتى وهم فى الزوارق البعض منهم يظل يقاوم السياط والركل وبعضهم قد يقفز إلى الماء وسط أسماك ضخمة ورهيبة ظهرها رمادى.. وبطنها أبيض.. وأفواهها مقوسة ومليئة بالأسنان الحادة البارزة التى تحيل لون الماء أحمر من دمائهم[1].

(1) بالطبع يقصد أسماك القرش.. ويحدث هذا عندما تنطلق الزوارق إلى صفحات المحيط.. وليس بين ضِفاف الأنهار.

كان (كونتا) و(لامين) قد جثم كل منهما بالقرب من الآخر وكل منهما يقبض على يد شقيقه..

نظر (أمورو)إلى ولديه:

من الأفضل أن تعلما هذه الأمور بدلاً من أن نذبح الديك الأبيض أنا وأمكما فى يوم ما من أجلكما هل تعلمان ماذا يعنى هذا ؟

استطاع (كونتا) أن يومىء برأسه وأن ينطق: هل ذلك عندما يضيع شخص ما يا أبى ؟ لقد رأيتُ عائلاتٍ تدعو الله فى جنون.. وهم يحومون حول ديكٍ أبيض يرفرف وقد ذبح من زوره .

قال (أمورو): نعم.. إذا مات الديك وهو يسقط على صدره يبقى الأمل.. ولكن إذا سقط الديك الأبيض ميتاً على ظهره إذن ليس هناك أمل.. وكل القرية تنضم إلى العائلة فى نواحها.. ودعواتها إلى الله .

جاء صوت (لامين) وهو يتلعثم من الخوف: أبى إلى أين تأخذ الزوارق الكبرى الأسري ؟

دهش (كونتا) من السؤال ورد (أمورو) : يقول الكبار إلى (جونج سانج دو) وهي أرض يباع فيها العبيد إلى أكلة لحوم البشر.. وهم قومٌ ضِخام الأجساد.. يُسمون (طوبابو كومو) ولا أحد يعرف عنهم أكثر من ذلك.

مغامرات العمين

أطلق (كونتا) زفرة وبدأ يحكى لأخيه عن مغامرات عميه والتى أثارت (كونتا) نفسه كثيراً عندما أخبره أبوه بها.. كان ذلك محاولةً من (كونتا) ليخرج أخيه من حالة الرعب التى سيطرت عليه عدة أيام منذ أن سمع حديث أبيه عن (الطوبوب) وخطف البشر..

قال (كونتا): إن عمينا أحبا السفر والترحال حباً شديداً.. وسافرا شهوراً قمرية لا تنتهى تحت الشمس.. وناما تحت النجوم.

وهناك أماكن زارها كانت الأشجار فيها من الضخامة لدرجة أن الغابة كانت مظلمة كالليل تماماً حتى فى أوقات النهار.. وأن أهل ذلك المكان كانوا أقزاماً لم يزد طولهم عن طول (لامين).. وكانوا يسيرون مثله (عرايا) حتى بعد أن يكبروا .

وكانوا يقتلون الأفيال بسهام رفيعة مسممة.. وفى أرض أخرى وهى أرض المعالقه رأى (جانيه) و(سولوم) المحاربين الذين يستطيعون أن يلقوا برماحهم إلى ضعف المسافة التى يستطيع أن يصل إليها أشجع محاربى الـ(مانديكا) والراقصون الذين يستطيعون أن يقفزوا عالياً.. أعلى من رؤوسهم والتى كانت أعلى بمسافة ستة كفوف من أطول رجل فى (جوفور).

وقبل موعد النوم أخذ (لامين) يشاهد بعينين واسعتين (كونتا) وهو يمثل أكثر الحكايات المفضلة عنده وهو يقفز فجأة ممسكاً بسيف خيالى ويطوح به لأعلى ولأسفل وكأن (لامين) واحد من قطاع الطرق الذين حاربهم عماهما.. قبل أن يعودوا من رحلاتهم التى كانت تستغرق شهوراً قمرية عديدة محملين بحمولاتٍ ثقيلة من أنياب الفيلة والأحجار الثمينة والذهب إلى المدينة السوداء الكبرى (زيمبابوي) كان (لامين) يتوسل إلى شقيقه من أجل أن يسمعه مزيداً من الحكايات ولكن (كونتا) أخبره أن عليه يذهب لينام.. وكلما كان (أمورو) يأمر ابنه بالذهاب إلى الفراش بعد أن يقص عليه مثل تلك الحكايات فإنه كان يستلقى على ظهره على مرتبة مثلما يفعل شقيقه الصغير الآن.. وعقله يحول حكايات عميه إلى صور.

وأحياناً كان (كونتا) يحلم بانه مسافر مع عميه إلى كل الأماكن الغريبة.. وأنه يتكلم مع الناس الذين يتصرفون ويعيشون بطرق مختلفة عن الـ(مانديكا) .

كان مجرد سماع اسمى عميه يجعل قلبه يدق بشدة.

فى ظهر يوم حار وهادىء وكان كل فرد فى القرية تقريباً جالسا خارج مدخل كوخه أو فى ظل شجرة (الباوباب) عندما جاء فجأة دق حاد للطبول من القرية التالية مد (كونتا) و(لامين) رأسيهما مثلما فعل الرجال فى القرية منصتين بانتباه إلى ما تقوله الطبول .

شهق (لامين) بصوت عال عندما سمع اسم والده .

ولم يكن كبيرًا بما يكفى ليفهم البقية لذلك همس (كونتا) له الأخبار :

بعد خمسة أيام من السير فى طريق شروق الشمس (جانيه) و(سولوم) يبنيان قرية جديدة.. وأن شقيقهما (أمورو) مدعو لاحتفال مباركة القرية بعد الشهر القمري التالي.

توقف حديث الطبول وعقل (لامين) ملىء بالأسئلة:

هل هؤلاء هما عمانا ؟.. أين هذا المكان ؟.. هل سيذهب أبونا إلى هناك ؟

ولكن (كونتا) لم يرد عليه.

لقد اندفع (كونتا) عبر القرية ناحية كوخ الطبال ولم يسمع شقيقه.. وكان أشخاص آخرون قد تجمعوا بالفعل هناك.

ثم جاء بعد ذلك (أمورو) وبجواره (بينتا) التى انخفضت بطنها.. راقب كل شخص (أمورو) والطبال يتكلمان باختصار.. كانت الطبلة المتكلمة ملقاةً بجوار النار لتسخين رأسها المصنوع من جلد الماعز حتى تصبح مشدودة لأقصى درجة.. وسرعان ما انتبه الجمهور عندما أخذت يدا الطبال تدقان الطبلة مرسلةً رد (أمورو) بأنه إذا أراد الله

فإنه سيكون فى قرية شقيقيه قبل الشهر القمرى التالي.. ولم يكن (أمورو) فى الأيام التالية يذهب إلى أى مكان إلا والقرويون الآخرون يغرقونه بالتهاني والبركات على القرية الجديدة.. والتى سيسجل تاريخها أن الذى أسسها هي عشيرة (كنتى).

وقبل أيام من موعد رحيل (أمورو) خطرت فكرة كبيرة جداً لـ(كونتا) : هل يمكن أن يسمح والده له بمشاركته فى الرحلة ؟ لم يكن (كونتا) يفكر فى شيء غير ذلك.. وعندما لاحظ زملاءه في رعى الماعز أن (كونتا) غير المعتاد يبدو هادئاً وشارداً تماماً تركوه فى حاله.. حتى صديقه (سيتافا).. وحتى بالنسبة لشقيقه الذى يحبه لدرجة العبادة أصبح حاد الطبع معه لدرجة أن (لامين) انسحب بعيداً وهو يحس بجرح شعوره.. كان (كونتا) يعرف كيف يداوى ذلك فيما بعد.. وأحس بالألم لذلك.. ولكنه لم يكن يستطيع التحكم فى نفسه.

كان يعلم أنه من حين لآخر بعض الأولاد المحظوظين كان يسمح لهم بمشاركة آباءهم.. وأعمامهم.. أو أشقائهم الأكبر رحلاتهم.. ولكنه أيضاً كان يعلم أن مثل هؤلاء الصبية الذين نالوا بعض تلك الامتيازات ليسوا صغاراً فى مثل عمره البالغ ثمانية أعوام مطرية فقط.. إلا فيما عدا بعض الأولاد الذين هم بلا آباء.. وينالون امتيازات تعويضية خاصة وفقاً لقانون اليتامى.

ومثل هذا الصبى يستطيع أن يتبع أى رجل عن قرب حتى وإن كان فى رحلة تستغرق أشهرًا قمرية طالما أن الصبى يتبعه على بعد خطوتين بالضبط.. ويؤدى كل ما يُطلبُ منه.. ولا يشكو ولا يتكلم أبداً إلا إذا وُجِهَ إليه الحديث.. كان (كونتا) يعلم جيداً أن عليه ألا يدع أحداً حتى أمه تشك فيما يفكر فيه.. فقد كان متأكداً أن (بينتا) لن ترفض فحسب.. وإنما أيضاً من المحتمل أن تمنعه من أن يذكر ذلك مرةً أخرى.. وهذا يعني أن أمله الوحيد يتركز فى أن يطلب ذلك من أبيه مباشرةً.

تبقى ثلاثة أيام قبل الموعد الذى على (أمورو) أن يرحل فيه.. وكان (كونتا) المراقب واليائس يرعي ماعزه بعد الإفطار عندما رأى والده يترك كوخ (بينتا).. وإلى أن ابتعد (أمورو) لمسافة من لن يستطيع أن تراه (بينتا) بعدها حتى ترك ماعزه بمفردها لأنه كان عليه أن ينتهز الفرصة وجرى (كونتا) كالريح ثم وقف وقد تقطعت أنفاسه وفى نظر فى توسل إلى وجه والده المذهول.. لحظتها شهق (كونتا) ولم يستطع أن يتذكر أى شيءٍ مما كان يود أن يقوله.. نظر (أمورو) ناحية ابنه فترة طويلة ثم قال: لقد قلت لأمك فى التو واللحظة.. ثم واصل مسيرته.

استغرق (كونتا) لحظات ليدرك ماذا يقصد والده.. وصاح فرحاً وهو لا يعرف بماذا يصيح.. سقط على بطنه.. ثم قفز مثل الضفدع فى الهواء.. وعاد بسرعة إلى ماعزه وأرسلها لترعى فى الدغل.. وعندما تمالك نفسه بالدرجة التى تسمح له بأن يخبر زملاءه الرعاة بما حدث كانوا فى حالة من الغيرة الشديدة لدرجة أنهم ابتعدوا لينفردوا بأنفسهم.. وفى منتصف النهار لم يستطيعوا أن يقاوموا فرصة مشاركته الإثارة وحظه السعيد.

وفى وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم جرى (كونتا) فى سعادة إلى البيت.. وإلى كوخ أمه.. وقد أمسكت به (بينتا) دون أن تقول كلمة واحدة.. وأخذت تكلمه بعنف لدرجة أنه فرَّ من أمامها.. وهو لا يجرؤ على أن يسألها عما فعله.. وقد تغير سلوكها أيضاً نحو (أمورو) بطريقة صدمت (كونتا) بدرجة كبيرة..

وحتى (لامين) كان يعرف بأن المرأه غير مسموح لها أبداً ألا تحترم الرجل.. ولكن و(أمورو) واقف هناك حيث يستطيع أن يسمع بوضوح فإن (بينتا) أعلنت بصوت مرتفع عن عدم موافقتها على رحلة (كونتا) معه فى الدغل..

فقد أرسلت مختلف الطبول من قرى متعددة وبانتظام أخباراً جديدة عن اختفاء رجال جُدُد.. ثم بدأت تُعد عصيدة الإفطار.. وأخذت تدق يد الهون فى غضب جامح لدرجة أن الصوت كان يشبه صوت الطبول.

وأسرع (كونتا) خارج الكوخ فى اليوم التالى ليتجنب مشاحنة جديدة.

أمرت (بينتا) (لامين) أن يظل فى مكانه وأخذت فى تقبيله وتدليله واحتضانه وهو مالم تفعله معه منذ أن كان رضيعاً.. أخبرت عينا (لامين) (كونتا) عن مدى حيرته.. ولكنه لم يكن لدى أى منهما ما يمكن أن يفعله.. وعندما كان (كونتا) بالخارج بعيداً عن أمه كان تقريباً كل من يقابله أو يراه يقدم له التهانى على رحلته الطويلة الخاصة بالكبار .

وكان يرد في تواضع: شكراً !

وفى طريق عودة (كونتا) ناحية البيت كان أمامه العديد من الأشياء يجب أن يفعلها قبل الرحيل.. شعر أولاً بدافع قوي لزيارة العجوز (نيوبوتو) قبل أن يفعل أى شىءٍ آخر.. وبعد أن سلم ماعزه هرب من كوخ (بينتا) بأسرع ما يمكن وذهب يتسكع أمام كوخ (نيوبوتو) وسرعان ما ظهرت أمام المدخل وقالت وهى تدعوه للدخول:

- لقد كنت اتوقع حضورك.. وكالعادة كلما زارها (كونتا) بمفرده كانا يجلسان فى صمتٍ وهدوء لفترة.. وكان دائماً ما يحب ويشتاق لهذا الشعور.. ورغم أنه كان صغيراً جداً.. وهى كبيرة جداً.. الا أنهما كانا يحسان بأن كلا منهما قريب من الآخر.. وأخيراً قالت (نيوبوتو) وهى تتحرك نحو الحقيبة السوداء من جلد الثيران المعلقة على الجدار بجوار سريرها:

- لدى شيء من أجلك.

ثم أخرجت حزام زينة من النوع الذى يُلف حول الذراع.. واستطردت قائلةً:

- لقد بارك جدك هذا الحزام عندما ذهب والدك إلى تدريب الرجولة.. وكان مباركاً من أجل تدريب الرجولة لأول ابن لـ(أمورو) من أجلك أنت.. لقد تركته جدتك (بيسا) معى حتى موعد بداية تدريبك على الرجولة.. وهذا التدريب حقاً هو رحلتك مع والدك .

نظر (كونتا) فى اعتزاز إلى الجدة العجوز العزيزة.. كان يبحث عن كلماتٍ مناسبة ليقول لها أن حزام الزينة هذا سيجعله يحس بأنها معه مهما كانت المسافة بينهما بعيدة .

وفى صباح اليوم التالى عندما عاد (أمورو) من صلاة الفجر من المسجد وقف وهو ينتظر فى صبر و(بينتا) تأخذ وقتها الكافى فى اتمام ضبط الربطة على رأس (كونتا) بعد أن استيقظ ممتلئاً حماساً وإثارة.. وكان طوال الليل كان يسمع نحيب أمه.. ثم فجأة أخذت تحتضنه وهو نائم بقوة لدرجة أنه شعر بجسدها يرتجف.. وعَرِفَ أكثر من أى وقتٍ مضى من حياته كم كانت أمه تحبه حقاً.

كان قد راجع بعناية مع صديقه (سيتافا) ما يجب عليه أن يفعله مع والده.. ويؤديه أولاً (أمورو) .. ثم بعد ذلك (كونتا).. خطيا خطوتين فى التراب خلف مدخل الكوخ.. ثم توقفا.. واستدارا.. وانحنيا لأسفل.. وجمعا التراب من أولى خطواتهما التى خطوها.. ووضعاه فى حقيبتى الصيادين الخاصتين بهما.. وكانا بذلك يأمنان أن خطواتهما ستعود ثانيةً إلى نفس المكان.

أخذت (بينتا) تراقب الموقف من مدخل كوخها وهى تبكى.. وتضغط (لامين) على بطنها المتضخمة.. عندما ابتعد (أمورو) و(كونتا) بدا (كونتا) يستدير من أجل نظرة أخيرة.. ولكنه عندما رأى والده لم يفعل احتفظ بعينيه للأمام.. وسار وهو يتذكر أنه ليس من شيم الرجال أن يظهر انفعالاته.. وبينما هما سائران خلال القرية تحدث معهما الناس الذين مروا بهم.. وابتسموا لهما.. ولوح (كونتا) لرفاقه من نفس عمره والذين أخروا جولتهم لرعاية الماعز من أجل أن يودعوه..

وقد فهموا أنه لم يعد يرد على أى كلام الآن فذلك (فألٌ سيئ) وعندما وصلا إلى شجرة المسافرين وقفا.. وأضاف (أمورو) شريطين ضيقين من القماش إلى مئات الأسمال البالية المعلقة بأسفل جذع الشجرة.. والتى تمثل دعوات للمسافر أن تكون رحتله آمنة ومباركة.

لم يكن (كونتا) مصدقاً ما يحدث حقاً.. فقد كانت هذه أول مرة فى حياته يقضى فيها الليل بعيداً عن كوخ أمه.. ويذهب فيها بعيداً عن بوابة (جوفور).. وبينما كان (كونتا) هكذا مشغولاً استدار (أمورو) دون كلمة من أجل نظرة أخيرة للخلف.. وبدأ السير بسرعة كبيرة.. وفى الطريق إلى الغابة أوشك (كونتا) أن يسقط حمولة رأسه وهو يجرى ليلحق بوالده.



الوصول إلى القرية الجديدة

وجد (كونتا) نفسه يهرول تقريباً حتى يحافظ على مسافة الخطوتين وراء والده.. اكتشف أن خطوتين تقريباً من خطواته السريعة القصيرة لازمتين لكل خطوة طويلة وناعمة من والده.. وبعد ساعة من ذلك أصبحت خطوة (كونتا) فى نفس سرعة خطواته.. وكانت ربطة رأسه تجعله يحس بأنها أثقل أكثر فأكثر.. ولكن (كونتا) لم يكن ليولى أى انتباه لأى شيء..حتى لو ظهر أمامه فسيظل محافظاً على مسافته مع (أمورو).. وكانت عضلات أسفل ركبتيه قد بدأتا تؤلمانه قليلاً.. وكان وجهه يعرق ..وكذلك رأسه.. وبعد فترة رأى (كونتا) أنهما يقتربان من شجرة المسافرين عند إحدى القرى الصغيرة.. وتساءل أى قرية تلك؟ لكن والده لايرد.. فلم يتكلم (أمورو) ولم ينظر خلفه منذ أن تركا (جوفور).. وبعد دقائق رأى بعض الأطفال العُراة يندفعون لمقابلتهما كما كان يفعل هو ذات يوم.. كانوا يلوحون ويهللون.. وعندما اقتربا أكثر استطاع أن يرى أعينهم وقد اتسعت لرؤيتهم صبياً فى مثل هذه السن الصغيرة يسافر مع أبيه.. وكانوا يصبحون وهم يحيطون بـ(كونتا) وتتوالى أسئلتهم: إلى أين ستذهب؟ هل هو والدك؟ هل أنت من الـ(مانديكا) ؟ ما هى قريتك؟

شعر (كونتا) أنه أكثر نضجاً وأهمية.. وتجاهل هم كما كان يفعل والده.. وبالقرب من كل شجرة مسافرين كان الطريق يتفرع إلى فرعين: أحدهما يؤدى إلى داخل القرية.. والثانى يمر بجوارها حتى يستطيع الشخص الذى لا عمل له بالقرية أن يسير فى طريقه .. وعندما اخذ (أمورو) و(كونتا) الطريق الذى يمر بجوار تلك القرية صاح الأطفال فى سعادة.. لكن الكبار الجالسين تحت شجرة (الباوباب) بالقرية اكتفوا فقط بمجرد إلقاء نظراتٍ سريعة على المسافرين .

ومنذ أن بدءا السير كانت الشمس قد صعدت فقط منتصف السماء.. وكانت ساقاه تؤلماه بالفعل بدرجة سيئة.. وأصبحت حمولة رأسه ثقيلة جداً حتى أنه بدأ يفكر أنه لن ينجح في مواصلة مشواره.

بدأ يتصاعد داخله الشعور بالخوف عندما وقف (أمورو)

فجأة وألقى بحمولة رأسه على الأرض بجوار بركة المياه على جانب الطريق وقف (كونتا) فترة وهو يحاول أن يسيطر على ساقيه غير الثابتتين.. أمسك بربطة رأسه ليضعها أسفل.. ولكنها انزلقت من بين أصابعه وسقطت وهى تحدث فرقعة.. ارتعب حتى الموت وهو يعلم أن والده سمع الضجة ولكن (أمورو) كان راكعاً على ركبتيه يشرب من النبع دون أن يظهر أى رد فعل كأن ابنه غير موجودٍ من الأساس..

انحنى (كونتا) على حافة الماء وركع ليشرب.. ولكن ساقاه رفضتا أن تطيعانه.. وبعد أن حاول ثانيةً دون جدوى استلقى أخيراً على بطنه.. ورفع نفسه على كوعيه.. واستطاع أن يخفض فمه إلى الماء.. سمع صوت أبيه يقول له:

- اشرب قليلاً.. ولا تكثر في الشراب!!

ابتلع (كونتا) قليلاً من الماء وانتظر ثم شرب قليلاً مرةً ثانية.. كانت هذه أول مرة يحدثه فيها أبوه منذ أن تركا (جوفور) دهش وهو يشعر بالغضب من والده.. ونوى أن يرد عليه بالطاعة.. ولكنه لم يخرج منه صوت.. ارتشف بعض الماء البارد وابتلعه.. وأجبر نفسه على الانتظار.. أراد أن يقع منهاراً لعله يرتاح من مشقة الطريق.. وبعد أن شربّ جلس منتصباً بجوار البركة.. وهكذا إلى أن استغرق في النوم .

عندما استيقظ لم يجد أبيه.. قفز ناهضاً ورأى (كونتا) ربطة الرأس الضخمة بجوار شجرة قريبة.. عرف أن والده ليس بعيداً عنه.. وعندما بدأ يبحث حوله أدرك كم كان متألماً.. فقد كانت عضلاته تؤلمه بشدة.. ولكنه شعر بأنه أفضل كثيراً عما كان.. لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك وعندما رفع رأسه وجد (أمورو) هناك واقفاً بجواره فقفز (كونتا) وهو محرج ولكن والده بدا وقد ركز انتباهه على أمور أخرى.

وفي ظل شجرة لم يتحدث أي واحد منهما.. أكلا بعض الخبز من الربطتين مع حمامات برية سمينة كان (أمورو) قد اصطادها بقوسه وشواها بينما (كونتا) نائم..

عندما انتهيا من الطعام كانت الشمس فى ثلاثة أرباع السماء ولذلك لم تكن حامية عندما أعاد ربط الربطتين وضبطاها فوق رأسيهما وانطلقا ليستأنفا الرحلة ثانيةً.

قال (أمورو)عندما قطعا مسافة لا بأس بها: إن (الطوبوب) يحضرون زوارقهم على مسافة مسيرة يوم من هنا.. والآن الوقت نهار نستطيع أن نرى فيه ولكن علينا أن نتجنب الدغل العالي والعشب المرتفع اللذين يمكن أن يخفيا مفاجآت غير مرغوبة.. واليوم لابد أن ننام في القرية.

لمست أصابع (كونتا) سكينة وقوسه وسهامه .

بدا لـ(كونتا) أنهما يدخلان نوعاً مختلفاً عن تلك التى عاشا فيها.

رأى فيها أشجاراً نامية أكبر من النخيل والكافور.

وكانت دائرة الشمس البرتقالية تقترب من الأرض عندما شاهدا خطاً سميكاً من الدخان ينبعث من سماء قرية أمامهما.. وعندما وصلا إلى شجرة المسافرين وجدوا القليل جداً من شرائح القماش المعلقة فى جذوع الشجرة.. وللأسف فإنه لم يأت أى أطفال يصيحون ويمرون لاستقبالهم.

وعندما مرا بشجرة القرية (الباوباب) رأى (كونتا) أن جزءاً منها محترق.

وأكثر من نصف أكواخ الطين التى استطاع أن يراها كانت خالية.. والنفايات فى الأفنية والأرانب تتقافز فيها.. والطيور تنقر فى التراب.. وأهل القرية معظمهم مريض أو عجوز.. والقليل من الأطفال الباكين يبدو أنهم الأطفال الوحيدون فى القرية.

لم ير (كونتا) شخصا فى مثل سنه أو حتى فى عمر (أمورو) استقبلهم فقط العديد من العجائز المجعدين في ضعف.

ثم بدأ الرجال العجائز يقاطع كل منهم الآخر فى شرح ما حدث للقرية .

لقد سرق آخذوا العبيد فى ليلة وقتلوا كل الشباب من سن (كونتا) إلى سن (أمورو).

وأشار إلى (أمورو) ثم إلى (كونتا) وقال: وقد تركونا نحن العجائز نجري إلى الغابة.. وبدأت قريتنا المهجورة تتحطم قبل أن نستطيع العودة إليها.. ولم يعد لدينا محاصيل ولا ما يكفي من طعام أو قوة.. ولا شك أننا سنهلك بدون شبابنا.

أنصت (أمورو)" بانتباه وهم يتكلمون وعندما تكلم جاءت كلماته فى بطء: إن قرية شقيقايَّ التى هى علي بعد مسيرة أربعة أيام بالتأكيد سترحب بكم يا جدودنا..

ولكن هزوا جميعاً رؤوسهم عندما قال أكبر هم:

- هذه قريتنا.. ولن يوجد فى غيرها مثل هذه الماء الحلو.. ولا أى شجر له مثل هذا الظل الوافر.. ولا أى دجاج له رائحة طعام نسائنا.

اعتذر العجائز لأنه ليس لديهم كوخ ضيافة.. وطمأنهم (أمورو) أنه وابنه يتمتعان بالنوم تحت النجوم.. وفى تلك الليلة وبعد وجبة بسيطة من الخبز من ربطتي رأسيهما شاركا فيها القرويون استلقى (كونتا) على حشيته المصنوعة من الأغصان اللولبية الخضراء.. وأخذ يفكر فى كل ما سمعه.. ماذا لو كانت تلك القرية هى (جوفور) وقد مات فيها كل شخص يعرفه.. وأُسر هو وعائلته.. واحترقت شجرة (الباوباب) وامتلآت الأفنية بالنفايات..

أجبر (كونتا) نفسه على التفكير في شئ آخر.



مواصلة الرحلة

فى أول ضوء للفجر استيقظ (كونتا) وهو يقفز فوق قدميه بجوار حشيته.. وتبعه أبوه.. ثم أسرعا خارج القرية بعد الاغتسال والأكل ..

وقبل أن ترتفع الشمس فى كبد السماء رأيا مخلوقًا وحيدًا يسير نحوهما في الطريق.

لقد مر علي أثنين أو ثلاثة مسافرين آخرين في اليوم السابق وتبادلا معهم الابتسامات والتحيات ولكن ذلك الرجل العجوز جعل الأمر واضحا أنه يريد الكلام.

قال وهو يشير إلى الاتجاه الذى أتى منه: ربما تقابل هنا "طوبوب".

كان (كونتا) وراء (أمورو) وقد أوشك أن يكف عن التنفس.. لقد كان وراءهم العديد من الناس يحملون حمولاتهم علي رؤوسهم.. وقال الرجل العجوز أن (الطوبوب) شاهده وأشار له بالوقوف ولكن فقط ليساعده على معرفة بداية النهر.. لقد قلت له أن النهر يبدأ أسرع من حيث ينتهى.

سأله (أمورو): ألم يؤذيك؟

قال الرجل العجوز: لقد تصرف بودٍ شديد..

ولكن القطة تأكل دائماً الفئران التي تلعب معها.

أراد (كونتا) أن يسأل والده عن ذلك (الطوبوب) الغريب الذى جاء بحثاً عن الأنهار بدلاً من الأشخاص.. ولكن (أمورو) ودع الرجل العجوز وسار في الممشى كالعادة دون أن يلقي نظرة ليرى إن كان (كونتا) خلفه يتبعه أم لا.

هذه المرة كان (كونتا) سعيداً لأنه كان من الممكن أن يري (أمورو)ابنه ممسكاً بحمولة رأسه بكلتا يديه وهو يجري بصعوبة للحاق به .

بدأت قدما (كونتا) تدميان.. ولكنه كان يعرف أنه ليس من الرجولة أن يهتم بذلك.. فما بال أن يذكر ذلك لأبيه.. لنفس السبب ابتلع (كونتا) رعبه عندما دار فى نهاية ذلك اليوم حول منعطف

وظهرا أمام عائلة من الأسود مكونة من ذكر ضخم ولبؤة جميلة.. وشبلين ممددين فى البراري بالقرب جداً من المشي.. كانت الأسود بالنسبة لـ(كونتا) مخيفة تقبض علي الحيوانات.. وتمزقها أرباً كالماعز التي يتركها راعيها تهيم بعيداً عن مكان رعيها.

أبطأ (أمورو)خطواته دون أن يرفع عينيه عن الأسود.. ثم قال بهدوء وكأنه يشعر بخوف ابنه:

- إنها لاتصطاد أو تأكل فى هذا الوقت من النهار ما لم تكن جائعة.. وهذه الأسود ممتلئة.

ولكن ظل واضعًا إحدى يديه على قوسه الأخرى علي كيسه أسهمه وهما يمران بها.

كتم (كونتا) أنفاسه ولكنه ظل سائراً.. وأخذ هو والأسود يراقب كل منهم الآخر إلى أن ابتعد عن مرماهم.

كان من الممكن أن يستمر فى التفكير فيها.. وفى (الطوبوب) الموجود فى مكانٍ ما فى المنطقة.. ولكن قدميه المتألمتين لم تسمحا له بذلك.

وبحلول تلك الليلة كان عليه أن يتجاهل عشرين أسداً كانت تأكل في المكان الذى اختاره (أمورو) لهما ليقضيا الليلة.. وما أن وضع (كونتا) الربطة وفرش سريره من الأغصان الليلية حتى استغرق فى نوم عميق.. وبدا وكأن دقائق فقط مرت قبل أن يهزه والده ليوقظه فى الفجر المبكر..

ورغم أنه شعر وكأنه لم ينم علي الإطلاق فقد راقب (كونتا) بإعجاب غير خفي كيف كان (أمورو) يسلخ بسرعة وينظف ويشوي وجبة إفطارهما من أرنبين بريين اصطادهما فى فخ ليلي.

جلس (كونتا) القرفصاء وأكل وجبته اللذيذة.. وفكر كيف أنه وزملاءه الرعاة استغرقوا ساعات من الصيد والطهي للفرائس.. وتساءل كيف أن والده والرجال الآخرين وجدوا الوقت الكافي ليتعلموا الكثير جداً عن كل شئ يستحق المعرفة.

وفي اليوم الثالث من الرحلة كانت قدماه المشقوقتان.. وكذلك ساقاه وظهره ورقبته تؤلمه بشدة

وكأن جسده كله تحول لكتلةٍ من الألم.. بدأ يعرج وابتعد كثيراً عن والده الذى سمح له بأن يرتاح بضع دقائق بجوار المشي وهما يأكلان وجبة ما بعد الظهر.

دعك والده الجرح بمرهم ملطف جعل قدمه تتحسن.. وسرعان ما استأنفا السير حتى بدأ الجرح يؤلمه ثانيةً ويدمي بحدة.. ولم يمض وقت طويل إلا وقد امتلأ الجرح بالتلوث.. وبالتالي توقف النزيف.. وقد تعود علي الألم مما سمح له بأن يستمر في طريقه.

وفى اليوم التالي تركا خلفهما أرض الكافور والأشجار الشائكه التي كانا يسافران عبرها.. وتحركا إلي بلاد الأدغال الأكثر شبها بـ(جوفور).. وكان هناك رجل مقنع يلهب ظهر امرأة عارية وهي تصرخ وكان هناك عدة نساء يمسكنها وكانت كل منهن ترتجف مع كل ضربة من الحبل.. كان مجرد رجل يؤدب زوجته.

وفي إحدى القرى وبينما كان (كونتا) يملأ بطنه بالفول السوداني المقلي فوق الأرز.. ذهب (أمورو) إلي طبال القرية ورغب من أجل رسالة بالطبول لشقيقه.. أخبرهما أن يتوقعا مقدمه عند غروب الشمس اليوم التالى.. وأنه قادم ومعه ابنه الأول.

كان أحلام اليقظة تدلعب (كونتا) باستمرار عند سماعه اسمه تردده الطبول من قرية لقرية.. مثلما يحدث الآن.

وفيما بعد في كوخ الضيافة بالقرية.. وعلى السرير البامبو فكر (كونتا) فى الطبالين الآخرين وهم منحنيين على طبولهم يدقون اسمه فى كل قرية عبر طرقهم إلى قرية (جانيه)و(سولوم) والآن عند كل شجرة مسافرين منذ أن تكلمت الطبول لم يكن هناك الأطفال العراة المعتادون فحسب.. وإنما أيضاً البعض ممن هم أكبر منهم سناً وبعض الموسيقيين.



الوصول

كان عليهما أن يسيرا أسرع حتى يصلا إلى وجهتهما عند غروب الشمس كما وعد (أمورو) شقيقيه.. كان (كونتا) شديد العرق والألم ويسير وقد لف قدميه بالقماش طوال الطريق الحار والمترب.. لكنه كان يشعر بدفعة جديدة من النشاط مع كل رسالة طبول تذكر اسمه.. كانت الطبول أيضاً تعلن عن أن هناك أميراً أرسله والده ملك (بارا) كان (كونتا) مندهشاً من مدى شهرة وشعبية عميه.. وسرعان ما كان يجري ليس ليبقى على ملاحقة خطوات والده فحسب الذى كان يخب فى سيره بسرعة وإنما لأن الساعات القليلة الماضية كانت تبدوان بلا نهاية.

وأخيراً عندما بدأت الشمس تتحول إلي اللون القرمزي عند الأفق الغربي لمح (كونتا) الدخان يتصاعد من قرية ليست بعيدة أمامها.. وكان نمط الدخان الدئري المتسع قد أخبر (كونتا) أن قشور شجرة (الباوباب) الجافة قد أحرقت من أجل طرد الناموس.. وهذا يعني أن القرية ترحب بزوار مهمين.. وعندما وصلا سرعان ما بدأ يسمع صوتاً كالرعد من دقات طبل (التابولو) الاحتفالي تعلن عن وصول شخصية جديدة من بين بوابات القرية.. تداخلت نقرات الطبول مع صليل ملابس الراقصين.. شاهدا من بعيد رجلاً ما أن رآهما حتي بدأ يلوح ويشيرلهما.. وكأنه ينتظر خصيصاً رجلاً آتياً مع ابنه.

رد له (أمورو) أشارته ثم انحنى الرجل فى الحال على طبلته وأعلن الرسالة:

(أمور و كونتي) وابنه الأول.

كانت قدما (كونتا) بالكاد تحسان بالأرض.

شجرة المسافرين سرعان ما ظهرت وقد ربط حول جذعها شرائح القماش والطريق الرفيع الوحيد كان قد أصبح ناعماً من كثرة الأقدام التي وطئته دليلاً على أن البلدة أصبحت مشغولة ومحبوبة.

زاد ارتفاع دقات طبول (التان تانج) وفجأة ظهر الراقصون وهم يزمجرون ويصيحون فى ملابسهم من الأوراق والأغصان ويقفزون ويدورون حول أنفسهم ويفتحون من الخارج بوابة القرية أمام الزائرين والجميع يسارع ويهرول لمقابلة الزائرين المرموقين.

وبدأت أصوات طبلة (التوبالو) العميقة تدق عندما جاء شخصان عدواً من بين الأرض الجمهور.. سقطت حمولة رأس(أمورو) فجأة.. وأخذ يجرى نحوهما.. ثم سقطت ربطة رأس (كونتا) هي الأخرى وأخذ هو أيضاً يجري.. كان الرجلان ووالده يحتضن ويرفع كل منهم الآخر.. وصاح الشقيقان وهما يرفعان (كونتا) من فوق الأرض: وهذا هو إذن ابن أخينا ؟ وأخذا يحتضناه وسط صيحات الفرح.

كانا بالتأكيد يشبهان (أمورو) ولكنه لاحظ أنهما أقصر منه إلى حدٍ ما.. وأكثر ضخامة وقوة وعضلات عن والده.. فالعم الأكبر (جانيه) له عينان ضيقتان عن عمه الآخر.. وكلا الرجلين يسيران بسرعة الحيوانات.. وكانا أيضاً يتكلمان أسرع بكثير من والده وهما يمطرانه بالأسئلة حول (جوفور) و(بينتا) .

لكم (سولوم) فخذه في رأس (كونتا) بحنان وهو يقول له:

- لم نلتق معاً منذ أن حصلت علي اسمك.. والآن أنظر إليه كم عدد سنواتك المطرية ؟

أجاب (كونتا) فى أدب: ثمانية يا سيدي !

صاح العم: تقريباً في سن تدريب الرجولة!

حول سور القرية العالي من البامبو تكومت أشجار شائكة تخفي في داخلها أشواك حادة تمنع زحف أي حيوان أو أنسان متسلل .

وفي جولة بالقرية قال العم (سولوم):

- هنا لكل كوخ فناؤه الخاص.. ولكل امرأة مخزن أطعمتها الجافة ويوجد مباشرةً فوق مكان الطهي حتى يحمي الدخان الأرز والشعير والفول السوداني من السوس.

أوشك (كونتا) أن يُصابُ بالدوار من كثرة الناس المحيطين بهم يميناً ويساراً.. وكان من المدهش والمحير له أن يُنصتَ إلي الناس وهم يتحدثون بلهجات الـ(مانديكا)التي لا يستطيع أن يفهمها إلا من خلال بعض الكلمات العارضة.. ولم يكن يعرف شيئاً عن اللغات الخاصة بالقبائل الأخري حتي هؤلاء الذين يعيشون بالقرب منه.

فأهل "الفولا" لهم وجوه بيضاوية.. وشعر أطول.. وشفاه أدق.. وملامح أحد.. وعندهم آثار جروح عريضة على الفودين .

وأهل (الولوف) شديدو السواد ومتحفظون .

و"السيراهولي" جلودهم فاتحة اللون أكثر وجلدهم صغير.

و"الجولاس" لا يمكن الخطأ فى التعرف عليهم وقد جرحوا كل أبدانهم.. ووجوههم.. ويبدو عليها تعبيرات وحشية دائماً.

تعرف (كونتا) على الناس من كل تلك القبائل هنا في هذه القرية الجديدة ولكن هناك أيضاً المزيد ممن لم يتعرف عليهم.

والبعض كانوا يفاصلون بصوت مرتفع مع التجار الذين يلوحون ببضائعهم.

والنساء الأكبر سناً يصحن معلنات عن جلودهن المدبوغة.. بينما الأصغر سناً يفاصلن من أجل الباروكات وضفائر الشعر المصنوعة من "السيزال" و"اللابوب" وصيحات "كولا" "كولا" الناعمة الأرجوانية تجتذب مجموعاتٍ من هؤلاء الذين لهم أسنان قليلة ملونة من مضع جوز الكولا.

ووسط الدفع والكر في ود قُدِمَ (أمورو) إلي كثيرٍ من الفلاحين والأشخاص المهمين من أماكن مثيرة.. واندهش (كونتا) وأُعجِبَ من طلاقة عميه في الحديث بلغات ولهجات متخلفة.

ترك نفسه ينساق مع الجمهور المتحرك وهو يعلم أنه يستطيع أن يعثر على والده و عميه عندما يريد وسرعان ما وجد نفسه بين الموسيقيين الذين كانوا يعزفون لكل من يرغب في الرقص.

تم أكل من الأرانب المشوية ولحم البقر والفول السوادنى المقلي وكلها عملت نساء القرية علي تزويد الموائد بها تحت ظل أشجار (الباوباب) ولكنها لم تكن لذيذة وشهية مثل أطباق احتفالات الحصاد التي تعدها الأمهات في (جوفور).

شاهد بعض النساء يثرثرون هناك بجوار البئر ويتكلمن فى حماس حول شيء مهم فاقترب منهم (كونتا) وقد اتسعت أذناه مثل عينيه وسمع أن ولياً عظيماً مباركاً علي بعد مسيرة نصف يوم فقط من الطريق.. وأنه سافر ومعه أتباعه لتشريف ومباركة القرية الجديدة التى أسسها أبناء المرحوم المبارك (كايرابا كونتاكنتي).

انفعل (كونتا) وفرح كثيراً وهو يسمع عن جدوده وهم يذكرون هكذا بكل تبجيل.

ولم تتعرف عليه أي واحدةٍ من النساء.. وسمعهن يثرثرون بعد ذلك عن عميه.. وقالت إحدى النساء: إن المشكلة الوحيدة التي تواجههما.

أكملت امرأة ثانيةً: إن العديد من العذارى يتلهفون علي أن يكن زوجاتٍ لهما.

كان الظلام قد أوشك أن يحل وأخيراً اقترب (كونتا) من بعض الصبية ممن هم في مثل سنه.. معظمهم كان متلهفاً على إخبار (كونتا) كيف نشأت قريتهم الجديدة.. قال أحدهم:

كل عائلاتنا كانوا أصدقاء لعميك فى مكان ما أثناء رحلاتهما.. وكلهم لم يكونوا راضين عن حياتهم هناك حيث كانوا لا يجدون مساحة كافية لكل عائلة وأطفالها.. لكن نهرنا ليس جيداً الأرز..

ثم سرعان ماحل الظلام.. وأخذ (كونتا) يراقب النيران في القرية الجديدة وقد اشتعلت من الأخشاب والأغصان التي جمعها أصدقاؤه الجُدُد فى وقت مبكر من النهار.. وأخبره الأولاد أن كل القرويين والزائرين سيجلسون معاً حول العديد من النيران بدلاً من عادتهم التي تدعو أن يجلس الرجال والنساء والأطفال كل فئة بعيدة عن الأخرى.

وسيبارك الإمام الجميع كما قالوا ثم سيسير (جانيه) و(سولوم) وسط الدائرة ليقصا حكايات عن أسفارهما ومغامراتهما.. وفي الدائرة معهما.. سيكون أكبر المعمرين بالقرية وأكبر الشيوخ من قرية (فولادو) أعلى النهر البعيد.

وسرى همس أن سنه أكثر من مائة سنة مطرية.. وأنه قد يشارك بحكمته مع كل من يريد الاستماع إليه.

جري (كونتا) ليلحق بأبيه بجوار النيران فى الوقت الذى سمع فيه صلاة ودعاء الإمام.. ولم يقل أحد كلمة لمدة دقائق.

أخذت صراصير الليل تصرصر بصوت عال.. وألقت النيران المدخنة ظلالاً راقصة علي الدائرة الواسعة من الوجوه.. وأخيراً تكلم العجوز الذي كان مجرد جلد على عظم.

مئات السنوات المطرية قبل حتي ما تصل إليه ذاكرتي وصلت الأقاويل عبر المياه الكبرى عن جبل أفريقي من الذهب.. وهذا هو أول سبب أحضر (الطوبوب) إلي أفريقيا.. لم يكن هناك جبال ذهب.. وإنما ذهب لايوصف وُجِدَ في المجاري المائية.. والترع.. وقد استخرجه الماء من داخل مناجم عميقة أولاً فى شمال (غينيا).. ثم بعد ذلك في غاباتها.

ولم يفصح (الطوبوب) أبداً من أين يأتى الذهب لأنه ما أن يعرف أحد (الطوبوب) حتى سرعان ما يعرف الجميع.

بعد ذلك تكلم (جانيه):

وتقريباً في مثل قيمة الذهب الكبيرة في أماكن عدة كان الملح وأنه هو و(سولوم) شخصياً شاهدا الملح والذهب يتم تبادلهما بنفس الوزن والقيمة.

ويوجد الملح فى طبقات سميكة تحت بعض الرمال البعيدة.. وبعض المياه حيث يتم تجفيفه إلي عجائن مالحة تُشكلُ في كتلٍ بعد نشرها في الشمس.

قال الرجل العجوز: لقد كان هناك يوماً ما مدينة "الملح" وهي مدينة (ناغازا) حيث بني أهلها مساكنهم.. وجوامعهم من كتل الملح.

سألت امرأة تبدو عجوزاً بعد أن تجرأت وقاطعته مما ذكرها بجدته العجوز (نيوبوتو):

خبرنا عن الحيوانات ذات السنام التي تحدثت عنها قبل الآن.

وجاء دور (سولوم): تلك الحيوانات تسمي الجِمالُ.. تعيش في مكان رمال لانهاية لها.. ويجدون طريقهم عبرها خلال الشمس والنجوم والرياح.. وأنا و(جانيه) ركبنا تلك الحيوانات لمسافة طولها ثلاثة أشهر قمرية ولم نتوقف إلا مراتٍ قليلة عند الماء.

قال (جانيه): ولكننا توقفنا عدة مرات لنحارب قطاع الطرق.

أكمل (سولوم): ذات مرة سافرنا ضمن قافلة مكونة من اثني عشر ألف جمل.. وحالياً القوافل تكون أصغر عدداً.. لكن تسير مجمعة لتحمي نفسها ضد قُطاع الطرق.

لاحظ (كونتا) أنه و(سولوم) يتكلم كان (جانيه) يفرد قطعة كبيرة جداً من الجلد المدبوغ.. ألقى الشابان ببعض الأغصان في النيران الخابية.. وعلي ضوءها الخافت استطاع (كونتا) والآخرون أن يتابعوا أصبع (جانيه)

وهو يتحرك علي رسم غريب فوق الخريطه الجلدية.. ثم قال وهو يحدد مكاناً أكبر من كل (جامبيا):

- هذه هي أفريقيا.. وفي الشمال من ساحل أفريقيا أحضرت سفن (الطوبوب) البورسلين الصيني.. والتوابل.. والقماش.. والخيول وأشياء لا عدد لها صنعها الإنسان ثم الجمال والحمير تحمل تلك البضائع لداخل البلاد إلي أماكن مثل "سيجيلماسا" و"غاداميس" و"مراكش" أشار ت أصابع (جانيه) المتحرك إلي أماكن تلك المدن.

وكما نجلس هنا الليه هناك رجال عديدون يحملون أثقالاً ضخمة على رؤوسهم يعبرون الغابات الكثيفة يأخذون بضائعنا الأفريقية من العاج والجلود والزيتون والبلح وجوز الكولا والقطن والنحاس والأحجار الثمينة عائدين إلى سفن (الطوبوب).

جرى عقل (كونتا) بسرعة مع ما يسمع.. وأقسم في صمت أنه في يوم ما هو أيضاً سيغامر إلي مثل الأماكن.

ومن بعيد على الطريق دفت طبول المراقبة.. وصل (الولي المبارك)!

وفي الحال اصطف فريق الترحيب الرسمي بسرعة من (جانيه) و(سولوم) باعتبارهما مؤسسي القرية ثم مجلس الحكماء والإمام والعريف ثم الممثلون الشرفيون للقرى الأخرى بما فيهم (أمورو) و(كونتا) ووضع هؤلاء الذين في مثل طوله من شباب القرى.

قادهم الموسيقيون نحو شجرة المسافرين وهم يحددون وقت اقترابهم لمقابلة الرجل المبارك شديد السواد على رأس فريقه الكبير.

رجال ونساء وأطفال يحملون حمولات ثقيلة فوق رؤوسهم فيما عدا القليل من الرجال يقودون الماشية وقدر (كونتا) أن لديهم أكثر من مائة ماعز.

وبحركات سريعة بارك (الرجل المبارك) فريق الترحيب.. وطلب منهم أن ينهضوا من فوق ركبهم.. ثم تلقى (جانيه) و(سولوم) بحركة خاصة وقُدِمَ (أمورو) بواسطة (جانيه) وأشار (سولوم) إلي (كونتا) الذى اندفع إلى جوارهم.

قال (أمورو): هذا ولدي الأول الذى يحمل اسم جده المقدس.

سمع (كونتا) (الولي المبارك) وهو يتكلم بالعربية فوق رأسه.. ولم يفهم شيئاً فيما عدا اسم جده.. وأحس بأصابع الرجل المقدس تمس رأسه بخفة مثل أجنحة الفراشة.. ثم عاد بسرعة إلي وسط أترابه حيث ذهب الولي الصالح لمقابلة الآخرين في فريق الترحيب ليتحدث معهم وكأنه رجل عادى.

وكان الصغار من فريق (كونتا) قد بدأ يرحل بعيداً ويحملق إلي الطابور الطويل من النساء والأطفال والطلبة والعبيد الذين يكونون في مؤخرة المريدين.

سرعان ما انسحبت زوجات الإمام وأطفاله إلي أكواخ الضيوف.

وأخذ الطلبة مقاعد علي الأرض وفتحوا ربطات رؤوسهم واخرجوا الكتب والمخطوطات وهي من أملاك معلمهم الرجل المقدس وبدؤوا يقرؤون بصوت مرتفع لهؤلاء الذين تجمعوا حول كل منهم ليستمعوا.

لاحظ (كونتا) أن العبيد لم يدخلوا القرية مثل الباقين.. وظلوا خارج السور جالسين القرفصاء بالقرب من موضع الماشية وزرائب الماعز.. وكانوا أول عبيد يراهم (كونتا) يبتعدون عن بقية الناس.

لم يكن الرجل المقدس يستطيع التحرك إلا بصعوبة لأن كل الناس كانوا راكعين على ركبهم حوله.. والقرويون والمرموقون من الزوار أرادوا أن يضغطوا جباههم بالتراب متوسلين إليه ونائحين أن يستمع لشكاويهم.. والبعض اقترب ليلمس فقط قفطانه.. وآخرون توسلوا إليه أن يزور قُراهم ليقوم بأداء المناسك الدينية التي أُهمِلَتْ منذ فترات طويلة.. والبعض كان يسأله عن بعض المسائل الشرعية في الإسلام.

واشترى (كونتا) بقطعتى العملة (الكاوري) اللتين أحضرهما معه من (جوفور) مربعاً من جلد الماعز.. وانضم إلي الجمهور المتزاحم حول الولي الصالح ليباركها له موقناً في قرارة نفسه أن جده لابد وأنه كان مثل هذا الرجل المقدس الذي لديه القوة التي منحها له الله أن يجلب المطر لإنقاذ القرى الجائعة.. والآن فقط ولأول مرة فهم حقاً عظمة جده والإسلام .



جفاء الرفاق

اشتعلت غيرة أتراب (كونتا) من رحلته وتوقعوا أن يعود إلي (جوفور) وقد انتفخت أوداجه.. ودون أن يقول أحد منهم في الحقيقة شيئاً عن ذلك ليظهروا عدم الاكتراث على الإطلاق.. صُدِمَ قلبُ (كونتا) عندما شعر بذلك بعد وصوله إلي الوطن.. ووجد أصدقاء عمره لا يتجاهل ون فقط أنه كان بعيداً عنهم.. وإنما أيضاً فى الحقيقة كانوا ينهون أحاديثهم كلما اقترب منهم.. بل إن أعز أصدقائه (سيتافا) كان أبردهم.. تضايق (كونتا) للغاية من ذلك الموقف.

وفي ظهر أحد الأيام والماعز ترعى قرر (كونتا) أخيراً أن يتغاضى عن قسوة رفاقه ويحاول أن يرأب الصدع.. سار نحو الصبية الآخرين الذين كانوا جالسين بعيداً عنه وهم يتناولون غداءهم.. وجلس بينهم.. ثم بدأ الحديث ببساطة دون أن ينتظر رد فعلهم:

أتمني لو كنتم معي.

ثم بدأ يخبرهم عن الرحلة.. وكيف كانت أيام السير صعبة.. وكيف امتلأ خوفاً.. ورعباً وهو يمر بجوار الأسود.. ثم وصف لهم مختلف القرى التي مر عليها والناس الذين يعيشون هناك.

وبينما هو يتكلم قفز أحد الصبية ليجمع الماعز.. ثم عاد وجلس بالقرب من (كونتا).. وسرعان ما اصطحبت كلمات (كونتا) الآهات والهتافات والتهليل من الآخرين.. وبالضبط عندما وصل إلي النقطة التي فيها قرية عميه الجديدة حان الوقت لعودة الماعز للبيت.

وفي صباح اليوم التالي في فناء الكُتاب كان علي كل الأولاد أن يجاهدوا حتي لا يدعوا العريف يشك في تلهفهم على الرحيل.. وأخيراً عندما أصبحوا في الخارج مرة ثانيةً مع ماعزهم تحوطوا حول (كونتا) وبدأ يخبرهم عن مختلف القبائل واللغات المختلفة كلها في قرية عميه.

كان في منتصف إحدى القصص عن الأماكن البعيدة التي تحدث عنها (جانيه) و(سولوم) حول مخيم النيران.. كان الصبية معلقين بكل كلمة عندما قطع هدوء الحقول فجأة بنباح وحشي لكلب (الوولو) ومقاومة مرعبة من إحدى الماعز.. قفزوا من أماكنهم ليروا من حافة العشب الطويل نمراً ضخماً يلقي بماعز من فكيه ويندفع نحو كلبين من "الوولو".. ظل الأولاد واقفين في مكانهم وقد هزتهم الصدمة والخوف بحيث منعتها من الحركة.. عندما أطيح بأحد الكلاب جانباً بمخلب النمر الصاعق.. عندها قفز الكلب الآخر بوحشية للخلف والأمام وتحفر النمر ليقفز وأسنانه المخيفة بارزة من فكيه.. مما جذب الكلاب الأخرى لتنبح في جنون مع صيحات الماعز التي كانت تتقافز في كل الاتجاهات.

ثم أفاق الصبية واندفعوا وهم يصيحون ويجرون ومعظمهم ليواجهوا الماعز.. واندفع (كونتا) بطريقة عمياء نحو ماعز والده.. وصاح (سيتافا) وهو يحاول أن يوقفه بعيداً عن الكلاب.. والنمر ولكنه لم يستطيع الإمساك به.. ولكن عندما رأي النمر الولدين الصارخين يندفعان نحوه تراجع بضع خطوات ثم استدار وجرى بسرعة ناحية الغابة والكلاب المسعورة في أعقابه.

جعلت رائحة النمر والمعزة المشوهة (كونتا) يشعر بالمرض.. وكانت الدماء تجري داكنة حول رقبتها الملوية ولسانها يلهث خارج فمها.. وقد دارت عيناها لأعلى رأسها.. والأكثر فظاعة أن بطنها بُقِرَت بجرحٍ واسع.. واستطاع (كونتا) أن يرى ابنها الذي لم يولد بعد في بطنها ينبض في بطء.

وبالقرب كان أول كلب (وولو) يتنهد في ألم من ناحية جنبه المصاب.. ويحاول أن يزحف نحو (كونتا) الذى تقيأ في مكانه .. ثم استدار ليرى وجه (سيتافا) الحزين.

أحس (كونتا) من بين دموعه بعض الصبية حوله وهم يحملقون في الكلب المجروح.. والماعز الميتة.. ثم انسحبوا جميعاً للخلف.. كلهم عدا (سيتافا) الذى وضع ذراعيه حول (كونتا).. لم يتكلم أى واحدٍ منهما.. ولكن الأسئلة تعلقت في الهواء.. كيف سيقوم (كونتا) بإخبار والده؟

وبطريقة ما استعاد (كونتا) صوته وسأل (سيتافا): هل يمكنك العناية بماعزي؟ لابد أن آخذ هذا الجلد لوالدي.

ذهب (سيتافا) وتحدث مع بقية الأولاد فنهض اثنان منهما بسرعة.. وحملا الكلب المتألم.. ثم أشار (كونتا) لـ(سيتافا) ليذهب مع الآخر ين.

ركع بجوار الماعز الأم بسكينه.. وقطع.. وسلخ كما رأي والده يفعل.. إلي أن نهض أخيراً والجلد الطري بين يديه.. نزع العشب وغطى به جسم الماعز الأم وابنها الذي لم يولد.. ثم بدأ رحلته نحو القرية.. وهو يتذكر مرة عندما أهمل ذات مرةٍ من قبل في رعاية ماعزه.. وأقسم ألا يدع ذلك يحدث ثانيةً.. ولكن ها هى قد حدثت ثانيةً وهذه المرة قتلت ماعز ولادة.. تمنى في يأس أن يكون ما حدث مجرد كابوس وأنه استيقظ منه الآن.. ولكن الجلد المبتل لا يزال بين يديه.. تمنى الموت لنفسه.. ولكنه كان يعرف أن لعنته ستحل علي الجدود .. لابد أن الله يعاقبه علي تفاخره.. وأحس بالعار.. وقف في الطريق ليركع في اتجاه شروق الشمس وصلي طلبا للمغفرة.

وعندما رأي أن كل رفاقه قد جمعوا كل الماعز معاً.. واستعدوا لمغادرة أرض المراعي.. ورفعوا علي رؤوسهم أحمالهم من الحطب والخشب .. كان أحد الأولاد يحمل الكلب المصاب.. والكلبان الآخران كانا يعرجان بطريقة مؤلمة عندما رأى (سيتافا) (كونتا) ينظر نحوهم.. وضع حمولته أرضاً.. واتجه نحوه..

ولكن (كونتا) بسرعة لَوَحَ له ليذهب مع الباقين.. بدت كل خطوة فوق طريق الماعز المطروق تقترب بـ(كونتا) من النهاية نهاية كل شئ.. الشعور بالذنب والرعب.. وفقدان الحس الذى سرى في كل جسده علي موجات.. ربما سيُطردُ بعيداً.. وسيشتاق إلي (بينتا) و(لامين) والعجوز (نيوبوتو).. بل أنه قد يشتاق إلي فصول العريف.. وفكر في جدته المرحومة "بيسا" وجده الأكبر المقدس الذى يحمل اسمه وقد لوثه الآن.. وفي عميه الجوالين المشهورين واللذين بنيا قرية..

وتذكر أنه ليس معه حمولة على الرأس ولا خشب للنيران.. وفكر في الماعز الأم التي كان يعرفها جيداً ودائماً هى مشاغبة وشاردة عن بقية القطيع.. وفكر في الابن الذي لم يولد.. وبينما هو يفكر في كل تلك الأمور لم يكن يشغله إلا شيئٌ واحد يخشاه جداً ألا وهو والده.. تعثر عقله وتوقف عن التفكير.. ثم سار وهو لا يستطيع التنفس.. وحملق أمامه إلي نهاية الطريق.. كان (أمورو) يجري نحوه.. تساءل من الذي أخبره ؟

سأله والده: هل أنت بخير ؟

بدا وكأن لسان (كونتا) التصق بحلقه.. ثم قال أخيراً:

- نعم يا أبي.. ولكن يد (أمورو) كانت تتحسس بطن (كونتا) واكتشف أن الدماء التي تسيل من قفطانه ليست دماءه.. انتصب (أمورو) وأخذ الجلد ووضعه علي العشب وأمره:

- اجلس!

أطاعه (كونتا) وهو يرتجف بينما جلس (أمورو) أمامه.

- هناك أمر تحتاج إلي أن تعرفه.. كل الرجال يرتكبون أخطاء.. لقد فقدت ماعزاً أخذها الأسد وأنا في مثل عمرك.

رفع (أمورو) جلبابه كاشفاً عن ساقه وفخذه اليسرى.. وكان بها ندبٌ عميقٌ صدمت رؤيته (كونتا).

- لقد تعلمت ويجب عليك أن تتعلم.. لاتجرِ أبداً نحو أي حيوان مفترس.

ثم حملق في وجه ابنه وقال: هل سمعتني؟

- نعم يا أبي.

نهض (أمورو) وأخذ جلد الماعز وألقى به بعيداً في الغابة وقال:

- هذا كل ما نحتاج لأن نفعله.

أخذ رأس (كونتا) يجري وهو يسير عائداً للقرية خلف (أمورو).. أكبر من الذنب الذي كان يحسه وكان الحب الذي أحسه نحو والده في تلك اللحظة.



انتهاء الدراسة

وصل (كونتا) إلى سن العاشرة المطرية.. ورفاقه من الجيل الثانى من سنه على وشك أن يتموا الدراسة.. وكانوا يتلقون درسين يومياً منذ كانوا فى سن الخامسة.. وعندما جاء يوم التخرج جلس والدا (كونتا) وآباء وأمهات زملاء (كونتا) فى فناء العريف وهم يتيهون فخراً فى الصفوف الأولى.. حتى أمام كِبار القرية.. وبينما (كونتا) والآخرون يجلسون أمام العريف أخذ إمام القرية يصلي ويدعو.. ثم نهض العريف وبدأ ينظر حوله إلى تلاميذه وهم يرفعون أصابعهم ليسألهم.. وقد كان (كونتا) أول من اختير ليسأله: ماذا كانت مهنة جدك الأول يا (كونتا كنتى) ؟

أجاب (كونتا) بكل ثقة: منذ مئات السنين فى أرض مالى كان رجال كنتي حدادين ونساؤهم صانعات آنية ونساجات للأقمشة.

ومع كل إجابة سليمة من تلميذ كان كل المجتمعين يصدرون أصواتاً مرحة عالية.. وعندها سأل العريف سؤالاً رياضياً :

- إذا كان قرد السعدان لديه سبع زوجات.. وكل زوجة لديها سبعة أطفال.. وكل طفل يأكل سبع حبات فول سودانى لمدة سبعة أيام.. فكم عدد الحبات التى يجب أن يسرقها البابون من مزرعة الرجل؟

وبعد حسابات مجنونة بأقلام من العشب وعلى لوحات من خشب شجر القطن كان أول من صاح بالرد الصحيح هو (سيتافا سيلا) وغطي صياح الإعجاب والمديح على زمجرة بقية الأولاد.

بعد ذلك كتب الأولاد أسماءهم باللغة العربية كما تعلموا.. وواحدٌ بعد الآخر رفع العريف اللوحات أمام كل الآباء والمشاهدين الآخرين.

ثم أخذ العريف يسأل واحداً تلو الآخر من الخريجين أن يقف.. وأخيراً جاء دور (كونتا) الذى أحس بكل العيون مركزةً عليه.. شعر بالفخر العظيم لأن أسرته فى الصف الأول.. نهض وردد بصوت عال إحدى الآيات القرآنية.. وعندما انتهي ضم المصحف إلى جبينه..

وعندما انتهت القراءة من الجميع صافح العريف يد كل تلميذٍ.. وأعلن بصوتٍ عالٍ أنه باعتبار أن دراستهم قد انتهت فإن هؤلاء الأولاد قد أصبحوا فى الجيل الثالث.. وانفجر كل فردٍ فى هتاف مرتفع.. كشفت النساء الأغطية عن الأوانى.. والقرعات التى أحضرنها وقد امتلات بالطعام اللذيذ.. وانتهي حفل التخرج بوليمة سرعان ما فرغ كل مافيها.

كان (أمورو) منتظرا فى صباح اليوم التالى عندما جاء (كونتا) ليأخذ ماعز الأسرة خارج القرية من أجل الرعي وأشار إلى ماعز ذكر وانثي صغيرين وقال : هذان هما هدية انتهائك من المدرسة.

وقبل أن يتكلم (كونتا) شاكراً صنع أبيه.. رحل (أمورو) بعيداً دون كلمة.. وكأنه يهب للآخرين زوجين من الماعز كل يوم.. وفى اللحظة التى ابتعد فيها أبوه عن نظره قفز (كونتا) عالياً من الفرحة لدرجة أن هديته تقافزت معه.. ثم بدأت تجرى مع الآخرين فى مطاردة حارة وعندما لحق بها وقادها إلى الحقول كان رفاقه يقابلونه وهم يظهرون أيضاً ماعزهم الخاصة الجديدة.. كان الأولاد يعاملونها باهتمام ويوجهونها إلى أنعم الحشائش.. وهم يحلمون متى يصبح لكل صبي قطيع كبير فى مثل حجم وقيمة قطيع والده .

قبل أن يظهر القمر الجديد التالي كان (أمورو) و(بينتا) قد أعطوا للعريف هو الآخر ماعزاً كتعبير عن العرفان بالجميل لتعليمه ابنهم.. ولو كانا أكثر ثراءاً لاسعدهما دون شكٍ أن يعطياه بقرةً.. ولكنهما يعرفان أنه يتفهم كون ذلك فوق طاقتهم.. بل فوق طاقة أى فردٍ فى (جوفور) تلك القرية المتواضعة.. والحقيقة أن بعض الآباء والعبيد ليس لديهم ما يدخرونه ليقدموه للعريف سوى شهر قمرى من العمل يتقبله العريف مع الشكر.

توالت الأشهر القمرية يتبعها الفصول إلى أن مر عام مطري آخر وجيل (كونتا) عَلَمَ جيل (لامين) كيف يرعون الماعز.. والوقت الذي انتظره طويلاً أصبح يقترب بشدة.. و(كونتا) ورفاقه يشعرون بالقلق لاقتراب مهرجان الحصاد القادم.. والذى سينتهى بإبعاد الجيل الثالث الذى يترواح عمر أولاده بين عشر وخمس عشرة سنة إلى مكانٍ بعيدعن (جوفور) سيعودون منه بعد أربعة أشهرٍ قمرية كرجال.

همس الأولاد فيما بينهم بعد أن تصنت أحدهم وهو (كاليلو كونتيه) على عمه وهو يقول أن إصلاحات كثيرة تمت فى قرية (جوجو) وهى قرية تدريب الرجولة بسبب تعرضها لتقلبات الجو وعبث الحيوانات لمدة خمس سنوات مطرية منذ آخر تدريب للأولاد هناك.. وتبع ذلك همسٌ أكثر إثارة بين آبائهم حول من سيتم اختياره من مجلس الحكماء ليكون (كينتاجو) هذا الجيل ومسؤولاً عن تدريب الرجولة لهم.. وسمع (كونتا) وبقية الأولاد أكثر من مرة آباءهم وأعمامهم وإخوانهم الأكبر سناً يتحدثون بوقار عن الـ (كينتاجو) الذى أشرف على تدريبهم على الرجولة من سنوات مطرية عديدة.. وبذل (كونتا) قصارى جهده ليخفي تألمه من تلك الذكري الحية لذلك الصباح من خمس سنوات قمرية مضت عندما كان راعياً جديداً للماعز.. وكيف كان هو ورفاقه مرعوبين للغاية وهم يشاهدون الأولاد الصارخين تحت الطواقي البيضاء.. يُركلوُنَ.. ويُساقُونَ من القرية بعصبة من الراقصين الملثمين والمخيفين حاملي الرماح.

سرعان ما دقت طبول (التوبالو) معلنةً بداية موسم الحصاد.. وانضم (كونتا) للآخرين من القرويين إلى الحقول.. ورحب بالأيام الطويلة من العمل الشاق لأنه يجعله مشغولا جداً ومتعباً للغاية لدرجة تمنعه من التفكير فيما هو آت.. ولكن عندما تم الحصاد.. وبدأ المهرجان وجد نفسه غير قادر على التمتع بالموسيقي والرقص والاحتفال وجلس مع نفسه على ضفة النهر وهو يلقي بالأحجار على سطح الماء .

وفى الليلة السابقة على آخر يومٍ للمهرجان كان (كونتا) فى كوخ (بينتا) ينهي فى صمت وجبة العشاء من عصيدة الفول السودانى مع الأرز عندما دخل (أمورو) إلى جانبه.. لمح (كونتا) بطرف عينه والده يرفع شيئاً أبيضاً.. وقبل أن تُتاح له الفرصة أن يستدير أخرج (أمورو) طاقية طويلة على شكل (طرطور) ووضعها بحزم على رأس ابنه وغطى بها وجهه.. كان الرعب الذى سري فى جسد (كونتا) قد خدره تماماً.. شعر بيدي والده تفيضان على أعلى ذراعه وتحثه للنهوض ثم التحرك.. إلى أن دفع به على مقعد منخفض.. شعر (كونتا) بالعرفان عندما جلس لأنه شعر بساقيه كالماء ورأسه خفيف..

أنصت إلى نفسه وهو يتنفس فى لهثات قصيرة وهو يعلم أنه لو حاول الحركة فإنه سيسقط من فوق المقعد لذلك جلس ثابتاً جداً وهو يحاول أن يعود نفسه على الظلام.. كان مرعوباً لدرجة أنه بدا وكأنه يعيش فى ظلام مضاعف.. وعندما أحست شفته العليا بلل العرق داخل طاقيته التى كُبِسَتْ على رأسه ووجهه بنفس الطريقة التى كُبِسَتْ بها على رأس والده من قبل .

فكر كم سيكون الأمر رهيباً لو رفع الطاقية.. الجميع سيرون كم هو مرعوباً حقاً.. وربما يصبح صبياً غير جدير بالانضمام إلى رفاق تدريب الرجولة.. وحتى الأطفال من عمر (لامين) يعرفون ماذا يحدث لأى شخصٍ يبدي ضعفه أو جبنه على تحمل التدريب الذى يحول الصبية إلى صيادين ومحاربين ورجال كل ذلك خلال فترة اثنى عشر شهراً.

وليفرض أنه فشل ، بدأ يشهق من الخوف من وقوع هذا الاحتمال.. ويحاول ابتلاع خوفه وهو يتذكر كيف أنهم أخبروه أن أى ولد يفشل فى تدريب الرجولة.. سيُعاملُ كطفلٍ طوال حياته.. حتى وإن بدا فى مظهر الكبار.. أنهم سيتجنبونه

ولن تسمح له قريته أبداً أن يتزوج.. وإن عاجلاً أو آجلاً يتسلل هؤلاء خفيةً ولا يعودون إلى قراهم أبداً.. وحتى آباؤهم وذويهم لا يذكرونهم ثانيةً.. لقد كان الأمر شديد الإرهاب بالنسبة إليه وهو يفكر فيه.. وأخيراً بعد أن هز نفسه ليستيقظ عدة مرات غرق فى نوم عميق ولكن سرعان ما دقت طبلة (التوبالو).. وعندما تَعَوَدَ على ظلام الطاقية

كان (كونتا) يستطيع أن يحس بأنشطة الصباح من الأصوات التى تلتقطها أذناه من صياح الديكة.. ونباح كلاب الوولو.. وآذان الإمام.. ودق أيادي الهون والنساء يقمن بطحن الغلال من أجل عصيدة الإفطار..

وكان يعلم أن دعاء اليوم إلى الله هو من أجل نجاح تدريب الرجولة الذى على وشك أن يبدأ.. سمع حركة فى الكوخ.. إنها (بينتا).. تساءل (كونتا) عن (سيتافا) وباقي رفاقه الآخرين.. كان يدرك أنه خلال نفس الليلة بالتأكيد مرَ عليهم ليل طويل مثل ما مر عليه.

وعندما بدأ عزف موسيقي الكورس والبلافون خارج الكوخ.. سمع (كونتا) صوت الناس يسيرون ويتكلمون أعلى فأعلى.. ثم انضمت الطبول إلى الموسيقي بشكلٍ حادٍ وقاطع.. وبعد فترة بدا وكأن قلبه سيتوقف وهو يشعربالحركة المفاجئة لشخص مايندفع داخل الكوخ.. وقبل حتى أن يتمالك نفسه قبض هذا الشخص على رسغيه.. وانتزعه لينهض بعنف من فوق المقعد.. وأُزيح إلى الخارج حيث كانت الضجة تسبب الصمم من طبول ستاكاتو والناس يصرخون ذعراً.

أُسقِطَ وركلته الأقدام.. وفكر (كونتا) فى يأس فى الهروب بطريقةٍ ما.. ولكن عندما أوشك أن يحاول ذلك أمسكت به يدٌ حاسمةٌ.. ولكن بلطف.. كان يتنفس فى حشرجة تحت الطاقية.. وأدرك أنه لم يعد يُضرب ويُركل.. وأن صراخ الجمهور لم يعد فجأة قريباً.. خمن أن الناس قد تحركوا لكوخ صبيٍ آخر .. وأن اليد التى قادته وأمسكت به لابد أنها تخص العبد الذى استأجره (أمورو) كما يفعل كل أب ليقوده وهو مغطي الرأس والعينين إلى (جوجو).

ارتفع صياح الجمهور إلى حد الهوس فى كل مرة يجر فيها ولدٌ من أحد الأكواخ.. وكان (كونتا) سعيداً لأنه لا يري راقصي (الكانكورانج) الذين يقومون بدورات فظيعة وهم يقفزون عالياً فى الهواء.. ويلوحون برماحهم.. والطبول الضخمة والصغيرة وكل طبلة فى القرية كانت تدق.. والعبد يقود (كونتا) أسرع فأسرع بين صفوف من الناس الصائحين على كلا الجانبين ويصرخون بعبارات مثل أربعة أقمار وسيصبحون رجالاً.. وأراد (كونتا) أن ينفجر باكياً.. كان يريد بشدة أن يمد يداه ويلمس (أمورو) وبينتا و(لامين)

وحتى (سوادو) المتباكي الذي يسيل المخاط من أنفه دوماً.. كيف سيحتمل أربعة شهورٍ قمرية تمر قبل أن يري ثانيةً هؤلاء الذين أحبهم أكثر مما أدركه الآن.. انضم هو ومرشده إلى الصف المتحرك من السائرين.. وكلهم يخطون بسرعة.. وعندما مروا من بوابات القرية استطاع أن يعرف من الضجة الصادرة من الجمهور أنهم يبتعدون.. وبينما يسير مُرهقاً وسط (عماه) بسبب الطاقية التى تغطى من رأسه إلى وجهه.. أحس بدموعٍ ساخنةٍ تندفع من عينيه..أغلق عينيه بقوة وكأنه يود أن يختفي حتى عن نفسه.

شعر برائحة خوف رفاقه أمامه وخلفه فى الصف.. وعرف أن خوفهم عظيم مثل خوفه.. لكنه كان يعلم أن ذلك الأمر لابد أن يتم.. وأنه لابد أن يتم أيضاً فى يومٍ ما مع ابنه.. وأنه سيعود يوماً لقريته وأهله.. ولكن كرجل .



الطريق إلى الرجولة

أحس (كونتا) بأن هناك بستاناً من البامبو قُطِعَ حديثاً.. ورغم الطاقية استطاع أن يشم العبير الغني للبامبو المقطوع.. ساروا مقتربين أكثر.. وأصبحت الرائحة أقوى فأقوى.. ووصلوا إلى الحدود.. ثم عبروها.. ولكنهم لازالوا خارج الديار.. فجأة توقفت الطبول وكذلك توقف السائرون لعدة دقائق.. وقف (كونتا) والآخرون ثابتين ينصتون لأقل صوتٍ يمكن أن يخبرهم عن وقت أو مكان وقوفهم.. ولكن كل ماسمعوه هو صوت الببغاوات وزمجرة القردة.. ثم فجأة رفعت طاقية (كونتا) وقف يرمش بعينيه فى الضوء الساطع للشمس وسط النهار.. يحاول أن يضبط عينيه على الضوء..كان خائفاً حتى من أن يدير رأسه ليري رفاق سنة حيث وقف أمامهم مباشرة الرجل العجوز القاسي والمجعد (سيلابادييا) ومثل بقية الأولاد كان (كونتا) يعرفه هو وعائلته جيداً.. ولكن (سيلابادييا) تظاهر وكأنه لم يسبق له أن رأى أياً منهم فى أى مكان من قبل.. أخذت عيناه تتفحصان وجوههم.. وكأنه ينظر إلى ديدان زاحفة.. عرف (كونتا) أن هذا بالتاكد هو من تم اختيياره ليكون الـ(كينتاجو) المسؤول عن تدريب الرجولة.. وقد وقف على جانبيه رجلان أصغر منه سناً هما (على سيسي) و(سوروتورا) اللذان كان يعرفهما (كونتا) جيداً كان (سورو) صديقاً حميماً لــ (أمورو) وسعد (كونتا) لأن أيا منهما لم يكن والده ليراه خائفاً لهذه الدرجة.

وكما تعلم كل أبناء جيله فإن الثلاثة والعشرين صبياً عقدوا أكفهم فوق قلوبهم.. وحيوا الأكبر منهم بطريقة تقليدية (السلام عليكم) ورد الـ (كينتاجو) العجوز (وعليكم السلام) هو ومساعده.. اتسعت عيناه للحظات وهو حريص ألا يتحرك.. ورأى (كونتا) أنهم يقفون فى مجمع سكني تناثرت فيه أكواخ من حوائط طينية عديدة ومغطاة الأسقف بالحطب.. ومحاطةً بسورٍ من البامبو الجديد.. وكان يستطيع أن يري جيداً هذه الأكواخ التى أُقيمت دون شك بواسطة الآباء اختفوا من (جوفور) منذ فترة لعدة أيام.. كل هذا رآه دون أن يحرك عضلة واحدة.. ولكن فى اللحظة التالية أوشك أن يخرج من جلده عندما قال الـ (كينتاجو) فجأة بصوت مرتفع.

إذا أردتم تعودوا أن تعودوا رجالاً عليكم أن تمحوا خوفكم.. لأن الشخص الخائف هو شخص ضعيف.. والشخص الضعيف خطر على عائلته.. وعلى قريته.. وعلى قبيلته.

ثم استدار بعيداً.. وعندما فعل ذلك قفز المساعدان للأمام.. وبدا يتقابلان بعصي لدنة وهما يرقصان فى رشاقة ويسوقان الأولاد مثل العديد من الماعز.. ووضعا كل عددٍ قليلٍ منهم فى كوخٍ صغير من الطين.. جلسوا القرفصاء داخل أكواخهم العارية.. ثم ارتعب (كونتا) ورفاقه الأربعة وقد أصابهم الرعب وهم يتحسسون آثار الدماء من الجروح التى تلقوها.. شعروا بالخجل الشديد لدرجة تمنعهم من رفع رؤوسهم بما يكفي لينظر كل منهم للآخر.. وبعد دقائق قليلة وعندما أحسوا أنهم يمكنهم أن يبتعدوا قليلاً عن المزيد من الأولاد اختلس (كونتا) النظرات لرفاقه.. وود لو كان هو و(سيتافا) فى نفس الكوخ.. إنه يعرف هؤلاء الآخرين بالطبع.. ولكن لا أحداً منهم مثل رفيق عمره.. وأحس بقلبه يغرق.. وفلسف الأمر علي أنه ليس محض مصادفةً.. لابد أنهم لا يريدون لنا حتى هذه الرفاهية القليلة.. وربما لن يطعمونا.. هاجمته تلك الفكرة بشدة عندما بدأت معدته تعوي من الجوع .

وبعد غروب الشمس مباشرةً صاح مساعدا الـ (كينتاجو) : تحركوا.. ثم أمسكا عصاهما بحدة بين كتفيهما.. ودفعا الصبيةَ الصائحين وهم يجرون إلى الخارج وقت الغسق ويرتطمون ببعضهم البعض تحت تلويح العصي المتطايرة.. وقادا الصبية بأوامر خشنة في صفٍ متقطع.. وكان كل صبي يمسك بيد الصبي الذى أمامه.. وعندما أصبحوا جميعاً فى المكان المحدد.. حدق إليهم الـ (كينتاجو) وهو يوبخهم بشدة.. ويعلن أنهم على وشك أن يقوموا برحلة ليلية فى عمق الغابة.. وعندها أمرهم بالسير في صفٍ طويل على الطريق والعصي تنهالُ عليهم كالمطر.. وبعدها لم ينطق أى صبي بأى صوت .

شعر بمعدته تتقلص فى عقد عصبية.. وبدأ يحس بأن رأسه خفيف إلى أن نودى بالتوقف أخيراً بالقرب من ترعة صغيرة.. سقط الصبية على ركبهم.. وبدؤوا يشفطون ويحتسون الماء.. وبعد فترة أمرهم مساعدا الـ (كينتاجو) بالابتعاد عن الترعة لئلا يشربوا الكثير مرةً واحدةً.. ثم فتحا حمولة رؤوسهم.. ووزعا عليهم بعضا من شرائح اللحم المقدد.. هجم الصبية على قطع اللحم.. ومزقوها مثل الضباع الجائعة ومضع (كونتا) طعامه بسرعة كبيرة حتى أنه شعر بصعوبة بطعم الأربع قضمات التى استطاع أن يصارع من أجل الحصول عليها لنفسه.

وبالكاد أُتيحت لـ (كونتا) الفرصة ليبرد قدمية الملتهبتين فى الترعة قبل أن يأمرهم مساعدا الـ (كينتاجو) بالعودة إلى التدريب على السير الطويل عودةً إلى (جوجو) كانت ساقاه ورأسه مخدرين عندما ظهرت أخيراً أبواب البامبو قبل الفجر بقليل.. شعر أنه مستعد للموت.. فاندفع إلى كوخه واصطدم بصبيٍ آخر كان بالداخل وفقد توازنه.. وتعثر فى الأرض الترابية.. ثم سقط فى نومٍ عميق.. وفى كل ليلة لمدة الست الليالي التالية كانت هناك مسيرات أخرى.. وكل منها كان أطول من السابقة.. وكان ألم قدميه المتقرحتين رهيباً.. ولكن اكتشف (كونتا) بحلول الليلة الرابعة أنه بطريقة ما لم يعد يهتم بالألم لهذه الدرجة.. وبانتهاء المسيرة السادسة اكتشف هو وبقية الأولاد أنه رغم ظلام الليل فإنهم لم يعودوا فى حاجة إلى أن يمسك كلٌ منهم بيد الآخر ليحافظوا على السير فى صفٍ منتظم .

وفى الليلة السابعة جاء أول درس شخصي لـ (كينتاجو) يلقيه على الأولاد.. وأراهم كيف يستخدم الرجال النجوم فى عمق الغابة لإرشادهم للطريق الصواب حتى لا يتوهوا أبداً.. وخلال فترة نصف شهر قمري تعلم كل صبي من رفاقه كيف يقود المسيرة عن طريق الاسترشاد بالنجوم والعودة إلى المعسكر (جوجو) .

وفى إحدى الليالى و(كونتا) هو القائد أوشك أن يطأ فأر غابة قبل أن يلاحظه.. وانطلق الفأر يعدو بحثاً عن مأوى.. كان (كونتا) فخوراً ومذهولاً لأن ذلك معناه أن السائرين كانوا يسيرون فى صمت شديد حتى أن أى حيوان لم يكن ليسمعهم .

ولكن الـ (كينتاجو) أخبرهم أن الحيوانات هى أحسن المعلمين لفن الصيد.. والذى هو من أهم الأشياء الواجب على الـ(مانديكا) أن يتعلمها.. وعندما رضي الـ (كينتاجو) عن اتقانهم تقنيات السير أخذ الفرقة لمدة نصف الشهر القمري التالى فى أعماق الدغل بعيداً عن المعسكر.. حيث بنوا ملاجئ للنوم وشرح لهم عدداً لا يُحصى من الدروس حول أسرار الحراسة.. ولم تُغلق عينا (كونتا) إلا وأحد مساعدي الـ (كينتاجو) يسارع بالصياح ليوقظهم من أجل التدريب .

وقد أشار مساعدا الـ (كينتاجو) حيث مكان الأسود فى الانتظار.. ثم تقفز لتقتل الأرانب المارة.. ثم إلى حيث تذهب الأسود بعد وجبتها لتستلقى لتنام بقية الليل.. وفتش الصبية الشقوق الكبيرة فى الصخور حيث يختبئ الضباع والذئاب.. ثم بدؤوا يتعلمون العديد من حيل الصيد.. وأدركوا أن السر الأول للصياد المتمكن هو عدم السير فجأة أو بسرعة.. وقد أخبرهم الـ (كينتاجو) نفسه قصة عن صياد غبي مات من الجوع فى منطقة مليئة بالفرائس لأنه كان غبياً جداً.. ويُحدث ضجةً عاليةً.. ويجري هنا وهناك لدرجة أن كل الحيوانات حوله كانت تتسلل بسرعة.. شعر الأولاد أنهم مثل ذلك الصياد الغبي فى دروسهم أثناء دروسهم فى تقليد أصوات الحيونات والطيور.. وكان الهواء مطبوعا بصفاراتهم وتقليدهم.. ومع ذلك لم يقترب حيوانٌ أو طائر.. ثم طلب منهم أن يستلقوا ساكنين جداً فى أماكن اختباءهم.. بينما الـ (كينتاجو) ومساعداه فعلوا ما بدا للأولاد أنها نفس الأصوات.. وسرعان ما ظهرت الطيور والحيوانات أمام الأنظار وهى تهز رؤوسها بحثاً عن الحيوانات والطيور الآخرى التى نادتها.. وبينما الأولاد يتدربون على أصوات نداءات الطيور بعد ظهر أحد الأيام.. فجأة حط طائر ضخم الجثة ثقيل المنقار وهو يصدر صياحاً عالياً فى(الأكمة)القريبة.. صاح أحد الأولاد وهو يضحك ضحكة عالية .

انظروا.. وسقط قلب كل واحدٍ منهم وهو يعلم أن الولد الواسع الثرثار قد جلب عليهم جميعاً العقاب.. والآن ها هو الـ (كينتاجو) يسير نحوهم.. ثم توجه نحو الولد المذنب وقال له بكل صرامة: احضر لى هذا الطائر حياً !!

كتم (كونتا) ورفاقه أنفاسهم وهم يشاهدون الولد ينحني لأسفل.. ثم يزحف نحو الدغل حيث جلس الطائر الثقيل فى غباء وهو يدير رأسه هنا وهناك.. ولكن عندما قفز الولد استطاع الطائر أن يهرب من بين يديه وهو يهز جناحيه الثقيلين فى جنون بما يكفي لرفع جسده الثقيل فوق قمة الدغل.. واندفع الولد منزلقاً وراءه فى متابعة حارة.. وسرعان ما اختفي عن الأنظار .

أصبح (كونتا) ورفاقه وكأنما أصابهم الرعد.. كان من الواضح أنه لا حدود لما يكن أن يأمرهم به الـ (كينتاجو) ليفعلوه.. وفى الأيام الثلاثة التالية رموا رماحاً طويلة كلٌ نحو آخر الدغل.. والجميع يتساءل وبخوف عما يحدث لأحد الرفاق الغائبين.. وبقدر ما ضايقهم من قبل أن الجميع ضُرِبوا لأفعالٍ لم يعملوها.. فقد بدا الآن وكأن واحداً منهم ذهب واختفي..

كان الأولاد قد هموا بالنهوض فى صباح اليوم الرابع عندما أشار مراقب المعسكر أن أحداً ما يقترب من القرية.. وبعد فترة جاءت رسالة الطبول.. لقد كان هو.. واندفعوا لمقابلته مهللين.. كان نحيفاً.. وقذراً.. ومغطى بالجروح والطعنات.. وكان يتطوح قليلاً عندما جروا نحوه.. واستطاع أن يبتسم فى ضعف.. وتحت ذراعه كان ممسكاً بالطائر وقد ربطه بحبل من جناحيه وقدميه ومنقاره.. كان الطائر يبدو أسود منه.. ولكنه لا يزال حياً.

خرج الـ (كينتاجو) ورغم أنه تحدث مع ذلك الولد إلا أنه جعل الأمر واضحاً أنه يتحدث معهم جميعاً.. قال :

- هذا يعلمكم أمرين هامين أن تفعلوا ما تؤمرون به.. وأن تبقوا أفواهكم مغلقةً.. وهذان الأمران من بين ما يصنع الرجال .

ثم رأى (كونتا) ورفاقه ذلك الولد وهو يتلقي أول نظرة رضا يلقيها الـ (كينتاجو) لأول مرة على صبي.. وسرعان ما شُوِيَّ الطائر الكبير.. وأكلوه بتلذذ فيما عدا صائده الذى كان متعباً للغاية لدرجة أنه لم يستطيع أن يظل مستيقظاً حتى يتم طهوه.. لقد سُمِحَ له بالنوم طوال النهار والليل.. واللذين كان على (كونتا) ورفاقه أن يقضوهما فى الخارج فى الدغل فى دروس الصيد.. وفي اليوم التالي.. وخلال فترة الراحة أخبر الولد رفاقه عن مطاردته الغريبة لذلك الطائر.. وأخيراً وبعد يومين وليلة وقع الطائر أمامه في الفخ.. وبعد أن قيده بما فى ذلك منقاره استطاع بطريقةٍ ما أن يبقي على نفسه مستيقظاً ليومٍ وليلةٍ أخرى.. وباتباع النجوم كما تعلم وجد طريقه عائداً إلى المعسكر.. ولفترةٍ بعد ذلك لم يكن لدى الأولاد سوي القليل ليقولوه له.. قال (كونتا) فى نفسه أنه ليس غيراناً حقاً من ذلك الولد.. بل يظن أن مغامرته وموافقة الـ (كينتاجو) عليها جعلت منه أكثر أهميةً من رفاقه.. وعندما امر مساعدا الـ (كينتاجو) بعد الظهر بممارسة المصارعة انتهز (كونتا) الفرصة ليمسك بذلك الولد ويلقي به بخشونة على الأرض.

وبانتهاء الشهر القمري الثانى من تدريب الرجولة كان (كونتا) ورفاقه قد برعوا بالدرجة الكافية فى البقاء على الحياة فى الغابة وكأنهم يعيشون فى قُراهم.. وأصبحوا يستطيعون أن يكتشفوا ويطاردوا كل علامات الحيوانات.. والآن هم يتعلمون سر الطقوس والصلوات ترحماً على الجُدُود القدامى.. سائلين إياهم أن يجعلهم الله صيادين عِظاماً غير ظاهرين للحيوانات.. وكل قضمة لحم يأكلونها الآن إما أنهم يصطادونها بحرابهم وسهامهم.. أو أوقعوها فى الفخاخ.. وهم يستطيعون أن يسلخوا أى حيوان.. وأن يطهوا اللحم على نار بلا دخان تقريباً.. تعلموا كيف يشعلونها عن طريق حك الزلط بحجر صلب.. أو بعصاتين جافتين.. وكانت وجباتهم من الفرائس المشوية أحياناً من فئران الغيط.. وغالباً ما يُضافُ إليها حشرات مشوية.. ومقرمشة فى الفحم.. وأهم الدروس قيمةً تعلموها مصادفةً ولم تكن مخططاً لها مسبقاً.. ففى يوم أثناء فترة الراحة كان أحد الأولاد يختبر قوسه..

ثم حدث أن انطلق سهم منه فى إهمال غير مقصود.. فصدم عش نحل (الكوربوردنجو) من أعلى شجرة.. وحامت سحابة غاضبة من النحل مندفعة لأسفل.. وهكذا عانى الأولاد ثانيةً من غلطة أحدهم لأنه حتى أسرعهم عدواً لم ينج من لسعات النحل المؤلمة.. وقد أخبرهم الـ (كينتاجو) فيما بعد أن الصياد الماهر لا يطلق سهما أبداً دون أن يعرف ما الذى سيصيبه.. ثم أمر الأولاد أن يدعك كل منهم لسعات الآخر بزبدة شجرة الشيا وقال :

- الليلة ستتعاملون مع ذلك النحل بالطريقة الصحيحة.. وعند هبوط الليل كان الأولاد قد كوموا الأوراق الجافة والأغصان الصغيرة أسفل الشجرة التى بها العُش.. وبعد ذلك أضرم فيها أحد مساعدى الـ (كينتاجو) النيران.. بينما ألقى الآخر فى النيران كميةً من الأوراق من شجيرات معينة.. فتصاعد دخان كثيف خانق إلى الأغصان العليا للشجرة.. وسرعان ماتساقط النحلُ الميت حول الأولاد بالآلاف دون أن تكون ضارة.. وفى الصباح تعلم (كونتا) ورفاقه كيف يذيبون الشمع بعد كشط بقية النحل الميت حتى يمكنهم أكل العسل.. شعر (كونتا) بأنه يتعثر مع ذلك النشاط الزائد الذى يُقال أن العسل يمنحه للصيادين العظام.. عندما يكونون فى حاجة إلى غذاء سريع فى أعماق الغابة..

ولكن لا يهم ما مروا به.. ولا ما أضافوه إلى معلوماتهم وقدراتهم فما زال الـ (كينتاجو) العجوز غيرُ راضياً عنهم.. وأوامره ظلت صارمة لدرجة أن الأولاد كانوا ممزقين من الخوف والغضب معظم الوقت.. وأى أمرٍ يصدر لأحد منهم ولا ينفذ بطريقة كاملة يجلب إلى الجميع رفاقه العقاب.. مثلاً: يجبرون على الاستيقاظ فجأة وسط الليل من أجل مسيرة طويلة.. ومن بين الدروس الأولى التى تعلموها فى الحياة قبل وصولهم إلى المعسكر بزمن طويل هو أن الـ(ماندىكا) لا يحارب أى منهم الآخر على الإطلاق.

وأخيراً بدا الأولاد يفهمون أن حياة المجموعة تعتمد على كل واحد منهم تماماً مثل حياة القبيلة ستعتمد فى يومٍ ما عليهم.. وخرق القواعد يتضاءل إلى أن يصبح مجرد هفوة.. ومع تضاؤل الضرب فإن الخوف الذى كانوا يحسونه نحو الـ (كينتاجو) يحل محله الاحترام الذى سبق أن أحسوه لآبائهم .

لكن السر الذى اكتشفه (كونتا) والذى فاق كل الأسرار هو الـ(سيراكانجو) وهى لغة معينة للرجال فيها أصوات كلمات الـ(ماندىكا) تتبادل بطريقة ما لدرجة أن أى أحدٍ غير (منديكا) غير مسموح له بتعلمها.. وتذكر (كونتا) أوقاتاً كان يسمع فيها والده يقول شيئاً سريعاً جداً لرجل آخر لم يفهمه (كونتا) ولم يجرؤ على أن يطلب تفسيره.. والآن هو يتعلم تلك اللغة.. هو نفسه فإنه ورفاقه سيتكلمون تقريباً كل شئ فى طريقة الكلام السرية للرجال.

وفى كل كوخ وعند اختفاء كل قمر كان الأولاد يضيفون حجراً جديداً فى إناء لبيان المدة منذ أن رحلوا عن (جوفور) وخلال الحجر الثالث.. كان الأولاد يتصارعون فى المجمع السكني للمعسكر فى بعد ظهر أحد الأيام عندما نظروا فجأة إلى البوابة الخاصة بالمعسكر ليجدوا هناك حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين رجلاً ارتفعت شهقة عالية من الأولاد عندما اكتشفوا أنهم آبائهم وأعمامهم.. وأشقائهم الأكبر.. قفز (كونتا) وهو لا يصدق عينيه.. شعر بكتلة من الفرح تخترقه عند أول نظرة له لوالده بعد ثلاثة أشهر قمرية.. ولكن منعته يدٌ خفية وكتم صحية السعادة حتى قبل أن يري فى وجه والده أية علامة تدل على أنه تعرف عليه.

ولد واحد فقط اندفع للأمام منادياً على اسم والده.. ودون كلمة أمسك والده بأقرب عصا فى يد أحد مساعدي الـ (كينتاجو) وضرب ابنه بها وهو يصيح فيه بصوت أجش لأنه أفصح عن عواطفه وانفعالاته وأظهر أنه لا يزال ولداً صغيراً.. ثم صرخ الـ (كينتاجو) نفسه آمراً كل الفرقة أن يرقدوا على بطونهم فى صف واحد.. وسار كل الزائرين على طول الصف

وهم يضربون ظهور أبناءهم بعصي فى أيديهم.. كانت عواطف (كونتا) فى دوامة لم يهتم على الإطلاق بالضربات وهو يعلم أنها هي من الأمور القاسية المطلوبة للرجولة.. ولكن ما آلمه هو أنه غير قادر على احتضان أبيه.. أو حتى سماع صوته.. وأخجله أنه تعلم جيداً أنه ليس من الرجولة أن يتمنى مثل تلك الأشياء.

انتهى الضرب وأمر الـ (كينتاجو) الأولاد أن يتسابقوا ويقفزوا ويرقصوا ويتصارعوا.. وأن يصلوا كما تعلموا.. والزائرون يراقبونهم فى صمت.. ثم رحلوا وهم يقدمون الشكر الحار إلى الـ (كينتاجو) ومساعديه دون حتى أن يلقوا نظرة عابرة على الأولاد الذين وقفوا وقد خفضوا رؤوسهم.. وأثناء إعداد وجبة المساء نالوا مزيداً من الضرب لتذمرهم..

وفى تلك الليلة.. وبينما الأولاد يتصارعون قبل وقت النوم.. جاء واحدٌ من مساعدي الـ (كينتاجو) ومر على (كونتا) وقال له: لقد حصلت على أخ جديد وقد سمي (مادي) .

فكر (كونتا) وهو مستلق يقظاً فى تلك الليلة أنهم اصبحوا أربعة أربعة أبناء من أمه وفكر كيف سيكون وقع ذلك فى تاريخ عائلة (كينتي).. وأنه بعد (أمورو) سيكون هو أول رجل فى العائلة عندما يعود إلى (جوفور) أنه لا يتعلم ليصبح رجلاً فحسب..

وإنما أيضاً ليعرف العديد من الأشياء يستطيع أن يعلمها مستقبلاً لشقيقه الأصغر (لامين) الذى (لامين) سيعلم بدوره (سوادو) وسيعلم الأخير شقيقه (مادي).. ويوماً ما فكر (كونتا) وهو مستغرق فى النوم عندما يكون في سن (أمورو) فإنه سيكون لدية أبناء من صلبه ويبدأ الأمر في العائلة من جديد .

وأصبحوا رجالاً

قال الـ (كينتاجو) فى صباح أحد الأيام والأولاد مجتمعون:

لم تعودوا أطفالاً.. أنتم الآن تُعادُ ولادتكم كرجال.. كانت هذه أول مرة يستخدم فيها الـ (كينتاجو) كلمة رجال.. كان يستخدمها فقط ليقول له أنهم ليسوا رجالاً.. وبعد أشهرٍ قمرية من التعليم.. والعمل.. وتلقي الضرب أخبرهم بأن كلاً منهم أصبح له شخصيتين.. واحدة بداخله.. والأخرى أوسع يعيشها فى كل هؤلاء الذين يشاركونه الدم والحياة .

والآن يستطيعون القيام بالمرحلة التالية من تدريب الرجولة وهو كيف يكونوا محاربين قال الـ (كينتاجو) :

أنتم تعرفون بالفعل أن الـ(مانديكا) يحاربون فقط إذا ما أظهر الآخرون العداء.. ولكننا أحسن محاربين إذا ما اضطررنا للحرب.

وطوال نصف الشهر القمري التالي تعلم (كونتا) ورفاقه كيف يشنون الحرب.. وقد رُسِمَتْ على التراب خطط المعارك الشهيرة لـ (مانديكا) بواسطة الـ (كينتاجو) ومساعديه.. ثم أخبر بعد ذلك أن يقلدوا تلك الخطط فى معارك وهمية.. وقال الـ (كينتاجو):

- لا تحيطوا أبداً بالعدو من كل جانب.. اتركوا دوماً له مخرجاً للهرب.. لأنه سيحارب بشكلٍ أقوي وهو يائس وإذا ما حوصر..

وتعلم الأولاد أيضاً أنهم عليهم أن يبدأوا معاركهم فى وقتٍ متأخرٍ من بعد الظهر.. فالعدو يتوقع المهزوم يمكنه أن ينسحب فى الظلام.. وعملوا أيضاً أنه أثناء أى حرب لا يجب على أى أحدٍ أن يسبب أذي لأى ولىٍ صالح.. أو إمام.. أو حدادٍ مسافر.. لأن الولي الغاضب يمكن أن يجعل الله يغضب.. والإمام الغاضب يمكن أن يستخدم بلاغته وفصاحة لسانه فى إثارة جيش العدو إلى مزيد من الوحشية.. والحداد الغاضب يمكن أن يصنع أو يصلح الأسلحة للعدو.

وتحت إدارة مساعدى الـ (كينتاجو) صنع (كونتا) ورفاقه رِماحاً مسننة.. وصنعوا أسهماً مسننة من النوع المستخدم فقط فى الحروب.. وتمرنوا على كل ذلك حتى يستطيع أىٌ منهم أن يصيب عوداً من البامبو على بعد خمس وعشرين خطوة.

وعندما بدا تدريب الشهر القمري التالي وصلت رسالة طبول إلى المعسكر تعلن عن أنه من المتوقع وصول زائرين خلال اليومين التاليين.. وقد تضاعفت إثارة الأولاد عندما علموا أن المرسل للرسالة هو بطل أبطال مصارعة (جوفور) والذى كان آتياً لإعطائهم دروساً تدريبة .

وفى وقت متأخر من بعد الظهر فى اليوم التالي أعلنت الطبول وصول الفريق فى وقتٍ مبكر عما هو متوقع.. ولكن سرور الأولاد تلاشى عندما قبض عليهم المصارعون الأبطال دون أن ينطقوا بكلمة.. وبدأوا يطرحونهم أرضاً بطريقة قاسية لم يسبق أن واجهواها من قبل.. جُرِحَ جميع الأولاد.. وأُصيبوا بالكدمات خاصةً عندما قسمهم المصارعون إلى فرقٍ أصغر.. ليصارع كل واحد منهم الآخر تحت إشرافهم.. لم يتصور (كونتا) قط أن هناك حركات مصارعة بكل هذا العدد.. ولم يعرف مدي فاعليتها لو أُدِيَتْ بالطريقة الصحيحة.. وشرح لهم الأبطال أن المصارعة معرفة وخبرة وليست قوة.. وهذا ما هو الفرق بين المصارع العادى.. والبطل.

وحول النيران فى تلك الليلة عرف الطبالون من (جوفور) أسماء وبطولات أبطال (مانديكا) العظام حتى الذين كانوا من مائة عام مطرى فى الماضى وعندما جاء وقت نوم الأولاد غادر المصارعون المعسكر عائدين إلى جوفور.. وبعد يومين جاء زائرٌ آخر وهذه المرة جاءت الرسالة بواسطة عداء من (جوفور) جرى نحو الـ (كينتاجو) وأعلن بعد أن أخذ نفساً عميقاً (كوجالى نجات) وهو راوية وحكاء مشهور جداً فى كل (جامبيا) سيأتي قريباً للمعسكر.

ووصل الحكاء بعد ثلاثة أيام مصحوباً بالعديد من الشباب من عائلته..كان عجوزا جداً حتى أن الـ (كينتاجو) كان شاباً بالنسبة إليه.. وبعد أن أشار إلى الأولاد أن يجلسوا القرفصاء حوله فى نصف دائرة.. بدأ الرجل العجوز يتحدث عن أعمال الملوك القدامي والرجال المقدسين والصيادين والمحاربين الذين جاؤوا من مئات السنين قبلنا؟ وسأل الأولاد:

- هل قابلتموهم؟

ورد بنفسه على السؤال: لا.. فتاريخ شعبنا سيحمل إلى المستقبل عن طريق هذا.. وضرب على رأسه البيضاء.. وأضاف :

وأبناء الرواة فقط هم الذين يصبحون رواةً.. هذا واجبهم المقدس.. وعند انتهاء هؤلاء الأولاد من تدريبهم على الرجولة مثلما الأمر مع أحفاده الذين يجلسون بجواره الآن فإنهم سيبدأون الدراسة والرحيل مع عجائز مختارين وهم يسمعون ويسمعون الأسماء التاريخية والحكايات.. وفى الوقت المناسب فإن كل شاب سيعرف جزءاً من تاريخ جدوده الخاص بأدق وأعظم التفاصيل الكاملة.. تماماً كما أخبر به والده.. ووالد والده.. وقد يأتى اليوم عندما يصبح الولد رجلاً وله أبناء فسيخبرهم عن تلك الحكايات حتى تعيش الأحداث من الماضي البعيد إلى الأبد.

وعندما التهم الأولاد المذعورون وجبة عشائهم كالذئاب الجائعة.. اندفعوا ثانيةً ليلتفوا حول الراوى العجوز الذى أثارهم إلى وقتٍ متأخرٍ من الليل بحكاياته عن الإمبراطورية السوداء التى حكمت أفريقيا مئات السنوات من قبل .

قبل أن يضع (الطوبوب) بزمن بعيد قدمه فى أفريقيا كانت هناك إمبراطورية (بنين) يحكمها ملك قوي يسمي (أوبا) والذى كانت كلُ رغباته تُطاعُ فى الحال.. وكان كل انتباهه مركزاً على زيادة حريمه بأكثر من مائة زوجة أخرى وحتى قبل (بنين) كانت هناك مملكة أكثر ثراءً تسمي (سونجاي) عاصمتها (جاد) وهى مملوءة بالبيوت اللطيفة من أجل الأمراء السود.. والتجار والأثرياء الذين يتمتعون بسخاء وبذخ التجار الجوالين الذين يأتون بالذهب لشراء البضائع.

وأخيراً حكى للأولاد عن (غانا) القديمة التى كانت فيها مدينة كاملة مسكونة فقط ببلاط الملك الذى كان يُدعى (كانيساي) ومن قصره تشعل مائة نار.. وتضيء ما بين السماء والأرض وخدم الملك العظيم قد يحضرون طعاماً يكفي ليقدم لعشرة آلاف شخص يجمعهم كل مساء .

ولكن حتى غانا لم تكن أغنى الممالك السوداء.. ولا الأكثر ثراءاً والأقدم عمراً على الإطلاق.. إنما كانت هى مملكة (مالي) القديمة.. وأتت ثروة مالي الضخمة من طرق التجارة البعيدة فى الملح والذهب والنحاس.. وأعظم المدن هى المدينة الخرافية (تمبوكتو) وهى المركز الرئيسي الهام للتعليم فى كل أفريقيا.. وكانت مسكونة بآلاف الطلبة.. ويزورها العديد من أفواج الزائرين من الحكماء بحثاً عن المزيد من العلم.. وكانوا من الكثرة بحيث أن بعضاً من أكبر التجار لم يكونوا يبيعون سوي الكتب والقراطيس.. وليس هناك أى ولي.. ولا مدرس في أصغر قرية إلا واستقى معلوماته على الأقل فى جزءٍ منها من (تمبوكتو) .

وعندما نهض الـ (كينتاجو) أخيراً.. وشكر (الراوي) الذي شاركهم كنوز عقله على كرمه.. ومنذ أول مرة لحضورهم إلى المعسكر تجرأ (كونتا) ورفاقه وعبروا عن استيائهم لأن الوقت حان لذهابهم إلى الفراش.. اختار الـ (كينتاجو) أن يتجاهل تلك الوقاحة على الأقل فى الوقت الحالى.. وأمرهم بصرامة أن يعودوا إلى أكواخهم.. ولكن ليس قبل أن تتاح لهم الفرصة أن يتوسلوا للراوي أن يعود ثانيةً لزيارتهم.

كانوا لا يزالون يتكلمون عن الحكايات العجيبة التى أخبرهم بها (الراوي) عندما جاءت كلمة بعد ستة أيام أن (موروياً) عظيماً سيزور المعسكر عما قريب.. وهو أعلي درجة لمعلم فى (جامبيا) والحقيقة أنه لا يوجد سوي عدد قليل جداً منهم.. وكانوا حكماء للغاية بعد العديد من سنوات الدراسة لدرجة أن وظيفتهم هي ألا يدرسوا للتلاميذ.. وإنما للمدرسين الآخرين مثل عريف قرية (جوفور) .

وحتى الـ (كينتاجو) أبدي اهتماماً غير عادى بمقدم ذلك الزائر.. وأمر كل فردٍ في المعسكر بأن يتم تنظيفه تماماً.. وإزالة القاذورات.. وكنس الأوراق الجافة من فوق أرضه حتى تنطبع عليها خطوات الموروي عند وصوله.. ثم جمع الـ (كينتاجو) الأولاد فى المجمع وقال لهم : إن النصيحة والبركة من هذا الرجل الذى سيكون معنا يبحث عنها ويسعي وراءها الجميع ليس الناس العاديون فحسب.. بل أيضاً شيوخ القري وحتى الملوك .

وعندما وصل (الموري)) فى الصباح التالي كان معه خمسة من تلاميذه.. كل منهم يحمل ربطة فوق الرأس تحوي كتب التراث العربي وقراطيس المخطوطات مثل تلك الموجودة فى (تموكتو) القديمة.. وعندما مر الرجل خلال بوابة المعسكر انضم (كونتا) ورفاقه إلى الـ (كينتاجو) ومساعديه فى ركوعهم على ركبهم.. وجباههم تمس الأرض.. وعندما باركهم (الموري) هم ومعسكرهم نهضوا وجلسوا فى احترامٍ حوله عندما فتح كتاباً وبدأ يقرأُ أولاً من القرآن الكريم.. ثم من كتب أخرى لم يسمع عنها الأولاد مثل: توراة موسي.. والزبور.. ومزامير دواد الخمسة.. وإنجيل عيسي.. وفى كل مرة يفتح فيها (الموري) كتاباً أو يغلقه.. ويفرد مخطوطاً ويلفه.. كان يضغطه على جبينه.. وعندما انتهي من القراءة وضع الرجل العجوز الكتب جانباً وتكلم معهم عن الأحداث العظيمة.. والمسيحية.. والقرآن.. وتحدث عن آدم وحواء.. ويوسف وإخوته.. وعن الرجال العظام من التاريخ القريب مثل (دجولو كاراتيامي) المعروف لدي (الطوبوب) باسم الإسكندر الأكبر وهو ملك شجاع أشرقت شمس ملكه على نصف العالم .

وقبل أن ينهض (الموري) واقفاً تأكد أنهم عرفوا بالفعل كل شئ عن الصلوات الخمس التى يؤديها المسلمون لله يومياً.. بعدها اضطر (الموري) وتلاميذه للإسراع حتى يمكنهم الوصول إلى المكان التالي حسب جدول مواعيده المشغول.. وشرفه الأولاد كما أمرهم الـ (كينتاجو) بغناء إحدي أغنيات الرجال التى تعلموها من (جالي كيا) وتقول كلماتها:

جيلٌ واحد يمضي..

وجيلٌ آخر يأتى ويذهب..

ولكن الله يعيش للأبد ..

وفى كوخه بعد رحيل (الموري) فى تلك الليلة استلقي (كونتا) مستيقظاً وهو يفكر كيف أن كل ما تعلموه هى علوم مرتبطة ببعضها.. يبدأ الحاضر مع الماضي.. والمستقبل.. الموتي مع الأحياء.. هو نفسه مع أسرته.. ورفاقه.. وقريته وقبيلته.. وأفريقيا وطنه.. وعالم الحيوانات.. وكل الأشياء التى تنمو.. كلُ ذلك يعيش مع الله.. شعر (كونتا) بمدي ضآلته.. ومع ذلك الكون ضخم جداً.. فكر أنه ربما إدراك هذا هو ما يعنى تحوله إلى رجل .



كساس بوب

حان الوقت لذلك الذي جعل (كونتا) ورفاقه يرتجفون لمجرد التفكير فيه: عملية (كساس بوب) وهى عملية الطهارة.. والتي تجعل الولدُ مستعداً لأن يصبح رجلاً.. وأباً.. ولكن عندما أتت كانت بلا إنذار.. ففى يوم والشمس تتوسط كبد السماء.. أمرَ أحد مساعدي الـ (كينتاجو) الأولاد أن يصطفوا في مجتمعين.. امتثل الأولاد للأمر كالعادة بسرعة.. ولكن (كونتا) شعر بالخوف يعتصره عندما جاء الـ (كينتاجو) بنفسه من كوخه وهو نادراً ما يفعل ذلك وسط النهار وصاح آمراً: امسكوا قضبانكم الآن..

تردد الأولاد وهم لا يصدقون ما سمعوا.. ببطء وخجل أطاع الجميع.. وكل منهم خفض عينيه إلى الأرض وهو يمد يده إلى داخل سرواله.. سار مساعدا الـ (كينتاجو) كل منهما عند طرف الصف وربطا قضبان الأولاد بقطعة من القماش مدهونة بمرهم أخضر مصنوع من الأوراق المطحونة.. وقال الـ (كينتاجو) سرعان ما ستفقد قبضانكم الإحساس.. ثم أمرهم بالعودة إلى أكواخهم.. تكوموا في الداخل في خجل وخوف إلى حوالي منتصف النهار.. عندما أمروا ثانيةً بالخروج حيث وقفوا يراقبون.. وكان هناك ساعتها عددٌ من رجال (جوفور) من الآباء والأشقاء والأعمام أتوا هم وآخرون وكان (أمورو) من بينهم ولكن هذه المرة تظاهر (كونتا) أنه لم يشاهد أباه.. كون الرجال أنفسهم في صف يواجه الأولاد وغنوا معا:

هذه الأشياء التي لابد من أن تفعل..

أيضاً فعلت فينا..

كما في جدود نا القدامى من قبل..

ثم أمر الـ (كينتاجو) الأولاد بالعودة ثانيةً لأكواخهم.. كان الليل يهبط عندما سمعوا العديد من الطبول بدأت فجأة في الدق خارج المعسكر.. أُمِرَ الأولاد بالخروج من أكواخهم.. ورأوا حوالي دستة من الأشخاص يتدافعون خلال البوابة وهم يتقافزون ويتصايحون..

لقد كانوا راقصي (كانكورانج) يرتدون حُللاً من أوراق الشجر.. وأقنعة أيضاً من لحاء الشجر.. وقفزوا وهم يشهرون رماحهم بين الأولاد المرعوبين.. وعندئذ فقط وفجأة كما ظهروا رحلوا.. كان الأولاد شبه مخدرين من الخوف وهم يسمعون الآن أوامر الـ (كينتاجو) في خوف وتحذير بأن يجلسوا كلٌ بالقرب من الآخر وظهورهم مقابل سور المعسكر.. وقف الآباء والأعمام والإخوة بالقرب وهم يغنون هذه المرة.. سرعان ما ستعود إلى بيتك.. وإلى مزارعك.. وخلال فترة ستتزوج.. والحياة الدائمة ستخرج من ظهرك.. نادى أحد مساعدي الـ (كينتاجو) على اسم أحد الأولاد.. وعندما نهض أشار له المساعد خلف ستارة طويلة من الخيزران المجدول.. لم يستطيع (كونتا) أن يرى أو يشاهد ماحدث بعد ذلك ولكن.. وبعد دقائق ظهر الولد وقطع من القماش الملوثة بالدماء بين ساقيه.. كان يتعثر قليلاً وهو شبه محمول من المساعد الآخر عائداً به إلى مكانه على طول سور البامبو.. نودي على اسم ولد آخر.. وآخر.. وأخيراً: (كونتاكنتي)

ذُعِرَ (كونتا) ولكنه أجبر نفسه على النهوض والسير إلي خلف الستارة.. بداخلها كان هناك أربعة رجال أمره أحدهم أن يستلقى على ظهره.. امتثل للأمر لأن ساقيه المرتجفتين لم تكونا لتحملاه.. مال الرجال لأسفل.. وأمسكوا به بشدة.. ورفعوا فخذيه عالياً.. وقبل أن يغمض (كونتا) عينيه مباشرة رأى الـ (كينتاجو) ينحني وفى يده شيء ما ثم شعر بألم القطع.. لقد كان أسوأ مما ظن.. وإن لم يكن مؤلماً جداً كما لو حدث دون المرهم المخدر.. بعد لحظة ضمدوا جرحه بقوة وساعده أحد المساعدين للعودة للخارج حيث جلس ضعيفاً وقد أصابه الدوار.. والغثيان بجوار هؤلاء الذين سبقوه لم يجرؤ أي منهم على النظر إلى الآخر.. والآن أكثر ما كانوا يخافون منه قد تم.

وبعد أن بدأت جروح الأولاد تندمل تصاعد طقس من الإثارة والمرح في داخل المعسكر لأنه قد ذهب إلى الأبد شعورهم بالعار من كونهم أطفالاً.. وأصبحوا رجالاً في الجسد والعقل على حد سواء.. والآن يحترمون الـ (كينتاجو) ويبجلونه كل التبجيل.. وهو من جهة أخرى بدأ يرى جيل (كونتا) بعينين مختلفتين.. كان الرجل العجوز ذو الشعر الشائب والذي كان أكبر من أي شخصٍ.. يتحدث معهم الآن ليس كأطفال تافهين وإنما كشباب من قريته.. وأحياناً يتكلم معهم حول مزايا الرجولة وصفاتها وأهمها بعد عدم الخوف هي الأمانة التامة قبل أي شيءٍ آخر.

وأصبحوا يحبونه وهو يبتسم الآن أحياناً.. وبالمصادفة عندما يتكلم مع الأولاد فإنه هو ومساعدوه قد يقولون لـ (كونتا) ورفاقه:

هيا يا رجال.. كانت كلمة جميلة لا يصدقون أنهم يسمعونها.. سرعان ما وصل الشهر القمري الرابع.. وعضوان أو ثلاثة من جيل (كونتا) بناء على أمر الـ (كينتاجو) الشخصي بدأوا يتركون المعسكر في كل ليلة ويجرون حول كل الطرق إلي قرية (جوفور) النائمة حيث يمكنهم أن يتسللوا كالأشباح إلى مخازن طعام أمهاتهم ويأخذوا أكبر كمية من الشعير واللحم المقدد وحبوب ثم الدخن ويعودوا عدواً بما معهم إلى المعسكر.. حيث يطهى كل ذلك من أجل اليوم التالي.. وقد أخبرهم الـ (كينتاجو).. أن هذا لتثبتوا لأنفسكم أنكم أكثر ذكاءً من الأمهات.

وذات مساء قال لهم الـ (كينتاجو):

- في القرية كل شخصٍ يعيش هناك له نفس الأهمية.. من أحدث مولود إلى أكبر العجائز.. وباعتبارهم رجالٌ يجب عليهم أن يتعلموا كيف يتعاملون مع كل شخص بنفس الاحترام.. وحيث أن أول واجبات الرجولة هي حماية رفاهية وحياة كل رجل أو امرأة أو طفل في (جوفور) تماماً كما يجب عليهم حماية أنفسهم.. فعندما تعودون للبيت لا بد أن تبدأوا في خدمة (جوفور) بكل إخلاص.

وأخيراً مع ارتفاع القمر الرابع كاملاً فى السماء أمر مساعدا الـ (كينتاجو) الصبية أن يصطفوا بعد وجبة العشاء مباشرة.. فهل هذه هي اللحظة التي انتظروها ؟

نظر (كونتا) حوله بحثاً عن الآباء والإخوة الذين لابد أن يحضروا الاحتفال.. ولكن لم يكونوا في أي مكان مرئى.. ثم أين هو الـ (كينتاجو) ؟ بحثت عيناه فى المجمع ووجده واقفاً عند بوابة المعسكر.. وما أن فتحه بعنف حتى استدار نحوهم صائحاً:

- يا رجال (جوفور) عودوا لقريتكم.

وقفوا في أماكنهم ثابتين لحظات ثم اندفعوا وهم يصيحون ويتقافزون ويحتضن كل منهم الآخر.. ويحتضنون الـ (كينتاجو) ومساعديه الذين تظاهروا بالضيق من هذه الوقاحة..

ثم تحولت أفكار (كونتا) نحو البيت وأخذ يعدو وهو يصيح مع الآخرين إلى خارج البوابة وانطلقوا على الطريق إلى (جوفور)

هذه المرة لم يحتاجوا إلى نجوم للعثور على طريقهم.



كونتا .. والجيل الرابع

ترددت صيحات السعادة بين النساء.. واندفع الرجال من أكواخهم يضحكون ويرقصون ويصفقون بأيديهم.. حيث أن رفاق جيل (كونتا) هؤلاء الذين أكملوا سن الخامسة عشرة قد أصبحوا الجيل الرابع وهم بعيدون فى المعسكر.. وهرولوا خلال القرية وبوابتها عند انبلاج الفجر.. وسار الرجال الجُدُد بطيئاً وقد اعتقدوا أنه نوعٌ من الوقار.. ولم يبتسموا أو يتكلموا فى البداية.

عندما رأى (كونتا) أمه تجرى نحوه شعر بالرغبة للاندفاع لمقابلتها ولكنه أجبر نفسه على الاستمرار بنفس الخطوات المحسوبة.. ثم هجمت (بينتا) عليه وذراعها حول رقبته ويداها تدللان خديه والدموع تنزل من عينيها وهى تهمس اسمه.

سمح (كونتا) بذلك لفترة مقتضبة قبل أن يسحب نفسه بعيداً.. إنه الآن رجل.. ولكنه جعل الأمر وكأنه يفعل ذلك فقط حتى ينال نظرة أفضل على المولود الموجود في الربطة المعلقة بحبل على ظهر أمه.. مد يده بالداخل ورفع الطفل خارج الربطة بكلتا يديه.. وصاح فى سعادة :

-إذن هذا هو أخي (مادى) ؟

ابتسمت (بينتا) وهى تسير بجواره نحو كوخها والطفل بين ذراعيه.

كانت النساء الآخريات يصرخن حولها.. وكان (كونتا) يبدو فى صحة وقوة.. وأصبح رجلاً وتظاهر بأنه لم يسمع تعليقاتهن ولكنها كانت كالموسيقى فى أذنيه.

تساءل (كونتا) أين (أمورو) وأين (لامين) وتذكر فجأة أن شقيقه الأصغر لابد يرعى الغنم.

جلس بالداخل بجوار (بينتا) قبل أن يلاحظ أن واحداً من الجيل الأول وكان ضخماً قد تبعها إلى الداخل وهو الآن واقف يحملق إليه وعيناه تطرفان وهو يشد (بينتا).. قال :

- هالو (كونتا)..

لقد كان (سوادو) لم يصدق (كونتا) ذلك.. فعندما تركه من أجل تدريب الرجولة كان (سوادو) لا يرتفع فوق ركبته.. وصغيراً لدرجة لا تجذب النظر إلا عندما كان يضايق (كونتا) بنواحه الأبدي.. والآن خلال فترة أربعة أشهر فقط بدا أنه أزداد طولاً وبدأ يتكلم..

أعاد (كونتا) الطفل لأمه ورفع (سوادو) وطَوحه عالياً إلى سقف كوخ (بينتا) إلى أن شهق الطفل من السعادة.

كانت (بينتا) تتقلب من الفرح والسرور والفخر وأحسنت بعدم الحاجة للكلام.. ولكن (كونتا) فعلها.. أراد أن يخبرها كم اشتاق لها.. وكم أسعده أن عاد إلى بيته.. ولكنه لم يستطع أن يجد كلمات.. وكان يعلم أن هذه ليست من الأمور التى يقولها الرجل للمرأة حتى وإن كانت أمه.. وسألها أخيراً:

-أين أبى ؟

-أنه يقطع أعشاب البوص من أجل كوخك.

كان (كونتا) فى حماسه قد نسي ذلك تقريباً.. وأنه كرجل لابد أن يكون له كوخه الخاص..

خرج من الكوخ وسارع إلى المكان الذى كان والده دائماً يخبره أن الإنسان يستطيع أن يقطع منه أرق وأحسن نوعية من بوص الأسقف.. رآه (أمورو) قادماً نحوه.. تسارعت ضربات قلب (كونتا) عندما رأى والده يسير لمقابلته.. تصافحا بطريقه الرجال.. وكل منهما ينظر بعمق فى عيني الآخر فى صمت لفترة.. ثم قال (أمورو) أنه حصل لـ (كونتا) على كوخ صاحبها السابق الذى تزوج بنى لنفسه كوخاً جديداً.. وسأله هل يحب أن يرى الكوخ الآن.

قال (كونتا) برقه أنه يود ذلك وسارا معاً.. وكان (أمورو) هو الذى يتولى معظم الحديث حيث كان (كونتا) لايزال يجد صعوبةً فى العثور على الكلام.. كانت جدران الكوخ الطينية تحتاج إلي إصلاحات عديدة هى والسقف.. ولكن لاحظ بالكاد ولم يهتم لأنه كوخه الخاص.. وأخبر (أمورو) أنه سيقوم بالإصلاحات بنفسه.

قال (أمورو) : نعم تستطيع أن تُصلِحَ الجدران.. ولكن أود أن أنهيها كما بدأتها بنفسي.. ودون كلمة استدار وتوجه عائداً إلى حقل البوص تاركاً (كونتا) واقفاً هناك.. وهو مسرور للتعامل بالطريقة الجديدة التي يتبعها أبوه معه ابتداء من اليوم على أساس علاقة الرجولة بينهما.

قضى (كونتا) معظم فترة ما بعد الظهر وهو يمر على كل ركن من (جوفور) ويملأ عينيه بمرأى كل الوجوه العزيز التى تذكرها.. الأكواخ.. بئر القرية.. ساحة الكُتاب.. وغيرها.

وأخيراً ودون أن يهتم بما إذا كان الأمر رجولة أن يفعله أم لا.. اتجه إلى الكوخ المهلهل الصغير للعجوز (نيوبوتو) نادى من على الباب:

-جدتي!

جاء الرد بصوت حاد متحشرج يشوبه الملل:

- من هناك؟.

قال (كونتا) وهو يدخل الكوخ:

- خمني يا جدتي!

استغرقت لحظات حتى تعودت عيناه على الظلام.. وحتى يراها..كانت تجلس القرفصاء بجوار دلو تغمس فيه أليافاً طويلة من لحاء (الباوباب)كانت تنقعه فى الماء.

نظرت بحدة له لفترة قبل أن تتكلم: (كونتا)؟!

فصاح: نعم جدتى.. كم أنا سعيد أن أراك.

استدارت (نيوبوتو) إلى دلو الألياف وسألته: هل أمك بخير ؟

صُدِمَ بعض الشيء من سلوكها.. والذى بدا وكأنه لم يغب عنها.. ولم يرحل بعيداً.. وكأنها أيضاً لم تلاحظ أنه أصبح رجلاً.. قال لها:

- لقد كانت أفكر فيك دائماً وأنا بعيد.. فى كل مرة ألمس فيها حزام الزينة الذي وضعته حول ذراعي.

كل ما فعلته أن عَبست دون حتى أن ترفع عينيها عن عملها.. اعتذر لمقاطعتها.. وغادر الكوخ بسرعة.. وقد جُرح جرحاً عميقاً وأحس بالارتباك الشديد.. إنه لم يفهم حتى وقت قريب جداً أن صد (نيوبوتو) له قد آلمها هى أكثر مما آلمه هو.. لقد تظاهرت كما تعرف أن على المرأة أن تتصرف نحو واحد قد لا يجد بعد الآن الراحه عندها.

ظل مضطرباً وسار ببطء عائداً إلى كوخه الجديد عندما سمع طنيناً مألوفاً : ثغاء الماعز ونباح الكلاب وصياح الأولاد.. لقد كانوا فى المرحلة الثانية من العمر وهم عائدون بعد عمل ما بعد الظهر من الأكمة.. ولابد أن (لامين) بينهم.. وبدأ (كونتا) يتأمل وجوههم فى قلق عند اقترابهم.. ثم رآه (لامين) وصاح باسمه وجاء مندفعاً يعلو وجهه أكليل من الابتسامات.. ولكنه وقف فى الحال على مسافة قصيرة عندما شاهد تعبيرات شقيقه الباردة.. ووقفا ينظر كل منهما إلى الآخر.

وأخيراً تكلم (كونتا): مرحباً!

- مرحباً يا (كونتا).

ثم نظر كل منهما للآخر مرة أخري وقد التمع الفخر فى عيني (لامين).. ولكن (كونتا) رأى نفس الشعور الذى أحسه من وقتٍ قليل فى كوخ (نيوبوتو) وبعدم التأكيد حول ما سيفعله بشقيقه الجديد كان (كونتا) يفكر فى أن الطريقة التى يتظاهر بها ليست الطريقة المفروض أن يتبعها ولكنها ضرورية لأنه لا بد أن يُنظر إلى الرجل بكم من الاحترام حتى لو كان شقيقه.

لم يعد (لامين) يعرف ماذا يقول ذلك بعد ذلك فاندفع بعيداً دون كلمة أخرى وهو يلوح لكلابه (الولو) لجمع ماعزه التى بدأت تتسكع بعيداً .

ظل وجه (بينتا) ثابتاً ومشدوداً فى تعبيراته وهى تساعد (كونتا) فى الانتقال إلى كوخه الخاص.. كانت كل ملابسه قد ضاقت عليه.. قالت له ذلك بلهجة احترام.. وأضافت أنه عندما يُتاحُ لها الوقت فإنها ستحيك له بعض الملابس الجديدة.. ثم زودته بمرتبة.. ومقعد خشبي بلا ظهر.. وسجادة نسجتها وهو بعيد.. وأدوات المطبخ اللازمة مثل الأوانى.. كان كل شيءٍ جديد.. وعندما لاحظت أنه يحك رأسه عرضت عليه أن تفحص رأسه بحثاً عن (القمل) ولكنه رفض وتجاهل أصوات الزمجرة التى أصدرتها بعد ذلك.

كان الوقت تقريباً منتصف الليل عندما نام (كونتا) ثم جاء آذان صلاة الفجر التى سُمِحَ له ولرفاقه بحضورها مع بقية الرجال.. ارتدى ملابسه بسرعة وأخذ سجادة صلاته الجديدة.. وسار بين رفاقه وقد حنوا رؤوسهم ووضعوا سجادات الصلاة تحت إبطهم.. ودخلوا المسجد المقدس خلف بقية رجال القرية.. وبعد الصلاة أحضرت (بينتا) طعام الإفطار إلى كوخ الرجل الجديد.. وضعت سلطانية الثريد الذي يتصاعد منه البخار أمام (كونتا) الذي عبس مرة ثانيةً دون أن يضئ وجهه بأى شيءٍ.. وغادرت (بينتا) بسرعة.. وأكل (كونتا) دون سرور وود.. شعر بالتوتر لأنه شك أن أمه تكتم شيئاً ما.

بعد الإفطار انضم إلى رفاقه فى القيام بواجباتهم.. وكانت النساء ما أن يلتفتن حولهن إلا ويجدن واحداً من الرجال الجُدد يطلب أن يفتش فى الآنية عن الحشرات.. وأخذوا يفتشون حول الأكواخ .. وحول سور القرية وكل مكانٍ فيها.

وعنى (كونتا) عناية خاصة أن يبتعد عن أى مكان قد تكون فيه (بينتا) وقال فى نفسه أنها رغم كونها أمه فإنه لن يعاملها معاملة خاصة.. ولابد أن يعاملها بحزم إذا ما اقتضي الأمر فهي في النهاية امرأة



كونتا .. في كوخه الجديد

كان مسروراً لأن مجلس الحكماء منحه قطعةً صغيرةً للزراعة.. كان كل الرجال الجُدُد عليهم أن يزرعوا الشعير والفول السودانى حتى يعيشوا على بعضه.. والباقي يتاجرون فيه مقابل أشياء يحتاجونها أكثر من الطعام.. والرجل الشاب الذى يعني بمحاصيله.. ويقوم بمبادلات تجارية جيدة.. ويرعي ماعزه بحكمة يصبح رجلاً مهماً.. وبمرور الوقت وعندما يصل لسن الخامسة والعشرين أو الثلاثين يبدأ فى اتخاذ زوجة وتربية أبنائه.

وخلال شهور قليلة من عودة (كونتا) كان قد زرع أكبر بكثير مما يحتاجه للطعام.. وقام بالمقايضة على بعض أدوات المنزل ليضيفها لكوخه.. كان لديه العديد من المقاعد الخشبية بلا مساند ومراتب من الأغصان اللينة المجدولة.. وأوانى الطعام والقرعات.. وأدوات مختلفة أخرى فى كوخ لدرجة أن أمه كانت اطمئنت بأنه لم يعد فى المكان أى بقعه خالية.. ولكنه اختار كنوع من الشفقة أن يتجاهلواحتها طالما ينام الآن فوق سرير جيد من القش المجدول على مرتبة هزازة من البامبو قضت نصف شهر فى صنعها له.. وفى كوخه مع العديد من الأدوات التى حصل عليها مقابل المحاصيل من قطعة أرضه الزراعية احتفظ بعدد من الأشياء تساعده في الحفاظ على قواه الروحية مثل المستخلصات العطرية من بعض النباتات.. وقشور الشجر التى كان (كونتا) يدعكها مثل أى رجل فى (جوفور) على جبينه.. وأعلى ذراعيه وفخذيه فى كل ليلة قبل الذهاب للفراش.. لقد كان من المعتقد أن هذه الخلاصة السحرية تحمي الرجل من أن تتملكه أرواح الشياطين وهو نائم.. وهي أيضاً تجعل رائحته جميلة.

لقد أصبح هو ورفاقه متضايقين أكثر فأكثر بالموضوع الذى كان يفور ويثير كبرياءهم لعدة أشهر قمرية.. فعندما ذهبوا من أجل تدريب الرجولة تركوا وراءهم مجموعة من البنات الصغيرات والنحيفات والبلهاوات كن يلعبن بنفس قوة الأولاد.. ثم بعد أربعة أشهرٍ فقط عندما عادوا كرجال جدد وجدوا تلك الفتيات كبرن معهم.. وبرزت أثداءهن التى أصبحت فى حجم ثمرة المانجو..

ويهززن رؤوسهن وأذرعهن وحلقانهن الجديدة.. وأساورهن.. وخلاخيلهن.. والذى ضايق (كونتا) والآخرين كثيراً هو أن البنات كن يتصرفن بإغراء شديد ولكن كن يفعلن ذلك فقط للرجال الذين يكبرون عنهن بعشر سنوات على الأقل.. وبالنسبة للرجال الجُدد مثل (كونتا) فإن تلك العذارى فى سن الزواج ما بين أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً نادراً ما يلقين نظرة عليهم إلا من أجل أن يضحكن ويتهكمن عليهم.

وتغير كرجل.. فكان أحياناً يصحو فى الصباح وقد تملكته غريزة الرجولة.. وتغير شعوره نحو ذلك فأصبح عميقاً وقوياً..

كان (كونتا) يعرف كل رجل وامرأة وطفل.. بل وكل كلب وماعز فى (جوفور) فلماذا إذن يشعر أنه وحيد؟ هل هو يتيم؟ لماذا هو وحيداً حتى والده (أمورو) أيضاً مشغول عنه بحيث لم يعد يستطيع أن يقضي معه وقتاً كافياً كما كان يفعل عندما كان لديه ابنٌ واحد ومسؤوليات أقل فى القرية.. (بينتا) أيضاً أصبحت مشغولة وهى تعتني بإخوته الصغار.. حتى هو و(لامين) لم يعودوا متقاربين.. وبينما كان هو بعيداً فى المعسكر فإن (سوادو) أصبح ظلاً لـ (لامين).

وكان (كونتا) يبتسم عند رؤيته الإخوة الثلاثة يسيرون حول القرية واحد وراء الآخر.. بترتيب السن.. الاثنان فى الأمام يحملقان للأمام.. بينما الصغير يبتسم فى سعادة من خلفهما وهو بالكاد يجري ليلحق بهما.

كان أيضاً كل زملاء جيله مشغولين مثله تماماً كل الوقت بواجباتهم الجديدة.. فالعمل شاق.. وممتلكاتهم قليلة مقارنةً بممتلكات الكبار.

فى ذلك المساء كان يشعر بعدم الارتياح سار إلى حيث رجال (جوفور) جالسين حول النيران يناقشون أعمال القرية.. جلس بين هؤلاء الجالسين فى الدائرة الخارجية خلف من هم في سن (أمورو) والذين جلسوا حول النار وهؤلاء الذين من سن الـ (كينتاجو) الذى جلس بين مجلس الحكماء وعندما فعل ذلك سمع أحدهم يسألهم.

- هل يمكن لأحد منا أن يقول كم عد المرات التى سُرِقنا فيها؟

كانوا يناقشون عملية خطف العبيد وهى من أهم الموضوعات.. لأنه منذ أكثر من مائة عام و(الطوبوب) يسرقون الناس.. ويشحنونهم في السفن مكبلين بالسلاسل إلى مملكة أكلة لحوم البشر البيض عبر البحر.

ران الصمت فترة ثم قال الإمام...

- يمكننا فقط أن نشكر الله أنها أصبحت أقل الآن .

قال رجل غاضب: هناك عدد قليل جداً منا تبقي للسرقة .

قال الـ (كينتاجو) :

- المفقودون خمسون أو ستون مع هلال كل قمرٍ جديد وذلك فى منطقتنا فقط.. وليست هناك طريقة لحصر باقي المفقودين فى الأرض وعلى النهر .

حملق الرجال إلى النيران وقتاً طويلاً ثم قطع رجل عجوز الصمت .

لايمكن لطوبوب أن يفعل ذلك دون مساعدة من بيننا.. الـ(ماندیكا) والفولاس والجولاس وفى أى قبيلة من قبائل (جامبيا) لابد أنه هناك خونة قذرين.. وعندما كنتُ طفلاً رأيت هؤلاء الخونة يضربون من هم من جنسهم ليسيروا أسرع من أجل (الطوبوب).

قال أكبر حكماء (جوفور): إنه الجشع والخيانة..

سرعان ما أصبحت النيران عموداً من الدخان.. وبدأ الرجال ينهضون.. ويتمنى كل منهم للآخر ليلةً سعيدة.. ويتجهون إلى بيوتهم اوأكواخهم.. ولكن خمسة رجال من العمر الثالث ظلوا فى المكان من بينهم (كونتا) أحدهم ليطفئ رماد النيران.. والباقون بمن فيهم (كونتا) ليقوموا بدورية ليل كمراقبين للقرية.



بين كونتا .. وأمه

تقريباً كل يوم بدا لـ(كونتا) أن (بينتا) تضايقه بشئٍ ما لم تكن تقوله.. أو تفعله.. ولكن بطُرقٍ أخري مثل نظرات سريعة.. وبعض غمغمات.. وأدرك (كونتا) أنها لا توافق على أى شئٍ خاصٍ به.. وكان الأمر أسوأ عندما أضاف (كونتا) إلى ممتلكاته أشياءًا جديدة لم تجلبها له (بينتا) بنفسها.. وفى صباح أحد الأيام عندما وصلت (بنتا) لتقدم طعام الإفطار أو شكت أن تسقط الثريد المتصاعد منه البخار فوق (كونتا) عندما رأت أنه يرتدي جلباباً الأول مرة لم تحكه له بيديها.. شعر (كونتا) بالذنب لأنه قايض جلد ضبعٍ مدبوغ ليحصل على ذلك الجلباب دون أن يستأذنها.. أحس ساعتها أن أمه جُرِحت بسببه جُرحاٍ عميقاً.

ومنذ هذا الصباح عرف أن (بينتا) لن تحضر له الوجبات دون أن تفحص عيناها كل شئ فى كوخه لتري أن كان هناك شئ لم يكن لها يدٌ فى إحضاره.. وإذا ظهر شئ جديد فإن عيني (بينتا) الحادتين لن تتركاه أبداً.. وقد يجلس (كونتا) فى مكانه مرتبكاً وهى تلقي تلك النظرة غير المهتمة تتفحص المكان.. كان (كونتا) يعلم تماماً مثل أبيه (أمور و) أن (بينتا) لا تطيق صبراً على الذهاب إلى بئر القرية بين النساء من صديقاتها لتستطيع أن تبوح بمتاعبها بصوتٍ مرتفع.. وهذا ما تفعله كل نساء الـ(مانديكا) عندما يختلفن مع أزواجهن .

وفى يومٍ ما قبل وصول أمه بطعام الإفطار التقط (كونتا) سلة جميلة مجدولة كانت (ينامباكي) وهى واحدةٌ من أرامل (جوفور) العديدات قد أعطتها له كهدية.. وكانت قد وضعتها خارج كوخه.. وكانت تلك الأرملة فى الحقيقة أصغر قليلاً من (بينتا).. وبينما كان (كونتا) لا يزال فى المرحلة الثانيةً كراعي ماعز.. كان زوجها قد ذهب بعيداً ليصطاد ولم يعد بعدها قط.. وعاشت فى هدوء بجوار (نيوبوتو) التى كان يزورها (كونتا) كثيراً.. وهكذا رأى هو والأرملة كلا منهما الآخر.. وتحادثا معاً.. وعندما كبر (كونتا) تضايق أن هدية الأرملة

جعلت أصدقاءه يعاكسونه حول السبب الذى من أجله منحته تلك المرأة شيئاً ثميناً كهذا.. وعندما وصلت (بينتا) إلى كوخه.. ورأت السلة وتعرفت على طريقة الأرملة فى جدلها فزعت.. وكأن السلة كانت عقرباً.. لم تتمكن من السيطرة على نفسها.. ولم تقل أى كلمة.. ولكن (كونتا) كان يعرف أنه قد أوضح فكرته أنه لم يعد ولداً صغيراً.. وأن الوقت حان أمامها لأن تتوقف عن التصرف معه كأم.. كان يجبُ على (بينتا) أن تحترم ابنها كما تحترم زوجها.. فكر (كونتا) فى مناقشة المشكلة مع (نيوبوتو) ولكن غير رأيه عندما تذكر كيف تصرفت معه بشكلٍ خاص عند عودته من تدريب الرجولة.

وقبل وقت طويل قرر ألا يذهب بعد الآن إلى كوخ (بينتا) حيث عاش معظم عمره.. وعندما كانت (بينتا) تحضر له وجباته كان يجلس متصلباً فى سكون بينما تضع هي الطعام أمامه.. وترحل دون أن تتكلم أو حتى تنظر إليه.. بدأ (كونتا) يفكر جديًا فى البحث عن ترتيبات جديدة للطعام.. ومعظم الرجال الجُدُد الآخرين كانوا لا يزالون يأكلون من مطابخ أمهاتهم.. ولكن البعض كان يطهو لنفسه.. أو بواسطة أختٍ كبري له.. أو زوجة أخ.. وإذا استمرت (بينتا) فى تلك التصرفاتها فسيتخذ لنفسه امرأة أخرى تطهو له.. وربما تكون نفس الأرملة التى أهدته السلة المجدولة.. كان يعلم دون سؤال أن ذلك سيسعدها.. ومع ذلك فإن (كونتا) لم يرغب فى أن يجعلها تعرف أنه يفكر فى هذا الأمر.. وفى نفس الوقت ظل هو وأمه يتقابلان فى أوقات الطعام متظاهرين بأن كلاً منهما لم ير الآخر.. وفي وقتٍ مبكر من صباح أحد الأيام عند عودته من واجب حراسة ليلي فى حقول الفول السودانى رأى (كونتا) أمامه على الطريق البعيد ثلاثةً من الشباب استطاع أن يعرف أنهم من نفس عمره وهم يسرعون.. عرف أنهم مسافرون من مكانٍ لآخر.. صاح فيهم إلى أن استداروا.. وذهب عدواً ليحييهم ويقابلهم.. أخبروا (كونتا) أنهم من قرية (يارا) على بعد مسيرة نهار وليل من (جوفور) وأنهم فى طريقهم للبحث عن الذهب.

احتار (كونتا) من رحلة أولئك الشباب التى يقومون بها.. وظن أنها قد تهم بعض أصدقاءه.. لذلك سألهم أن يتوقفوا فى قريته يوماً فى ضيافته قبل أن يستمروا.. ولكنهم رفضوا الدعوة مع الشكر قائلين أن عليهم أن يصلوا المكان الذى يقصدونه حيث الذهب يمكن استخراجه وفصله عن العوالق.. ثم سأله أحدهم: لماذا لا تأتى أنت معنا؟

وجد نفسه يقول (لا) وأخبرهم أنه يقدر لهم ما عرضوه عليه إلا أنه يعمل فى مزرعته وفى واجبات أخرى.. وعبر ثلاثتهم عن عميق أسفهم وقال له أحدهم:

- إذا غيرت رأيك فنرجو أن تنضم إلينا.

ثم جلسوا على ركبهم ليرسموا على التراب لـ (كونتا) أين هو مكان البحث عن الذهب إذا أحب أن ينضم إليهم على بعد يومين وليلة من السفر.

ثم سار (كونتا) مع أصدقاءه الجُدُد إلى حيث فرقهم طريق المسافرين.. وبعد أن اتخذ الشباب الثلاثة الفرع الذى يبتعد عن (جوفور) واستداروا ليلوحوا له سار (كونتا) ببطءٍ عائداً إلى البيت.. كان يفكر بشدة عندما دخل كوخه واستلقى على سريره.. وظل مستيقظاً طوال الليل.. يفكر في الذهاب للبحث عن الذهب.. بعد أن يجد صديقاً يرعى له مزرعته.

قفز من فوق السرير أنه باعتباره الآن رجلاً يمكنه أن يأخذ معه (لامين) كما فعل معه والده من قبل.. أخذ (كونتا) يذرع الأرض الترابية لمدة ساعة.. وعقله يصارع الأسئلة التى أثارتها داخله تلك الفكرة المثيرة.. أول كل شىء هل سيسمح (أمور و) بمثل هذه الرحلة لـ (لامين) الذى لايزال ولداً صغيراً.. وبالتالى يتطلب موافقة والده؟ كان (كونتا) منزعجاً كثيراً كرجل أن يطلب الأذن لعمل أى شىء.. ولكن لنفرض أن (أمور و) قال لا؟ وماذا سيقول أصدقاؤه الثلاثة الجُدد عندما يظهر ومعه شقيقه الأصغر؟

شعر أن (لامين) يحبه كشقيقٍ أكبر.. ويعجب به أكثر مما قبل.. وبهدوء قدر المستطاع أخبر (كونتا) والده عن اجتماعه بالأصدقاء الثلاثة الجُدُد.. ودعوتهم له الانضمام إليهم فى البحث.. عن الذهب وأخذ نفساً عميقاً ثم قال: لقد فكرت (لامين) قد يتمتع بالرحلة.

لم يُظهِر وجه (أمور و) أى لمحةً من التعبير ومرت لحظات طويلة قبل أن يتكلم وقال: بالنسبة للولد السفر مفيد.. وعرف (كونتا) أن والده على الأقل لن يقول (لا) بصفة قاطعة.. وبطريقةٍ ما استطاع (كونتا) أن يحس بثقة والده فيه.. ولكن أيضاً يقلقه.. والذى كان لايعرف أن (أمور و) لايريد التعبير عنه بالقوة أكثر.. مما يضطر إليه قال (أمور و) بطريقة **عارضة..** وكأنه ما يناقشان الجو: لقد مرت سنوات مطرية طويلة منذ أن قمت بأى سفر فى تلك الجهة.. ويبدو أننى لا أتذكر طريق السفر هذا جيداً.. كان (كونتا) يعرف أن والده الذى لا ينسى شيئاً يحاول أن يجد مهرباً إذا كان يعرف طريق الذهب.. جلس على ركبته فى التراب.. ورسم (كونتا) الطريق بعصا وكأنه يعرفه من سنوات.. رسم دوائر القرى القريبة من الطريق والبعيدة بعض الشىء عنها على طول الرحلة.. جلس (أمور و) على ركبته كذلك.. وعندما انتهى (كونتا) من رسم الطريق قال:

لو كان الأمر يعنى لذهبت بالقرب جداً من معظم القرى أنها قد تستغرق وقتاً أطول.. ولكنها طريقة أكثر أماناً.. هز (كونتا) رأسه.. وهو يأمل أن يبدو أكثر ثقة مما يشعر به فجأة.. صدمته فكرة أنه رغم الأصدقاء الثلاثة الذين يسافرون معاً يمكن أن يصلح كل منهم الغلطات التى قد يرتكبها أحدٌ منهم لو ارتكبها.. وأنه سيسافر مع شقيقه الأصغر.. وسيكون مسؤولاً عنه.. ولن يجد أحداً ليساعده لو حدث خطأً ما.. ثم رأى (كونتا) أصبع (أمور و) يحدد دائرة حول الجزء الثالث من الرحلة وهو يقول: فى هذه المنطقة القليلون فقط يتحدثون الـ(مانديكا) .

تذكر (كونتا) دروس تدريبات الرجولة.. ونظر فى عينى والده.. وقال: النجوم والشمس سيدلانى على الطريق.. مرت فترة طويلة ثم تكلم (أمور و) ثانيةً.. اعتقد أننى سأمر على بيت أمك.. سقط قلب (كونتا) فى ساقيه.. كان يعرف أن هذه طريقة والده حتى عاد إلى كوخه.. عندما فتحت (بينتا) بابها بعنف وهى تضغط يديها المرتجفتين بقوة على رأسها وصرخت : مادى.. (سوادو) !

وجاء الاثنان مندفعين من بين الأطفال الآخرين.. وجاءت النساء الآخريات من باقي الأكواخ.. كذلك غير المتزوجات مندفعات خلف (بينتا) حيث بدأت تولول.. وتجذب الوالدين بجوارها نحو البئر.. وما إن أصبحت كل النساء هناك حتى تجمعن حولها.. وأخذت تبكى وتتأوه.. وتقول أنها الآن ليس لديها سوى ولدين وأن الآخرين سيضيعان بسبب (الطوبوب).. سارعت بنت من الجيل الثانى لم تستطع أن تستوعب رحلة (كونتا).. وجرت كل الطريق حيث كان الأولاد من سنها يرعون الماعز.. وبعد فترة قصيرة اهتزت الرؤوس فى القرية بالابتسامات على الوجوه.. عندما جاء ولد مرح ومهووس يتقافز فى القرية ويصرخ بطريقة تحيي الأموات عندما لحق (لامين) بأمه خارج كوخها مباشرةً.. احتضن أمه وطبع قبلاتٍ كثيرة على جبينها.. ثم رفعها ودار بها حيث صاحت أن ينزلها.. ما أن وصلت الأرض حتى جرت لتلتقط قطعة من الخشب وضربت (لامين) بها..

كان من الممكن أن يفعل ذلك مرةً ثانيةً.. ولكنه اندفع بعيداً وهو لا يشعر بالألم نحو كوخ (كونتا).. لم يطرق حتى الباب.. اندفع داخل الكوخ.. كان ذلك اقتحاماً بلا تفكير.. وبعد أن ألقى نظرة سريعة على وجه شقيقه..

كان على (كونتا) أن يتجاوز تلك الوقاحة.. وقف (لامين) هناك فى مكانه ينظر إلى وجه شقيقه الأكبر .. كان يحاول أن يقول شيئاً.. والحقيقة أنه كان يرتجف بشدة.. وكان على (كونتا) أن يمنع نفسه من الإمساك بـ (لامين) واحتضنه بحبٍ شديد.. شعر بأنها تسري بينهما فى تلك اللحظة.

سمع (كونتا) نفسه يتكلم ولهجته شبه جافة: أرى أنك عرفت بالفعل.. سنغادر غداً بعد الصلاة.. سواء كان (كونتا) رجلاً أم لا.. فإنه حرص على ألا يسير فى أى مكانٍ قريب من (بينتا)

حيث قام بزياراتٍ عديدة لأصدقاءه يعتنوا بمزرعته.. وأن يقوموا بدلاً منه بواجبات الحراسة..كان (كونتا) يستطيع أن يعرف أين (بينتا) من صوت عويلها.. وهى تسير فى القرية ممسكةً بكلٍ من (مادى) و(سوادو) من يديها وتصبح بأقصى ما لديها من قوة : هذان الإثنان هما اللذان لى فقط .

ولكنها مثل أى فرد فى (جوفور) كانت تعلم أنه مهماً كان شعورها.. أو قولها فقد قال (أمور و) كلمته.



الصلاة عند شجرة المسافرين

عند شجرة المسافرين صلى (كونتا) من أجل أن تكون رحلته آمنة.. وناجحة.. وعندما انطلق هو و(لامين) على الطريق كان يعرف أن (لامين) يحاول جاهداً أن يُبقِي على المسافة بينهما.. وأن يحافظ على توازن حمولة رأسه.. وألا يجعل (كونتا) يلاحظ ما يبذله من جهد.. وبعد ساعة أخذهم الطريق إلى جوار شجرة منخفضة أراد (كونتا) أن يشرح لـ (لامين) كيف أن مثل هذه الشجرة تعنى أنه يعيش فى هذا الجوار بعض من الـ(ماندينكا) القلائل من الكفار والملحدين غير المؤمنين.. يستخدمون التبغ والطُباق فى غليون مصنوع من الخشب.. وأوانى من الفخار.. وأنهم أيضاً يشربون البيرة التى يصنعونها من الشعير.

وبحلول وقت القمر كان (كونتا) يعرف أن قدمى (لامين) وساقيه لابد تؤلمانه بشدة.. وكذلك عنقه تحت الحمل الثقيل..

أخذا الطريق المار بالقرية الأولى التى يمران بها وقد أدهشا بترحالهما الأطفال من الجيل الأول الذين تسابقوا إلى الخارج لينظروا إليهما.. ظل (كونتا) لا ينظر إلى الخلف.. ولكنه كان يعرف أن (لامين) قد يسرع خطواته ويشد ظهره أمام الأطفال.. ولكن عندما تركا الأطفال والقرية وراءهما ابتعد ذهن (كونتا) عن (لامين) إلى أمور أخرى..

فكر مرةً ثانيةً فى الطبلة التى سيصنعها لنفسه.. كان معه من أجل رأس الطبلة جلد ماعز شابة مدبوغ فى كوخه.. وعلى مسافةٍ قصيرة خلف حقول أرز النساء يعرف مكاناً يستطيع أن يجد فيه الخشب الصلب الذى يحتاجه من أجل صنع إطار طبلةٍ قوى.. ويكاد (كونتا) يسمع كيف سيكون صوت طبلته.

عندما اخذهم الطريق إلى بستان من الأشجار قريب من الممر شدد (كونتا) قبضته على رمحه الذى يحمله كما تعلم أن يفعل تحسباً لأى شيء.. وبحذر استمر فى السير.. ثم وقف وأنصت بكل هدوء.. ووقف (لامين) متسع العينين خلفه يخاف أن يتنفس.. وبعد لحظة استرخى شقيقه الأكبر .. وبدءا السير ثانيةً نحو ما تعرف عليه (كونتا) بكل ارتياح

حيث صوت العديد من الرجال يغنون أنشودة العمل.. وسرعان ما اتى هو و(لامين) إلى منطقة مكشوفة.. ورأى اثنى عشر رجلاً يجرون بالحبال زورقاً مصنوعاً من جذع شجرة..كانوا قد قطعوا الشجرة وأحرقوها.. والآن بدأوا يحركونها على طول الطريق إلى النهر.. لوح (كونتا) للرجال الذين ردوا على تحيته.. وتجاوزهم وسجل فى عقله أن يخبر (لامين) فيما بعد من هم هؤلاء الرجال؟ ولماذا صنعوا الزورق من جذع الشجرة التى تنمو هنا فى الغابة بدلاً من ضفة النهر؟ لقد كانوا من قرية (كيراوان) حيث يصنعون أحسن زوارق الـ(مانديكا) الخشبية.. وهم يعرفون أن أشجار الغابة هى فقط التى تطفو على سطح الماء.

فكر (كونتا) فى الرجال الثلاثة من (بارا).. والذين يسافر هو وشقيقه كى يقابلهم.. وكان لم يسبق له أن رأى أياً منهم الآخر من قبل.. فقد بدوا له كالأخوة.. ربما كان ذلك لأنهم هم أيضاً من الـ(مانديكا).. وهو مثلهم قرر أن يغادر قريته للبحث عن الثروة.. وبعض الإثارة قبل العودة إلى بيوتهم مع موعد الأمطار الكبرى.. عندما اقترب وقت صلاة الظهر فى منتصف النهار توقف (كونتا) خارج الطريق حيث تجرى ترعة صغيرة بين الشجر.. لم ينظر إلى (لامين) الذى أنزل حمولة رأسه.. وتمطى ثم انحنى ليرتشف حفنات من الماء.. وليرطب وجهه.. ثم شرب ببطء.. ثم بدأ يصلي.. وهو في وسط الصلاة سمع حمولة رأس (لامين) تسقط على الأرض فى ضجة عالية.. قفز ناهضاً بعد نهاية الصلاة وهو ينوى أن يوبخ شقيقه.. ولكنه رأى مدى ألمه وهو يزحف نحو الماء.. ولكن بالرغم من ذلك جعل (كونتا) صوته قاسياً وهو يقول:

- ارتشف قليلاً فى كل مرة .

وبينما (لامين) يشرب قرر (كونتا) أن ساعة من الراحة فى هذا المكان ستكون كافية.. وبعد أكل لقيمات صغيرة من الطعام.. فكر فى أن (لامين) سيتمكن من مواصلة السير حتى وقت صلاة المغرب ساعتها يأكلان وجبةً كاملةً ويرتاحان طوال الليل .

ولكن (لامين) كان متعباً للغاية لدرجة أنه لم يستطع تناول الطعام.. استلقى حيث شرب من النهر ووجهه لأسفل.. ثم فرد ذراعيه وكيفه لأعلى.. خطا (كونتا) نحوه فى هدوء لينظر فى أخمص قدميه.. وجد أنهما لم يدميا بعد.. نام (كونتا) بجوار شقيقه.. وعندما نهض أخذ من حمولة رأسه ما يكفى من اللحم المقدد لشخصين.. ثم هز (لامين) وأيقظه.. وأعطاه اللحم.. وأكلا معاً.. وسرعان ما عادا إلى الطريق حيث مرا بكل المنحنيات.. وعلامات الطريق التى رسمها رجال بارا لــ (كونتا).. وبالقرب من إحدى القرى شاهدا جدتين عجوزتين وفتاتين مع بعض الأطفال من المرحلة العمرية الأولى وهن مشغولات فى اصطياد الكابوريا..

وقرب الغسق عندما بدا (لامين) يمسك أقوى فأقوى بحمولة رأسه رأى (كونتا) أمامه سرباً كبيرا من دجاج الغابة يطير فى دائرة استعداداً لأن يحط على الأرض.. توقف فجأة.. وأخفى نفسه بينما سقط (لامين) على ركبتيه بجوار شجيرة قريبة.. ضغط (كونتا) على شفتيه مُصدراً صوت ديك الدجاج البرى.. وسرعان ما جاءت عدة دجاجات سِمان ترفرف فوقه.. كانت تلوي رؤوسها وتنظر حولها عندما سهم (كونتا) مباشرةً مخترقاً واحدةً.. نزع رأسها.. وترك الدم ينسال منها.. وبينما كان يشوى الطائر بنى ملجئاً من الشجيرات.. ثم صلى.. بعدها شوى أيضاً بعض كيزان الذرة البرية كان قد جمعها قبل أن يوقظ (لامين) الذى استغرق فى النوم ثانيةً.. فى اللحظة التى أنزلا فيها حمولة رأسيهما.. ما أن التهم (لامين) وجبته كالذئب الجائع حتى تمدد على ظهره فوق العشب اللين.. واستغرق فى النوم دون أى همهمة.

جلس (كونتا) محتضناً ركبته وسط هواء الليل الساكن.. بدأت الضِباعُ من مكانٍ ليس بالبعيد تعوى.. حاول أن يشتت ذهنه لفترة عن طريق التعرف على الأصوات الأخرى فى الغابة.. ثم ثلاث مرات.. شقيقه لم يكن ليهتم بأى صوت.. وبعد أن صلى استغرق هو الآخر فى النوم.

بعد شروق الشمس مباشرةً كانا يمران بإحدى القرى.. كانا يسمعان أصوات أيادى الهون والنساء يطحن الشعير من أجل ثريد الإفطار.. شعر (كونتا) وكأنه يتذوق الطعام.. ولكنهما لم يتوقفا.. وفى نهاية الطريق على مسافة ليست بالبعيدة.. كانت هناك قرية أخرى.. وعندما مرا بها كان الرجال يغادرون المسجد.. والنساء مشغولاتٍ حول آنية الطهى.. وبعيداً عن ذلك رأى (كونتا) أمامه رجلاً عجوزاً جالساً بجانب الطريق منحنياً.. وهو يهمهم فى نفسه.. لم يحاول (كونتا) أن يقاطعه.. وكان على وشك أن يتجاوزه عندما رفع الرجل العجوز رأسه وناداهما إلى حيث يجلس.. وقال بصوت متحشرج:

- لقد أتيت من قرية (كونا كوندا) التى هى فى مملكة (دولى) حيث تشرق الشمس فوق غابة سمبانى.. ومن أين يمكن أن تكونا ؟

أخبره (كونتا) أنهما من قرية (جوفور) وأومأ الرجل العجوز برأسه : لقد سمعت عنها.

كان يستشير وقتها (وَدَعات) الكاوري.. وهى عملة بلادهم.. وقال أنه يستعلم عن رسالته القادمة حول رحلته إلى (تومبوكتو) والتى يريد أن يراها قبل أن يموت.. وتساءل عما إذا كان المسافران يمكن أن يُقدما له أى عون.. قال له (كونتا)..

- نحن فقيران.. ولكن سعيدان أن نتشارك معك أى شيءٍ ياجدي.

أنزل (كونتا) حمولة رأسه.. وبحث بداخلها.. وأخرج بعض اللحم المقدد أعطاها للرجل العجوز الذى شكره.. ووضع اللحم فى حجره ثم حملق إليهما وسأل:

- هل أنتما شقيقان مسافران؟

رد (كونتا) : - نعم.. نحن كذلك يا جدى؟

قال العجوز: هذا أمرٌ طيب .

ثم التقط قطعتين من ودع الكادري وقال لـ (كونتا) وهو يناوله واحدة: أضف هذه إلى حقيبة صيدك.

ثم قال لـ (لامين) وهو يعطيه الودعة الأخرى: وأنت أيها الرجل الصغير.. احتفظ بهذه عندما تصبح رجلاً كبيراً.. ولك حقيبة تخصك.

شكراه.. ثم سارا لمسافة طويلة عندما قرر (كونتا) أن الوقت حان ليقطع الصمت مع (لامين) ودون أن يقف أو يستدير خلفه بدأ الكلام..

- هناك أسطورة يا أخى الصغير تقول أن هناك (مانديكا) كان مسافراً.. ووجد نوعاً من الحشرات الجديدة.. وعندما لم يأته أى رد فعل من (لامين) أدار (كونتا) رأسه كان (لامين) وراءه وهو منحن يكافح ليضم ربطة رأسه التى سقطت على الأرض.. وانفتحت.. ويحاول إعادتها.. عاد (كونتا) جرياً للخلف.. أدرك أن (لامين) عندما أمسك بربطة رأسه بقوة أدى ذلك إلى فك أربطتها.. وسقطت من فوق رأسه دون أن يحدث أى ضجة.. ولم يحاول أن يطلب من (كونتا) أن يقف.. وبينما كان (كونتا) يعيد ربط حمولة الرأس رأى أن قدمى (لامين) تُدميان.. ولكن هذا كان أمراً متوقعاً.. لذلك لم يقل له أى شيء.. ظهرت الدموع فى عيني (لامين) عندما أعاد الحمولة إلى رأسه.. واستمرا فى طريقهما.. بعدها أخذ (كونتا) يؤنب نفسه على عدم ملاحظته غياب (لامين).. فقد كان من الممكن أن يتركه وراءه .

لم يسيرا كثيراً عندما أطلق (لامين) صيحةً مخنوقة.. ظن (كونتا) أن شقيقه وطأ بقدميه شوكةً ما.. فاستدار ليرى شقيقه يحملق لأعلى إلى نمر ممدد فوق فرع شجرة.. خلال لحظات تحرك النمر.. وبدا وكأنه يسير فى كسل وسط أغصان الشجر.. ثم اختفى عن الأنظار.. اهتز (كونتا) واستأنف سيره وهو منتبه.. وغاضب من نفسه.. ومحرجاً من شقيقه.. لماذا لم يرى هو النمر؟ فلا تزال صورة النمر الذى صرع الماعز الأم فى يوم رعيه تُومض فى ذاكرته.. ويكاد يسمع صوته.. وصوت تحذير الـ (كينتاجو) القاسي وهو يقول له:.

- لابد أن تكون حواس الصياد دقيقة.. يجب أن يسمع ما لايستطيع أن يسمعه الآخرون.. ويشم ما لايستطع الآخرون أن يشموه .

ولكن بينما هو سائر شارداً مع أفكار ه كان (لامين) هو من رأى النمر.. لقد كانت معظم متاعبه وحظه السيئ تأتى من تلك العادة البغيضة.. والتى يجب عليه أن يصلحها دون شك.. انحنى بسرعة دون أن يقطع خطواته.. والتقط حجراً صغيراً.. وبصق عليه ثلاث مرات.. ثم ألقى به بعيداً نحو نهاية الطريق.. وبذلك حمل الحجر معه أرواح سوء الحظ.

سارا والشمس تحرق الأرض فوقهم والأرض الريفيه تتغير من الغابة الخضراء إلى أشجار النخيل واخاديد طينينه وتأخذهم عبر دروب القرية الحارة والمتربة.. وعندما حان وقت الصلاة استراحا وتناولا طعاماً خفيفاً وقام (كونتا) بفحص ربطة رأس (لامين) وقدميه.. ووجد أن جراحهما الدامية ليست سيئة.. عبرا الكثير من التقاطعات إلى أن قال (كونتا) :

- لقد اقتربنا الآن .

وود لو كانت معه الطلبة التى سيصنعها حتى يمكن أن يرسل إشار ة إلى أصدقاءه.. وبغروب الشمس وصلوا أخيراً إلى حفرة الصلصال حيث الرجال الثلاثة الذين صاحوا وهم سعداء برؤيتهم :

لقد أحسسنا أنك ستأتى..

تجاهلوا بالكاد (لامين) لأنه من الجيل الثانى.. وسريعاً أظهر الشبان الثلاثة بكل فخر الحبات الناعمة من الذهب التى جمعوها.. وعند أول ضوء صباح اليوم التالى انضم (كونتا) و(لامين) إليهم وهم يقطعون كتلاً من الصلصال السميك يلقون به فى قرعات ضخمة من الماء.. وبعد تقليب القرعات يصبون ببطء معظم الماء المخلوط بالطين.. ثم يتحسسون بعناية بأصابعهم ليكتشفوا أن كان هناك حبات ذهب قد غرقت واستقرت فى القاع.. ومن حينٍ لآخر يعثرون على حبة دقيقة مثل حبة السمسم.. أو ربما أكبر قليلاً .

كانوا يعملون بحمية شديدة لدرجة أنه لم يكن هناك وقت للحديث.. بدا (لامين) أنه نسى آلام عضلاته فى بحثه عن الذهب.. وكل حبة ثمينة تذهب بعناية خلال ثقب مسدود من طرفه بقطعة من القطن.. وهذا الثقب كان فى سمك أكبر ريشة جناح حمامة.. كان لدى (كونتا) و(لامين) ست ريشات مملوءة عندما قال الرجال الثلاثة أنهم جمعوا ما يكفى.. والآن يفضلون الذهاب لمكانٍ أبعد على الطريق.. وأعمق فى داخل الريف ليصطادوا أنياب الفيل.. قالوا أنهم علموا أين تكسر الفيلة الكبيرة أسنانها عندما تحاول نزع الأشجار من جذورها أثناء تناولها الطعام.. وسمعوا أيضاً أنه لو استطاع المرء العثور على المقابر القديمة للفيلة.. فإنه سيجد هناك ثروةً من الأسنان.. سألوه هل يحبُ أن ينضم إليهم؟

كان الإغراء شديداً.. وبدا الأمر أكثر إثارة من البحث عن الذهب.. ولكنه لا يستطيع الذهاب دون أن يصحب معه شقيقه (لامين).. شكرهم فى حزن على دعوتهم.. وقال أنه لابد أن يعود للبيت مع شقيقه.. تبادلوا وداعاً حاراً ودعاهم (كونتا) للتوقف كضيوفٍ عنده فى (جوفور) فى طريق عودتهم إلى (بارا).

وبدأت رحلة العودة.. كانت أقصر بالنسبة لـ (كونتا) ولكن بالنسبة لقدمى (لامين) الداميتان فقد ازدادتا سوءاً.. ولكنه سار أسرع عندما ناوله (كونتا) أنابيب الريش المملوءة بحبات الذهب ليحملها وقال له :

- لابد أن أمك ستتمتع بهذا.

كانت سعادة (لامين) أعظم من سعادة (كونتا) عندما اصطحبه أبوه فى الرحلة السابقة.. وكما سيفعل (لامين) عندما يأخذ (سوادو) معه ذات يوم.. كانا يقتربان من شجرة المسافرين عند (جوفور) عندما سمع (كونتا) حمولة رأس (لامين) تسقط مرةً ثانيةً.. استدار (كونتا) بسرعة وغضب.. ولكنه عندما رأى التوسل بادياً على شقيقه قال:

- حسنا.. ارفعها فيما بعد.

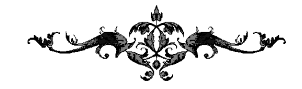
ودون كلمة نسى (لامين) قطيعه وماءه واندفع متجاوزاً (كونتا) نحو القرية وساقاه الرفيعتان تسابقان الريح وعندما عبر (كونتا) بوابة القرية كانت النساء المتحمسات والأطفال قد تحوطن حول (بينتا) التى كانت تثبت الست ريشات الذهبية فى شعرها وكان من الواضح أنها تتفجر ارتياحاً وسعادة.. وبعد فترة تبادل وجها (بينتا) و(كونتا) نظرات الحنان والدفء بعيداً عن التحيات المعتادة التى تجرى بين الأم وابنائها عند عودتهم من رحلاتهم.. سرعان ما ستنطلق ألسنةُ النساء لتجعل كل فرد فى (جوفور) يعلم ما احضره أكبر أبناء (كنتى) معها للبيت.. صاحت إحدى الجدات العجائز:

- يوجد بقرة على رأس (بينتا).. فهناك فى أنابيب ريش الذهب تلك ما يكفى لشراء بقرة .

قال (أمورو) ببساطة عندما قابل (كونتا): لقد أحسنت صنعاً.

وفى الأيام التالية كان الكبار يتكلمون مع (كونتا) ويبتسمون بطريقة خاصة.. وكان يرد برزانة واحترام.. حتى الأطفال من عمر (سوادو) كانوا يحيونه كرجل كبير.. ثم يقفون وأكفهم مضمومةً فوق صدورهم إلى أن يمر.. وأخيراً أدركت أمه أنه رجلاً.. وكان عليها ألا تطعمه فحسب وإنما أيضاً أن تفعل له أشياء أخرى مثل تنظيف رأسه من القمل.. ولابأس عليه الآن من أن يزورها فى كوخها من حينٍ لآخر.. وإذا حدث وحدق إلى (لامين) أو (سوادو) عندما يلعبان بصوت مرتفع كانا يسكتان وينصتان فى الحال.

والآن كم يتمنى أن تكون له أسرة من صلبه مثل أسرته تلك فى يومٍ من الأيام.. ولكن ليس قبل أن يحين الوقت بالطبع وهذا طريق طويل أمامه.



مجلس الحكماء

كانت لاتحضر أية امرأةٍ على الإطلاق عندما يجتمع المجلس لمناقشة الأمور الإدارية البحتة مثل علاقة (جوفور) مع القرى الأخرى.. وفى يوم (قضايا الناس) فإن الحضور يكون ضخماً ومزعجاً ولكن الجميع سرعان ما يلتزمون بالسكوت عندما يرفع أكبر الحكماء عصاه ذات الرأس المزينة ببراعم فاتحة اللون ليدقها على الطبلة التى أمامه معلناً اسم أول شخص تُسمع قضيته.. ويتم ذلك حسب السن.. وكل الحكماء يحدقون إلى الأرض وهم يستمعون إلى أن تنتهى الجلسة.. وإذا كان الموضوع يشتمل على نزاع فإن طرف النزاع الآخر يعرض وجهة نظره .. فى حين يستدير الحكماء ليعطوا الجميع ظهورهم وهم يتشاورون في الأمر.. وفى النهاية يستدير الجميع ثانيةً ويشير أحدهم للشخص أو الاشخاص الذين استمعوا إليهم ليقفوا ثانيةً وأكبر الحكماء يعلن القرار.. وبعد ذلك تعلن الطبلة اسم الشخص التالى.

وخلال فترة تدريب الرجولة كان الـ (كينتاجو) يوجههم لئلا تفوتهم أبداً أى جلسة من جلسات مجلس الحكماء مالم يضطروا لذلك.. لأن حضور تلك الجلسات يوسع من قدر الرجل كلما زادت سنوات عمره إلى أن يصبح هو نفسه من الحكماء.. وعند حضور (كونتا) أول جلسة له نظر إلى (أمورو) وقد جلس أمامه.

ورأى (كونتا) قضايا عديدة من بينها مدينين يؤمرون بالدفع حتى وإن اضطروا لبيع ممتلكاتهم.. أو العمل عند دائنتهم كعبيد لفترة من الزمن.. ورأى عبيداً يتهمون أسياد هم بالقسوة.. أو إعطائهم طعاماً سيئاً.. وإقامة غير مريحة.. أو أنهم يأخذون منهم أكثر من النصف الذى يستحقونه من عملهم.. وكان السادة بدورهم يتهمون العبيد بالغش وإخفاء بعض إنتاجهم.. أو عدم القيام بأعمالهم بالقدر الكافى.. أو إتلاف أدوات عملهم عن عمد.. وكان (كونتا) يري المجلس وهو يزن الدليل بعناية فى تلك القضايا مع الرجوع إلى سجل الشخص الماضى بالقرية ولم يندهش كونتا عندما عرف أن بعض العبيد كانت سمعتهم أفضل من سمعة أسيادهم.

وأحياناً كان لايوجد نزاع بين سيد وأحد عبيده وكان (كونتا) يرى السيد والعبد قادمين معاً يطلبان الأذن للعبد أن يتزوج من عائلة السيد.. لأن أى اثنين تتوفر لديهما النية للزواج عليهما أولاً الحصول على الأذن من المجلس.. وأحياناً كان المجلس يرفض الزواج يرفض إن ثبت أن أحد الزوجين لديه عادات سيئة وقد تنقل صفاته تلك إلى أطفاله.

وقد شاهد (كونتا) تصريح زواج واحد رُفِضَ عندما تقدم شاهد للشهادة بأن الشاب الذى ينوى الزواج كان راعى ماعز قد سرق سلةً منه ذات مرة.. وهو يظن أنه لم يره.. ولم يرض الشاهد أن يبلغ عن الجريمة وقتها باعتبار أن الشاب كان لا يزال ولداً صغيراً ولو أبلغ عنه فى حينه فإن القانون كان سيقضي بقطع يده اليمنى.. جلس (كونتا) مذهولاً عندما عرض اللص أخيراً.. وانفجر باكياً وهو يعترف بجرمه أمام والديه المذعورين والفتاة التى طلب أن يتزوجها والتى بدأت الصراخ.. وبعد ذلك اختفى الشاب من (جوفور) ولم يسمع عنه بعد ذلك قط.

بعد حضور جلسات مجلس الحكماء لعدد من الأشهر القمرية أدرك (كونتا) أن معظم المشاكل المقدمة للحكماء تأتى من المتزوجين خاصةً من الرجال متعددى الزوجات.. وكانت الخيانة الزوجية هى أكثر التهم تكراراً من هؤلاء الرجال.. ويُعاقب لرجل المرتكب الخيانة إذا ما جاء اتهام الزوج له مدعوماً بشهادة خارجية مقنعة أو أى دليل قوى .

وإذا كان الزوج المُعتدى عليه فقيراً والمخطىء غنياً فإن مجلس الحكماء يأمر المخطىء أن يقدم ممتلكاته إلى الزوج شيئاً.. فشيئاً فى كل مرة إلى أن يقول الزوج كفى.. وهو ما عادةً ما لا يحدث حتى يصبح الزانى وقد أصبح كوخه عارياً تماماً.. ولكن لو كان الرجلان فقيرين وهذه غالباً ما تكون الحالة.. فإن المجلس قد يأمر المرتكب للجريمة أن يعمل عند الزوج المخدوع كعبدٍ لفترة زمنية مقدرة بمدى استغلاله للزوجة..

ورأى (كونتا) مخطئاً متحرر حدد الحكماء له موعداً ليجلد بالسياط ثلاثين جلدة على ظهره العاري من آخر الأزواج الذين خدعهم حسب أحكام الشريعة الإسلامية.. وكانت أفكار (كونتا) الخاصة حول الزواج قد هدأت إلى حدٍ ما وهو يراقب وينصت إلى الشهادات الغاضة للزوجات والأزواج أمام المجلس.. والرجال المتهمون بأن زوجاتهم فشلن فى احترامهم لأنهم كانوا كسالى.. وغير مستعدين لممارسة الحب.. أو من المستحيل الحياة معهم.. ومالم تقدم الزوجة دليل قوي من بعض الشهود لدعمها في موقفها كان الحكماء عادةً ما يقولون للزوج أن يذهب فى ذلك اليوم.. ويخرج ثلاثة من ممتلكات الزوجة خارج كوخها ثم ينطق أمام تلك الممتلكات ثلاث مرات مع حضور الشهود لزوجته عبارة أنت طالق !

وعندما تدعى أى امرأة أن زوجها غير كفء فى الفراش يعين الحُكماء ثلاثة أشخاص عجائز واحد من العائلة الخاصة بالزوجة المدعية.. وآخر من عائلة الزوج.. والثالث من بين الحكماء أنفسهم ويحدد لهم موعد لمراقبة الزوج والزوجة معاً فى الفراش.. وإذا صَوَتَ اثنان من الثلاثة أن الزوجة على حق.. فإنها تنال الطلاق وتحتفظ عائلتها بالمهر من الماعز.. ولكن لو أن اثنين من المراقبين صوتا أن الزوج يؤدى مهمته جيداً فإنه لا يسترجع الماعز فحسب وإنما أيضاً يضرب الزوجة ويطلقها لو أراد.

انتهت الجلسة.. وظل (كونتا) جالساً لفترة بعد أن تفرق كل رفاقه واتجهوا عائدين نحو أكواخهم.. كان رأسه لا يزال مملوءاً بالأفكار عندما أحضرت له (بينتا) طعام العشاء ولم يقل لها أى كلمة بينما كان يتناول طعامه.. ولم تقل هى أيضاً شيئاً.. وفيما بعد التقط رمحه وقوسه وسهامه وجرى مع كلبه (الولو) إلى مكان حراسته خارج القرية.



كيف يكون الأمر؟

في الامتداد الفسيح المضاء بضوء القمر في حقول الفول السودانى الناضجة.. صعد (كونتا) فوق عمود المراقبة.. وجلس على منصته التي بُنِيَت عالية فوق الأرض.. ووضع أسلحته بجواره ليقطع الخشب من أجل صنع إطار طبلته.. وكان يراقب وكلبه (الولو) يتقافز ويتشمم هنا وهناك.. كان ينتزع رمحه عندما يحس بأقل حركة حتى ولو صدرت من فأر الغيط.. وكان كل شبح يبدو له قرداً.. وكل قردٍ يبدو له فهداً.. وكل فهد يتصوره (طوبوب) إلى أن تعودت عيناه على المهمة.. وفى الوقت المناسب كان يستطيع أن يعرف الفرق بين زئير الأسد وزئير النمر.. واستغرق وقتاً أطول ليتعلم كيف يبقى يقظاً خلال تلك الليالى الطوال.. وعندما كانت أفكار ه تبدأ تتحول إلى داخل نفسه كان غالباً ماينسى أين هو ؟ وما هو المفروض عليه أن يفعله.. ولكنه أخيراً تعلم كيف يكون يقظاً بنصف عقله.. ومع ذلك يظل يستكشف أفكار ه الخاصة.. ويناقشها مع الآخرين.. وفي تلك الليلة كان يفكر فى الصداقة المشتركة بين الرجل والمرأة التى تمت الموافقة عليها لإثنين من أصدقاءه بواسطة مجلس الحكماء.. ولعدة شهور قمرية كانا يقولان له هو ورفاقه أنهما سيعرضان القضية على مجلس الحكماء.. ولكن أحداً لم يصدقهما حقاً.. والآن حدث نفس الأمر وربما فى تلك اللحظة بالذات بدأ كل منهما يمارس العلاقة مع الأرملتين.. جلس (كونتا) فجأة معتدلاً يحاول أن يتصور كيف يكون الأمر .

عرِفَ (كونتا) أساساً من ثرثرة وإشاعات رفاق سنه القليل عن عالم النساء.. وعن طقوس الزواج.. كما عرف أن أباء البنات لابد أن يضمنوا بناتهن كعذارى حتى يحصلوا على أعلى مهرٍ لهن عند زواجهن.. ثم هناك كثيرٌ من الدماء فى ليلة الزفاف.. وفى صباح اليوم التالى للزواج تذهب أم العروسين إلى الكوخ لتأخذا من السلة المجدولة قطعة القماش البيضاء التى نام عليها العروسان ويثبتان بالدماء التى لوثت تلك القماشة أن العروس كانت عذراء.. ويحملانها إلى الإمام الذى يسير هو فقط حول القرية يدق على الطبل ويعلن بركات الله التى حلت على ذلك الزواج..

كما علم (كونتا) إنه إذا لم تتلوث تلك القطعة بالدماء فإن العريس يترك الكوخ غاضباً مع الشهود.. ويصيح بصوت عال ثلاث مرات حتى يسمع الجميع أنه يقول للعروس (أنت طالق)!

ولكن علاقة الصداقة بين الرجل والمرأة **الأرملة** المسماة (تيرايا) لا تتضمن شيئاً من ذلك فقط الرجال الجُدُد ينامون مع الأرامل الراغبات.. ويأكلون من طعامهن.. فكر (كونتا) لفترة كيف أن جينا مكابي نظرت إليه ولم تخف خططها وسط الجمهور الصاخب فى اليوم السابق عندما انتهت جلسة مجلس الحكماء وبصعوبة بالغة كتم الرغبة الشديدة التى اجتاحته نحو تلك **الأرملة** .. وأحس بالحرج حتى لمجرد التفكير فيها.. لأن معنى ذلك أنه يستسلم لما تريده **الأرملة** .. قال فى نفسه أنه لا يريد أن تلصق به فى نعومة.. ولكنه الآن وهو رجل كان من حقه كل الحق إذا رغب أن يفكر فى علاقة (تيرايا) التى اظهر الحكماء أنفسهم أنه ليس فيها ما يخجل.. عاد ذهن (كونتا) إلى ذكرى بعض البنات اللاتى مرَّ بهن هو و(لامين) فى إحدى القرى وهما عائدان من رحلة البحث عن الذهب..كان هناك حوالى عشرة منهن على ما يعتقد.. وكلهن سوداوات جميلات فى ملابس ضيقة موشاة بالخرز الملون.. ويتحلين بالأساور.. ولهن صدور بارزة.. وعلى رؤوسهن حليات للشعر.. لقد تصرفن بطريقة غريبة جداً عندما مرا بهن .

فكر أن الإناث محيراتٍ للغاية.. والبنات فى سنهن فى (جوفور) لا يلتفتن أبداً له.. ولا حتى يشحن بوجوههن بعيداً عنه.. هل هذا لأنهن يعلمن ماذا يبدو في حقيقته؟ أم أن ذلك لأنهن يعلمن أنه أصغر بكثير مما يبدو.. وبالتالى هو أصغر من أن يستحق اهتمامهن؟

من المحتمل أن بنات تلك القرية البعيدة اعتقدن أنه لا يوجد رجل يسافر يقل سنه عن عشرين سنة أو خمس وعشرين.. بينما هو فى السابعة عشرة.. كن سيقهقهن لو عرفن سنه الحقيقي.. ومع ذلك ها هو مطلوب ومطارد من **أرملة** تعرف تماماً من هو.. وكم عمره.. وربما كان محظوظاً ألا يكون أكبر سناً.. لأنه لو كان فإن بنات (جوفور) كن سيطاردنه بطريقة البنات فى القرية المذكورة..

وهو يعلم أن كل ما فى رؤوسهن هو الزواج على **الأقل** فإن (جينا مكابي) كانت كبيرة على أن تبحث عن شيء آخر أكثر من علاقة (تيرايا) بين رجل وامرأة .. لماذا يمكن للرجل أن يرغب فى الزواج فى حين أنه يستطيع أن يحصل على امرأة تطهو له وتنام معه دون زواج؟

لابد أن هناك سببا ما ربما كان ذلك لأنه خلال الزواج فقط يحصل الرجل على أبناء وهذا أمر طيب.. ولكن ما الذى عليه أن يعرفه ليحسن تنشأة هؤلاء الأبناء.. يجب أن يعرف كل شيءٍ عن العالم.. ليس فقط من والده.. أو من العريف.. أو من الـ (كينتاجو) وإنما عن طريق استكشاف العالم بنفسه كما فعل عماه.. فهما لم يتزوجا حتى الآن رغم أنهما أكبر من والده سناً.. ومعظم الرجال من عمرهما تزوجوا.. بل واتخذوا زوجةً ثانيةً.. فهل يفكر أبوه الآن فى اتخاذ زوجةً ثانيةً غير أمه؟ كان (كونتا) مذهولاً أمام هذه الفكرة لدرجة أنه جلس منتصباً.. وبدأ يتساءل: كيف سيكون شعور أمه حيال ذلك.. على الأقل فإن (بينتا) باعتبارها الزوجة الرئيسية يمكنها أن تخبر الزوجة الثانيةً عن واجباتها.. وتتأكد أنها تعمل بجدٍ.. وتنظم ليالي نومهامع (أمورو).. ولكن هل ستقع متاعب بين المرأتين؟ لا هو واثق بأن (بينتا) ستكون مثل زوجة الـ (كينتاجو) الرئيسة التى عرف عنها للجميع استغلالها الشديد للزوجات الآخريات الأقل منها مكانة لتجعلهم فى دوامة تحرمهم من أى لحظة سلام.

بدل (كونتا) وضع ساقيه ليدعهما معلقتين فترة حافة المكان المرتفع الجالس عليه حتى يحمى العضلات من التقلص كان كلبه الوولو مكوراً على الأرض تحته وفروه الناعم البنى يلمع فى ضوء القمر.. ولكنه كان يعلم أن ذلك الكلب يتظاهر بأنه نعسان.. وأن أنفه وأذنيه مستعدة لأقل صوت ليلى أو رائحة وليقفز نابحاً خلف قردة البابون التى كانت تغير مؤخراً على حقول الفول السودانى تقريباً فى كل ليلة.. وخلال كل نوبة حراسة طويلة كان (كونتا) ينتفض عشرات المرات بسبب صوت صياح قرد السعدان.. وقد قفز عليه نمر خاصة إذا ما كان نواح القرد قد تحول إلى صرخة سرعان ما تتكتم.. وهذا يعنى أنه لم يستطع الهرب.

ولكن كان كل شيء هادئاً.. و(كونتا) جالس على حافة منصته ينظر عبر الحقول.. ووسط العشب العالى كان يلوح من بعيد الضوء الأصفر المتذبذب لمصباح الراعى الفولانى عن بعد وهو يلوح بمصباحه الزجاجى ليخيف الحيوانات ويبعدها.. ومن المحتمل أن تكون ضِباعاً تحوم عن قربٍ شديد حول الماشية.. فقد كان رجال قبائل الفولانى يتميزون برعايتها لدرجة أن الناس يدعون أنهم يستطيعون الكلام مع حيواناتهم.. ويقول (أمور و) (كونتا) أنه فى كل يوم كجزء من أجرهم مقابل الرعي قد يمتص الفولانى بعض الدماء من رقاب بقراتهم ليخلطونه مع اللبن ويشربونه.. فكر (كونتا) لم هم أشخاص غريبو الأطوار هكذا ؟

كان (كونتا) قلقاً ومتلهفاً من أجل رحلة حقيقية.. وكان هناك رجال آخرون من سنه يعرف أنهم يخططون للسفر إلى مكانٍ ما فور حصاد الشعير والفول السودانى.. ولكن أحد منهم لن يغامر بالسفر بعيداً.. بينما (كونتا) كان متلهفاً للذهاب إلى ذلك المكان البعيد المسمى (مالى) والتى من ثلاثمائة أو اربعمائة سنة مطرية مضت ـ وفقاً لما قاله له أبوه وعماه ـ بدأ تكوين عشيرة **(كينتي)**.. تلك العشيرة التى اكتسبت شهرتها كحدادين.. أى أنهم كانوا رجالاً قهروا النيران لصناعة الأسلحة الحديدية.. والآلات الزراعية التى جعلت الزراعة أقل مشقة.. ومن هذه العائلة الأصلية **(كينتي)** جاءت كل السلالات المنحدرة منها.. وكل الناس الذين عملوا عندهم أخذوا عنهم اسم (كينتي) والبعض من تلك العشيرة تحرك وانتقل إلى (موريتانيا) حيث مولد الرجل المقدس الجد الأعظم لـ (كونتا).

وحتى لايعرف أحد عن خطته حتى والده (أمور و) نفسه.. استشار (كونتا) فى أقصي درجات السرية العريف حول أفضل الطرق للوصول إلى مالي.. رسم له العريف طريقاً كروياً على الأرض.. ثم مرر أصبعه خلالها.. وأخبره كيف يصل إليها.

كانت مسافة يومين أو ثلاث من هذا السفر الصعب يمكن أن تقود (كونتا) إلى تلك الجزيرة الواسعة حيث الضفاف المنخفضة الطينية.. والصخور الصغيرة المُغطاة بالشجيرات الصغيرة.. والطريق الذى يتلوي بطول النهر يمكن أن يقوده عبر العديد من القرى.

وبعد مسيرة نصف يوم من هناك يمكن أن يصل إلى قرية (فاتوتو) أخرج (كونتا) من حقيبته قطعة الجلد المدبوغ التى أعطاها له العريف.. وكان عليها اسم أحد زملاءه فى (فاتوتو) قال إنه سيعطيه التوجيهات من أجل الاثني عشر أو الأربعة عشر يوماً التالية.. والتى قد تقوده عبر أرض تسمي (السنغال) وبجوارها كما قال العريف تمتد (مالى) وكانت وجهة (كونتا) هى (كابا) الأرض الرئيسية وحتى يذهب إلى هناك ويعود.. تصور العريف أنها تستغرق حوالى شهر قمري دون حساب الوقت الذى سيقضيه (كونتا) في (مالى).

مرات عديدة رسم (كونتا) ودرس الطريق على أرض كوخه الترابية.. ومسحها قبل أن تحضر (بينتا) لدرجة أنه كان يستطيع أن يري الرحلة أمامه وهو جالس على حصيرته فى حقول الفول السودانى.. فكر فى المغامرات التى تنتظره على طول الطريق.. وفى (مالي).. وكان يصعب عليه أن يكتم شغفه ولهفته على الرحيل.. وكان متلهفاً أيضاً لإخبار (لامين) عن خططه.. ليس لأنه يريد من أخيه أن يشاركه أسرار ه فحسب.. وإنما أيضاً لأنه قرر أن يأخذ شقيقه الأصغر معه.. التى حلُما بها سوياً.. ومن وقتها دخل (لامين) تدريب الرجولة ليكون أكثر خبرةً وجدارة بالثقة كرفيق للسفر.. ولكن كان أهم أسباب (كونتا) في قراره بأخذ (لامين) معه كان عليه أن يعترف به لنفسه وهو ببساطة أنه كان فى حاجة إلى صحبة.

جلس (كونتا) فى الظلام يبتسم لنفسه ويفكر فى وجه (لامين) عندما يحين الوقت ليعرف خططه.. بالطبع لن يتلقى الخبر بطريقة عرضية.. ولكن قبل ذلك يجب أن يتحدث مع (أمور و) والذي يعرف أنه لن يبدي اهتماماً ظاهرياً.. بينما الحقيقة أنه سيكون سعيداً بالتأكيد.. وحتى (بينتا) رغم أنها قد تقلق إلا أنها لن تغضب كثيراً.. وتساءل: ما الذى قد يحضره إلى (بينتا) من (مالي) يمكن أن تعتبره كنزاً عزيزاً أكثر من ريشات الذهب..

ربما يحضر لها بعض الأواني الفخارية الناعمة.. أو قطعة من القماش الجميل.. و(أمور و) وعماه قالوا أن المرأة القديمة فى مالى كانت مشهورة بالأوانى التى تصنعها.. وبالنماذج البراقة من الأقمشة التى تغزلها.. لذلك ربما نساء كونتي لا يزلن يصنعن نفس الأشياء.

وعندما يعود من هناك لماذا لا يفكر أن يخطط لرحلة أخرى فى سنةٍ أخرى؟

بل ربما يرحل إلى ذلك المكان البعيد خلف الرمال التى لانهاية لها.. حيث أخبره عماه عن القوافل الطويلة من الحيوانات الغريبة والمياة المخزونة فى سنامين على ظهرها[1].. قد يكون لدى (كاليلو كونتى) و(سيفو كيلا) علاقتهما (التيرايا) مع أرملتين عجوزتين.. أما هو (كونتا كنتى) فإنه سيقوم بالحج إلى (مكة) نفسها.. وفى تلك اللحظة حملق إلى اتجاه المدينة المقدسة.. عندما لاحظ ضوءاً رفيعاً أصفر بعيداً عبر الحقول.. كان الراعي الفولاني هو الموجود هناك كما توقع.. وكان يطهو إفطاره.. فلم يكن (كونتا) قد لاحظ أن أول شعاعٍ من خيوط الفجر قد تسلل من الشرق.

نزل لأسفل ليتلقط سلاحه ويتجه إلى البيت.. ورأى فأسه.. وتذكر الخشب من أجل إطار طبلته.. كان مُتعباً.. وفكر أنه يمكن أن يقطع الخشب فى الغد لأنه مازال فى منتصف الطريق فقط إلى الغابة.. وإذا لم يفعل ذلك الآن فمن المحتمل أن يؤجل الأمر حتى موعد نوبته الحراسية التالية الذى سيكون بعد اثنى عشر يوماً.. حرك ساقيه ليختبرهما ليتأكدمن عدم وجود أى شد عضلي.. ولم يحس بشىء.. فهبط لأسفل عن طريق العمود المنصوب إلى الأرض.. حيث كلبه (الولو) فى انتظاره وهو يطلق نباحاً سعيداً.. ويهز ذيله.. وبعد أن أدى صلاة الفجر نهض (كونتا) وتمطع.. وأخذ نفساً عميقاً من هواء الصباح البارد.. وانطلق نحو المجري المائي بسرعة.



(1) السنامين جمع (سنام) وهو ظهر الجمل المقصود من قوله حيوانات غريبة.

أشجار المانجروف

تنفس (كونتا) بعمق وهو يجري.. وبدأ يشم الرائحة العطرية لأشجار المانجروف وهو يقترب من الشجيرات الكثيفة المنخفضة التى تمتد من ضفاف النهر.. وما أن شاهدته الخنازير الوحشية حتى انتشر بينها شخير مفاجىء.. ثم انطلقت وهى تعوي بعيداً عن ضفاف النهر وسط قردة السعدان.. والتى وقعت ذكورها الضخمة تنظر إليه وإناثها.. وأطفالها خلفها.. عندما كان (كونتا) أصغر سنا كان من الممكن أن يقف ليقلدها.. ويزمجر.. ويشخر.. ويتقافز لأعلى وأسفل.. كان ذلك يضايق قردة السعدان التى كانت تهز أردافها.. وأحياناً ما تلقى الحجارة عليهم من بعيد.. ولكنه لم يعد ولداً صغيراً.. وتعلم كيف يعامل كل مخلوقات الله كما يُحبُ أن يُعاملَ هو شخصياً باحترام.

وبدأ يأخذ طريقه خلال أشجار المانجروف المتشابكة إلى نهاية النهر..كانت حيات الماء والسلاحف البنية الضخمة تختفى فى منزلقاتها من الطين إلى الماء حيث لاتترك أى أثر.. وكما كان يفعل دائماً كلما شعر ببعض الحاجة أن يأتى إلى هنا بعد واجب الحراسة الليلية.. وقف (كونتا) فترة على حافة المجرى المائي يراقب بومة (رمادية) تجر ساقيها الطويلتين الرفعتين وهي تطير على ارتفاع رمح فوق الماء وتعكر السطح مع كل رفرفة من جناحيها.. ورغم أن البومة كانت تبحث عن فريسة أصغر.. فإنه كان يعرف أن هذه أن هذه هى أحسن بقعة على طول النهر يوجد بها الـ (كاجالو[1]) كان (كونتا) يحب أن يمسك به من أجل (بينتا) التى قد تقليه له مع البصل والأرز والطماطم..كانت معدته تتقلص بالفعل طلباً لطعام الإفطار.. لكن احساسه بالجوع زاد بمجرد التفكير فى ذلك.. وعلى بعد أكثر فى نهاية المجري المائى استدار (كونتا) مبتعداً عن حافة الماء على طول الممر الذى صنعه هو بنفسه بعد العديد من الزيارات فضلاً.. عن أنه كان يعرفه جيداً.. شد قامته إلى غصنٍ منخفض.. وصعد الطريق إلى مكانه المفضل عند القمة..

(1) نوعٌ من السمك.. قوى وضخم.

ومن هناك فى الصباح الصحو.. والشمس التى تدفئ ظهره استطاع أن يشاهد الطريق إلى أول منحني للنهر لايزال مفروشاً بوسادة من دجاج الماء.. وبجوارها أراضي الأرز الخاصة بالنساء وقد أُحيطت بأسوار واقية من البامبو هنا وهناك من أجل رعاية الأطفال.. وفى أحد تلك الأركان تساءل: هل وضعته أمه هنا عندما كان صغيراً؟ لقد كان هذا المكان فى الصباح المبكر يملأ (كونتا) دائماً بإحساس عظيم بالهدوء والاستمتاع لم يعرفه فى أى مكانٍ آخر.. حتى أكثر مما يشعر به داخل مسجد القرية.. حيث يحس هنا كيف أن كل شىء.. وكل شخص يكون فقط بين يدي الله.. وكيف أن كل شىء يراه ويسمعه ويشمه من أعلى الشجرة هنا كان فى مكانه منذ أبعد من ذاكرة الإنسان.. وسيظل هنا فى مكانه بعد أن يلحق هو و**أبناء** أبنائه بالأسلاف.

هرول بعيداً عن النهر نحو الشمس لفترة قصيرة.. وأخيراً وصل إلى رأس العُشب العالى المحيط بالأكمة حيث سيقوم بالتقاط وشق جزء من جذع شجرة بالحجم المناسب لجسم الطبلة.. وإذا بدأ الخشب الأخضر فى الجفاف اليوم.. تصور أنه سيكون جاهزاً لثقبه والعمل فيه خلال شهر ونصف قمري.. وهو تقريباً الوقت المناسب الذى سيعود فيه هو و(لامين) من رحلتهما إلى (مالي).

توجه (كونتا) إلى وسط(الأكمة)حتى يمكن أن يعثر على المزيد من الأشجار ليختار من بينها الأكثر نعومة واستدارة.. كانت الأرض المعشوشبة الناعمة تعطيه احساساً طيباً تحت قدميه وهو يسير أعمق فأعمق فى(الأكمة).. ولكن كان الهواء هنا بارداً ورطباً.. ولاحظ أن الشمس لم تكن عالية بما يكفي لتخترق الأوراق السميكة فوق رأسه.. أسند أسلحته وفأسه على إحدى الأشجار.. وأخذ يتجول هنا وهناك.. وبأصابعه يفحص الأشجار بحثاً عن الجذع المطلوب.. وجد جذعاً منحنياً اعتقد أنه المطلوب ساعتها سمع رفرفة حادة لجناحين تبعها بسرعة صياح ببغاء فوق رأسه.. انكسر الغصن كان من المحتمل أن الكلب قد عاد..

ولكن لم يكن يوجد أية كلاب.. دار بسرعة حول نفسه وفى لمح البصر رأى شخصاً مندفعاً نحوه.. وجهه أبيض.. وفي يده هرواة ارتفعت.. وسمع صوت خطوات ثقيلة تعدو خلفه أنه (طوبوب) ارتفعت قدمه وصدمت الرجل فى بطنه.. بعدها أحس بشئ صلب وثقيل يسقط فوق رأسه.. سقط على كتفه يترنح من شدة الألم.. ودار حول نفسه مولياً ظهره للرجل الذي سقط مكوماً على الأرض عند قدميه..

ثم لكم بقبضته وجهي رجلين أسودين آخران كانا يندفعان نحوه بجوال ضخم.. و(طوبوب) آخر كان يطوح ناحيته بفرع شجرة سميك.. ولكنه اخطأه عندها قفز (كونتا)جانباً يصرخ بحثاً عن أى سلاح.. واندفع (كونتا) نحوهم وهو يخمش وجوههم.. ويلكمهم.. كانت ضربات فرع الشجرة الثقيل تتوالى على ظهره.. وعندما سقط الثلاثة معه أرضاً فوقه اصطدمت ركبة أحدهم فى بالجزء الأسفل من ظهر (كونتا).. وملأته بألمٍ شديد ووجدت أصابعه المخدرة وجهاً أمامه فادخلها بقوة فى عيني من قابله وسمع صاحبها يعوي.. عندها هوي فرع الشجرة ثانيةً على رأس (كونتا) الذى شعر بدوار شديد.. أخذ يحاول الوقوف على قدميه وهو يتلوي.. ويحاول التملص ليهرب من المزيد من ضريات فرع الشجرة والدماء تسيل من رأسه المشقوق.. رأى السواد يغطي عينيه.. والرجلين الباقين يدوران حوله وقد رفع كل منهما غصن شجرة.. صرخ (كونتا) غاضباً واندفع نحو (الطوبوب) الثانى.. وقابلت قبضتاه فرع الشجرة.. وكسرته.. وحاول فى يأس أن ينتزع منه فرع الشجرة.. وفى نفس اللحظة اصطدمت شجرة الرجل الأسود بـ (كونتا) ليسقط على ركبتيه ويتحرر (الطوبوب) من قبضته.. كان رأس (كونتا) على وشك الانفجار.. وجسده يرتجف.. والغضب يتملكه.. تراجع.. وزأر فيهم يريد أن يطير فى الهواء.. وكل شيء أصبح بالنسبة له غير واضح بسبب الدموع والدم والعرق الذين يملئون وجهه.. ومناطق كثيرة من جسده.. تذكر لحظتها أنه يقاتل الآن ليس من أجله هو فقط.. وإنما من أجل ما هو أكثر من حياته.. من أجل (أمور و) و(بينتا) و(لامين) وغيرهم من **أبناء** قبيلته.. اصطدم فرع الشجرة الثقيل الذى كان يمسكه (الطوبوب) بخده.. ثم أصبح كل شيء أسوداً .



سر العلامة (11)

تساءل (كونتا) هل أُصيب بالجنون.. كان عارياً ومهزوزاً عندما استيقظ وهو نائمٌ على ظهره بين رجلين آخرين فى حفرة من الظلام حارة ومملوءة ببخار رائحةٍ مقززة.. كان يشم بقايا قيأه على صدره وبطنه وكل جسده الذى تحول جميعه إلى كتلةً من الألم من جراء الضرب الذى تلقاه خلال أربعة أيامٍ منذ أسره.. ولكن المكان الذى وضع عليه الحديد المحمي بين كتفيه كان يؤلمه أكثر.. خاصةً إذا احتك به أحد الفئران.. ارتجف من التقزز وأغلق (كونتا) أسنانه فى يأس.. فجرى الفأر بعيداً.. وفى ثورة الغضب العارم أخذ (كونتا) يشد ويركل الكلبشات التى تربط وسطيه وعقبيه.. وفى الحال جاءت ردود فعلٍ غاضبة وهزاتٍ عنيفة من الشخص الذى كان مربوطاً معه.. فاصطدمت رأس (كونتا) لأعلى بعنف بالخشب فى المكان الذى ضربه عليه (الطوبوب) وهو فى الغابة.. كان مستلقياً يتمنى لو أنه مات.. قال لنفسه لا يجب أن يفقد سيطرته على نفسه مرةً ثانيةً إذا أراد أن يوفر طاقته وصحته.. وبعد فترة عندما شعر أنه يستطيع أن يتحرك ثانيةً تحسس بيده اليسري بحرص وبطء رسغه الأيمن المقيد.. وكاحله اللذان كانا يدميان.. شد السلسلة شداً خفيفاً وبدا أنها مربوطة هى الأخرى بالكاحل الأيسر والرسغ الأيمن للرجل الذى سبق وتعارك معه.. وعن يسار (كونتا) كان الرجل مربوطاً معه من كاحليه بالسلاسل رجلٌ آخر.. وهكذا رجلٌ مربوطٌ في الآخر حتى نهاية السلسلة.. وكانوا جميعاً متقاربين جداً لدرجة أن أكتافهم وأذرعهم وسيقانهم كانت تتلامس كلما تحركوا حتى ولو حركة بسيطة.

بينما لم يكن هناك مكان حتى للجلوس منتصباً.. قطع حبل تفكيره الصرخات والتأوهات التى كان يسمعها ممن حوله.. كلهم فى حجرة واحدة.. أصاخ السمع.. واستطاع أن يسمع المزيد من الصرخات.. ولكنها كانت مكتومة وآتية من أسفل ألواح الخشب المتشققة التى استلقي فوقها.. انصت بانتباه أكثر.. وبدأ يتعرف على مختلف اللغات لهؤلاء الذين حوله وفوق كل اللغات جاءت صيحات بالعربية من أحد الفولانى : يا الله فى السماء.. ساعدنى !

صيحات الآخرين كانت مختلطة بالبكاء لدرجة أن (كونتا) لم يستطع أن يميز الكلمات.. ولا اللهجات.. لكن معظم من سمعهم (كونتا) كانوا من الـ(مانديكا).. وكان الجميع يتوعدون ويقسمون بالموت الرهيب للـ(طوبوب)..

تقزز (كونتا) من نفسه.. وشم مخرجات بطنه المضافة إلى الروائح النتنة التى تأتيه من كل مكان.. ومرة ثانيةً بدأت عصارة بطنه تخرج على دفعات صغيرة.. وتساءل : أى خطيئةٍ ارتكبها ويعاقبه الله عليها بهذة الطريقة؟ توسل إلى الله أن يجد الاجابة.. كان يكفيه خطيئةً أنه لم يصل مرة واحدة منذ الصباح الذى ذهب فيه إلى الغابة ليصنع طبلته.. ورغم أنه كان لا يستطيع أن يقع على ركبتيه.. ولا يعرف حتى أين اتجاه القبلة.. أغمض عينيه حيث استقلي وصلى طالباً المغفرة من الله.

بعد ذلك استلقى لفترة طويلة وهو غارق تماماً فى آلامه.. إنه الجوع.. فهو لم يأكل شيئاً منذ الليلة السابقة على أسره.. تذكر ذلك الوقت عندما رأى فجأة نفسه سائراً وسط الغابة ويسير بجواره اثنان من السود.. أمامهم اثنان من (الطوبوب) بملابسهما الغريبة وشعرهما الطويل غريب الألوان.. فتح (كونتا) عينيه بقوة.. وهز رأسه.. كان غارقا فى العرق وقلبه ينبض بسرعة وعنف.. لقد كان نائماً دون أن يدري.. هل ذلك كابوس.. أم أن ذلك الظلام المقزز الذى يحيط به هو الكابوس نفسه؟ لا لقد كان حقيقياً مثل ذلك المشهد فى الغابة.. فبعد عراكه مع الخونة السود هم و(الطوبوب) بطريقة يائسة فى أكمة الأشجار تذكر أنه استيقظ وسط آلامٍ مبرحة.. ووجد نفسه مقيداً.. مُغمض العينين.. ومُقيد الرسغين خلف ظهره.. وكاحلاه مربوطان بحبلٍ به عُقد.. اندفع ليحرر نفسه إلا أنه ضُرِبَ بوحشية بعصا حادة إلى أن سال الدم على ساقيه.. أجبروه على أن يجلس على ركبتيه.. وضربوه بالعصي.. ليبدأ التحرك مُكبلاً بالسلاسل .

وفى مكان ما على طول ضفاف النهر كان (كونتا) يستطيع أن يعرف من الأصوات ومن تحسسه للأرض اللينة تحت قدميه أنه أُلقِيَّ به إلى أسفل أحد الزوارق..

كان لايزال معصوب العينين.. وسمع الخونة السود يزمجرون وهم يجدفون بسرعة.. و(الطوبوب) يضربه كلما قاوم.. وعندما رسوا مرة ثانيةً ساروا إلى أن وصلوا تلك الليلة أخيراً إلى أحد الأماكن.. وهناك ألقوا بـ(كونتا) على الأرض مقيداً من ظهره بسياج من البامبو.. ودون إنذار انتزعوا عصابة عينيه.. كان الظلامُ سائداً.. ولكنه كان يستطيع أن يرى وجه (الطوبوب) الشاحب واقفاً.. وأشباح الآخرين من أمثاله على الأرض القريبة.. مد له (الطوبوب) يده ببعض اللحم ليأكل.. أشاح برأسه جانباً.. وضم فكيه.. استشاط (الطوبوب) غضباً.. وامسك بزوره.. وحاول أن يفتح فمه عنوةً.. وعندما أبقى (كونتا) فمه مغلقاً.. لكمه (الطوبوب) بقبضته بأقصى قوة.

ثم تركوه لحاله بقية الليل.. وفى الفجر بدأ يتصور الأسرى الآخرين.. كانوا أحد عشر أسيراً.. ستةٌ منهم رجال.. وثلاث فتيات.. وطفلان.. وكلهم محروسون عن قرب من السود الخونة.. و(الطوبوب) المسلحين.. كانت البنات عاريات وقد حاول (كونتا) أن يبعد عينيه.. فلم يسبق له قط أن رأى امرأة عارية.. وكان الرجال أيضاً عراة.. وجلسوا جميعاً وقد ارتسمت على وجوههم كراهيةً قاتلة.. صامتين.. متجهمين.. تغطيهم الدماء من جروح السياط.. ولكن البنات كن يصرخن.. إحداهن حزناً على المحبوبين الذين ماتوا حرقاً فى القرية.. وأخرى تنتحب فى مرارة وهى تهتز للأمام.. والخلف.. وهى تهدهد طفلاً خيالياً بين ذراعيها المعقودين.. والثالثة تقفز على فترات وهى تنتحب قائلة أنها ذاهبة إلى الله .

فى غضب جامح وحشي أخذ (كونتا) يتلوى أماماً وخلفاً محاولاً أن يكسر قيوده.. صرعته ضربة ثقيلة من فرع شجرة.. وأفقدته حواسه.. وعندما أفاق وجد أنه أصبح هو الآخر أيضاً عارٍ تماماً.. وأن كل رؤوسهم حُلِقَت.. ودُهِنَت أجسامهم بزيت النخيل الأحمر.. وحوالى منتصف النهار دخل اثنان جديدان من (الطوبوب) ساعتها ابتسم كل الخونة السود.. وبسرعة حلوا وثاق كل الأسري من جذوع البامبو.. وصاحوا فيهم أن ينهضوا..

ويقفوا صفاً واحداً.. كانت عضلات (كونتا) مجمدةً من الغضب والخوف.. كان واحداً من (الطوبوب) الجُدُد قصيراً.. وقوياً.. وشعره أبيضاً.. والآخر كان أطول وأضخم منه.. ومتجهم الوجه.. وهناك ندوب من جروح قديمة فوق وجهه.. ولكن السود الخونة كانوا يبتسمون.. وينحنون أمام الرجل أبيض الشعر .

نظر إليهم بلا مبالاة.. وأشار إلى (كونتا) أن يخطو للأمام.. ولكن (الطوبوب) تراجع للخلف فى رعب عندما حاول (كونتا) الهجوم عليه.. وأخذ يصرخ بينما كان السوط ينزل ليلهب ظهر (كونتا) بعد أن كتفه أحد الخونة من خلفه وطرحه أرضاً على ركبتيه.. ثم أخذ يهز له رأسه للأمام والخلف.. وتقدم (الطوبوب) ذو الشعر الأبيض ليفتح شفتي (كونتا) ويفحص أسنانه فى هدوء.. حاول (كونتا) أن يقفز ولكن بعد ضربة أخرى من السوط وقف حيث أمروه.. وجسده يرتجف.. وأصابع (الطوبوب) تفحص عينيه وصدره وبطنه.. وعندما لمست أصابعه قضيب (كونتا) قفز جانباً.. وأطلق صرخةً مكتومة.. احتاج الأمر ساعتها إلى خائنين أسودين.. ومزيدٍ من ضرب السياط لاجبار (كونتا) أن ينحني بشدة.. وأحس فى رعب أن فخديه أُبعِدا عن بعضهما.. وعندها أزاح (الطوبوب) (كونتا) جانباً.. وأخذ يفحص الآخرين واحداً بعد الآخر بنفس الطريقة.. حتى الأماكن الحساسة للبنات الناحبات وسط لهيب السياط وصيحات الأسرى .. بعد ذلك أجبروهم على أن يتقافزون لأعلى ولأسفل.. وبعد مراقبتهم خطا (الطوبوب) ذو الشعر الأبيض و(الطوبوب) ذو الندب على وجهه بعيداً بعض الشئ.. وتكلما فى صوتٍ منخفض.. ثم عادا وأشار (الطوبوب) ذو الشعر الأبيض إلى (طوبوبٍ) آخر بإصبعه نحو فتاتين وأربعة رجالٍ كان (كونتا) واحد منهم.. بدا (الطوبوب) مندهشاً وهو يشير إلى الآخرين بطريقة تضرع.. ولكن الرجل ذا الشعر الأبيض هز رأسه بحزم.. وجلس (كونتا) مُكبلاً فى قيوده.. ورأسُهُ يوشك أن ينفجر من الغضب.. بينما (الطوبوب) يجادل بحرارة.. وبعد فترة كتب الرجل ذو الشعر الأبيض فى اشمئزاز شيئاً ما على قطعة من الورق قبلها (الطوبوب) الآخر فى غضب.

صارع (كونتا) وصرخ فى غضب عندما أمسك به الخونةُ السود مرةً ثانيةً.. وصارعوه حتى يجلس فى وضع كان فيه ظهره مُقوساً يراقب.. وعيناه متسعتان من الرعب.. و(الطوبوب) يسحب من النار سيخاً حديدياً طويلاً ورفيعاً.. كان الرجل ذو الشعر الأبيض قد أحضره معه.. انفجر(كونتا) صارخاً يتلوى عندما طبع السيخ الحديد المحمي على كتفيه.. ثم ترددت صرخات الآخرين واحداً تلو الآخر .. كان السيخُ يحمل ختماً مكتوبُ عليه علامة((llثم دُهِنَت العلامة التى أصبحت بارزةً بزيت النخيل الأحمر.. وطبعت ثانيةً على ظهورهم.

وخلال ساعة كانوا يجرون أقدامهم فى صف واحد مربوطين بالسلاسل التى كانت تصدرُ صليلاً عالياً ومعهم الخونة السود مستعدون لأن يلهبوا ظهر أى واحد يسقط منهم أو يتعثر.. أو يتلكأ بالسياط.. كان ظهر (كونتا) مخططاً بالجروح الدامية عندما وصلوا فى وقتٍ متأخر من تلك الليلة إلى الزوارق المخفية تحت أشجار المنجاروف الكثيفة على ضفتي النهر.. قسموهم إلى مجموعتين.. وأخذوا يجدفون خلال الظلام تحت توجيهات الخونة السود و(الطوبوب) يضرب بالسياط عند أول بادرة للمقاومة.

عندما شاهد (كونتا) شكلاً كبيراً داكناً يبدو فى الأمام وسط الليل شعر أن هذه هى آخر فرصة له.. قفز واندفع وسط الصيحات والصرخات حوله.. وأوشك أن يقلب القارب فى صراعه للقفز من فوق سطحه.. ولكنه كان مربوطاً بالآخرين.. ولم يستطع أن يُتم قفزته.. كان تقريباً لا يحس بضربات السياط وعصي فروع الأشجار على كل جسده.. وعندما اصطدم الزورق بجانب الشئ الضخم الداكن.. ورغم الآلام كان يستطيع أن يحس بالدم الدافئ ينساب على وجهه.. سمع من فوق ذلك الشيء صيحات العديد من (الطوبوب).. ثم لُفت الحبال حول جسده.. وأصبح بلا حولٍ ولا قوة.. عاجزاً عن المقاومة بعد أن جُذِبَ لأعلى سُلمٍ من الحبال غريب الشكل.. كانت لا تزال لديه قوة كافية ليلوي جسده بوحشية فى محاولة جديدة للهرب نحو الحرية.. ومرةً ثانيةً ضُرِبَ بالسياط.. وكانت الأيدي تتلقفه..

وتقبض عليه بقوة.. بينما كانت أصوات النساء وهن ينتحبن تختلط في أذنيه بلعنات (الطوبوب) العالية.. ومن بين رموش عينيه المتورمة ووجهه الدامي.. رأى (كونتا) ذلك (الطوبوب) القصير القامة مع الرجل ذى الشعر الأبيض واقفين فى هدوء يضعان علامات صغيرة فى كتابٍ صغير بقلمٍ قصير عندما شعر بأنه نُزِعَ لأعلى.. ودُفِعَ بعنف خلال مكان مسطح.. ألقى نظرةً على الأعمدة الطويلة الملفوف حولها قماش خشن كانت تلك هى صوارى المركب.. معلقٌ بها الأشرعة.. ثم اقتيد وهو يترنح فى ضعف ليهبط بعض الدرجات الضيقة إلى مكان شديد الظلمة.. وفى نفس اللحظة صدمت أنفه رائحةٌ مقززة بدرجة لا تُصدق.. وسَمِعَ صيحات وأصوات تغذيب .

بدا (كونتا) يتقيأ عندما كان (الطوبوب) ممسكاً بمشاعل خابية صفراء.. وفي إحدى الحلقات قُيِدَ رسيغه.. وكاحليه.. ثم دفعوه للخلف بالقرب من رجلين آخرين يتأوهان.. ووسط ما يشعر به من رعب شعر أن الاضواء التى تظهر فى الجهات الأخرى من المكان تعنى أن (الطوبوب) يأخدون البقية مم اختطفوهم معه ليتم قيد الجميع بالأصفاد فى جانبٍ آخر من نفس المكان.. ثم شعر بأن رأسه يغيب في عالم من التيه.



بين النهار والليل

ومضى وقتٌ لا يدرك (كونتا) مداه.. فقط صوت صرير (الكوة) ذلك الغطاء الذى يفصل ما بين سطح الزورق.. والأسفل أثناء فتحه ذلك فقط ما يخبر (كونتا) إن كان الوقت نهاراً.. أم ليلاً.. وعندما كان يسمعُ صوت الرتاج يُفتح كان يلوى رأسه لينظر لأعلى.. وهي الحركة الوحيدة التى كانت تسمح له بها قيوده من السلاسل والأصفاد.. وبعدها ينزل الأربعة (طوبوب) اثنان منهما مع أضواءٍ كشافة.. وأسواط يحرسان الاثنين الآخرين وهم يتحركون جميعاً فى الطريق المحاط بالدرابزين.. وهم يدفعون حوض الطعام.. وقد يرفعون حللاً من الصفيح مملوءةً بالقذارة من كل اثنين.. وفى كل مرة جاء فيها الطعام كان (كونتا) يطبق فكيه مفضلا أن يموت جوعاً على أن يطعم منه.. إلى أن بدأت آلام معدته الخاوية تكاد تفتك به.. وعندما تمت تغذية هؤلاء الذين عند مستوي (كونتا) أظهرت الأنوار (الطوبوب) ينزل أكثر لأسفل مع بقية الطعام ومرات أقل من أوقات الطعام.. وعادة عندما يكون الليل سائدا بالخارج قد يحضر (الطوبوب) فى المحبس بعض الأسري الجدد يصرخون ويتأوهون فى رعب حيث يُلقى بهم.. ويُضربون بالسياط إلى حيث يتم تكبيلهم بالسلاسل فى الأماكن الخالية على صفوف من الأرفف الخشبية القاسية.

وفى يوم ما بعد وقت الطعام بفترة قصيرة التقطت أذنا (كونتا) صوتاً غريباً مكتوماً.. بدا وكأنه يتذبذب خلال السقف فوق رأسه.. والبعض من الرجال الآخرين سمعوه أيضاً.. وانتهى تأوههم فجأة.. واستلقي (كونتا) ينصت بشدة.. وبدا وكأن أقداماً عديدة تندفع فوق رأسه.. ثم جاء إليهم صوتٌ جديدٌ أقرب كثيراً وسط الظلام.. وكأن شيئاً ثقيلاً جداً بدا يتشقق ببطء شديد من أعلى.

أحس (كونتا) من خلال ظهره العاري باهتزازٍ غريب من خلال اللوح الخشن القاسي الذى استلقي عليه.. كان يشعر بضيقٍ شديد فى صدره وهو مستلقي متجمداً في مكانه .. سمع أصواتاً متصادمة عرف منها أن الرجال بالأعلى يشهقون وهم يشدون سلاسلهم.. ثم بدأ الرعب ينشب مخالبه فى جسده عندما شعر بطريقة

ما أن ذلك المكان الذى يحتويهم يتحرك.. ويأخذهم بعيداً.. بدا الرجال يصرخون من حوله ويتضرعون إلى الله.. ويضربون رؤوسهم في ألواح الخشب.. ويتقلبون فى جنون على أصفادهم الرنانة.. صرخ (كونتا) فى حافة السرير البامبو سأصلى لك يا الله ليس أقل من خمس مرات فى اليوم اسمعني ياربي.. وساعدنى!

كانت صرخات البكاء المؤلمة.. والصلوات المستمرة تأتى من كل مكان خلال الألواح.. وسط الظلام المقزز العفن.. وعرف (كونتا) أنه قد لايري أفريقيا مرةً ثانيةً.. وصرخ بقوة اقتلوا (الطوبوب) والخونة السود مساعديهم!

وبعد فترة كان ينشج فى هدوء عندما انفتحت (الكوة) واندفع (الطوبوب) الأربعة لأسفل ومعهم حوض الطعام.. مرة أخرى ضم فكيه مقاوماً إحساسه بالجوع.. ولكنه وقتها فكرفيما قاله له الـ (كينتاجو) ذات مرة وهو أن المحاربين والصيادين لابد أن يأكلوا جيداً حتى يحصلوا على قوة أكبر من الآخرين.. أن موته جوعاً هو نفسه معناه أن الضعف سيمنعه من قتل (الطوبوب).. لذلك هذه المرة عندما وُضِعت الحلةُ بينه وبين جاره قبضت أصابعه فى الخليط السميك.. كل كمية طعام كان يبتلعها كانت تؤلم حلقه.. ولكنه ابتلع إلى أن فرغت الحلة.. شعر بأن الطعام يتكتل فى بطنه.. وسرعان ما تصاعد إلى زوره.. لم يستطيع أن يمنع تقيؤه الذى اختلط صوته بأصوات تقيؤات الآخرين.. وفجأة سمع صوت رجل يصرخ فى هيستيريا بخليط عجيب من لهجات الـ(مانديكا).. ثم انهالت أسواط (الطوبوب) على الرجل إلى أن سكتت وتلاشت صرخاته.. وتحولت إلى همهمة وأنين.

وسأل (كونتا) نفسه : هل هذا ممكن؟ لقد سمع أحد الأفارقة من بينهم يتحدث بلغة (الطوبوب) ، هل هناك خونة سود بينهم؟

وفجأة سمع ثانيةً صوت صليل سلاسل ثقيلة وصراخ.. ولعنات مريرة من نفس الـ(مانديكا) المصاب بالهستيريا.. وسمع (كونتا) الرجل يصرخ: هل تظن أننى من (الطوبوب)؟

ثم جاء مزيد من الضربات االعنيفة والسريعة والبائسة ثم توقفت الضربات وفى ظلام الفجوة الذين حبسوا فيها جاء صوت صرخات طويلة حادة ثم صوت رهيب يختنق وكانت أنفاس الرجل قد كُتِمت.. ثم بدا صوت صليل السلاسل من جديد.. ثم سمع صوت ركلة أحد الأقدام فى ألواح الخشب ثم ساد الهدوء.

كان رأس (كونتا) يؤلمه.. وقلبه يدق بشدة عندما بدأت الأصوات حوله تصرخ (.. الموت للخائن الأسود.. الموت للخائن الأسود).. وفجأة انفتحت (الكوة) ونزل (الطوبوب) ومعهم كشافات وأسواط كان واضحاً أنهم سمعوا الاضطراب والتمرد في الأسفل.. ورغم أن الصمت المطبق ساد ساعتها المكان كله.. إلا أن (الطوبوب) اندفعوا يصيحون ويضربون بسياطهم يميناً ويساراً.. وبعد أن غادورا دون أن يجدوا الرجل الميت ظل المحبس ساكناً.. لفترة طويلة ثم فى هدوء شديد سمع (كونتا) ضحكة مرحة من نهاية الرف التالى للرف الذى رقد عليه الخائن ميتاً.

كانت وجبة الطعام التالية مكثفة.. وكأنما (الطوبوب) أحسوا بأن شيئاً ما ناقصاً.. وأسواطهم سقطت أكثر من المعتاد.. تلوي (كونتا) وصرخ عندما شعر بكتلة من الألم تسقطُ على ساقيه.. وتعلم أنه حينما لا يصرخ من الضرب.. فإنهم سيكيلون له ضرباً زائداً وقاس إلى أن يصرخ.

بعدها سَمِعَ (كونتا) صوت الأصفاد الحديدية والسلاسل وهي تُفتح.. ثم حمل اثنان من (الطوبوب) جسم الرجل الميت وجراه عبر الممر.. ومنه إلى الفتحة.. لأعلى السطح.

بعدها صعد أربعةٌ آخرون من (الطوبوب) خلال (الكُوة) وذهبوا مباشرةً إلى حيث ارتفعت الأنوار عالياً.. وبسباب عنيف أرسل اثنان من (الطوبوب) سوطيهما وهما يصفران على أحد الرجال..

ورغم إصرار المضروب فى البداية على ألا يصرخ.. فإن مجرد الإنصات إلى قوة الضربات كانت تسبب مايشبه الشلل لــ (كونتا).. فقد كان يستطيع أن يسمعه وهو يتخبط فى سلاسله.. ثم وهو ينازع الموت من العذاب بسبب تصميه على عدم الصراخ.

عاد ذهن (كونتا) بسرعة إلى قبيلة (الفولاة) الهادئين اللطفاء كانوا يرعون ماشية الـ(مانديكا) وكانت أصوات السياط مستمرة إلى أن سقط الرجل المضروب وهو يرفرف كالدجاجة المذبوحة ثم رحل (الطوبوب) الأربعة وهم يلعنون ويشهقون.

ارتجفت تأوهات (الفولاة) داخل المحبس المظلم.. ثم بعد فترة نادى صوت واضح بلغة الـ(مانديكا): لنتشارك فى هذا الألم لابد أن نكون فى هذا المكان كقرية واحدة كان الصوت يخص شخصاً أكبر سناً.. وكان على حق.. لقد كانت آلام (الفولاة) وكأنها آلامه.. وأحس بنفسه على وشك أن ينفجر غضباً.. وأحس بالرعب يقسم أوصاله.. وبدا وكأنه ينتشر من نخاع عظامه.. أراد أن يعيش لينتقم من ذلك.. أجبر نفسه أن يستلقي ثابتاً تماماً.. لقد استغرق الأمر فترة طويلة.. ولكنه فى النهاية شعر أن حيرته وضياعه وحتى آلام جسده قد بدأت تخف.. فيما عدا المكان مابين كتفيه حيث أُحرِقَ بالسيخ الحديدي المحمي.. ووجد أن عقله يمكن أن يركز الآن أفضل على الاختيار الوحيد الذى أمامهم جميعاً.. إما أن يموتوا جميعهم فى هذا المكان الكابوس.. أو عليهم القيام بطريقةٍ ما للتغلب على (الطوبوب) وقتلهم .

***

كانت العضات اللاسعة.. والبراغيت.. وقرصات قمل الجسد تزداد باستمرار بعد تضاعف أعدادها بالآلاف إلى أن سرت فى كل أجسام المحبوسين.. وكانت أكثر سوءاً فى الأماكن التى ينمو فيها الشعر من الجسد.. وكان(كونتا) يشعر تحت إبطيه وعند عانته وكأن النيران تشتعلُ فيها.. وكانت يده المحررة تهرش باستمرار وثبات فى كل الأماكن التى تصل إليها.. وظل يحافظ على فكرة القفز والجري بعيداً.. ثم بعدلحظة كانت عيناه تمتلئان بالدموع من الإحباط ويتصاعد الغضب داخله..

وأحياناً يقاومه إلى أن يشعر ببعض الهدوء.. وأسوأ شيءٍ كونه لا يستطيع أن يتحرك إلى أى مكان.. ويشعر بأنه يريد أن يعض أغلاله.. وقرر أنه عليه أن يحفظ لنفسه تركيزه على شيءٍ ما يشغل عقله.. وإلا فإنه سيصاب بالجنون مثلما حدث لبعض الرجال الملقون فى المحبس.. ويبدو واضحاً من صراخهم.

وبمزيد من التدريب على الإنصات بانتباه للأصوات المتكررة اكتشف أن أذنيه بعد فترة تستطيع أن تميز أماكن الناس بدقة.. لقد كان إحساساً خاصاً ومثيراً أن يجعل أذناه تعملان بدلاً من عينيه.. ومن حينٍ لآخر.. وبين اللعنات والزمجرات التى تملا الظلام.. سمع ارتفاع رأس رجل على الألواح المستلقى عليها.. وكان هناك ضجة غريبة.. وكانت تتوقف على فترات.. ثم تُستأنف بعد فترة.. وكانت تبدو وكأن قطعتين من المعدن تحتكان ببعضهما بقوة.. وبعد أن سمع (كونتا) المزيد منها تصور أن شخصاً ما يحاول أن يفصلها عن بعضها.. وكثيراً ما سمع (كونتا) أيضاً صياحاً مقتضباً.. وصلصلة السلاسل عندما يتعارك رجلان معاً.. وبعد سماع المزيد منهما كان يتصور أن شخصاً ما يحاول أن يضرب الآخر بالسلاسل.. ويحطمان كل منهما الآخر.

فقد (كونتا) متابعته للوقت لقد كان البول والبراز والقئ الذي يسيل فى كل مكان حوله.. قد انتشر فى شكل عجينة لزجة تغطي الألواح السميكة من الخشب التى تكون الأرفف التى يستلقي عليها.. وعندما فكر فى أنه لم يعد يتحمل أكثر من هذا جاء ثمانية من (الطوبوب) لأسفل.. من فتحة (الكوة) يلعنون الرجال بصوتٍ عالٍ.. وبدلاً من وعاء الطعام الروتينى المعتاد كانوا يحملون ما بدا أنه نوع من المعازق طويلة اليد.. وأربعة أحواض واسعة.. ولاحظ (كونتا) فى دهشة أنهم لايرتدون أى ملابس على الإطلاق .

بدا (الطوبوب) العُراة فى الحال فى التقيؤ.. وعلى ضوء مصابيحهم قفزوا بطول الممر.. وبسرعة دسوا المعازق فى الأرفف.. وأخذوا يكشطوا القذارات.. ثم وضعوها فى الأحواض.. وكلما امتلأ حوضٌ كان (الطوبوب) يسحبونه للخلف عبر الممر.. ويدفعونه أعلى الدرج خلال (الكوة) ليفرغوه بالخارج.. وبعدها يعودون.. كان (الطوبوب) يتقيأون وقد التوت وجوههم بعنف..

وغُطِيَت شعورهم وأجسادهم بكتل من القاذورات التى كانوا يكشطونها من فوق الأرفف.. ولكن عندما انتهوا من مهمتهم ورحلوا لم يحدث أى اختلاف فى نتانة المحبس الحار الخانق والرهيب.

وفى المرة التالية عندما نزل أكثر من الأربعة (الطوبوب) المعتادين مع أحواض الطعام.. خمن (كونتا) أن هناك أكثر من عشرين منهم يهبطون درجات المحبس.. فاستلقي وهو متجمد في مكانه .. وأدار رأسه هنا.. وهناك.. واستطاع أن يري بعضهم كان حاملاً أسواطاً.. وبنادق.. يحرسون الباقين وحاملين المصابيح عالياً عند نهاية كل رف من الرجال المقيدين بالسلاسل.

ازدادت عقدة الخوف فى بطن (كونتا) وقد بدا يسمع أصواتا غريبة متصادمة ثم صوت صليل ثقيل ثم بدا كاحله الأيمن المربوط يهتز.. وأدرك برعبٍ صاعق أن (الطوبوب) يطلقون سراحه .لماذا؟ ما هو الأمر الرهيب الذي سيحدث الآن؟ استلقي ثابتاً ولم يعد يحس بكاحله الأيمن.. وبثقل السلاسل عليه.. تصنت فيما حوله.. فسمع أصوات صليل السلاسل وقد انتزعت.. ثم بدا (الطوبوب) يصيحون.. ويلهبونهم بالسياط.. عرف (كونتا) أن ذلك يعني بالنسبة لهم أن يهبطوا لأسفل من فوق رفوفهم.. انضمت صيحته التحذيرية إلى صياح بمختلف اللهجات عندما رفع الرجال أجسادهم لأعلى.. ورؤوسهم تصطدم بألواح السقف.

انهالت السياط لأسفل وسط صرخات الألم حيث أُخِذَ كل زوجين من الرجال يتعثران لأسفل إلى الممر.. احتضن (كونتا) وزميله فى القيد من قبيلة (الولوف) كل منهما الآخر على الرف حيث هزتها الضربات من السياط لأمام بطريقة مؤلمة ثم قبضت أيدٍ بوحشية حول كواحلهم.. وسحبتهم عبر الرف المغطي بالقاذورات الآدمية.. وألقتهم وسط الكتلة المتشابكة من الرجال الآخرين فى طريق الممر.. وكلهم يصرخون تحت سياط (الطوبوب).. اخذوا يتألمون.. ويصرخون من الألم.. ولمح (كونتا) أشباحاً تتحرك ضد الضوء من (الكوة) المفتوحة..كان (الطوبوب) يشدون الرجال ليقفوا على أقدامهم..كل زوجين بعد الآخر..

ثم يضربونهم ويزيحونهم وهم يتعثرون فى الظلام نحو الطريق المؤدي إلى درجات (الكوة).. شعر (كونتا) بأن ساقيه منفصلتان عن بقية جسده.. وهو يترنح بطول الممر بجانب (الولوف) وقد رُبطا معاً من رسيغهما وهما عاريان.. وتغطيهما البقايا البشرية وهما يتوسلان.. وهنا صدم ضوء النهار المبهر لأول مرة بعد خمسة عشر يوماً تقريباً عيني (كونتا) وكأنما مطرقة نزلت فيما بين عينيه.. تدحرج تحت تأثير الألم.. ورفع يده الحرة بسرعة ليغطي عينيه.. عرف عن طريق قدميه الحافيتين أنه مهما كان النوع الذي يسيرون فوقه فإنه يتحرك ببطء من جانب لآخر.. ترنح للأمام كالأعمى.. ويداه مكبلتان بالأصفاد.. وفتح رموشه ليسمح ببعض الضوء المزعج محاولاً دون جدوى أن يتنفس من خياشيمه المسدودة تقريباً بالمخاط.. فتح شفتيه المشققتين قليلاً.. وأخذ نفساً عميقاً من هواء البحر لأول مرة فى حياته.. تقلصت رئتاه من نقاء هواء البحر.. ثم زجف صاعداً إلى سطح السفينة وهو يتقيأ بجانب رفيق القيود.. كان كل ما يسمعه من حوله هو التقيؤ.. وصليل السلاسل والسياط تنزل على اللحم.. وصرخات الألم وسط صيحات (الطوبوب) ولعنات من أصوات غريبة فوقهم.

عندها سقط سوط على ظهره مرة ثانيةً تقلص (كونتا) على نفسه بجوار أحد الجوانب وهو يسمع رفيقه (الولوف) يشهق عندما سقط السوط عليه.

وظل السوط يمزقه إلى أن استطاع بطريقةٍ ما أن يقف على قدميه.. فتح عينيه محاولاً الهروب من تلك الضربات.. ولكن آلاماً جديدة سيطرت على رأسه عندما أمسك بها أحدهم بقوة.. ووجه رأسه إلى حيث يمكن لـ (كونتا) رؤية الـ (طوبوب) الآخرين وهم يمررون السلاسل خلال الحلقات حول كاحل كل رجل.. كانت أعداد الـ (طوبوب) كبيرة..

وفى ضوء الشمس الساطع بدوا أكثر شحوباً.. وبشاعة.. وجوههم انتشرت فيها ثقوب الأمراض.. وشعرهم غريب الألوان سواء الأصفر.. أو الأحمر.. والبعض منهم ملتحين.. وبعضهم كانوا نِحافاً بارزي العظام.. والآخرون سِمان.. والبعض لديهم ندوب قبيحة فى وجوههم نتيجة ضربات المدى.. أو فاقدى يداً.. أو ساقاً.. أو ذراعاً.. وظهور العديد منهم مغطاة بندوب من آثار جروح السياط.

كان العديد منهم يمسكون سياطاً وسكاكين طويلة.. أو نوعاً معيناً من العِصي المعدنية الثقيلة بها ثقب فى نهايتها.. رفع (كونتا) رأسه لأعلى نحو الأصوات المتلاطمة أعلاه ورأى أنها آتيةً من قماشٍ عملاقٍ أبيض يرفرف بين أعمدة ضخمة وعديدٍ من الحبال.. بدت القماشة مملوءة بالهواء استدار (كونتا) حوله فرأى حاجزاً عالياً من البامبو أطول من أى رجلٍ وقد امتد عبر اتساع السفينة الضخمة.. ظهرت فى وسط الحاجز فجوة رهيبة لشيءٍ هائل مخيف المنظر من المعدن به ثقب طويل وسميك ورؤوس العديدمن العصي المعدنية من النوع الذى كان (الطوبوب) يمسكون بها على طول الطريق.. وكان الشئ الضخم والعصي موجهة إلى حيث تجمع هو والآخرون وهم عراة.

عندما ربطت قيود كواحلهم بالسلاسل الجديدة أتيحت لــ (كونتا) الفرصة أن يلقي نظرة جيدة على رفيق القيد (الولوف) لأول مرة.. كان الرجل مثله ملوثاً بالقاذورات من رأسه لقدميه.. وبدا أنه من عمر والده (أمورو) وكان له نفس ملامح القبيلة الكلاسيكية.. وكان أسود اللون.. فاحم السواد.. كان ظهر (الولوف) يُدمي من أثر جروح السياط التى نزلت عليه.. وكان الصديد ينزل من مكان علامة ((llالتى طُبِعت حرقاً على ظهره..

سرعان ما أزيح الجميع.. وضُرِبوا بالسياط.. كانت توجد سلسلة مربوط بها عشرة رجال أُلقيَّ عليهم دفعات من دلاءٍ مُلِئت بمياه البحر.. ثم جاء طوبوب آخرون ومعهم فُرشاتٍ ذات آيادٍ طويلة.. حيث قاموا بدعك الرجال الذين أخذوا يصرخون.. صرخ (كونتا) أيضاً عندما مس جسده الماء المالح.. وألهبه كالنار فى جروح السياط على ظهره والأماكن المحروقة منه.. صرخ أعلى منهم عندما احتك الشعر الخشن للفرشاة ليس بالقذارة الملتصقة بجسده فحسب.. وإنما بالجروح فنكتأها أسنان الفرشات وفتحتها بعد أن أوشكت أن تلتئم.. رأى الماء معكراً.. وأحمر اللون عند أقدامهم.. ثم اقتيدوا عائدين إلى مركز سطح السفينة حيث أُلقي بهم فى إهمال.

حدق (كونتا) لأعلى فرأى (الطوبوب) يقفزون حول الأعمدة كالقِردةِ وهم يشدون أحبال الأقمشة البيضاء الضخمة.. وأحس بالارتياح لأن جلده تخلص من بعض القاذورات.

فجأة سمعوا صراخاً عاصفاً جعلهم يلتفون لأعلى ليجدوا حوالى عشرين امرأة معظمهن فى سن المراهقة.. وأربعة أطفال جاءوا جرياً وهم عُراة.. ودون قيود من خلف حاجز البامبو أمام اثنين من (الطوبوب) المبتسمين ومعهم أسواطهم تعرف (كونتا) فى الحال على البنات اللاتى أُحضِرن على معه.. وأخذ يراقب فى غضب عارم و(الطوبوب) ينظرون إلى عُريهن.. شعر بقوة بالرغبة في مقاتلة هؤلاء الطوبوب لكن ليس بيده حيلة.. حاول استنشاق الهواء حتى يحافظ على تنفسه.. ويبعد عينيه عن النساء المرعوبات..

ودقت الطبول.. فصاحت أكبر النساء سناً فجأة (اقفزوا) كانت فى سن أم (كونتا) تقريباً ثم بدأت هى نفسها تقفز بعد أن تقدمت للأمام.. وأخذت تصيح ثانيةً وهى ترتجف: اقفزوا.. وهى تحملق إلى البنات والأطفال.. قفز الجميع كما فعلت.. ثم صاحت وعيناها تنتقل بسرعة البرق بين الرجال العراة:

- اقفزوا لتقتلوا (الطوبوب)

كانت ذراعاها وساقاها تتطوح فى حركة رقصة المحاربين.. وعندئذ عندما وصل المعنى الذى تقصده أخذ كل زوج من الرجال المقيدين معاً بالقفز قفزاتٍ ضعيفة ومتعثرة لأعلى وأسفل.. وسلاسلهم تصطدم بسطح السفينة عندما خفض (كونتا) رأسه لأسفل.. رأى دوامة السيقان والأقدام الدائرة.. وأحس هو نفسه بقدميه تخونانه.. وتنفسه يأتي فى شهقات.. ثم انضم إلى غناء الفتيات كان صوتهم سعيداً بالرغم من كل شيء.. ولكن الكلمات التى كانوا يغنونها كانت قاسية.. وتقول وكأنها تخبرهم بشيءٍ ما:

- كم هو رهيب عندما أخذ (الطوبوب) كل امرأةٍ في الظلام.. فى ركن الزورق.. فى كل ليلة.. واستخدموهن كالكلاب.. صحن وهن يبتسمن.. ويضحكن: اقتلوا (الطوبوب).. وانضم الرجال العراة إليهن فى الصياح اقتلوا (الطوبوب) وحتى (الطوبوب) الذين لم يكونوا يفهمون شيئاً كانوا يبتسمون والبعض منهم يصفق بكفيه في سرور.

صاح (الطوبوب) الضخم كالنباح شيئاً ما وأبعِد بقية (الطوبوب) عن الرجال المقيدين بالسلاسل كان يتأرجح فى حزامه حلقة كبيرة من الشئ الأسطوانى اللامع الذى لمحه (كونتا) والآخرون يستخدمونه فى فتح السلاسل.. ثم تحرك الرجل ذو الشعر الأبيض بين العراة وهو يحملق عن قرب إلى أجسامهم.. وكلما رأى جروح السياط وقد تقيحت بشدة أو الصديد ينزل منها أو من عضات الفئران أو الأماكن المحروقة كان يضع عليها بعض الشحم من علبةٍ كان يناولها له الرجل الضخم.. والرجل الضخم نفسه كان ينثر مسحوقاً مصفراً من إناء على الكاحلين والرسغين ويصبح سميكاً ولزجاً ولونه (رمادي) تحت الأصفاد الحديدية.. وعندما تحرك (الطوبوب) بالقرب منه ارتجف (كونتا)خوفاً وغضباً.. ولكن الرجل ذا الشعر الأبيض أخذ يغطي الجروح المتقيحة بالشحم.. والرجل الضخم ينثر المسحوق الأصفر على رسغيه وكاحليه.. ولا واحد منهم أبداً بدا عليه أنه تعرف على (كونتا).. ثم فجأة وسط الصيحات المتصاعدة بين (الطوبوب) كانت إحدى البنات التى أُحضرت مع (كونتا) تقفز فى وحشية بين حراس ممووسين وأخذ العديد منهم يطبقون عليها فدارت بسرعة وهى تصرخ فوق الممر.. وغطست لأسفل وفى فوضي الصياح المجنون انتزع الرجل ذو الشعر الأبيض والرجل سوطين وأخذا فى حرارة وقسوة يلهبان ظهور هؤلاء الذين سمحوا لها أن تفلت من بين أيديهم.

ثم صاح (الطوبوب) الذين كانوا صاعدين فوق القلوع وهم يشيرون نحو الماء استدار العراة نحو ذلك الاتجاه ورأوا الفتاه تقبقب وسط الماء.. ثم أخذ زوجان من الزعانف السوداء تسارعان نحوها .. ثم جاءت صرخة أخرى تجمد الدماء فى العروق.. ثم حدث هرج ومرج فى الماء إلى أن سُحِبَت بعيداً عن الأنظار تاركةً وراءها حمرةً فى الماء..

اقتيدوا جميعًا عائدين إلى المحبس المظلم.. ورُبِطوا بالسلاسل فى أماكنهم..

بعد فترة سمع بالقرب من أذنه اليمني همسة منخفضة انسحب قلب (كونتا) كان يعرف القليل جداً من اللهجة (الولوف) ولكنه لم يكن يعرف اتن (الولوف) والبعض الآخر يستخدمون كلمة جولا لتعني المسافرين والتجار الذين هم عادة من الـ(مانديكا) لوى رأسه قليلا ليقترب من اذن (الولوف) وهمس جولا (مانديكا) ولفترة وهو مستلق فى يقظة لم يرد (الولوف) على الصوت خطر على بال (كونتا) كالبرق أنه لو استطاع أن يتكلم العديد من اللغات مثل شقيقي والده ولكنه خجل لأنه أحضرهما إلى هذا المكان حتى أفكاره همس الرجل الآخر أخيراً .

ولوف جيبو مانجا

وعرف (كونتا) أن ذلك هو اسمه فهمس بدوره . (كونتا كنتى) .

تبادلا الهمس الآن من حين لآخر فى محاولة يائسة للاتصال.. وأخذ كل منهما يلتقط فى ذهنه كلمة من هنا.. وأخرى من هناك بلهجتيهما المتبادلة.. لقد كان الأمر يشبه طريقة تعلمهما لغتهما الأصيلة وهم أطفال.. وخلال واحدة من فترات الصمت بينهما تذكر (كونتا) كيف أنه عندما كان يراقب قردة السعدان فى حقول الفول السودانى ليلاً فإن النيران البعيدة للراعي الفولانى قد تعطيه شعوراً بالارتياح.. وأنه تمني لو أن هناك طريقة ما يستطيع بها تبادل الكلمات مع ذلك الرجل الذى لم يره من قبل.. كان وكأن تلك الأمنية تحققت الآن.

كان كل تعبير ولوف سمعه (كونتا) قد انسحب من ذاكرته وكان يعرف أن (الولوف) يعمل نفس الشىء مع كلمات الـ(مانديكا) التى كان يعرف من كلماتها أكثر مما يعرفه (كونتا) من كلمات (الولوف).. وفى أوقاتٍ أخري من الصمت بينهما كان (كونتا) يحس أن ذلك الرجل الجالس بجواره على الجانب الآخر والذى لم يُصدِرَ أى ضجة سوي التأوه فى ألم كان ينصت بانتباه إليهما.. وأدرك (كونتا) من الهمس المنخفض الذى انتشر بالتدريج فى كل المحبس أنه ما أن يصبح الرجال قادرين فى الحقيقة على أن يري كل منهم الآخر فى ضوء الشمس..

فإنه وزميله فى القيد الحديدي هما الوحيدان اللذان يحاول كل منهما الاتصال بالآخر.. استمر الهمس ينتشر وقد يقع المحبس فى صمت الآن فقط عندما يأتى (الطوبوب) بأحواض الطعام.. أو بفرشهم لتنظيف الأرفف من القاذورات.. ثم كان هناك نوع جديد من السكون قد ينزل فى تلك الأوقات لأول مرة منذ أن أُسروا وأُلقىَ بهم مكبلين بالسلاسل.. وكأنما هناك بين الرجال شعور بأنهم معاً.

***

فى المرة التالية التى أُخِذَ فيها الرجال لأعلى سطح السفينة قرر (كونتا) أن يتحقق من رؤيته للرجل الذى كان خلفه فى الصف.. كان أحد رجال قبيلة (سيريري) وأكبر بكثير فى السن من (كونتا) وكان جسده من الأمام ومن الخلف محفوراً بضربات السياط.. وبعضها كان عميقاً جداً ومتقيح.. حملق الرجل بدوره إلى (كونتا) وقد امتلات عيناه بالغضب والتحدي.. نزل السوط عليهما معاً وهما واقفان ينظر كل منهما للآخر.. وجاء السوط هذه المرة على ظهر (كونتا) يحثه على التحرك قُدُماً.. كانت حنجرته تكتم صرخةً شديدة.. وفقد توازنه مندفعاً نحو (الطوبوب) ليقع متطوحاً ساحباً زميله فى العنبر معه إلى الأرض.. عندها قفز (الطوبوب) فى آخر لحظة بعيداً عنهما.. تحوط الرجال حولهما عندما أخذ (الطوبوب) وقد ضاقت عيناه بالكراهية ينزل السوط تباعاً على الرجلين.. كان وقع السوط على جسديهما مثل السكين القاطع.. وبطريقةٍ ما استطاع الرجلان أن ينهضا لأعلى بين باقى الرجال من حولهم والذين كانوا متجهين ليبدأ علاجهم بماء البحر المالح.

بعد لحظات كانت ملوحة ماء البحر المؤلمة تحرق جروح (كونتا) وانضمت صرخاته مع صرخات الآخرين التى علت صوت الطبلة والآلة الموسيقية النافخة التى بدأت مرة ثانيةً تعطي أنغاماً للرجال المقيدين للقفز والرقص من أجل إمتاع (الطوبوب).. وكان (كونتا) و(وولف) رفيق أسره بالأصفاد ضعيفين للغاية من جراء ضربهما

حتى أنهما كانا يتعثران.. ولكن ضربات السياط جعلتهما ينهضان لأعلى وأسفل بطريقة بلهاء فى سلاسلهم.. كان غضب (كونتا) كبيراً لدرجة أنه لم يكن يشعر بغناء النساء من حوله (اقتلوا الطوبوب) وعندما ربط فى النهاية بالسلاسل مرة ثانيةً فى مكانه فى المحبس المظلم كان قلبه مضطرباً.. ومتعطشاً لقتل (الطوبوب) .

وكل عدة أيام قليلة كان (الطوبوب) الثمانية العراة يحضرون مرة ثانيةً إلى الظلام المقزز ويكشطون القاذورات.. ويملئون أحواضهم بها حتى تكومت على الأرفف حيث يرقد الرجال المكبلون بالسلاسل وكان (كونتا) يرقد وعيناه لا تزالان تحدقان فى شحوب وكراهية تتبع الطوبوب وهو يسب ويلعن عندما ينزلق أحياناً ويقع فى اللزوجة تحت قدميه والتى أصبحت كثيرة الآن بسبب زيادة الاسهال لدي الرجال.. لدرجة أن القاذورات بدأت تسقط من حواف الأرفف لأسفل فى الممرات.. وآخر مرة كانوا فوق سطح السفينة لاحظ (كونتا) رجلاً يعرج فوق ساق مصابة إصابة بالغة.

وقد استخدم رئيس (الطوبوب) الشحم عليها ولكن ذلك لم يفلح.. وبدأ الرجل يعرج بفظاعة طلباً للمساعدة.. وراى (كونتا) ذلك فى ظلمة المحبس عندما ذهبوا فى اليوم التالي إلى سطح السفينة.. كان عليه أن يساعد الرجل على الصعود.. وشاهد عن قرب الساق التى كانت ر(مادي)ة من قبل قد بدأت تفسد.. وتنشر رائحة نتنة.. هذه المرة احتفظوا بالرجل فوق سطح السفينة.. بينما أُنزِلَ الباقون لأسفل.. وبعد بضعة أيام قالت المرأة لبقية السجناء بطريقة غنائها أن ساق الرجل قد قُطِعَتْ.. وأنهم أحضروا إحدي النساء لترعاه.. ولكن الرجل مات فى تلك الليلة.. وأُلقِيَّ به فى المحيط.. ومن وقتها عندما كان (الطوبوب) يأتون لتنظيف الأرفف فإنهم كانوا يسقطون قطعاً حمراء ساخنة من المعدن فى براميل من الخل القوي.. وكانت سحب بخار الحامض تجعل المحبس أو المعقل رائحته أفضل.. ثم سرعان ما تسوى الرائحة النتنة.. كانت رائحة قوية لدرجة جعلت (كونتا) يحس بأنها لن تترك جلده ولا رئتيه أبداً.

استمرت الهمسات كلما زاد (الطوبوب) فى العدد والكثافة حيث لم يكن هناك من يفهم ما يقولونه.. لذا كان الكلام ينتقل همساً من فمٍ.. لأذن.. لفم.. ثم أذن على طول الرفوف إلى أن تصل إلى مسامع أحدٍ منهم يعرف اللغة فيعيد المعني ثانيةً من حيث انتهت عبر الأرفف.. ومن خلال تكرار هذه العملية يومياً أصبح الرجالُ على طول الأرفف وقد تعلموا كلماتٍ جديدة.. بلغات لم يسبق لهم أن تحدثوا بها..

وبذلك نما بين الرجال شعور بالأخوة رغم أنهم كانوا من قري مختلفة وقبائل شتي..

وعندما جاء (الطوبوب) مرة ثانيةً ليسوقهم لأعلى فوق سطح السفينة سار الرجال المقيدون بالسلاسل وكأنهم فى استعراض.. وعندما هبطوا ثانيةً فإن العديد من الرجال الذين يتكلمون عدة لغات استطاعوا أن يغيروا وضعهم فى الصف.. بحيث يتم ربطهم فى نهاية الأرفف.. (الطوبوب) لم يلاحظوا ذلك قط لأنهم إما غير قادرين أو غير مهتمين بالتمييز بين الرجال المقيدين وبعضهم البعض.

وبدأت الأسئلة وإجاباتها تنتشر فى المحبس : إلى أين نحن ذاهبون؟

وقد نتج عن ذلك العديد من التخمينات والمرارة ..

والسؤال منذ متى ونحن هنا؟

ظل محل تخمين إلى أن تُرجمَّ السؤال لرجل كان قادراً على الاحتفاظ بحسابات النهار خلال فتحة تهوية بالقرب من مكان قيده.. وقال : أن عدد الأيام عشر منذ أن أبحرت السفينة الضخمة..

وفى يوم انفجر (كونتا) بالإثارة تقريباً عندما سأل (الولوف) هامساً بسرعة.

هل هناك أحد من قرية جوفور؟

أرسل (كونتا) الرد وهو يلهث: نعم أنه أنا (كونتاكنتي).. استلقي وهو لا يكاد يتنفس من الخوف لمدة ساعة والتى استغرقها الرد حتى يعود: نعم هذا هو الاسم لقد سمعت الطبول من قريته الحزينة .

انهار (كونتا) فى النشيج.. وعقله تجري فيه صور عائلته وكلهم يصرخون وينتحبون ويبكون وطبول القرية تدق أن ابن القرية المدعو (كونتا) يعتبر من الآن قد ذهب بلا عودة.

أيام من الكلام بحثاً عن الإجابات.. كيف يمكن للطوبوب فى هذه السفينة أن يهاجموا ويقتلوا؟ هل هناك أحد يعرف أى شيءٍ يمكن أن يستخدم كسلاح؟ لم يعرف أحد.. وهناك على سطح السفينة لم يلاحظ أحد أى إهمالٍ أو ضعف عن (الطوبوب) يمكن أن يكون مفيداً فى المفاجأة والهجوم؟ مرة ثانيةً لا أحد يعرف.

وكانت أكثر المعلومات فائدة جاءت عن طريق غناء المرأة.. عندما رقص الرجال فى قيودهم وهي حول ثلاثين (طوبوباً) يركبون معهم فى السفينة الضخمة.. ويبدو أن هناك عديدون غيرهم ولكن النساء كن فى وضع أفضل يسمح لهن بحصرهم بدقة.

قالت المرأة أيضاً أنه كان هناك أكثر من طبيب فى البداية من الرحلة.. ولكن خمسة منهم ماتوا.. وقد لفوا فى أقمشة بيضاء.. وأُلقيَّ بهم من فوق سطح السفينة.. بينما قرأ (الطوبوب) ذو الشعر الأبيض من كتابٍ ما.. وغنت النساء أيضاً أن (الطوبوب) غالباً ما كانوا يتعاركون.. ويضرب كل منهم الآخر بضرواة نتيجة لخالافاتهم حول من من الرجال سيستعمل المرأة بعد ذلك.

وبفضل غناء النساء لم يكن يخفى شيءٌ كثيراً على سطح السفينة.. كان سريعاً ما ينتقل ما يقال للرجال الراقصين فى قيودهم.. والذين عندما يستلقون أسفل فى محبسهم كانوا يتناقشون فيما بينهم حول ما سمعوه.

ثم جاء خبر مثير بأن عدد الرجال المقيدين بالسلاسل على الأقل ستون رجلاً..

كان الرجال يتكلمون عن عوائلهم.. وقُراهم.. ومهنهم.. ومزارعهم.. وصيدهم.. وشيئاً.. فشيئاً زادت المجادلات حول كيف يقتلون (الطوبوب)؟ ومتى تتم المحاولة؟

وقد شعر بعض الرجال أنه مهما كانت التبعات لابد من مهاجمة (الطوبوب) عندما يأخذونهم لأعلى عند سطح السفينة.. والبعض الآخر شعر أنه قد يكون من الأكثر حكمةً مراقبة وانتظار اللحظة المناسبة.. وبدأت بينهم مجادلات مريرة.. وقوطعت إحدى المناقشات فجأة عندما رن صوت رجل أكبر سناً قائلاً للجميع: اسمعونى.. رغم أننا من قبائل مختلفة.. ولغات متنوعة.. تذكروا أننا نفس الشعب.. ويجب أن نكون مثل قرية واحدة معاً فى مكان واحد.

انتشرت همسات الموافقة بسرعة بينهم.. كان ذلك الصوت قد سبق أن سُمع من قبلُ وهو يعطي النصيحة فى أوقات الإحباط الخاصة.. لقد كان صوتاً ذا خبرة وسلطة وحكمة على السواء.

سرعان ما انتقلت المعلومة بين الجميع بأن المتحدث كان حكيم قريته.. وبعد مرور بعض الوقت تحدث ثانيةً قائلاً : الآن أنه لابد من العثور على قائدٍ ما.. ما والموافقة عليه.. وخطة الهجوم لابد أن تُقترح ويُوافق عليها من قبل أن يفقدوا أى أمِل فى التغلب على (الطوبوب) الذين كان من الواضح أنهم منظمون جيداً.. ومثقلون بالأسلحة فى نفس الوقت.. ومرة ثانيةً امتلأ المحبس بهجمات الموافقة.

بدأ إحساس (كونتا) يقل بالرائحة الكريهة للفضلات الآدمية.. وحتى بالقمل.. والفئران.. ثم سمع عن الخوف الجديد الذى انتشر حول أنه لا يزال هناك خائن أسود آخر يُعتقد أنه بين الرجال فى الأسفل.. لقد غنت إحدى النساء حول أنها كانت من بين المجموعة من الرجال المقيدين الذين ساعد ذلك الخائن الأسود لإحضارهم معصوبي الأعين على الزورق.. وأنها رأت الطبيب يعطي ذلك الخائن الأسود مشروباً شربه إلى أن ترنح سُكراً.. ثم أخذ (الطوبوب) جميعهم يضجون بالضحك.. ومصارعته إلى أن فقد الوعي.. وجروه وألقوا به فى المحبس.. غنت المرأة رغم أنها غير قادرة على إعطاء أى مواصفات محددة لمعرفة وجه ذلك الأسود.. إلا أنه بالتأكيد معهم بالأسفل.. ومقيد مثله البقية.. ويعيش فى رعب من أن يُكتشفُ أمره ويُقتل..

لأنه يعلم أن أحد الخونة سبق أن قُتِلَ بالفعل.. وقد تناقش الناس فى المحبس حول احتمال أن ذلك الخائن أيضاً قادرُ على الكلام ببعض لغة (الطوبوب) وأنه فى يأسه.. ومحاولته إنقاذ نفسه قد يحاول تحذير (الطوبوب) من أى تخطيط هجومى.. خطر على بال (كونتا) وهو يهز أصفاد ه أمام جرذ ضخم لماذا عرف القليل عن الخائن حتى الآن لقد كان ذلك بسبب أن أحداً منهم لم يكن ليجرؤ أن يعيش بين الناس فى القري حيث أن أى شكوكٍ حول هويتهم يمكن أن تؤدى إلى موتهم فى الحال.

فهم (كونتا) لماذا كان الرجال الأكبر سناً قلقين حول سلامة القرية.. لقد كانوا يعرفون أن العديد من الخونة فى (جامبيا) فكر (كونتا) الآن حول بنت قريته التى اختُطِفت بواسطة (الطوبوب) ثم هربت إلى مجلس الحكماء تريد أن تعرف ماذا تفعل حول ابنها مجهول الأب وتساءل ماذا قرر مجلس الحكماء بالنسبة لها أن تفعله.

لقد عرف الآن أن القليل من الخونة السود فقط زودوا زوارق (الطوبوب) ببضائع مثل الفيلة الزرقاء والذهب وأنياب الفيلة.. ولكن هناك المئات من الآخرين ساعدوا (الطوبوب) فى حرق القري.. وأسر الناس.. وبعض الرجال قالوا كيف أنهم كانوا يغرون الأطفال بقطع السكر.. ثم يلقوا بأجولةٍ فوق رؤوسهم.. ويخطفونهم.. ويضربونهم بلا رحمة أثناء السير والأسر.

استلقي هناك فى الظلام وهو يسمع صوت والده يحذره فى قسوة هو وشقيقه (لامين) الصغير ألا يتجولا بعيداً فى أى مكان بمفردهما.. وتمني (كونتا) فى يأس لو أنه سمع تحذيرات والده.. وسقط قلبه فى قدميه عندما أدرك أنه لم يعد قادرا أبداً مرة أخري على الاستماع إلى صوت أبيه.. وأنه خلال ماتبقي من حياته عليه أن يفكر فى نفسه.

(كل شئ يسير بمشيئة الله)..

كانت هذه الحكمة التى نطق بها الحكيم ذلك الرجل المستلقي على جانبه الأيسر.. ثم انتقلت من فمٍ.. إلى أذن.. وعندما وصلت إلى (كونتا) أدار راسة ليهمس بتلك الكلمات إلى رفيق قيوده (الولوف) .

بعد لحظة أدرك (كونتا) أن (الولوف) لم يهمس بالكلمات للرجل التالي.. وبعد أن تعجب من ذلك لفترة ظن أنه ربما لم يقلها بوضوح.. لذلك بدأ يهمس بالرسالة مرةً ثانيةً.. ولكن فجأة صاح (الولوف) بصوت عال كاف لأن يسمع فى كل المحبس .

إذا كانت هذه إرادة الله فامنحني الشيطان!

ومن مكان آخر فى الظلام جاءت صيحات عالية بالموافقة على ماقاله (الولوف) وانفجرت المجالات هنا وهناك.

صدم (كونتا) بشدة وكان إدراكه المذهل أنه مستلق مع ملحد.. تحرك عقله.. لقد كان الإيمان بالله غالياً عليه مثل الحياة نفسها.. وحتى الآن لقد احترم الصداقة والحكمة عند شريكه فى القيد.. ولكن (كونتا) عرف الآن أنه لا يمكن أن توجد صداقة بينهما مستقبلاً .

التخطيط للتمرد

فوق سطح السفينة كانت النساء يغنين حول استطاعتهن سرقة القليل من السكاكين وأشياء أخرى يمكن استخدمها كأسلحة وإخفاءها.. وفى المحبس في الأسفل انقسم الرجال أكثر من ذى قبل إلى فريقين أو معسكرين.. وكان قائد المجموعة التى تحبذ مهاجمة (الطوبوب) دون تأخير من (الولوف) وكان وحشي القسمات.. وجهه تعلوه الندوب.. كان الجميع يصفقون له على سطح السفينة وهو فى سلاسله ينظر بوحشية ويجز أسنانه الحادة أمام (الطوبوب).. والفريق الآخر اعتقدوا أن الحكمة تقتضى مزيداً من المراقبة والاستعداد.. وكان قائدهم في ذلك هو الرجل الأسود المائل للإصفرار من قبائل (الفولاه) والذي ضُرِبَ لأنه خنق الخائن وقتله.

كان هناك القليلون من اتباع (الولوف) الذين أعلنوا أنه لا بد من مهاجمة (الطوبوب) بينما هم موجودن معهم فى الأسفل.. حيث تكون المفجأة أعظم.. ولكن الآخرين تخوفوا من كون مجموعة (الطوبوب) الأكثر سيظلون فوق سطح السفينة.. وبالتالى فهم قادرون على قتل الرجال المقيدين أسفل فى المحبس مثل الجرذان.

وأحياناً عندما يصل الجدال مابين (الولوف) و(الفولاه) إلى نقطة الصياح فإن الحكيم يتدخل ويأمرهم أن يبقوا أكثر هدوءاً.. وإلا فإن (الطوبوب) سيسمعون مناقشاتهم.

وأياً كان رأى القائد الذي سيسود فى النهاية فإن (كونتا) كان مستعداً أن يقاتل معه حتى الموت.. فقد أصبح الموتُ لا يشكل أى خوف بالنسبة له.. وما أن يتذكر أنه لن يستطيع أن يري عائلته وبيته فإنه يشعر وكأنه ميت بالفعل.. وكان خوفه الوحيد هو أنه قد يموت دون أن يموت أحد (الطوبوب) على **الأقل** بيديه.. ولكن القائد الذي كان يميل إليه (كونتا) أكثر كان الأكثر حذراً.. والمغطي جسده بالسياط من قبيلة (الفولاه) لقد اكتشف (كونتا)

الآن أن معظم الرجال فى المحبس من الـ(مانديكا) وكان كل (مانديكا) يعرف جيداً أن شعب (الفولاه) معروف عنهم قضاء سنوات بل أحياناً عمرهم كله من أجل الانتقام لأى خطأ صغير ارتُكِبَ فى حقهم.. وإذا قتل أحدهم (فولاه) وهرب فإن **أبناء** (الفولاه) لن يستريحوا يوماً واحداً حتى يجدوا القاتل ويقتلوه.

وهنا قال الحكيم واعظاً:

يجب أن نكون جميعاً صفاً واحداً خلف القائد الذى نوافق عليه.. سرت همهمات غاضبة بين هؤلاء الذين يتبعون (الولوف) ولكن أصبح واضحاً أن معظم .

الرجال ساندوا (الفولاه) الذى أصدر فى الحال أول أوامره.. وقال :

- يجب أن ندرس كل حركة من (الطوبوب) بعيون الصقر.. وعندما يحين الوقت يجب أن نكون محاربين.

ونصحهم نصائح المرأة التى أخبرتهم أن يبدوا سعداء عندما يقفزون إلى السطح بسلاسلهم.. وهذا قد يجعل (الطوبوب) يسترخون فى حراستهم مما يجعل الأمر أيسر عليهم.. فيأخذونهم على حين غرة.

وقال (الفولاة) أيضاً أن على كل رجل إذا رأى بعينيه أى شيءٍ يشبه السلاح أن يقبض عليه بسرعة ويستخدمه.. كان (كونتا) مسروراً جداً من نفسه لأنه من خلال الأوقات التى كان يقضيها فوق سطح السفينة كان قد حدد بالفعل (مهمازاً) مربوطاً بارتخاء تحت مايشبه القضيب.. ونوي أن ينزعه ويستخدمه كرمح يطعنه فى بطن أقرب (طوبوب).

وكلما يرفع (الطوبوب) (الكوة) ويفتحونها ويهبطون بينهم وهم يصيحون ويطوحون بأسواطهم فى الهواء كان (كونتا) يستلقي ثابتاً مثل حيوان الغابة متذكراً ما قاله (الـ (كينتاجو) أثناء تدريب الرجولة أن على القناص أن يتعلم ماعلمه اللهُ للحيوانات..

كيف يختبئ ويراقب الصياد الذي يسعي إلى قتله.. وتذكر الأوقات التى كان فيها (الطوبوب) يضحك وهو يضرب الرجل بالسياط خاصة هؤلاء الذين غُطِيَت أجسامهم بالتقيحات الفظيعة.. وتقززهم وهم يزيلون القيح بالسياط والذي وقد يتناثر عليهم.. استلقي (كونتا) فى مرارة شديدة وهو يتخيل (الطوبوب) فى ذهنه وهم يغتصبون النساء فى الزوارق فى ظلام الليل.. وأصوات النساء وهن يصرخن.. وتساءل: أليس لدى (الطوبوب) نساء من نوعهم؟ هل لهذا السبب كانوا يجرون كالكلاب وراء النساء الآخر يات؟ لقد بدا أن (الطوبوب) لا يحترمون شيئاً على الإطلاق.. ويبدو أنه ليس لديهم أى آلهةً.. ولا حتى أرواح يعبدونها.

الشئ الوحيد الذى كان يمنع (كونتا) من التفكير في (الطوبوب) وضرورة قتلهم هى الجرذان التى أصبحت أكثر جرأة وجسارة كل يوم عن الآخر.. وكانت شوارب أنوفها تتلاعب بين ساقي (كونتا) وهى ذاهبة لتعض جرحاً متقيحاً يدمي.. بينما كان القمل يفضل أن يقرصه فى وجهه.. ويمتص السائل فى ركني عيني (كونتا).. أو المُخاط النازل من خياشيمه.. وقد يهرش جسده بأصابعه محاولاً أن يسحق القمل الذي قد يكون موجوداً تحت أظافره.. ولكن الأسوأ حتى من القمل والجرذان كان الألم فى كتفه وكوعيه وفخديه.. والذى كان يؤلمه كالنار بسبب أسابيع من استمرار حك جسده على الألواح الخشنة تحته.. لقد رأى بقع الجرب على أجساد الآخرين عندما يكونون فوق السطح.. وكانت صرخاته هو تنضم إلى صرخاتهم عندما كانت السفينة تهتز أكثر من المعتاد.. ورأى (كونتا) أنه عندما يكونون فوق سطح السفينة فإن بعض الرجال يبدأون في التصرف مثل الأفعي المقدسة عند البوذيين.. وقد كست وجوههم نظرات تقول أنهم لم يعودوا خائفين.. لأنهم لم يعودوا محتمين أن كانوا سيعيشون أو سيموتون.. حتى عندما كانت تلهبهم سياط (الطوبوب) فإن ردود أفعالهم تكون بطيئة.. وعندما تُكشطُ من أجسادهم القاذورات كان معظمهم غير قادر

حتى على القفز بقيوده.. وكان كبير (الطوبوب) الأبيض الشعر ينظر فى قلق ويأمر الآخرين أن يسمحوا لهؤلاء الرجال بالجلوس واضعين رؤوسهم بين سيقانهم.. والسائل الرفيع الوردي ينسال من ظهورهم المقروحة.. ووقتها قد يجبر كبير الطبوب هؤلاء الرجال على رفع رؤوسهم للخلف ويدخل فيها عنوة مادةً ما عادةً ما كانوا يلفظونها.. والبعض منهم قد يسقط على جنوبهم عاجزين غير قادرين على الحركة.. وقد يحملهم (الطوبوب) عائدين بهم إلى المحبس.

ولكن طاعةً لأوامر الـ(فولاه) حاول (كونتا) ومعظم الرجال الآخرين أن يظلوا متظاهرين بالسعادة وهم يرقصون فى سلاسلهم رغم الجهد.. كان ذلك يجعل (الطوبوب) أكثر استرخاءاً كما أن عدداً أقل من ضربات السياط كانت تسقط على الظهور.. وكان يُسمحُ لهم بالبقاء فوق سطح السفينة الذي تغمره أشعة الشمس لفترات أطول عن ذي قبل.. وبعد تحمل دلاء الماء المالح وعذاب فُرش التنظيف.. كان (كونتا) والرجال يجلسون للراحة على أفخاذهم.. ويرقبون كل حركة للـ(طوبوب) وكيف أنهم عادة ما يوزعون أنفسهم على مسافات بطول الممرات.. وكيف أنهم عادةً ما كانوا يحتفظون بأسلحتهم قريبة جداً منهم ليمسكوها فى الحال.. وكانوا يسندون بنادقهم على قضبان سور السفينة.

ومرة عندما كانوا أسفل فى المحبس تحدث الحكيم عن فكرة أتته قائلاً:

- لو أن هؤلاء (الطوبوب) قتلوا فمن سيقود الزورق؟

ورد (الفولاه) القائد أن هؤلاء (الطوبوب) يحتاجون إلى أن يأخذوهم أحياء والرماح عند حلوقهم ويعيدوننا إلى الأرض وإلاماتوا .

ثم فى يوم ما فوق السفينة وقف الناس المكبلون بالسلاسل فجأة مزروعين فى دهشة.. وحملقوا مع (الطوبوب) نحو سرب من السمك الطائر ملأ الجو فوق الماء مثل الطيور الفضية.. كان (كونتا) يشاهد الموقف وهو مذهول عندما سمع فجأة صرخة.. دار حول نفسه بسرعة ورأى (الولوف) الموشوم المتوحش

وهو يقوم ينزع عصا معدنية من (الطوبوب) أطاح بها فى الهواء كغصن شجرة وأرسل بضربةٍ واحدة مخ (الطوبوب) متناثراً على سطح السفينة.. وصرع آخر.. وتم ذلك بسرعة هائلة لدرجة أو (الولوف) الذى كان يضرب فى هياج خامس طوبوب انغرس سلاح سكين طويل فى كتفيه فجأة.. وقطعت رأسه تماماً لدرجة أنها سقطت على الأرض قبل جسده.. وتناثرت الدماء من عروقها.. وكانت عيناه فى وجهه مازالتا مفتوحتين وتنظران فى دهشة.. وبين صيحات الرعب تجمع المزيد من (الطوبوب) عند المشهد مندفعين من الأبواب وينزلقون فوق الصواري والقلوع البيضاء.. وعندما صرخت النساء تكوم الرجال المقيدون بالأصفاد فى حلقة .

أطلقت العصي المعدنية نيراناً ودخاناً.. ثم انفجر برميل أسود ضخم بصوت كالرعد.. وسحابة خانقة من الحرارة والدخان حامت فوق رؤوسهم.. وأخذوا يصرخون.. وزحفوا كل منهم فوق الآخر فى رعب.

ومن وراء الحاجز التصق الرئيس ذو الشعر الأبيض ومساعده صاحب الوجه المغطي بالندوب وهما يصرخان فى ثورة.. ضرب الرجل الضخم أقرب طوبوب بلكمة أرسلت الدماء من فمه.. ثم أصبح كل (الطوبوب) كتلة من الصراخ والصياح حيث اندفعوا بسياطهم وعصيهم المعدنية الملتهبة وسكاكينهم ليقودوا الرجال المقيدين نحو (الكوة) المفتوحة.. تحرك (كونتا) وهو لا يحس بضرب السياط التى نزلت عليه.. ولا يزال منتظراً إشارة (الفولاه) للهجوم.. ولكن تقريباً قبل أن يدرك الأمر كانوا جميعاً أسفل فى المحبس مقيدين بالأغلال فى أماكنهم المظلمة.. وأُغلِقَت (الكوة) بعنفٍ.. ولكنهم لم يكونوا بمفردهم ففي وسط الفوضي كان أحد (الطوبوب) في الأسفل معهم.. وكان يندفع فى هذا الاتجاه وذلك فى الظلام وهو يتعثر ويندفع فى الأرفف.. ويصيح فى رعب وهو يحاول أن يتسلق لأعلى عندما سقط مندفعا مرة ثانيةً.. وكان نواحه يشبه صوت حيوانات متوحشة وصاح أحدهم اقتلوا هذا (الطوبوب) وانضمت إليه بقية الأصوات اقتلوا (الطوبوب) اقتلوا (الطوبوب) !

وكانوا يصيحون أعلى فأعلى كلما انضم مزيد من الرجال إلى الكورال الصارخ.. بدا وكأن (الطوبوب) يعرف ماذا يقصدون بصياحهم.. وخرجت منه أصوات التوسل.. كان (كونتا) مستلقٍ ساكن.. وكأنه تجمد مكانه.. كان رأسه يدق كالمطرقة.. وجسده يتصبب عرقاً.. وكان يصارع ليتنفس.. فجأة انفتحت (الكوة) بعنف.. واندفع دستة رجالٍ من (الطوبوب) هابطين الدرج فى الظلام وسط المحبس.. ضربت بعض سياطهم (الطوبوب) المحاصر نفسه قبل أن يجعلهم يدركون أنه منهم.. ثم تحت لهيب السياط القاسية ضُرِبَ الرجالُ وقُيدوا ثانيةً.. ورُكِلوا عائدين إلى سطح السفينة.. حيث جعلوهم يشاهدون أربعة من (الطوبوب) وقد أخذوا يضربون بقسوة بالسياط جثمان (الولوف) ويقطعونه إلى قطع صغيرة.. كانت أجساد الرجال العارية المقيدة بالسلاسل تلمع من العرق والدماء من جروحها.. وبالقيح ولكن نادراً ما كان يصدر أى صوت منهم.. وكان كل واحد من (الطوبوب) مسلحاً تسليحاً ثقيلاً.. وتعبيرات القتل على وجوههم.. وهم واقفون فى حلقة يحملقون ويتنفسون بصعوبة.. ثم نزلت السياط مرةً ثانيةً حيث ضُرِبَ الرجالُ العراةُ ثانيةً أسفل فى المحبس.. وأُعيد قيدهم بالسلاسل .

ولفترة طويلة لم يجرؤ أحد منهم حتى على الهمس.. ولم يكن (كونتا) بمفرده الذي أُعجِبَ بشجاعة (الولوف) الذى مات كمحارب شجاع.. تذكر توقعاته الخاصة بأن القائد (الفولاه) كان يمكنه فى أى لحظة أن يلوح بالهجوم.. ولكن تلك الإشار ة لم تأتِ أبداً.. كان (كونتا) يفكر فيماحدث.. فلماذا لا يموت هو الآخر الآن؟ وأىُ وقتٍ أفضل سيأتي؟ وهل هناك أى سبب يجعله يظل معلقاً بالحياة هنا فى هذا الظلام المقزز؟ .

ومضت أيامٌ والحال على ما هو عليه.. لا تغيير.. ولا تبديل..

استلقي (كونتا) فى الظلام منصتاً إلى صوت احتكاك المبرد المسروق بحلقات السلاسل.. كان يعلم من أسابيع أن علامات المبرد قد أُخفيت بعناية بالقاذورات حتى لا يراها (الطوبوب) استلقي وهو يركز فى ذهنه لكي لا ينسى وجوه هؤلاء الذين يديرون عجلة قيادة السفينة لأن حياتهم هى الوحيدة التى يجب الإبقاء عليها.

ولكن خلال ذلك الليل الطويل فى المحبس بدا (كونتا) والرجال الآخرون يسمعون صوتاً جديداً وغريباً لم يسمعوه من قبل.. بدا وكأنه ينطلق من سطح السفينة فوق رؤوسهم.. ساد السكون بسرعة فى المحبس.. وعندما انصت (كونتا) بعناية خمن أن رياحاً غريبة لابد أنها تجعل الشراع الضخم يرفرف أقوى من المعتاد.. وسرعان ما جاء صوت آخر وكان مثل أرزٍ يسقط على السطح.. وخمن بعد فترة أنه سمع صوت الرعد الثقيل المكتوم.. مع أصوات أقدام تطرق سطح السفينة فوقهم.. وبدأت السفينة تتأرجح وتميل.. انضمت صيحات (كونتا) مع صيحات الآخرين مع كل حركة لأعلي أو لأسفل.. أو من جانبٍ لآخر.. وكانت أكتاف وأكواع وأفخاد الرجال المقيدين ترتطم بقسوة وعنف بالألواح الخشبية القاسية لتجرحهم وتسحق جلودهم.. وكان الألم الحار والمفزع يسري من رؤوسهم إلى أقدامهم.. وبعد لحظات حل الفيضان محل السيل ولكن (كونتا) وقتها بدا يعرق.. لقد غطي (الطوبوب) الثقوب فوقهم لمنع تسرب المياه.. ولكن بفعلهم هذا منعوا الهواء من الدخول.. وزادت درجة الحرارة والرائحة الكريهة الخانقة داخل المحبس.. وأصبح الأمر فوق الاحتمال.. وبدأ الرجال يختنقون ويتقيؤون وهم يضربون قيودهم فى جنون.. ويصيحون فى هلع.. وكان (كونتا) يشهق بحثاً عن الهواء.. ويريدأن يصرخ وهو محاطٌ بصليل السلاسل المجنونة.. والصرخات الخانقة.. لم يعرف متى أخرجت مثانته وأمعاؤه ما بهما من بول وبراز دون أن يدرى.

انسحقت ضربات الأمواج كالمطارق على جسم السفينة وألواح الخشب حول رؤوسهم كانت تتفسخ من المسامير والأوتاد التى تربطها.. وكانت صرخات الرجال المكتومة فى أسفل المحبس تزداد ارتفاعاً عندما غطست السفينة لأسفل وهى تهتز بفعل أطنان من مياه المحيط انبعثت خلالها.

ثم بمعجزة ثانيةً تحت الأمطار التى هطلت كالطوفان.. وبأصوات كانهيار الحجارة.. وعندما دفعت جبال المياه مرة ثانيةً السفينة لأسفل وهي تتدحرج وتتقلب وتهتز كانت الضجة داخل المحبس قد بدأت تخفت حيث أخذ العديد من الرجال المقيدين يفقدون الوعي.. وعندما أفاق (كونتا) كان فوق سطح السفينة.. وكانت الأنوار الصفراء تتحرك مما جعله يظن فى البداية أنه لا يزال أسفل السفينة.. ثم أخذ نفساً عميقاً وأدرك أنه الهواء الصحى.. واستلقي مُكوماً على نفسه.. وعلى ظهره الذى كان يتفجر من الألم الرهيب لدرجة أنه لم يستطيع أن يكف عن الصياح حتى أمام (الطوبوب).. لقد رآهم أمامه بعيداً عنه كالأشباح تحت الضوء.. وهم يزحفون على القلوع العالية السميكة.. وبدا أنهم يحاولون لف الشراع الضخم.. ثم أدار رأسه المصدع نحو صوتٍ عالٍ.. ورأى المزيد من (الطوبوب) يتعثرون محاولين النهوض والخروج من فتحة (الكوة).. ويلهثون وهم يجرون أشباح الرجال العراة المقيدين بالسلاسل لأعلى فوق سطح السفينة ويلقون بهم بالقرب من (كونتا) والآخرين الذين تكوموا بجانبه مثل كتل الخسب.

كان زميل القيود لـ (كونتا) يرتجف بعنف.. ويشهق بين تأوهاته.. وكان شهيق (كونتا) نفسه لايتوقف.. وهو يراقب الرجل ذا الشعر الأبيض.. والرجل الضخم ذا الندبة.. وهما يصيحان ويسبان الآخرين.. كانوا يتزحلقون.. ويتساقطون فى أكوام القئ التى هى تحت أقدامهم.. والبعض منهم كانوا يتقيأون وهم مستمرون فى سحب الاجسام من أسفل .

كانت السفينة الكبرى لا تزال تهتز وتنشر الرذاذ الثقيل فوق السطح بعد أن وجد الزعيم (الطوبوب) صعوبة فى المحافظة على توازنه هو يتحرك بسرعة.. وكان بعض (الطوبوب) يتبعونه بالأنوار.. وقد يستدير واحدٌ منهم أو آخر ويرفع وجه فاقدي الوعي من العُراة.. ويقرب النور منه ويحملق الرئيس عن قرب.. وأحياناً ما يضع أصابعه على رسغ الرجل المقيد.. فيسب ويلعن فى مرارة ويصدرُ أمراً كالنباح.. بعده يرفع (الطوبوب) الرجل ويلقونه فى البحر.. كان (كونتا) يتساءل: الله الذى الموجود فى كل زمانٍ.. ومكان لماذا يتركنا هكذا لما يحدث هنا؟

ثم يعود ليفكر أن السؤال حول مثل تلك الأمور يمكن أن يجعله أسوأ من الملحد الذي يتأوه ويرتجف بجواره.. ثم حول أفكار ه إلى الصلاة من أجل أرواح الرجال الذين ألقي بهم من فوق جانب السفينة والذين سينضمون إلى أسلافهم وحسدهم على موتهم واستراحتهم من كل هذا العذاب.



العودة للهدوء

عندما بزغ الفجر كان الطقس قد هدأ.. وصفت السماء.. ولكن كانت السفينة لا تزال تهتز بشدة.. بعض الرجال الذين ظلوا مستقلين على ظهورهم أو جنوبهم لم يظهروا أى علامات على الحياة.. والبعض الآخر كانت تتملكهم نوبات صرع رهيبة.. كان (كونتا) يعانى من الآلام الرهيبة فى ظهره وفخذيه.. وكان ينظر فى بلاهة لظهور القريبين منه.. وكانت جميعها تدمي من جديد.. وخلال الدماء التى جفت أو تجمدت رأى ما بدا له أنها عظام برزت من الأكتاف والأكواع.. وبنظرة خاوية فى اتجاه آخر استطاع أن يري امرأة ملقاة.. وساقاها مفتوحتان على اتساعهما فى اتجاهه.. وقد دهنت بمادةٍ ما صفراء.. والتقطت انفه رائحة لا توصف لابد كانت منبعثة منها.

ومن حين لآخر كان واحد من الرجال الذين لا يزالون مستلقين على الأرض يحاول أن يرفع جسده.. والبعض قد يسقط مرة ثانيةً.. ولكن من بين هؤلاء الذين نجحوا فى الجلوس منتصبين لاحظ (كونتا) القائد (الفولاه) كان يدمي بغزارة ولا يدري بمايجري حوله.. لم يتعرف (كونتا) على كثيرٍ من الرجال الآخرين الذين رآهم..

كان الرجل المقيد معه مرسوم على وجهه الموت.. ودون أن يدري السبب كان واثقاً بأنه بالتأكيد سيموت.. كان وجهه (رمادي) اللون.. وفى كل مرة كان يشهقُ فيها ليتنفس يخرج صوت غرغرة من أنفه.

وكان كتف (الولوف) وعظام كوعه تظهر من خلال جلده ولحمه الممزق.. وله مظهر رمادى تقريباً.. وكأنه كان يعرف أن (كونتا) كان ينظر إليه فطرفتا عيناه وانفتحتا لتنظر إليه.. ولكن دون أى علامة تدل على أنه تعرف عليه.. لقد كان ملحداً.. ولكن مد (كونتا) أصبعاً ليلمس كتفه.. ولكن لم تكن هناك أية علامة تدل على إدراكه لحركة (كونتا).

ورغم أن آلامه لم تخف فإن الشمس الدافئة بدأت تجعل (كونتا) يحس أنه قد أصبح أفضل قليلاً.. نظر لأسفل ورأى فى حركة حوله الدماء التى نزلت من ظهره.. وأحس بغصة تخرج من حلقه.. و(الطوبوب) الذين كانوا هم أيضاً مرضي وضعافاً..

وكانوا يتحركون فيما حولهم ومعهم فرش ودلاء وهم يكشطون القئ والصديد.. والبعض الآخر كانوا يجرفون أحواضاً من القاذورات من أسفل المحبس إلى سطح السفينة ثم يلقون بها من جانب السفينة.. وفى الضوء لاحظ (كونتا) وجوههم الشاحبة.. وجلودهم المغطاه بالشعر .

وبعد فترة شم بخار الخل المغلي والقطران خلال الفتحات أثناء تحرك (الطوبوب) الرئيسى بين الرجال المقيدين يستخدم مرهمه.. وقد يضع قطعة من القماش مغمورة بالمسحوق على الأماكن التى تبرز منها العظام.. ولكن سرعان ماتنزلق بسبب الدماء السائلة.. وتسقط.. كما فتح أيضاً أفواه الرجال بما فيهم فم (كونتا) ودفع فى حلوقهم شيئاً ما من زجاجة سوداء .

كان (كونتا) ملقي هناك وسط القاذورات والحُمي.. ولم يعرف الوقت الذى مضى عليه في بطن السفينة.. هل شهرين.. ستة.. أو حتى سنة.. والرجل الذى كان مستلقياً بالقرب من فتحة التهوية والتى كان يحسب من خلالها عدد الأيام مات الآن.. ولم تعد هناك أي تواصل بين من بقي منهم على قيد الحياة.

وفى إحدى المرات استيقظ (كونتا) منتفضاً من شبه نعاس شعر برعبٍ شديد.. وأحس بالموت قريباً منه بشدة.. ثم بعد وهلة أدرك أنه لم يعد بعد الآن يستطيع أن يسمع صلصلة السلاسل الخاصة برفيقه الذى يجاوره.. ومر وقت طويل قبل أن يتمكن (كونتا) من أن يمد يده ليلمس ذراع الرجل.. بعدها تراجع في رعب فقد كان ذراعه بارداً ومتخشباً.. استلقي (كونتا) وهو يرتجف وسواء كان الرجل ملحداً أم مؤمناً فإنهما تكلما معاً.. واستلقيا معاً.. والآن أصبح وحيداً عندما جاء الطووبوب لأسفل مرة ثانيةً محضرين الذرة المسلوقة انكمش (كونتا) على نفسه عندما سمع ثرثرتهم تقترب منه أكثر فأكثر.. ثم شعر بواحدٍ منهم يهز جسد (الولوف) ثم يسب ويلعن.. ثم سمع (كونتا) الطعام يصب كالعادة فى إنائه.. والتي دست بينه وبين (الولوف) الثابت بلا حِراك.. ثم ترك (الطوبوب) لأسفل الرف.. ومهما كانت معدته تصرخ جوعاً لم يفكر (كونتا) في الطعام.

وبعد فترة جاء اثنان من (الطوبوب).. وحلوا وثاق كاحل (الولوف) ورسغه من (كونتا) الذى كان مُخدراً من الصدمة.. وأخذ ينصت وهم يجرون الجثة.. وتسقُط من فوق الرف على الممر.. وتُرفع لأعلى الدرج.. أراد أن يبعد نفسه عن ذلك المكان الخالى.. ولكن في اللحظة التى تحرك فيها جعله احتكاك عضلاته المكشوفة بألواح الخشب يصرخ صراخ الاحتضار.. وبينما هو مُلقي ثابتاً حتى يخف الألم استطاع أن يسمع في عقله نواح الموات من النساء في قرية (الولوف) حزناً على موته صاح وسط الظلام المؤلم اقتلوا (الطوبوب) !!

وأخذت يداه المصفدتان تصلصلان مع أصفاد (الولوف) الخالية.

وفى المرة التالية التى كان فيها فوق سطح السفينة التقى نظر (كونتا) بأحد (الطوبوب) الذى كان قد ضربه هو و(الولوف) ونظر كلٌ منهما بعمقٍ إلى الآخر.. ورغم أن وجه (الطوبوب) وعينيه ضاقتا من الكراهية البادية من عيني (كونتا) إلا أنه هذه المرة لم ينزل سوطه على ظهر (كونتا) وعندما أفاق (كونتا) من دهشته نظر عبر سطح السفينة.. ولأول مرة منذ العاصفة رأى النساء.. غاص قلبه في قدميه.. فمن بين العشرين امرأة في الأصل تبقي اثنتا عشرة امرأة فقط.. ولكنه شعر ببعض الارتياح.. حيث أن الأطفال الأربعة قد عاشوا جميعهم.

هذه المرة كانت الجروح على ظهور الرجال سيئة للغاية.. وكانوا يتقافزون فى سلاسلهم فى ضعف هذه المرة على قرعات الطبول.. وذهب (الطوبوب) بالآلة الموسقية.. واستطاعت النساء وسط آلامهن أن يغنين.. بينما عدد قليل من الجثث كان ملفوفاً فى قماش أبيض.. ثم أُلقيَ بهم من فوق سطح السفينة.

كان (الطوبوب) ذو الشعر الأبيض والألم الشديدة على وجهه يتحرك بين العراة.. ومعه المرهم والزجاجة عندما ظهر رجل قيوده فارغة من زميله الذى مات تصلصل من رسغه وكاحله.. قفز من مكانه وجرى إلى السور.. كان قد تسلق نصف الارتفاع عندما استطاع أحد (الطوبوب) القريب منه أن يلحق به ويجذب السلسة المجرورة وراءه فى اللحظة التى قفز فيها.. وبعد لحظة كان جسده يرتطم بجانب السفينة..

وتتردد على سطح السفينة صرخاته المكتومة.. فجأة وسط الصرخات سمع (كونتا) دون أى خطأ بعض الكلمات من (الطوبوب).. ارتفع فحيح من بين الرجال المقيدين بالسلاسل.. وعندما اصطدم الرجل بالعمود الرئيسي وهو يصرخ.. صاح (الطوبوب) : اقتلوه.. ثم توسل إليه طلباً للرحمة.. ذهب كبير (الطوبوب) إلى السور ونظر لأسفل وبعد أن انصت لفترة هز السلسلة فجأة من يد (الطوبوب) الآخر.. وترك الرجل يسقط وهو يصرخ إلى البحر.. ثم دون أن ينطق بأية كلمة عاد لعملية تشحيم المرضى.. ونثر المسحوق على الجروح وكأن شيئاً لم يحدث. بكل بساطة على جانبه ويغلق عينيه.. وسرعان ما يحس بأن يدي كبير (الطوبوب) وهى تدهن بالمرهم ظهره ثانيةً.. ووقتها قد لا يحس لفترة سوى بحرارة الشمس.. ويشم فقط نسيم البحر المنعش.. وعندها قد يخف الألم.. ويتحول الأمر إلى مجرد انتظارٍ للموت.. وأحياناً و(كونتا) في المحبس كان يسمع همهمة هنا وهناك.. ويتساءل في ماذا يتحدث هؤلاء؟ لقد ذهب شريكه (الولوف) وأخذ الموت بعض من قاموا بالترجمة للآخرين.. فضلاً عن أن الأمر يستلزم جهداً كبيراً للكلام.. وأصبح يري ما يحدث لبعض الرجال الآخرين حيث بدأت أمعاؤهم الغليظة تُخرِجُ مزيجاً من الدماء المتجمدة.. وبرازاً سميكاً أصفر ورمادى اللون له رائحة كريهة رهيبة.

وعندما شم (الطوبوب) لأول مرة تلك الرائحة الكريهة تملكتهم الأنفة.. وذهب أحدُهم مندفعاً لأعلى خلال (الكوة).. وبعد دقائق هبط كبير (الطوبوب) ساداً أنفه.. وأشار بعنف للطوبوب الآخر ليفك قيد الرجال الذين كانوا يصرخون.. ونقلهم من المحبس.. وسرعان ما جاء مزيد من (الطوبوب) ومعهم مشاعل وفرش ومعازق ودلاء أخذوا يكشطون ويزيلون القاذورات وهم يتقيؤون.. ويختنقون من فوق الأرفف التى أُبعِدَ من عليها الرجال.. ثم صبوا خلاً مغلياً على تلك الأماكن ونقلوا الرجال من فوقها.

ولكن ذلك لم يفلح لأن الفيروس الموي الذى سمع (كونتا) (الطوبوب) يسميه (الجرب) بدأ ينتشر.. وسرعان مابدأ (كونتا) نفسه يهرش متألماً في رأسه وظهره.. ثم يتقلب ويرتجف من الحُمى والبرد.. وأخيراً بدأ يشعر بأن داخله يعتصر.. ويضيق.. ويطرد الدم المتقيح والصديد.. وأن مصارينه تخرج مع البراز.. وتقريباً أُغمى عليه من الألم.. ومن بين الصرخات صاح بأشياء لم يصدق أنه ينطقها (أمورو) (عُمر) الخليفة الثانى للمسلمين.. والثالث بعد سيدنا محمد النبى.. وأخيراً تحول صوته إلى رجفات لاتكاد تُسمع وسط شهيق ونحيب الآخرين.. وخلال يومين كان الجرب قد أصاب تقريباً كل رجل فى المحبس.

أخذت الكرات الموية الملوثة تسيل من الأرفف إلى الممر.. ولم تعد أمام (الطوبوب) أى وسيلة لتجنب السير فوقها وهم يسبون.. ويلعنون.. ويتقيؤون.. وفى كل يوم الآن يؤخذ الرجال إلى سطح السفينة بينما يأخذ (الطوبوب) الدلاء والخل والقطران ليغلوه متحولاً إلى بخار لتنظيف المحبس.. وكان (كونتا) ورفاقه يتعثرون وهم يخرجون من (الكوة) إلى حيث يستلقون فوق سطح السفينة.. والذى سرعان ما يغرق من الدماء السائلة من ظهورهم.. والبراز الذى لم يعودوا يتحكمون فيه.. وكانت رائحة الهواء تبدو وكأنه ا تتسلل خلال جسد (كونتا) من قدميه إلى رأسه.. وعندها عندما يعودون إلى المحبس كانت رائحة الخل والقطران تفعل نفس الشئ.. رغم أن نفس الرائحة لا تقتل جراثيم الجرب .

وفى حال هذيانه رأى (كونتا) طيف جدته (بيسا) وهى مستلقية وقد رفعت جانبها على إحدى ذراعيها فوق سريرها وتتحدث معه في آخر مرة.. وتذكر أيضاً الجدة العجوز (نيوبوتو) وحكاياتها التى كانت تحكيها.. وكان ينشب مخالبه أو يركل بقدميه فى الهواء عندما يأتي (الطوبوب) بالقرب منه.

سرعان ما أصبح معظم الرجال غير قادرين على السير على الإطلاق وكان على (الطوبوب) أن يساعدوهم للصعود إلى سطح السفينة حتى يستطيع الرجل ذو الشعر الأبيض استخدام مرهمه الذى لا فائدة منه فى الضوء.. وكل يوم يموت أحدهم.. ويُلقي به من جانب السفينة.. بما فى ذلك القليل من النساء.. واثنان من الأطفال.. فضلاً عن عددٍ من (الطوبوب) أنفسهم.. وكان العديد من (الطوبوب) ممن مازالوا على قيد الحياة بالكاد قادرين على جر أنفسهم.. وكان أحدهم يدير عجلة السفينة.. وهو واقف وسط حوض يتجمع فيه إسهاله.

توالت الأيام وتداخلت إلى أن جاء يوم كان فيه (كونتا) والقليل من الآخرين من المحبس لا يزالون يستطيعون أن يجروا أنفسهم إلى فتحة (الكوة).. ويصعدون الدرج.. ويحملقون من فوق السور فى دهشة غبية حيث يشاهدون سجادة متماوجة من أعشاب البحر الذهبية تعوم على سطح الماء إلى أبعد ما يمكنهم أن يروا.. أدرك (كونتا) أن المياه لا يمكن أن تمتد إلى الأبد..

والآن يبدو أن السفينة الضخمة على وشك أن تصل إلى نهاية العالم.. ولكنه لم يهتم.. ففي أعماق نفسه شعر بأنه يقترب من النهاية.. ولكنه لم يكن متأكداً بأية وسيلة سيموت.. لاحظ فى غموض أن الشراع الأبيض الضخم ينخفض.. ولم يعد مليئاً بالرياح كما كان من قبل.. وهناك أعلى الأعمدة كان (الطوبوب) يشدون حبالهم لتحريك تلك القماشة فى اتجاه معين.. محاولين أن يحصلوا على أية رياح..

ومن أسفل فوق السطح كان (الطوبوب) يسحبون دلاء الماء ويلقون بها على قماشة الشراع الكبيرة.. ولكن ظلت السفينة الضخمة هادئة.. وبدأت تتماوج برقة للأمام والخلف فوق الأمواج كان كل (الطوبوب) أعصابهم مشدودة للنهاية.. ومن بينهم ذلك الرجل ذو الشعر الأبيض يصيح فى الرجل الضخم الآخر ذى الوجه المشوه بالسكين الذى كان يلعن ويضرب (الطوبوب) الأقل منه..

ولكن لم يعد هناك ضرب للرجال المقيدين بالسلاسل إلا فى مناسبات نادرة.. وبدؤوا يقضون طوال النهار تقريباً فوق السطح.. ولدهشة (كونتا) كانوا يمنحونهم سطلاً كاملاً من الماء كل يوم.

كان يستغرق فى نوم متقطع وهو يئن.. ويحلم بأنه يعمل فى الحقول هناك فى (جوفور).. ويحلم بالحقول المورقة الخضراء.. والأسماك تبرز من حواف النهر الملساء.. وأفخاد الأرانب البرية الثمينة وهى تشوي على الفحم.. وقرعات الشاى الذى يتصاعد منه البخار المحلى بعسل النحل..

ثم يعود ثانيةً إلى حال اليقظة التامة.. وأحياناً ما يسمع نفسه يلقي بتهديدات مريرة غير معقولة وهو يتوسل بصوت عال من أجل نظرة أخيرة على عائلته.. كل فرد منهم كان كحجر فى قلبه.. كان يعذبه أنه سبب لهم كل ذلك الحزن.. وتلك الطبلة التى كان سيصنعها لنفسه.. وسيتدرب عليها طوال الليل بينما يحرس حقول الفول السودانى.. وحيث لا يسمع أحدٌ أخطاءه.

وكان (كونتا) واحداً من بين من يصعدون فوق الدرج.. ومنه إلى سطح السفينة.. ساقاه المخلخلتين كانتا ترتجفان.. وتلتويان.. وهو شبه محمول أومسحوب جراً.. كان يئن فى هدوء ورأسه بين ركبتيه.. وعيناه مغلقتان من الرمد.. ويجلس بلا حراك إلى أن يأتى عليه الدور ليقوم (الطوبوب) بتنظيف جروحه..

كانوا قد بدؤوا يستخدمون اسفنجة كبيرة مليئة برغوة الصابون بدلاً من الفرشاة الخشنة على ظهور الرجال التى فسدت من الجروح والبثور.. ولكن (كونتا) كان لا يزال مثله مثل معظم من حوله.. يتنفس بصعوبة.. وقادراً بالكاد على أن يستلقى على جنبه فقط ليقوم الطوبوب بعملهم.. وقد بدو وكأنهم توقفوا.

ولم يتبق من بين النساء والأطفال سوى الأصحاء منهم لدرجة معقولة.. لأنهم لم يُقيدوا بالسلاسل والأصفاد أسفل فى ظلمة المحبس وسط القذارة والقمل والبراغيت والجرذان وعدوى الجرب.. وكانت أكبر النساء اللاتى بقين على قيد الحياة واحدةً من سن (بينتا) تقريباً واسمها (مبوتو) وهى من الـ(مانديكا) من قرية (كيروان) وكانت ذات ووقار ورزانة حتى أنها وهى فى عُريها كانت وكأنه ا ترتدى ملابسها.. و(الطوبوب) لم يحاولوا حتى أن يمنعوها من التحرك وهي تلقي كلمات التشجيع على الرجال المقيدين الملقي بهم مرضي على سطح السفينة.. وتدلك الصدور المحمومة.. همس (كونتا) عندما شعر بيديها الملطفتين لآلامه.. (أمى.. أمى..) ورجل آخر كان أضعف من أن يتكلم.. فغر فكيه فى محاولة للابتسام.. وأخيراً لم يعد (كونتا) قادراً على تناول الطعام دون مساعدة.. وكان الشد المؤلم فى عضلة كتفه وكذلك فى كوعه يمنعانه حتى من أن يحرك يده ليطعم نفسه.. وفى يوم من الأيام لاحظ الرجل ذو الندبة ذلك فأصدر أوامره لطوبوب آخر أقل منه درجة ليدس عنوةً فى فم (كونتا) أنبوباً مفرغاً ويصب له الطعام من خلالها.. ابتلع (كونتا) الطعام بصعوبة.. ثم التوي على بطنه.

وعلى سطح السفينة أصبح النهار أكثر حرارةً حتى كان كل فرد يختنق من الحر القائظ.. وسط الهواء الثابت.. ولكن بعد أيام قليلة بدا (كونتا) يحس بنفحات النسيم البارد والقماشة الكبيرة فوق القلوع الضخمة بدأت ترفرف ثانيةً وسط الرياح.. ومرة ثانيةً وسرعان ما أخذت السفينة تشق عباب البحر بسرعة.

وفى صباح اليوم التالى جاء عدد أكبر من المعتاد من (الطوبوب) لأسفل السفينة.. ومبكراً عن مواعيدهم المعتادة.. ظهرت الإثارة والحماس فى كلماتهم وحركاتهم.. واندفعو خلال الممرات يفكون قيود الرجال.. ويساعدونهم بسرعة للصعود لأعلي.. أخذ (كونتا) يتعثر خلف الرجال الصاعدين أمامه.. وبطرف بعينيه.. وفي ضوء الصباح الباكر لمح طوبوباً آخر والنساء والأطفال واقفين عند السور.

كان (الطوبوب) يضحكون سعداء.. وبين الظهور المقرحة لبقية الرجال اندس (كونتا) ورأى من بعيد وسط ضباب البحر.. أرضاً تلوح في الأفق من بعيد.. إنها أرضٌ من أراضى الله.. إنها تلك الأرض التى قال عنها الجدود أنها تمتد من شروق الشمس إلى غروبها.. اهتز كل جسد (كونتا).. وانسال منه العرق.. ولمعت عيناه.. وانتهت الرحلة بكل معاناتها.. ولكن دموعه سرعان ما فاضت على خط الشاطئ إلى ضباب ر(مادي) غائم لأن (كونتا) كان يعلم أنه مهما جرى له سالفاً.. ما سيأتى بعد الآن سيكون أسوأ.



تصادم

عاد ثانيةً إلى ظلام المحبس هو وباقي الرجال المكبلين بالسلاسل..كانوا جميعاً خائفين جداً لا يجرأون على فتح أفواههم.. وفى السكون استطاع (كونتا) أن يسمع ألواح السفينة وهى تنشقق.. وصوت أمواج البحر وهى تصطدم بجسم السفينة.. ثم صوت أقدام (الطوبوب) يندفعون إلى سطح السفينة فوقه.

فجأة بدأ بعض الـ(مانديكا) يرددون المدائح لله.. وسرعان ما انضم إليهم الباقي وسط صخب مجنون من الدعوات والمدائح.. وصليل السلاسل بكل مالدي الرجال من قوة وسط الضجة.. لم يسمع (كونتا) فتحة الكوة وهى تفتح ولكن حزمة ضوء النهار التى تسللت خلالها شلت لسانه.. ولوى راسه فى اتجاهها طرف بعينه ليضغط العماص فيها.. راقب (الطوبوب) يدخلون ومعهم مصابيحهم وبدوا يسوقونهم أمامهم بسرعة غير عادية عائدين بهم إلى سطح السفينة استخدموا فرشهم ذات الأيدي الطويلة فى حك ظهور الرجال وسط صراخهم الشديد وهم يزيلون تلك القاذورات من أجسادهم المتقيحة.. وتحرك كبير (الطوبوب) لأسفل بطول الصف وهو ينثر مسحوقه.. ولكن فى هذه المرة أشار لمساعده الضخم أن يستخدم مادة سوداء بشكل واسع ومسطح وعندما لمست فخذى (كونتا) ألقت به شدة الألم وهو فى حالة دوار على سطح السفينة.

وبينما كان مستلقياً وكل جسده وكأنه مشتعل بالنيران سمع الرجال وكأنهم ينبحون من جديد فى رعب.. رفع رأسه لأعلى.. رأى العديد من (الطوبوب) مشغولين في إعداد الرجال كانوا.. يدفعون الرجل تلو الآخر مقيدين إلى وضع الركوع حيث يبقي هكذا فى حين يدعك طوبوب آخر رأسه بمادة بيضاء.. بعدها يزيل الشعر من فوق الرأس بأداة لامعة ضيقة تاركاً والدماء تسيل من فوق وجهه .

وعندما وصلوا إلى (كونتا) وأمسكوا به صرخ وقاوم بكل قوته إلى أن ثُنى ركبته فى ضلوعه.. بينما شعر جلد رأسه يكشطه ويحلقه له (الطوبوب).. بعد ذلك تم تزييت أجساد الرجال المقيدين إلى أن لمعت ثم أُجبِروا على ارتداء سراويل.. ثم رُبِطوا بالسلاسل وهم منبطحون أرضاً.

جلس (كونتا) مخدراً مذهولاً كان يدعو الله فى صمت عندما جاء صوت نباح من كبير (الطوبوب) ومساعده الضخم جعله يفتح عينيه.. فى الوقت المناسب ليشاهد (الطوبوب) الأقل درجة يندفعون متسلقين الصواري.. بعدها سارت السفينة إلى أن اصطدمت بشيءٍ ما صلب لايتحطم.. واهتزت بشدة.. حدث ذلك لأول مرة منذ تركت السفينة أفريقيا منذ أربعة أشهرٍ ونصف.. قام بتأمينها وربطها بالحبال إلى أن سكنت تماماً .

كان عشرات (الطوبوب) يقهقهون ويضحكون ويشيرون إلى باقي السود لينضموا إليهم من كل الاتجاهات.. وتحت السياط سيقوا فى صف واحد مهتز من فوق أحد الجوانب ومنه على ألواحٍ مائلة نحو الجمهور المنتظر.. أوشكت ركبتا (كونتا) أن تنهار تحته عندما لمست قدماه أرض (الطوبوب).. وسياطهم جعلت الجميع يستمرون في السير متقاربين أمام الجماهير الصائحة.. وعندما سقط رجل أسود وهو يدعو الله بأعلى صوته كانت السلسلة تجتذب معها للأسفل باقي الرجال أمامه وخلفه.. ثم توالت السياط لتلهب ظهورهم كلهم عندما صاح جمهور (الطوبوب) فى إثارة وحماس.

كان التفكير في الانطلاق والهروب قد سري بقوة داخل (كونتا).. ولكن السياط حافظت على حركة الصف.. مروا على طوبوب يركبون عربيات غريبة ذات عجلتين أو أربع عجلات تجرها حيوانات ضخمة تشبه إلى حد ما الحمير.. ثم مروا على (الطوبوب) المتجمهرين حول مكان يشبه السوق مملوء بأكوامٍ ملونة من الفواكه والخضروات.. وأخيراً نظر (الطوبوب) الذين يرتدون الملابس إليهم بتعبيرات مشمئزة.. و كانت هناك فتاة طوبوب شعرها غريب اللون بلون القش.. دهش (كونتا) عندما رأى نساء (الطوبوب).. ولكن عند النظر إلى هذه النوعية استطاع أن يفهم لماذا كانوا يفضلون الأفريقيات.

ألقي (كونتا) نظرة جانبية وهم يمرون بمجموعة من (الطوبوب) يصرخون فى جنون حول ديكين منفوشين يتصارعان.. ثم مروا بجمهور صاخب يقفز هنا وهناك.. ثم ثلاثة أولاد طوبوب كانوا يتسابقون خلف خنزير بري قذر بدا لامعاً من الشحم المدهون به لم يصدق (كونتا) عينيه.

ثم لمح (كونتا) رجلين أسودين لم يكونا ضمن ركاب السفينة أحدهما (مانديكا) والآخر (سيريرى) حملق فيهما وهما يسيران فى هدوء خلف (الطوبوب).. أراد (كونتا) أن يندفع ويحتضنهما ولكنه رأى وجهيهما جامدة المشاعر.. وخوفهما فى عيونهما المكسورة.. لم يستطع أن يفهم لماذا رجلين أسود ين يتبعان فى ذلً خطوات طوبوب لا يراقبهما ولا حتى يحمل سلاحاً بدلاً من أن يحاولا الهرب وقتله .

ثم وجدوا أنفسهم فجأة عند الباب المفتوح لبيت فسيح مربع من الطوب الأحمر فى أشكال مستطيلة من أسياخ من الحديد وبعض المساحات القليلة المفتوحة على الجوانب.. سِيق الرجالُ المسلسلون بالسياط إلى الداخل من الباب الواسع ومنه إلى حجرة فسيحة.

أحس (كونتا) بالبرودة تتسلل من خلال الفتحتين المغطاتين بالأسياخ الحديدية.. التقطت عيناه المرتعشتان خمسةً من الرجال السود مكومين بجوار الجدار.

قرفص (كونتا) نفسه مع زملائه والسلاسل حول ركبتيه المتقاطعتين.. وبعد فترة قصيرة دخل رجل أسود لم ينظر إلى أيٍ منهم.. ووضع أمامهم بعض العلب المملوءة بالماء والطعام.. لم يكن (كونتا)جائعاً.. ولكن حلقه كان جافاً جداً لدرجة أنه فى النهاية لم يستطيع أن يمنع نفسه من احتساء قدر قليل من الماء كان طعمه غريباً.

وهو شبه مخدر ناظراً من خلال فتحات القضبان الحديدية شعر (كونتا) برعبٍ لا يُوصف من المجهول.. شعر وكأن المحبس المظلم للسفينة الضخمة كان أفضل.. كانت تلك الرائحة الكريهة الغريبة تخنقه.. كانت مزيجاً من العرق والبول وقذارة الجسد.. وكانت تملأ المكان.

وسأل نفسه حتى لو استطاع أن يهرب فأين سيهرب؟

أين يمكنه أن يختبئ فى هذه الأرض الغربية؟

إنه حتى لا يعرف إن كان لدى (الطوبوب) غابات.. وإذا كان لديهم غابات هل سيستطيع أن يهرب داخلها.

مر مزيد من الوقت.. وأخيراً استغرق (كونتا) فى النوم قبل أن يوقظوه مع وصول الطعام.. كان نوعاً من العصيدة التى يتصاعد منها البخار.. وكانت رائحتها أسوأ من أى شئٍ آخر.. أغلق عينيه ليس من أجل ألا يري الطعام.. وإنما عندما انتزع زملاؤه تقريباً الأوانى وبدؤوا يلتهمون الطعام كالذئاب.. قال لنفسه أن هذا الطعام ليس رديئاً كما يظن.. وإذا كان عليه أن يفر من هذا المكان فهو يحتاج إلى قوة.. وعليه أن يجبر نفسه أن يأكل مجرد القليل.. أمسك بالسلطانية.. ورفعها إلى فمه المفتوح.. وشفط الطعام.. وابتلع إلى أن نفدت العصيدة كلها.. كان مشمئزاً من نفسه.. فألقى بالسلطانية بعنف على الأرض.. وبدأ يشعر بالرغبة فى التقيؤ.. ولكنه أجبر نفسه على التحمل.. لابد من أن يحتفظ بالطعام داخله إذا كان عليه أن يعيش.. وبدءاً من هذا اليوم كان (كونتا) يجبر نفسه ثلاث مرات فى اليوم أن يأكل ذلك الطعام الكريه.. وكان الرجل الأسود الذي يحضره يأتى مرة كل يوم بدلوٍ.. ومعزقة.. وجاروف لينظف وراءهم.. وبعد ظهر كل يوم كان يأتى اثنان من (الطوبوب) ليدهنوا مزيداً من السائل الأسود الكريه على ظهورهم.. وجروحهم.. وينثرون المسحوق الأصفر على الجروح الصغيرة.. احتقر (كونتا) نفسه لضعفه الذى جعله ينكمش ويتأوه هكذا من الألم مع الآخر ين.

وخلال النافذة ذات القضبان الحديدية كان يسمع (كونتا) من مكان ما بدرجة ضعيفة صرخات النساء اللاتى تعرف عليهن من السفينة.. وكان عليه هو ورفاقه أن يجلسوا فى أماكنهم يحترقون من المهانة لأنهم عاجزين عن الدفاع عن نسائهم.. فضلاً عن الدفاع عن أنفسهم.. ولكن هذه الليلة كان الأمر أسوأ لأنه لم تصدر صرخات من النساء من أى نوع.. ترى ما هو الرعب الجديد الذى زارهن؟

وكل يوم تقريباً كان هناك واحدٌ من السود غريب الشكل فى ملابس (الطوبوب) يُدفعُ به وهو مقيدٌ يتعثر إلى الحجرة.. كان يصطدم بالجدار خلفهم أو يُكوم على الأرض.. ولا يمر يوم إلا وبعض (الطوبوب) المهمين يدخلون الحجرة ممسكين بخرقة فوق أنوفهم.. ثم يبدأ أحد السجناء يرتجف رعباً عندما يركله ذلك (الطوبوب) أو يصرخ فيه.. ثم بعد ذلك يُؤخذ ذلك الأسود بعيداً.



أذكياء مثل القرود

دخل اثنان من (الطوبوب) ومعهما حمولة من الملابس.. تم حل أغلال الرجال واحدًا بعد الآخر.. ليعلموه كيف يرتدى تلك الملابس.. كانت عبارة عن تنورة تغطي الوسط والساقين والجزء الثانى يغطي الجزء العلوي من الجسم.. عندما ارتداهما (كونتا) أخذت جروحه التى كانت قد بدأت تندمل تأكله فى الحال.

عاد اثنان من (الطوبوب) ليفكا بسرعة أغلال ثلاثة من الخمسة السود الذين كانوا فى الأصل موجودين فى المكان ثم خرجوا بهم من الحجرة.. ثم يبدأ أحد (الطوبوب) فى الصياح.. كافح دون جدوى أن يسمع ويفهم ماذا يُقال.. وانصت دون أن يفهم إلى الصياح الغريب.

- انظر إنه بصحة جيدة..

وعلى فترات قصيرة يقاطعه (الطوبوب) الآخرون بصيحات عالية:

- خمسائة !

وعندئذ يصيح (الطوبوب) الأول بصوت عال:

- ثلاثمائة وخمسون.. اربعمائة.. خمسمائة..

ويقول (الطوبوب) الأول:

- دعونا نسمع ستمائة.. انظر إليه.. أنه يعمل كالبغل..

ارتجف (كونتا) من الخوف وقد غرق وجهه فى العرق.. عندما وقف (الطوبوبان) الجديدان عند المدخل ممسكين بعصا قصيرة فى يدٍ.. وشيئاً معدنياً صغيراً فى اليد الأخرى تحرك (الطوبوب)ان الآخران

إلى جانب (كونتا) وقد حلا الأصفاد الحديدية.. وعندما كان الشخص يصرخ أو ينكمش كان يضرب بالعصا القصيرة.. وعندما شعر (كونتا) بأنه انتفض واقفاً فى غضب ورعب.. وضربه (الطوبوب) فوق رأسه.

صاح شخص واقف فوق منصة خشبية منخفضة وقد التفت حوله مئات من (الطوبوب) :

- لقد التُقِطَ مباشرةً من فوق الشجر.

لمح (كونتا) بعض السود بين (الطوبوب).. ولكن وجوههم بدت وكأنهم لا يرون شيئاً.. وكان اثنان منهم يمسكان بالسلاسل اثنان آخران من السود أُحضِروا لتوهم من الحجرة ذات القضبان.. والآن بدأ المنادى يسير بسرعة إلى آخر صف (كونتا) ورفاقه.. وكانت عيناه تقيمانهم من الرأس إلى القدم.. ثم عاد إلى أول الصف وهو يغرس يد سوطه فى صدورهم وبطونهم.. كل ذلك وهو يقوم بصياحه الغريب:

- أذكياء مثل القرود.. يمكن تدريبهم على أى شئ!

ثم عاد ثانيةً إلى نهاية الصف.. ودُفِعَ (كونتا) بخشونة نحو المنصة المرتفعة.. ولكنه لم يستطع أن يتحرك.. كان يرتجف.. بدا وكأن كل حواسه قد هجرته.. نزل لسان السوط على قشرة الجرب فوق عجزيه المتورمين.. أوشك أن ينهار تحت وطأة الألم.. وتعثر للأمام.. وأدخل (الطوبوب) الطرف الخال من سلسلته فى شيء وأغلقه صاح (الطوبوب) .

- أعلى درجة.. شاب.. وفتى .

كان (كونتا) مخدرا من الرعب لدرجة أنه لاحظ بالكاد جمهور (الطوبوب) يتحركون مقتربين حوله.. ثم بدؤوا بعصي صغيرة وبأيدي السياط يفتحون شفتيه المغلقتين ليستعرضوا اسنانه اللامعة ويتحسونه بأيديهم فى كل مكان ذراعية وظهره وصدره وجهازة التناسلي وعندما بدأ بعض هؤلاء الذين يفحصونه يتمادون خطا (كونتا) للخلف وهو يصدر صرخات غريبة .

صاح (الطوبوب) الدلال وهو يضحك فى احتقار.

- ثلاثمائة وخمسة وخمسون دولار..

- ستمائة..

ثم صاح (الطوبوب) فى غضب: هذا الزنجي.. إنه لقطة من يسمعنى سبعمائة وخمسين؟

- سبعمائة وخمسين!

كرر الصيحة عدة مرات ثم صاح.

- بل.. ثمنمائة .

- ثمانمائة وخمسون .

لم تأت صيحات أخرى.. فك (الطوبوب) الدلال (كونتا).. وأزاحه نحو (الطوبوب) الذى خطا للأمام .. أراد (كونتا) أن يدفعه بقوة.. ويعدو هرباً الآن.. ولكنه كان يعلم أنه لن يستطيع أن يفعلها أبداً وعلى أية حال بدا أنه لا يستطيع تحريك ساقيه.

رأى رجلاً أسوداً يتحرك للأمام خلف (الطوبوب) الذى حمل السلسلة على كتفه فحصت عينا (كونتا) ذلك الأسود الذى كانت له ملامح الولوف المميزة قال له:

- يا أخى أنت أتيت من بلدي.

ولكن الأسود بدا وكأنه لا يري (كونتا) لأنه كان يشد بقوة السلسلة لدرجة أن (كونتا) جاء متعثراً وراءه.. بدءا يتحركان بين الجمهور.. كان بعض (الطوبوب) الشباب يضحكون.. ويهتفون وهم ينخسون (كونتا) بالعصي عندما يمر من أمامهم.. بعدها توقف به الرجل الأسود عند صندوق كبير منصوبٌ فوق الأرض على أربع عجلات خلف حيواناتٍ ضخمة تشبه الحمير مثل تلك التى رآها من قبل وهو فى طريقه من السفينة .

أمسك الأسود بفخذى (كونتا) وهو يصرخ فى غضب.. ثم رفعه لأعلى وقفز به داخل الصندوق.. تكوم على نفسه في أحد الأركان.. ثم ربط الأسود الطرف الآخر من سلسلته تحت المقعد المرتفع فى الجزء الأمامي من الصندوق خلف الحيوانات.

كان هناك جوالان كبيران مملوءان بشيءٍ له رائحة الحبوب.. استلقي عليهما (كونتا) ثم أغلق عينيه بقوة.. لم يكن يريد أن يري أى شيءٍ ثانيةً خاصة ذلك الأسود الخائن .

وبعد ما مر وقت طويل أخبر أنف (كونتا) (الطوبوب) عاد ثانية وصعد الأسود إلى المقعد الأمامي هو و(الطوبوب) والآخر أصدر الأسود صوتا سريعاً وطرقع حزام من الجلد على ظهر الحيوان وفى الحال بدا فى شد الصندوق المتحرك للأمام .

كان (كونتا) فى دوار شديد لدرجة أنه لم يسمع أى شيءٍ عندما تحركت به العربة..أدار نظره يميناً.. ويساراً.. كان هناك عربة أخرى مشابهة للعربة التى يستقلها تشير بمحاذاتها..كان هناك امرأتان مكسوتان بالملابس تماماً.. بينما باقي الرجال كلهم عراة من الوسط لأعلى.. وكانوا يغنون لحناً جنائزياً مؤلماً.. أنصت بحرص للكلمات.. ولكنه لم يفهمها.. وعندما مر الصندوق المتحرك بهم لم ينظر إليهم لا السود ولا البيض رغم أنهم كانوا قريبين جداً لدرجة يمكن أن يلمسوهم ورأى (كونتا) أن معظم ظهورهم كانت عليها ندب جروح متقاطعة من السياط.. وبعضها جراحُ طازجة.

وبقدر ما سمحت له عيناه أن يري كانت تمتد الحقول الفسيحة ملئى بالحبوب والمحاصيل التى تنمو بألوان مختلفة.. وبعد ذلك مباشرةً مال (الطوبوب) وأخذ بعض الخبز.. ونوعاً ما من اللحم من حقيبة تحت المقعد.. وقطع قطعاً من كل واحدة.. ووضعها على المقعد بينه وبين الأسود الذى التقطها بصعوبة وبدأ يأكل.. وبعد لحظات قليلة استدار الأسود فى مقعد ونظر نظرة طويلة إلى (كونتا) الذى كان يراقب بعناية وقدم له شريحة من الخبز كان يستطيع أن يشمها من حيث جلس وجعلت رائحتها فمه يبتل.. ولكنه أشاح برأسه بعيداً.. هز الأسود كتفيه بلا اكتراث ودسها فى فمه هو.

حاول (كونتا) ألا يفكر فى جوعه ونظر للخارج من جانب الصندوق ورأى عند الطرف الأخير من الحقل ما بدا أنها مجموعة صغيرة من الناس السود منحنين على الأرض يعملون.

سمع (كونتا) (الطوبوب) يقول شيئاً للرجل الأسود وقبل أن يمر وقت طويل استدار الصندوق المتحرك إلى طريق صغير جلس (كونتا) منتصباً وسرعان ما رأى من بعيد بيتاً فسيحاً أبيض.. تقلصت معدته.. تساءل ماذا باسم الله سيحدث الآن ؟ هل هنا سيؤكل؟ استلقي بعنف على ظهره فى الصندوق وبدا وكأنه بلا حياة .

***

بينما يسير الصندوق مقترباً أكثر فأكثر من البيت بدا (كونتا) يشم ويسمع المزيد من الناس السود.. رفع نفسه لأعلى على كوعيه.. واستطاع أن يري ثلاثة وجوه يقتربون من العربة كان أضخمهم يلوح بواحد من المشاعل الصغيرة التى تعود عليها (كونتا) فى ظلام المحبس فى السفينة هذه المشاعل كانت بداخل شئ صافى ومضئ بدلاً من المعدن[1] لم يسبق أن رأى شيئاً مثله من قبل.. كانت صلبة.. ولكن يمكن أن تري من خلالها وكأنها ليست موجودة.. لم تتح له الفرصة ليدرسها أكثر من ذلك.

انبعث الأمل فى (كونتا) هل يمكن أن يحرره السود الآن؟

ولكن ما أن فكر فى ذلك حتى أضاءت الشعلة وجوههم وهم واقفون ينظرون إليه من فوق حافة المركبة.. كانوا يضحكون عليه.. أى نوعٍ من السود هؤلاء الذين ينظرون من أعلى لاسفل على واحد من نوعهم.. ويعملون كالماعز عند (الطوبوب) ؟ من أين أتوا؟ يشبهون الأفارقة

(1) يقصد بها الزجاج الذى يحيط بالكلوبات.

ولكنه من الواضح أنهم ليسوا من أفريقيا.. هبط السائق لاسفل وسار للخلف وعلى ضوء الشعلة هز بقوة سلسلة (كونتا) وهو يصدر أصوات تهديدٍ بينما يحل السلسلة من تحت المقعد.. ثم أشار لـ (كونتا) ليخرج .

قاوم (كونتا) الرغبة العارمة فى أن يقفز فوق رقاب السود الأربعة ولكنهم كانوا مرتفعين أكثر من اللازم.. ورأى أن فرصته قد تأتى فيما بعد.. كانت كل عضلة فى جسده تصرخ وهو يجبر نفسه بالمشي على ركبتيه.. وبدأ يزحف للخلف فى الصندوق.. قبض اثنان من السود عليه ورفعوه بقسوة.. ثم ألقوه فوق الأرض.. وبعد فترة ربطت النهاية الملفوفة حول رسغ (كونتا) حول عمود ضخم.. وبينما هو ملقي هناك مكوماً.. وضع أحد السود أمامه إناءين من الصفيح وعلى ضوء الشعلة استطاع (كونتا) أن يري أحدهما شبه ممتلئ بالماء.. والآخر به طعام شكله ورائحته غريبة.. ومع ذلك جرى ريق (كونتا) فى فمه وفى حلقه.. ولكنه لم يسمح لعينيه حتى أن تتحركا.. ضحك السود الذين كانوا يراقبونه.. رفع السائق الشعلة لأعلى وذهب إلى العمود الضخم وأخذ يشد السلسلة بقوة حتى يري (كونتا) أنها لا يمكن كسرها.. ثم أشار بقدمه إلى الماء والطعام وهو يصدر أصوات تهديد.. وضحك الآخرون ثانية ثم رحل الأربعة بعيداً.

استلقي (كونتا) هناك على الأرض وسط الظلام ينتظر أن يسيطر النوم عليه دون فائدة..

بعد فترة زحف (كونتا) حول إناء الماء وشرب بعض محتوياته.. ولكنها لم تجعله يشعر بأى تحسن.. شعر بأن القوة تنسحب من جسده.. أحس وكان الله يعاقبه.. ولكن لماذا؟ ما هو الشئ الرهيب الذى فعله؟ حاول أن يراجع كل شئ فعله سواء بالخطا أو الصواب إلى الصباح الذى كان يقطع فيه قطعة الخشب ليصنع لنفسه طبلة.. ووجد أن كل مرة فى حياته كان يعاقب فيها كان بسبب إهماله.

استلقي (كونتا) وسط أصوات زقزقة طيور الليل.. ونباح الكلاب عن بعد.. ثم صراخ مفاجئ من فأرٍ.. ثم تكسير عظامه فى فم حيوان قتله.. ومن حينٍ لآخر كان يتوتر بالرغبة الشديدة فى الهرب.. ولكنه كان يعلم أنه حتى لو كان قادراً على التحرر من قيوده.. لكان صليل الأصفاد والسلاسل سرعان ما ستوقظ الأكواخ القريبة.

استلقي (كونتا) بهذه الطريقة بلا نوم إلى أن بدأت تباشير الفجر.. كافح بقدر ما أسعفته سيقانه المتألمة أن يجلس القرفصاء ثم بدأصلاة الفجر .

وبينما هو يضغط جبينه على الأرض فقد توزانه وأوشك أن يقع على جانبه مما جعله ثائراً عندما أدرك مدي الضعف الذى صار إليه .

وعندما أضاءت السماء مد (كونتا) نفسه نحو الماء وشرب ما تبقى.. وما أن انتهي من ذلك حتى اقتربت أقدام جعلته ينتبه إلى عودة الرجال السود الأربعة.. ألقوا به بسرعة ثانيةً فى الصندوق المتحرك.. ثم قادوه إلى البيت الأبيض الفسيح حيث كان (الطوبوب) منتظراً ليجلس على المقعد الأمامى ثانيةً.. ثم عادوا إلى الطريق الرئيسي ثانيةً.. واتجهوا إلى نفس الاتجاه السابق.. ولفترة زمنية وسط ضوء النهار استلقي (كونتا) محملقاً إلى الفراغ.

رأى (كونتا) بعيداً عن الطريق بيوت (طوبوب) فسيحة بيضاء تشبه البيت الذي وقفت عنده العربة ليلة أمس.. وكان كل بيت تقريباً في ارتفاع بيتين.. وكأن واحداً فوق الآخر.. وكان كل منها أمامه صف من ثلاثة.. أو أربعة أعمدة طويلة وضخمة مثل الأشجار.

وبالقرب من كل بيتٍ منها توجد مجموعة من الأكواخ الصغيرة الداكنة.. خمن (كونتا) أن السود يعيشون فيها.

وفي مكان ما بين هذين البيتين العظيمين شاهد زوجين غريبين يسيران على جانب الطريق.. وعندما اقتربت العربة أكثر رأى جلدهما خليطاً من اللونين الأحمر والبني.. ولهما شعر طويل أسود معقود يتعلق لأسفل على ظهريهما مثل الحبل.. كانا يسيران بسرعة وخفة في أحذية وملابس خشنة بدت وكأنها غير مصنوعة من جلود الحيوانات.. وكانا يحملان أقواساً وسهاماً.. لم يكونا (طوبوباً) ومع ذلك فهما ليسا من أفريقيا.. أي نوع من الناس هم ؟

انتهى (كونتا) من صلاة المغرب.. كان يزداد ضعفاً بعد يومين دون قبول أي طعام قُدِمَ له لدرجة أنه كان عليه أن يستلقي في عجز في قاع الصندوق المتحرك ولم يعد يهتم بما يحدث حوله.

ولكن (كونتا) استطاع أن يرفع نفسه لأعلى ثانية وينظر من فوق الحافة عندما توقف الصندوق بعد قليل.. هبط السائق لأسفل وعلق أحد المصابيح بجانب الصندوق وعاد إلى مقعده ثم استأنف الرحلة وبعد فترة طويلة تكلم (الطوبوب) باختصار ورد عليه الأسود.. كانت هذه أول مرة منذ أن خرجوا في هذا اليوم يتبادل الاثنان الحديث.. وقف الصندوق مرة ثانية ونزل السائق وألقى بنوع من الغطاء إلى (كونتا) الذي تجاهله ثم صعد ثانية إلى المقعد وغطى السائق و (الطوبوب) نفسيهما بالأغطية وانطلقا مرة ثانية.

رغم أن (كونتا) سرعان ما بدأ يرتجف إلا أنه رفض أن يمد يده ويجذب الغطاء ويغطي به نفسه وهو لا يرغب أن يعطيهم تلك السعادة والرضا.. فكر أنهما يقدما له الغطاء ومع ذلك يحتفظان به مقيداً.. والسود يقفون متفرجين.. والحقيقة أنهم يقومون بذلك العمل القذر بدلاً من (الطوبوب).. كان (كونتا) يعلم أن عليه أن يهرب من هذا المكان المخيف أو يموت في المحاولة.. حتى وإن لم يرى (جوفور) مرة ثانية.

كان (كونتا) تقريباً مخدراً من البرد عندما دار الصندوق المتحرك فجأة بعيداً عن الطريق الرئيسي إلى طريق أصفر وملئ بالمطبات.. ثم توقفوا أمام بيت.. هبط (الطوبوب) الجالس على المقعد أمامه إلى الأرض بقوة.. ثم تحدث باقتضاب إلى السائق وهو يشير للخلف إلى (كونتا) ثم سار بعيداً نحو البيت.. ولم يظهر سود آخرون وعندما اتجه الصندوق المتحرك إلى الأمام نحو الأكواخ القريبة كان (كونتا) مستقلياً في الخلف وهو يتظاهر بعدم الاهتمام.. ولكنه كان متوتراً وقد نسى آلامه.

أوقف الأسود الصندوق بالقرب من الأكواخ.. وهبط ثقيلاً متكاسلاً إلى الأرض.. ثم اتجه نحو أقرب كوخ والشعلة تتأرجح في يده.. وعندما دفع الباب وفتحه استدار وعاد إلى الصندوق وضع يده تحت المقعد وفك سلسلة (كونتا)..

وأمسك بالطرف الحر في يد وهو يسير حول العربة إلى الخلف.. هز الأسود السلسلة بعنف.. تظاهر (كونتا) بأنه أكثر ضعفاً مما يبدو عليه.. وبدأ يزحف للخلف ببطء قدر المستطاع.. وكما تمنى فقد الأسود صبره.. ومال قريباً عليه.. وبذراع قوية رفع (كونتا) لأعلى من فوق حافة العربة وساعده بركبته المرفوعة ليسقط (كونتا) على الأرض.. وفي تلك اللحظة اندفع (كونتا) واقفاً ويداه تقبضان على رقبة السائق.. سقطت الشعلة على الأرض عندما وسقط الأسود وهو يطلق صرخةً مكتومة.. ثم اندفع كالعاصفة للأمام.. ويداه الكبيرتان تمزق وتلف وتشد وجه (كونتا) وذراعه.. ولكن بطريقة ما وجد (كونتا) في نفسه القوة ليمسك برقبته أقوى ويلوي جسده في يأس ليتجنب ضربات السائق وركلاته بركبته وقدميه.. ولم يخفف (كونتا) قبضته إلا عندما تطوح الأسود للخلف.. ولأسفل وهو يحدث صوت غزغرة عميقة ثم سقط بلا حراك.

قفز (كونتا) ناهضاً وهو يخشى قبل كل شيء أن يسمع نباح كلب آخر.. وانسل بعيداً كالشبح.. كانت جسده يصرخ من الألم وسط البرد والهواء المندفع من كل ناحية.. كان عليه أن يمنع نفسه من الصياح بأعلى صوته سروراً لأنه كان يشعر بالحرية.



رحلة الهروب الأولى

كان يتعمق أكثر فأكثر داخل الغابة.. أو هكذا ظن إلى أن بدأت الأشجار تخف.. واندفع فجأة داخل شجيرات أكثر انخفاضاً.. أمامه كان هناك حقل من القطن البري.. وخلفه أيضاً بيت أبيض كبير آخر بجواره أكواخ صغيرة مظلمة.. أصيب (كونتا) بالدهشة والخوف وقفز عائداً إلى الغابة مدركاً أن كل ما فعله هو عبور مساحة ضيقة تفصل ما بين مزرعتي اثنين من (الطوبوب).. قرفص خلف شجرة.. وبدأ يحس بالآم في يديه وذراعيه وقدميه.. حملق للأسفل في ضوء القمر اللامع.. رأى قدميه مجروحتان وتدميان من قسوة الأشواك.. ولكن الذي أخافه أكثر هو أن القمر كان في السماء بالفعل وقد هبط وسرعان ما سيأتي الفجر.. كان يعرف أنه مهما فعل فإن أمامه وقتاً قصيراً ليواصل الهروب.

أخذ يتحرك وهو يترنح وعرف (كونتا) بعد فترة قصيرة أن عضلاته لن تحمله أكثر من ذلك.. وأن عليه أن يتقهقر إلى أكثر جزء كثافة من الغابة يمكن أن يعثر عليه.. ويختبئ فيه.. لذلك ذهب وهو يشق طريقه عائداً.. وقدماه وذراعاه وساقاه تتشابك مع الفروع إلى أن وجد نفسه أخيراً في أكمة كثيفة من الأشجار.

ورغم أن رئتيه كانتا على وشك الانفجار.. فقد فكر (كونتا) في صعود إحدى الأشجار ولكن نعومة السجادة الناعمة الكثيفة من الأوراق تحت قدميه أخبرته أن العديد من أوراق الشجر قد سقط مما جعل من السهل أن يراه الآخرون ولذلك فإن أحسن اختفاء له يكون على الأرض.

زحف ثانية واستقر أخيراً – عندما بدأت السماء تضاء – في مكان عميق تحت الزرع.. وفيما عدا صوت تنفسه كان كل شيء ثابتاً.. وذكره ذلك بحراساته اليقظة الطويلة – وهو وحيد – في حقول الفول السوداني مع كلبه (الوولو) المخلص الأمين.. ووقتها فقط سمع عن بعد نباح كلب.. ربما سمعه فقط في عقله فانتفض منتبهاً وأصاخ أذنيه.. ولكن النباح جاء ثانية ولكن هذه المرة كان نباح كلبين.. لم يكن لديه وقت كاف.

ركع ناحية الشرق.. وصلى إلى الله من أجل الخلاص.. وعندما انتهى جاء النباح العميق مرة ثانية أقرب هذه المرة لقد كان من الأفضل أن يظل مختبئاً حيث هو.. ولكنه سمع النباح مرة ثانية لا يزال يقترب.. بعد دقائق قليلة بدأ أنهم يعرفون بالضبط أين هو.. ولن تتركه ساقاه يبقى حيث هو لحظة أخرى.

زحف ثانية تحت الشجيرات بحثاً عن مكان أعمق وأكثر سرية.. كانت كل بوصة يزحفها وسط الأشواك التي تصطدم بيديه وركبتيه بمثابة عذاب ولكن مع كل نباح يصدر من الكلاب كان يسرع أكثر فأكثر متخبطاً.. ومع ذلك لا يزال نباح الكلاب يزداد ارتفاعاً واقتراباً وكان (كونتا) واثقاً بأنه يستطيع أن يسمع الآن صياح الرجال خلف الكلاب.

لم يكن يتحرك بالسرعة الكافية.. قفز لأعلى وبدأ يجري وهو يتخبط وسط الأغصان بأقصى ما يستطيعه من سرعة وهدوء في الحال تقريباً سمع انفجاراً.. قيدت الصدمة ركبتيه.. وجعلته يتدحرج وسط شبكة من الأغصان الكثيفة.. ارتجف (كونتا) في رعب واستطاع حتى أن يشمهم وبعد فترة كانوا يندفعون خلال الشجيرات نحوه مباشرة.. نهض (كونتا) على ركبتيه عندما اندفع نحوه الكلبان وسط الأكمة.. وقفزا عليه وهما ينبحان ويلعقانه ويطرحانه أرضاً.. ويركبان فوقه.. زمجر (كونتا) وقاوم بوحشية ليبعدهما عنه مستخدماً يديه كالمخالب.. بينما حاول أن يزحف للخلف بعيداً عنهما ثم سمع الرجال يصيحون من طرف الأكمة ومرة ثانية حدث انفجار وكان هذه المرة أكثر ارتفاعاً.. وعندما أبطأ الكلبان إلى حد ما في هجومهما سمع (كونتا) الرجال يسبون ويلعنون وهم يشقون طريقهم خلال الشجيرات بواسطة السكاكين.

خلف الكلبين المزمجرين رأى أولاً الرجل الأسود الذي سبق أن خنقه وكان ممسكاً بسكين هائلة وفي اليد الأخرى عصا قصيرة وحبل وقد بدأ سفاحاً متعطشاً للدماء.. استلقى (كونتا) ينزف الدماء على ظهره وقد ضم فكيه بقوة حتى لا يصرخ وهو يتوقع أن يقطع إلى قطع..

ثم رأى (كونتا) (الطوبوب) الذي أحضرة إلى هنا يظهر خلف الرجل الأسود.. وكان وجهه محمراً وغارقاً في العرق.. واندفع الرجل الأسود للأمام في غضب جامح رافعاً عصاه عندما صاح كبير (الطوبوب).. وقف الرجل الأسود وصاح (الطوبوب) في الكلبين الذين انسحبا للخلف.. ثم قال (الطوبوب) شيئاً للرجل الأسود الذي تحرك للأمام وهو يفرد حبله.. تلقى(كونتا) ضربة ثقيلة على رأسه جعلته في حالة يرثى لها.. كان مدركاً بدرجة غامضة أنه رُفع لأعلى.. وقُيد بشدة لدرجة أن الحبل حز في جسمه الذي ينزف.. ثم رُفع نصف رفعة من بين الأغصان.. وأُجبِرَ على السير.. وكلما فقد توازنه وسقط على الأرض كان السوط ينزل على ظهره.. وعندما وصلوا أخيراً إلى حافة الغابة رأى (كونتا) ثلاثة من الحيوانات التي تشبه الحمير مربوطة بالقرب من أشجار عديدة.. وعندما اقتربوا منها حاول أن يلفت مرة ثانية.. ولكنهم شدوه شدة عنيفة من طرف الحبل الحر.. مما جعله يترنح.. ويسقط على الأرض.. ونال ركلةً في ضلوعه.. الآن (الطوبوب) الثاني هو يمسك الحبل.. تحرك أمام (كونتا) وهو يهز ويطوحه نحو شجرة بالقرب من مكان ربط الحيوانات.. كان طرف الحبل الحر قد أُلقِيَ فوق فرع شجرة منخفض.. وشده الرجل الأسود لأعلى إلى أن لمست قدما (كونتا) بالكاد الأرض.

بدأ صفير السوط مع (الطوبوب) يلهب ظهر (كونتا) كان يتلوى تحت الألم رافضاً أن يصدر أي صوت.. ولكن كل ضربة تبدو وكأنها تقسمه إلى نصفين.. وأخيراً بدأ الصراخ ولكن ضرب السياط استمر.

كان (كونتا) بالكاد مدركاً عندما توقف السوط أخيراً.. وأحس أنه أُنزل من أعلى.. وأخذ يتكوم فوق الأرض.. ثم رُفع بعد ذلك ووضع على ظهر أحد الحيوانات بعدها شعر بالحركة.

كان الشيء التالي الذي عرفه (كونتا) أنه لم يكن لديه أية فكرة كم مضى من الوقت.. كان ملقي مفرود الذراعين والساقين على ظهره في كوخٍ ما.. ولاحظ أنه مربوط بسلسلة بأصفاد حديدية على الرسغين.. والكاحلين.. وأن السلاسل الأربع مثبتة في قاعدة لها أربعة أعمدة في أركان الكوخ..

وحتى أقل حركة كانت تنتج ألماً مبرحاً لدرجة أنه ظل فترة طويلة مستلقياً بلا حركة تماماً.. وكان وجهه مبتلاً بالعرق وأنفاسه تأتي في شهقات سريعة وقصيرة.. ودون أي حركة كان يستطيع أن يرى أن مسافة صغيرة مربعة مفتوحة فوقه تسمح بدخول ضوء النهار.

عندما بدأ الغسق خلال الفتحة أعلاه سمع (كونتا) عن قريب جداً منه صوت نفير غريب.. شعر أن عديد من السود يمرون بجوار المكان الموجود فيه.. ثم شم رائحة الطهي.. وعندما اختلطت عصارات الجوع مع الطرقات في رأسه.. والآلام المضنية في ظهره وذراعيه المجروحين وساقيه لام نفسه على أنه لم ينتظر لوقت أفضل للهرب

كما كان يفعل الحيوان المحاصر في الفخ.. كان عليه أولاً أن يراقب ويتعلم أكثر عن ذلك المكان الغريب وعن أهله الملحدين.

أغلق (كونتا) عيناه عندما انفتح باب الكوخ محدثاً صريراً.. كان يستطيع أن يشم الأسود الذي خنقه.. والذي ساعد في الإمساك به.. استلقى ثابتاً وتظاهر بالنوم إلى أن تلقى ركلة قاسية في ضلوعه جعلته بفتح عينيه في الحال.. وضع الأسود وهو يسب ويلعن شيئاً أمام وجه (كونتا) وألقى بغطاء على جسده ثم خرج وهو يصفق الباب خلفه.

آلمت رائحة الطعام أمام (كونتا) معدته مثل الآلام التي كان يحسها في ظهره.. أخيراً فتح عينيه.. كان هناك نوع من العصيدة واللحم مكومة فوق صفيحة مستديرة مسطحة.. وقرعة مستديرة من الماء بجانبها..

كان ذراعاه المفرودتان مثل النسر يجعل من المستحيل عليه أن يلتقط الطعام أو الماء ولكن كلاهما كان قريباً بما يكفي أن يصلا إلى فمه.. وعندما هم أن يأخذ قضمة شم (كونتا) اللحم ووجد أنه لحم خنزير نجس.. وفي الحال خرج كل ما في بطنه من فمه فوق العصيدة.

عند الفجر مباشرة سمع (كونتا) صوت النفير الغريب مرة أخرى.. ثم انبعثت رائحة الطعام وأصوات السود يتسارعون للأمام والخلف.. ثم عاد نفس الرجل وأحضر طعاماً جديداً وماء.. وعندما رأى (كونتا) لم يأكل أخذ يكيل له السباب الغاضب.. ودعك محتويات الصحن في وجهه.. ثم وضع الطعام والماء الجديد أمامه ورحل.. لقد كان (كونتا) مريضاً لدرجة كبيرة.. وبعد فترة قصيرة سمع الباب يفتح ثانية.. أبقى (كونتا) عينيه مغمضتين

ولكن عندما همهم (الطوبوب) غاضباً خشي أن يركله من جديد ففتحها.. ووجد نفسه يحملق إلى الوجه الكريه لـ (طوبوب) الذي أحضره لهذا المكان.. وجه له (الطوبوب)حركات تهديدية إذا لم يأكل الطعام فإنه سيحصل على المزيد من الضرب.. ثم رحل.



أنت اسمك (طوبى)

أربعة أيام وثلاث ليال و(كونتا) مازال في الكوخ.. وفي كل ليلة كان يستلقى وهو ينصت إلى الغناء القادم من الأكواخ القريبة.. وأحس أنه أفريقي أكثر مما كان في بلاده وفي قريته.. فكر أي نوع من الناس يمكن أن يكون هؤلاء ليقضوا وقتهم وهم يغنون في أرض (الطوبوب) تساءل كم عدد هؤلاء السود الغرباء في كل أرض (الطوبوب) هؤلاء الذين لا يبدو عليهم أنهم يعرفون أو يهتمون بمن هم ولا من أين.

وفي الصباح الخامس دخل الأسود بعد الاستيقاظ بوقتٍ قصير وتوترت أعصاب (كونتا) عندما رأى أنه مع عصاه الصغيرة المعتادة كان الرجل يحمل زوجاً من الأصفاد الحديدية السميكة.. مال لأسفل.. وأغلق كل واحد حول كاحلي (كونتا) وربطهما بسلاسل ثقيلة فقط وقتها حل السلاسل الأربع واحدة بعد الأخرى والتي جعلت (كونتا) مبعد الساقين والذراعين .. أخيراً أصبح (كونتا) حراً في الحركة.. لم يستطع أن يمنع نفسه من القفز للأمام ولكن الأسود ضربه بقبضة يده وألقى به أرضاً.. عندما بدأ (كونتا) يرفع نفسه للنهوض مرة ثانية يستطع.. فلم يكن قد أدرك أن الأيام الرقاد الطويلة قد سحبت قوته.. وها هو الآن مستلق على ظهره يصارع فقط من أجل أن يتنفس.. ووقف الرجل الأسود فوقه وعلى وجهه تعبير يقول أنه سيستمر في صراعه إلى أن يتعلم من منهما السيد.

أشار الأسود بخشونة لـ (كونتا) أن ينهض.. وعندما لم يستطع أن يرفع جسده شده الأسود على قدميه.. وهو يلعنه ثم دفعه للأمام وقد أجبرت أصفاد الكاحلين (كونتا) أن يتقافز بطريقة مضحكة.

كانت قوة ضوء النهار في مدخل الباب قد أعمت (كونتا) في البداية.. ولكن بعد لحظة بدأ يميز الناس وهم يسيرون بسرعة بالقرب من الكوخ في صف واحد يتبعهم عن قرب (طوبوب) يمتطي حصاناً كما سمع الآخرين يسمون ذلك الحيوان الغريب.. وعرف (كونتا) من رائحته أنه الرجل الذي أمسك بالحبل بعد أن حوصر (كونتا) بواسطة الكلاب..

كان هناك حوالي عشرة أو أثنى عشر أسود والنساء ذات القماشات البيضاء أو الحمراء المربوطة فوق رؤوسهن ومعظم الرجال والأطفال يرتدون قبعات مهلهلة من القش ولكن القليل منهم كان عاري الرأس.. والبعض من الرجال حملوا ما بدا أنه مطواة كشاف طويلة وبدأ الصف يتجه إلى الحقول الكبرى.. ظن أنهم لابد هم الذين سمعهم في الليل يقومون بكل ذلك الغناء.

لم يحس نحوهم سوى بالاحتقار.. أدار عينيه وهما تطرفان.. وَعَدَ الأكواخ التي جاؤوا منها.. كانت عشرة بما فيها كوخه.. وكلها صغيرة.. كانوا مرصوصين في صفين.. ولاحظ (كونتا) أن كلا منها موجه بحيث يمكن رؤية أي شخص يدخله أو يغادره من البيت الكبير الأبيض.

فجأة بدأ الرجل الأسود يغرز أصبعه في صدر (كونتا) ثم يصيح: أنت.. أنت (طوبي) !

لم يفهم (كونتا) وبدأ على وجهه ذلك لذلك ظل الأسود يغرز أصبعه ويقول نفس الشيء مرة بعد مرة.. ببطء وضح لـ (كونتا) أن الرجل الأسود يحاول أن يجعله يفهم شيئاً ما يقوله بلغة (الطوبوب).

وعندما استمر (كونتا) يحملق في بلاهةٍ إليه بدأ الأسود يشير إلى صدره هو قائلاً: أنا(سمسمون).. (سمسمون) ثم حرك إصبعه مرة ثانية نحو (كونتا) وقال:

- أنت (طوبي) .. اسمك (طوبي) عندها بدأ (كونتا) يفهم.. بذل أقصى جهده ليسيطر على غضبه الجامح دون أن تبدو عليه أية علامات في الوجه على أنهم يفهم.. أراد أن يصرخ أنا (كونتا كينتي) ابن الرجل المقدس كايرابا (كونتا كينتي)!.

فقد الرجل الأسود صبره مع غباء (كونتا) الواضح فأخذ يسب ويلعن ويهز كتفيه وقاده وهو يتقافز إلى كوخ آخر حيث أشار إلى (كونتا) أن يغسل نفسه في حوض واسع من الصفيح به بعض الماء.. ألقى الرجل الأسود إليه في الماء ليفة.. وكتلة بنية عرف(كونتا) أنها صابون.. راقب الرجل الأسود وهو يزمجر وانتهز (كونتا) الفرصة ليغسل نفسه.. وبعد أن اغتسل ألقى إليه الرجل الأسود بتنورة (طوبوب) ليغطي صدره وساقيه.. ثم قبعة من القش الأصفر مثل التي يرتديها الآخرون.

بعد ذلك قاده الرجل الأسود إلى كوخٍ آخر.. وبداخله ألقت امرأة عجوز في ملل أمام (كونتا) صفيحة مسطحة من الطعام.. ابتلع العصيدة السميكة.. وخبزاً يشبه فطيرة (المونكو) وابتلع ذلك ببعض الحساء الساخن من لحم البقر من قرعة.. بعد ذلك ذهبوا إلى كوخ ضيق مزدحم أخبرته رائحته عن أنه سبق استخدامه.. تظاهر بأنه يشد لأسفل تنورته.. جلس الرجل الأسود على ثقب واسع مفرغ وسط مقعد خشبي.. وأخذ ينخر كالخنزير وكأنه يريح نفسه.. كان هناك كومة من كيزان الذرة ملقاة في أحد الأركان.. بعدها قاده الرجل الأسود مارا بالأكواخ القليلة التالية.. فهذا رجل كبير في السن جالس في مقعد غريب.. كان يتأرجح للخلف والأمام وهو ينسج حطب الذرة.. فيما خمن (كونتا) أنها مكنسة.. دون أن ينظر إلى أعلى.. ألقى عليه نظرةً قاسيةً ولكن (كونتا) تجاهله في برود.. التقط الرجل الأسود سكيناً طويلة وحادة من تلك السكاكين التي رأى الآخرين يحملونها.. وأشار برأسه نحو الحقل البعيد وهو يزمجر ويلوح لـ (كونتا) أن يتبعه.

أخذ يتقافز في أصفاده الحديدية التي كانت تحيط بكاحليه استطاع أن يرى الحقل أمامه حيث كان الشباب والشابات السود الأصغر سناً ينحنون لأسفل وأعلى ويجمعون كيزان الذرة الجافة.. ويكومونها خلف الرجال الأكبر سناً أمامهم.. والذين كانوا يسقطون أعواد الذرة بضربات دائرية من سكاكينهم الطويلة.

كانت معظم ظهور الرجال عارية وتلمع بالعرق.. بحثت عيناه عن أي علامة حديدية كالتي يحملها على ظهره.. ولكنه لم يشاهد سوى الندب التي تركتها السياط.. ركب (الطوبوب) حصانه وتبادل كلمات مقتضبة مع الرجل الأسود ثم ركز نظرة تهديد على (كونتا) عندما أشار إليه الرجل الأسود ليلفت انتباهه.

قطع الأسود حوالي دستة من أعواد الذرة ثم استدار ومال وأتى بحركة نحو (كونتا) ليرفعها ويكومها مثلما

كان الآخرون يفعلون.. شد (الطوبوب) جواده بالقرب من (كونتا) وقد رفع سوطه وبدأ التهجم عليه إذا رفض أن يطيع.. ثار على ضعفه وانحنى (كونتا) لأسفل والتقط حزمتين من الذرة.. عندما تردد سمع الأسود وهو يطوح بسكينه للأمام.. مال ثانيةً لأسفل.. والتقط حزمتين أخريين واثنتين أخريين.. كان السود الآخرين يحملقون إليه من بين صفوفهم المتلاحمة.

أدار رأسه في الجهة الأخرى واستطاع أن يرى حافة الغابة التي حاول أن يهرب إليها.. ومن حيث كان يكوم حزم الذرة استطاع أن يرى مدى ضيق الغابة مما ساعد على الإمساك به.. على أية حال فهو لن يستطيع أن يخطو خمس خطوات عبر الحقل وهو يرتدي تلك القيود الحديدية.. وبينما هو يعمل بعد الظهر قرر (كونتا) أنه قبل أن يحاول هروبه القادم يجب أن يجهز لنفسه نوعاً من السلاح لمحاربة الكلاب والرجال به.. ولا يجب على ابن (أمورر كينتي) أن يفكر أبداً في الاستسلام.

قطع أفكاره صوت طرقعة سوط (الطوبوب) راكباً حصانه لتوجيه (كونتا) إلى نهاية الصف.. وعندما أطاع.. خطت المرأة التي كانت في نهاية الخط خطوات سريعة للأمام وهي تحاول قد استطاعتها أن تبتعد عن (كونتا) شعر وكأنه يريد أن يبصق عليها.

وعندما بدؤوا في السير كانت كل خطوة متعثرة تشد كاحله الذي تسلخ وبدأ يسيل منه الدم.. سمع (كونتا) بعض الكلاب تنبح بعيداً ارتجف وهو يتذكر هذه الكلاب التي تتبعت آثاره وهاجمته ثم تذكر كلبه " الوولو" الذى مات وهو يحارب الرجال الذين أسروه في أفريقيا.

عندما عاد إلى كوخه صلى (كونتا) لوقت طويل ليعوض الصلاتين اللتين لم يكن قادراً على أدائهما في الحقول بالخارج واللتين كانتا ستقاطعان بالتأكيد بضرب السياط على ظهره من (الطوبوب) الذي كان يمتطي الحصان.

وبعد أن انتهى من صلاته جلس (كونتا) القرفصاء وتكلم برقة لفترة بلغة "السيراكانجو " السرية سائلاً أسلافه أن يساعدوه على التحمل.. ثم ضغط بين أصابعه ريشتين من ريش الديك استطاع أن يلتقطهما دون أن يلاحظ بينما (سامسون) يقوده في المنطقة هذا الصباح.. وتساءل متى ستتاح له الفرصة لأن يسرق بيضة طازجة.. فبواسطة ريش الديك.. وبعض قشر البيض الطازج المسحوق الناعم سيكون قادراً على إعداد تميمة قوية للأرواح التي سيسألها أن تبارك التراب الذي لمسته آخر خطواته.. في تلك القرية وإذا كان ذلك التراب مقدساً فإن آثار أقدامه قد تظهر ثانية في يوم ما في (جوفور) وسيسعدون بهذه الإشارة بأن (كونتا كينتي) لا يزال على قيد الحياة وأنه سيعود سالماً إلى قريته في يوم ما.

للمرة الألف استعاد ذكرى أسره كانت كابوساً.. ظهرت دموع الغضب في عينيه.. بدا له الأمر وكأنه أشهر قمرية بلا نهاية.. وأن كل ما عرفه هو كونه كان مُطارداً.. وهوجم.. وأُسِرَ .. على أية حال هو الآن رجل.. وسنه سبع عشرة سنة مطرية.. مسح دموعه وزحف إلى مرتبته الرفيعة المصنوعة من قش الذرة الجاف.. وحاول أن يستغرق في النوم.. ولكن كل ما كان يفكر فيه هو اسم (طوبي) الذي منحوه له.. وصعد الغضب بداخله مرة ثانية.. ركل ساقيه في غضب عارم وهو محبط.. ولكن الحركة حركت الأصفاد الحديدية وانغرست أكثر في كاحليه مما جعله يصرخ ثانية.. هل يمكن أن يكبر ليصبح رجلاً مثل (أمورو)؟ تساءل أن كان والده لا يزال يفكر فيه.. وعما إذا كانت أمه قد أعطت (لامين) و(سوادو) و(مادي) الحب الذي انتزع منها بعيداً عندما سرقوه.. كيف أنه لم يدرك قط مدى عمق حبه لقريته.. بقي(كونتا) مستقلياً نصف الليل ومشاهداً (جوفور) تمر بسرعة البرق خلال عقله.. إلى أن أجبر نفسه في النهاية على غلق عينيه حتى يأتيه النوم.

***

مع كل يوم يمر كانت القيود على كاحليه تجعل الأمر يزداد سوءاً بعد يوم وتزداد صعوبة حركته.. ولكنه ظل يقول لنفسه أن فرص الحصول على الحرية تعتمد على استمراره في إجبار نفسه أن يفعل أي شيء يطلبونه منه.

كل ذلك كان يخفيه خلف قناع من الخواء والغباء التام.. بينما كانت عيناه وأذناه لا يفوتها أي شيء.. أي سلاح قد يستخدمه.. وأي ضعف (طوبوبي) قد يستغله إلى أن يقوم آسروه بحل قيوده وأصفاده ثم وقتها سيهرب مرةً ثانية.

وبعد أن ينطلق النفير كل صباح مباشرة كان يخرج (كونتا) وهو يعرج ليراقب السود وهم يخرجون من أكواخهم ولا زال النعاس على وجوههم وهم ينثرون على وجوههم الماء من دلاء تسحب من البئر القريبة.. اشتاق إلى صوت أيدي الهاون عندما تقوم النساء بدق الشعير وطحنه من أجل وجبات إفطار عائلاتهن.. كان يدخل كوخ المرأة العجوز ويلتهم ما تعطيه له.. أى شيءٍ عدا لحم الخنزير النجس.

بينما كان يأكل كل صباح كانت عيناه تبحثان في الكوخ عن أى سلاح قد يراه دون أن ينكشف أمره.. ولكن فيما عدا أدوات الطعام السوداء المعلقة على خطاطيف فوق المدفأة كان هناك فقط الأشياء الصفيحية الرقيقة والمسطحة التي كانت المرأة الطاهية العجوز تصنع له بها ما يأكله.. كان قد رآها تأكل بشيء أسطواني معدني له ثلاثة أو أربعة رؤوس متقاربة لتلقط الطعام بها.. وتساءل ما هو؟ وفكر أنه رغم كون هذا الشيء صغيراً إلا أنه قد يكون مفيداً لو فقط استطاع أن يلمح عينيها بعيدتين ولو للحظات عندما يكون ذلك الشيء اللامع قريباً منه.. وفي صباح أحد الأيام كان يأكل عصيدته ويراقب المرأة الطاهية تقطع قطعةً من اللحم بسكين لم يره من قبل.. وقبل أن يخطط ما الذي يستطيع أن يفعله به.. سمع صرخة احتضار ثاقبة خارج الكوخ.. كانت قريبة جداً لدرجة أنه أوشك أن يقفز من فوق مقعده.. خرج وهو يتقافز للخارج فوجد الآخرين وقد اصطفوا بالفعل من أجل العمل..

والبعض منهم لا يزال يمضغ آخر لقمة من إفطاره وإلا سينالون ضرب السياط على تأخرهم.. بينما بجوارهم استلقى خنزير برى وهو يدفع الدماء من رقبته التي لا تزال تنبض.. عندها رفعه رجلان أسودان.. وألقيا به في وعاء به ماء ساخن.. ثم يسحبانه من الوعاء ويكشطان شعره.. كان جلد الخنزير بلون بشرة (الطوبوب) لاحظ (كونتا) ذلك وهما يعلقانه من كعبيه.. ويفتحان كرشه وينزعان ما بداخله.. سد (كونتا) أنفه عندما شم رائحة الأمعاء.. وذهب بعيداً مع الآخرين نحو الحقول.. كان عليه أن يكتم رجفة الاشمئزاز والقرف أمام فكرة أنه مضطر لأن يعيش بين هؤلاء الكفرة آكلي مثل هذا الحيوان النجس.

كان الجليد يتجمع كل صباح فوق حزم الذرة.. بينما الضباب الغائم يظلل الحقول إلى أن تبدده الشمس الصاعدة.. كانت قدرات الله لا تكف عن إدهاش (كونتا) حتى في مكان بعيد مثل أرض (الطوبوب) هذه هي عبرة الحياة الكبرى.

وكانت شمس الله وقمره لا يزالان يرتفعان.. ويعبران السماء.. ورغم أن الشمس ليست حارة لهذه الدرجة.. ولا القمر جميلاً لهذه الدرجة كما هما في (جوفور).. كلها من صنع الله سبحانه وتعالى.. فقط الناس في هذه الأرض الملعونة هم الذين بدوا وكأنهم ليسوا من صنع الله.. لقد كان (الطوبوب) من غير البشر.

كان "(كونتا) " في كل يوم يشم الثريد بطريقة غريبة ليتأكد من أن المرأة لم تضع فيه أي لحم خنزير.. ولكنه كان عادة ما يحتوي فقط على خضروات ولا يرى أي لحم أو يشمه على الإطلاق.. كان يحس أفضل عند تناوله الخبز لأنه رأى بعض النساء السوداوات يصنعن الدقيق من الذرة بدقة في الهاونات بيد حجرية تقريباً.. كما كان يصنع في (أفريقيا) رغم أن هاون (بينتا) كان مصنوعاً من الخشب.

وفي بعض الأيام كانوا يقدمون طعاماً كان (كونتا) يعرفه في قريته وبيته يسمونه هنا (البامية).. وكانوا يحبون الفاكهة الضخمة التي تسمى (الشمام) ولكنه رأى أن الله بدا وكأنه حرم هؤلاء الناس من المانجو والبلح والموز.. وكذلك العديد من الفواكه اللذيذة الأخرى التي تنمو في كل مكانٍ في "أفريقيا ".

ومن حين لآخر كان (الطوبوب) الذي أحضر (كونتا) لهذا المكان والذي ينادونه (السيد) يتفقدهم في الحقول وهم يعملون.. وكان مرتدياً قبعته الخوص الأكثر بياضاً وهو يتكلم مع رئيس (طوبوب) الحقول.. ولاحظ أن (الطوبوب) السيد الأكبر يبتسم في مرح مثلما يفعل كل السود عندما يكون موجوداً بينهم في المنطقة.

يبدو أن هؤلاء السود لا يوجد في حياتهم أي اهتمام غير إسعاد (الطوبوب) وكيف أنهم عندما يتحدث (الطوبوب) معهم فإنهم يندفعون ليفعلوا أي شيء يقوله لهم.. لم يكن (كونتا) يتخيل ما الذي حدث ليفسد عقولهم لدرجة أنهم يتصرفون كالماعز أو القردة.. ربما لأنهم ولدوا في هذا المكان بدلاً من أفريقيا.. ولأن البيت الوحيد الذي عرفوه هو أكواخ (الطوبوب) المصنوعة من كتل الخشب الملتصقة ببعضها بالطين وبقايا الخنازير.. هؤلاء السود لم يعرفوا قط ما معنى العرق تحت الشمس ليس من أجل السادة (الطوبوب) وإنما من أجل أنفسهم وشعوبهم.. ومهما كانت الفترة التي سيبقى فيها بينهم فإن (كونتا) أقسم ألا يصبح أبداً مثلهم.. وفي كل ليلة كان عقله يدرس طرقاً جديدة للهرب من هذه الأرض الحقيرة.. ولم يستطع أن يكف عن تأنيب نفسه كل ليلة على فشله السابق في الهروب..

كان يعلم أنه لابد سيضع خطة أفضل في المرة القادمة.. أولاً عليه أن يصنع تعويذة حماية على ذراعه ليضمن السلامة والنجاح.. ثم عليه إما أن يجد نوعاً من السلاح أو يصنعه.. حتى ولو كان عصا مسنونة يمكن أن تخترق بطون تلك الكلاب.. وكان بإمكانه أن يهرب بعيداً قبل أن يستطيع الرجل الأسود و(الطوبوب) ملاحقته.. وأخيراً يجب عليه أن يعود نفسه على الريف المحيط به حتى إذا ما هرب ثانيةً يمكنه أن يعرف كيف يبحث عن أماكن أفضل يهرب إليها.. ورغم أنه غالباً ما كان يبقى مستيقظاً نصف الليل يناقش مع نفسه هذه الأفكار إلا أنه كان يستيقظ قبل صباح الديوك التي دائماً ما توقظ الناس الآخرين.

***

عندما تمت عملية قطع حزم الذرة وتكويمها أخيراً.. كان المراقب قد بدأ يوزع على بعض السود بعض المهام المختلفة بعد أن ينطلق صوت النفير في كل فجر.. وفي صباح أحد الأيام كلف (كونتا) بمهمة فك الأكوام.. ووضع الحِزم فوق العربة بعد أن عرف أنها اسم الصناديق المتحركة مليئة بما يسمى بالقرع العسلي.. ركب فوق عربة القرع العسلي حتى ينزلها في مبنى ضخم يسمى مخزن الحبوب.. وكان (كونتا) قادراً على أن يرى بعضاً من الرجال السود وهم ينشرون شجرة ضخمة إلى مقاطع سميكة يقطعونها بالفؤوس إلى قطع خاصة بالمدفأة.. وكان الأطفال يرصونها في صفوف طويلة وعالية بارتفاع رؤوسهم.. وفي أماكن أخرى كان أنفه يخبره برائحة التبغ القذر الخاص بالملحدين.. وكان قد شمه من قبل في إحدى الرحلات التي قام بها مع والده.

وانقلبت معدته وهو يسمع ويشاهد المزيد من الخنازير تُذبح من آنٍ لآخر.. كان شعرها كما لاحظ يجفف ويحتفظ بما ربما من أجل إضافته إلى مونة البناء.. ولكن الشيء الذي أصابه بالغثيان حقاً هو أن يرى أمعاء الخنازير تزال وتنفخ وتربط من طرفيها وتعلق لتجف على السياج.. والله وحده يعرف في أي غرض تستخدم.

وعندما انتهى من حصاد وتخزين القرع العسلي.. أرسل (كونتا) عدة مرات مع عديدين آخرين إلى أكمة أشجار وطلب منهم أن يهزوا سيقانها بشدة حتى تسقط ثمرات الجوز النامية عليها على الأرض حيث تلتقط بواسطة أطفال المرحلة الأولى الذين يحملون السلال.. التقط (كونتا) إحدى ثمار الجوز وخبأها في ملابسه ليحاول فيما بعد عندما يكون بمفرده أن يجربها وقد وجد أنها ليست سيئة.

كان محصول الحصاد يوضع في المخازن.. وحتى قبل نفير المساء ينطلق ليعلن نهاية يوم العمل كان بعض السود يبدأون في المرح والرقص والغناء فيما بينهم.

وفي المساء كان (كونتا) يجلس على جانب الطريق في مدخل كوخه مباشرة.. وقد فرد كعبيه على تراب الأرض ليقلل من احتكاك الأصفاد مع كاحليه المصابين.. يتذكر أيام طفولته وصباه في قريته .

أحس بأن الله لسببٍ ما أراد له أن يكون هنا في هذا المكان وسط قبيلة ضائعة لعائلة سوداء عظيمة وصلت جذورها إلى جدوده القدامى.. ولكن هؤلاء السود ليسوا مثله ليست لديهم أية معلومات عمن يكونون وماذا كانوا ومن أين آتوا.. كان (كونتا) يشعر بطريقة غريبة بوجود جده المقدس كايرابا (كونتا كينتي) بجانبه.. وبدأ يتكلم معه بصوتٍ عال وهو يرجوه أن يعلن عن الغرض من وجوده هنا إذا كان هناك هدف.

وفي صباح اليوم التالي عدما انضم إلى الآخرين في الصف ليسيروا إلى العمل ضبط (كونتا) نفسه وهو يقول لهم (صباح الخير) كما كان يسمعهم يحيي كل منهم الآخر.. خطر على باله أن هؤلاء السود يخفون مشاعرهم الحقيقية لل (طوبوب) بنفس الحرص الذي يتبعه هو عند تغيير مسلكه نحوهم.. لقد شهد حتى الآن أوقاتاً كانت وجوه السود المبتسمة تتحول إلى المرارة في اللحظة التي يدير فيها (الطوبوب) ظهره بعيداً.

وقد رآهم وهم يحطمون أدوات عملهم عن عمد.. ثم يتصرفون وكأنهم لا يعرفون على الإطلاق كيف حدث ذلك عندما يلعنهم الملاحظ في مرارة لغبائهم.. وقد رأى كيف أن السود في الحقل من أجل استعراض اندفاعهم واهتمامهم كلما كان (الطوبوب) في الجوار ولكنهم في الحقيقة كانوا يستغرقون ضعف الوقت الذي يحتاجونه لأداء أي شيء.

كان قد بدأ يدرك أيضاً أنه على طريقة لغة الـ(مانديكا) السرية المسماة (سيراكانجو) فإن هؤلاء السود كانوا يتواصلون فيما بينهم بنوعٍ ما من الاتصالات معروفة فقط لهم.. وأحياناً عندما يكونوا بالخارج فإن (كونتا) قد يلاحظ حركات صغيرة وسريعة أو إيماءة من الرأس بينهم.. أو يصدر واحدٌ منهم صيحة غريبة ومقتضبة غير متوقعة ويكررها أكثر من مرة بعيداً عن مسامع المراقب وهو ممتطياً جواده..

وأحياناً وهو موجود بينهم يبدؤون الغناء مما يخبر (كونتا) حتى وإن لم يفهم أن ذلك رسالة ما بينهم.. تماماً مثلما كانت النساء يفعلن مع الرجال في السفينة الضخمة.

وعندما ينزل الظلام بين الأكواخ ولا تلمع أضواء المصباح من النوافذ في البيت الضخم كانت أذنا (كونتا) الحادتان يمكن أن تستكشف صوتاً واحداً أو اثنين من السود وهو ينسل بعيداً من صف العبيد وبعد ساعات ينسل عائداً ثانية.. كان يتساءل إلى أين يذهبون..

وعلى بعد كوخين كان يجلس السود حول النيران الصغيرة للمرأة الطاهية العجوز في كل مساء بعد العشاء والمنظر قد يملأ (كونتا) بذكرى محزنة.. عن (جوفور) فيما عدا أن النساء هنا يجلسن مع الرجال.. والبعض من الجنسين كانوا يدخنون التبغ عن طريق الغليون الذي كان من حين لآخر يلمع لهيبه في الظلام.. وكان (كونتا) ينصت بانتباه من حيث كان يجلس أمام كوخه.. ورغم أنه لم يكن يستطيع أن يفهم الكلمات إلا أنه كان يشعر المرارة في لهجتهم.

وتلك الاجتماعات المسائية كان لها نمط عام تعلمه (كونتا) فالمتكلم المعتاد الأول كان عادة امرأة وهي المرأة التي تطهو الطعام في البيت الكبير الأبيض.. وكانت تقلد الأشياء التي يقولها كل من السيد والسيدة.. ثم يسمع الأسود الضخم الذي أسره وهو يقلد (المراقب) وكان ينصت في دهشة إلى الجميع وهم يحاولون أن يكتموا ضحكاتهم خوفاً من أن يسمعهم من في البيت الأبيض الكبير.

حتى وإن لم يلتقط سوى القليل مما يتناقشون فيه فقد كان لديه إحساس بأنهم يسترجعون ذكرى أشياء حدثت لهم في وقت سابق في حياتهم.. وبعض النساء بشكل خاص قد يتكلمن ثم فجأة ينفجرن في البكاء.. وأخيراً قد يهدأ الحديث عندما تبدأ إحدى النساء في الغناء وينضم إليها الآخرون لم يكن (كونتا) يفهم الكلمات ولكنه كان يشعر بالحزن في غناءهم.

وأخيراً يأتي صوت أكبر الرجال سناً.. وهو الشخص الذي يجلس على المقعد الهزاز وهو يجدل أشياء من قش الذرة.. وهو أيضاً الذي يطلق النفير المصنوع من المحار.. ويحني الآخرون رؤوسهم وبعدها يبدأ في الحديث ببطء في نوعٍ من الصلاة.. إنها بالتأكيد ليست إلى رب كونتا.. ولكنه تذكر ما قاله الحكيم العجوز في السفينة الضخمة (الله يعرف كل اللغات) كان صوت الرجل يقول : آه يا مولاي ! وتساءل عما إذا كان " مولاي " هذا هو الله !.

عندما عاد ثانية إلى كوخه فكر أنه بطريقةٍ ما قوية وعميقة وغريبة كان (الطوبوب) والسود يحتاج كل منهم للآخر.. وبدا له أن (الطوبوب) كانوا في أقصى حالات سعادتهم عندما كانوا قريبين جداً من السود حتى وإن كانوا يضربونهم.

***

أصبح كاحل (كونتا) الشمال مصاباً للغاية لدرجة أن الصديد كان ينزل من الجرح ويغطي الأصفاد الحديدية بطبقة لزجة صفراء.. وقد تسبب عرجه في جعل المراقب يلقي عليه نظرة قريبة.. أشاح برأسه بعيداً.. وأمر (سمسون) أن يرفع الأصفاد عن كاحله.

كان (كونتا) فرحاً لدرجة أنه شعر بالألم بالكاد.. وفي تلك الليلة بعد أن ذهب الآخرون إلى الفراش وسكن كل شيء خرج (كونتا) للخارج وهو يعرج وتسلسل بعيداً مرة ثانية عبر حقل في الاتجاه المعاكس للطريق الذي هرب منه في المرة الأخيرة.. وصل إلى واد رفيع وعندها سمع أول صوت حركة عن بعد.. استلقى ساكناً وأخيراً وصله صوت (سمسون) الأجش وهو يسب ويلعن ويصيح: (طوبي).. (طوبي).. أمسك (كونتا) بقوة بعصا حادة كان قد أعدها في شكل حربة وأحس بهدوء غريب وكأنه شبه مخدر وعيناه تراقبان في حذر الجسم الضخم

وهو يتحرك بسرعة في هذا الاتجاه وذاك أعلى الوادي الضيق بحثاً عنه.. شيء ما جعله يحس أن (سمسون) كان خائفاً على نفسه لو نجح (كونتا) في الهرب.. تسلل الرجل أقرب فأقرب وانكمش (كونتا) بلا حراك ثم أتت اللحظة.. ألقى بالرمح بكل قوته في اتجاه الرجل.. وعندما سمعه (سمسمون) قفز في الحال جانباً وأخطأه الرمح بمقدار شعره.

حاول (كونتا) أن يجري ولكن ضعف كاحله عاق حركته.. وعندما لف حول نفسه ليتعارك معه كان (سمسون) فوقه يسحقه بوزنه الرهيب وبلكماته المتتالية إلى أن سقط (كونتا) على الأرض.. رفعه (سمسون) وانهال عليه باللكمات فى صدره وبطنه.. و(كونتا) يحاول المقاومة.. يعضه وينبشه بأظافره.. ثم ألقت به لكمة رهيبة مكوماً على الأرض.. وهذه المرة لم يستطيع حتى أن يتحرك ليدافع عن نفسه بعد ذلك.

شهق محاولاً التنفس بينما ربط (سمسمون) رسغيه بقوة بحبل ثم بدأ جره من طرف الحبل الحر عائداً نحو المزرعة وهو يركله بوحشية كلما تعثر أو تطوح ويلعنه في كل خطوة.. وكان كل ما يستطيع (كونتا) أن يفعله هو أن يظل صالباً طوله وهو يتطوح خلف (سمسون) حتى أصابه الدوار من الألم والإجهاد والاشمئزاز من نفسه.. وكان يتوقع الضرب الذي سيتلقاه عندما يصلان الكوخ.. ولكن عندما وصلا أخيراً بعد الفجر مباشرة ركله (سمسون) فقط ركلة ثم تركه بمفرده ملقي مكوماً على الأرض.

كان (كونتا) مستهلكاً تماماً لدرجة أنه ارتجف ولكن أسنانه بدأت تنهش وتقطع في الحبل الذي ربط رسغيه معاً إلى أن آلمته أسنانه كلسعات النار ولكن الحبل في الناهية انقطع قبل أن ينطلق نفير المحار مباشرة.. استلقى (كونتا) وهو يبكي لقد فشل ثانية ثم صلى إلى الله.

وفى الأيام التالية كان (كونتا) يعلم أنه مراقب عن قرب.. كما يعلم تماماً أن (سمسون) كان ينتظر أي خطأ ليؤذيه.. أجاب (كونتا) بالاستمرار في فعل أي عمل يُوكلُ إليه.. وكأن شيئاً لم يحدث.. ولكنه كان يؤدي العمل أكثر سرعةً وفاعليةً عن ذي قبل..

ولاحظ كيف أن المراقب لا يهتم كثيراً بمن يعملون بجدية أو يبتسمون معظم الوقت.. لم يستطع (كونتا) أن يجعل نفسه يبتسم.. ولكنه لاحظ بالرضا عندما وجد أنه كلما عرق أكثر قل ضرب السياط على ظهره.

وفي إحدى الأمسيات بعد العمل كان (كونتا) ماراً بجوار مخزن الغلال عندما لمح وتداً من الحديد السميك مخفيًا بين بعض أخشاب الشجر المنشورة للنار.. نظر حوله بسرعة في كل الاتجاهات ورأى أن أحداً لا يراقبه فنزع الوتد وأخفاه في تنورته وأسرع به إلى الكوخ.. استخدمه في حفر حفرة في الأرض الطينية الصلبة.. ووضع الوتد في الحفرة.. ثم أهال عليه التراب ثانيةً.

كان ما يريد أن يضع يديه عليه حقاً هو واحدة من تلك السكاكين التي يعطيها المراقب للعدد القليل من السود في كل صباح ولكن في كل مساء قد يرى المراقب وهو يستعيد السكاكين ويعدها بحرص.. أنه يستطيع بواحدة من تلك السكاكين أن يقطع الشجيرات حتى يستطيع أن يتحرك أسرع داخل الغابة.. وإذا ما اضطر فإنه يستطيع أن يقتل كلباً أو رجلاً.

وفي ظهر أحد الأيام بعد حوالي شهر قمري كانت الشمس غائمة ومكفهرة.. وكان (كونتا) في طريقه عبر أحد الحقول ليعاون رجلاً آخر في إصلاح سور عندما أدهشه سقوط ما يشبه الملح من السماء.. في البداية كان خفيفاً ثم بعد ذلك أكثر سرعة وكثافة.. وعندما أصبح لونه أبيض في شرائح سمع السود يصبحون في الجوار أنه الجليد.. وأينما نظر على الأرض رأى طبقة بيضاء.. ولكن عدما وصل الجانب الآخر من الحقل كان الثلج قد توقف بل وبدأ يذوب ويختفي.. أخفى اندهاشه وتمالك (كونتا) نفسه وأومأ في صمت إلى شريكه الأسود الذي كان منتظراً عند السور المكسور.. أخذا في العمل و(كونتا) يعاون الرجل الآخر لمد نوع من الخيوط المعدنية التي سماها سلكاً..

وبعد فترة وصلا إلى مكان شبه مخفي وسط العشب الطويل وعندما قطع الرجل بعضاً منه بالسكين الطويلة التي يحملها كانت عينا (كونتا) تقيس المسافة بين المكان الذي وقف فيه وأقرب غابة.. كان يعلم أن (سمسون) غير موجود في أي مكان قريب.. وأن المراقب كان يواصل مراقبته في حقلٍ آخر في هذا اليوم.. عمل (كونتا) بانشغال حتى لا يثير شك الرجل الآخر حول ما يدور في رأسه.. ولكن أنفاسه أصبحت ثقيلة وهو واقف يمسك السلك بشدة وينظر لأسفل فوق رأس الرجل المنحني على عمله كانت السكين متروكة على بعد خطوات قليلة خلفهما عندما انتهى قطع الشجيرات.

دعا ربه في صمت وضم يديه معاً ورفعهما لأعلى ثم نزل بهما على رقبة الرجل من الخلف بكل العنف الذي مكنه به جسده النحيف.. تكوم الرجل دون أي صوت وكأنه تلقى ضربة من ساطور الجزار.. وفي لحظات كان (كونتا) قد ربط كاحلي الرجل ورسغيه بالسلك.. ثم التقط السكين ورفض (كونتا) أن يطعنه بها لأنه لم يكن (سمسون) الكريه.. ثم جرى نحو الغابة وهو منحن انحناءً مضاعفاً.. شعر بخفة وكأنه كان يجري في حلم أو كأن الأمر لا يحدث على الإطلاق.. أفاق من حالته بعد لحظات عندما سمع الرجل الذي تركه حياً وهو يصرخ بأقصى ما في رئتيه من قوة.. أسف لأنه كان عليه أن يقتله.. حاول أن يجري أسرع.. وبدلاً من أن يتابع طريقه في العمق من الأكمة عندما وصل إلى الغابة سار على حافتها هذه المرة.

كان يعلم أن عليه أن ينجز مسافة أولاً ثم يخفي نفسه بعد ذلك.. وإذا استطاع أن يذهب بعيداً بما يكفي وبسرعة فإنه سيتاح له الوقت ليجد مكاناً جيداً للاختباء والراحة قبل أن يتحرك متخفياً في الليل.

كان (كونتا) مستعداً لأن يعيش في الغابة كما تفعل الحيوانات.. وقد تعلم الكثير من الأمور عن أرض (الطوبوب) هذه بالإضافة إلى ما يعرفه بالفعل من أفريقيا فهو يستطيع أن يصطاد الأرانب والحيوانات المشابهة بالفخاخ.. ويطهوها على نار ليس لها دخان.. وبينما هو يجري ظل في المنطقة التي يمكن فيها للشجيرات أن تخفيه

وليست كثيفة بالدرجة التي تبطئ من حركته.. وبهبوط الليل عرف (كونتا) أنه جرى مسافة لا بأس بها ومع ذلك ظل في التقدم وهو يعبر الوديان وقاع ترعة ضحلة.. فقط عندما ساد الظلام التام سمح لنفسه أن يتوقف ويخفي نفسه في منطقة كانت الشجيرات فيها كثيفة ولكنه يستطيع أن يجري منها بسهولة إذا ما أضطر إلى ذلك.. وبينما هو مستلق هناك في الظلام أنصت بعناية لأصوات الكلاب.. ولكن لم يكن هناك شيء سوى السكون حوله.. هل هذا ممكن هل سينجح هذه المرة ؟

شعر بالبرد يلسع وجهه.. ورفع يده فوجد الثلج قد بدأ يتساقط مرةً ثانيةً.. سرعان ما غطى وجهه وأحيط بالجليد الأبيض إلى أقصى ما يمكن أن ترى عينيه.. أخذ الثلج يتساقط في سكون أعمق فأعمق إلى أن بدأ (كونتا) يخاف من أن يُدفن فيه.. لقد كان بالفعل يتجمد.. وأخيراً لم يستطع أن يمنع نفسه من القفز والجري بحثاً عن غطاء أفضل .

كان قد جرى مسافة طويلة عندما تعثر وسقط لم يصب وإنما عندما نظر خلفه رأى وهو يرتعب أن قدميه قد تركتا خطاً في وسط الثلج عميقاً جداً لدرجة أن الأعمى يمكن أن يتبعه..

كان يعلم أنه لا يوجد أي طريقة يمسح بها الآثار وعرف أن هذا الصباح سرعان ما سيأتي.. والسؤال الممكن الوحيد هو المزيد من المسافة.. حاول أن يزيد من سرعته ولكنه كان يجري معظم الليل وأصبحت أنفاسه متقطعة.. وبدأت السكين الطويلة تبدو ثقيلة.. أنها قد تقطع الأغصان والشجيرات ولكنها لن تذيب الثلج.. والسماء بدأت تضيء في الشرق عندما سمع بعيداً أمامه صوت النفير الخافت.. غير طريقه.. ولكن كان لديه شعور مؤلم أنه ليس هناك أي مكان يستطيع أن يجد فيه الراحة والأمان وسط البياض الذي فرش بساطه على الأرض.

عندما سمع (كونتا) نباح الكلاب من بعد فاض الغضب بداخله بطريقة لم يشعر بها من قبل.. جرى مثل الفهد المُطارد ولكن النباح ازداد ارتفاعاً أكثر فأكثر.. وأخيراً عندما نظر خلفه من فوق كتفه للمرة العاشرة رآهم يقتربون منه والرجال لا يمكن أن يكونوا بعيدين عنهم ثم سمع صوت طلقة نار..

ولكنها دفعته إلى الأمام أسرع من ذي قبل.. ولحقت به الكلاب.. وعندما أصبحت على بعد خطوات فقط منه استدار (كونتا) بسرعة ثم مال للأمام وأخذ يزمجر في وجوهها.. وعندما اندفعت للأمام وأنيابها بارزة زمجر أيضاً فيها وبرزت أسنانه.. وفتح بطن أول كلب بضربة واحدة من السكين وأطاح بذراعه السكين ليستقر نصله بين عيني الكلب الثاني.

قفز مبتعداً وبدأ يجري ثانيةً ولكن سرعان ما سمع الرجال على الجياد وهم يخترقون الشجيرات وراءه.. وكل ما كان أمامه هو أن يسرع بحثاً عن شجيرات أكثر كثافة.. حيث لا تستطيع الجياد أن تسير.. ثم جاءت طلقة ثانية.. وثالثة.. وأحس بألم صاعق في ساقه.. سقط على الأرض مكوماً ثم ترنح وهو يقف ثانية عندما صاح (الطوبوب) وأطلقوا النار مرة أخرى عندما اصطدمت الرصاصات بالأشجار بجوار رأسه فكر (كونتا) أن يدعهم يقتلونه ليموت كما يجب أن يموت الرجال.. ثم أصابت رصاصة أخرى نفس الساق وأسقطته على الأرض.. كان يتأوه على الأرض عندما رأى المراقب وطوبوباً آخر قادمين ومعهما بندقيتان مصوبتان نحوه.. كان على وشك أن يقفز هارباً حتى يجبرهما على إطلاق النار عليه ثانية وينتهي الأمر.. ولكن الجروح في ساقه لم تسمح له بالنهوض.

صوت (الطوبوب) الآخر بندقيته نحو رأس (كونتا) بينما شده المراقب من ملابسه بقوة إلى أن وقف عارياً فوق الثلج والدماء تسيل من ساقه وتلوث البياض تحت قدميه.. أخذ المراقب يلعن (كونتا) مع كل نفس.. ثم أخذ يلكمه بقبضته إلى أن فقد الإحساس.. ثم ربطه الاثنان ووجهه نحو جذع شجرة ضخمة من رسغيه على الجانب الآخر .

بدأ السوط ينغرس في اللحم على ظهر (كونتا) وكتفيه.. والمراقب يزمجر.. و(كونتا) يرتجف تحت قوة كل ضربة.. وبعد فترة لم يستطع (كونتا) أن يمنع نفسه من الصراخ من الألم.. ولكن الضرب استمر إلى أن التصق جسده المصاب بجذع الشجرة.. بينما غطى ظهره وكتفاه بجروح طويلة دامية كشفت العضلات في بعض المناطق.. سقط ثم شعر ببرد الثلج يحيط بجسده.. ثم صار كل شيء أسوداً.

استعاد وعيه وهو في الكوخ وعاد مع حواسه الألم القاتل.. كانت أقل حركة يقوم بها تجعله يصرخ محتضراً.. وعاد مرة أخرى مقيداً بالسلاسل.. أخبره أنفه أن جسده ملفوف من ذقنه إلى القدم في قماشه مغمورة في دهن الخنزير.. وعندما جاءت الطاهية العجوز بالطعام حاول أن يبصق عليها ولكنه نجح في إلقائه فقط.. رغم ذلك رأى التعاطف في عينيها.

ويعد يومين أوقظ مبكراً في الصباح بواسطة أصوات الاحتفالات.. سمع السود في الخارج من البيت الأبيض الكبير يصيحون (هدايا الكريسماس يا سيدي) وتساءل ما الذي يمكن أن يحتفلوا به.. تمنى الموت من أعماقه.. أراد أن ينتهي تماماً من البؤس الذي لا نهاية له في هذه الأرض التي جميعها قذارة وآلام لدرجة أنه لا يستطيع أن يأخذ نفساً نظيفاً فيها.. كان يغلي من الغضب لأنه بدلاً من ضربه كالرجال فإن (الطوبوب) خلعوا ملابسه وأصبح عارياً.. وأقسم أنه عندما يتعافى فإنه سينتقم وسيهرب ثانية أو يموت.



العبيد يتجنبون كونتا

عندما خرج (كونتا) أخيراً من كوخه مرة ثانية وكلا كاحليه مقيدان كان معظم السود الآخرين يتجنبونه.. ويديرون أعينهم خائفين من الاقتراب منه.. ويتحركون بعيداً عنه بسرعة إلى أماكن أخرى.. وكأنه حيوان متوحش.. فقط الطاهية العجوز والرجل الذي يطلق النفير هما اللذان كانا ينظران إليه مباشرة.

لم يكن (سمسون) يُرى في أي مكان.. ولم يكن لدى (كونتا) أي فكرة إلى أين ذهب.. ولكنه كان سعيداً بذلك.. ثم بعد أيام قلائل رآه الأسود الكريه وآثار السياط لم تندمل بعد على جسده فزادت سعادته.. ولكن عند أي خطأ كان سوط (الطوبوب) ينزل على ظهره دائماً.

عرف أنه مراقب في كل حركاته.. أصبح يتحرك بسرعة مثل الآخرين عندما يقترب منه (الطوبوب) ثم يبطئ من حركته عدما يرحل.. كان (كونتا) يفعل ما يؤمر بفعله دون كلام.. وعندما كان النهار ينتهي كان يحمل حزنه العميق بداخله عائداً.. من الحقول إلى كوخه الحقير حيث ينام.

وفي وحدته بدأ (كونتا) يكلم نفسه.. وفي معظم الحيان كان يجري أحاديث وهمية مع أسرته.. وكان يتحدث معهم غالباً في عقله ولكن أحياناً بصوت عال وكان يقول :

- أبي.. هؤلاء السود ليس مثلنا ! أن عظامهم ودماءهم وأعصابهم وأيديهم وأقدامهم ليست مثلنا.. أنهم يعيشون ويتنفسون ليس من أجل أنفسهم بل من أجل (الطوبوب) وهم أيضاً لا يملكون أي شيء على الإطلاق حتى أولادهم أنهم يربون ويرعون من أجل الآخرين وكان يقول أيضاً:

- أمي.. هؤلاء النساء يرتدين أقمشةً فوق رؤوسهن ولكن لا يعرفن كيف يربطنها.. ومعظم ما يطهونه يحتوي على اللحم أو دهن الخنزير النجس.. والعديد منهن حملن من (الطوبوب) لأنني أرى أطفالهن الملونين ذوي الشعر المختلط.

وقد يتحدث مع شقيقه (لامين) و(سوادو) و(مادي) ويخبرهم أن أسوأ حيوانات الغابة شراسة ليس في نصف خطورة (الطوبوب).

وهكذا مرت الشهور القمرية بهذه الطريقة وسرعان ما هطلت الثلوج.. وبعد فترة قصيرة برز العشب الأخضر.. وبدأت الأشجار تظهر براعمها.. وعادت الطيور إلى تغريدها.. ثم جاء وقت حرث الأرض.. وزرع الخطوط التي لا نهاية لها وأخيراً سقطت أشعة الشمس على التربة فجعلتها ساخنة لدرجة أن (كونتا) كان يضطر إلى السير بسرعة وحتى لو اضطر للوقوف كان يظل يحرك قدميه ليمنعهما من لهيب الأرض.

تحمل (كونتا) وقته واهتم بشؤونه الخاصة منتظراً آسريه أن يصبحوا مهملين له ويبعدوا أعينهم عنه مرةً ثانية.. ولكن كان لديه شعور أنه حتى السود الآخرين لا يزالون واضعين أعينهم عليه.. ورغم أن الأمر جعل (كونتا) يحتقر نفسه إلا أنه أجبر نفسه على أن يبدأ في التصرف بنفس طريقة السود الآخرين وكلما اقترب منه (الطوبوب) ومهما حاول جاهداً إلا أنه لم يستطيع أن يجبر نفسه حتى على الابتسام.. ولكنه بذل جهداً كبيراً ليبدو متعاوناً.. وليس ودوداً.. مستعرضاً كونه دائماً مشغول.. كما تعلم أيضاً العديد من كلمات (الطوبوب) وأصبح ينصت دائماً بشغف لكل ما يُقالُ حوله في الحقول نهاراً أو الأكواخ ليلاً .

وكان القطن هو واحد من المحاصيل الرئيسية في المزرعة وينمو بسرعة إلى أن تصبح الحقول على مدى البصر بحوراً واسعة من البياض.. مما يجعل الحقول حول (جوفور) لا تُذكر بالنسبة لها.. لقد حان وقت الحصاد.. وبدأ نفير الإيقاظ في الصباح في الانطلاق في وقتٍ أكثر تبكيراً عن ذى قبل.. وكان سوط الملاحظ يطرقع محذراً حتى قبل أن يخرج العبيد من أسرتهم.

كان (كونتا) يجر وراءه جوال الخيش وهو يملؤه بآلاف الحفنات من كرات القطن البيضاء.. ثم يحمله إلى العربة والتي كانت تنتظر في نهاية الصفوف لتفريغه.. كان (كونتا) يملأ جواله مرتين في اليوم.

لكن كان هناك بعض المالئين ممن يحاولون إرضاء (الطوبوب) يحنون ظهورهم بقوة وينجحون في ذلك لأنهم يجمعون القطن بسرعة تجعل أياديهم تبدو غير واضحة من سرعتها.. وعندما ينطلق النفير في نهاية اليوم تكون أجولتهم قد امتلأت وفُرغت على الأقل ثلاث مرات.

وعندما تمتلئ عربة القطن تُؤخذ إلى المخازن في المزرعة.. ولكن لاحظ (كونتا) أن العربات المعبأة بالتبغ الذي يحصد في حقول أوسع ملحقة بحقوله كانت تقاد إلى أماكن بعيدة في نهاية الطريق.. وبعد أربعة أيام تعود فارغة في الوقت الذي تخرج عربة أخرى محملة بالتبغ إلى خارج المزرعة مثل التي قبلها.. بدأ (كونتا) يرى أيضاً عربات أخرى محملة بالتبغ لا شك أنها من مزارع أخرى وتجري على طول الطريق الرئيسي وتُجر أحياناً بعدد من البغال يصل إلى أربعة.

لم يكن (كونتا) يعلم إلى أين تذهب تلك العربات.. ولكنه كان يعلم أنها تذهب في طريق بعيد لأنه كان يرى الإرهاق البادي على (سمسون) والسائقين الآخرين عندما يعودون من رحلاتهم.

ربما يذهبون بعيداً بما يكفي له لأن يحصل على الحرية ووجد (كونتا) أنه من الصعب أن يتخلص من فكرته المثيرة في الأيام العديدة التالية.. كان يستبعد بسرعة أي محاولة للاختباء في إحدى عربات المزرعة تلك التي تستخدم في نقل التبغ.. قد لا يكون هناك وقت دون جود عيون البعض قريبة جداً منه تمنعه من التسلل دون أن يلاحظه أحد وسط حمولة من التبغ لابد أن تكون عربة متحركة على الطريق الكبير من مزرعة أخرى.

استخدم (كونتا) العذر بأنه سيذهب خارج البيت في وقت متأخر في تلك الليلة وتأكد أن أحداً ليس هناك في المنطقة ثم ذهب إلى مكانها حيث يستطيع أن يرى الطريق في ضوء القمر وكان متأكداً من أن عربات التبغ تسير بالليل.. كان يستطيع أن يرى الأنوار المتذبذبة التي تحملها كل عربة إلى أن تختفي أخيراً تلك الومضات من اللمعان على مسافة بعيدة.. خطط وصمم لكل دقيقة..

ولم يفوت أي تفاصيل عن عربات التبغ من ملاحظته.. وكل الوقت كان يفكر كيف يمكنه أن يكون قادراً على القفز على مؤخرة العربة المحملة والسائرة بالليل ويندس تحت التبغ دون أن يسمعه السائقون الجالسون في الأمام بسبب صوت ضجيج العربة المزعج.. وألا يراه أحد بسبب الظلام ولكن أيضاً بسبب طول حزم أوراق التبغ بين السائقين ومؤخرة العربة.

امتلأت نفسه بالقرف حتى وهو يفكر في أن عليه أن يلمس رائحة النبات الخاص بالكفرة والذي استطاع أن يبتعد عنه طوال حياته.. ولكن ما دامت هذه هي الوسيلة الوحيد للهرب فإنه شعر بالاطمئنان بأن الله سيغفر له.



الهروب ثانيةً

في مساء أحد الأيام بعد ذلك وخلف المراحيض الخارجية.. قتل (كونتا) أحد الأرانب التي تكثر في الغابة القريبة بحجر.. شرحه بعناية إلى شرائح رفيعة.. وجففه كما تعلم أثناء تدريب الرجولة لأنه كان في حاجة إلى أن يأخذ بعض الغذاء معه.. وبعد ذلك شحذ سلاح السكين الصدئ الذي عثر عليه بواسطة حجر ناعم ثم عدله وربطه بيد خشبية نحتها.. ولكن ما هو أهم من ذلك الطعام والسكين كانت التعويذة التي صنعها من ريشة ديك لجذب الأرواح.. وشعر حصان من أجل القوة.. وعظمة من صدر عصفور لجلب النجاح.. كل ذلك ربطه بشدة وخاطه داخل مربع صغير من الخيش بإبرة صنعها من شوكة شجرة.. أدرك مدى سخافة أن يتمنى أن يبارك تلك التعويذة رجلٌ مقدس.. ولكن على أية حال فإن أي تعويذة أحسن من لا شيء على الإطلاق.. لم ينم طوال الليل ولكن بعيداً عن أن يكون مُتعباً كان (كونتا) أقصى ما يستطيع أن يفعله هو أن يبعد نفسه عن إظهار أي انفعال على الإطلاق خلال عمل اليوم التالي في الحقول.. لأن الليلة قد تكون الليلة الموعودة.. وعندما عاد إلى كوخه بعد وجبة المساء ارتجفت يداه وهو يدفع السكين والأرنب المجفف في جيبه.. ثم ربط تعويذته بعناية حول أعلى ذراعه اليمنى.. لم يكن يتحمل صبراً سماع الروتين المسائي للسود الآخرين.. لأن كل لحظة تستغرق دهراً لتمر قد تجلب له حدثاً غير متوقع قد يُفسد خطته.. ولكن الغناء النائح لعمال الحقول سرعان ما انتهى مع دعواتهم.. وحتى يدعهم ينامون في سلام انتظر (كونتا) أقصى فترة تحملها.

ثم أمسك بسكينه التي صنعاه بنفسه وتسلل خارجاً إلى الليل.. شعر بأن أحد ليس بالجوار.. مال منخفضاً.. ثم جرى بأقصى سرعته واندس بعد فترة داخل مجموعة من الشجيرات.. عندها يتحول الطريق مباشرة فرفص على الأرض وهو يتنفس بصعوبة.. افترض ماذا يفعل لو أن أي عربة لم تأت الليلة ؟ اخترقت الفكرة جسده وفي الحال تملكه هول أوشك أن يصيبه بالشلل لنفرض أن مساعد السائق جلس في الخلف كمراقب وحارس ؟ ولكن كان عليه أن يجرب حظه.

سمع صوت عربة قادمة قبل أن يشاهد أنوارها المتذبذبة.. ضغط أسنانه وارتجف وأحس (كونتا) أنه على وشك أن ينهار.. بدت العربة وكأنها بالكاد تزحف ولكن أخيراً تمر أمامه مباشرةً في بطء.. كان شبحان مظلمان جالسين في المقعد الأمامي.

أحس وكأنه يصرخ عندما برز بسرعة من بين الشجيرات.. أخذ يهرول منخفضاً خلف العربة التي كانت تهتز وتصدر صريراً وانتظر حتى تأتي البقعة الخشنة التالية من الطريق ثم مد ذراعه وأمسك بلوحة الخلف ثم شد نفسه لأعلى على القمة ومنها إلى داخل جبل التبغ.. لقد أصبح فوق العربة.

أخذ يخفي أنفاسه في هيستيريا.. كانت الحزم مربوطة بقوة أكثر مما كان يتوقع.. ولكن أخيراً استطاع أن يخفي جسده.. وحتى بعد أن شق فتحةً للهواء ليتنفس بحرية أكثر.. فإن نتانة الأعشاب النجسة جعلته شبه مريض وكان عليه أن يتحرك ويحرك كتفيه وظهره قليلاً هذا الاتجاه أو ذلك.. محاولاً أن يرتاح تحت الثقل الضاغط.. ولكن أخيراً وجد الوضع المثالي وأخذت حركة اهتزاز العربة التي امتصتها أوراق التبغ التي كانت دافئة جداً حوله جعلته يستغرق في النعاس.

أيقظته خبطة مطب عالية وبدأ يفكر في إمكانية أن يكتشف.. إلى أين العربة ذاهبة ؟

وكم من الوقت تستغرقه حتى تصل إلى هناك ؟ وعندما تصل هل سيتمكن من أن ينسل بعيداً دون أن يراه أحد؟ لماذا لم يفكر في ذلك من قبل؟ مرت في ذهنه بسرعة البرق صورة الكلاب و (سمسون) و(الطوبوب) ببنادقهم وارتجف (كونتا).. فكر فيما فعلوه في آخر مرة وعرف أن حياته هذه المرة تعتمد على ألا يُمسكُ به.

ولكن كلما فكر في الأمر زاد دافعه أن يترك العربة الآن.. فرق الأوراق بيديه بدرجة كافية تسمح له بإخراج رأسه.. رأى تحت ضوء القمر الحقول التي لا نهاية لها والريف.. غطى الفتحة وحاول أن يهدئ من نفسه.. ولكن في كل مرة كانت تبطئ العربة.. كان يخشى أن تتوقف ويوشك قلبه أن يقفز من بين صدره.

بعد ذلك بكثير عندما فتح الفتحة مرة ثانية ورأى أن الوقت يقترب من الفجر اتخذ (كونتا) قراره يجب عليه أن يغادر العربة الآن قبل أن يقترب أكثر من العدو في وضح النهار.. دعا الله وأمسك بيده سكينة وبدأ يصارع ليخرج من الفتحة.. وعندما تحرر كل جسده انتظر ثانية أن تبطئ العربة.

بدا وكأنها استغرقت دهراً.. ولكن عندما أبطأت في النهاية قام بقفزة سريعة وخفيفة إلى أرض الطريق.. وبعد فترة وجيزة أصبح بعيداً عن العيون داخل الشجيرات.. لف (كونتا) في دورة واسعة ليتجنب مزرعتي اثنين من (الطوبوب) حيث كان يستطيع أن يرى البيت الأبيض الكبير المعتاد والأكواخ الصغيرة المعتمة القريبة.. تردد صوت نفير الاستيقاظ وسط الهواء الساكن.. وعندما بزغ الفجر كان يتسلل أعمق فأعمق داخل الدغل.. ومنه إلى ما كان يعرف أنه اتساع فسيح من الغابة.

كان الجو بارداً في أعماق الغابة الكثيفة.. وخلال فترة الظهر وصل إلى مجرى مائي صغير صافي المياه يصب فوق صخور مغطاة بالعشب والطحالب.. وقف ليشرب منه حفنات من يديه.. نظر فيما حوله وأحس بالأمان الكامن لأن يرتاح قليلاً فجلس على الضفة ثم مد يده داخل جيبه.. أخذ قطعة من شرائح الأرنب الجافة وغمرها في المجرى المائي ثم وضعها في فمه ولاكها.

كانت الأرض مطاطة وناعمة تحت قدميه.. والأصوات التي كان يستطيع أن يسمعها فقط هي للحشرات والزواحف والطيور.. أنصت إليها وهو يأكل.

وراقب ضوء الشمس يتسلل بين الأغصان المورقة فوقه.. وتصدر وميضاً ذهبياً وسط الحفرة.. قال لنفسه أنه سعيد لأنه لم يضطر لأن يجري بقوة واستمرار كما فعل من قبل لأن الإرهاق يجعل منه فريسة سهلة.

جرى للأمام أكثر فأكثر ..بقية ما بعد الظهر وبعد أن توقف قليلاً من أجل صلاة العصر استمر في الجري أكثر حتى نزل الظلام.. مما جعله مضطراً للتوقف أثناء الليل.. استلقى على فراشٍ من أوراق الشجر والعشب.. وقدر أنه فيما بعد سيبني لنفسه مأوى من العصى وسقفاً من العشب كما تعلم أثناء تدريب الرجولة.. سرعان ما غلبه النوم ولكن عدة مرات أثناء الليل كان يستيقظ بواسطة الناموس.. ويسمع زمجرة الحيوانات المفترسة عن بعد وهي تقوم بقتل فرائسها.. ومع أول ضوء للشمس شحذ (كونتا) سكينه بسرعة ثم انطلق ثانية.. وبعد فترة وصل إلى ما كان واضحاً أنه طريق سار عليه العديد من الناس ورغم أنه كان يستطيع أن يدرك أنه لم يستعمل منذ فترة طويلة إلا أنه جرى وسط الأشجار ما مكنه أن يتعمق أكثر فأكثر في الغابة.. وكانت سكينه تقطع الشجيرات والأفرع.. أكثر من مرة رأى حيات.. ولكنه في مزرعة (الطوبوب) تعلم أنها لا تهاجم ما لم تفزع أو تحاصر ولذلك تركها تزحف بعيداً.. ومن حين لآخر كان يتصور أنه سمع كلباً ينبح في مكان ما وقد يرتجف لأنه كان يخشى الكلاب أكثر من الرجال.

وعدة مرات أثناء النهار كان (كونتا) يدخل في الأوراق الكثيفة لدرجة أنها في بعض الأماكن لم يكن حتى سكينه كافية لشق ممر له.. وكان عليه أن يعود ويجد طريقاً آخر.. توقف مرتين ليشحذ سكينه التي بدأت تزداد خشونة أكثر فأكثر ولكن عندما لم تعد صالحة للعمل بعد ذلك فإن القطع المستمر للشجيرات والأفرع والوديان قد انتزع قوته.. لذلك توقف ليستريح ثانيةً.. وأكل المزيد من شرائح الأرنب المجففة.. وشرب الماء الذي وجد في الأوراق الملتفة مثل الأكواب عند النباتات أسفل الأشجار.. وفي تلك الليلة استراح بجوار مجرى مائي آخر مستغرقاً في النوم وقد صمم أذنيه عن صرخات الحيوانات.. وطيور الليل غير مدرك حتى للسعات الحشرات التي جذبها جسده وطنينها من حوله.

ليس قبل صباح اليوم التالي عندما بدأ (كونتا) يفكر إلى أين سيذهب لم يسمح لنفسه أن يفكر في ذلك من قبل طالما لم يكن قادراً على معرفة إلى أين سيذهب فقد قرر أن سباقه الوحيد هو أن يتجنب القرب من أي بشر آخر سواء كان طوبوباً أو سوداً.. وأن يظل يجري نحو شروق الشمس..كانت خرائط أفريقيا التي شاهدها وهو ولد تظهر في المياه الكبرى نحو الغرب لذلك كان يعرف أنه سيصل إلى أفريقيا إذ استمر في التحرك نحو الشرق.

ولكن عندما فكر فيما قد يحدث إذن حتى وإن لم يمسكوا به كيف أنه سيتمكن من عبور الماء حتى لو كان معه قارب وكيف أنه سيصل في سلام إلى الجانب الآخر حتى لو عرف الطريق وبدأ يحس بالخوف العميق.. وبين صلواته كان يلمس التعويذة التي على ذراعه حتى وهو يجري.

في تلك الليلة استلقى مختفياً تحت دغل من الشجيرات ووجد نفسه يفكر في بطل الـ(مانديكا) العظيم (سونديانا) الذي كان عبداً مُقعداً.. عُومل بوضاعة شديدة من السادة الأفارقة لدرجة أنه اضطر للهرب وذهب ليختبئ في المستنقعات حيث عثر على هاربين آخرين ونظمهم في جيش قاهر استطاع أن يشكل إمبراطورية (مانديكا).. فكر (كونتا) أنه ربما يستطيع أن يجد هو أيضاً أفارقة هاربين بطريقة ما هنا في أرض (الطوبوب) وربما يكونون مثله في حالة من اليأس.. شعر برغبة شديدة في أن يطأ بقدميه ثانيةً تراب أرضه الأم.. وربما عدد كاف منهم مما يستطيعون أن يبنوا أو يسرقوا سفينة ضخمة.. قطع أحلام يقظة (كونتا) صوت رهيب وقف في طريقه.. لا.. أن هذا مستحيل ولكن ليس هناك أي خطأ.. أنه نباح الكلاب.. ذهب في وحشية ليختفي تحت الأكمة وهو يتعثر ويسقط ثم يترنح ويقف ثانية.. سرعان ما أصبح متعباً للغاية عندما سقط ثانية.. لقد جلس فقط هناك ثابتاً جداً وهو يمسك بين السدين وينصت ولكنه لا يسمع شيئاً الآن.. لا شيء سوى أصوات الطيور والحشرات..

كيف إذن سمع صوت الكلاب؟ عذبته الفكرة أنه لم يعرف من هم أسوأ أعدائه (الطوبوب) أو خياله هو أنه لم يكن يستطيع أن يقتنع بأنه لمي سمعها حقاً لذلك بدأ في الجري ثانية.. أن الأمان الوحيد هو أن يظل يتحرك ولكن بسرعة أصبح منهكاً ليس فقط لأن عليه أن يسارع إلى أبعد مكان وبسرعة بالغة وكان منهكاً أيضاً من الخوف نفسه كان عليه أن يرتاح مرة ثانية.

استيقظ وسط العرق وهو جالس منتصباً كان الظلام حالكاً.. لقد نام طوال النهار هز رأسه كان يحاول أن يتصور ما الذي أيقظه عندما سمعها ثانية.. نباح الكلاب.وهذه المرة أكثر قرباً عما كان قبل.. قفز واقفاً واندفع بجنون لدرجة أنه مرت لحظات طويلة قبل أن يخطر على باله أنه نسى سكينه الطويلة.. اندفع عائداً حيث كان مستقلياً ولكن الأفرع المطاطية كالأشجار كانت متشابهة ومحيرة ورغم أنه كان يعلم في جنون أن السكين على مدى ذراع منه إلا أن كل محاولات الحفر والبحث لم تمكنه من وضع يده عليها.

عندما أصبح النباح أعلى وثابتاً بدأت معدته تتقلص إذا لم يعثر عليها فإنه يعلم أنه سيؤسر مرة ثانية أو أسوأ من ذلك.. أخذت يداه تتحركان في المنطقة تحت قدميه وأخيراً أمسك بحجر في حجم قبضه يده وبصرخة يائسة انتزعها واندفع وسط الشجيرات.

طوال تلك الليلة بدا وكأن الشيطان قد تملكه أخذ يجري أعمق فأعمق داخل الغابة.. وهو يعرج ويتعثر ويقع ويشبك قدميه في الأفرع ويقف فقط للحظات حتى يستبعد أنفاسه ولكن الكلاب ظلت تقترب أكثر فأكثر وأخيراً بعد الفجر مباشرة استطاع أن يراها من فوق كتفيه.. كان الأمر ككابوس يتكرر أنه لم يعد يستطيع أن يجري أكثر من ذلك.

استدار ووقف في فسحة صغيرة وقد أسند ظهره على جذع شجرة لقد كان مستعداً لهم ويده اليمنى ممسكةً بفرع شجرة قوي.. وفي اليد اليسرى ممسكاً بحجرٍ بقوة.

بدأت الكلاب تندفع بقوة نحو (كونتا) ولكن بصرخة رهيبة أطاع بالفرع نحوهم في وحشية لدرجة أنها تقهقرت في جبن بعيداً عن نطاق الفرع وهي تنبح وتزمجر إلى أن ظهر اثنان من (الطوبوب) فوق جواديهما.

لم يكن (كونتا) قد رأى هذين الرجلين من قبل قط.. أخرج الأصغر سناً بندقية من جرابها ولكن الأكبر منه لوح له وأزاحه للخلف.. ثم هبط من فوق جواده وسار نحو (كونتا)؟ كان يفك سوطه الأسود الطويل بهدوء وقف (كونتا) مكانه.. عيناه تضجان بالشرر.. وجسده يرتجف.. وعندما رجعت ذراع (الطوبوب) الكبير للخلف بالسوط ضربته ذراع (كونتا) بقوة جعلته يسقط جانباً لدرجة أن أصابعه أفلتت الحجر.. سمع (الطوبوب) يصيح ثم مرقت رصاصة بجوار أذنه وأصبحت الكلاب فوقه.. وبينما هو يتدحرج على الأرض ويصرخ في الكلاب لمح وجه أحد (الطوبوب) والدماء تسيل منه.. كان (كونتا) يزمجر ويزأر مثل الحيوان المفترس عندما نادوا على الكلاب لتبتعد.. واقتربوا منه ببنادقهم مصوبةً لأسفل نحوه.. أدرك أنه من الممكن أن يموت الآن.. لم يهتم بذلك كثيراً.. اندفع واحد منهما للأمام وقبض عليه بينما ضربه الآخر بكعب البندقية.. قاومهم وتعارك معهم.. وهو يتأوه ويهتز ويصرخ فيهم إلى أن تمكنوا منه.

ربطوه في شجرة ومزقوا ملابسه وخلعوها عنه وقيدوه بقوة..

تكلم (الطوبوب) الذي كان يدمي من وجهه باختصار وبصوت أجش مع (الطوبوب) الأصغر.

ابتسم الأصغر وأومأ برأسه ثم عاد إلى جواده.. وفك فأس صيد قصير اليد كان مربوطاً بالسرج.. قطع جذع شجرة من جذورها ثم دفعه فوق (كونتا).. وقف أمامه (الطوبوب) الدامي ..ثم أشار إلى أعضاء (كونتا) التناسلية ثم إلى سكين الصيد في حزامه ثم أشار إلى قدم (كونتا) ثم إلى الفأس في يده.. وعندما فهم (كونتا) زأر وركل لكنهم كانوا ممسكين به بقوة.. وسرعان ما طارت يد (كونتا) لتغطي أعضاؤه أخذ الطوبابان يبتسمان في نذالة.

دفع أحدهم جذع الشجرة تحت قدم (كونتا) اليمنى بينما ربط الثاني القدم بجذع الشجرة بإحكام لدرجة أن (كونتا) بكل غضبه لم يكن ليستطيع أن يحررها.

التقط (الطوبوب) الدامي فأساً كان (كونتا) يصرخ ويتلوى عندما انطلق الفأس كالصارخ لأعلى ثم لأسفل يقطع الجلد والأوصال والعضلات والعظمة عندما سمع (كونتا) الفأس يصدم بالجذع وأرسلت الصدمة احتضاراً عميقاً في عقله تجمع انفجار الألم في داخله ومال الجزء العلوي من جسده للأمام وأخذت يداه تتدليان والدماء الحمراء القاتمة تفجرت من العروق وصار كل شيء مظلماً.



كونتا : أين أنا؟

كان (كونتا) خلال معظم أجزاء النهار ينتقل من الوعي إلى واللاوعي.. عيناه مغلقتان.. وعضلات وجهه تبدو مرتخية.. وسيل من اللعاب ينزل من فمه المفتوح.

وعندما بدأ بالتدريج يفيق ويدرك أنه لا يزال حياً بدأ وكان الألم الرهيب يقسمه إلى أجزاء ويلف برأسه وينطلق داخل جسده ويمزق ساقه اليمنى.. كان يفتح عينيه بصعوبة.. حاول أن يتذكر ما الذي حدث.. وعندما استعاد ذاكرته رأى وجه (الطوبوب) شديد الحمرة من الغضب وهو يطوح بالفأس بسرعة البرق لأعلى ولأسفل.. والجزء الأمامي من قدمه يتطاير.. ثم غرق ثانيةً في فقدان الوعي.

وفي المرة التالية التي فتح فيها عينيه وجد نفسه يحملق إلى خيوط العنكبوت في السقف.. وبعد فترة استطاع أن يهز نفسه بما يكفي لأن يدرك أن صدره ورسغيه وكاحليه مربوطين لأسفل.

ولكن ظهر رأسه وقدمه اليمنى موضوعان على شيء لين وكان يرتدي ما يشبه التنورة.. اختلط شعوره بالاحتضار برائحة ما يشبه القطران.. لقد كان يظن أنه يعرف كل ما له صفة بالعذاب ولكن هذه الرائحة كانت أفظع.

كان يدعو الله عندما دفع باب الكوخ فانفتح ليدخل طوبوب طويل لم يسبق له أن رآه من قبل يحمل حقيبة سوداء صغيرة.. أزاح (الطوبوب) الذباب المتجمع حول (كونتا) ثم مال وجلس بجانبه.

كان (كونتا) يستطيع فقط أن يرى ظهره ثم فعل (الطوبوب) شيئاً لقدمه مما سبب صدمة رهيبة لـ (كونتا) لدرجة أنه صرخ بشدة.. أخيراً استدار (الطوبوب) ليواجهه ووضع كفه على جبين (كونتا) ثم أمسك برسغه بخفة.. وظل كذلك فترة طويلة.. ثم نهض وبينما هو يراقب تجهم وجه (كونتا) المشدود نادى على اسم (بيل) في الحال دخلت امرأة سوداء الجلد متينة البنية ذات وجه صارم وإن كان مقبولاً.. وأحضرت معها الماء في إناء من الصفيح.. بطريقة غريبة شعر (كونتا) أنه يعرفها وأنه في حلم..

انحنت إلى أسفل نحوه ومدت يدها إليه ليرتشف الماء.. تحدث (الطوبوب) إليها بطريقة لطيفة وهو يخرج شيئاً من حقيبته السوداء ويصبه في فنجان من الماء.. ركعت المرأة السوداء وبيد واحدة رفعت رأس (كونتا) من الخلف بينما مالت بالفنجان نحوه ليشربه.. استسلم لها بعد أن أصبح من الضعف والمرض بحيث لا يمكنه أن يقاوم.. مكنته نظرة متلصصة لأسفل من أن يلمح طرف رباط طبي ضخم حول قدمه اليمنى.. كان لونه بلون الصدأ من الدماء الجافة.. ارتجف وأراد أن يقفز واقفاً ولكن عضلاته كانت بلا فائدة وضعت المرأة رأسه ثانية برقة.. وقال (الطوبوب) شيئاً ما لها وردت عليه ثم خرج الاثنان.

قبل أن يذهبا تقريباً غرق (كونتا) في نوم عميق وعندما فتح عينيه بعد ذلك في وقت متأخر من الليل لم يستطيع أن يتذكر أين هو.. كان يحس بأن قدمه اليمنى وكأن النيران تشتعلُ بها.. وبدأ يتحرك لأعلى.. ولكن الحركة جعلته يصرخ عالياً.. وسقط عقله في غيامة قائمة من الصور والأفكار غير الواضحة كل منها تفلت من قبضة بالسرعة التي أتت بها لمح أمه (بينتا) وهو يقول لها أنه أصيب وألا تقلق لأنه سيعود قريباً إلى البيت.. شعر بنفسه يسقط وهو يصرخ في يأس ويمسك بلا شيء.. وعندما استيقظ ثانيةً شعر بأنه متأكد من أن شيئاً رهيباً حدث لقدمه.. كان كابوساً .

عرف فقط أنه مريض جداً.. شعر بأن كل جانبه الأيمن مخدر وزوره جاف وشفتيه مشققتان كان يشير إلى قدمه وإلى أعضائه وعلى وجهه تعبير رهيب.. مرة ثانية فاضت الكراهية داخله.. وبذل (كونتا) جهداً رهيباً لتحريك أصابع قدمه.. مما سبب له ألماً يكاد يعميه.. استلقى هناك منتظراً أن يخف الألم ولكنه لم يفعل.. لقد كان لا يحتمل فيما عدا أنه بطريقة ما كان يتحمله.. كره نفسه لرغبته أن يعود (الطوبوب) ثانية بمزيد مما يضعه في الماء والذي أعطاه بعض الراحة.

مرةً ثانيةً حاول أن يحرر يديه من القيود المرتخية بجواره ولكن ذلك لم يكن متاحاً.. استلقى في مكانه وهو يتأوه ويزمجر في حزن عندما فُتِحَ الباب ثانية.. لقد كانت المرأة السوداء والضوء المتذبذب الأصفر ينعكس على وجهها.. كانت تبتسم.. وبدأت تصدر أصواتاً وتعبيرات بالوجه وحركات كان (كونتا) يعلم أنها محاولة منها أن تجعله يفهم شيئاً.. أخذ يبتسم ابتسامة واسعة وكأنه يشعر بالتحسن.. لم يظهر (كونتا) أي علامة أنه فهم معناها بأن (الطوبوب) الطويل هو رجل طبيب.. هزت كتفيها بلا اكتراث ثم جلست القرفصاء وهي تضغط قطعة من القماش المبللة الرطبة على جبين (كونتا) لم تقل كراهيته لها من أجل ذلك.. ثم أشارت أنها سترفع رأسه ليحتسي بعض الحساء كانت قد أحضرته معها.. ابتلع الحساء وأحس بغضب شديد أمام نظراتها المسرورة.. ثم صنعت حفرة في أرض الحجرة حيث وضعت شيئاً طويلاً مستديراً شمعي.. وأضاءت شعلة في أعلاه.. وسألت أخيراً إذا كان هناك شيء آخر يريده حملق إليها دون أن يرد فغادرت الكوخ أخيراً.

حملق (كونتا) إلى الشعلة وهو يحاول أن يفكر إلى أن انطفأت الشعلة في التراب.. وفي الظلام عادت خطة المؤامرة على قتل (الطوبوب) إلى رأسه ثانية اشتاق لأن يكون محارباً في جيش أسود عظيم يذبح (الطوبوب) بأسرع ما تستطيع ذراعاه أن تتطوحا.

وعند زيارة (بيل) التالية نظر لأسفل باهتمام عميق إلى جرح الرصاصة وعيناه المصفرتان غاصتا أكثر في وجهه المحموم.. استلقى في ثبات هو يرتجف ويتأوه وقد ازداد نحافةً عما كان عليه عندما أُحضِرَ إلى هنا من أسبوع.. خرجت ثانية من الكوخ ولكن خلال ساعة عادت بملابس سميكة.

ولسبب ما أسرعت بتغطية صدر (كونتا) بلبخة سميكة تتصاعد منها الأبخرة من أعشاب مغلية مخلوطة ومغلية بشيء ما حريف لاذع.. كانت اللبخة شديدة الحرارة ولاذعة لدرجة أن (كونتا) تأوه وحاول أو يتخلص منها ولكن (بيل) أعادته لرقدته بحزم.. أسقطت القماش في إناء آخر يخرج منه البخار وأخرجته ثم وضعته فوق اللبخة ثم غطت (كونتا) ببطانيتين.. جلست وأخذت تراقب العرق يتصبب منه على الأرض الترابية في قطرات.. وبجزءٍ من مريلتها مسحت (بيل) العرق الذي نزل في عينيه.. وأخيراً استلقى عاجزاً تماماً عن الحركة.. لمست (بيل) ملابس صدره ووجدتها بالكاد دافئة فرفعتها.. ثم نظفت صدره من كل آثار اللبخة وغطته بالبطاطين ورحلت.

عندما استيقظت (كونتا) ثانيةً كان ضعيفاً حتى عن تحريك جسده الذي شعر أنه على وشك الاختناق تحت البطاطين الثقيلة.. ولكنه شعر بأن حرارته هبطت وزالت عنه الحُمى.

استلقى وهو يتساءل في تعجب أين تعلمت تلك المرأة كل ذلك؟

في امتعاض وتردد بعد وهلة قرر (كونتا) أن هذه المرأة تشبه قبيلته أكثر من أي قبيلة أخرى.. حاول أن يتصورها في (جوفور) وهي تطحن عصيدة الإفطار وتجدف زورقها من جذوع الأشجار عبر النهر الصغير وتحضر محصول الأرز وهو يتطوح فوق رأسها.

ولكن عندئذ حرر (كونتا) من ذلك التفكير المثير للسخرية حول قريته وعدم وجود أي صلة لها بهؤلاء السود المكروهين والكفرة هنا في أرض (الطوبوب).

صارت آلام (كونتا) أخف.. وأقل عمقاً.. الآن أصبح أكثر ما يؤلمه هى عظامه عندما يتحرك من مكانه.. والذباب الذى يزعجه بطريقة سيئة وهو يطن حول ما تبقى من قدمه المضمدة.

بدأ (كونتا) يتساءل أين هو؟ هذه ليست عشته أو كوخه.. في الغالب لقد أُخِذَ إلى مزرعةٍ ما جديدة.. استلقى هناك وكان يستطيع أن يشم طهيهم ويسمع أحاديث المساء المبكرة والغناء والدعاء والبوق الذي ينطلق صباحاً.

وفي كل يوم يأتي (الطوبوب) الطويل إلى الكوخ ويتعامل مع قدمه المضمدة التي كانت دائماً تؤلمه وهو يغير الرباط.. ثم تأتي (بيل) ثلاث مرات في اليوم تحضر الطعام والماء وهي تبتسم.. وتضع يدها الدافئة على جبينه.. كان عليه أن يذكر نفسه أن هؤلاء السود ليسوا أفضل من (الطوبوب) وهذه السوداء وذلك (الطوبوب) قد لا يقصدان إيذاءه رغم أن الوقت لا يزال مبكراً جداً ليتأكد من ذلك ولكنه الأسود (سمسون) هو الذي ضربه حتى الموت تقريباً.. و(الطوبوب) هو الذي ألهب ظهره بالسياط وأطلق عليه النار وقطع قدمه من ساقه.. وكلما نال مزيداً من القوة أصبح غضبه أكثر عمقاً لأنه مضطر أن يرقد هكذا بلا حول ولا قوة غير قادر حتى على التحرك لأي مكان.. بينما طوال السبع عشر سنة المطرية التي هي عمره كان قادراً على الجري والقفز وتسلق أي مكان يريده.. لقد كان الأمر مخيفاً وفوق التصور والفهم أو التحمل.

عندما حل (الطوبوب) الطويل رسغي (كونتا) من القيود الصغيرة التي أحاطت بهما حاول (كونتا) دون جدوى أن يرفع ذراعيه كانتا ثقيلتين أكثر من اللازم.. بدا وهو متجهم يشعر بالمرارة.. وفي بطء حاول ثانيةً وثالثةً إلى أن استطاع أخيراً أن يرفع ذراعيه.. بعد ذلك بدأ الصراع ليشد نفسه لأعلى فوق كوعيه وما أن نجح في ذلك حتى قضى ساعات وهو يحملق لأسفل عند الضمادة فوق القطع.. لقد بدت كبيرة في حجم القرعة العسلي وأن بدت هذه الضمادة أقل تلوثاً بالدماء من السابقة التي رأى الطبيب وهو ينزعها.. ولكنه عندما حاول الآن أن يرفع ركبته عند نفس الساق وجد أنه لم يعد يتحمل الألم.

صب جام غضبه وشعوره بالامتهان على (بيل) عندما جاءت لزيارته في المرة التالية.. وأخذ يسبها بلغة الـ(مانديكا) وأخذ يدق الإناء الصفيح بعد أن شربه.. وفقط مؤخراً أدرك أن هذه أول مرة منذ أن وصل أرض (الطوبوب) تحدث لأحد بصوتٍ عال.

وفي يوم بعد أن مضى (كونتا) قرابة الأسابيع الثلاثة في المكان الجديد أشار له (الطوبوب) ليجلس منتصباً وهو يقوم بفك الضمادة.. وعندما وصل بالقرب من القدم رأى (كونتا) عندما شاهد نصف كعب قدمه المتورم وقد غطى بقشرة سميكة بنية أوشك (كونتا) أن يصرخ نثر (الطوبوب) شيئاً فوق الجرح واستخدم رباطاً خفيفاً ومرتخياً فوق ثم التقط حقيبته السوداء وسارع بمغادرة المكان.

خلال اليومين التاليين كررت (بيل) ما فعله (الطوبوب) وهي تتحدث برقة مع (كونتا) وهو يشيح بوجهه متجهماً وعندما عاد (الطوبوب) في اليوم الثالث أحضر له عصايتان مستويتان لهما رأسان منقوشتان.. وقد سبق لـ (كونتا) أن رأى الناس المصابين يسيرون عليهما.. احتضن رأسي العصوين تحت إبطيه.. وأراه (الطوبوب) كيف يتحرك بهما وهو يطوح قدمه اليمنى فوق الأرض.

رفض (كونتا) أن يتحرك قبل أن يرحل الاثنان.. ثم كافح ليرفع نفسه لأعلى وهو يستند على الجدار إلى أن استطاع أن يتحمل آلام قدمه دون أن يسقط.. كان العرق يسيل بسرعة على وجهه قبل أن يتمكن من وضع رأسي العصوين تحت إبطيه.. كان مترنحاً ومُخدراً.. ولم يستطع قط أن يتحرك بعيداً عن الجدار الذي كان يستخدمه كمسند.. واستطاع أن يتقافز بضع قفزات غريبة للأمام متطوحاً بجسده والقطع الملفوف بالرباط يهدد توازنه في كل حركة.

عندما أحضرت له (بيل) طعام إفطاره في صباح اليوم التالي وقع بصر (كونتا) على السرور السريع على وجهها عندما رأت العلامات التي أحدثتها العصوان في التراب.. تجهم (كونتا) في وجهها وهو غاضب من نفسه.. لأنه لم يتذكر أن يزيل تلك العلامات.

رفض أن يلمس الطعام إلى أن رحلت المرأة.. ولكن عندئذ أكله بسرعة وهو يعلم أنه في حاجة إلى قواته الآن.. خال أيام قليلة كان يتحرك فوق العكاز في حرية داخل الكوخ.



حكاية الرجل البني..

كانت مزرعة (الطوبوب) مختلفة.. وبدأ (كونتا) يكتشف أول مرة كان فيها قادراً للوصول إلى باب الكوخ على عكازيه ولينظر فيما حوله بالخارج.. لقد كانت أكواخ السود المنخفضة نظيفة وبيضاء.. وبدت في حالة أفضل بكثير مثل تلك التي كان فيها.

كانت تحتوي على مائدة صغيرة.. ورف على الجدار حيث يوجد طبق من الصفيح وقرعة للشراب ومعلقة وأدوات الطعام الخاصة بالـ (طوبوب) والتي تعلم (كونتا) أخيراً أسماءها.. شوكة.. وسكين.. وظن أنه غباء منهم أن يصنعوا أشياء مثل هذه في متناول يده.. ومرتبة للنوم فوق الأرض.. ولحاف محشواً بقشر الذرة.. وبعض الأكواخ لها حدائق صغيرة خلفها.. والكوخ القريب من بيت (الطوبوب) الكبير الأبيض له حوض دائري ملون من الزهور.. ومن مكان وقوفه في مدخل الباب كان (كونتا) يستطيع أن يرى أي شخص يسير في أي اتجاه.. وعندما يرى أحدهم فإنه سرعان ما يعود للداخل ويظل هناك لبعض الوقت قبل أن يغامر بالعودة إلى المدخل.

حدد (كونتا) مكان المراحيض.. وفي كل يوم كان يكتم حاجته إلى يعرف أن معظم السود خرجوا في مهامهم في الحقول.. وعندئذ كان يتأكد بعناية أنه لا يوجد أحد قريب ويذهب على عكازيه بسرعة عبر المسافة القصيرة لاستخدام المكان ثم يعود في أمان.

مر أسبوعان قبل أن يبدأ (كونتا) بمغامرات صغيرة خلف الكوخ المجاور.. وكوخ المرأة الطاهية التي لم تكن (بيل).. وما أن أصبح قادراً على التحرك فيما حوله كفت (بيل) عن إحضار وجباته أو حتى زيارته.. تساءل ماذا يمكن أن يكون قد حدث لها.. وبينما هو واقف في مدخل كوخه لمحها قادمةً من الباب الخلفي للبيت الأبيض الكبير.. ولكنها لم تره.. أو تظاهرت بأنها لم تره حيث سارت مباشرةً وتجاوزته إلى المراحيض.. ونادراً ما لمح (الطوبوب) الطويل الذي كان عادة ما يركب عربةً مغطاةً باللون الأسود.. وبعدها يسرع بعيداً وجوادا العربة يقودهما رجل أسود يجلس على المقعد الأمامي من العربة.

بعد أيام قليلة بدأ (كونتا) يجلس خارج كوخه حتى يعود عمال المزارع في المساء وهم يتطوحون في مجموعات مرهقة.. تذكر المزرعة الأخرى التي كان فيها وتساءل: لماذا هؤلاء السود لا يتبعهم بعض (الطوبوب) وهم يمتطون الجياد وفي أيديهم سياط؟.. كانوا يمرون بالقرب من (كونتا) دون أن يبدوا عليهم الاهتمام به على الإطلاق.. ثم يختفون في أكواخهم.. ولكن خلال دقائق قليلة كان يعود معظمهم إلى الخارج ويستمرون في غنائهم الجماعي.. وكان الرجال يقومون بأشياء حول مخزن الحبوب والنساء يحلبن البقر ويطعمن الدجاج.

والأطفال يجرون دلاء مليئة بالماء.. وكميات كبيرة من خشب النيران.. ولم يكونوا يعرفون أن باستطاعتهم حمل ضعف كمية الأخشاب لو ربطوها في حزم ووضعوها فوق رؤوسهم هي أو دلاء الماء.

وبمرور الأيام بدأ يدرك أن هؤلاء السود يعيشون أفضل من هؤلاء الذين كانوا يعيشون في المزرعة السابقة.. كل ما كان يبدو أنهم مهتمون به هو ألا يضربوا.. وأن يكون لديهم ما يكفي لطعامهم.. ومكان ينامون فيه.. استطاع (كونتا) أخيراً أن ينام دون أن يستيقظ وهو يحترق غيظاً من بؤس هؤلاء الناس إذا ما هو شأنه هو إذا كان هؤلاء الناس راضين عن حظهم التعيس ؟ استلقى وهو يشعر وكأن القليل منه يموت كل يوم.. وأنه أثناء إحساسه بأي رغبة للحياة تثبت لديه فإن عليه أن يحاول الهرب ثانية.. مهما كانت التبعات أو المشاكل تساوى لديه الحياة والممات.

كان قد اعتاد التجول بسهولة فيما حوله بواسطة العكازين.. لقد نجح في أن يعطي انطباعاً أنه ليس في حاجة وليس لديه رغبة في التعاون مع أحد.. ولكن (كونتا) شعر بأن السود الآخرين لم يعودوا يثقون به أكثر مما يثق هو بهم.. ومع ذلك عندما يكون وحيداً في الليالي كان يشعر بالوحدة والإحباط وهو يقضي الساعات محملقاً لأعلى إلى الظلام.. لدرجة أنه شعر أنه ينهار على نفسه.. لقد بدأ الأمر وكأنه مرض ينتشر بداخله.. لقد تعجب وأحس بالخجل عندما أدرك حاجته إلى الحب..

حدث أن كان (كونتا) بالخارج في أحد الأيام عندما دخلت عربة الطبيب إلى الفناء ومقعد السائق يجلس فيه رجل مهجن ذو شعر بني.. وعندما خرج (الطوبوب) وذهب إلى البيت الكبير عادت العربة بالقرب من الأكواخ ووقفت ثانية.. رأى (كونتا) السائق وهو يمسك الرجل بني الشعر من ذراعه ليساعده على الهبوط لأن إحدى يديه بدت وكأنها موضوعة فيما يشبه الطين الأبيض الصلب (الجبس).. كان يبدو أن تلك اليد مصابة بطريقة ما.. أخذ الرجل بني الشعر يفتش في العربة بيده السليمة وأخرج صندوقاً داكناً.. ثم تبع السائق إلى ناحية الأكواخ.. ثم إلى واحد في النهاية كان (كونتا) يعرف أنه خالٍ.. كان (كونتا) مليئاً بالفضول لدرجة أنه جعل همه في الصباح هو أن يسير على عكازيه إلى ذلك الكوخ.. لم يتوقع أن يجد الرجل البني جالساً هناك في المدخل.. نظر كل منهما للآخر.. ببساطة كان وجه الرجل وعيناه بلا تعبير.. وكذلك صوته عندما قال :

- ماذا تريد ؟ أنت واحد من الزنوج الأفارقة الملاعين!!

لم يكن لديه أي فكرة عما يعنيه بالجملة الأخيرة وتعرف (كونتا) على الكلمة التي سمعها أكثر من مرة.. وقف في مكانه لا يفعل شيئاً.. وسمع العبارة التي تدل على طرده.

- حسناً.. هيا ارحل أيها اللعين !

كل ما فعله أن ترنح ودار حول نفسه.. وذهب والغضب يأكله من العرج عائداً إلى كوخه.. زاد غضبه في كل مرة تذكر فيها ذلك الشخص البني.. وود أن كان يعرف ما يكفي من لغة (الطوبوب) ليذهب ويصرخ فيه.

على الأقل أنا أسود ولست بنياً مثلك.. ومن هذا اليوم لم ينظر (كونتا) في اتجاه ذلك الكوخ كلما كان بالخارج.. ولكنه لم يستطيع أن يخفف من فضوله حول حقيقة أنه بعد كل وجبة مساء كان معظم السود الآخرين يتجمعون عند ذلك الكوخ.. أخذ ينصت بانتباه وهو في مدخل كوخه واستطاع (كونتا) أن يسمع صوت البني يتحدث في ثبات.. وأحياناً ما كان الآخرون ينفجرون في الضحك وعلى فترات كان يسمعه يلقون عليه الأسئلة.. تلهف (كونتا) على أن يعرف من هو .

في منتصف فترة ما بعد الظهر بعد حوالي أسبوعين تصادف أن ظهر البني خارجاً من كوخه في نفس اللحظة التي كان (كونتا) يقترب منه.. كان غطاء الجبس الضخم حول ذراع البني قد أُزيل.. وكانت يداه تفردان حزمتين من الذرة عندما مر (كونتا) بسرعة بجواره دخل (كونتا) المرحاض.. وود له أنه لعن البني ثم خرج ثانيةً.. وكان البني واقفاً هناك في هدوء.. وكان عدم الاكتراث على وجهه يعني أنه لا يهتم بأي شيء قد يحدث بينهما.. كان لا يزال البني يجدل أوراق الذرة بين أصابعه.. وأومأ لـ (كونتا) برأسه كي يتبعه.

كان الأمر غير متوقع ومذهلاً لدرجة أن (كونتا) وجد نفسه يتبع البني عائداً إلى كوخه دون كلمة.. جلس (كونتا) في طاعة على مقعد خشبي بلا ظهر.. أشار البني وانتظر حتى جلس ضيفه عليه.. ثم جلس هو على المقعد الآخر بينما لا يزال يجدل.. تساءل (كونتا) أن كان يعرف أنه يجدل بنفس المهارة التي لدى الأفريقيين.. بعد فترة من الصمت بدأ البني يتكلم:

- لقد سمعت عنك.. أنك مجنون جداً.. لقد كنت محظوظاً ذلك اليوم.. لأنهم لم يقتلوك أنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك في إطار القانون.. تماماً مثل ذلك اليوم عندما كسر الرجل الأبيض يدي لأنني تعبت من العمل في الحقل.. القانون يقول أن أي حد يضبطك هارباً يمكنه أن يقتلك ولا عقاب عليه.. وهذا القانون يقرأ ثانية كل ستة أشهر في كنائس الناس البيض.. إن كل ما يفعله دار البرلمان في (فرجينيا) هو الموافقة على مزيد من القوانين ضد الزنوج.. وقانون الزنوج لا يسمح بحمل بندقية أو حتى عصا.. ويقول القانون عشرين جلدة إذا أُمسِكتَ دون تصريح سفر.. وعشر جلدات إذا نظرت إلى البيض في عيونهم.. وثلاثين جلدة إذا رفعت يدك ضد مسيحي أبيض.. ويقول القانون لا جنازة لزنجي حتى لا تنقلب إلى اجتماع.. ويقول القانون تقطع إذن الزنجي إذا أقسم الناس البيض أنك تكذب.. والأذنان إذا ادعوا أنك كذبت مرتين.. والقانون يقول إذا قتلت أي شخص أبيض تُشنق..

وإذا قتلت زنجياً آخر فإنك تُجلد.. والقانون يقول أن الهندي يأخذ مكافأةً إذا أمسك زنجياً هارباً.. بأن يقوم الزنجي بحصاد كل التبغ الذي يستطيع الهندي أن يحمله.. والقانون ضد تعليم أي زنجي أن يقرأ ويكتب أو إعطاء أي زنجي كتاباً.. هناك حتى قانون ضد الزنوج يمنعهم من ضرب أي طبلة تلك العادة الأفريقية.

أحس (كونتا) أن الرجل البني يعلم أنه لا يستطيع أنه يفهم ولكنه يحب أن يتكلم ويشعر بأن إنصات (كونتا) له قد يقربه على الأقل إلى الفهم.. وعندما نظر إلى وجه البني وهو يتكلم وإلى لهجته شعر (كونتا) أنه تقريباً يستطيع أن يفهم.

وقد جعله ذلك يرغب في الضحك والبكاء في آنٍ واحد لأن شخصاً ما يتكلم معه كما يتكلم إنسانٌ آخر.. استمر الزنجي في كلامه بلهجته المختلفة:

- ولكن انظر إلى قدمك.. أنها ليست الأقدام والأذرع.. وإنما أيضاً الأشخاص يقطعون.. لقد رأيت العديد من الزنوج المحيطين بنا هكذا.. بالرغم من ذلك ما زالوا يعملون.. ورأيت زنوجاً يُضربون حتى ينقطع اللحم من العظم.. ونساء زنجيات حوامل يُضربن وهن مستلقيات على وجوههن فوق حفر صنعت من أجل بطونهن.. وزوجاً قُبِضَ عليهم في تمرد يجعلونهم يرقصون فوق جمرات ملتهبة إلى أن يسقطوا.. وليس هناك ما يفعل من أجل الزنوج إذا ماتوا بسبب أسيادهم.. وليس هناك أي جريمة لأنهم يملكونهم.. هذا هو القانون.

كان (كونتا) لا يزال هناك يسمع ويحاول أن يفهم عندما جاء طفل في المرحلة العمرية الأولى ومعه عشاء الرجل البني.. ثم رأى (كونتا) هناك فاندفع خارجاً ثم سرعان ما عاد بصحن مغطي من أجله أيضاً.. أخذ (كونتا) والرجل البني يأكلان دون كلام معاً.. ثم فجأة نهض (كونتا) ليرحل وهو يعلم أن الآخرين سرعان ما سيأتون إلى الكوخ.. ولكن الرجل البني أشار له ليبقى.. وعندما بدأ الآخرون يتوافدون بعد دقائق قليلة لم يستطيع أحد منهم أن يخفي دهشته وهم يرونه هناك خاصةً (بيل) التي كانت آخر من ظهر..

ومثل بقية الآخرين أومأت إليه ببساطة برأسها.. ولكن على فمها آثار ابتسامة على ما بدأ لـ (كونتا) وفي الظلام الهابط استمر الرجل البني في جذب انتباه المجموعة كما فعل مع (كونتا) الذي خمن أنه يخبرهم ببعض الحكايات.. وكان (كونتا) يستطيع أن يعرف متى تنتهي الحكاية.. لأنهم فجأة يضحكون جميعاً أو يسألون أسئلة.. ومن حيث لآخر كان (كونتا) يتعرف على بعض الكلمات التي أصبحت مألوفة على أسماعه.

وعندما عاد ثانيةً إلى كوخه كان (كونتا) في دوامة من الانفعال بسبب اختلاطه بهؤلاء السود المستسلمين.. ومهما حدث فلا يجب أبداً أن يصبح مثلهم.. ومع ذلك ففي كل ليلة كان يشعر بأنه مشدود بطريقة غريبة لأن يذهب معهم إلى كوخ الرجل البني.. وكان تقريباً كل يوم بعد الظهر يتقافز بعكازيه ليزور ذلك الرجل عندما يكون بمفرده.

وذات يومٍ وهو يجدل أوراق الذرة بينما (كونتا) جالساً صامتاً يداعب تعويذته.. قال له البني وهو يشير إلى التعويذة:

- يجب عليك أن تلقي بهذا الشيء.. تخل عنه.. إنك لن تذهب إلى مكان.. ولذلك يجب عليك أن تواجه الحقيقة.. وتبدأ التأقلم معها أياه الطوبي ؟

اشتعل وجه (كونتا) بالغضب وصاح وهو مندهش من نفسه: اسمى (كونتا كينتي) !

كان الرجل البني مندهشاً ومسروراً على حد سواء :

- انظر.. هنا يمكنك الكلام.. ولكنني أقول لك يجب عليك أن تنسى هذا الكلام الأفريقي اسمك (طوبي).

نظر إليه (كونتا) دون فهم رغم أنه فهم بالضبط ما يعنيه.. أتى الرجل البني بحركة يتقاطع ذراعه اليسرى مع اليمنى.. والرجل يقول : (فيدلر) أنا (فيدلر) أي عازف كمان.. هل فهمت ؟

أحس الرجل البني بالملل والضيق فنهض وأحضر من أحد الأركان صندوقاً له شكل غريب.. فتحه وأخرج منه شيئاً أكثر غرابة في الشكل وله رقبة أسطوانية وأربعة أوتار ومفاتيح والأوتار مشدودة بطوله.. إنها نفس الآلة الموسيقية التي سمع الرجل العجوز يعزف عليها في المزرعة الأخر ى.. صاح الرجل البني: هذا هو الكمان.. (فيدلر) !

وبدأ الرجل البني يعلمه أسماء بعض الكلمات.. وكرر بسرعة القليل من الأسماء.. وتعثر في البعض الآخر صححها له الرجل.. وكانت هناك بعض الأصوات غير قادر على قولها على الإطلاق وقد أنعش الرجل البني ذاكرته بشأنهم ثم راجعها كلها معه.. وقال له يوبخه:

- أنت لست غبياً كما يبدو عليك.

استمرت الدروس خلال الأيام التالية وامتدت الأسابيع ولدهشة (كونتا) بدأ يكتشف أنه أصبح قادراً ليس على الفهم فحسب وإنما أيضاً على أن يكون مفهوماً من الرجل البني.. والشيء الرئيسي الذي أراد أن يفهمه منه هو لماذا يفضل أن يموت رجلاً حراً من أن يعيش حياته عبداً.. لم يكن لديه الكلمات ليقول ذلك للرجل البني كما أراد ولكنه كان يعلم أن الرجل البني يفهم لأنه تجهم وهز رأسه.. وفي أحد الأيام بعد الظهر عندما وصل إلى كوخ الرجل وجد زائراً آخر هناك.. كان الرجل العجوز الذي كان يراه من حينٍ لآخر وهو يتسكع في حديثه بالقرب من البيت الكبير.. نظر نظرةً سريعة إلى الرجل البني الذي هز رأسه موافقاً فجلس (كونتا).. بدأ الرجل العجوز يتكلم:

- لقد أخبرني (فيدلر) هنا أنك هربت أربع مرات.. وترى ماذا حدث لك.. وأنا أمل أن تكون قد تعلمت الدرس كما فعلت أنا لأنك لم تفعل شيئاً جديداً.. في أيام شبابي هربت مرات كثيرة ولكنهم كانوا دائماً يكتشفون مكاني.. لقد عرفت أنه ليس هناك مكان استطيع الهرب إليه.. لقد هربت إلى ولايتين أبعد.. وكل ما عليهم أن يعلنوا ذلك في الجرائد.. ثم تعود ثانية من حيث أتيت.. ليس هناك أحدٌ نجح في الهرب من مئات الزنوج الذين يفكرون في ذلك..

وعندما يحين الوقت لتستقر فالأفضل أن تؤدي أعمالك بالطريقة الواجبة بدلاً من إضاعة شبابك كما فعلتُ أنا عندما كنت أتآمر.. وأخطط لما لا يمكن تنفيذه.. لقد كنت اتصرف وكأنه لا فائدة مني.. وبكسل.. وبعدم استقرار.. وكما يسمينا البيض "الزنوج الذين يهرشون رؤوسهم فقط" كلمة السيد هي التي أبقتني هنا.. فقد كان يعلم مدى رغبتي في الأعمال البستانية.

كان يعلم أن (كونتا) يفهم بصعوبة ما قاله البستاني.. فقضى نصف الساعة التالية يشرح ما قاله له الرجل العجوز.. حتى فهم أن الرجل العجوز كان يقصد خيراً بنصائحه.. وأنه بدأ يعتقد أن الهرب في الحقيقة شيئاً مستحيلاً.. وفكرة أن يقضي سنوات عمره كبستاني مقعد ملأته بالغضب والمهانة.. ولكن ربما لفترة إلى أن يستعيد قواه.

وفي اليوم التالي أوضح الرجل العجوز لـ (كونتا) ما يجب عليه فعله.. وبينما ينتزع الأعشاب الضارة التي بدت وكأنها تبزغ كل يوم بين الخضروات فعل (كونتا) مثله.. بينما كان يلتقط دود الطماطم.. وقمل البطاطس من النباتات ويسحقها تحت قدميه.. فعل (كونتا) مثله.. كانا منسجمين معاً بطريقة جيدة.

وتلك الليلة بعد وجبة المساء كان (كونتا) جالساً في المدخل الخاص بكوخه عندما سار نحوه الرجل الذي يدعي (جيديون) والذي يصنع أطواق الجياد والبغال وكذلك النعال للسود.. وكان ممسكاً بزوج من الأحذية.. وقال أنه حسب أوامر السيد صنع زوج الأحذية هذا من أجله.. أخذهما (كونتا) وهز رأسه شاكراً ثم أخذ يقلبهما في كل اتجاه في يديه قبل أن يقرر أن يجربهما.. بدأ يحس بغرابة أن يكون لديه مثل تلك الأشياء في قدميه.. ولكنهما كانا مضبوطين تماماً على مقاسه.. ثم اقترح على (كونتا) أن ينهض ويسير حول المكان وهو مرتدياً الحذاء ليرى كيف يشعر بهما.. كانت فردة الحذاء اليسرى لا بأس بها.. ولكنه شعر بشعور مؤلم في قدمه اليمنى وهو يسير بطريقة غريبة متراقصاً حول كوخه بدون العكازين.. وعندما رأى الإسكافى عدم راحته قال أن ذلك بسبب البتر .. وليس بسبب الحذاء وإنه سيتعود على ذلك.

وفي وقت متأخر من ذلك اليوم سار (كونتا) مسافة أطول مختبراً الحذاء ولكن كانت قدمه اليمنى ما زالت غير مريحة.. لذلك أزال بعضاً من القطن الذي يحشوها.. ثم ارتدى فردة الحذاء ثانية.. شعر بها أفضل.. وأخيراً تجرأ ووضع كل ثقله على تلك القدم.. ولكن لم يحدث له أي ألم زائد.. ومن حين لآخر قد يستمر في اختبار شبه الألم لأصابع قدمه اليمنى الوهمية كما كان يفعل كل يوم منذ أن بدأ المشي حول المكان وهو ينظر لأسفل دائماً مندهشاً لأنه لا يجد أنه أصابع قدمه.

في نفس الأسبوع عادت العربة الحنطور الخاصة بالسيد من إحدى الرحلات.. وأسرع السائق الأسود (لوثر) نحو كوخ (كونتا) عندما لمحه عند كوخ (فيدلر).. راقبه (كونتا) من بعيد وهو يقول شيئاً.. ويبتسم ابتسامة واسعة.. ثم يشير بحركات يده نحو البيت الأبيض.. وينطق بكلمات غير مسموعة.. فقال له (فيدلر):

إن السيد (ويليام وولر) وهو (الطوبوب) الذي يعيش في البيت الأبيض الكبير يملك الآن (كونتا) فسائق الحنطور يقول أنه حصل حالاً على مستند من شقيقه الذي كان يمتلكك في البداية يقضى بأنك الآن أصبحت ملكه.

وكالعادة لم يدع (كونتا) وجهه يظهر مشاعره لقد كان غاضباً وخجلان لأن أحداً يمكن أن يمتلكه.. ولكنه أيضاً شعر بالارتياح العميق لأنه كان يخشى أنه في يومٍ ما قد يُعادُ إلى المزرعة.. انتظر (فيدلر) إلى أن رحل (لوثر) السائق قبل أن يتكلم ثانية ..

- اسمع الزنوج هنا يقولون أن السيد (ويليام) هو سيد طيب وقد رأيت من هم أسوأ منه.. ولكن كلهم سواسية.. أنهم كلهم يعيشون علينا نحن الزنوج.. الزنوج هم أكبر الأشياء التي حصلوا عليها.

بيل تتجاهل كونتا...

تقريباً كل يوم الآن بعد انتهاء العمل كان (كونتا) يعود إلى كوخه.. وبعد أن يؤدي صلاة المغرب قد يذهب ليجلس مع الآخرين و(فيدلر) يتكلم.. وبطريقة ما كانت صلاته ودراسته تجعلانه في حالة جيدة تمكنه من الاختلاط بهم.. وبهذه الطريقة بدا له أنه يستطيع هو نفسه أن يبقى دون أن يضطر لأن يعيش مع نفسه فقط.

تماماً كما كان يحدث في أفريقيا بدأ (كونتا) يواصل قضاء الوقت بأن يلقي يوميًا حصاة صغيرة في قرعة.. في البداية كان أسقط في القرعة 12 قطعة من الحصى المكور الملون لمدة 12 شهراً قمرياً خمن أنه قضاها في مزرعة (الطوبوب) الأول ثم أسقط أيضاً ست حصوات أخرى من أجل الوقت الذي بقى فيه في هذه المزرعة الجديدة.. ثم كان عليه أن يعد بعناية 204 حصوة من أجل السبعة عشر عاماً التي بلغها من العمر عندما أخذ من (جوفور) وألقى بها في القرعة.. وعندما جمعها كلها حسب أنه الآن في سن التاسعة عشر.

لذلك بقدر ما شعر بأنه كبير جداً إلا أنه لا يزال صغيراً.. هل سيقضى بقية حياته هنا كما فعل (البستاني)وهو يرى الأمل والكرامة تنسلان بعيداً بمرور السنين إلى ألا يبقى شيء يعيش من أجله وينقضي الزمن في النهاية .

ملأته الفكرة بالفزع.. مع التصميم على ألا ينتهي تلك النهاية التي انتهى إليها الرجل العجوز وهو يتأرجح في مؤامرته..

وفي كل صباح و(كونتا) منحنى على الخطوط قد تأتي (بيل) التى علم (كونتا) أنها طاهية المنزل الكبير.. تأتى ومعها سلتها.. وذلك لتلتقط الخضروات التي تريدها لطهوها.. ولكن كل الوقت كانت موجودة هناك وهي لا تشبه كثيراً (كونتا) حتى وهي تسير مباشرة وتتجاوزه.

لقد حيره وأضجره أن يتذكر كيف أنها رعته يومياً عندما كان مستلقياً يصارع كي يعيش.. وكيف أنها قد تومئ برأسها خلال الأمسيات عند كوخ (فيدلر).. إنه يكرهها.. لكن ما هو السبب الذي دعاها لأن تقوم بدور ممرضته؟

وفي أحد الأيام صباحاً بعد فترة طويلة لم يأت الرجل العجوز إلى الحديقة.. وخمن (كونتا) أنه لابد مريض.. لقد بدا أكثر ضعفاً في الأيام الأخيرة.. وبدلاً من أن يذهب مباشرة إلى كوخ العجوز للاطمئنان عليه فقد ذهب (كونتا) مباشرة إلى العمل ليروي وينتزع العشب الضار لأنه يعلم أن (بيل) ستأتي في أي لحظة.. وظن أنه ليس من اللائق ألا تجد أحد هناك عند وصولها.

وبعد دقائق قليلة ظهرت.. وأيضاً ظلت لا تنظر إلى (كونتا).. وذهبت إلى عملها وهي تملأ السلة بالخضروات بينما وقف (كونتا) ممسكاً بعزاقته ويراقبها.. ثم عندما بدأت تغادر المكان ترددت (بيل) ونظرت فيما حولها ثم وضعت السلة على الأرض.. ألقت نظرة سريعة وقاسية على (كونتا) ثم رحلت.. كانت رسالتها واضحة أنه عليه أن يحضر سلتها إلى الباب الخلفي للبيت الكبير كما كان يفعل الرجل العجوز دائماً.. كل ما فعله (كونتا) هو أن انفجر غضباً وعقله يستعرض بسرعة عشرات من نساء (جوفور) حيث يرتاح رجال (جوفور) ألقى (كونتا) بعزاقته بعنف على الأرض.. وكان على وشك أن يبتعد عندما تذكر كم هي قريبة من السيد.. فانحنى وأمسك بالسلة وتبعها في صمت.. وعند الباب استدارت وأخذت السلة وكأنها لا تراه وعاد هو في الحال إلى أعمال الحديقة.

ومنذ هذا اليوم فصاعد أصبح (كونتا) (البستاني)تقريباً وكان الرجل العجوز قد مرض كثيراً.. وكان يأتي من حينٍ لآخر كلما كان قوياً بما يكفي للسير.. وقد يؤدي شيئاً قليلاً طالما يستطيع ذلك.. ثم يتطوح عائداً إلى كوخه..

وكان الواجب الوحيد الذي كرهه (كونتا) حقيقة هو اضطراره لأن يحمل السلة لـ (بيل) كل يوم.. كان يتمتم في سره ويتبعها إلى الباب ثم يدفعها بقوة في يديها بكل وقاحة وسرعة.. ثم يدور على عقبيه ويعود لعمله بأسرع ما يمكن.. وبقدر ما كرهها كان ريقه يجري من حين لآخر عندما تفوح في جو الحديقة روائح الأشياء التي تطهوها بيديها.

كان قد ألقى الحصاة الثانية والعشرين في قربة التاريخ عندما نادته (بيل) إلى البيت في أحد الأيام صباحاً دون أن يبدو عليها أي علامة تغيير خارجية.. وبعد لحظة تردد تبعها إلى الداخل ووضع السلة على مائدة هناك.. حاول ألا يبدو مندهشاً من الأشياء الغريبة التي رآها في حجرة المطبخ.. وكان يهم بالاستدارة ليرحل حينما لمسته في ذراعه.. وناولته قطعة من البسكويت عليها ما بدأ أنه لحم بقري بارد بين شرائح.. وعندما حملق إليها في استغراب قالت له :

- ألم يسبق لك أن رأيت ساندويتش من قبل ؟ أنه لن يعضك والمفروض أنك أنت الذي تعضه والآن أرحل من هنا.

وبمرور الوقت بدأت (بيل) تعطيه أكثر مما تستطيع يده أن تحمل.. وعادة ما يكون صحناً من الصفيح مملوءاً بما يسمى خبز الذرة.. وهو نوع من الخبز لم يسبق له أن ذاقه من قبل مع خضروات المستردة الطازجة المسلوقة اللذيذة.. كان قد بذر بذور المستردة الدقيقة بنفسه في أرض الحديقة مخلوطاً بسماد أسود مصنوع من روث البقر.. وسرعان ما برزت الخضرة الرقيقة بسرعة وغزارة.. أحب أكثر من ذلك الطريقة التي تطهو بها الفاصوليا.. لم تعطه أبدًا لحم الخنزير رغم أنه لم يكن متأكداً كيف عرفت ذلك.. ولكن أي شيء تعطيه له كان يمسح الطبق ويلمعه بقطعة من القماش قبل أن يعيده إليها.. وفي أغلب الأحيان كان يريد أن يخبرها بشيء ما إلا أنه لم يستطع أن يعبر عن تقديره إلا بزمجرة كانت ترد عليها بمثلها.

وفي أحد أيام الأحد بعد العشاء كان (كونتا) قد نهض ليمد ساقيه.. وكان يسير حول كوخ (فيدلر) وهو يضرب على بطنه عندما كان الرجل البني يواصل كلامه باستمرار خلال الطعام ثم قاطع حديثه الفردي:

- انظر إلى.. إنك بدأت تسمن !

كان الرجل على حق ولم يكن (كونتا) قد نظر أو شعر بأنه أفضل من الآن منذ أن غادر (جوفور) ويستمر (فيدلر):

- أنت زنجي محظوظ.. هذا هو أنت.. أنت فقط تتسكع في الحديقة.. لا أحد يحصل على وظيفة رقيقة مثل هذه.. وكل من يعملون في المزرعة يتمنونها.

فكر (كونتا) أنه فهم ولم يعجبه ذلك وقال لـ (فيدلر): أعمل عملاً شاقاً.. أشق مما تعمله أنت.

ابتسم (فيدلر) وقال : أنت على حق يا أفريقي !



رقصة الكعكة ..

أصبحت الشهور تمر أكثر سرعة.. وقبل وقت طويل انتهى فصل الصيف الحار.. وبدأ فصل الحصاد ومعه الكثير جداً من الواجبات للجميع بما فيهم (كونتا) وحتى (بيل).. وأصبح يرعي الدجاج والماشية والخنازير بالإضافة إلى الحديقة.. وفي ذروة قطف القطن اسُتدعِيَّ ليقود العربة على طول خطوط الجمع.. كل ذلك كان يتقبله (كونتا) فيما عدا إطعامه للخنازير النجسة التي كانت تجعله شبه مريض .. كان العمل يجعله يشعر بأنه أقل إعاقة.. ولكن نادراً ما كان يعود إلى كوخه قبل الظلام متعباً جداً لدرجة أنه أحياناً ما كان يتستطيع أن يأكل عشاءه.. لم يكن يخلع شيئاً سوى قبعته القش.. وحذاءه حتى يرتاح من ألم نصف قدمه.. وقد يلقى بنفسه فوق مرتبته المحشوة بقشر الذرة ويغطي نفسه باللحاف المحشو بالقطن.. وخلال لحظات يستغرق في نوم عميق بملابسه التي لا تزال مبتلة بالعرق.

سرعان ما كانت العربات تمتلئ بالقطن.. ثم كيزان الذرة المليئة وأوراق التبغ الذهبية تعلق لتجف.. ثم تُذبح الخنازير.. وتُقطع إلى أجزاء.. وتعلق فوق بخار بطئ.. وكل شخص في المزرعة يبدأ في الاستعداد لرقصة الحصاد.. وهي مناسبة هامة جداً لدرجة أنه حتى السيد يحضرها بنفسه.. هكذا كانت إثارتهم ومتعتهم لدرجة أن (كونتا) اكتشف أن رب الناس السود بدأ غير مشترك معهم.. وقرر أن ينتظر ليراقب وعندما حان الوقت الذي استرد فيه الشجاعة لينضم إلى الحفل كان الحفل على أشده.. وكان عازف الكمان (فيدلر) الذي استعادت أصابعه مهارتها أخيراً يعزف على أوتاره.. ورجل آخر يضرب عظمتي جاموسة للمحافظة على الإيقاع عندما صاح أحدهم (مشية الكعكة) ازدوج الراقصون وسارعوا بالظهور أمام عازف الكمان.. كل امرأة وضعت قدمها على ركبة الرجل بينما أخذ يربط رباط حذائها.. ثم غنى عازف الكمان بصوت مرتفع غيروا الشركاء.. وعندما غير كل زوجٍ شريكه.. ورأى (كونتا) أن خطوات الراقصين وحركات أجسامهم تقلد عملية الزراعة للمحاصيل.. وقطع الأخشاب..

وجمع القطن.. وتطويح المحشات.. ونزع الذرة.. وانتزاع الأعشاب.. ووضع المحاصيل على العربات.. كان كل شيء يشبه إلى حد كبير رقص الحصاد في (جوفور) لدرجة أن قدم (كونتا) السليمة بدأت تطرق على الأرض إلى أن أدرك ما يفعله.. ونظر فيما حوله وهو مُحرج ليرى أن كان أحد قد رآه.. ولكن أحداً لم يفعل.. وفي تلك اللحظة في الحقيقة كان كل فرد تقريباً قد بدأ يشاهد فتاة ملفوفة من الجيل الرابع كانت تدور حول نفسها.. وتتقافز بكل خفة مثل الريشة.. أخذ الراقصون الآخرون وهم منهمكون يتحركون جانباً ليلتقطوا أنفاسهم وينتظروا.. وحتى شريكها في الرقص كان من الصعب أن يحافظ على أنفاسه معها.. وعندما تركها ارتفعت الصيحات.. وأخيراً عندما ذهبت تترنح نحو الجانب تملكها وأحاط بها.. علا الهتاف والصياح وأخذت تعلو أكثر عندما كافأ السيد (ويليام وولر) تلك الفتاة بنصف دولار.. ثم ابتسم ابتسامة واسعة لعازف الكمان الذي ابتسم بدوره وانحنى له.. تركهم السيد وسط صياحهم المتصاعد.. ولكن (رقصة الكعكة) لم تكن قد انتهت بعد.. وأخذت مجموعات الأزواج بعد أن ارتاحوا يندفعون عائدين واستمروا كما كانوا من قبل وقد بدأ أنهم على استعداد للرقص طول الليل.

كان (كونتا) راقداً على مرتبته وهو يفكر فيما سمعه عندما جاء طرق فجأة على الباب فسأل:

- من هناك ؟

كان مندهشاً لأنه لم يحضر إلى كوخه في مثل هذا الوقت أحدٌ من قبل.

- هيا افتح أيها الزنجي.

فتح (كونتا) الباب لأنه كان عازف الكمان (فيدلر) وفي الحال شعر بالتقزز إلا أن (كونتا) لم يقل شيئاً لأن (فيدلر) انفجر في الكلام ولم يكن من الشفقة أن يرده ويطرده لمجرد أنه كان يشرب قال (فيدلر) :

- هل رأيت السيد لم يكن يعرف أنني أعزف بهذه البراعة.. والآن سترى أنه سيرتب الأمر بالنسبة لي كي أعزف للبيض ليسمعونني وسيؤجرني.

جلس (فيدلر) وهو سعيد على مقعد خشبي ذي ثلاث أرجل.. والكمان على حجره.. ثم استمر في الثرثرة.

أسمع هنا أنا أشهر من يعزف الكمان.. هل سبق أن سمعت (ساس جيليات) من (ريتشموند) طبعاً لم تفعل.. حسناً.. هذا هو أحسن عازف كمان تاريخي في العالم وأنا أعزف الكمان معه.

اسمع هنا إنه لا يعزف إلا للبيض الكبار في حفلاتهم الكبرى.. يجب أن تراه وهو يعزف على الكمان الذهبي مرتدياً ثوبه القصير وباروكته البنية.. وهناك أيضاً الزنجي (لندن بريدجز) وهو يعزف الفلوت والكلارينيت.. وهناك العديد من الآلات تجعل الناس البيض يرقصون كالعاصفة.

استمر عازف الكمان هكذا لمدة ساعة إلى أن انتهى تأثير الكحول وهو يخبر (كونتا) عن المغنيين العبيد المشهورين الذين كانوا يعملون في مصانع التبغ في (ريتشموند) والعبيد الموسيقيين الأكثر شهرة.

شهد الصباح البارد التالي بداية مهام جديدة.. راقب (كونتا) النساء وهن يخلطن الدهن الذائب الساخن بالماء.. وصبغةً بلون الخشب.. ويغلينه ويقلبنه ثم يبردنه في خليط بنى سميك في أحواض خشبية.. ويتركنه يبرد.. ويقطعنه بعد ثلاثة أيام إلى كعكاتٍ من الصابون.. وقد شعر بالتقزز التام عندما رأى رجالاً يخمرون التفاح والخوخ وثمار البرسيمون إلى شيء ما نافذ الرائحة يسمونه البراندي.. حيث يضعونه في زجاجات وبراميل.. والبعض الآخر يخلطون الصلصال الأحمر بالماء وشعر الخنزير الجاف ليملئوا به الشقوق التي ظهرت في أكواخهم.. وكانت النساء يحشين بعض المراتب بقش الذرة مثل مرتبة (كونتا) والبعض الآخر يحشينها بالعشب الذي جف بينما حُشِيت مرتبة جيدة للسيد بريش الأوز.

والعبد الذي كان يبني الأشياء من الخشب كان يصنع أحواضاً جديدة تنقع فيها الملابس في ماء مخلوط بالصابون قبل غليها وتعصر في كتل لتضرب بالعصى.. والرجل الذي يصنع الأشياء من الجلود مثل أسرجة الجياد واللجام والأحذية مشغول الآن بدبغ جلود البقر.. والنساء كن يصبغن الملابس القطنية بمختلف الألوان..

وكان السيد قد أحضر القماش لصنع الملابس منه.. وتماماً كما كان الحال في (جوفور) كانت كل الأسوار وأفرع الأشجار الغريبة والشجيرات مغطاة بالملابس التي تحتاج إلى تجفيف بألوان حمراء وصفراء وزرقاء.

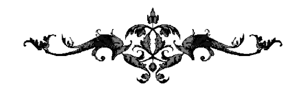
وبمرور الأيام أصبح الهواء أكثر برودة.. والسماء غائمة أكثر فأكثر إلى أن أصبحت الأرض مغطاةً مرةً ثانيةً بالثلج والجليد الذي اعتبره (كونتا) غير سار وغير عادي.. ولم يمر وقت طويل قبل أن يتحدث الناس عن عيد الميلاد المبارك.. وحول الإثارة التي تحدث فيه.. والتي سبق له أن سمعها من قبل وهي تتعامل مع الرقص والغناء والأكل وتقديم الهدايا وهو ما بدا جميلاً.. ولكن بدا أيضاً إغضاباً لله لدرجة أنه رغم أن (كونتا) كان يستمتع بالتجمع حول كوخ (فيدلر) إلا أنه قرر أنه من الأفضل أن يبقى مع نفسه إلى أن تنتهي الاحتفالات الكافرة بسلام.. أنه حتى لم يزر (فيدلر) الذي نظر في فضول إلى (كونتا) في المرة التالية التي رآه فيها ولكنه لم يقل شيئاً.

بسرعة بعد ذلك جاء فصل ربيع آخر وركع (كونتا) على ركبتيه ليغرس الزرع بين الصفوف وتذكر كيف أن الحقول كانت تبدو بهيجة في (جوفور) في مثل هذا الوقت من السنة.. وتذكر وهو في المرحلة العمرية الثانية كيف كان سعيداً وهو يذهب ليرعي وراء الماعز الجائعة في هذا الفصل الأخضر.. ولكن هنا في هذا المكان كان الشباب السود يساعدون في المطاردة والإمساك بالغنم الشاردة بينما كان يقص رجل صوفها المتسخ الكثيف بمقص مخصوص.. شرح (فيدلر) لـ (كونتا) أن هذا الصوف يؤخذ إلى مكان ما لينظف ويغزل في آلات ثم يعود إلى النساء ليغزلنه في خيوط ينسجن منها الأقمشة لصنع ملابس الشتاء.

وكان حرث الحديقة وزرعها وفلاحتها قد استمر بالنسبة لـ (كونتا) من الفجر وحتى حلول الظلام.. وتعلم (كونتا) أن عملية الحصاد يجب أن تنتهي قبل الأحد الثاني من شهر يوليو عندما يُسمح للسود من مزارع أخرى في تلك المنطقة المسماة ولاية (سبورتسيلفانيا) بالسفر إلى بعض الأماكن ليلحقوا نوعاً من اجتماع المخيم.. ولما كان الأمر مهماً وكان يتعلق بربهم فإن أحداً لم يقترح على (كونتا) أن يذهب معهم.. وكان عدد الذين غادروا المكان لا يزيد عن عشرين فرداً رحلوا مبكرين جداً في صباح ذلك اليوم.. وهم جالسون في عربة وافق السيد (وولر) على استخدامهم إياها.

رحل الجميع تقريباً بينما بقي عددٌ قليلٌ جداً لمراقبة (كونتا) إذا ما فكر في الهرب ثانيةً.. ولكنه كان يعلم أنه لن يستطع الابتعاد كثيراً قبل أن يمسك به أحد مطاردي العبيد مرة ثانية.. ورغم أنه كان يخجله الاعتراف بذلك فإنه فَضَلَ الحياة في هذا المكان عن أن يؤسر.. وربما يقتل.. بدأ يشعر بشيء ما ثمين وغال يموت بلا عودة داخله للأبد.. ولكن الأمل ظل حياً.

رغم أنه قد لا يرى أسرته أبداً مرة ثانية ربما في يوم ما قد يصبح قادراً على أن يكون له أسرة خاصة به.



رب السود

مرت سنة أخرى بسرعة لدرجة أن (كونتا) كان من الصعب أن يصدق ذلك وقد أخبرته الحصوات في قرعة التاريخ أن سنه بلغ العشرين.. عاد الجو إلى البرودة ثانيةً.. ولاحت بشائر الكريسماس.. ورغم أنه شعر بنفس الإحساس الدائم نحو رب السود.. إلا أنهم كانوا يستمتعون بوقتٍ سعيد لدرجة أنه بدأ يشعر بأن ربه لن يعترض عليه وهو يراقب في مرح الأنشطة التي استمرت خلال فصل الاحتفالات.

وكان اثنان من الرجال قد حصلوا على تصاريح سفر لمدة أسبوع من السيد (وولر) وكان يعدون أمتعتهم ليذهبوا لزيارة رفاقهم الذين يعيشون في المزارع الأخرى.. وأحد الرجال كان ذاهباً ليرى مولوداً جديداً لأول مرة.. ولكن كل كوخ عدا أكواخ المسافرين وكوخ (كونتا) كانت مشغولة بنوع ما من الاستعدادات أساساً لإعداد الملابس بالأشرطة والتطريز وأكياس مليئة بالخبز والكعك والتفاح والبندق والمكسرات بعد أخذها من أماكن تخزينها.. وهناك في البيت الأبيض الكبير كانت كل حلل وآنية (بيل) تغلي بالأرانب والبطاطس والخنزير المشوي وعدد أطباق من حيوانات لم يرها أو يسمع عنها (كونتا) من قبل إلى أن جاء إلى هذا البلد.. الديك الرومي والدجاج وخلافه ورغم أنه كان متردداً في البداية فإن الروائح الشهية.. من مطبخها سرعان ما أغرت (كونتا) أن يجرب كل شيء ما عدا لحم الخنزير طبعاً.. ولم يكن مهتماً أيضاً بعينات الشراب التي وعد بها السير (وولر) الزنوج وهما برميلان من شراب التفاح القوي.. وبرميل من النبيذ.. وجالون من الويسكي أحضرها في عربته الحنطور من مكانٍ ما.

وعندما جاء النهار أخيراً بدأ الشراب والطعام على أشده.. ومن باب كوخه راقب (كونتا) ضيوف السيد (وولر) يصلون من أجل وليمة منتصف النهار.. وبعد ذلك راقب العبيد وهم يتجمعون بجوار البيت الأبيض الكبير.. ويبدأون في الغناء تقودهم (بيل).. ورأى السيد يفتح النافذة ويبتسم ثم خرج هو والناس البيض الآخرون ووقفوا ينصتون وقد بدا عليهم السرور.. وبعد ذلك أرسل السيد (بيل) لتخبر عازف الكمان أن يأتي ويعزف لهم.. وهو ما فعله.

كان (كونتا) يستطيع أن يفهم اضطرارهم لأن يفعلوا ما يقال لهم ولكن لماذا يبدون مستمتعين لهذا الحد ؟

وإذا كان البيض مغرمين بعبيدهم لدرجة أنهم يعطونهم هدايا..فلماذا لا يجعلونهم حقاً سعداء ويطلقون سراحهم ؟

ولكن هل هو أفضل منهم؟ هل هو مختلف عنهم لهذه الدرجة ؟ ببطء ولكن بثقة يستطيع ألا ينكر أنه كان قد بدأ ينزلق إلى قبول طرقهم.. لقد كان أكثر ما يقبله اضطراراً هو قبول صداقة عازف الكمان.. فقد كان احتساؤه للشراب يضايق (كونتا) بشدة.. ومع ذلك أليس من حق الكافر أن يكون كافراً.. كان تبجحه يحيره.. ولكنه كان يعتقد أن كل ما يتبجح ويتفاخر به كان صحيحاً.. ولكن روح (فيدلر) المرحة الطبيعية وحبه للتهكم كانت كريهة بالنسبة له.. وقد وصل (كونتا) إلى كره سماع (فيدلر) وهو يناديه (زنجي) منذ أن علم أن هذا هو الاسم الذي يطلقه الرجل الأبيض على الزنوج.. ولكن أليس هو (فيدلر) الذي أخذ على عاتقه أن يعلمه الكلام ؟ وأليس هو من صداقته جعلت من السهل عليه أن يشعر بأنه أقل غربة مع السود الآخرين ؟

قرر (كونتا) أنه يريد أن يعرف (فيدلر) أفضل .

وعندما يحين الوقت المناسب فإنه سيسأل (فيدلر) بطريقة عشوائية حول بعض الأسئلة التي في عقله.

ولكنه ألقى حصاتين أخريين في القرعة قبل أن يأتي يوم أحد هادئ بعد الظهر حيث لا أحد كان يعمل فذهب إلى الكوخ الأخير المألوف في خط أكواخ الزنوج.. ووجد (فيدلر) في حالة نادرة من المزاج الهادئ.. وبعد تبادل التحية ظلا كلاهما صامتاً لفترة.. ثم من أجل الحديث قال (كونتا) أنه سمع مصادفةً سائق السيد المدعو (لوثر) يقول أن الناس البيض كانوا يتحدثون عن ضرائب وهو يقود عربة السيد..فما هي الضرائب ؟ إنه يريد أن يعرف.

فيدلر: الضرائب هي نقود يجب أن تدفع على أي شيء يشتريه البيض.. أن ذلك الملك عبر المياه يفرض الضرائب ليظل غنياً.

لم يكن من عادة (فيدلر) أن يكون مقتضباً لهذه الدرجة (كونتا) وتصور أن الرجل في مزاج سيئ أحسن بالإحباط وجلس هناك فترة في صمت ولكن أخيراً قرر أن يخرج ما في عقله حقاً وبسرعة.

كونتا: من أين جئت إلى هنا ؟

حملق في (كونتا) وقال بصوت متقطع:

- هل تعرف كم أنت مختلف ؟ لأنك لا تعرف شيئاً.. لقد انتُزِعت من هناك.. وقُطِعَت قدمك.. وتظن أنك انتهيت من كل ذلك.. حسناً لست أنت الوحيد الذي صادف سوء المعاملة.. أنا أعرف كل زنجي هنا.. أنني لم أقل أي شيء لأحد من قبل.. إلا أنك مختلف.. حسناً.. إذا حدث وقلت ما سأخبرك به فإنني سأمسكك من رأسك.

قاطعه (كونتا): أنا لن أقول.

مال عازف الكمان للأمام وتحدث في رقة حتى لا يسمعه أحد غيرهما.

السيد الذي كنت معه في شمال (كارولينا) غرق ولم يعرف أحد كيف حدث ذلك.. على أية حال في نفس الليلة تركوني أخرج.. ولم يكن له زوجة ولا أولاد يطالبون بي.. لقد اختفيت إلى أن تصورت أنه أمان أن أترك المكان وأرحل إلى (فرجينيا) واستمر في العزف على الكمان.

سأله (كونتا): ما هي (فرجينيا) .

- يا رجل أنت لا تعرف شيئاً على الإطلاق.. هل تعرف ذلك ؟ (فرجينيا) هي المستعمرة التي تعيش فيها إذا كنت تسمى هذه عيشة.

ما هي المستعمرة ؟

- أنت غبي أكثر حتى مما تُظهر.. هناك ثلاثين مستعمرة (يقصد ولاية) تكون هذه البلد أسفل جنوب هنا توجد (كارولينا) وفي الشمال توجد (ميريلاند) بنسلفانيا (نيويورك) ومجموعة أخرى.. أنا لم أذهب إلى هناك قط ولا معظم الزنوج كانوا هناك.. لقد سمعت أن هناك الكثير من الناس البيض لا يوافقون على العبودية ويتركون أهلنا أحراراً.. أنا نفسي نصف زنجي.. ويجب أن أكون حول أحد السادة حتى لا تمسكني دوريات الشرطة أبداً.

لم يفهم (كونتا) ولكنه تظاهر بأنه يفهم حيث كان يشعر بأنه لا يرغب في أن يهان ثانية.. سأله (فيدلر): هل رأيت الهنود ؟

تردد (كونتا) قبل أن يرد: لقد رأيت البعض منهم.

- أنهم هنا من أجل الناس البيض.. والرجل الأبيض في أي مكان يتصور أنهم لا حساب لهم ويسميهم المتوحشين

توقف (فيدلر) ليستلذ بشرابه ثم واصل.

- حسناً.. أنت من أفريقيا.. من المحتمل أن تظن في نفسك أنك تعرف كل شيء عن الصيد وما شابه.. أليس كذلك.. لكن الحقيقة أنه لا أحد يسافر أو يصطاد مثل الهنود.. ما أن يسير واحد منهم في طريق إلا والخريطة في رأسه كيف سار..ومن أين.. وإلى أين يسير.. ونساءهم يسمون (سكوز) وهن يحملن صغارهن على ظهورهن مثلما تفعل الأمهات في أفريقيا عندكم.

دهش (كونتا) لأن عازف الكمان يعرف ذلك ولم يستطع أن يكتم دهشته.. ابتسم (فيدلر) مرة ثانية واستمر في كلامه:

- بعض الهنود يكرهون الزنوج.. والبعض يحبونهم.. ويعتبر الزنوج أكبر مشكلة بالنسبة للهنود عند البيض.. فالبيض يريدون كل أراضي الهنود.. ويكرهون الهنود الذي يأوون الزنوج.. أنتم جميعاً أيها الأفارقة والهنود ترتكبون نفس الغلطة.. وهى أنكم تدعون البيض يدخلون حيث تعيشون.. أنتم تقدمون لهم كل شيء.. النوم.. والأكل.. ثم أول شيء يفعلونه هو أن يركلوكم أو يحبسوكم.

توقف (فيدلر) مرة ثانية ثم فجأة أنفجر قائلاً:

- ما الذي يضعني هنا معكم أيها الأفارقة.. انظر: أنا أعرف سودٌ كثيرين مثلك.. لا أدري لماذا اتفق معكم من أول لقاء.. أنتم تأتون هنا وتتصورون أن الزنوج يجب أن يكونوا مثلكم.. كيف تتوقع أننا لا نعرف شيئاً عن أفريقيا ؟ رغم أننا لم نذهب إلى هناك.. وأيضاً لن نذهب أبداً.

حملق في (كونتا) ثم استغرق في الصمت.

خاف (كونتا) أن يتسبب في انفجار آخر فغادر في الحال دون أن يضيف كلمة.. ويفكر فيما قاله (فيدلر) ولكن فيما بعد كان كلما ازداد تفكيراً شعر بالتحسن.. لقد رفع (فيدلر) قناعه.. وهذا يعني أنه سيبدأ في الثقة بـ (كونتا).. ولأول مرة في تعارفه مع أي شخص خلال ثلاث سنوات مطرية منذ أن اختُطِفَ من بلده يعرف شخصاً عن قرب.



فرق المطاردة

على مدى الأيام القليلة التالية.. وبينما (كونتا) يعمل في الحديقة.. فكر كم من الوقت مضى ليعرف ما قاله له عازف الكمان.. وكم هناك ما لا يعرفه بعد.. فكر أن القناع لا يزال موجوداً بالنسبة للبستاني العجوز الذي كان (كونتا) يقوم بزيارته من حينٍ لآخر.

أيضاً هناك (بيل) لم يعرف شيئاً عنها رغم أنهما كانا يتبادلان الحديث يومياً.. أو الأصح أنه كان في معظم الأوقات ينصت وتتحدث هى وهو يأكل الطعام الذى تقدمه له.. وخطر على باله كيف أن كلاً من (البستاني) والمرأة كانا أحياناً يبدآن بقول شيءٍ ما أو يلمحان فقط.. ولكنهما لم ينهياه أبداً.. لقد كان كلاهما حذرين بشكل عام.. وبدأ أنهما كذلك بالنسبة له بشكل خاص.. فقرر أن يعرفهما أفضل .

وفي زيارته التالية إلى (البستاني)العجوز بدأ بطريقة غير مباشرة بسؤاله عن شيء أخبره عنه عازف الكمان.. قال (كونتا) أنه سمع عن فِرق المطاردة ولكنه لم يكن متأكداً ممن هم.. قال (البستاني)العجوز في كراهية..

- إنهم طبقة منحطة من البيض لم يتملكوا أبداً زنوجاً في حياتهم.. لقد كان قانون (فرجينيا) قديماً هو مراقبة الطرق.. أو أي مكان آخر يكون فيه الزنوج.. وأن يضربوهم بالسياط.. أو يضعوهم في السجن إذا ما قبض عليهم دون حصولهم على تصريح سفر من أسيادهم.. وأنهم يستأجرون لأن يفعلوا ذلك لأنهم لا يملكون زنوجاً.. ما الذي وراء ذلك.. هل تفهم ؟

كل الناس البيض يخافون لدرجة الموت أن أي زنجي قد يخطط للتمرد.. والحقيقة أنه لا يوجد ما يحبه رجال شرطة الدورية أكثر من ادعاء الاشتباه في بعض الزنوج.. ويمسكون بهم ويخلعون ملابسهم قبل أن تضربهم زوجاتهم وأطفالهم بوحشية.

عندما أدرك مدى اهتمام (كونتا) بما يقوله استمر (البستاني)العجوز:

- سيدنا لا يوافق على ذلك.. ولهذا السبب ليس عنده أي مراقب.. ويقول أنه لا يريد أن يضرب أحدٌ زنوجه.. ويقول لزنوجه أن يراقبوا أنفسهم بأنفسهم.. وعليهم فقط أن يؤدوا عملهم كما تعلموا.. وألا يخالفوا أياً من قوانينه.

تساءل (كونتا) عما هي القوانين ولكن (البستاني)استمر.

والسبب في أن السيد يحب ذلك أنه من أسرة غنية.. حتى من قبل أن يأتوا هنا من إنجلترا عبر المياه.. وأن (آل وولر) كانوا دائماً هكذا.. وأن معظم السادة يحاولون أن يكونوا مثلهم.. لأن معظم هؤلاء السادة ليسوا سوى صيادين حصلوا على قطعٍ من الأرض.. وزنجي أو اثنين يعملون بمشقة بالغة.. وأنهم استمروا في الزيادة والثروة من ذلك.

ليست كل المزارع لديها جماعة كاملة من الزنوج.. معظمها في أي مكان بها من واحد إلى خمسة زنوج ومزرعتها هنا بها عشرون.. وهذا يجعلها واحدة كبيرة جداً.. وكل اثنين من ثلاثة من البيض ليسوا عندهم زنوج على الإطلاق.. هذا ما سمعته والمزارع الضخمة بها خمسون أو ربما مائة من العبيد.. وغالباً ما تكون تلك المزارع حيث توجد التربة السوداء.. وهي من قاع الأنهار مثل لويزيانا والمسيسبي وكذلك (ألباما) وبعض شواطئ (جورجيا) في جنوب (كارولينا) حيث يزرعون الأرز.

سأله (كونتا) فجأة: كم عمرك ؟

نظر (البستاني) إليه: اعتقد أنني أكبر سناً منك ومن أي شخص آخر.. لقد سمعت أن حرب الهنود اشتعلت وأنا طفل.

بعد لحظة صمت ورأسه منكس رفع رأسه ونظر إلى (كونتا) وبدأ يغني أغنية زنجية.. ودهش (كونتا).

-كانت أمي تغني لي هذه الأغنية دائماً.. وقالت أنها حفظتها عن أمها التي جاءت من أفريقيا تماماً مثلك.. هل تعرف من النغمات من أين جاءت ؟

قال (كونتا): إنها تبدو وكأنها جاءت من (سيريري).. ولكني لا أعرف معنى الكلمات.. لقد سمعت السيريري يتحدثونها عندما كنا معاً في السفينة التي أحضرتنا.

نظر (البستاني) العجوز حوله خفية: يجب أن أكف عن هذا الغناء لأن بعض الزنوج قد يسمعونها ويخبرون السيد.. أن البيض لا يريدون من أحد أن يتحدث بلغات إفريقية.

كان (كونتا) على وشك أن يقول للرجل إنك لا شك من (جامبيا) بأنوفهم العالية.. وشفاهم المفلطحة.. وبشرتهم الأكثر سواداً من معظم قبائل (جامبيا).. ولكن عندما قال (البستاني)ما قاله قرر أنه من الأفضل ألا يتكلم في مثل تلك الأمور.. لذلك غير الموضوع وسأل الرجل العجوز من أين هو ؟ وكيف انتهى به الأمر إلى هذه المزرعة ؟ لم يجب (البستاني) العجوز في الحال ولكنه في النهاية قال: الزنجي الذي عانى كثيراً تعلم كثيراً.

ثم نظر بحرص إلى (كونتا) متردداً إن كان يستمر أم لا وفي النهاية استكمل:

- لقد كنت رجلاً طيباً وقوياً في يومٍ ما.. كنت أستطيع أن أثني سيخ حديد على ركبتي.. وأرفع جوالاً من الطعام يحمله بغل.. وأستطيع أن أرفع رجلاً بالغاً من حزامه بذراعي لأعلى.. ولكني أُجبِرتُ على العمل.. وضُرِبتُ حتى أوشكت على الموت.. لولا سيدي وقع وثيقة مع هذا السيد الحالي الذي اشتراني.. والآن لقد ضعفت وأريد فقط أن ارتاح بقية أيامي.

فحصت عيناه وجه (كونتا) ثم استطرد في حزن:

- لست أدي كيف أمكنني أن أقول لك هذا.. أنا لست سيئاً كما يبدو علي.. ولكن السيد لن يستطيع أن يبيعني لأنه يعتقد أنني انتهيت.. لقد رأيت كيف أنك تعلمت أعمال البستان.. يمكنني أن أعود وأساعدك إذا أردت.. ولكن ليس كثيراً كل ما هناك أنني لم أعد جيداً.

شكر (كونتا) الرجل العجوز على عرضه وطمأنه أنه يستطيع القيام بالعمل بمفرده.. وبعد دقائق قليلة استأذن.. وفي طريق عودته إلى كوخه غضب من نفسه.. لأنه لم يشعر بمزيد من التعاطف نحو الرجل العجوز.. لقد كان نادماً على أنه مر بكل هذا.. ولكنه لم يستطيع إلا أن يسد أذنه نحو أي شخص استسلم.. وفي اليوم التالي قرر (كونتا) أن يرى إن كان يستطيع أن يجعل (بيل) تتكلم أيضاً.. ولما كان يعلم أن السيد (وولر) هو موضوعها المفضل فقد بدأ بسؤالها لماذا لم يتزوج؟ فقالت :

- لقد كان متزوجاً هو والآنسة بريسيلا في نفس العام الذي أتيت فيه إلى هنا.. لقد كانت جميلة مثل العصفور.. ولم تكن كبيرة في السن.. ولم تكن قوية.. ولهذا ماتت أثناء ولادة أول أطفالها الذي كان بنتاً صغيرة ماتت هى أيضاً.. لقد كان أفظع وقت رآه أحد هنا.. ومن وقتها لم يصبح السيد نفس الرجل.. فقط يعمل ويعمل.. ويعمل.. ويبدو أحياناً أنه يحاول أن يقتل نفسه بالعمل.. إنه لا يستطيع أن يتحمل التفكير في أحدٍ يكون مريضاً أو مصاباً يستطيع أن يساعده.. والسيد قد يعالج قطة مريضة بسرعة كما يفعل مع زنجي يسمع عنه مثل ذلك الرجل (عازف الكمان) الذي تتحدث معه دائماً.. أو مثلما حدث وأحضرك إلى هنا.. لقد غضب بشدة عندما علم ما فعلوه بقدمك

بل إنه حتى اشتراك من شقيقه (جون).. لقد قالوا أنك حاولت قتلهم.. ولكنهم كانوا من مطاردي الزنوج المستأجرين.. أنصت (كونتا) وهو يدرك أنه فقط قد بدأ يقدر أبعاد وأعماق السود لم يخطر على باله أبداً أنه

حتى الناس البيض يمكن أن يكون لديهم مشاعر إنسانية تعذبهم.. وجد نفسه يتمنى لو استطاع أن يتكلم لغة البيض بدرجة كافية لأن يقول كل هذا لـ (بيل) وأن يخبرها عن القصة التي حكتها له جدته (نيوبوتو) حول الولد الذي حاول أن يساعد التمساح.

عندما فكر (كونتا) في وطنه تذكر شيئاً يرغب أن يقوله لـ (بيل) من وقتٍ بعيد.. وبدا له أن هذه هي اللحظة المناسبة.. قال لها بكل فخر أنه فيما عدا أنها امرأة بنية اللون.. فإنها تكاد تشبه امرأة (مانديكا) في وسامتها.

لم يضطر لأن ينتظر طويلاً لردها على مجاملته وقالت في توتر :

- أي أمر غير هذا تتحدث عنه ؟ أنت تعلم كيف حدث أن الناس البيض استمروا في استخدام حمولات السفن منكم أيها الزنوج الأفارقة ؟

رأى أنه من الأفضل أن ينهى الحديث عند هذه الدرجة.. ويغادر.



الطاغية ..

طوال الشهر التالي لم تتكلم (بيل) مع (كونتا) بل وصل الأمر إلى أن تحمل سلة الخضروات بنفسها عائدةً إلى البيت الكبير.. ثم في صباح مبكر من يوم الاثنين جاءت مندفعة إلى الحديقة وعيناها متسعتان من الإثارة وقالت متلعثمة :

- لقد رحل العمدة لتوه.. لقد أخبر السيد أنه كان هناك معارك كبرى في الشمال في مكانٍ ما اسمه (بوسطون) أنهم الناس البيض الذين غضبوا من ضرائب الملك.. لقد أمر السيد (لوثر) أن يعد الحنطور ليذهب إلى مقر الولاية.. إنه هو أيضاً غاضب.

وفي وقت العشاء كان كل واحد يلتف حول كوخ عازف الكمان للحصول على رأيه ورأى (البستاني) باعتبارهما أقدم عبدين في صفوف الزنوج.. خاصةٍ عازف الكمان الذى كان أحسن رحالة جاب كل البلاد.. ثم عاد حنطور السيد حوالي وقت الغسق.. وسارع السائق (لوثر) إلى مساكن الزنوج بمزيد من التفاصيل قال:

- إنهم يقولون أنه في إحدى الليالي أصاب الجنون بعضاً من أهل (بوسطون) حول ضرائب الملك التي يدفعونها لجنود الملك.. وبدأ هؤلاء الجنود في إطلاق النار.. وقتل أحد الزنوج اسمه (كريسباس توكس) وهم يسمونها مذبحة (بوسطون).

انفض الجمع ليلتها عند ذلك.. وخلال الأيام القليلة التالية لم يكن هناك جديدٌ في الأمر.. وما أن يمر يوم إلا واثنان أو ثلاثة من الزنوج يثرثرون فوق الطريق الكبير حول إشاعة جديدة.. وظل (لوثر) يحضر تقارير منظمة من عبيد البيت والعاملين في الاسطبلات والسائقين الآخرين الذين يتحدث معهم خلال كل رحلة يقوم بها السيد لرعاية المرضى.. أو لمناقشة ما يدور هناك في (نيو إنجلاند) مع السادة الآخرين في بيوتهم الكبرى أو في مجلس المقاطعة أو المدن المجاورة.. قال (فيدلر) لـ (كونتا).

- لم يعد لدى البيض أي أسرار.. لقد اختلطوا بالزنوج ما أن يذهبوا إلى أي مكان إلا والزنوج يسمعون.. وعندما يأكلون أو يتحدثون فإن البنات الزنجيات اللاتي يخدمونهم يتظاهرن بأنهن صمٌ.. ولكنهم يتذكرن كل كلمة يسمعنها.. والعديد من زنوج البيوت يكررون حرفياً ما يسمعوه إلى أقرب زنجي.. وهؤلاء الزنوج لا ينامون قبل أن يعرفوا كل ما قاله البيض.

وما كان يحدث في الشمال استمر يصل قطعةً.. قطعة خلال الصيف والخريف.. ثم بمرور الوقت بدأ (لوثر) ينقل هذا الأمر ويقول:

إنه باعتبار البيض خبراء في الضرائب فإن ذلك ليس كل ما يقلقهم.. لكن ما يقلقهم أنهم يقولون أن هناك في بعض المقاطعات زنوج أضعاف عدد البيض.. والملك الموجود عبر المياه الكبرى قد يساومهم على حريتهم ضد هؤلاء البيض.

انتظر (لوثر) حتى يلتقط أنفاسه ويهدئ تلهف المستمعين.. ثم واصل:

- الحقيقة لقد سمعت أن بعض البيض كانوا خائفين جداً.. وبدؤوا يغلقون أبوابهم بالليل.. بل أنهم منعوا أحاديث الزنوج حول البيت أو الحديث أمامهم..

ولعدة أسابيع بعد ذلك أخذ (كونتا) يفكر في الحرية.. حيث لا سيد له على الإطلاق.. يفعل ما يريد.. ويذهب إلى أى مكانٍ يحبه..

...

وقبل أعياد الكريسماس بوقت قصير وصل بعض أقارب السيد (وولر) لزيارته.. كان سائق عربتهم الحنطور السوداء يملأ بطنه حتى الشبع في مطبخ (بيل) بينما يزودها بآخر الأخبار.. قال:

- في (فرجينيا) هناك زنجي اسمه (جورج ليل) سمعت أنه أعلن أنه سيبدأ الوعظ في كنيسة يسوع المسيحية للزنوج في (سافانا).. وهذه أول مرة أسمع عن كنيسة للزنوج.

قالت بيل: لقد سمعت عن واحدة في (بيترسبرج) هنا في (فرجينيا) ولكن خبرني هل سمعت أي شيء عن اضطرابات البيض في الشمال ؟

- حسنا.. لقد سمعت من فترة أن هناك العديد من الناس البيض عندهم اجتماع كبير في فيلادلفيا وهم يسمونه أول مؤتمر قاري.

قالت (بيل): سمعت عن ذلك..

وفي الحقيقة أنها كانت ترهق نفسها في القراءة في جريدة (فرجينيا) الخاصة بالسيد (وولر) ثم شاركت معلوماتها مع (البستاني) العجوز وعازف الكمان.. لقد كانا هما الوحيدان اللذان يعرفان أنها تقرأ قليلاً.. وعندما صرحت بذلك مؤخراً وافق (البستاني)وعازف الكمان أنه لا يحب أن يعرف (كونتا) ذلك.. فهو لن يستطيع بعد أن يستوعب مدى خطورة العواقب إذا ما عرف السيد أي تلميح أنها تقرأ.. أنه سيبيعها خارج المزرعة في نفس اليوم.

في مقتبل السنة الثانية 1775 كان من الواضح أن البيض مقدمون على أزمة مع الملك في إنجلترا.

...

وخلال شهر جاءت الأخبار أنه في معركة شرسة في ليكنجتون. وبعد يومين جاء خبر أن ألفاً قد سقطوا في معركة دموية في مكان يدعي بانكرهيل..

وقال (لوثر): الناس البيض في مجلس المقاطعة يضحكون لأن جنود الملك يريدون بزات حمراء حتى لا تظهر دماؤهم.. وسمعت أن الدماء انتشرت بسبب اشتراك الزنوج والبيض في القتال.

وقال أنه أينما ذهب كان يسمع أن سادة (فرجينيا) يظهرون عدم الثقة في عبيدهم حتى العجائز منهم ممن يخدمون في البيوت البيضاء.

هناك سيد اسمه (جورج واشنطون) استطاع أن يجمع جيشاً.. وقد أخبرني زنجي أنه سمع أن لديه مزرعة ضخمة بها الكثير من الزنوج العبيد.

وقال (لوثر) أنه سمع أيضاً أن بعض عبيد (نيو إنجلاند) قد أطلق سراحهم ليساعدوا في محاربه جنود الملك.

صاح عازف الكمان: لقد عرفت ذلك.. لقد دفع الزنوج إلى ذلك وسيتقاتلون مثال الفرنسيين في الحرب الهندية.. ولكن كل ذلك سرعان ما سينتهي ويعود البيض إلى ضرب الزنوج بالسياط.

قال (لوثر): ربما لا.. لقد سمعت بعض البيض يسمون أنفسهم (كويكرز) قد أنشأوا معاً مجتمعاً ضد العبودية هناك في فيلادلفيا.. وهناك بعض الناس البيض لا يؤمنون بأن يكون الزنوج عبيداً.

تدخل عازف الكمان قائلاً: ولا أنا كذلك.

وكانت مقتطفات الأخبار التي ساهمت بها (بيل) بدت وكأنها تناقشها مع السيد نفسه.. ولكنها اعترفت في النهاية بأنها كانت تنصت خلال ثقب باب غرفة الطعام بعد أن أخبرها السيد وضيوفه من وقت ليس بعيد أن تترك الغرفة بعد تقديم الطعام مباشرةً.. وأن تغلق الباب وراءها.. ثم تسمعه يغلقه بالرتاج ثم همهمت في مرارة: أنا أعرف ذلك الرجل أفضل من أمه.

سألها عازف الكمان وهو نافذ الصبر: وماذا قال هناك بعد أن أغلق الباب بالمفتاح ؟

- حسناً هذه الليلة قال أنه لا مفر من القتال ضد الإنجليز.. وقال إنهم سيرسلون حمولات سفن ضخمة من الجنود إلى هنا في (فرجينيا) حيث يوجد أكثر من مائتي ألف عبد.. وإن أكبر قلق هو أن الإنجليز قد يثيرون الزنوج ضد البيض.

وقول السيد أنه مخلص للملك مثل أي رجلٍ وطنى.. ولكن لا أحد يستطيع أن يتحمل ضرائبه.

قال (لوثر): لقد منع الجنرال (واشنطون) أخذ المزيد من الزنوج في الجيش.. ولكن بعض الزنوج الأحرار في الشمال يجادلون الآن في هذه الأجزاء من المقاطعة ويريدون القتال.

قال عازف الكمان (فيدلر): إنهم لن يتاح لهم أي فرصة.. وإنما فقط دع العدد الكافي من البيض يقتلون.. أن الزنوج الأحرار مجانين.. ولكن الأخبار التي جاءت بعد أسبوعين كانت أكبر.. لقد أعلن اللورد (ديمور) الحاكم الملكي لـ (فرجينيا) أن الحرية للعبيد الذين يتركون مزارعهم من أجل الخدمة في أسطوله الإنجليزي للصيد والمجمدات.

قالت (بيل): لقد جاء رجل على العشاء وقال كلاماً كثيراً حول تقييد وسجن العبيد المشتبه في استعدداهم للانضمام إلى الأسطول.. وفكر حتى في اختطاف وقتل اللورد (ديمور).

كان (كونتا) قد أعطى مهمة العناية بالجياد الخاصة بالسادة الزائرين.. وكان واحد منهم هو السيد (جون وولر) شقيق السيد وهو الرجل الذي اشترى (كونتا) بعد إحضاره من السفينة منذ ثمانية أعوام.. وبعد كل هذا الوقت تعرف على ذلك الوجه الكريه من أول نظرة.. ولكن الرجل ألقى باللجام إلى (كونتا) وكان من الواضح أنه لم يتعرف عليه.

قال له (فيدلر) بعد أن أخبره: لا تندهش.. السيد لن يقول مرحباً لأي زنجي خاصة إذا تذكر من أنت ؟

وعلى مدى الأسابيع القليلة التالية عرفت (بيل) عن طريق ثقب الباب من السيد وزواره خوفهم وغضبهم من أن آلافاً من عبيد (جورجيا) وجنوب (كارولينا) و(فرجينيا) قالوا أنهم سيغامرون بشجاعة بترك مزارعهم ويهربون للانضمام إلى اللورد (ديمور).

واتفق كل البيض على الحاجة للبدء في تربية المزيد من الكلاب الوحشية.

وفي يومٍ نادى السيد (وولر) الجميع للحضور إلى غرفة المعيشة.. وهناك قرأ مرتين ببطء خبراً في جريدة (فرجينيا) وأمر (بيل) أن تقرأها للزنوج وناولها الجريدة.. فعلت كما قال لها وكان رد فعلهم هو مزيجاً من الخوف والغضب.. ثم قال السيد:

- لا تحاولوا أبداً أيها الزنوج أن تحطموا أنفسكم إذا ما هجرتمونا.. لأنكم بالتأكيد ستحطمون أنفسكم.

وسرعان ما أُرسِلَتْ (بيل) مرة أخرى والدموع تسيل من عينيها للخارج برسالة أخرى.. هذه المرة كانت الأخبار التى تحملها إليهم تقول أن مجلس النواب في (فرجينيا) قد وافق على قانون الموت دون الاستفادة بالمراسم المسيحية لكل الزنوج أو العبيد الآخرين الذين يتآمرون للتمرد أو إحداث اضطرابات.

سأل أحدهم: ماذا يعني ذلك ؟

رد عليه (فيدلر): تستطيع أن تتمرد.. ولكن السادة لن يستدعوا قساً ليصلي عليك بعد أن يقتلوك.

كان (لوثر) قد سمع أن بعض الناس البيض يدعون (توريز) وأصنافاً أخرى تدعي (سكوتشمان) كانوا ينضمون إلى الإنجليز.. وأن زنجي الشريف أخبره أن لورد (ديمور) يفسد مزارع النهر.. ويحرق البيوت الكبيرة.. ويحرض الزنوج بدعوى أنه سيحررهم إذا أتوا وانضموا إليه.. وفي (يورك تاون) والمدن الأخرى أي أسود يُمسك به ليلاً يُضرب بالسياط ويُسجن.

وبعد أسبوع جاءت أنباء التي لا تُصدق بأن (ديمور) وأسطوله خارج (نورفولك) قد أمر بإخلاء المدينة خلال ساعة واحدة.. ثم بدأت مدافعه تنطلق وتشعل الحرائق.. وقد تحول معظم المدينة إلى رماد وحطام.. ونقلت (بيل) أنه لا يوجد هناك طعام أو ماء.. وأن الحمى انتشرت وقتلت الكثيرين لدرجة أن مياه (هاميتون رودوز) كانت مليئة بالجثث التي ترسو على الشاطئ مع الأمواج .. وأوشك الكثير من الزنوج على الموت جوعاً.

ثم مر شهران من الأخبار غير الهامة قبل أن يعود (لوثر) من مجلس المقاطعة مع أخبار بالاستعداد لعقد اجتماع آخر في 4 يوليو قال :

كل الناس البيض الذين رأيتهم لا يزالون مستمرين من أجل شيء اسمه إعلان الاستقلال..

وفي رحلاته التالية إلى مجلس المقاطعة عاد (لوثر) بما سمعه في بلتيمور أن تمثالاً للملك على شكل دمية قد تم سحله خلال الشوارع ثم ألقى به وسط نيران محاطة بالبيض وهم يصيحون.. الطاغية.. الطاغية !.

وأنه في (رتشموند) أطلقت البنادق وابلاً من الرصاص.. بينما الناس البيض يصيحون وهم يلوحون بالمشاعل ويشربون نخب بعضهم البعض..

وفي أواخر ذلك الصيف.. نزلت (بيل) إلى صفوف الزنوج بأخبار من ضيف عشاء أن مجلس النواب قد وافق مؤخراً على قانون يقول أنهم سيأخذون الزنوج من الجيش كضاربي طبول أو عازفي آلات موسيقية.. أو كرواد.

سأل أحد الفلاحين: وماذا تعني رواد ؟

قال (فيدلر): يعني : أن يوضعوا في المقدمة ويقتلوا.

سرعان.. ما أحضر (لوثر) تقريراً هاماً عن معركة كبرى هناك في (فرجينيا) فيها الزنوج يقاتلون مع الجانبين ووسط وابل من البنادق من الجنود ذوي المعاطف الحمراء (الإنجليز) والـ(توريز) مع مجموعة من المجرمين والسود وقوة صغيرة من البيض المستعمرين ورجالهم السود قد دفعوا عبر كوبرى.. ولكن في المؤخر كان هناك جندي عبد اسمه (بيلي فلور) انتزع عدداً من الألواح من الكوبرى وألقى بها بعيداً لدرجة أن القوات الإنجليزية اضطرت للتوقف والانسحاب مما وفر يوماً للقوات الخاصة بالمستعمرات.

صاح البستاني: يخرب كوبرى.. لابد أنه زنجي قوي !

عندما دخل الفرنسيون الحرب إلى جانب المستعمرات في عام 1778 نقلت (بيل) تقارير عن أن ولاية بعد الأخرى كانت تسمح بتسجيل العبيد مع وعد بالحرية عندما يربحون الحرب.. وقالت :

- والآن ليس هناك سوى ولايتين تقولان إنهما لن يتركوا الزنوج يحاربون أبداً.. وهم جنوب (كارولينا) و(جورجيا).

وبقدر ما كره (كونتا) العبودية بدا له أنه لا خير يمكن أن يأتي من الناس البيض عندما يعطون بنادق للسود.. والبيض لديهم دائماً بنادق أكثر من السود.. ولذلك فإن أي محاولة للتمرد لابد أن تنتهي بالهزيمة.. وفكر كيف أن بلده الأصلي كانت البنادق والرصاصات تعطي بواسطة (الطوبوب) للشيوخ والملوك الشريرين ليحارب بها السود بعضهم البعض.. وقرية ضد قرية.. ويبيعون للبيض المهزومين ويسلمون أهلهم مكبلين بالسلاح.

وسمعت (بيل) السيد يقول أنه هناك حوالي خمسة آلاف من الزنوج من العبيد والأحرار على حد سواء مشتركون في القتال الدائر ويموتون بجانب أسيادهم.. وقال (لوثر) أيضاً هناك حملات كلها من زنوج الشمال.. وحتى معركة واحدة كلها مع السود تسمى زنوج أمريكا وحتى قائدهم كان من الزنوج واسمه (ميدلتون) ثم نظر (لوثر) جانباً إلى جانب (فيدلر) وقال: إنك لا يمكن أن تخمن ما هو ؟

قال (فيدلر): ماذا تعني ؟

- إنه عازف كمان أيضاً.. وقد حان الوقت للعزف على الكمان.. ثم دمدم (لوثر) وغنى أغنية جديدة سمعها في مجلس المقاطعة.. وكان من السهل حفظها وفي الحال كان الآخرون يغنونها بينما البعض أخذ يحافظ على الوتيرة بالعصا.. وعندما بدأ عازف الكمان العزف بدأ شباب مجموعة الزنوج يرقصون وهم يصفقون ويغنون:

العابث الأمريكي جاء المدينة يمتطي فرساً.

وفي مايو 1781 جاءتهم قصة مذهلة بأن الجنود ذوي المعاطف الحمراء على جيادهم قد خربوا مزرعة السيد (توماس (جيفرسون) المسماة (مونتيسيللو) وقد أُتلِفَتْ المحاصيل.. وأُحرقَتْ مخازن الحبوب.. وشردت الماشية.. وقتلت الجياد كلها ومعهم ثلاثين عبداً.. وقال (لوثر) :

- يقول البيض : يجب إنقاذ (فرجينيا) .

وبعد ذلك قال أن جيش الجنرال (واشنطون) توجه إلى هناك وبه الكثير من الزنوج.. ووردت تقارير في أكتوبر أن القوات المشتركة لكل من (واشنطون) و(لافاييت) قد همرت الرصاص على (يورك تاون) وهاجموا قلعة (كورنفاليس) الإنجليزية.. وسرعان ما سمعوا عن معارك أخرى انفجرت في (فرجينيا) و(نيويورك) وشمال (كارولينا) و(ميرلاند) وولايات أخرى.

وفي الأسبوع الثالث من الشهر جاءت الأخبار التي جعلت مجموعة الزنوج تهتف :

- لقد استسلمت (كورنفاليس) لقد انتهت الحرب وربحنا الحرية !

كان (لوثر) بالكاد ينام بين رحلات العربة الحنطور وحتى السيد بدأ يبتسم ثانية لأول مرة من سنين وقال (لوثر) :

- في أي مكان أكون فيه يصيح الزنوج عالياً في وجوه البيض..

ولكنه قال أن الزنوج والعبيد في كل مكان سعداء ببطلهم الخاص (بيلي فلورا) الذي سُرِحَّ مؤخراً وعاد ببندقيته إلى (نور فولك) صاحت (بيل) تدعو الآخرين إلى مكان الزنوج:

- تعالوا هنا.. ! لقد أخبرني السيد أنهم عينوا فيلاديلفيا العاصمة الأولى لـ (الولايات المتحدة).

ولكن (لوثر) أخبرهم بعد ذلك.

ولكن السيد (جيفرسون) هو الذي أصدر قانون تحرير العبيد.. ويقول أن على السادة إعتاق الزنوج.. ولكن الـ(كويكرز) والمعادين للعبودية والزنوج الأحرار في الشمال يهللون ويثورون لأن القانون لا يقول أن السادة ليسوا مجبرين وإنما يفعلون ذلك برغبتهم.. وقد سرح الجنرال (واشنطون) الجيش في بداية نوفمبر 1783 وبذلك أنهي رسمياً ما أسماه الناس حرب السنوات السبع.. قالت (بيل) لكل فرد في مجموعة الزنوج:

- السيد يقول أن السلام يبدأ من الآن.

قال عازف الكمان بلهجة مريرة: لن يكون هناك سلام طالما هناك أناس بيض.. لأنه ليس هناك ما يحبونه أكثر من القتل.. فقط راقبوا ما أقوله لكم أن الأمر سيكون أسوأ بالنسبة لنا نحن الزنوج..

وفي تلك الليلة عندما كان (كونتا) بمفرده قضي ساعات وهو ينظم بعناية أكواماً من 12 حصاة من الحصيات الملونة التي ألقى بها بإخلاص ودون توان في القرعة مع كل شهر قمري كان مذهولاً جداً مما أخبرته الحصيات.. كان محيطاً به على تراب الكوخ سبع عشر كومة من الحصيات.. لقد كان سنه أربعاً وثلاثين سنة.. ماذا بحق السماء جرى له في حياته ؟ لقد عاش هنا في أرض الرجل الأبيض مثلما عاش في (جوفور) هل لا يزال أفريقياً.. أم أنه أصبح زنجياً كما يسمى الآخرون أنفسهم ؟

هل هو حتى رجل ؟ أنه الآن في نفس عمر أبيه عندما شاهده لآخر مرة.. ومع ذلك ليس عنده أبناء من صلبه.. ولا زوجة.. ولا عائلة.. ولا قرية.. ولا أهل.. ولا وطن.. ولا مستقبل يراه.. بدا له الأمر وكأن (جامبيا) كانت حلماً.. كان قد فقد حلمه منذ زمنٍ بعيد.



كونتا سائقًا

لم يكن لدى (كونتا) الكثير مما يمكن أن يفكر فيه بالنسبة للمستقبل لأنه بعد أيام قلائل وردت الأنباء التي عصفت بالمزرعة.. أذاعت (بيل) وأنفاسها تلهث أن فتاة خادمة منزل هاربة تم القبض عليها.. وكان الشريف قد وصل من أجل اجتماع سريع مع السيد خلف الأبواب المغلقة.. وقال أن الفتاة بعد أن اعترفت تحت لهيب السياط أن خريطة طريق الهرب البدائية قد رسمها لها سائق السيد المدعو (لوثر).. اندفع السيد كالعاصفة إلى تجمع الزنوج قبل أن يستطيع (لوثر) الهرب وواجهه السيد (وولر) مع الشريف.. وسأله في غضب إذا كان هذا صحيحاً.. اعترف (لوثر) وهو مرعوب أن الأمر صحيح.. أحمر وجه السيد من الغضب ورفع يده ليضربه.. ولكن عندما توسل له (لوثر) طلباً للرحمة خفض ذراعه ثانيةً.. ووقف هناك وهو يحملق في سكون في (لوثر) لوقت طويل ودموع الغضب تبدو في عينيه وأخيراً في هدوءٍ قال :

- أيها الشريف.. اقبض على هذا الرجل.. وخذه إلى السجن ويجب أن يباع في أول مزاد للعبيد.

دون أن يضيف كلمة استدار وعاد إلى البيت الكبير متجاهلاً نحيب (لوثر) المثير للشفقة.

بدأت التكهنات في الحال حول من يمكن أن يحل محل (لوثر) كسائق للسيد عندما خرجت (بيل) في إحدى الليالي وأخبرت (كونتا) أن السيد يريد أن يقابله.. الآن راقب الجميع.. ولكن أحداً لم يندهش عندما ذهب وهو يعرج إلى داخل البيت وراء (بيل).. ورغم أنه كان يخمن لماذا استدعى.. إلا أنه شعر ببعض الخوف لأنه لم يسبق له أبداً أن تكلم مع السيد طوال كل السنوات الست عشرة التي قضاها في المزرعة.

وبينما تقوده (بيل) خلال المطبخ إلى طريق البهو جحظت عيناه أمام الأرض اللامعة.. والجدران المرتفعة والمعدة جيداً.. طرقت (بيل) على باب ضخم منقوش وسمع السيد يقول: أدخل.. فدخلت (بيل) ثم استدارت لتشير لـ (كونتا) دون أن يظهر على وجهها أي تعبير.. لم يكن يصدق حجم الغرفة..

وبدت وكأنها في اتساع مخزن الحبوب.. وكانت الأرضية لامعة مدهونة بالورنيش مغطاةً بالسجاد.. وعلى الجدران لوحات رسم وقطع من السجاد.. وكان الأثاث الداكن الثمين والمتناسق ملمعاً وهناك صفوف طويلة من الكتب موضوعة على أرفف معلقة على الجدران.

كان السيد (وولر) جالساً أمام مكتبه يقرأ تحت مصباح زيتي له مظلة دائرة من الزجاج الأخضر.. ووضع أصبعه حيث كان يقرأ عندما استدار بعد فترة ليواجه (كونتا) بدت عيناه الواسعتان الزرقاوان تخترقان وجه (كونتا).. ثم قال:

- (طوبي) أنا احتاج إلى سائق.. لقد كبرت هنا.. وأصبحت رجلاً فى هذه المزرعة.. واعتقد أنك مخلص.. تقول لي (بيل) : إنك لا تشرب الخمر أبداً وهذا يعجبني.. ولقد لاحظت كيف تتصرف بأدب.. توقف السيد (وولر) بينما حدجت (بيل) (كونتا) بنظرة سريعة فقال (كونتا) بسرعة.

- نعم يا سيدي ؟

سأله السيد: هل تعرف ماذا حدث لـ (لوثر) ؟

قال (كونتا): نعم يا سيدي !

ضاقت عينا السيد وتحول صوته إلى أن أصبح بارداً وقاسياً: سأبيعك في دقيقة.. بل سأبيعك وبيل إذا ما جانبكما الصواب.

بينما وقفا في مكانيهما في سكون أعاد السيد فتح كتابه: حسناً أبدأ القيادة لي من الغد.

ثم نظر إلى (بيل) وقال: اجعليه نظيفاً.. وأعطيه الملابس المناسبة.. وأخبري (فيدلر) أنه سيحل محل (طوبي) في الحديقة.

قالت (بيل): نعم يا سيدي.

ورحل (كونتا).. بعدها أحضرت له (بيل) الملابس.. ولكن (فيدلر) و(البستاني)العجوز هما اللذان أشرفا على ارتداء (كونتا) لملابسه في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.. بنطلوناً منشياً.. وقميصاً من الكتان.. لم تكن ملابسه سيئة.. ولكن رباط العنق الأسود الذي ساعداه على ارتدائه بعد ذلك جعله يشعر بأنه مثير للسخرية..كان يسير وهو يفحص نفسه بتعبير أظهر بوضوح مدى سروره.

شعر أنه يغادر الحديقة خلفه.. ويوسع أفاقه كما فعل ذات يومٍ عماه (جانيه) و(سولوم) كل ذلك سرعان ما نسيه أمام حرارة واجباته الجديدة..كان السيد (وولر) يُستدعي من مرضاه في أي ساعةٍ من النهار أو الليل.. وبالتالى يُستدعي (كونتا) الذي يندفع من كوخه ليسرج الجياد.. ويعدها من أجل مشوار يقسم الظهر إلى بيوت أحياناً على بعد أميال طويلة من المزرعة على طرق ضيقة متعرجة بالكاد أنعم قليلاً من الأرض الريفية حولها..كان يتأرجح فوق مطبات وحفر ويلهب ظهور الجياد بالسياط إلى أن تلهث بحثاً عن الهواء.. بينما يجلس السيد (وولر) في مقعد الأريكة المنجد في خلف العربة.. وقد أظهر (كونتا) براعةً في التحكم في اللجام لدرجة وصولهم دائماً سالمين إلى وجهتهم حتى في فترة ذوبان الثلج في الربيع عندما تتحول الطريق إلى بحور خادعة من الطين.

وفي صباح أحد الأيام وفي وقت مبكر جاء شقيق السيد (جون) بالجواد بأقصى سرعة وهو يبلغ أخيه في جنون أن آلام الولادة تهاجم زوجته رغم أنها تبقى لها شهران على موعد ولادتها الطبيعي.. صحبها (كونتا) في العربة إلى بيت السيد (جون) في وقت قياسي.. وبعد دقائق سمع صرخات المولود الجديد.. لقد كانت بنتاً وزنها خمسة أرطال كما قال له السيد وهما في طريق العودة للبيت وسيسمونها (آن).

وهكذا سار الحال وخلال نفس الصيف المجنون والخريف انتشر وباء القيء الأسود الذي أخذ بأرواح الضحايا في كل البلاد.. لدرجة أن السيد (وولر) و(كونتا) لم يستطيعا التحمل وسرعان ما سقطا صريعي الحمي.. تناولا جرعات كبيرة من الكينين حتى يتمكنا من المواصلة.. واستطاعا أن ينقذا أرواحاً أكثر مما خسروها.. ولكن حياة (كونتا) أصبحت عدداً لا يحصى من زيارات لمطابخ البيوت الكبيرة.. والنوم كالقطط على حشايا القش في أكواخ غريبة أو مخازن التبن.. وساعات لا نهاية لها من الجلوس في العربة الحنطور خارج البيوت الكبرى يستمع إلى نفس صيحات الألم وهو ينتظر السيد أن يظهر ثانيةً حتى يستطيعا العودة إلى البيت.. أو غالباً القيادة إلى المريض التالي.

ولكن السيد (وولر) لم يكن يسافر فقط وسط الأزمات.. وأحياناً أسابيع كاملة قد يقضيها دون أي شيء أكثر من حالة مستعجلة سوى الزيارات المنزلية المعتادة.. كانت أفضل مشاهد (كونتا) هى شجرة البلوط الوحيدة أو الأرز في وسط الحقل التى تذكره بأشجار الباوبات في أفريقيا.. وقريته (جوفور).

أما زيارات السيد العائلية فكان معظمها لزيارة والديه في (إيتفيلد) وكانت مزرعتها على خط الحدود بين مقاطعة الملك (ويليام) ومقاطعة الملكة.. وعند الاقتراب منها كانت العربة الحنطور تسير في نهاية شارع مزدوج من الأشجار العتيقة الطويلة.. وهكذا كان الحال مع كل بيوت عائلة.. وولر الكبيرة.

وخلال الأشهر القليلة من قيادته كانت الطاهيات في مختلف المزارع التي كان يزورها يتعامل معهن بحرص.. وبدؤوا يتعودون على طريقته الهادئة.. لكن طباخة ايتفيلد قررت أنه جدير بأن تتكلم معه.. وسألته ذات مرةٍ فجأة بينما كان يأكل.

- هل تعرف أين أنت ؟

لم يرد عليها ولم تتوقع أن يرد عليها.

- هنا أول بيت لـ(آل وولر) في الولايات المتحدة.. لم يعش هنا أحد سوى وولر لمدة مائة وخمسين سنة.. وعند بناء (إينفيلد) كانت في نصف حجمها الحالي فقط.. ولكن بعد ذلك بنى منزلاً آخر بجوار النهر وضم إلى هنا.. وتلك المدفأة من القرميد جُلِبَ ْفي سفن من إنجلترا.

قالت ذلك بفخر وأومأ (كونتا) في أدب وهي تواصل ولكنه لم يتأثر.. وفي إحدى المرات كان السيد (وولر) يقوم بزيارة إلى (نيوبورت) وكانت كأنها أول مهمة يقوم بها (كونتا) كسائق وكان من غير المصدق أنه مر عام على تلك الزيارة.. وكان العم والعمة العجوزان للسيد يعيشان هناك في منزل بدأ لـ (كونتا) أنه يشبه كثيراً (إينفيلد).. وبينما الناس البيض يأكلون في غرفة المائدة كانت الطاهية في (نيوبورت) تطعم (كونتا) في المطبخ وهي تتسكع حوله ومعها حلقة كبيرة من المفاتيح على حزام رفيع من الجلد حول مريلتها.. لقد لاحظ الآن أن كل خادمة رئيسية لديها مثل هذه الحلقة من المفاتيح.. وقد عرف أن على الحلقة يوجد مفاتيح غرفة الغسيل.. وغرفة تدخين اللحوم والأسماك.. وحجرة التبريد.. ومخازن الطعام المختلفة.. ومفاتيح لكل الحجرات.. والخزائن والدواليب في البيت الكبير.. وكانت كل طاهية يقابلها تمشي بطريقة تجعل تلك المفاتيح تصلصل كعلامة على مدى أهميتها ومدى الثقة بها.

وفي إحدى الزيارات قررت طاهية (نيوبورت) كما فعلت طاهية (إينفيلد) أن تحدثه.. وضعت أصبعها على شفتيها.. وقادته على أطراف الأصابع إلى غرفة صغيرة بعيدة داخل المنزل الكبير.

قامت باستعراض كبير في فتح الباب بأحد المفاتيح في رسغها.. وأدخلته وأشارت إلى أحد الجدران.. كان عليه معلقاً ما شرحته بأنه بزة الجيش.. والوسام الفضي.. ودرع.. ومسدسات فضية.. وسيف فضي.. وكتاب الصلاة للكولونيل الأصلي وولر.

سرت الخادمة من اندهاش (كونتا) فصاحت :

- الكولونيل هو الذي بنى (إينفيلد).. وقد دُفِنَ هنا.. ثم خرجت للخارج وأرته القبر.. وشاهده المكتوب عليه اسم الرجل.. وبعد دقيقة و(كونتا) يحملق إليها سألته بعدم اكتراث مفتعل.

- هل تعرف ماذا هو مكتوب ؟

هز كونتا رأسه نفياً فقرأت بسرعة العبارة الخالدة:

- تقديساً لذكرى الكولونيل (جون وولر) الابن الثالث لـ (جون وولر) و(ماري كي) اللذان استقرا في (فرجينيا) عام 1635 من (نيوبورت) باجافيل – بوكنجهام شاير.

ومثل بيت (إينفيلد) كان البيت الكبير هنا في (نيوبورت) بارتفاع دور ونصف فقط كما كانت تقريباً كل البيوت الكبيرة القديمة.. لأن الملك وضع ضرائب إضافية على البيوت من دورين.. وكان بروسبكت هيل يختلف عن بيت (إينفيلد) بأنه أصغر من كل بيوت عائلة وولر وأخبرته دون أن تهتم سواء كان يستمع أم لا أن أياً من تلك البيوت له بهو مدخل فسيح.. أو سلم حلزوني مثل الأول.

إنك لن تصعد إلى الدور الثاني.. ولكن لن يضر أن تعرف أننا لدينا أربعة أسرة ذات أربعة أعمدة هناك أعلى.. لذلك كان عليهم استخدام سلم للصعود للأسرة العليا التي توجد تحتها أسرة ذات أدراج.. ودعني أخبرك بشيء عن أن جميع تلك الأسِرَةْ والمدافئ القرميد ومصابيح البيت وشماعات الأبواب.. وكل شيء تراه هنا من صنع الزنوج العبيد.

وفي الفناء الخلفي شاهد (كونتا) أول بيت نسيج رآه في حياته.. وبالقرب منه أحياء العبيد التي كانت تقريباً مثل أحيائهم في نهايتها يوجد بركة.. وأبعد منها توجد مقابر العبيد.. قالت وهي تقرأ أفكاره: أعرف أنك لا تريد أن ترى هذا.

تساءل إذا كانت هي أيضاً تعرف كيف أنه غريب ومحزن أن يجدها هي تتكلم كما يفعل الكثيرون هنا وتتصرف وكأنها تمتلك المزرعة التي تعيش عليها.



السيد وابنة أخيه

وفي إحدى الأمسيات سألت (بيل) (كونتا): لماذا يقابل السيد كثيراً في الأشهر القليلة الماضية أخاه غير الصالح ؟ لقد ظننت أنه لا يوجد حب بينهما.

قال (كونتا): أن السيد مغرم لدرجة الجنون بطفلة أخيه الصغيرة (آن).

قالت بيل: إنها صغيرة وجميلة.. اعتقد أنها تذكر السيد بابنته التي فقدها.. إنها ستبلغ سنة من عمرها في نوفمبر هذا أليس كذلك ؟

هز (كونتا) كتفيه.. وتذكرت (بيل) كيف أن السيد كان سعيداً وهو يلاعب ابنة أخيه الصغيرة ويلقي بها في الهواء.. ثم يمسك بها.. لم يلاحظ (كونتا) ذلك ولم يهتم ولم يفهم لماذا تذكرت (بيل) هذا؟

وبعد أيام قلائل.. وفي طريقهما إلى البيت عائدين من زيارة لبعض مرضي السيد (وولر) في مزرعة (نيوبورت) صاح السيد بحدة في (كونتا) لأنه تجاوز منعطفاً كان لابد أن يدخل فيه دون أن يراه.. كان (كونتا) مصدوماً جداً مما رآه لتوه في بيت المريض.. همهم معتذراً وأدار الحنطور بسرعة للخلف لكنه لم يستطع أن يطرد من ذهنه صورة تلك المرأة الضخمة الثقيلة السوداء التي تشبه قبائل الولوف والتي رآها في الفناء الخلفي.. كانت جالسة دون اكتراث على جذع شجرة مقطوع وثدياها متدليان في الخارج وهي ترضع طفلاً أبيض من أحد ثدييها وطفلاً أسود من الثدي الآخر.. كان منظراً مقززاً لـ (كونتا) ومثيراً لدهشته.. ولكن عندما أخبر (البستاني)عنه فيما بعد قال الرجل العجوز: من الصعب أن تجد سيداً في (فرجينيا) لم يرضع من أم سوداء أو على الأقل ربته إحداهن.

وكان هناك أيضاً منظراً مقززاً آخر رآه كثيراً وهو نوع من الألعاب التي تجري في المزارع التي زارها بين شباب البيض والسود من نفس السن وهم يتظاهرون بضرب السود أو اللعب بركوبهم فوق ظهورهم كجياد.. ويجعلونهم يسيرون على أربع.. ولعبة المدرسة حيث يعلم البيض السود القراءة والكتابة مع الكثير من الصفعات والشتائم بسبب غبائهم.. ومع ذلك كان الأطفال البيض والسود يستلقون معاً فوق الحشايا ليأخذوا غفوة.

بعد رؤية مثل تلك الأمور كان (كونتا) دائماً ما يقول لـ (بيل) وعازف الكمان و(البستاني)العجوز أنه لم يفهم أبداً (الطوبوب) حتى لو عاش مائة عام.. كانوا يضحكون دائماً ويخبرونه أنهم رأوا مثل تلك الأمور وأكثر منها طوال حياتهم.. ويخبرونه أنه عندما يكبر الصغار من البيض والسود معاً يصبح كل منهم أكثر تعلقاً بالآخر.. وذكرت (بيل) أن السيد استدعى ذات مرة لرعاية بنت بيضاء مرضت بشدة حين تم بيع رفاقها السود لسبب مجهول.. لقد نصح السادة والسيدات أهلها بأن حالة ابنتهما النفسية وحزنها شديدين لدرجة أنها ستضعف إلى أن تموت ما لم يتم استعادة صديقاتها السود بسرعة.

وقال عازف الكمان أن العديد من شباب السود تعلموا كيف يعزفون على الكمان و باقي الآلات الموسيقية الأخرى بواسطة أساتذة الموسيقى الذين استأجرهم سادتهم الأغنياء عبر المياه الكبرى.. وقال (البستاني) العجوز أنه في مزرعته الأولى كبر ولدان أبيض وأسود إلى أن صحب السيد الولدين معاً إلى كلية (ويليام) وماري.

وعندما عاد ذلك الزنجي فيما بعد أخبرنا أن هناك الكثير من السادة الصغار ومعهم وصفاءٌ من السود ينامون معهم في نفس حجراتهم.. وقال أنه في كثير من الأوقات يأخذون الزنوج معهم إلى الفصول ثم يتجادلون بعد فيما تلقونه في الكلية.

قال عازف الكمان: يجب أن تصمم آذانك وبذلك تتعلم الكثير.

وبعد ذلك مباشرة اكتشف (كونتا) مدى صحة ذلك فعلاً عندما عرض السيد (وولر) أن ينقل أحد أصدقائه من مزرعة لأخرى.. كان يتكلم وكأن (كونتا) غير موجود.. تحدثا عن مدى بطء عبيدهم في عملهم بحقول القطن.. في حين أن الطلب على القطن يزداد سريعاً.. وكيف أن شراء العبيد أصبح بأسعار عالية يطلبها تجار العبيد ووكلاء سفن العبيد قال السيد :

وحتى لو قدرت على ذلك.. فإن التوسع يمكن أن يخلق مشاكل أكبر من المشكلة الأصلية.. وكلما زاد عدد ما تحصل عليه من عبيد فمن المحتمل أن تحدث تمردات.

قال زميله: لم يكن من الواجب أن نسمح لهم بحمل الأسلحة ضد البيض أثناء الحرب.. والآن نشهد النتيجة.. وحدث في المزارع الضخمة بالقرب من (فريدريكبيرج) أن بعض الجنود العبيد السابقين ثم القبض عليهم قبل أن يخططوا للتمرد مباشرةً بعد أن أخبرت خادمة منزل سيدتها أن زملاءها لديهم بنادق ومطاوي بل أنهم صنعوا رماحاً.. وأنهم اتفقوا على القتل والحرق ليلاً.. والاختباء في النهار ثم الاستمرار في التحرك.. وقال أحد زعمائهم أنهم يتوقعون أن يموتوا ولكن ليس قبل أن يفعلوا ما علمتهم الحرب أن في استطاعتهم أن يفعلوه في الرجل الأبيض.. إن باستطاعتهم أن يكلفوا العديد من الأبرياء حياتهم لو كانوا قد نجحوا.

واستمر السيد (وولر) في القول أنه قرأ في مكان ما أنه أكثر من مائتين من ثورات العبيد حدثت منذ أن جاءت أول سفينة عبيد وقال :

- لقد ظلت أقول سنوات طويلة أن أكبر خطر لنا هو أن تعداد العبيد سيفوق ذات يومٍ تعداد البيض.

أعلن صديقه: أنت على حق.. أنت لا تعرف من يبتسم لك.. ويخطط من وراءك ليقطع رقبتك.. حتى الموجودين في بيتك.. أنت ببساطة لا تستطيع أن تثق بأي واحد منهم.. أن الخيانة في طبعهم.. كان ظهر (كونتا) مشدوداً كلوح الخشب عندما سمع السيد يقول :

باعتباري طبيباً أكثر من مرة رأيت حالات وفاة للبيض.. حسناً لن أدخل في التفاصيل ولكن دعنا فقط نقول أنني فكرت في أن بعضهم مشكوك فيه..

كان (كونتا) لا يكاد يحس باللجام في يديه وهو غير قادر أن يفهم لماذا يبدوان غير مدركين لوجوده لهذه الدرجة التي لا تُصدق.. كان عقله يتعثر بأشياء كان هو نفسه قد سمعها على مدار سنتين منذ أن قاد الحنطور للسيد.. لقد سمع الكثير من الهمس بين الطاهيات والخادمات وهن يبتسمن

وينحنين وهم يقدمن الطعام.. وقد سمع عن وجبات البيض التي تحتوي على حشائش الأرض أو السيانيد أو سموم أخرى.. بل أنه سمع حكايات حول أطفال بيض يصابون بغيبوبة خطيرة قاتلة دون العثور على أثر لحقن سامة غرستها خادمات البيوت في رؤوسهم الطرية في الأماكن الغزيرة بالشعر.. وأن طاهية منزل كبير قد أوضحت له أن ممرضة عجوز كانت قد ضربت بوحشية ثم بيعت خارج المزرعة بعد أن أصابت سيدها إصابة خطيرة لأنه ضربها.

لقد بدا لـ (كونتا) أن النساء السوداوات هنا كن أكثر تحدياً وتمرداً من الرجال.. ولكن فقط لأن النساء كن يأخذن الأمور بصفةٍ شخصية.. وإنهن قد ينتقمن من البيض الذين أخطؤوا في حقهن.. وقد أخبر عازف الكمان (كونتا) عن مراقب أبيض شُنِقَ على شجرةٍ بواسطة والد فتاة سوداء ضبطه يغتصبها.. ولكن العنف ضد البيض من الرجال السود كان غالباً ما تشعله وحشية البيض أو تمرد العبيد أو ما شابه ذلك.

لم تحدث أي ثورات على الإطلاق أو حتى أحداث في مزرعة (وولر) ولكن هنا في مقاطعة (سبورتسلفانيا) سمع (كونتا) عن بعض السود الذين أخفوا البنادق والأسلحة الأخرى وأقسموا أن يقتلوا أسيادهم.. وأن يشعلوا الحرائق في مزارعهم.. ولكن الأمر لم يتجاوز الكلام.

لم يُدعَ (كونتا) أبداً للانضمام إلي هؤلاء وظن أنهم ربما أحسوا أن قدمه المبتورة تجعله بلا فائدةٍ لهم في تمرد فعلي.. وأيا كانت أسبابهم في إبعاده وتجاهله.. فقد تمنى لهم الحظ فيما قد يقررون أن يفعلوه فإن (كونتا) لم يؤمن بأن أي تمرد يمكن أن ينجح ضد تلك المساوئ الطاغية.. وربما كما قال السيد (وولر) : أن السود قد يتفوقون قريباً في العدد على البيض.. ولكنهم لن يتفوقوا عليهم في القوة بالمذاري وسكاكين المطبخ والبنادق القديمة المسروقة من الجيوش الضخمة للأمة البيضاء.. ولكن أسوأ أعدائهم كما يبدو لـ (كونتا) هم أنفسهم.. هناك عدد قليل من المتمردين الصغار بينهم.. ولكن الأغلبية الواسعة من العبيد كان من النوع الذي يفعل تماماً ما يُطلبُ منهم.. وهم من النوع الذي يشيح بوجهه لمكانٍ آخر عندما يأخذ الرجل البيض نساءهم في عُشب السياج.. كان واثقاً بأن السيد لو ترك هؤلاء هناك دون حراسة لمدة عام كامل ثم عاد سيجدهم هناك لا يزالون يعملون عند عودته.



البيض المجنسين

أخذ (كونتا) تعسيلة تحت ظل شجرة السنديان في الفناء الخلفي لمزرعةٍ كان السيد يزورها لمعالجة أسرة أُصِيبت بكاملها بالحمى.. واستيقظ فجأة عندما انطلق نفير المساء لاستدعاء العبيد من الحقول.. كان لا يزال يصارع النوم ويطرده من عينيه عندما وصلوا إلى الفناء ولمحهم عند مرورهم في طريقهم للاغتسال وتناول العشاء.. لاحظ (كونتا) أن هناك حوالي عشرين أو ثلاثين منهم.. نظر مرةً ثانية.. ربما كان لا يزال يحلم ولكن أربعة منهم.. رجلين وامرأة وطفلين كانوا من البيض.

شرحت له صديقته الطاهية عندما أبدي تعجبه لها بعد دقائق من ذلك.. أن هؤلاء يسمون بالبيض المجنسين.. وهم هنا منذ حوالي شهرين.. أنهم عائلة من مكانٍ ما عبر البحار لقد دفع لهم السيد أجر السفر على السفينة.. لذلك كان عليهم أن يردوا الدين بالعمل كعبيد لمدة سبع سنوات.. ثم يصبحوا أحراراً مثل أي رجل أبيض.

سألها (كونتا): هل يعيشون في مجتمع العبيد أيضاً ؟

- إن لهم كبينتهم الخاصة بعيدة عن كبائننا.. ولكنها متداعية بالضبط مثل كبائننا.. وهم يأكلون نفس ما نأكله ولا يلقون معاملة تختلف عنا في الحقول.

سأل (كونتا): وما هو نوعهم ؟

- إنهم منطوون تماماً على أنفسهم.. ولكن لا بأس بهم.. أنهم لا يحبوننا ولكنهم يقومون بالعمل ولا يسببون أي متاعب لأحد.

بدأ لـ (كونتا) أن هؤلاء العبيد البيض أحسن من معظم السادة البيض الأمراء الذين رآهم.. لقد كان هؤلاء غالباً دستة من الكبار والأطفال محشورين معاً في خيمة أو زريبة مكشوفة.. وكانوا يكافحون بأظافرهم من أجل معيشتهم الحقيرة لدرجة أن السود كانوا يغنون وهم ينشدون أغنية عنهم تقول :

لا تجعلنا بيضاً يا إلهي لأننا نفضل أن نكون زنوجاً ..

ورغم أن (كونتا) لم يشاهد الأمر بنفسه فإنه سمع أن البيض من هؤلاء كانوا فقراء جداً.. كانوا نحافاً.. والقليل منهم حتى الأطفال لم يبق لهم أسنان.. وكانت رائحتهم وكأنهم ناموا مع كلابهم الجربانة وهم ما يفعله العديد منهم.. حاول (كونتا) أن يتنفس من فمه وهو ينتظر في الخنطور خارج أكواخهم.. بينما يعالج السيد أحدهم من الأسقربوط أو البلاجرا.. وراقب النساء والأطفال وهم يحرثون وينزعون العشب.. بينما الرجال يرقدون تحت شجرة ومعهم جرة بنية من الشراب.. وكلابهم كلها تحك جسمها هي وأصحابها.. وكان من السهل على (كونتا) أن يفهم لماذا أصحاب المزارع وحتى عبيدهم كانوا يحتقرونهم ويكشرون في وجوههم لأنهم ليسوا سوى قمامة بيضاء لا قيمة لها وأنهم كسالي وعديمى الحيلة.

وفي رحلاته مع السيد للمدن المجاورة كان هناك دائماً مجموعات منهم يتسكعون حول المحكمة أو الحانات حتى في الصباح وهم يرتدون ملابسهم المليئة ببقع الحلوى والشحم والرماد المتخلف من مضغهم لأعواد التبغ والسجائر التي لا يكفون عن تدخينها ويحتسون الشراب المسمى (البرق الأبيض) من زجاجات يحملونها في جيوبهم يضحكون ويصيحون بلا خجل على بعضهم.. وهم راكعون على الأرض في الحارات يلعبون النرد مقابل النقود.

وفي منتصف ما بعد الظهر قد يقومون بحماقات كاملة كأن تنطلق عقائرهم بالغناء وهم سكارى وهم يتطوحون في وحشية على طول الطرق وعرضها ويصفرون ويلتصقون بلا حياء بالنساء المارات ويتجادلون ويسبون بصوت مرتفع فيما بينهم ثم أخيراً يبدأون العراك الذي قد يبدأ بلكزة أو لكمة بينما جمهور كبير من أمثالهم قد يتجمع حولهم يهتفون لهم وينتهي الأمر بقطع أذن أو فقأ عين أو ركل أجزاء حساسة وجراح دموية تحتاج في الغالب إلى عناية الطبيب العاجلة.. وحتى الحيوانات المفترسة في بلده بدت بالنسبة لـ (كونتا) لديها كرامة أكثر من تلك المخلوقات.

كانت (بيل) تقول باستمرار حكايات حول هؤلاء الفقراء البيض الذين يُجلدون بالسياط لأنهم ضربوا زوجاتهم.. ويحكم عليهم بالسجن لقيامهم بالاغتصاب.. ولكن بقدر ما كانوا يحبون العنف فيما بينهم فإن (كونتا) كان يعرف من التجربة الشخصية أنهم يحبون العنف ضد السود أكثر بكثير.. وأنه من الجبن من البيض الفقراء رجالاً كانوا أم نساء لدرجة أنهم كانوا يصيحون في وجهه ويلوحون بالعصا له هو ولرفاقه عندما نزلوا من السفينة الكبيرة.

وكان رجلاً أبيض من هؤلاء القمامة من صيادي العبيد يتصف بالعته هو الذي قطع له قدمه وهو في قمة السعادة.. كما أنه سمع عن هاربين قبض عليهم بواسطة هؤلاء جوالين أعادوهم ثانية إلى مزارعهم محطمين ومكسورين ومن الصعب التعرف عليهم بعد أن حرموهم من رجولتهم.. لم يكن قادراً على تصور لماذا البيض الفقراء يكرهون السود لهذه الدرجة.. ولكنه لم يستطع أن إلا أن يزداد كراهيةً لهم بعد كل تلك السنين منذ أن أطاح الفأس الذي يمسكه واحد منه بمقدمة قدمه.. وأنهى بذلك للأبد شيئاً أهم كثيراً من حياته وهو الأمل في الحرية.

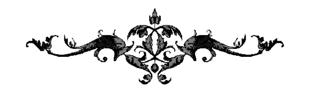
وفي أواخر صيف 1786 كان (كونتا) عائداً إلى المزرعة من مجلس المقاطعة.. كان البيض يجتمعون في كل ناحية يلوحون بنسخ من جريدة الجازيت ويتكلمون بحرارة حول زيادة عدد الـ(كويكرز) الذين لم يكونوا يشجعون العبيد على الهرب كما كانوا يفعلون من سنوات فحسب.. وإنما أيضاً بدؤوا في مساعدتهم وإخفائهم وإرشادهم إلى الأمان في الشمال.. والبيض الفقراء والسادة على حد سواء كانوا يطالبون في وحشة بسلخ وإلقاء القطران وشنق أي (كويكرز) معروف أو حتى مشتبه فيه بالاشتراك في مثل تلك الأعمال.. لم يصدق (كونتا) أن الـ(كويكرز) أو أي شخص آخر يمكن أن يكون قادراً على مساعدتهم على الهرب وإنه عاجلاً أو آجلاً سيفيض عليهم هم أيضاً.. ولكن لن يضر أن يكون هناك حلفاء من البيض أو أى شيء يجعل من يملكونهم خائفين جداً لدرجة ألا يصبحوا سيئين.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة.. قال عازف الكمان أنه كان يعزف في حفلات راقصة عبر المقاطعة من أسبوع.. وسمع محامياً هناك يعترف لمجموعة من ملاك المزارع الكبرى أن وصية أحد الأغنياء من الـ(كويكرز) يسمى (جون بليسانت) اعتاق أكثر من مائتي عبد..

وقالت (بيل) التي وصلت في وقت متأخر أنها سمعت لتوها السيد (وولر) وبعض الضيوف على العشاء وهم يقولون في مرارة حقيقة أن العبودية قد أُلغيت مؤخراً وفي ولاية شمالية تدعي (ماساشوستس) وادعت التقارير أن ولايات أخرى قريبة هناك قد تفعل نفس الشيء.

سألها (كونتا): ماذا يعني هذا ؟

رد (البستاني)العجوز: إنها تعني أنه في يوم ما سنكون نحن الزنوج كلنا أحراراً.



أمام كوخ فيدلر

حتى أن لم يكن (كونتا) قد سمع أو رأى في المدينة أي شيء ليحكيه للآخرين فإنه تعلم كيف يستمتع بالجلوس معهم حول النار أمام كوخ (فيدلر) الذى أصبح قليل الكلام.. وفي إحدى الأمسيات سأل كونتا (بيل) : هل فعلت أو قلت شيئاً يمكن أن يجرح شعوره؟

ردت عليه قائلة: لا تلم نفسك.. فلعدة أشهر حتى الآن وعازف الكمان يجوب المقاطعة ذهاباً وإياباً يعزف للبيض.. أنه فقط يريد أن يعود إلى حياته كما تعود عليها.. وهذا لا بأس به.. ثم أنه يحصل على دولار ونصف فقط عن كل ليلة يعزف فيها في تلك الحفلات الفاخرة والخرافية التى يذهب إليها.. وحتى لو حصل على نصيبه وهو النصف.. فإنه يحصل على خمسة وسبعين سنتاً لنفسه إذن لماذا يزعج نفسه بالعزف للزنوج؟

نظرت لأعلى من موقدها لترى إن كان (كونتا) يبتسم ولكنه كان كعادته متجهماً.. تذكرت أنها لم تره يبتسم إلا مرةً واحدةً عندما سمع عن عبد تعرفه من مزرعة قريبة هرب بسلام إلى الشمال.

واستمرت تقول: لقد سمعت أن (فيدلر) عازف الكمان يخطط أن يوفر ما يحصل عليه ليشتري حريته من السيد.

قال (كونتا) في جدية: هل لديه الوقت الكافي ليفعل ذلك ؟ إنه سيصبح عجوزاً قريباً جداً.. ولا يصلح أن يغادر كوخه.

ضحكت (بيل) لدرجة أنها فعلاً أوشكت أن تسقط الحساء من يدها..

وفي إحدى الحفلات التى كان يصحب سيده إليها.. دخل إلى المزرعة التى يوجد بها الحفل.. وبعد أن هبط سيده من العربة ودخل للحفل.. سمع هو من بعيد.. في مكان ٍما قريب جداً دقات على طبلة على شكل قرعة تسمى (كواكوا).. ألقى (كونتا) باللجام لصبي الإسطبل.. وجرى بالسرعة التي تمكنه منها قدمه المشوهة.. وذهب إلى حيث كان الصوت يزداد ارتفاعاً أكثر فأكثر.. بدأ أنه آت من وسط الجمهور الأسود الذين كانوا يصفقون ويتجمهرون تحت خيط من المصابيح كان السيد (وولر) قد سمح بها للزنوج أن يضعوها من أجل احتفالهم بعيد الشكر.

تجاهل صيحات الاستنكار عندما شق طريقه بينهم واندفع وسط الدائرة المفتوحة.. ورأى الطبال هناك رجل أشيب الشعر.. أسود جداً.. قرفص على الأرض وهو يطرق على طبلته (الكواكوا) بين عازف مندولين وطارقين على عظام البقر.. وعندما رفعوا أعينهم نحو الاضطراب المفاجئ التقت عينا (كونتا) مع عيني قارع الطبل.. وبعد لحظة اندفع الاثنان كلٌ نحو الآخر.. وبقية السود يحدقون ببلاهة ثم قهقهوا عندما تعانقا وقال: السلام عليكم !

- وعليكم السلام !

خرجت الكلمات باللغة الأفريقية تلقائياً.. وكأنهما لم يغادرا أفريقيا أبداً.. دفع (كونتا) الرجل العجوز على طول ذراعه.. وصاح: أنا لم أرك هنا من قبل.

قال الآخر: لقد باعوني إلى هنا من مزرعة أخرى.

قال (كونتا): إن سيدي هو ابن سيدك.. أنا أقود حنطوره.

بدأ الرجال حولهما يهمهمون بنفاذ صبر طلباً لأن تبدأ الموسيقى ثانيةً..كان من الواضح أنهم لا يشعرون بالارتياح مما يفعله الأفريقيان..كان كل من (كونتا) وقارع (الكواكوا) يعرفان أنه لا يجب عليهما أن يضايقا الآخرين أكثر حتى لا يبلغ واحدٌ منهم الناس البيض.. قال (كونتا): سأعود.

قال قارع " الكواكوا " وهو يجلس القرفصاء ثانية: السلام عليكم.

وقف (كونتا) هناك لحظة عندما بدأت الموسيقى ثانية استدار فجأة ومر وسط الجمهور ورأسه مطأطأ وهو محبط.. ومحرج.. ثم ذهب لينتظر السيد (وولر) في الحنطور.

خلال الأسابيع التالية امتلأ عقل (كونتا) بأسئلة حول لاعب الكواكوا ما هي قبيلته من الواضح أنه ليس (مانديكا) ولا من أي قبيلة أخرى رآها أو سمع عنها (كونتا) في (جامبيا) ولا على السفينة الكبيرة.. وشعره الأشيب يقول أنه أكبر منه كثيراً.. وتساءل عما إذا كان له نفس عدد سنين عمر (أمورو) الآن.. وكيف عرف كل منهما أنه من عبيد الله ؟ لقد كانت ببساطة استخدام لاعب (الكواكوا) للغة (الطوبوب) وكذلك لغة الإسلام تدلان أنه أمضى وقتاً طويلاً مع البيض على أرضهم.. أو من المحتمل أنه عاش سنواتٍ أطول من (كونتا) لقد قال له أنه قد بيع مؤخراً إلى السيد (وولر) الكبير والد السيد (ويليام) أين إذن كان في أرض (الطوبوب) لكل تلك السنين قبل الآن ؟

راجع (كونتا) في عقله الأفارقة الآخرين الذي تصادف وقابلهم وكان ذلك لسوء الحظ عندما يكون مع سيده.. ولم يكن يستطيع حتى أن يومئ إليهم محيياً.. فما باله بمقابلتهم خلال السنوات الثلاث التي قاد فيها حنطور السيد.. وكان يوجد من بينهم اثنان أو واحد كان دون أي شك من الـ(مانديكا).. ومعظم الأفارقة الذين لمحهم كان يراهم وهو يقود الحنطور ماراً بمزاد بيع العبيد يوم السبت.. ولكن بعد ما حدث في أحد الأيام صباحاً من حوالي ستة أشهر مضت قرر ألا يقود الحنطور في أي مكان قريب من المزادات إذا كان بإمكانه أن يتجنب ذلك دون أن يشك السيد في دوافعه.. فبينما كان يقود الحنطور في ذلك اليوم لمح امرأةً شابة من (الجولا) ترتجف بطريقة تثير الشفقة.. دار ليرى ما الأمر رأى عينا المرأة الواسعتين مثبتتين عليه وهو جالس على مقعده العالي بالحنطور.. وانفتح فمها في صرخة وهي تتوسل إليه أن يساعدها.. في مرارة وشعور بالعار.. ألهب (كونتا) ظهر الجوادين بالسوط فاندفعا للأمام مما قذف السيد إلى خلف المقعد وأحس (كونتا) بالرعب مما فعله ولكن السيد لم يقل شيئاً.

وذات مرة قابل (كونتا) عبداً أفريقياً في مجلس المقاطعة بينما هو ينتظر السيد.. ولكن لم يفهم أي منهما لغة الآخر القبلية.. والرجل لم يتعلم بعد.. لقد بدا الأمر لا يصدق بالنسبة لـ (كونتا) أنه فقط بعد عشرين عاماً في أرض البيض قابل أفريقياً آخر لا يستطيع أن يتفاهم أو يتواصل معه.

ولكن خلال الشهرين التاليين وفي ربيع 1788 بدا لـ (كونتا) أن السيد يزور كل مريض من الأقارب أو الأصدقاء خلال المقاطعات الخمس إلا والديه في (إينفيلد).. فكر أن يسأله أن يمنحه تصريح سفر وهو ما لم يفعله من قبل.. ولكنه كان يعرف أن ذلك قد ينطوي على أسئلة حول المكان الذي ينوي الذهاب إليه.. ولماذا ؟ كان يستطيع تخمين أنه سيذهب لرؤية (ليزا) الطاهية في (إينفيلد) ولكن هذا قد يجعل السيد أن هناك شيئاً ما بينهما.

ثم في يوم أحد بعد الغداء ودون أي إشارة على الإطلاق أرسل السيد إليه ليعد العربة الحنطور.. عرف أنه ذاهب إلى (إينفيلد).. أوشك (كونتا) أن يقفز من فوق مقعده.. و(بيل) تحملق إليه في اندهاش.

كانت (ليزا) مشغولة بين آنيتها عندما دخل المطبخ في (إينفيلد) سألها كيف حالها وأضاف بسرعة أنه ليس جائعاً.. نظرت إليه بدفء وحرارة وقالت بصوت رقيق :

- لم أرك منذ زمنٍ بعيد.. لقد سمعت عنك وعن ذلك الأفريقي الذي اشتريناه.. والسيد سمع بذلك أيضاً.. بعض الزنوج أخبروه.. ولكنه لم يقل شيئاً.

ثم أمسكت بيد (كونتا) وضغطتها وقالت: انتظر دقيقة.

أحس (كونتا) أنه سينفجر من نفاد الصبر.. ولكن (ليزا) أصمت أذنيها.. وأخذت تعد سندوتشين من الروزبيف أعطتهم له.. ومرة ثانية وهي تضغط يده في يدها.. ثم صحبته إلى باب المطبخ حيث قالت بعد تردد: هناك شيء لم تسألني عنه أبداً ومع ذلك سأخبرك به.. أمي كانت زنجية أفريقية.. واعتقد أن هذا السبب في أنني معجبة بك جداً.

عندما رأت قلق (كونتا) ولهفته على الرحيل استدارت فجأة وأشارت قائلةً:

ذلك الكوخ ذو المدفأة المكسورة يخصه.. ومعظم الزنوج تركهم السيد يذهبون اليوم.. ولن يعودوا قبل حلول الظلام.. وما عليك إلا أن تنظر في حنطورك حتى يخرج سيدك.

أسرع وهو يعرج إلى نهاية مجمع العبيد.. وطرق باب الكوخ المتداعي المكون من حجرة واحدة.. سمع صوتاً تذكره (كونتا): من هناك ؟

قال (كونتا): السلام عليكم.

سمع حركة سريعة مكتومة داخل الكوخ ثم انفتح الباب على آخره.



اللحظة المنتظرة

باعتبارهما أفريقيين لم يظهر أي منهما كيف أن تلك اللحظة كانت منتظرة من زمن بعيد.. قدم الرجل العجوز مقعده الوحيد.. ولكن عندما رأى أن ضيفه يفضل أن يجلس القرفصاء على التراب كما كان يفعل في قريته.. تنهد قارع (الكواكوا) في رضا.. وأضاء الشمعة على مائدته.. وقرفص مثله.. وقال:

- لقد أتيت من (غينيا).. وأهلي من قبيلة (أكان) والبيض أسمهم (بومباي) ولكن سيدي الأبيض الحقيقي اسمه (يوتنج بيدياكو) لقد كنت هنا في أرض (الطوبوب) من زمن بعيد.. وعشت مع أصحاب ست مزارع.. وأتمنى أن تكون هذه آخر واحدة.. وماذا عنك ؟

حاول (كونتا) أن يقلد لهجة أهل غينيا وأخبره عن (جامبيا) و(جوفور) وأنه من الـ(مانديكا) وعن عائلته.. وكيف أُسِرَ.. ومرات هروبه.. وقدمه.. وقيامه بأعمال الحديقة.. وكيف هو الآن يقود الحنطور ؟

استمع الغيني بانتباه وعندما انتهى (كونتا) جلس الرجل وهو يفكر قبل أن يتكلم ثانية:

- إننا جميعاً نعاني والرجل العاقل يتعلم من ذلك.

صمت ثم نظر نظرة تقييم لـ (كونتا) وسأله :

- كم عمرك ؟

- ثلاثون عاماً.

- لا يبدو عليك ذلك.. أنا سني ثلاث وستون.

- وأنت كذلك لا تبدو في سنك الحقيقية.

- حسناً لقد كنت هنا قبل أن تُولد.. وأتمنى أنني لم أتعلم شيئاً مما عرفته.. ولكنك مازلت شاباً.. إنني أذكر كيف أن شيخ قبيلتنا (الأكان) تعود أن يجلس في مقعده الضخم المصنوع من سن الفيل.. وهناك دائماً رجل يحمل مظلةً فوق رأسه.. وكان بجواره رجل يكلم الشيخ وهى الطريقة الوحيدة التي يتكلم بها معه أى شخص لابد أن يكون عن طريق ذلك الرجل..

وكان هناك ولد يقف بجوار الشيخ وهو يجري برسائل الشيخ لأهله.. وكان هذا الولد ومعه سيف سميك الحد عندما يشاهد أي شخص وهو قادم يعرف من هو.. لقد كبرت وأنا هذا الولد.. أنقل الرسائل جرياً بين الناس.. وبهذه الطريقة أمسك بي الناس البيض.

كان (كونتا) على وشك أن يتكلم عندما أمسك الغيني بيده وقال :

- هذه ليست نهاية الحكاية.. والذي أهدف إليه أن على قمة مظلة الشيخ نحتاً ليد تمسك بيضة.. وهي تستخدم لحماية قوى الشيخ التي يستخدمها.. وذلك الرجل الذي يتكلم بدلاً من الشيخ كان دائماً ممسكاً بصولجان منقوش عليه سلحفاة.. وكانت السلحفاة تقوم بالإمساك بمفتاح الحياة والصبر.

توقف الغيني ثم قال: وكان هناك أيضاً نحلة منقوشة على درع تلك السلحفاة.. وكانت النحلة من أجل الأشياء التي لا يمكن رؤيتها خلال الدرع الصلب.. هذا هو ما أردت أن أنقله وما تعلمته في أرض البيض.. أن أكثر ما تحتاجه لتعيش هنا هو الصبر مع الدرع الصلب.

كان (كونتا) متأكداً أنه في أفريقيا كان ذلك الرجل يعمل قائداً لمعسكر تدريب الرجولة كينتاجو أو حكيماً.. ولكنه لم يعرف كيف يقول ما يشعر به.. وإنما جلس هناك في مكانه دون أن يقول شيئاً.. قال الغيني أخيراً وهو يبتسم: يبدو أنك فهمت.

بدأ (كونتا) يتلعثم معتذراً ولكن لسانه بدا وكأنه لا يزال مربوطاً.. ابتسم الغيني مرةً ثانية.. وتكلم: أنتم الـ(مانديكا) يقولون عندك في بلدنا أنكم رحالة عظماء وتجار.

ثم ترك حديثه معلقاً وكان من الواضح أنه ينتظر من (كونتا) أن يقول شيئاً وأخيراً استطاع (كونتا) الكلام.

- إن ما سمعته صحيح.. عماي من الرحالة.. وقد استمعت إلى الحكايات التي تعودا أن يقصاها.. ويبدو أنهما كانا في كل مكان.. أنا وأبي ذهبنا إلى قرية جديدة بنياها بعيداً جداً عن (جوفور).. لقد كنت أنوي الذهاب إلى مكة.. وتومبوكتو.. ومالي مثلما فعلا عمايَّ.. ولكني سُرِقتً ولم تتح لي الفرصة.

قال الغيني: أعرف أشياءًا عن أفريقيا.. لقد جعلني شيخ القبيلة أتعلم على يد رجال حكماء ولم أنس ما قالوه.. وقد حاولت أن أضع ذلك مع الأشياء التي سمعتها ورأيتها منذ أن كنت هنا وأعرف أن معظمنا الذي أُحضروا إلى هنا سرقوا من غرب أفريقيا من بلدك (جامبيا) حتى ساحل بلدي (غينيا) هل سمعت عن البيض وزيارتهم لساحل الذهب ؟

قال (كونتا) أنه لم يسمع فقال الغيني :

- لقد سموها هكذا لأن الذهب كان هناك.. وهذا الساحل يأتى منه الأشانتي ويقال الآن أنهم هم الذين يقودون معظم الثورات والتمردات بعدما جاءوا إلى هنا.. ورغم ذلك فإن البيض يدفعون أغلى الأسعار فيهم لأنهم أذكاء وأقوياء ولديهم أرواح قوية.. يسمونهم عبيد الساحل.. يأتون من قبائل اليوريا وداهومي وعلى رأس العبيد هم (الأيبو)..

قال (كونتا) أنه سمع أن (الأيبو) شعب مهذب.. أومأ الغيني موافقاً وقال :

- لقد سمعت عن ثلاثين من (الأيبو) أمسك كل منهم بيد الآخر وساروا إلى النهر وهم يغنون وغرقوا معاً.. وكان هذا في لويزيانا.

كان (كونتا) قد بدأ يقلق.. فقد أصبح السيد على وشك الرحيل.. وعندما استعد للرحيل قال له الغيني: ليس هناك أحد هنا يستطيع أن يجلس ويتحدث مثلنا.. وأكثر الأوقات أقول من خلال طبلة (الكواكوا) ما في عقلي.. وأظن أنني كنت أتكلم معك دون أن أعلم أنك موجود.

تأثر (كونتا) بعمق ونظر في عينيى الغيني لفترة طويلة.. ثم نهضا معاً.. لاحظ (كونتا) على ضوء شمعة على المائدة أنه نسى الساندويتشين اللذين أعدتهما (ليزا) أشار إليهما وابتسم الغيني وقال:

- يمكنك أن تعود في أي وقت تشاء.. أنا أعرف الآن أنك مضطر للرحيل بينما كنا نتكلم كنت سأقوم بحفر شيء من قرن بقرة لأعطيه لك.

قال (كونتا) أنه في (جامبيا) كان سيحفر شيئاً على بذرة ثمرة مانجو جافة.. ولقد ظللت وقتاً طويلاً أتمنى أن يكون معي بذرة مانجو لأزرعها وأنميها لتذكرني بوطني.

نظر الغيني برزانة إلى (كونتا) ثم ابتسم قائلاً:

- أنت مازلت صغيراً وستحصل على الكثير من البذور.. أنت في حاجة إلى زوجة لتزرع فيها أولادك.

كان (كونتا) محرجاً ومضطرباً لأنه لم يعرف كيف يرد.. رفع الغيني يده اليسرى وتصافحا بيديهما على الطريقة الأفريقية وهذا يعين أنهما سيتقابلان قريباً.

أسرع (كونتا) وهو يعرج للخارج في الغسق المعتم ماراً بالأكواخ الأخرى الصغيرة ومنهما إلى البيت الكبير وهو يتساءل إذا كان السيد قد حضر بحثاً عنه.. ولكن مرت نصف الساعة قبل أن يظهر السيد.. وبينما (كونتا) يقود الحنطور في طريق العودة للبيت وهو لا يكاد يحس باللجام بين يديه.. أو يسمع صهيل الخيل على الطريق شعر وكأنه كان يتحدث مع والده العزيز (أمورو).. لقد كانت الليلة تعني له الكثير.. أكثر من أي ليلة مضت من حياته.

الشعور بالوحدة

قال (فيدلر) (البستاني) العجوز: لقد رأيت الطوبي.. وصحت فيه قائلاً : مرحباً.. يجب أن تمر عليَّ وتجلس معي.. وكان عليه أن يراني وينظر إليَّ.. ولكنه حتى لم يتكلم ماذا تظن الأمر ؟

لم يكن لدى (البستاني) أي فكرة وسأل الاثنان (بيل) فقالت لا أعرف.. لو كان مريضاً أو أي شيء لقاله لي.. أنا فقط تركته بمفرده لأنه يتصرف بطريقة هزلية.

وحتى السيد (وولر) لاحظ أن سائقه الملتزم والمتحفظ بدأ أنه ليس في حالته الطبيعية.. وتمنى ألا تكون حالة من بداية العدوى التي تعرض لها كلاهما.. ولذلك سأل (كونتا) إن كان يشعر بشيءٍ ما؟ فرد (كونتا) بسرعة (لا) فلم يهتم السيد.

كان (كونتا) قد اهتز من أعماق قلبه بعد مقابلته مع الرجل الغيني..

ويوماً بعد يوم أصبح أقل مقاومة.. إلى أن نسى من هو دون حتى أن يدرك ذلك.

لقد كان صحيحاً أنه استطاع أن يعرف أكثر.. ويتعلم كيف ينسجم مع عازف الكمان.. والبستاني.. و(بيل) والسود الآخرين.. ولكنه عرف الآن أنه لا يمكن أبداً أن يصبح واحداً منهم كما أنهم ليسوا مثله على الإطلاق.. وكانوا يثيرون تبرمه إذا ما قارنهم بالغيني.. كما كان سعيداً أنهم لا يزالون يحتفظون بمسافة بينهم وبينه.. كان وهو مستلق على حشيته ليلاً ممزق من الشعور بالذنب والعار مما أوصل نفسه إليه.. خاصةً عندما يستيقظ فجأة في كبينته وهو يقفز واقفاً.. ويصدم عندما يكتشف أنه ليس في جوفور.. فقط أنه لا يزال أفريقياً.

لقد كان لا يزال أفريقياً بحق عندما كانت ذكرياته عن (جوفور) وأهلها.. الشيء الوحيد الذي يبقيه على قيد الحياة.. ولكن أصبحت تمر شهورٌ دون أن تخطر جوفور على فكره.. لقد ظل أفريقياً في تلك السنوات المبكرة عندما كانت كل أزمة غضب تدفعه إلى الركوع على ركبتيه ضارعاً إلى الله أن يمنحه القوة والتفاهم.. ولكنه منذ مدة لم يصل إلى الله ؟

أقسم لنفسه أنه الآن أكثر من أي وقت مضى لابد أن تصبح كرامته درعاً بينه وبين كل هؤلاء الذين يسمون أنفسهم زنوجاً.. كم هم جاهلون بأنفسهم ؟ إنهم لا يعرفون شيئاً عن جدودهم كما تعلم هو من أيام الصبا.. راجع (كونتا) في ذهنه أسماء كينتي من العشيرة القديمة في مالي القديمة نزولاً عبر أجيال في موريتانيا.. ثم في (جامبيا).. حتى أشقائه.. تذكر كل شيء عن أصدقاء صباه.. عادت وجوههم ثانية إليه بجانب ذكريات عنهم وهم يتسابقون في الخارج حول القرية مثل الوطاويط السوداء ليعلموا كرعاة للماعز.. أو يعلموا مواكب ترحيب تصحب كل مسافرٍ يمر بالقرية.. ويلوحون بالعصى نحو القردة الشقية فوقهم والتي كانت في الحال ترد على صياحهم بمثله.. وعن المسابقات بينهم لمعرفة من منهم يستطيع أن يأكل ثمرات المانجو في أسرع وقت.. ولكن مهما حاول (كونتا) فإنه لم يستطيع أن يتذكر أسماء واحدٍ منهم.. ثم أخيراً بدأت الأسماء تتوالى على ذاكرته واحدٌ بعد الآخر.. ثم بدأت وجوه البعض ممن يكبرونه سناً تظهر الآن.. كان تذكر (كونتا) لهم كلهم قد ملآه بالفرح إلى أن خطر على باله أن هؤلاء الأكبر سناً قد يكونون ماتوا الآن.. وأن رفاق عمره الذين يتذكرهم كصبي صغير يمكن أن يكونوا الآن في (جوفور) في مثل سنه.. وأنه لن يستطيع أن يراهم ثانية أبداً.. ولأول مرة من سنوات عديدة أخذ يبكي حتى غلبه النوم.

بعد أيام قلائل وفي مجلس المقاطعة أخبر سائق آخر (كونتا) أن بعض السود الأحرار هناك في الشمال الذين يسمون أنفسهم اتحاد الزنوج.. قد عرضوا على سيدهم أن يعودوا إلى أفريقيا هم وكل السود سواء كانوا أحراراً أم عبيداً.. كان مجرد التفكير في ذلك يثير حماس (كونتا) حتى وإن كان قد سخر بأن ذلك لن يحدث أبداً مع السادة الذين لا يتنافسون على شراء السود فحسب.. وإنما أيضاً يدفعون أثماناً عالية أكثر من قبل.. ورغم أنه كان يعرف أن (فيدلر) سيفضل أن يظل عبداً في (فرجينيا) على الذهاب إلى أفريقيا.

ولكن لأكثر من شهرين لم يفعل (كونتا) أكثر من العبوس في وجه (فيدلر) و(البستاني) وحتى (بيل) وليس هذا بالطبع لأنه لا يحتاج إليهم أو لا يحبهم.. وإنما هو الشعور بالكبت.. وازدياد ذلك في داخله.. وعدما حل الشهر القمري الجديد وألقى (كونتا) في حزن حصاةً أخرى في القرعة كان يشعر بالوحدة لدرجة لا يمكن التعبير عنها.. وكأنه قطع نفسه عن العالم.. وفي المرة التالية التي رأى فيها (فيدلر) أومأ له بصورة مهتزة.. ولكن (فيدلر) استمر في السير وكأنه حتى لم ير أي شخص.

كان (كونتا) غاضباً ومرتبكاً.. وفي اليوم التالي رأى كلاً من (فيدلر) و(البستاني)الآخر في نفس اللحظة ودون أن تفوته خطوة استدار (البستاني) في الاتجاه الآخر في نفس اللحظة.. شعر (كونتا) بالإهانة والمرارة.. وازداد شعوره بالذنب.. وأخذ يذرع أرض كوخه ذهاباً وإياباً لساعات في الليل.. وفي الصباح التالي خرج وهو يعرج إلى خارج الكوخ ومنه إلى مجمع العبيد.. وإلى الباب المألوف في نهاية الصف وطرق الباب.. انفتح الباب وسأله (فيدلر) في برود :

- ماذا تريد ؟

أخذ يبتلع ريقه من الإحراج وقال: لقد تصورت أنني استطيع الزيارة.

بصق عازف الكمان على الأرض وحملق إلى (كونتا): أسمع أيها الزنجي.. وأفهم الآن ما أقوله لك.. لقد كنت أنا و(بيل) و(الرجل العجوز) نتناقش بشأنك.. واتفق الجميع على أنه إذا كان هناك شيئاً ما لا يمكننا تحمله فهو الزنجي المتقلب.. ما الذي حدث معك.. هل أنت مريض أم ماذا ؟

وقف (كونتا) ينظر إلى حذائه.. وبعد فترة حملق فيه (فيدلر) وقال له :

- ما دامت هنا بالفعل ادخل.. ولكنني سأقول لك مرة ثانية لو فعلت ما فعلت سابقاً فلن تجد أحداً يتحدث معك مرة أخرى.

ابتلع (كونتا) إهانته وغضبه.. ودخل الكوخ وجلس.. وبعد صمت بدا لا نهاية له.. تحدث (كونتا) عن اقتراح العودة إلى أفريقيا.. قال (فيدلر) في برود أنه علِمَ بذلك من زمنٍ بعيد.. وأنه ليست هناك أي فرصة لذلك على الإطلاق.. وعندما شاهد تعبير (كونتا) المجروح بدأ (فيدلر) يخفف من حدته.. دعني أخبرك بشيء أراهن أنك لا تعرفه.. في الشمال في نيويورك هناك ما يسمى جمعية (اعتاق العبيد) فتحت مدرسةً للزنوج الأحرار الذين يريدون تعلم القراءة والكتابة وكل المهن.

كان (كونتا) سعيداً للغاية وارتاح لأن الـ (فيدلر) تكلم معه ثانية لدرجة أنه لم يكن يكاد يسمع ما قاله له صديقه القديم.. وبعد دقائق قليلة كف (فيدلر) عن الحديث لفترة وجلس يحملق في (كونتا) متسائلاً: هل أعقلك.

قال (كونتا) الذي كان غارقاً في أفكاره: ماذا ؟

- لقد سألتك سؤالاً من حوالي خمس دقائق.

- أنا آسف لأنني كنت أفكر في شيء ما.

- حسناً.. مادمت لا تحس الإصغاء سأريك كيف ذلك.. جلس ثانية ووضع ساقاً فوق ساق سأله (كونتا): ألن تستمر فيما كنت تقوله ؟

- الآن نسيت ما كنت أقوله.. هل نسيت أنت ما كنت تفكر فيه؟

- إنه ليس هاماً مجرد شيء ما في عقلي.

- من الأفضل أن تخرجه من عقلك لأنه سيسبب لك صداعاً.

- لا أستطيع مناقشته.

قال (فيدلر) وهو يتظاهر بالإهانة: آها.. ما دام هذا ما تحسه.

- ليس الأمر كذلك.. كل ما هناك أنه شخصي للغاية..

بدأ وميض يبرق في عيني عازف الكمان: لا تقل لي أنه بشأن امرأة.. هل هو كذلك ؟

قال (كونتا) وقد احمر وجهه من الإحراج: ليس الأمر على هذا الشكل.

جلس دون كلام لحظات ثم نهض وقال: حسناً.. سأتأخر على العمل.. سأراك فيما بعد.. وشكراً على حديثك معي.

- لا داعي للشكر.. فقط عليك أن تخبرني عندما تود الكلام.

سأل (كونتا) نفسه وهو في طريقه للإسطبل.. كيف استطاع أن يعرف ؟ ولماذا أصر على إجباره على الحديث في ذلك ؟ لقد سمع (كونتا) لنفسه بعد تردد طويل في الحديث في المر.. ولكنه مؤخراً بدأ أنه لا يكاد يفكر في شيء آخر لقد تعلق الأمر بنصيحة الغيني حول زراعة بذوره الخاصة.



الاختيار بين (ليزا) و(بل)

قبل أن يقابل (كونتا) الغيني بزمن طويل كان يجتاحه شعور بالخواء كلما فكر أنه لو كان في (جوفور) لكان لديه ثلاثة أو أربعة من الأبناء الآن مع زوجة.. كان يظل يحملق في سقف الكوخ وهو يفكر في الزواج.. وهو يعرف أنه من النادر وسط الزنوج وجود رجل وامرأة يهمهما أمرهما إلا ويبدآن ببساطة في الحياة معاً في أي كوخ.. وكانت هناك عدة أسباب تمنع (كونتا) من التفكير في الزواج.. ففي الحالات القليلة التي سمع عنها كان الخدم المفضلين في بيوت السادة يرددون قسم الزواج أمام واعظ أبيض.. والسيد والسيدة يشاهدان تلك المراسم الوثنية.. وفي سنوات حياته في أرض البيض لم يشاهد قط أنثى سوداء من سن أربعة عشر إلى ستة عشر أو حتى عشرين.. أو خمسة وعشرين عاماً إلا واعتبرها بلهاء وساذجة.. خاصة في أيام الأحد أو الاحتفالات فإنهن يدهن وجوههن.. ويرششن البودرة والمساحيق على وجوههن وكأنهم مثل راقصي الموت في (جوفور) الذين يغطون أنفسهم بالرماد.. وأكثر اللاتي عرفن (كونتا) كن في الغالب رئيسات طاهيات في البيوت الكبرى التي اصطحبه إليها السيد (وولر) مثل (ليزا) في (إينفيلد) والحقيقة أن (ليزا) كانت هي الوحيدة من بينهن التي كان يشتاق لرؤياها.. لقد أعطت (كونتا) إشارات واضحة عن استعدادها أن تجعله يقترب منها أكثر من استجابته لها.. .وفي أكثر من مرة كانت أحلامه الليلية تدور حولها.

ولنفترض أنه اتخذ (ليزا) زوجةً له.. فإن هذا قد يعني أنهما سيكونان مثل زوجين يعرفهما يعيشان منفصلين كل واحد منهما في مزرعة سيده.. وعادةً ما يُسمح للرجل في كل سبت بعد الظهر أن يسافر بتصريح لزيارة زوجته طالما عاد قبل الظلام يوم الأحد ليستريح من رحلته المرهقة الطويلة قبل أن يستأنف عمله في فجر الاثنين.. لا.. إنه لايريد لنفسه زوجة تعيش بعيداً عنه معظم الوقت.

ولكن كم هي متكلمة ورقيقة.. ويحب أن يقضي وقتاً طويلاً معها بمفردهما.. فلربما استطاعا أن يرى كل منهما الآخر كل أسبوع فقط.. وإذا كان عليه أن يتزوج (ليزا) فليس من المحتمل أن عليهما أن يعيشا مثل العديد من الأزواج السود في خوف من أن واحداً منهما أو كليهما قد يباع بعيداً عن الآخر.. وفكر (كونتا) في الأمر كثيراً.. ثم ذات ليلةٍ بينما هو مستلقٍ في السرير يحاول أن يستغرق في النوم فكر فجأة كطلقة رصاص أن هناك امرأة أخرى يجب أن يفكر فيها.. أنها (بيل) ظن أنه أصيب بالجنون.. إنها تقريباً أكبر منه كثيراً.. ومن المحتمل أنها تعدت الأربعين.. ومن الغباء والسذاجة أن يفكر في ذلك.. (بيل) !

حاول (كونتا) أن يخرجها بسرعة من عقله.. لقد دخلت عقله فقط لأنه عرفها من وقت طويل جداً.. قال ذلك لنفسه.. أنه حتى لم يحلم بها.. وتذكر وهو متجهم سلسلة المهانات والمضايقات التى سببتها له.. وتذكر كيف أنها اعتادت على صفق الباب الزجاجي في وجهه عندما كان يحمل لها الخضروات إلى المطبخ.. والأكثر إثارة أنه تذكر مهانتها عندما أخبرها أنها تشبه المرأة الـ(مانديكا) الدافئة.. والأكثر من ذلك.. أنها بصفة عامة مجادلة ومتسلطة وتحب الرئاسة.. ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتذكر الآن كيف أنه عندما رقد يريد أن يموت كانت تزوره خمس أو ست مرات في اليوم.. وكيف أنها مرضته وأطعمته.. بل أنها نظفته عندما كان يوسخ نفسه.. أن لبختها من الأوراق المهروسة هى التى أنهت الحمى عندما أصيب بها.. ثم أنها أيضاً قوية وصحيحة البدن.. وهي تستطيع أن تطهو عدداً لا يحصى من الأطباق في أوانيها.

كانت كلما بدأت تحسن في نظرتها إليه كان هو أكثر خشونة معها.. كانت تحملق في تراجعه وهو يزدادُ برودة.. وفي يوم بينما كان يتحدث مع (البستاني)وعازف الكمان فأدارا الحديث ببطء حول (بيل) وسأل (كونتا) متظاهراً بعدم الاكتراث:

- من أين جاءت قبل أن تأتي إلى هنا ؟

قال (البستاني): حسناً ! أتذكر أنها جاءت هنا من سنين طويلة.. ولكنها لم تقل الكثير عن نفسها.. لذلك لا أعرف عنها أكثر مما تعرفه.

وقال (فيدلر): أن (بيل) لم تتحدث قط عن نفسها أو ماضيها أمامه أيضاً.. إنه أمر غريب أن تسأل عن (بيل) لأننا نعرف أنكما لم تعودا تتناقشان على الإطلاق .

نظر في إمعان في (كونتا) وقال البستاني: لقد كنا نقول لتونا أن كلاً منكما يمثل ما يحتاجه الآخر..

شعر (كونتا) بالغضب الشديد وجلس فاغراً فمه.. ولكنه لم ينطق بشيءٍ بينما ظل (فيدلر) يهرش أذنه وبدت عليه نظرة بلهاء ثم قال:

- نعم.. أنها قضت هنا وقتاً طويلاً تتعامل مع معظم الرجال.

بدأ (كونتا) يتكلم في غضب ولكن (البستاني) قاطعه وهو يسأله بحدة:

- اسمع.. منذ متى لم تلمس أي امرأة ؟

حملق (كونتا) في بلاهة فصاح عازف الكمان: عشرون عاماً على أية حال.

قال البستاني: يا إله السماوات.. يجب عليك أن تحصل على واحدةٍ قبل أن تجف.

تدخل (فيدلر): وإذا لم يكن مستعداً ؟

كان (كونتا) غير قادر على الكلام ولكنه استطاع أن يكبت غضبه وقفز مندفعاً للخارج وصاح (فيدلر) وراءه: لا تقلق ! إنك لن تظل مجحفاً بعد ذلك معها.



بيل.. هي الأفضل

كان (كونتا) يقضي فترات الصباح وبعد الظهر وهو يشحم ويلمع الحنطور.. كان عمله يبعده عن الحديث مع عازف الكمان والبستاني.. فقد كان غاضباً منهما لما قالاه عنه وعن (بيل).

وعندما كان يخلو لنفسه فإن ذلك كان يعطيه وقتاً لتصنيف مشاعره نحوها.. كان واثقاً بأن (بيل) لعبت دوراً هادئاً في اختيار السيد له كسائق لحنطوره.. ولا جدال أنها بطريقتها الرقيقة كانت أكثر تأثيراً من أي شخصٍ آخر على السيد في المزرعة.. بل أن تأثيرها كان يفوق كل تأثيرهم مجتمعين.. وهناك أشياء صغيرة وكثيرة كانت تداعب عقل (كونتا) ليتذكرها عندما كان يقوم بأعمال البستاني.. كانت عيناه تأكلانه ويحكهما باستمرار بطريقة تثير الجنون ولاحظت (بيل) ذلك.. ودون كلمة خرجت إلى الحديقة في صباح أحد الأيام مع بعض الأعشاب العريضة التي لا تزال رطبة بقطرات الندى أسقطتها في عينيه وفي الحال توقف الاحتكاك.

ليس معنى هذا استسلامه لما تفعله من أشياء كان يرفضها.. خاصةً تقززه من عادتها القميئة في تدخين التبغ في غليون.. وأيضاً كان يعارض بشدة طريقتها في الرقص كلما كانت هناك احتفالات بين الزنوج.. كانت ترقص بحماس شديد لا يليق بامرأة.. تمنى فقط لو أنها أظهرت مزيداً من الاحترام لنفسها ونحوه ونحو أي رجل آخر.. لقد بدأ له أن لسانها أسوأ حتى من لسان (نيوبوتو).

وذات مرة نهض (كونتا) وقلب قطعة خشب الجوز التي يجلس عليها في الحنطور على جانبها دافعاً الخنافس التي كانت تعشش تحتها للهرب.. وبعد أن فحص عن قرب طرفي اللوح أخذ يقلبها مرات عدة وهو يدق عليها بقطعة من الحديد في أماكن مختلفة وهو لا يزال يسمع نفس الصوت الصلب.. بدأ له أن هذه القطعة الممتازة من الخشب لم تكن تخدم الهدف الحقيقي من الجلوس عليها.. كان من الواضح أن شخصاً ما وضعها هناك من وقت طويل من قبل ولم يهتم أحد بتحريكها.. نظر حوله ليتأكد من أن أحداً لا يراقبه.. نقل (كونتا) قطعة الخشب إلى كوخه بسرعة

حيث وضعها بالطول في ركن وأغلق الباب ثم عاد للعمل وفي الليل بعد إعادة السيد من رحلة إلى مجلس المقاطعة بدت أنها كانت ستستمر دهراً لم يستطع (كونتا) أن يجلس للعشاء قبل أن يلقي نظرة على لوح خشب الجوز لذلك أخذ طعامه معه إلى كبينته لم يلاحظ (كونتا) حتى أن كان يأكل.

وجلس على الأرض أمامها وأخذ يفحصها على ضوء الشمعة المتذبذب فوق مائدته.. وخلال الوقت القصير النادر الذي يكون فيه (كونتا) خالياً عندما لا يريد السيد (وولر) أن يذهب إلى أي مكان كان (كونتا) يقطع في لوح الخشب بفأس حادة وهو يصنع شكلاً كرويا لحافة هون لطحن الذرة.. وبمرور اليوم الثالث بواسطة شاكوش وأزميل من الخشب حفر داخل الهون حفراً غير منتظم ثم بسكين بدأ بحفر.. بعد أسبوع فوجئ (كونتا) بمدى مرونة أصابعه مع اعتبار أنه لم يكن يشاهد الناس الكبار في قريته وهم يحفرون الأشياء منذ أكثر من عشرين عاماً.

عندما انتهى في الداخل والخارج وجد عدداً من الجوز مستقيماً جداً وفي نحافة ذراعه والذي صنع منه في الحال يد الهون وهو يكحتها في البداية بمبرد ثم بسكين وأخيراً بقطعة من الزجاج.

عندما انتهى من الهون ويده جلس معهما في ركن من الكوخ لأكثر من أسبوعين.. كان ينظر إليهما من حين لآخر وهو يفكر أنهما يبدوان وكأنهما في مطبخ أمه.

ولكن الآن وقد صنعهما لم يكن واثقاً ماذا يصنع بهما.

أو هذا على الأقل ما قاله لنفسه ثم في صباح أحد الأيام دون حتى أن يفكر لماذا يفعل ذلك فقد التقطهما وأخذهما معه عندما ذهب لزيارة (بيل) ليعرف أن كان السيد في حاجة إلى الحنطور.. عندما قالت له تقريرها المقتضب والبارد من خلف الباب الزجاجي قائلة أن السيد ليست لديه خطط للسفر هذا الصباح.. وانتظر (كونتا) إلى أن أدارت له ظهرها ووجد نفسه يضع الهون ويده على الدرج

ويستدير ليغادر بأسرع ما يمكنه.. عندما سمعت (بيل) صوت وضع الهون في رقة جعلها ذلك تستدير حول نفسها ورأت في البداية.. (كونتا) وهو يعرج بعيداً بأسرع من المعتاد ثم رأت الهون ويده على الدرج.. سارت (بيل) إلى الباب وتلصصت على (كونتا) إلى أن اختفى ثم فتحت الباب الزجاجي ونظرت إليهما وهي مذهولة.. التقطهما وأدخلتهما للمطبخ وفحصت حفرهما المرهق الدقيق في دهشة ثم بدأت تبكي.

لقد كانت هذه هي أول مرة طوال حياتها على أرض مزرعة (آل وولر) صنع رجل من أجلها شيئاً بيديه.. أحست بالذنب الرهيب للطريقة التي كانت تتصرف بها مؤخراً.. كانت بل محتارة حول ما يجب عليها أن تشعر به أو ما يجب عليها أن تصرفه في المرة التالية التي يحضر فيها للسؤال عن سيده مرةً ثانيةً بعد الغداء.. كانت سعيدة أنه أمامها على الأقل فترة الصباح بطولها لتبحث بعقلها حول ذلك الأمر.. بينما في نفس التوقيت كان (كونتا) يجلس في كبينته وكأنه رجلان: واحد منهما يشعر بالمهانة التامة من الشيء المثير للسخرية والبلاهة مما فعله.. والثاني كان قد استقر رأيه وأحس بالهوس تقريباً من السعادة والإثارة لأنه فعل ذلك.. ما الذي جعله يفعل ذلك ؟ ماذا يا ترى ستظنه ؟ لقد كان مرعوباً من العودة للمطبخ بعد الغداء.

وأخيراً حانت الساعة وعبر (كونتا) الممر وكأنه ذاهب إلى تنفيذ حكم إعدامه.. وعندما رأى أن الهون ويده قد اختفيا من الدرج اضطرب قلبه وسقط في رجليه عندما وصل إلى الباب الزجاجي رأى أنها وضعتهما على الأرض في الداخل وكأنها غير واثقة من سبب تركه لهما.. استدار عندما طرق (كونتا) على الباب وكأنها لم تسمعه وهو قادم.. وحاولت أن تبدو هادئةً وهي تفتح مزلاج الباب له ليدخل.. لقد كانت هذه علامة سيئة كما ظن (كونتا) لأنها لم تفتح له الباب قبل اليوم من شهور.. ولكنه كان يرغب في الدخول.. ومع ذلك بدا وكأنه لا يستطيع أن يخطو أول خطوة..

ووقف ثابتًا في مكانه.. ويسأل بطريقة واقعية عن السيد.. وأخفت (بيل) مشاعرها وحيرتها واستطاعت أن ترد بطريقة واقعية مثله.. أن السيد قال أنه ليس لديه زيارات ما بعد الظهر.. ولا يحتاج للحنطور وعدما استدار (كونتا) ليرحل قالت في أمل: لقد كان مشغولاً بالخطابات طوال اليوم.

كانت كل الأشياء التي فكرت فيها أن باستطاعتها أن تقولها هربت من رأسها وعندما استدار ثانية ليرحل سمعت نفسها تهمهم وهي تشير نحو الهون ويده: ما هذا ؟

تمنى (كونتا) لو كان في مكانٍ آخر على الأرض ولكنه أخيراً رد شبه غاضب:

- من أجلكِ لتطحني الذرة فيه.

نظرت إليه (بيل) بانفعالاتها المختلطة التي وضحت الآن على وجهها.. انتهز (كونتا) الصمت الذي ساد بينهما.. وسارع بالخروج دون كلمة أخرى ووقفت (بيل) في مكانها كالبلهاء.

خلال الأسبوعين التاليين لم يقل أي منهما أي شيءٍ للآخر عدا التحيات المتبادلة.. ثم في يوم عند باب المطبخ أعطت (بيل) (كونتا) فطيرةً من عيش الذرة التي أخذها متأثراً بعمق.. يكاد يكون واثقاً بأنها صنعتها من أجله من الذرة التي طحنتها في الهون الذي أعطاه لها.. ولكن حتى قبل ذلك كان قد قرر أن يجري محادثة مع (بيل) وعندما زارها بعد الغداء أجبر نفسه على أن يقول ما عنى بحفظه: أريد أن أقول لك كلمة بعد العشاء.

لم تتأخر (بيل) في الرد وقالت بأسرع ما يمكن: أن الأمر ليس له أي اختلاف بالنسبة لي.

عندما حان وقت العشاء كان (كونتا) قد وضع نفسه في حالة غريبة.. لماذا قالت ما فعلته ؟ هل هي فعلاً غير مكترثة كما بدأ عليها ؟ وإذا كانت كذلك لماذا صنعت فطيرة خبز الذرة له ؟ ولكن لا هو.. ولا (بيل) تذكر ما يقوله بالضبط ولا أين يتقابلان.. لابد أنها قصدت أن يقابلها في كبينتها.. ولكنه أمل في يأس إلا تأتي للسيد (وولر) حالة طبية طارئة.. ولكن عندما لم يحدث ذلك.. وأنه لا يستطيع أن يؤجل الأمر أكثر من هذا أخذ نفساً عميقاً.. وفتح باب كبينتها ثم تسلسل بطريقة عفوية نحو مخزن الغلال.

عدما خرج بعد ذلك وهو يطوح في يديه بزوج من أطقم الفرس كان يظن أنه سيثير فضول أي شخص قد يحدث أن يراه ويتساءل لماذا هو في المنطقة.. ثم مال على حي الزنوج حيث كابينة (بيل) ثم نظر فيما حوله ليتأكد من أنه لا أحد موجود في المكان.. ثم طرق الباب بهدوء انفتح الباب تقريباً قبل أن تصل أنامله إلى الخشب وخرجت (بيل) في الحال للخارج.

حملقت في أطقم الفرس ثم في (كونتا) ولم تقل شيئاً.. ولما لم يفعل هو أيضاً بدأت في السير ببطء إلى نهاية صف السياج وسارع ليصاحبها في خطواتها.. بدأ نصف القمر يظهر وعلى ضوئه الشاحب تحركا للأمام دون كلام.. وعندما لف فرع نبات أرضي حول قدم (كونتا) تعثر واحتكت كتفه بكتف (بيل).. وكان كل ما فعله أنه قفز مبتعداً.. حاول أن يستحث عقله بحثاً عن شيء يقوله.. وتمنى في وحشية لو أنه كان يسير مع (البستاني) أو عازف الكمان أو أي شخص عدا (بيل) وأخيراً كانت هي التي كسرت حدة الصمت.. قالت فجأة :

- لقد أقسم الناس البيض على أن يكون الجنرال (واشنطون) هو الرئيس.

وَدَ (كونتا) أن يسألها ما هذا.. ولكنه لم يفعل أملاً أن تظل مستمرة في الكلام.. استمرت :

- وأن نائب الرئيس اسمه السيد (جون) ..

تخبط وهو يشعر أن عليه أن يقول شيئاً حتى يستمر الحديث وأخيراً قال :

- لقد صحبت السيد بالحنطور ليرى صغيرة أخيه بالأمس.. في الحال شعر بسخافته لأنه كان يعرف تماماً أن (بيل) تعرف ذلك.. قالت (بيل) وهي تشعر بالسخافة ما دام كلامها حول الصغيرة أن هو نفسه كلما جاءت سيرتها: أوه يا إلهي !كم هو يحب تلك الطفلة.

ساد الصمت بينهما بعض الوقت ثم قال :

- لست أدري كم تعرف عن شقيق السيد.. أنه كاتب مجلس مقاطعة سبورتسلفانيا ولكنه لم يكن لديه نفس ذكاء سيدنا في الأعمال.. إنني أصيخ السمع حتى لا تفوتني الأمور الصغيرة.. أنا أعرف أشياء كثيرة أكثر مما يظن الناس أنني أعرفه.

نظرت إلى (كونتا): أنا لم أتقبل هذا السيد (جون) أبداً.. وأنا واثقة أيضاً بأنك لا تقبله.. ولكن هناك أمراً لابد أن تعرفه عنه لم أخبرك عنه قط.. أنه ليس هو الذي أمر بقطع قدمك.. الحقيقة أنه استأجر صيادي الزنوج لمطاردتك مع هؤلاء الزنوج الكلاب.. وأنهم أدعوا أنهم اضطروا إلى ذلك لأنك حاولت أن تقتل واحداً منهم بالحجر.

صمتت (بيل) فترة ثم قالت: أنا أذكر ذلك وكأنه حدث بالأمس فقط عندما أتى الشريف بروك مندفعاً إلى سيدنا.. لقد قال السيد إنك كنت شبه ميت.. لقد غضب بشدة عندما قال السيد (جون) إنك لم تعد لك أي فائدة بعد قطع قدمك.. فأقسم أنه سيشتريك منه وقد فعل ذلك أيضاً.. لقد رأيت الصك الذي اشتراك به.. لقد أخذ مساحةً كبيرة من طول المزرعة بدلاً من النقود التي كان أخوه مديناً بها له.. أنها تلك المزرعة الضخمة التي عليها قنطرة حيث يوجد منعطف الطريق الكبير الذي تمر بها باستمرار.

عرف (كونتا) في الحال المزرعة.. كان يستطيع أن يرى القنطرة في عقله والحقول المحيطة. استمرت بيل:

- ولكن معاملات العمل لا تعرف فرقاً لأن كل (آل وولر) متقاربون جداً.. وهم من أقدم العائلات في (فرجينيا).. عائلة قديمة في إنجلترا جاءت عبر المياه من هناك.. وبها أكبر السادة وينتمون إلى كنيسة إنجلترا.. وبها واحد ممن يكتبون الشعر يدعى السيد (أدموندوولر) وأخوه الأصغر السيد (جون وولر) وهي واحدة من أقدم العائلات التي أتت أولاً إلى هنا..

ولم يكن السيد وقتها إلا في سن الثامنة عشر.. وقد سمعت السيد يقول عندما أعطاه الملك (تشارلز أوف ستيلون) أرضاً ضخمة.. هناك أصبحت مقاطعة (كنت) الآن.

أصبحت خطواتها أبطأ كثيراً وهى تتكلم.. ولم يستطع (كونتا) إلا أن يكون أكثر سروراً مع استعدادها للكلام المستمر..

- على أية حال فإن (جون وولر) تزوج الآنسة ماري وقام ببناء بيت (إينفيلد) الضخم الذي يأخذك إليه السيد من أجل زيارة أهله.. ولديهما ثلاثة أولاد خاصة (جون أوف) الأصغر والذي أصبح كومة من الأشياء.. يقرأ القانون بينما يعمل شريفاً هناك في مجالس النواب.. ويساعد في تأسيس (فريد ريكسبرج).. وهو والآنسة دورثي اللذان بنيا (نيوبورت) ولديهما ستة أطفال.. وبسببهم بدأ أطفال (آل وولر) ينتشرون في كل مكان.. ويكبرون ويصبح لهم صغار من صلبهم.. وسيدنا والآخرون من آل وولر الذين يعيشون في المنطقة ليسوا سوى حفنة صغيرة منهم.. أنهم كانوا جميعاً أكثر احتراماً وهم يعملون في وظيفة الشريف والواعظ والكاتب في المقاطعة والبرلمان وأطباء مثل سيدي وعدد ضخم منهم حارب في الثورة.

كان (كونتا) مشغولاً جداً بما تقوله له (بيل) لدرجة أنه ذهل عندما كفت عن السير وقالت:

- والآن من الأفضل أن نعود.

استدار للخلف وعندما هدأت (بيل) فترة ولم يقل (كونتا) شيئاً أدركت أنه لن يقول لها ما يدور في رأسه.. ثم استمرت في الثرثرة في أي شيء يخطر على بالها إلى أن وصلا ثانيةً إلى كبينتها حيث استدار لتواجهه وظلت صامتة.. وقف في مكانه ينظر إليها لحظات طويلة ثم تكلم أخيراً:

- إن الوقت تأخر كما تقولين.. إذن سأراك غداً.

وعندما سار مبتعداً وهو لا يزال حاملاً أطقم الفرس أدركت (بيل) أنه لم يخبرها بما كان يريد أن يقوله لها.. قالت في نفسها وهي تخشى أن يكون صحيحاً ما ظنته: أنه سيصرح به في الوقت المناسب ما دام الأمر أن (بيل) ليست في عجلة من أمرها لذلك بدأ (كونتا) يقضي الكثير من الوقت في مطبخ (بيل) وهي مستمرة في عملها كالمعتاد.. قالت له مرة:

- لقد اكتشفت أن السيد يكتب وصية وهو ليس متزوجاً وأن عبيده سيذهبون إلى الآنسة (آن) ولكن الوصية تقول أنه إن تزوج فإن زوجته ستحصل علينا إذا مات.. هناك العديد منهن في المنطقة يرغبن أن يتمسكوا بالسيد ويتزوجنه ولكن السيد لن يتزوج أبداً تماماً مثلي.

أوشك (كونتا) أن يسقط الشوكه من يده.. كان متأكداً أنه سمع جيداً (بيل) وقد ذهل عندما علم أنها سبق لها الزواج من قبل.. لأنه لا يمكن أن يخطئ أن الزوجة المرغوبة ليست عذراء.. وسرعان ما أصبح (كونتا) خارج المطبخ وذهب إلى كوخه.. كان يعلم أن عليه أن يمعن التفكير في الأمر.

مر أسبوعان من الصمت قبل أن تدعوه (بيل) بطريقة عارضة ليتعشى معها في كبينتها تلك الليلة.. كان مذهولاً لدرجة أنه لم يعرف ماذا يقول.. لم يسبق له قط أن كان بمفرده في كوخ مع امرأة غير أمه أو جدته.. لابد أن الأمر سيكون خطأ.

لكنه عندما لم يجد الكلام ينطلق أخبرته بالوقت الذي يظهر فيه وهكذا كان الأمر.

نظف نفسه في حوض من الصفيح من رأسه إلى قدميه مستخدماً قطعة من القماش الخشن وقالباً من الصابون.. ثم حك جسده مرة ثانية ثم مرة ثالثة.. ثم جفف نفسه وبينما هو يرتدي ملابسه وجد نفسه يغني أغنية رقيقة من قريته أن رقبتك الطويلة جميلة جداً يا ماندوم.. ولكن (بيل) ليست لها رقبة طويلة.. ولم تكن أيضاً جميلة.. ولكن كان عليه أن يعترف لنفسه أنه عندما يراها بالقرب منه فإنه يجتاحه شعور طيب وكان يعرف أنها تشعر مثله.

كان كوخ (بيل) هو أكبر واحد في المزرعة وأقربها للبيت الأبيض الكبير.. وله حوض من الزهور أمامه.. كان كوخها نظيف ولامع أكثر مما يتوقع.. وكذلك الحجرة التي دخلها عندما فتحت الباب.. شعر براحة لطيفة بجدرانها من قوالب الطين ومدفأة من القرميد المصنوع باليد تنزل مدخنتها باتساع من السقف حتى الأرض حيث علقت بجوارها أدوات الطهي اللامعة.. ولاحظ (كونتا) أنه بدلاً من الحجرة المعتادة الوحيدة ذات النافذة الواحدة.. كانت كابينة (بيل) بها حجرتان ونافذتان كلتاهما مغطاة بمصراعين يمكن إنزالهما لأسفل في حالة المطر.. أو عندما يصبح الجو بارداً.. وكانت الغرفة الداخلية ذات الستائر من الواضح أنها تنام فيها وظل (كونتا) يشيح بعينيه بعيداً عن مدخل تلك الحجرة.. وعلى مائدتها المستطيلة في وسط الحجرة التي كان يوجد فيها سكاكين وشوك وملاعق موضوعة في برطمان وبعضًا من زهورها في آخر شمعتان مضيئتان في ماسك من الفخار.. وعند طرفي المائدة مقعدان عاليان الظهر من الخشب.. طلبت منه (بيل) الجلوس في مقعد هزاز بالقرب من المدفأة.. فعل وهو يجلس في حرص لأنه لم يكن قط قد استخدم مثل هذه الأشياء من قبل وهو يحاول جاهداً أن يبدو عفوياً.

قالت: عندما أكون مشغولة لا أشعل حتى النار.

قفز (كونتا) ناهضاً من فوق المقعد وهو سعيد أن يجد شيئاً يستطيع أن يفعله بيديه.. حك حجر القداحة بقطعة من الحديد بقوة.. وأشعل القطن الخفيف الذي كانت (بيل) قد وضعته تحت قطع الخشب.. وفي الحال اشتعلت النيران.. قالت (بيل) وهي منهمكة بين أوانيها:

- هل تعرف لماذا أنني طلبت منك الحضور إلى هنا رغم أنني لم أكن مستعدة في أي شيء.

أجبر (كونتا) نفسه على الرد: لا داعي للاستعجال معي.

ولكن دجاجتها المطهوة مع الزلابية التي كانت تعلم أن (كونتا) يحبها كانت بسرعة يتصاعد منها البخار.. وعندما قدمت له الطعام أنبته على عدم التهامه له بهذه الدرجة.. ولكنه لم يتوقف إلا بعد أن قدمت له الطعام ثلاثة مرات و(بيل) لا تزال تصر على أنه لا يزال هناك المزيد.

وقال لها بصدق: لا.. لقد امتلأت معدتي لدرجة الانفجار.

وبعد دقائق قليلة من الأحاديث الصغيرة نهض وقال أن عليه أن يعود للبيت.. تمهل عند المدخل نظر إلى (بيل) ونظرت هي إليه ولم يقل أي منهما شيئاً ثم أشاحت (بيل) بعينها بعيداً وسار (كونتا) وهو يعرج إلى نهاية صف الزنوج حيث يوجد كوخه.

استيقظ في الصباح التالي خفيف الروح أكثر مما كان يشعر منذ أن ترك أفريقياً.. ولكنه لم يقل لأحد لماذا هو يتصرف بمرح لا معنى له وبانطلاق.. ولكنه لم يحتاج إلى الكلام لأن الحديث سرعان ما انتشر بأن (كونتا) يبتسم.. بل حتى يضحك في مطبخ (بيل).. وفي البداية في كل أسبوع مرة أو مرتين كانت (بيل) تدعو (كونتا) للعشاء عندها.. ورغم أنه كان يفكر في أن يعتذر مرة أو مرتين كل فترة إلا أنه لم يستطع أن يجعل نفسه يقول " لا " وكانت تطهو له أشياء كان يقول لها عنها عندما كان في (جامبيا) مثل اللوبيا وغيرها.. وكانا يتحدثان.. وكان موضوعها المفضل بالطبع هو السيد (وولر) ولم تكف عن إدهاش (كونتا) بمدى ما تعرفه هي ولا يعرف هو عن الرجل الذي قضى معه وقتاً أكثر مما تقضيه هي معه.. قالت (بيل) :

- إن السيد غريب في أمور متنوعة.. مثل إيمانه بالبنوك بالدرجة الكافية.. ولكنه يظل يخفي نقوده أيضاً ولا أحد يعرف مكانها سواه.. وهو غريب التصرفات مع الزنوج أيضاً.. أنه يفعل أي شيء من أجلهم.. ولكن إذا أخطأ أحدهم فإنه يبيعه في الحال كما فعل مع (لوثر).. وهناك شيء غريب أيضاً بالنسبة للسيد

وهو أنه ليس لديه غير الزنوج في مزرعته عدا عازف الكمان.. وسيدي يقول رأيه في ذلك أيضاً.. لقد سمعته يقول لبعض الناس الكبار في هذه المقاطعة ممن لديهم العديد من الزنوج المخلصين أن العديد من السادة البيض لديهم الكثير من الأطفال العبيد.. وكل ما يفعلونه هو شراء وبيع من هم من أصلابهم وأنه يجب الكف عن ذلك.

رغم أنه لم يبدو عليه أي تعبير وهو مستمر يومأ لها برأسه عندما تتكلم.. فإن (كونتا) كان ينصت أحياناً بنصف سمعه وهو يفكر في شيء آخر.. وفي إحدى المرات وهي تطهو له فطيرة الذرة مستخدمة في ذلك الهون الذي صنعه لها كان (كونتا) يراقبها وفي عقله صورتها وهي تدق الدقيق من أجل الإفطار في قرية أفريقية.. وهي واقفة عند الموقد تخبز فطيرة الذرة .

ومن حين لآخر كانت (بيل) تعطي (كونتا) بعض الأطباق الخاصة ليحملها إلى عازف الكمان و(البستاني) وأصبح قليلاً ما يرى أحداً منهما كما كان يفعل من قبل.. ولكن بدأ أنهما يفهمان.. والوقت الذي كان يقضيه معهما بدا أنه يزيد من سروره بالمحادثة معهم.. ورغم أنه لم يناقش موضوع (بيل) معهما قط وهما أيضاً لم يثيراه إلا أنه كان واضحاً من تعبيراتهما أنهما يعرفان أنه هو وهي يتغازلان.. وكأن الأمر واضحاً.. واجتماعهما معاً فوق النجيل الأمامي للمنزل.. وقد اعتبر (كونتا) ذلك محرجاً بطريقة مبهمة.. ولكن يبدو أنه ليس بيده ما يفعله حيال ذلك.. وليس معنى هذا أن الأمر لا يهمه.

كان قلقاً أكثر لأنه تبقى بعض الأمور الجادة أراد أن يسويها مع (بيل) ولكنه لم يكف عن الدوران حولها ومن بينهما أنها تحتفظ على جدار حجرتها الأمامية بإطار كبير به صورة لـ يسوع أشقر الشعر بدأ أنه قريب من ربهم.

ولكنه أخيراً استطاع أن يذكر ذلك وقالت (بيل) في الحال: ليس هناك سوى مكان واحد من اثنين سنذهب إليه إما الجنة أو النار والأمر متروك لك لتختار أيهما.

كان ردها يزعجه في كل مرة يفكر ولكنه أخيراً قرر أن لها الحق في معتقداتها مهما كانت خاطئة.. تماماً كما أن له الحق في معتقداته.. لا شك أنه ولد وهو مؤمن بالله.. وسيموت وهو مؤمن بالله.. رغم أنه لم يكن يصلي له بانتظام منذ أن بدأ يرى (بيل) كثيراً.. وقرر أن يصلح من ذلك وأمل أن يغفر له الله ذلك.

على أية حال هو لا يستطيع أن يحس بأي كراهية لأي شخص وثني أو مسيحي.. ويعتبر ذلك غير مناسب بالنسبة لعقيدته.. لقد كانت لطيفة جداً معه في الحقيقة لدرجة أن (كونتا) أراد أن يفعل شيئاً خاصاً لها.. على الأقل مثل الهون ويد الهون.. لذلك في يوم من الأيام بينما كان في طريقه إلى بيت السيد (جون) ليحضر الآنسة (آن) من أجل قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع السيد (وولر) توقف (كونتا) بجوار كومة من أعشاب البردي كان يلاحظها باستمرار وانتقى أفضل ما وجده.. قطع البردي إلى قطع رقيقة وببعض أوراق الذرة الطرية الداخلية وعلى مدى الأيام العديدة التالية صنع حصيرة متينة ذات تصميم (مانديكا) في وسطها.. ولقد خرجت حتى أفضل مما كان يتوقع وقدمها لـ (بيل) في المرة التالية التي قدمت له فيها العشاء.. نظرت له بعد أن كانت تنظر للحصيرة وصاحت: لن يضع أحد قدميه عليها أبداً.

استدارت واختفت في حجرة نومها ثم عادت بعد دقائق قليلة ويدها خلف ظهرها وقالت:

- هذه كانت من أجل عيد ميلادك.. ولكني سأصنع لك شيئاً آخر ..مدت يدها وكانت تمسك جورباً من الصوف الجيد.. إحدى فردتيه تصلح لتغطية نصف القدم والجزء الأمامي من القدم محشو بوسادة صغيرة صوفية.. لا هو ولا (بيل) عرف ماذا يقول.. كانت رائحة الطعام الشهي الذي تقليه استعداداً لتقديمه تلف المكان.. ولكن شعور غريباً كان يجتاحهما وكل منهما مستمر في النظر للآخر.. أمسكت يد (بيل) أخيراً بيده وبحركة واحدة أطفأت الشمعتين وبسرعة شعر (كونتا) أنه كالريشة يكتسحها هواء قوي.. ذهباً معاً خلال الباب ذي الستائر إلى الحجرة الثانية واستلقيا وكل منهما في مواجهة الآخر من السرير.. نظرت (بيل) بعمق في عينيه ومدت يدها نحوه والتصقا ببعض ولأول مرة من عمره البالغ تسعة وثلاثين عاماً احتضن امرأة بين ذراعيه.



الزواج ...

قالت (بيل) لـ (كونتا): السيد لم يصدق عندما قلت له.. ولكنه في النهاية قال أنه يجدر بنا أن نفكر في الأمر أكثر من ذلك لأن الناس عندما يتزوجون يصبحون مقدسين في عيون يسوع.

وخلال الأسابيع التالية لم يقل السيد (وولر) لـ (كونتا) أى شيءٍ عن الأمر.. وذات ليلة جاءت (بيل) تجري من البيت لمقابلة (كونتا) في كوخه وقالت وهي تلهث:

- لقد أخبرته أنا مازلنا نريد الزواج.. وقال موافقاً حسناً.

سرت الأخبار بسرعة في صف الزنوج كان (كونتا) محرجاً عندما قدم له مختلف الزنوج التهاني أراد أن يخنق (بيل) لأنها أخبرت حتى الآنسة (آن) عند زيارتها التالية لعمها لأنها جرت في كل مكان أول شيء وهي تصيح: بيل ستتزوج ! (بيل) ستتزوج.

واستطاعت (بيل) بطريقة ما أن تحصل على وعد من السيد ألا يستخدم الحنطور أو (كونتا) نفسه طوال يوم الأحد قبل الكريسماس عندما يكون الجميع في عطلة من العمل وقادراً على حضور الزفاف وقالت لـ(كونتا): أعرف أنك لا تريد زواجاً في البيت الكبير.. وأعرف أن السيد نفسه لا يريد ذلك.. على الأقل سنكون جميعاً معاً في ذلك التاريخ.

رتبت للحفل أن يقام في الفناء الأمامي بجوار حديقة الزهور البيضاوية.. كان كل فرد في صف الزنوج موجوداً في أحسن هيئة.. يقفون جميعاً معاً على الجانب الآخر من السيد (وولر) وابنة أخيه (آن) ووالديها.. ولكن بقدر اهتمام (كونتا) فإن ضيف الشرف وبالمعنى الحقيقي فعلاً للكلمة والذي كان مسؤولاً عن كل شيء هو صديقه الغيني الذي استطاع أن يصل في الموعد من (إينفيلد).. وعندما خرج (كونتا) وسار مع (بيل) إلى منتصف الفناء أدار رأسه نحو قارع (الكواكوا) وتبادلاً نظرة طويلة عندما تقدمت للأمام أهم صديقة لـ(بيل) وهى المغنية والمرتلة العمة (سوكي) وهي مرتلة المزرعة وقادت الاحتفالات.

أحس (كونتا) وكأنه يختنق.. دعا الله أن يغفر له ما يفعله.. فمهما كانت الكلمات التي يقولونها لربهم الوثني فإن الله سيسامحه لأنه لا يزال يؤمن به فقط..

صفق كل المراقبين ثم طلب منهم الهدوء وتكلمت العمة (سوكي) ثانية قائلةً: ما جمعه الرب لن يستطيع أحد أن يفصمه.. والآن يجب أن تكونا مخلصين لبعضكما.

ثم نظرت إلى (كونتا) وقالت: كونا مسيحيين صالحين.

ثم التفت نحو السيد (وولر) وقالت: يا سيدي هل هناك شيء تود أن تقوله في هذه المناسبة ؟

بدأ من الواضح أن السيد يفضل ألا يفعل ولكنه خطا للأمام وقال برقة:

لقد حصل (كونتا) على امرأة جيدة وهي (بيل) وحصلت هي على رجل طيب.. وعائلتي هنا بما فيهم أنا تتمنى لهما حظاً سعيداً بقية حياتهما.

انطلق الهتاف العالي والتحيات من كل مجمع الزنوج وزاد منه قهقهات السعادة من الصغيرة (آن) التي كانت تقفز لأعلى وأسفل إلى أن شدتها أمها بعيداً ودخل كل (آل وولر) إلى البيت الكبير ليدعهم السد يستمرون في احتفالاتهم بطريقتهم الخاصة.

كانت العمة (سوكي) وصديقات (بيل) الآخريات قد ساعدتها في طهو ما يكفي من الطعام حيث وضعوه مخفياً فوق سطح مائدة طويلة.. ووسط الاحتفالات كان كل شخص هناك فيما عدا (كونتا) وقارع (الكواكوا) يحتسون البراندي والنبيذ الذي أرسله لهم السيد من كرار البيت الكبير هدية..كان عازف الكمان يعزف بثبات وبدرجة عالية على آلته منذ بداية الحفل.. لم يعرف (كونتا) كيف استطاع عازف الكمان أن يختلس شراباً وسط ما يفعله.

ولكن من الطريقة التي كان يتطوح بها وهو يعزف كان من الواضح أنه استطاع أن يحصل على أكثر من كأس.. لقد تحمل كونتا شراب (فيدلر) فهو حر.. ولكن عندما رأى (بيل) وهي منهمكة في ملء وإعادة ملء وكأس نبيذها بدأ يزداد قلقاً وحرجاً.. لقد صدم وهو يسمعها تقول لأختها (ماندي) وصديقة أخرى: لقد كانت عيني عليه من عشر سنوات !

وبعد ذلك تطوحت نحوه.. وألقت بذراعيها حوله.. وقبلته قبلةً صارخةً في فمه هناك أمام الآخرين وسط النكات البذيئة واللكزات والضحك الصاخب.. كان (كونتا) مشدوداً كالوتر في القوس عندما حان الوقت لبقية الضيوف يغادرون أخيراً.. وها هما أصبحا بمفردهما هناك في الفناء.. وبينما (بيل) تتحرك نحوه في ثبات قالت له في صوت متداخل وغير مترابط:

- الآن وقد اشتريت البقرة يمكنك أن تحصل على كل اللبن الذي تريده.

كان مرعوباً وهو يسمعها تتكلم بهذه الطريقة.. ولكن لن يمر وقت طويل حتى يتغلب على ذلك.. الحقيقة قبل مرور عدة أسابيع كان قد حصل على معلومات هامة وكافية عما هي قادرة عليه امرأة ضخمة وقوية.. كانت يداه قد تحسستا في الظلام خلفية (بيل) الضخمة وتأكد من أنها طبيعية.. وأنها ليست واحدة من تلك الخلفيات المحشوة عند العديد من النساء لتبدو كل منهم بدينة المقعدة.. ورغم أنه لم يشاهدها وهي عارية لأنها تطفئ الشموع قبل أن تتاح له الفرصة إلا أنها سمحت له أن يرى ثدييها.. ووجد في رضا أن ضخامتها ستسمح بتوفير لبن كثير للرضاعة وهذا جيد جداً.. ولكن حدث أن أصيب (كونتا) بالرعب عندما رأى الأخاديد العميقة للجروح من ضرب السياط على ظهرها وقالت (بيل) عنها: إنه يحمل ندوباً ستظل معي إلى القبر.. تماماً مثلما كانت أمي.. ولكن ظهرى بالتأكيد ليس أسوأ من ظهرك.

أخذ (كونتا) على غرة لأنه لم يشاهد ظهره.. لقد نسى كل شيء عن تلك الندوب على مدى عشرين عاماً.. كانت بدفئها وهي دائماً بجانبه تجعله يشعر بالاستمتاع في سريرها الطويل وعلى المرتبة الطرية.. وكأنها محشوة بالقطن بدلاً من القش وورق الذرة.. وكانت ألحفتها المصنوعة باليد أيضاً مريحة ودافئة.. وأن ينام فوق ملاءتين كان ذلك بالنسبة له تجربة جديدة.. وكذلك كان من الممتع أيضاً ارتداءه القمصان المضبوطة التي صنعتها من أجله وكانت تغسلها وتنشرها ثم تكويها كل يوم.. بل أن (بيل) أصبحت تحرص على أن يكون له نفس عشاء السيد كل يوم.. بالطبع عدا لحم الخنزير.. وكان يحب أن يأكل في أطباقها البيضاء بالسكين والملاعق والشوك الذي كان من الواضح أنها وفرتها من البيت الكبير.

باختصار كان لا يستطيع أن يصدق كيف كانت الأمور مختلفة وكيف أن الحياة أفضل مما كانت عليه من شهور وسنوات مضت.



عندما تكون الكتابة جريمة؟؟

وبقدر ما كانا قد أصبحا متقاربين.. كان هناك أوقات يحس فيها (كونتا) أن (بيل) لا تزال لا تثق به كلية.. وذات ليلة.. وبعد عشاء ممتاز على ضوء الشموع في الكابينة وضعت (بيل) يدها على كتفه وقالت: هناك شيء ما يثقل على عقلي أود أن أقوله لك.

ذهبا إلى غرفة نومها ثم عادت بعد لحظة مع أحد أعداد جرائد (فرجينيا) كان يعلم (كونتا) أنها تحتفظ بها في كومة تحت سريرها.. وقالت(بيل):

أنا استطيع القراءة قليلاً والسيد سيبيعني لأي شخص لو عرف ذلك.

سألها (كونتا): ألم تفكرى بأنك تعرضين نفسك لذلك إن أمسكوا بكِ وأنت تقرأين الجرائد هكذا؟

قالت: أنا حريصة فعلاً ولكني أقول لك إنني في مرة خفت لدرجة الموت من السيد.. ففي أحد الأيام دخل علي ومن المفروض أنني أُكنس حجرة الجلوس ولكن ما كنت أفعله هو النظر في أحد كتبه.. يا إلهي.. أوشكت أن أتجمد ولكن السيد فقط وقف هناك ينظر إلى لمدة دقيقة.. ولكنه لم يقل أي شيء على الإطلاق .

كل ما هناك أنه خرج ومنذ ذلك اليوم حتى الآن لم أنظر في أي كتاب في مكتبته.

عندما أعادت (بيل) الجريدة تحت السرير ظلت هادئة فترة وكان (كونتا) يعرفها خير المعرفة الآن بحيث يعرف أن هناك شيئاً ما لا يزال في ذهنها.. كانا على وشك الذهاب إلى الفراش عندما أجلست نفسها فجأة أمام المائدة وكأنها قد استقرت على شيء ما.

وبتعبير متهرب متكبر في آنٍ واحد أخرجت من جيب مريلتها قلماً وبدأت ترسم بعض الحروف بعناية شديدة وسألته:

هل تعرف ما هذا ؟ حسناً.. هذا اسمي (بيل)..

حملق (كونتا) في الحروف المكتوبة بالقلم الرصاص وتذكر كيف أنه ظل سنوات طويلة مبتعدًا عن الكتابة الخاصة بـ(الطوبوب) وهو يظن أنها تحتوي على بعض طلاسم وتعاويذ قد تجلب له الضرر ولكنه كان لا يزال غير واثق.. بأن ذلك غير محتمل الوقوع.. كتبت (بيل) مزيداً من الحروف وقالت: هذا هو اسمك : " ك و ن ت ا ".

نظرت إليه ورغماً عنه لم يستطع أن يقاوم الميل قليلاً ليقرأ العلامات الغريبة.. ولكن وقتها نهضت (بيل) وكرمشت الورقة وألقت بها في وسط الجمرات الخابية في المدفأة وقالت:

- إنني لن أسمح أبداً أن يمسكوني وأنا أكتب.

ومرت أسابيع طويلة.

أسابيع عديدة مرت قبل أن يقرر (كونتا) أخيراً أن يفعل شيئاً بشأن التوتر الذي كان يقتله منذ أن أرته (بيل) بكل فخر أنها تستطيع القراءة والكتابة لقد كان هؤلاء السود على أرض المزرعة مثل أسيادهم البيض يؤمنون تماماً بأن هؤلاء الذين أتوا من أفريقيا هبطوا فقط من فوق الأشجار دون أي خبرة أو تعليم.

لذلك بطريقة عارضة تماماً في صباح أحد الأيام ركع لأسفل أمام المدفأة وحرك مجموعة من الرماد وركنها في ركن ثم بيديه أخرجها حيث فردها.. كانت (بيل) تراقبه في فضول وهو يأخذ عصا بيضاء من جيبه وأخذ يحفر في الرماد اسمه باللغة العربية لم تدعه (بيل) بل سألته: ما هذا ؟

أخبرها (كونتا).. ثم أعاد الرماد ثانيةً إلى داخل المدفأة.. وجلس ثانية في المقعد الهزاز.. وانتظر أن تسأله أين تعلم الكتابة.. لم يضطر للانتظار طويلاً وطوال بقية المساء تحدث وأنصتت (بيل) كنوع من التغيير في حديثه المتقطع.. أخبرها كيف أن كل الأطفال في قريته تعلموا كيف يكتبون بأقلام مصنوعة من الغاب الجاف.. وحبر من الماء مخلوط بسناج الآنية المطحون.. وأخبرها عن عريف الكُتاب وكيف أن دروسه كانت تتم في الصباح والمساء أحسن بالحماس حول هذا الموضوع وهو مستمتع بالجديد والطريف عندما شاهد (بيل) وقد أغلقت فمها برهة أخبرها كيف أن التلاميذ في (جوفور) قادرون على القراءة جيداً للقرآن الكريم قبل أن يتخرجوا بل أنه تلا عليها بعض من الآيات القرآنية..

كان يرى أنها متحيرة ولكن بدأ ممتعاً له أن هذه هي اللحظة الأولى بالفعل في كل السنوات التي عرفها فيها أظهرت اهتماماً ولو بسيطاً بأفريقياً.

لقد كان ذلك أكثر احتراماً لبلاده مما كان يتوقعه منها قال:

- والآن حان الوقت لنضع رأسينا على الـ (كونجرلارانج) جلس على حافة السرير وبدأ يخلع ملابسه.. عقدت (بيل) حاجبيها ثم ضحكت ووضعت ذراعيها حوله.. وتمددا معاً.. وفي هذه الليلة لم يشعر بتلك السعادة من قبل.

اليأس .. والحب ..

كان (كونتا) لا يزال يحب زيارة عازف الكمان و(البستاني) وتبادل الحكايات معهما من آنٍ لآخر.. وذات ليلة أعلن عازف الكمان:

إنهم خائفون.. ولهذا السبب فالناس البيض مشغولون جداً هذه الأيام في عملية التعداد.. إنهم خائفون لأنهم يحرصون على ألا يصبح الزنوج بينهم أكثر من البيض.

تدخل (البستاني) قائلاً: الناس البيض يخافون من السود الأحرار أكثر منا.

قال عازف الكمان: لقد عرفت أنهم حوالي ستين ألفاً من الزنوج الأحرار في (فرجينيا) وحدها ولا أعرف عدد الزنوج العبيد.. ولكن في هذه الولاية لا يوجد فيها أغلبهم وإنما هناك في الجنوب في تلك الولايات حيث توجد الأراضي الغنية التي تنتج أحسن المحصولات.. وهناك لديهم سفناً تأخذ محاصيلهم إلى الأسواق..

وقاطعه (البستاني)العجوز: نعم ! هذه الأماكن يوجد فيها زنجيان مقابل كل واحدٍ أبيض.. كل ذلك في الجنوب في أريزونا ودلتا ونهر الميسيسيبي حيث ينمو قصب السكر وهناك في الأباما وجنوب (كارولينا) و(جورجيا) حيث يزرعون كل الأرز وشجر صبغة النيلة الزرقاء.. ودعني أخبرك أنه في تلك المزارع الضخمة البعيدة لديهم كل أنواع الزنوج الذين لم يُحسبُ عددهم قط.

قال عازف الكمان: بعض تلك المزارع ضخم جداً لدرجة أنها تقسم إلى مزارع أصغر يقوم بإدارتها المراقبون.. والسادة الذين يملكون تلك المزارع الضخمة معظمهم محامون ورجال سياسة ورجال أعمال يعيشون في المدن ونساؤهم لا يزرعون أي أجزاء من الزارع فيما عدا أنهن ربما يحضرن العربات الفارهة المليئة بأصدقائهن ربما في أعياد الشكر والكريسماس أو رحلات الصيف.

صاح (البستاني) العجوز: في المدينة الغنية يوجد أكثر البيض رحمة ممن يناهضون العبودية.. قاطعة الـ (فيدلر): يوجد دائماً بعض البيض العظام يريدون إلغاء الرق والعبودية.. وقريباً هنا في (فرجينيا)ستكون العبودية ضد القانون قد يكون ذلك بعد عشر سنوات من الآن.. ولكن بالقانون وبدونه نحن ما زلنا عبيداً.. وبعضهم لا يزالون يحضرون المزيد من العبيد بالسفن.

سأل (كونتا): من أين يحضرونهم ؟ لقد أخبرني بعض سائقي الحناطير أن أسيادهم يذهبون في رحلات طويلة حيث لا يوجد وجهٌ أسود واحد.. وهناك العديد من المقاطعات بها مزارع ضخمة لا يوجد بها زنوج على الإطلاق.. ليس سوى تلك المزارع الصخرية الصغيرة التي تباع بخمسين سنتاً للهكتار للبيض الذين يأكلون التراب.. وليس حالهم أحسن من هؤلاء الذين لديهم أرض جيدة وقليل من العبيد.

قال عازف الكمان وهو يلتفت إلى (كونتا): على أية حال سمعت أن هناك عدداً يصل إلى ألف زنجي ملك سيد واحد يزرعون القطن وقصب السكر.. لقد أخبروني أن مجموعة من سفنهم مثل تلك التي أحضرتك مستمرة في إحضار زنوج أفريقيا إلى غبر الأنديز..

حيث يتركونهم هناك لتسمينهم بعد الرحلات الطويلة التي تمرضهم وتجوعهم.. ثم يحضرونهم إلى هنا للحصول على ثمن جيد بالنسبة للزنوج الصالحين للعمل.

اندهش (كونتا) من كون (فيدلر) و(البستاني) يبدوان وكأنهما يعرفان الكثير جداً عن أمور لم يرياها على الإطلاق.. وعن أماكن لم يذهبوا إليها أبداً.. رغم أنه سمع بوضوح كليهما يقول أنه لم يخرج قط خارج مقاطعة (فرجينيا) وشمال (كارولينا).. لقد سافر هو أكثر منهما بكثير ذهاباً وإياباً عبر الولاية في حنطور السيد.. ومع ذلك لا يزالان يعرفان أكثر منه..

قالت (بيل) عندما أثار معها الموضوع:

- أراهن أن نصف الزنوج في (فرجينيا) لم يخرجوا قط من مزارع أسيادهم.. وليست لديهم أي فكرة من أين جاء كلٌ منهم.. فالبيض يرغبون دائماً في الإبقاء على الزنوج جهلاء بسبب أنهم يخشون جداً من ثورتهم أو هروبهم.. إنك تعتقد أنه يمكنك الهرب ثانيةً إذا أتيحت لك الفرصة.. أليس كذلك ؟

ذهل (كونتا) من السؤال ولفترة طويلة لم يرد.. ثم أخيراً قال: حسناً.. لقد مر وقت طويل لم أفكر في الأمر.

قالت بيل: مرات عديدة كنت أفكر أن أكون حرة كما أسمع أحياناً عن هؤلاء الذين يهربون إلى الشمال.. لا أهتم كثيراً بمدى طيبة السيد.. أنا لدى شعور بأننا أنا وأنت مازلنا صغاراً.. واعتقد أنني على استعداد أن أترك هنا هذه الليلة.

عندما جلس (كونتا) في مكانه مندهشاً قالت بسرعة: اعتقد أنني أصبحت كبيرة جداً وأخاف الآن.

بدأ وكأن (بيل) تقرأ الفكرة التي لديه في تلك اللحظة وقد صدمته وهى تتكلم.. نعم لقد أصبح كبيراً جداً على الهرب.. ومنهزماً للغاية وهو خائف.. كل الآلام والرعب في تلك الأيام والليالي من الهروب عادت لذاكرته.. وقدمه المشوهة.. ويداه الداميتان.. ورئتاه المتعبتان.. والأشواك الجارحة.. ونُباح كلاب الصيد.. وطلقات الرصاص.. وصوت لهيب السوط.. ونزول الفأس.. سقط (كونتا) دون أن يدرك في بئرٍ من الإحباط.. إنه يعرف أنها أثارت ذلك دون أن تقصد..

ولكنه يعرف أيضاً أنها زادت الطين بلة.. ولم تعتذر.. كل ما فعلته ببساطة أنها نهضت وذهبت للفراش.

آمله أن يفكر في مدى الأسف الذي يحسه لأنه بخسها حقها وهي والسود الآخر بل.. تمنى لو يجد طريقة ليخبرها كم هو آسف.. وكيف يحس بآلامها.. وكم هو ممتن بأن يحس بحبها.. وكم هي قوية تلك الصلات والروابط بينهما ومدى عمقها في داخل نفسه.. في هدوء نهض وذهب لحجرة النوم ثم خلع ملابسه ودخل الفراش وأخذها بين ذراعيه ومارس معها الحب.. وكل منهما يشعر بنوع من يأس عميق.



مولد (كيزي) ...

لأسابيع عديدة بدأ لـ (كونتا) أن (بيل) كانت تتصرف بطريقة غريبة جداً.. أولاً كانت بالكاد تتكلم.. وإنها كانت تلقي عليه ما شعر بأنها نظرات غريبة ثم تغني بصوت مرتفع عندما يحملق في وجهها.. ثم بدأت تبتسم في غموض في نفسها وهي تهتز في مقعدها.. ثم في ليلة بعد أن أطفأ الشمعة مباشرةً وصعدا للسرير.. أمسكت بيد (كونتا) ووضعتها في حنان على بطنها.. وتحرك شيء ما تحت يده فقفز (كونتا) من الفرح.. وخلال الأيام التالية كان لا يكاد يلاحظ كيف يقود الحنطور.. وكان السيد الذي يجلس بجواره يضطر إلى شد اللجام وإيقاف الحنطور.. لقد كان عقله مليئاً جداً بصور لـ (بيل) وهي تجدف فوق الترعة متجهة إلى حقول الأرز وعلى ظهرها ربطة طفلها.. تماماً مثلما كان مع (أمورو) و(بينتا) عندما حصلاً على أول مولودٍ لهما.. لقد أقسم تماماً مثلما فعلا هما والآخرون أن يفعل ما كانوا يفعلونه في جوفور.. أنه سيعلم هذا الطفل كيف يصبح رجلاً حقيقياً مهما كانت المخاطر والمحن التي قد ينطوي عليها ذلك هنا في أرض (الطوبوب).. لأنه من وظيفة الأب أن يكون بمثابة شجرة عملاقة لطفله الولد.. لأنه بالنسبة للطفلة البنت فإنها تأكل ببساطة إلى أن تكبر بالدرجة الكافية لتتزوج وتذهب بعيداً.. والبنات هن شاغل الأمهات فقط.. على أية حال فإن الطفل الولد هو الذي يحمل للأمام اسم عائلته وسمعتها وعندما يحين الوقت ويصبح والداه عجوزين متهالكين.. فإن الطفل المتربى جيداً هو الذي سيعني بها قبل كل شيء.

لقد عاد حمل (بيل) بذاكرة (كونتا) بعيداً أكثر إلى أفريقيا مما فعل الغيني معه.. وفي إحدى الليالي كان في الحقيقة قد نسى تماماً أن (بيل) كانت في الكابينة وهو يعد في صبر الحصوات في القرعة واكتشف في دهشة أنه لم ير أرض وطنه لمدة اثنين وعشرين سنة ونصف.. ولكن معظم الأمسيات كانت تتكلم بثبات تقريباً بينما هو يجلس يسمع أقل من المعتاد ويحملق في لا شيء.. وقد تخبر (بيل) العمة (سوكي): إنه فقط يعود إلى مثالياته الأفريقية.

وبعد فترة تذهب (بيل) وتغادر الحجرة دون أن يلاحظها وتتجه في هدوء إلى الفراش لتنام وحيدة.

وفي إحدى الليالي بالذات بعد ساعة تقريباً من ذهابها للفراش اندفع (كونتا) بسرعة إلى الكابينة على صوت أنات من غرفة النوم.. هل حان الوقت ؟ دخل مندفعاً ووجدها لا تزال نائمة ولكنها تتقلب للأمام والخلف على حافة الصراخ.. وعدما مال ليلمس خدها جلست منتصبة بسرعة وسط الظلام.. وقد غطاها العرق وثقل تنفسها.. قال وهي تلف ذراعيها حوله:

وجعلها توافقه على ذلك ثم صعد للفراش بجوارها وأخيراً عادت للنوم.

ولكن (كونتا) لم ينم وإنما ظل مستلقياً يفكر لوقت طويل كيف أن مثل تلك الأمور تتم.. أطفال سود يُعطون كهدايا.. أو يوضعون كرهاناتٍ في ألعاب الورق.. ومصارعات الديوك.. لقد أخبره عازف الكمان كيف أنه سمع عن أطفال بيض كانوا ضماناً لديون عند دائنين يطالبون بهم بينما لا يزالون في بطون أمهات.. ومدينين يبيعونهم مقدماً بمبالغ نقدية وفي هذا الزمن في حاضرة مقاطعة (سبورتسلفانيا) تجري مزادات العبيد.. كان يعرف أن الثمن الذي يُدفع في طفل أسود صحيح يزيد سنه على ستة أشهر.. ويفترض أنه سيعيش كان يفوق مائتي دولار.. لم يبعد عن ذهنه أياً من هذه الأحداث عندما أخبرته (بيل) وهي تضحك في مساء ما في الكابينة بعد حوالي ثلاثة أشهر بأنه في اليوم الذي سألت فيه الآنسة الفضولية (آن) لماذا بطن (بيل) أصبحت كبيرة ؟

وجد (كونتا) صعوبة في إبعاد (بيل) من رؤية غضبه فيما أظهرته من اهتمام وعاطفة نحو تلك الطفلة المدللة التي تشبه العروسة اللعبة التي لم تكن بالنسبة له سوى واحدة في الطابور الذي لا ينتهي من السادة والسيدات الصغار الذين رآهم في العديد من البيوت الكبرى.. والآن و(بيل) على وشك أن يكون لها طفل خاص بها فقد آثاره أن يفكر في أول مولد لـ (كونتا) و(بيل) يشترك في لعبة أطفال (الطوبوب) البيض والذين سيكبرون ليصبحوا سادتها..

وأحياناً قد يصبحون آباء أبنائهما.. ولقد كان (كونتا) في أكثر من مزرعة حيث كان بعض أطفال العبيد تقريباً في لون سادتهم.. والحقيقة كانا يبدوان وكأنهما توأم لأن كليهما له نفس الأب الأبيض.. وقبل أن يسمح (كونتا) بحدوث في مثل هذا الأمر لـ (بيل) فقد أقسم أنه سيقتل السيد بدلاً من أن يصبح واحداً من هؤلاء الرجال الذين رآهم يحملون أطفال زوجاتهم المجنسين ويعيشون بطريقة ما.. وهو يعلم أنه لو نطق علناً بأي كلمة شكوى فإنه سيُضرب إن لم يحدث له ما هو أسوأ.. فكر (كونتا) كيف أن البنات المجنسات كن يحضرن في مزادات العبيد في حاضرة المقاطعة ويحصلن على أعلى الأثمان.. لقد رآهن وهن يُعن.. وسمع عدة مرات عن الغرض الذي من أجله يشترين.. وفكر في القصص العديدة عن أولئك الأطفال المجنسين.. وكيف يؤخذون بطريقة غامضة حيث لا يشاهدهم أحد ثانيةً بسبب خوف البيض من أنهم لو كبروا إلى ما يشبه الرجال البيض ويهربون إلى حيث لا يكونون معروفين ويخلطون السواد في دمائهم مع امرأة بيضاء.

وفي كل مرة يفكر (كونتا) في أي نوع من اختلاط الدماء فإنه يشكر الله لأنه يشترك مع (بيل) في معرفة أنه عندما تحل إرادته عز وجل فإن طفلها سيكون أسودًا.

...

وفي وقت مبكر من إحدى ليالى سبتمبر 1790 بدأت آلام الولادة تتملك (بيل) ولكنها لم تكن ترغب بعد في أن تدع (كونتا) يذهب إلى السيد الذي قال أنه سيولدها شخصياً مع الأخت (ماندي) التي ستساعده.

وفي كل مرة تعاودها الآلام كانت تشدد من قبضتها على يد (كونتا) بقوة تعادل قوة الرجال.. وفي أثناء إحدى فترات ما بين المخاض القصيرة استدارت (بيل) بوجهها المغطى بالعرق نحو (كونتا) وقالت:

هذا شيء لابد أن أخبرك به الآن.. لقد سبق لي بالفعل أن حصلت على طفلين من زمن بعيد جداً قبل أن أحضر إلى هنا..

وقبل أن أبلغ سن السادسة عشر.. وقف كونت مذهولاً وهو ينظر إلى (بيل) الحزينة ماذا لو كان قد عرف ذلك.. لا إنه كان سيتزوجها على أية حال.. ولكنه شعر بأنه تعرض للخيانة لأنها لم تقل ذلك من قبل.. أخذت تجبر نفسها على أن تشهق بالكلمات بين كل مخاض ومخاض.. وأخبرته عن الابنتين اللتين بيعتا بعيداً عنها وبدأت تبكي.

لم يكنَّ سوى طفلتين واحدة كانت قد بدأت لتوها تسير جيداً.. والآخرى لم تبلغ عامها الأول.. ولكن دفعة من الآلام داهمتها فأغلقت فمها.. وشددت من قبضتها على يده وعندما ذهبت الآلام أخيراً لم تخفف من قبضتها ونظرت إليه خلال دموعها وقرأت أفكاره وقالت:

- لا شك أنك تسأل .. ولكن يجب أن تعلم أن والدهما لم يكن سيداً ولا مراقباً.. وإنما كان زنجياً فلاحاً في نفس سني.. ولم تكن نعلم شيئاً.

عادت الآلام ثانيةً.. وتقاربت فتراتها كثيراً.. وانغرست أظافرها في راحة يده بينما فتحت فمها واسعاً بصرخة مكتومة.. اندفع (كونتا) من الكابينة إلى كوخ الأخت (ماندي) حيث انهال طرقاً على الباب وهو ينادي عليها بأعلى صوته.. ثم جرى بعد ذلك بأسرع ما يمكنه إلى البيت الكبير.. أخيراً بعد الطرق والنداء حضر السيد (وولر) الذي لم يحتج إلا إلى نظرة واحدة إلى (كونتا) وقال: سأكون هناك في الحال.

عندما سمع (كونتا) تأوهات (بيل) المثيرة للحزن ترتفع إلى صرخات ثاقبة وسط هدوء مجمع الزنوج أبعد عن عقله أي فكرة عما صرحت به (بيل).. وبقدر لهفته على أن يكون بجوارها.. فإنه سعد عندما أمرته الأخت (ماندي) بالخروج حيث قرفص بجوار الباب يحاول أن يتخيل ماذا يجري بالداخل.. أنه لم يعرف قط أي شيء عن الولادة في أفريقيا حيث كان ذلك يعتبر من شؤون المرأة.

خطر على بال (كونتا) أنه منذ زمن بعيد في (جوفور) لابد أن (أمورو) وبينتا قد أصبحا جدين.. وأحزنه أن يعلم أنهما لن يريا أبداً أطفاله فحسب.. وإنما إنهما لن يعرفاً أبداً أن لديه طفلاً الآن.. عندما سمع (كونتا) الصرخات الحادة لصوت آخر قفز واقفاً.. وبعد دقائق خرج السيد ونظر إليه قائلاً: لقد مرت بوقت عصيب.. إنها في الرابعة والثلاثين من عمرها.. ولكنها ستكون بخير في غضون يومين ثم أشار إلى الكوخ وقال :

أمهل (ماندي) فترة قصيرة لتنتهي من التنظيف ثم أدخل هناك لترى طفلتك.. إنها بنت.

بنت.. كان (كونتا) لا يزال يصارع ليتحكم في نفسه عندما ظهرت الأخت (ماندي) عند المدخل تبتسم وتشير إليه بالدخول.. مر وهو يعرج خلال الحجرة الأمامية وأزاح الستارة جانباً في حجرة النوم.. ثم رآهما هناك عندما تحرك في هدوء بجوارها أحدث أحد ألواح الأرضية صريراً وفتحت (بيل) عينيها وهي تبتسم ابتسامة واهنة.. كان سارحاً وهو يمسك بيدها ويضغط عليها.. ولكنه لم يكن يحس بها لأنه لم يستطيع أن يكف عن الحملقة في وجه الطفل الراقد بجوارها لقد كان تقريباً في نفس سواده والملامح (مانديكا) لا تخطئها العين.. ورغم أنها كانت بنتاً ولا شك أن هذه إرادة الله.. وأحس بفخر عميق وهدوء عندما عرف أن دماء آل كونتي الذي جرى في دماء أجيال وأجيال عبر القرون مثل النهر الخالد ستستمر لجيلٍ آخر.. كانت أفكار (كونتا) وهو واقف هناك بجوار السرير كلها تدور حول اختيار الاسم للطفلة.. ورغم أنه يعرف جيداً أنه لا يجب أن يطلب من السيد ثمانية أيام أجازة من العمل ليقضيها في التفكير وتقرير الاسم كما كان يفعل الأب في أفريقيا.. فإنه كان يعلم أن الأمر سيتطلب تفكيراً طويلاً وجاداً لأنه يعرف أن ما يُسمى به الطفل سوف يؤثر على شخصيته عندما يكبر.. ثم خطر على باله بسرعة أنه مهما كان الاسم الذي سيمنحه لها فإنها ستسمى بآخر اسم للسيد.. وكانت تلك الفكرة مثيرة لغضبه لدرجة أن (كونتا) أقسم أمام الله أن تلك البنت ستكبر وهي تعرف اسمها الحقيقي.

فجأة استدار ورحل دون أن يقول كلمة.. وعندما بدأت تباشير الفجر تظهر خارج الكوخ تذكر ما قالته له حول حزن حياتها الكبير عندما ما بيع طفلاها بعيداً عنها.. بحث في عقله عن اسم.. بعض الكلمات أو إحدى الكلمات التي بالـ(مانديكا) تعني رغبة (بيل) الدفينة ألا تعاني مثل تلك الخسارة ثانية.. اسم قد يحمي صاحبته.. أخذ يقلب الكلمة مرة بعد مرة في عقله.. نعم لابد أن يكون هذا هو الاسم تحمس من حظه الحسن في اختيار الاسم في لحظةٍ قصيرة فأسرع عائداً بجوار السياج إلى أن وصل كبينته.

ولكن عندما أخبر (بيل) أنه استعد لإعطاء اسم لهذه الطفلة احتجت بقوة شديدة أكثر مما كان يظن أنها قادرة عليه في مثل حالتها: ما سبب الاستعجال في تسميتها ؟ تسميها ماذا ؟ إننا لن نتحدث عن أي اسم الآن .

كان يعلم مدى عنادها خاصة عندما تسترد صحتها لذلك بدأ القلق والغضب على حد سواء في صوته وهو يبحث عن الكلمات الصحيحة ليشرح أن هناك تقاليد معينة لابد من احترامها وإجراءات معينة لابد من اتباعها في تسمية الطفل.. وأهمها اختيار هذا الاسم بواسطة الأب فقط وبمفرده.. وغير مسموحٍ له بأن يخبر أحداً بالاسم حتى يصرح به إلى الطفل نفسه.. استمر قائلاً أن هذا الإسراع أساسي وإلا فإن طفلتها قد تسمع اسماً قد يقرره السيد لها.

قالت (بيل): نعم فهمت.. تلك التقاليد الأفريقية التي تملأ رأسك ستتسبب في المتاعب.. ولن تكون هناك أي طريقة منها مستخدمة في تسمية الطفلة.

خرج (كونتا) كالعاصفة وهو غاضب من الكوخ وأوشك أن يصطدم بالعمة (سوكي) والأخت (ماندي) وهما في طريقها تحملان ملء أذرعهن بالفوط والآنية المليئة بالمياه المغلية.. قالتا:

- مبروك يا أخ (طوبي) لقد حضرنا لزيارة بيل.

ولكن (كونتا) همهم وهو يمر بها دون أن يرد.. كان أحد عمال الحقول متجهاً ليدق الجرس الصباحي الذي يُعِلمّ الآخرين بالخروج من أكواخهم بدلائهم ليملؤوها بالماء من البئر حتى يغتسلوا قبل الإفطار.

ابتعد (كونتا) في الحال بعيداً عن صف الزنوج متخذاً الطريق الخلفي الذي يقود إلى مخزن الحبوب وهو يرغب في أن يبتعد قدر المستطاع عن هؤلاء السود المكروهين الذين دربهم (الطوبوب) على الاختباء رعباً من أي شيء له صلة بـ (أفريقيا) رغم أنها بلدهم.. وفي صحن مخزن الغلال أطعم (كونتا) وهو غاضب الجياد وسقاها ودعك ظهورها.. وعندما علم أن الوقت الذي يتناول فيه السيد إفطاره اتخذ نفس الطريق البعيد عن صف الزنوج مرة ثانية في العودة إلى باب مطبخ البيت الكبير عندما سأل الأخت (سوكي) من الذي يحل محل (بيل) وعما إذا كان السيد يريد الحنطور.

رفضت أن تتكلم أو حتى تستدير نحوه هزت رأسها نفياً وغادرت الحجرة دون حتى أن تقدم له أي طعام.. عاد وهو يعرج إلى مخزن الغلال.. وتساءل ما الذي قالته (بيل) للعمة (سوكي) والأخت (ماندي) ثم قال أن هذا لا يعينه على الإطلاق..

كان عليه أن يفعل شيئاً لنفسه.. أنه لا يستطيع مجرد التسكع بمفرده حول الإسطبل لمزيد من الساعات.. بدأ في قتل الوقت بعمله المعتاد وهو الاهتمام بالحنطور.. أراد أن يعود إلى الكوخ ليرى الطفلة وحتى (بيل) ولكن الغضب كان يتصاعد في كل مرة يفكر في العار الذي يحس به لأن زوجة أحد رجال (كونتي) ترغب في أن يحمل طفلها اسماً طوبوبياً.. إنها أول خطوة نحو حياة كلها احتقار للذات.. بعدها رأى (كونتا) العمة (سوكي) تأخذ لـ (بيل) إناء به بعض الطعام مما جعله يشعر بالجوع.. وبعد دقائق قليلة ذهب إلى خلف مخزن المحاصيل حيث تم تخزين بعض البطاطس مؤخراً تحت القش لتنضج والتقط أربع ثمرات صغيرة ليأكلها وهو يشعر بالأسف على نفسه.

كان الغسق يهبط قبل أن يقنع نفسه بالذهاب للبيت وعندما فتح الباب الأمامي ودخل لم يسمع أي صوت يتردد من حجرة (بيل) قد تكون نائمة مال ليشعل شمعة فوق المائدة فسمعها تسأل: هل هذا أنت ؟

كان يلاحظ عدم وجود أي خشونة في صوتها.. همهم دون تعليق ورفع الشمعة ثم أزاح ستارة الباب ودخل حجرة النوم.. وفي الضوء الباهت استطاع أن يرى تعبيرات وجهها.. قالت دون أن تضيع وقتاً دخلت في الموضوع مباشرة:

- انظر هنا يا (كونتا) هناك شيء ما أعرفه عن السيد أكثر مما تعرفه أنت إنك ستثير غضبه لدرجة الجنون بهذا الهراء الأفريقي الذي تردده.

إنه سيبيعنا نحن الثلاثة في أقرب لحظة يدرك فيها مقاصدك.. كبت (كونتا) غضبه بداخله.. وتلعثم بحثاً عن كلمات يمكن أن تجعل (بيل) تفهم مدى إصراره التام على أنه مهما واجه من مخاطر فإن ابنته لن تحمل أي اسم طوبوبي.. والأهم أنه لابد أن تعدى دائماً باسمها الأصلي.

وبقدر معارضة (بيل) العميقة إلا أنها وافقت وهي تشعر بأسف شديد وعدم رضا.

أي نوع من العمل ستفعله ؟

كانت تتكلم في مكر عندما قال ببساطة أنه سيأخذ الطفلة للخارج لفترة.. أصرت على أن ينتظر حتى أن تستيقظ.. وأرضعتها حتى لا تشعر بالجوع وحتى لا تصرخ.. ووافقها (كونتا) في الحال.. اعتقدت (بيل) أن الطفلة لن تستيقظ قبل ساعتين على الأقل.. ووقتها لن يكون أحد من صف الزنوج بالخارج.. ترى ما الذي سيفعله ذلك المهرج (كونتا).. ورغم أن (بيل) لم تظهر ذلك فإنها كانت لا تزال غاضبة لأن (كونتا) حرمها من مساعدته في اختيار الاسم للابنة التي أخرجتها لتوها إلى العالم بعد كل هذا العذاب.. وخشيت أن تكتشف الاسم الأفريقي الممنوع الذي انتهى إليه (كونتا).. ولكنها كانت واثقة بأنها تستطيع التعامل فيما بعد مع اسم الطفلة بطريقتها الخاصة.

كان الوقت منتصف الليل تقريباً عندما خرج (كونتا) من كوخه يحمل مولودته الأولى وهي ملفوفة في بطانية.. سار إلى أن شعر أنهما بعيدان بما يكفي عن صف العبيد الذين قد يشاهدون ما سيحدث.

عندئذ وتحت القمر والنجوم رفع (كونتا) الطفلة عالياً وهو يدير الربطة بين يديه حتى تمس أذن الطفلة اليمنى شفتيه.. ثم بعد ذلك ببطء ووضوح همس بلغة الـ(مانديكا) ثلاث مرات في الأذن الصغيرة: اسمك (كيزي).. اسمك (كيزي).. اسمك (كيزي).

لقد تم الأمر كما كان يتم مع أسلاف (كونتا).. وكما تم معه هو شخصياً.. وكما كان سيتم لطفلته لو وُلِدَتْ على أرض الأسلاف.. لقد كانت أول شخص يعرف اسمها.. وهو ما جعل (كونتا) يشعر بأن أفريقيا تتدفق في عروقه.. ثم تفيض منه إلى عروق طفلته التي هي من لحمه ودمه.. رفع ركناً صغيراً من البطانية.. وعرى وجه الطفلة الصغيرة نحو السماء.. وتحدث إليها بصوت عال لها بلغة الـ(ماندیکا): حافظي على الشيء الوحيد الذي هو أعظم من نفسك.. الله.

وعندما عاد (كونتا) مع الطفلة إلى الكوخ اندفعت (بيل) بأخذها بعيداً عنه.. كان وجهها مشدوداً من الخوف والكراهية وهي تفتح البطانية وتفحصها.. ثم أعادت الطفلة إلى السرير.. وعادت ثانيةً إلى الحجرة الأمامية.. وجلست على المقعد.. وعقدت يديها بعناية في حجرها ثم سألته: ماذا سميتها ؟

- (كيزي).

- (كيزي).. لم يسمع أحد قط عن اسم مثل هذا !

شرح (كونتا) أن (كيزي) بلغة الـ(ماندیکا) تعني أنها لن يحدث معها كما حدث لابنتي (بيل) من قبل.. ولن تباع أبداً.

رفضت أن ترضى بذلك.. وأصرت على أن المتاعب قد بدأت.. ولكن عندما أحست بثورة غضب (كونتا) تتصاعد ثانية فكرت أنه من الأفضل والأحكم أن تهدئ الأمور..

في صباح اليوم التالي بذلت (بيل) أقصى جهدها لإخفاء عصبيتها عندما جاء السيد لإلقاء نظرة عليها بل أنها حتى أجبرت نفسها على الضحك بطريقة طبيعية وهي تقول له عن اسم الطفلة.. علق فقط أنه اسم غريب.. ولكنه لم يقل شيئاً ضده.. وأطلقت (بيل) زفرة ارتياح طويلة عندما خرج خارج الكوخ.. وعندما عاد السيد إلى بيته الكبير وقبل أن يغادر من أجل الزيارات اليومية للمرضى و(كونتا) يقود العربة فتح السيد (وولر) الإنجيل الأسود الكبير الذي يحفظه في صندوق في غرفة المكتب.. وفتحه على الصفحة المخصصة لتسجيلات المزرعة.. وغمس قلمه الحبر في المحبرة.. وكتب بحروف سوداء جميلة : (كيزي وولر) ولدت في 12 سبتمبر 1790.



إنها مثل دمية صغيرة

صاحت الآنسة (آن) بصوتها الحاد وهي تقفز لأعلى ولأسفل وتصفق بيديها في سرور عندما رأت (كيزي) لأول مرة بعد ثلاثة أيام في مطبخ بيل: إنها مثل دمية صغيرة سوداء إلا يمكن أن تكوني ملكي ؟

ابتسمت (بيل) ابتسامة واسعة في سرور وقالت: إنها ملكي أنا ووالدها يا عزيزتي.. ولكن عندما تكبر بما يكفي يمكنك أن تلعبي معها كلما رغبت.

وهكذا كلما ذهب (كونتا) إلى المطبخ من حين لآخر لمعرفة ما إذا كانوا في حاجة إلى الحنطور أو ليزور (بيل) كانت يد ابنة أخت السيد (وولر) الصغيرة ذات الشعر الكتانى والتي تبلغ الآن من العمر أربعة أعوام.. وقد انحنت على حافة سلة (كيزي) وهي تداعبها: أنت أجمل ما يمكن.. أننا سننال الكثير من المرح عندما تكتسبين بعض الحجم.. هل تسمعينني ؟ ما عليك إلا أن تسرعي وتكبري الآن !

لم يقل (كونتا) أي شيء عن ذلك أبداً.. ولكن كان يعييه أن يفكر كيف تتصرف هذه الطفلة (الطوبوب) وكأن (كيزي) جاءت إلى العالم لتستخدمها كلعبة لها مثل بعض الدمي غير العادية.. أن (بيل) لم تحترم حتى رجولته وأبوته بالدرجة الكافية لتسأله عن مشاعره نحو ابنته وهي تلعب مع ابنة الرجل الذي ابتاعه.

وكان يبدو له أحياناً أن (بيل) أقل اهتماماً بمشاعره من اهتمامها بمشاعر سيدها أنه لا يستطيع أن يحصي عدد الأمسيات التي قضتها تتحدث عن أن تلك الآنسة الصغيرة (آن) قد جاءت لتحل محل ابنة السيد (وولر) الحقيقية.. والتي ماتت هي وأمها أثناء ولادتها.. قالت وهي تنشج في إحدى الليالي:

- أوه يا إلهي ! أنني حتى لا أحب أن أتذكر ذلك ثانيةً.. إن المسكينة السيدة الجميلة (بريسيلا) كانت مثل عصفور.. اذكرها وهى تسير هنا كل يوم تغني وتبتسم لي وهي لا تفعل شيئاً سوى انتظار مولد طفلها.. ثم في ذلك الصباح بمجرد أن صرخت.. ماتت!! .. نعم ماتت هي والطفل الصغير أيضاً.. وأن السيد لم يبتسم من وقتها إلى أن حضرت الآنسة (آن) إلى هنا لم يشعر (كونتا) بأي شفقة على كون السيد وحيداً

ولكن بدأ له أنه لو تزوج السيد مرة ثانية فإن ذلك سيجعله دائماً لا يقضي كل هذا الوقت مع ابنة أخيه أثناء زياراتها للمزرعة وبالتالي لا تلعب مع (كيزي) قالت له بيل. منذ أن راقبت كيف يحتضن السيد تلك الفتاة الصغيرة بقوة ويغني لها حتى تنام ويضعها في سريرها.. إنه يتصرف وكأنه لا يريد أبداً أن تغادر عيناه الطفلة طوال الوقت الموجودة بجواره وأعرف ذلك لأنه والدها في أعماق قلبه.

وقالت له (بيل) أن ذلك قد يدفع السيد بأن يكون أكثر حناناً نحوهما.. لأن (آن) تعقد مع (كيزي) صداقة تدفعها إلى الحضور أكثر بكثير إلى منزل السيد.. ووالدها يسرهما ذلك لأنهما يتصوران أن ذلك يقرب الفتاة أكثر من مال عمها.. وكانت تعرف أن السيد (جون) يستدين من السيد (وولر) من حين لآخر .

الأشهر تمر والآنسة (آن) تحضر لزيارة عمها السيد (وولر) مرتين في الأسبوع.. وفي كل مرة تأتي تقضي ساعات تلعب مع (كيزي).. ورغم أن (كونتا) كان عاجزاً عن أن يفعل أي شيء ليمنع ذلك فقد حاول على الأقل أن يتجنب رؤية الطفلتين معاً.. ولكنهما كانتا في كل مكان يذهب إليه.. ولم يستطيع أن يهرب من مشهد ابنته الصغيرة وهى تُدلل وتُقبل بواسطة ابنة طوبوب.. كان الأمر يملؤه امتعاضاً.. وذكره بمثل أفريقي قديم عرفه عن جدود ه يقول (في النهاية لابد أن يأكل القط الفأر الذي يلاعبه).. وفي الصيف بدأت (كيزي) تحبو وكان (كونتا) وبيل يقضيان الأمسيات في كوخهما يراقبانها في سعادة وهي تحبو على الأرض وحفاضها خلفها.. ولكن (آن) كانت تظهر.. فيبتعدان هما.. والفتاة الصغيرة تدور حول (كيزي) وهي تصيح: تعالي يا (كيزي) تعالي.. وتحبو (كيزي) تتبعها بأقصى ما في إمكانها وهي تقرقر في سرور من اللعب والاهتمام بها.

حاولت (بيل) أن تقنع (كونتا) أنه لا ضرر من تلك العلاقة بين الطفلتين.. عليه فقط أن يتقبلها.. ومعظم الأحيان كانت تخبره أن البنات البيض يكبرن ويعشن طوال حياتهن وهن مغرمات ومخلصات حقاً لزميلات طفولتهن السوداوات.



أثرياء هاييتي

كان كل من (كونتا) و (فيدلر) يعودان من حين لآخر للمزرعة بأخبار عن جزيرة عبر المياه الكبرى تدعي (هاييتي) يقال أن بها حوالي ستة وثلاثين ألفاً معظمهم من الفرنسيين البيض.. لديهم حوالي نصف مليون أسود أحضروا إلى هناك على سفن من أفريقيا ليخدموا كعبيد في المزارع الضخمة التي تزرع قصب السكر والكاكاو.

قالت (بيل) في إحدى الليالي أنها سمعت السيد (وولر) يقول لضيوفه على العشاء أنه نقل عن طبقة أثرياء (هاييتي) أنهم يعيشون كالملوك..

قال (فيدلر) في سخرية: ما معنى هذا ؟ من سمع على الإطلاق عن مثل هذا الشيء ؟

طلبت منه (بيل) أن يصمت.. واستمرت قائلةً أن السيد بعد ذلك أخبر ضيوفه المرعوبين أنه خلال أجيال عديدة في (هاييتي) كان العديد من الولادات التي تمت بسبب العلاقات بين رجل أبيض وامرأة سوداء وصل عددهم تقرياً الآن إلى ثمانية وعشرين ألف خلاسي.. والمجنسين يسمون عادة بالملونين.. والذين منح معظمهم الحرية من ملاكهم الفرنسيين وآبائهم البيض.

وقالت (بيل) أنه وفقاً لما قاله أحد الضيوف فإن هؤلاء الناس الملونين قد يرشون المسؤولين للحصول على مستندات تثبت أن جدودهم الأوائل كانوا هنوداً حمراً أو أسبان أو أي شيء عدا أفريقي.. وإن عدداً لا يستهان به من هؤلاء الملونين قد استطاعوا أن يتملكوا على الأقل خُمس أراضي (هاييتي) وعبيدها.. ثم يقضون إجازاتهم في فرنسا.. ويرسلون أبنائهم إلى مدارس هناك تماماً مثل البيض الأغنياء بل حتى أنهم يحتقرون ويزجرون البيض الفقراء.. كان مستمعو (بيل) مسرورين ليسمعوا أن السيد كان يشعر بالفضيحة وقاطع (فيدلر) بيل قائلاً:

- إنك ستضحكين ملء شدقيك عندما تسمعين ما سمعته عن بعض هؤلاء الأغنياء وهم يتحدثون في إحدى الحفلات التي كنت أعزف فيها منذ فترة.. لقد كان هؤلاء البيض الفقراء هناك في (هاييتي) يكرهون هؤلاء الخلاسيين والمجنسين لدرجة أنهم وقعوا عرائض يطالبون فيها بوضع حد للأمر ..إلى أن اعتمدت فرنسا أخيراً قانوناً يمنع الملونين من السير والتجول ليلاً.. ومن الجلوس بجوار البيض في الكنائس.. بل وحتى ارتداء نفس القماش في ملابسهم.

وقال (كونتا) أنه سمع أن السود هناك يُضربون حتى الموت.. وربما يُدفنون أحياءاً كعقابٍ لهم إن أخطأوا.. كما أنه سمع عن ذلك العبد الأسود الذي سمرت يداه بالمسامير في الجدار إلى أن اضطر إلى أن يأكل أذنيه المقطوعتين.. وامرأة طوبوب أمرت بقطع ألسنة كل عبيدها.. وأخرى منعت الطعام عن طفل أسود إلى أن مات جوعاً.

في أعقاب تلك الروايات المرعبة علم (كونتا) خلال إحدى رحلاته للمدينة أثناء صيف 1791 أن عبيد (هاييتي) قد ثاروا في تمرد عنيف دموي.. واجتاح الآلاف منهم البيض وهم يذبحونهم.. وجلدوهم وقطعوا رؤوسهم واغتصبو نساءهم.. وكانوا يحرقون أي مزرعة بمبانيها إلى أن أصبحت شمال (هاييتي) حطاماً يعلو منه الدخان.. وكان البيض مرعوبين يصارعون من أجل البقاء ويضربون بالسياط ويسلخون ويعذبون ويقتلون أي أسود يمسكون به.

قال (كونتا) أنه لم يسبق له أن رأى طوبوب (سبورتسلفانيا) بهذه الدرجة من الغضب والخوف.

وقال (فيدلر): يبدو أنهم أكثر خوفاً مما كانوا عليه في آخر تمرد هنا في (فرجينيا).. لقد كان هذا ربما بعد سنتين أو ثلاث من وصولك إلى هنا.. ووضع (هاييتي) لاشك يعبث بعقول البيض لأنهم يعملون جيداً أنهم أمام مجموعة من الزنوج لن يحتاجوا شيئاً سوى شرارة واحدة ليهبوا ثائرين.. وما أن يحدث ذلك وينتشر حتى تتحول المقاطعة هنا إلى (هاييتي) أخرى.

وسرعان ما عاين (كونتا) خوف البيض على أنفسهم أينما قاد الحنطور في المدن أو بالقرب من تقاطعات الطرق حيث يتجمعون في شراذم صغيرة ثائرة.. ووجوههم حمراء.. ويزمجرون غضباً عندما يمر هو أو أي أسود بجوارهم.. وحتى السيد الذي كان نادراً ما يتحدث مع (كونتا) إلا من أجل أن يخبره إلى أن يريد أن يذهب.. كان يجعل تلك الكلمات القليلة أكثر برودة واختصاراً.

وخلال أسبوع كانت فرق الميليشيات العسكرية تجوب الطرق وتسأل أى أسودٍ عن الوجهة التي يقصدها.. وتراجع تصاريح سفره.. ويضربون ويلقون فى السجون أي شخص تشتبه فيه.

وألغى سادة المنطقة حفلات السمر للحصاد القادم والذي كان يقيمه السود سنوياً.. بجانب إلغاء كل اجتماعاتهم.. أو على الأقل كان لابد من مراقبتها بواسطة مراقب أو أي شخص أبيض.

وخلال الليالي التالية وبحثاً عن آخر الأخبار كانت (بيل) تتهجى العديد من الصحف التي كانت يتخلص منها السيد.. وكان الأمر يتطلب منها ساعة على الأقل لقراءة خبرٍ واحد إلى أن قالت لكونتا ذات يوم: هناك أحد إعلانات الحقوق قد صدر حسناً لقد تم تعديله أو شيء من هذا القبيل.. كما أن تمرد عبيد (هاييتي) يمكن أن ينتشر بسهولة بين السود.. ثم طوت الصحيفة ووضعتها بعيداً وقالت: يبدو لي أنه ليس هناك ما يمكنهم أن يفعلوه ضدنا أكثر مما يفعلونه ما لم يقيدونا جميعاً بالسلاسل.

وبدأ موسم الحصاد وكان البيض يتبادلون التهاني على محصول القطن الغزير.. والأسعار القياسية التي يبيعون بها.. وكان عازف الكمان قد أُرسل ليعزف إلى العديد من البيوت الكبرى في الحفلات وحفلات الرقص لدرجة أنه خلال النهار عند عودته للبيت لم يكن يفعل شيئاً سوى النوم.. وذات مرةٍ أخبر (كونتا) قائلاً: يبدو أن هؤلاء السادة جنوا أموالاً طائلة من القطن لدرجة أنهم يرقصون حتى الموت.

ومع ذلك لم يمر وقت طويل قبل أن يحدث للبيض شيء غير سعيد مرة ثانية.. وفي زياراته لحاضرة المقاطعة مع السيد بدأ (كونتا) يسمع أحاديث غاضبة عن زيادة أعداد الجمعيات المضادة للرق يكونها كما يسمونهم خونة الجنس الأبيض في الشمال وأيضاً في الجنوب.

قالت (بيل) أنها قرأت نفس الشيء في جرائد السيد التي أرجعت تزايد تلك الجمعيات إلى (هاييتي) وتمرد السود فيها.. وصاحت فيه قائلةً: طالما حاولت أن أخبرك أن هناك بعض البيض الصالحين.. وكم سمعت كثيرين منهم كانوا ضد تلك السفن التي تحضر الزنوج الأفارقة إلى هنا.

خذ مثلاً الـ(كويكرز) أنهم ضد العبودية لدرجة الثورة.. وهنا في (فرجينيا) الكثيرين منهم هم سادة يمتلكون كمية كبيرة من الزنوج.. ولكن الوعاظ بدؤوا يقولون أن الزنوج بشر.. ولهم الحق في أن يكونوا أحراراً مثل أي شخص آخر.. وتذكر أن بعض السادة الـ(كويكرز) بدأوا يطلقون سراح عبيدهم.. بل حتى ومساعدتهم في الوصول إلى الشمال.. والآن فإن الـ(كويكرز) الذين لا يدعون زنوجهم أحراراً فإن الكنيسة تتبرأ منهم.. ويأتي بعدهم الإصلاحيون المنهجيون في الطيبة.. وأتذكر أنني قرأت منذ أحد عشر عاماً أن الإصلاحيين المنهجيين قد دعوا إلى اجتماع في (بلتيمور) اعترفوا فيه بأن العبودية ضد قوانين الرب.. وأن أي شخص يسمى نفسه مسيحياً لابد أن يفعل ذلك بنفسه لذلك فإن معظم الإصلاحيين المنهجيين و الـ(كويكرز) يطلبون من الكنيسة أن تضع قوانين لتحرير الزنوج واليسوعيون البرسبتاريون من البيض ومنهم سيدنا وكل (آل وولر) يبدو أنهم بالنسبة لي لديهم نصف قلب لأن معظمهم قلق على حريتهم الخاصة في العبادة كما يحبون وكيف يمكنهم أن يحافظوا على ضميرهم ولديهم عبيد.

كان (كونتا) مؤمناً فقط بأنه لم يسمع قط أي طوبوب يبدي تعاطفه مع السود.. وخلال هذا الربيع والصيف عام 1792 تشارك في الحنطور مع البعض من أكبر وأغنى السادة من سياسيين ومحامين وتجار في الولاية.. ودائماً كانت أحاديثهم تدور حول المشاكل التي يخلقها لهم السود.

ومهما نجح العبيد في حياتهم وأعمالهم فإن البيض دائماً يقولون أن أصول العبيد الأفريقية وحياتهم في الغابات مع الحيوانات كل ذلك يمنحهم ميراثاً من الغباء والكسل والعادات القذرة.. وأن واجب المسيحي أمام الرب المبارك في السماء هو تعليم تلك المخلوقات بعضاً من الإحساس بالنظام والأخلاق واحترام العمل.. ولكن أيضاً بالقوانين والعقاب كلما احتاج الأمر لذلك.. رغم أن التشجيع والمكافئات بالتأكيد لابد أن تمنح لهؤلاء الذين يثبتون أنهم يستحقونها.. وأي تساهلٍ من جانب البيض سيجلب لهم دون شك نوعاً من الخيانة والخديعة والمكر.. ولغو وحماقات جمعيات محاربة الرق وما شابهها خاصة تلك التي في الشمال الذين لم يتملكوا أبداً سود لأنفسهم أو حاولوا أن يديروا مزرعة معهم.. ومثل هؤلاء الناس من المتوقع أن يدركوا كم يمكن أن يتعرض صبر المرء وقلبه وروحه إلى التوتر لدرجة الانفجار من المحن والأعباء الناتجة من تملك العبيد.

كان (كونتا) ينصت إلى هذا الهراء المثير للغضب لفترة طويلة لدرجة أنه أصبح مثل الأسطوانة المشروخة بالنسبة له ونادراً ما كان يعيره أي انتباه بعد ذلك.

ولكن أحياناً بينما هو يقود الحنطور لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من التساؤل لماذا لم يقم أهل بلاده ببساطة بقتل كل (طوبوب) يضع قدميه على أرض أفريقيا..؟ لم يكن قط بقادر على أن يعطي نفسه إجابة يمكن أن يقبلها.



وفاة البستاني العجوز

جاءت العمة (سوكي) وهي تهرول بأقصى سرعتها إلى عازف الكمان لتخبره أنها مرعوبة لدرجة الموت خوفاً على (البستاني)العجوز.. عندما لم يحضر إلى كوخها على الغداء أحست بالقلق وذهبت إلى كوخه وطرقت على بابه وصاحت بأعلى صوتها.. ولكنها لم تتلقَ أي رد.. فأحست بالقلق.. وفكرت أنه من الأفضل أن تأتي لتتعرف إن كان (فيدلر) قد رآه في أي مكان.. ولكنه لم يره وقال لـ (كونتا) في تلك الليلة: أعرف أن هناك شيئاً ما أو غيره حتى قبل أن أذهب إلى هناك.

وقال (كونتا) أن لديه شعور خفي مثل ذلك الشعور الذي لديه هو نفسه..

فقال عازف الكمان: أنه فقط مستلق هناك في السرير وهو في منتهى الهدوء.. وابتسامة صغيرة على فمه.. يبدو أنه نائم ولكن العمة (سوكي).. قالت أنه قد استيقظ هناك في السماء.. وقال أنه سيذهب لينقل الخبر السيئ إلى العاملين في الحقول.. وأن رئيس العمل في الحقل (كاتو) عاد معه ليساعد في تغسيل الجسد.. ووضعه على لوح تبريد.. ثم علقوا قبعة القش القديمة للبستاني على خارج باب كوخه في علامة تقليدية على الحداد قبل أن يعود العاملون في الحقول ويتجمعوا أمام الكوخ ليقدموا له آخر احتراماتهم.. ثم ذهب (كاتو) وعامل حقل آخر لحفر القبر.

عاد (كونتا) إلى كوخه وهو يحس بحزن مضاعف ليس بسبب أن (البستاني) مات فحسب وإنما أيضاً لأنه لم يكن يزوره كثيراً منذ ولادة (كيزي).. والآن فات الأوان.. وصل ليجد (بيل) في دموعها وهو ما كان يتوقعه ولكنه ذهل من أسباب بكائها.. قالت:

- لقد كان بالنسبة لي دائماً بمثابة أبي الذي لم أره أبداً.. ولست أدري لماذا لم أخبره أبداً بذلك؟

تناولت هي و(كونتا) عشائها في صمت قبل أن يأخذا (كيزي) معهما وهي مربوطة على ظهرها في ليل الخريف البارد لينضما إلى الآخرين في الجلوس بجانب الميت إلى وقت متأخر من الليل.

جلس (كونتا) بعيداً بعض الشيء عن الآخرين.. ومعه (كيزي) التي لا تكف عن الحركة في حجره أثناء الساعة الأولى من الصلاة والأغاني الحانية.. ثم بدأت بعض الأحاديث المتقطعة من جانب الأخت (ماندي) وهي تتساءل عن أي شخص موجود يتذكر أن كان الرجل العجوز قد ذكر أن كان يعرف أي شخص حي من أقاربه.. فقال (فيدلر) أنه منذ زمن بعيد يتذكر أنه لم يعرف أبداً أمه.. وهذا كل ما سمعه منه من عائلته.. ثم تليت صلاة أخرى وغنوا أغنية أخرى ثم قالت العمة (سوكي): يبدو أنه كان دائماً ملكاً لأحد عائلة (وولر).. لقد سمعته يتكلم عن السيد وهو يركب على كتفيه وهو ولد صغير..

قالت (بيل): أن السيد آسف حقاً هو الآخر.. أنه يقول لي أن أخبركم كلكم أنه يمنحكم أجازة نصف يوم غداً.

قالت (آدا) وهي أم عامل في الحقل اسمه (نوح) كان يجلس ساهماً بجوارها: على الأقل أنه سيدفن الآن.. هناك العديد من السادة فقط يسمحون لك بوقت لتلقي نظرة على زنجي ميت قبل أن يدفن في التراب وهو لا يزال دافئاً.

قالت (بيل) : حسناً.. كل هؤلاء الوولر هم ناس طيبون لذلك ليس على أحد منا أن يقلق منهم.

ثم بدأ آخرون يتحدثون حول بعض مُلاك المزارع الغنية الذين يقيمون جنازات واسعة جداً من أجل الطباخات اللاتي عملن وقتاً طويلاً.. أو الأمهات العجائز اللاتي أرضعنهم وساعدن في تربية أبناء وصغار العائلة.. بل ويدفنونهم في مدافن البيض مع شواهد بيضاء مكتوب عليها اسم الميت.

فكر (كونتا) في مرارة.. يا لها من مكافأة تدفئ القلب لكفاح وعمل شاق مدى الحياة ! تذكر (البستاني) وهو يقول له أنه جاء إلى بيت السيد الكبير ليعمل كسايس شاب قوي الساعد في الإسطبل.. حيث ظل كذلك لسنوات عدة إلى أن رفسه حصان رفسة سيئة.. لقد ظل في وظيفته ولكن بالتدريج صار عاجزاً شيئاً فشيئاً.. وأخيراً أخبره السيد (وولر) أن عليه يقضي بقية سنوات حياته يعمل ما يشعر فقط أنه قادر على عمله.. فعمل مع (كونتا) كمساعد له كان يرعى الخضروات في الحديقة إلى أن أصبح ضعيفاً جداً حتى على عمل كهذا.. ومن وقتها قضى معظم وقته يجدل أوراق الذرة لعمل قبعات الخوص.. إلى أن أصيب بالتهاب الشرايين.. وعجزت أصابعه.

وتذكر (كونتا) رجلاً عجوزاً آخر رآه من حين لأخر في منزل رجل غني في المقاطعة.. ورغم أن سيده سمح له من زمن بعيد أن يتقاعد.. فإنه كان يطلب كل صباح من بعض الشباب الزنوج أن يحملوه إلى الحديقة حيث يستلقى على جانبه ويقوم بنزع الحشائش الضارة بيديه المعوقتين من بين الزهور الخاصة بسيدة المحبوب.. وكان (كونتا) يعلم أن هؤلاء هم المحظوظون فهناك العديد من العجائز كانوا يُضربون عندما يُصبحون غير قادرين على إنجاز حصتهم من العمل.. ثم يباعون أخيراً بعيداً عن المزرعة مقابل عشرين أو ثلاثين دولاراً لبعض البيض الذين لا قيمة لهم من الفلاحين الذين يتطلعون إلى الارتقاء إلى طبقة المزارعين ويدفعون إلى العمل الشاق حتى الموت.

خرج (كونتا) فجأة من أفكاره تلك عندما نهض الجميع في الظلام الدامس لدفن البستاني بملابسه القليلة لأنه ليس هناك أحد سيرتدي ملابس الميت.. وإلا مات بعده مباشرةً كما قالت له (بيل).. ثم ربط (كاتو) جسد الميت على لوح خشبي عريض.. وبعد فترة قصيرة خرج السيد (وولر) من البيت الكبير وهو يحمل إنجيله الأسود الكبير.. وسار خلفه الزنوج وهم يسيرون بخطوات متقطعة وأمامهم الجسد المسجي على ظهر عربة يجرها بغل كانوا يغنون في رقة أغنية لم يسبق لـ (كونتا) أن سمعها من قبل تقول:

في الصباح عدما أذهب هناك يقول لي يسوع أنه يوم عظيم.. يوم عظيم.. وفي الصباح عدما تشرق الشمس يقول لي يسوع أنه يوم عظيم يوم عظيم !

وظلوا يغنون طوال الطريق إلى مدافن الزنوج حيث لاحظ أن كل شخص كان يتجنب في خوف شديد ما يسمونه الأرواح أو العفاريت.. وهو ما شعر أنها تحمل ما يشتبه الأرواح الشريرة في بلده.. لقد كان أهل بلدته أيضاً يتجنبون أرض المدافن ولكن ذلك اهتماماً منهم بألا تطأ أقدامهم وتزعج الموتى وليس خوفاً من الأرواح الشريرة.

عندما توقف السيد (وولر) على أحد جوانب القبر.. وعبيده على الجانب الآخر.. بدأت العمة (سوكي) تصلى.. ثم غنت عاملة حقل شابة اسمها (بيرل) أغنية حزينة.

عودي للبيت بسرعة أيتها الروح الغريبة.. لقد سمعت عما حدث لي اليوم.. هيا بسرعة يا روحي الغريبة لقد غفرت خطاياي وأطلقت سراح روحي.

ثم بعد ذلك تكلم السيد (وولر) ورأسه منكساً: يا (يوسيفاس).. لقد كنت خادماً مخلصاً وطيباً وأدعو الله أن يريح ويبارك روحك.. آمين.

ورغم أسف (كونتا) فإنه دهش عندما سمع أن الرجل العجوز كان اسمه (يوسيفاس) وتساءل عن اسم (البستاني) الأصلي.. وعن جدود ه الأفارقة.. وإلى أي قبيلةٍ كان ينتمي.. وتساءل إن كان (البستاني) نفسه يعرف.. والأرجح أنه مات كما عاش دون حتى أن يعرف من هو..

وخلال عينين غائمتين راقب (كونتا) والآخرين (كاتو) ومساعده وهم ينزلون الرجل العجوز إلى التراب الذي قضى سنوات طويلة يرعاه.. وعدما بدأت المجارف المملوءة بالتراب يلقي بها فوق وجهه وصدره شهق (كونتا) واغرورقت عيناه.. ومنع تساقط الدموع عدما بدأت المرأة التي بجواره تنتحب.. والرجال كذلك.

وعندما خرجوا في صمت من المدافن فكر (كونتا) كيف أن العائلة والأصدقاء المقربين للشخص الذي يموت في (جوفور) ينتحبون.. ويتقلبون في الرماد داخل أكواخهم بينما القرويون الآخرون يرقصون بالخارج.. لأن معظم الأفارقة كانوا يؤمنون بأنه ليس هناك حزن بدون فرح.. ولا موت بدون حياة.. في تلك الدورة التي شرحها له والده ووالدته عندما ماتت جدته المحبوبة (بيسا) سقط قلبه في قدميه عندما قرر أن ذلك سيصبح شيئاً من أشياء عديدة عليه في يوم ما أن يخبر بها (كيزي) عن أرض الوطن التي تراها.



كيزي .. وآن

ظل موت (البستاني)يثقل ضمير (كونتا) وعقله لدرجة أن (بيل) في النهاية قالت له ذات مساء بعد أن نامت (كيزي): اعلم كيف كنت تشعر نحو هذا البستاني.. لكن ماذا عساك تفعل إذا استمريت تأسو على نفسك هكذا.

قال (كونتا) بخشونة: سأكون بخير.

كان على (بيل) أن تعض لسانها عندما ناداها السيد ليعلن لها أن الآنسة (آن) قد أقنعت والديها أن يسمحا لها بقضاء عطلة الأسبوع بكاملها مع عمها.. وأنها ستأتي مساء اليوم التالي وقال السيد:

- تأكدي من إعداد غرفة الضيوف ولم لا تخبزين كعكة أو أي شيء من أجل يوم الأحد ؟ لقد أخبرتني ابنة أخي أن ابنتك الصغيرة ستحتفل بعيد ميلادها.. وأنها تود أن تقيم حفلاً هي وابنتك فقط في غرفتها.. وقد طلبت أيضاً إن كان باستطاعتها أن تقضي الليلة هناك في غرفتها في البيت وقلت لها أن الأمر سيكون طيباً.. لذلك عليك أن تتأكدى من إعداد الحشية عند قوائم السرير.

وعندما نقلت (بيل) الأخبار إلى (كونتا) وأضافت أن الكعكة التي ستعدها لابد أن من تقديمها في البيت الكبير بدلاً من كوخها.. وأن (كيزي) ستكون مشغولة وهي تحتفل مع الآنسة (آن) وأنهما لن يستطيعا أن يكون لهما حفلة خاصة بهما.. كان (كونتا) غاضباً للغاية لدرجة أنه لم يكن قادراً على الكلام أو حتى النظر إليها.. اندفع للخارج كالعاصفة وذهب.

عموماً مرت الأمور بسلام..

وفي الليلة التالية تناولا معاً طعام العشاء.. وبعد ساعة من العشاء بدأ يتساءل إن كانت ستدخل في الموضوع وهما يستعدان للدخول في الفراش.. توقفت عن الكلام فترة طويلة وأخذت نفساً عميقاً ووضعت يدها على ذراعه وعرف أن الأمر سيتم:

(كونتا) لست أدري كيف أخبرك بهذا لذلك سأقولها بسرعة.. لقد أخبرني السيد أنه وَعَدَ الآنسة (آن) أن يترك (كيزي) عند بيت السيد (جون) لتقضي يوماً معهم عندما يذهب إلى هناك في جولته غداً.

لقد كان هذا أكثر مما يحتمل.. لقد كان الأمر مثيراً للغضب جداً لدرجة أنه كان عليه أن يجلس ويرقى (كيزي) وهي تدور نحوه وتحتضنه الآن وقد أحسن تربيتها.. الآن كالكلب يريدون تسليمها إلى صاحبه الجديد.. أغلق (كونتا) عينيه وهو يسارع حتى يسيطر على غضبه.. ثم قفز واقفاً من مقعده.. ونزع ذراعه بقسوة من يد (بيل) واندفع خارج الباب.. بينما استلقت هي بلا حول ولا قوة وقد جفاها النوم في سريرها.. وبينما جلس هو في الإسطبل تحت طاقم الفرس.. وكلاهما يبكي.. وعندما وقف بالحنطور أمام بيت السيد (جو) في صباح اليوم التالي جرت الآنسة (كيزي) لمقابلتهم حتى قبل أن تتاح لـ (كونتا) الفرصة ليرفع (كيزي) وينزلها إلى الأرض.. أنها حتى لم تقل له وداعاً وأحس بالمرارة وهو يسمعهم والطفلتان تقرقران من الضحك وهو يدير العربة في المدخل مرة ثانية نحو الطريق الرئيسي وانتظر.

في وقتٍ متأخر من بعد الظهر كان (كونتا) منتظراً لساعات طويلة حتى يخرج السيد من أحد البيوت الكبيرة على بعد عشرين ميلاً من الطريق.. عندما جاء عبد وأخبره أن السيد (وولر) قد يبقى طوال الليل مع السيدة المريضة.. وطلبت من (كونتا) أن يعود في اليوم التالي.

أطاع (كونتا) وهو عكر المزاج.. وعندما وصل وجد أن الآنسة (آن) قد توسلت لأمها المريضة أن تدع (كيزي) تقضي معها الليلة.. وقد شعر بالخلاص عندما جاء رد الأم على ابنتها أن ضجيجها سبب لها الصداع.. وسرعان ما كان (كونتا) عائداً للبيت مرة ثانية و(كيزي) بجواره على مقعد القيادة.. وبينما هما في الطريق خطر على بال (كونتا) أن هذه أول مرة يكون فيها بمفرده معها منذ الليلة التي أخبرها فيها عن أسمها.. لقد شعر بإثارة غريبة ومتصاعدة وهو يقود الحنطور عند الغسق..

ولكنه شعر أيضاً بأنه أحمق.. وبقدر ما أعطى خططه من أفكار ومسئوليات نحو أول مولود له.. وجد نفسه غير واثق كيف يتصرف.. فجأة رفع (كيزي) ووضعها في حجره.. شعر بغرابة ذراعيها وساقيها.. وهي تتململ وتحملق فيه في فضول.. ثم بمنتهى الجدية وضع اللجام داخل كفيها الصغيرتين الدافئتين.. وفي الحال بدت له ضحكات (كيزي) السعيدة.. أحسن وأعذب صوت سمعه في حياته.. قال لها أخيراً وهي تنظر إليه:

- أنت أيتها الفتاة الصغيرة الجميلة.. أنت تشبهين تماماً أخي الصغير (ماندي).

ظلت فقط تنظر إليه قال لها وهو يشير إلى نفسه :

- أ(بي) !

نظرت إلى أصبعه وطرق على صدره وكرر (أبي) ولكنها حولت انتباهها ثانيةً إلى الجياد.. هزت اللجام وقرقرت من جديد تقلد بذلك شيئاً ما سبق أن سمعته بقوله.. ابتسمت له.. ولكنه بدأ مجروحاً جداً بعد أن خبت سعادته وقطعا بقية الطريق في صمت.

حدث ذلك بعد أسابيع فيما بعد بينما كانا عائدين إلى البيت من زيارة ثانية للآنسة (آن) عندما مالت (كيزي) للأمام نحو (كونتا) ولصقت أصبعها الصغير على صدره وفي عينيها بريق وقالت: (أبي).

اهتز طرباً وقالت بالـ(ماندينكا) وهو يأخذ أصبعها ويوجه نحوها: وأنت اسمك (كيزي).

بدأت تبتسم وقد تعرفت على اسمها وأشار لنفسه: (كونتاكينتي).

ولكن (كيزي) بدت حائرة وأشارت إليه.. (أبي) وفي هذه المرة ابتسما معاً.

وبحلول منتصف الصيف كان (كونتا) سعيداً من مدى سرعة (كيزي) في تعلم الكلمات التي كان يعلمها إياها ومدى استمتاعها بركوبهما معاً.. بدأ يفكر أنه لا يزال هناك أمل بالنسبة لها.. ثم في يوم ما حدث أن كررت كلمة أو كلمتين من لغة الـ(ماندينكا) عندما كانت بمفردها مع (بيل) التي أرسلت (كيزي) إلى بيت العمة (سوكي) من أجل العشاء وكانت تنتظر (كونتا) عندما يعود للبيت في تلك الليلة صاحت:

- أليس عندك أي عقلٍ على الإطلاق يا رجل ؟ ألا تعرف جيداً أنني نبهتك ألا تضع هذه الطفلة وتضعنا جميعاً في متاعب بهذا الهراء ؟ من الأفضل أن تضع في رأسك أنها ليست أفريقية.

لم يسبق لـ (كونتا) أن كان أكثر قرباً من هذه اللحظة على ضرب (بيل) أنها لم ترتكب جريمةً لا تغتفر بأن رفعت صوتها على زوجها فحسب.. وإنما الأسوأ أنها تبرأت من دمها.. ومن جذورها.. ومع ذلك كان هناك شيء ما يحذره من التنفيس عن الحقد الذي يحسه أو أي صدام مع (بيل) قد يؤدي بطريقة ما إلى إنهاء تلك الرحلات التي يقوم بها مع (كيزي) وقتها لم يجرؤ على الكلام.. وحتى لو حدث ذلك فإنه لن يستطيع أبداً أن يفهم ماذا تظن أن باستطاعتها أن تفعله.

وبينما هو ينتظر السيد لينتهي من زيارة منزلية في المزرعة المجاورة في اليوم التالي أخبره أحد السائقين لخنطور آخر خبراً سمعه حول (توسان) وهو عبد سابق نظم جيشاً ضخماً من المتمردين السود في (هاييتي) وأنه يقودهم بنجاح ليس ضد الفرنسيين فحسب.. وإنما أيضاً ضد الأسبان والإنجليز.. وقال السائق أن (توسان) تعلم عن الحرب من قراءة الكتب عن المحاربين القدامي المشهورين مثل :الإسكندر الأكبر.. ويوليس قيصر.. وأن تلك الكتب قد أعطيت له من سيده السابق الذي ساعده فيما بعد في الهروب من (هاييتي) إلى الولايات المتحدة.. وخلال الأشهر القليلة الماضية أصبح (توسان) بالنسبة لـ (كونتا) بطلاً يأتي ترتيبه الثاني بعد البطل الأسطوري (المانديكي) المحارب (سونديانا) وكان من الصعب على (كونتا) أن ينتظر حتى يعود للبيت.. ويمرر تلك القصة المثيرة للآخرين.. ولكنه نسى أن يخبرهم فقد قابلته (بيل) عند الإسطبل لتخبره أن (كيزي) قد أصيبت بالحُمى ونوبات من الصداع يسميها السيد التهاب (الغدة النكفية) وأن ذلك عادي بالنسبة للصغار.. وعندما عرف فيما بعد أن الآنسة (آن) قد أمرت أن تبقى بعيدة إلى أن تشفى الصغيرة (كيزي) على الأقل لمدة أسبوعين كان ذلك سعيداً.. ولكن (كيزي) ظلت مريضة فقط أياماً قلائل عندما ظهر روزيي سائق السيد (جون) بدمية مرتدية كامل ملابسها من الآنسة (آن) التى سرعان ما وقعت (كيزي) في حبها.. جلست في السرير وهي تحتضن الدمية بقوة وهي تهزها للأمام وتعلن وعيناها نصف مغلقتين.

إنها جميلة جداً.

وغادر (كونتا) الحجرة دون أن يقول كلمة.. واندفع كالعاصفة عبر الفناء إلى مخزن الغلال.. كانت الدمية التي صنعها لا تزال في المخزن.. مسحها بكمه وحملها عائداً إلى الكوخ.. وألقى بها إلى (كيزي) ضحكت مسرورة عندما رأتها.. بل حتى (بيل) أُعجِبَت بها.. ولكن (كونتا) استطاع أن يفهم بعد دقائق قليلة أن (كيزي) أعجبت بدمية (الطوبوب) أكثر.. ولأول مرة في حياته كان غاضباً من ابنته.

لم يسعده أن يلاحظ كيف عوضت الطفلتان تلك الأسابيع التي انفصلتا فيها عن بعضهما.. ورغم أن (كونتا) أحياناً كان يطلب منه أن يأخذ (كيزي) لتلعب في بيت الآنسة (آن) لم يعد خافياً أن الآنسة (آن) كانت تفضل أن تزور منزل عمها حيث أن أمها كانت تسرع بالشكوى من الصداع بسبب الضجة التي تسببانها بل أحياناً ما تلجأ إلى التظاهر بالإغماء كسلاح أخير حسب أقوال طاهيتها (أوميجا) ولكنها قالت أن السيدة سرعان ما تواجه بمباراة من لسان ابنتها الحاد.. وأخبر السائق روزبي (بيل) في يوم من الأيام أن سيده وسيدته قد صاحا في وجه البنتين.. إنكما تتصرفان مثل الزنوج تماماً وردت الآنسة (آن) في الحال: حسناً أن الزنوج لديهم متعة ومرح أكثر منا.. لأنه ليس لديهم أي شيء يخافون عليه.

وفي بعد ظهر أحد الأيام بينما (كونتا) بالخارج مع السيد أخذت (كيزي) الآنسة (آن) إلى كوخها لتريها قرعة أبيها وحصوات سنه التي اكتشفتها وأصبحت مغرمة بها.. وحدث أن دخلت (بيل) في الوقت الذي كانت فيه (كيزي) تدس يدها في رقبة القرعة وتأخذ حصاة فأخذت تصبح: ابعدي عن صخور أبيك.. أنها تخبره كم عمره.

وفي اليوم التالي وصل روزبي ومعه خطاب للسيد من أخيه وبعد خمس دقائق نادي السيد (وولر) على (بيل) وهو في غرفة المكتبة وقد أفزعت حدة لهجته (بيل) قبل أن تغادر المطبخ وسألها:

- لقد أخبرته الآنسة (آن) والديها عن شيء ما رأته في الكوخ.. ما هذا الطوطم الأفريقي الخاص بالأحجار الموضوعة في قرعة عن كل شهر قمري ؟ أخذ عقلها يجري وتلعثمت قائلة :

- أحجار ؟ أحجار يا سيدي ؟

قال السيد: أنت تعرفين جيداً عن أي شيء أتحدث.

قهقهت بضحكة مغتصبة وقالت :

- أوه ! أعرف عن أي شيء تتحدث.. لا يا سيدي هذه ليست تعويذة.. كل ما هناك أن كل الأفريقيين لا يعرفون الحساب.. وفي كل شهر قمري يلقي حجراً صغيرا في هذه القرعة.. وكل هذه الحجارة تدله على سنه.. ظل السيد (وولر) متجهماً وأشار لـ (بيل) أن تعود إلى المطبخ.. وبعد عشر دقائق اندفعت إلى الكوخ وانتزعت (كيزي) من حجر (كونتا) وأخذت تضربها بكفها على مقعدتها: لا تحضري أبداً تلك الفتاة إلى هنا.. سأقصف رقبتك هل تسمعيني ؟

وبعد أن أرسلت (كيزي) الباكية وهي تجري إلى السرير استطاعت (بيل) أن تكتم غضبها حتى تشرح لـ (كونتا) قائلةً:

- أعرف أن هذه القرعة والأحجار لا ضرر منها.. ولكنها ستثبت لك ما سبق أن قلته حول تلك الأشياء الأفريقية وما تفعله مع (الطوبوب).. والسيد لا ينساها..

شعر (كونتا) بغضب رهيب كيف يظل موضع شك..

كره (كونتا) هذه الخصوصية العميقة بين البنتين أكثر حتى ما شعر به عندما أتت إلى مهد (كيزي) وكان عليه أن يعترف أنه كان مسروراً بعض الشيء لأن (كيزي) كانت تتمتع بطفولتها جيداً.. وقد انتهى إلى موافقة (بيل) رأيها أن كون (كيزي) حتى كحيوان أليف للطوبوب أفضل من أن تقضي حياتها في الحقول.. ولكنه كان واثقاً بأنه من حين لآخر كان يستطيع أن يحس حتى باسترخاء (بيل)

عندما كانت تراقب البنتين يلعبان معاً متقاربتين.. وقد يتجرأ ويظن أنه على الأقل في بعض تلك الأوقات لابد أن (بيل) أحست بنفس الأشياء التي فعلها.

وفي بعض الليالي في كوخها وهو يشاهد تدليلها لـ (كيزي) وهي في حجرها وترتيلها بعض أغاني يسوع.. كان ينتابه شعور وهي تنظر إلى الوجه الناعس أنها هي أيضاً خائفة عليها.. وإنها أرادت أن تحذر ابنتها بأن تكون حريصة تماماً مع صاحبتها (الطوبوب) مهما كانت عواطفها متبادلة.. لقد كانت (كيزي) صغيرة جداً لا تفهم مثل تلك الأمور.. ولكن (بيل) كانت تعلم أيضاً جيداً ما هو الحزن العميق الذي قد يأت من الثقة بـ(الطوبوب).. أليسوا هم الذين باعوها بعيداً عن والديها ؟ ألم يبيعوا أيضاً ابنتيها الطفلتين بعيداً عنها ؟ ليست هناك أي طريقة حتى لتخمين ما يمكن أن يكون مقدراً أمام (كيزي) وأيضاً بالنسبة لـه.. ولـ (بيل) ولكنه كان يعرف أمراً واحداً وهو: أن الله سينزل انتقامه الرهيب على أي طوبوب يمكن أن يؤذي صغيرتهما (كيزي).

وبمعدل كل أحدين في الشهر كان (كونتا) يصحب السيد للكنيسة الواقعة في دار اجتماعات (آل وولر) على بعد حوالي خمسة أميال من المزرعة.. وقد أخبره (فيدلر) أنه ليس (آل وولر) فحسب وإنما أيضاً العديد من العائلات الأخرى البيضاء الهامة قد بنوا قاعات اجتماعاتهم حول المقاطعة.. وقد دهش (كونتا) عندما اكتشف أن المراسم الكُنسِية كان يحضرها أيضاً بعض العائلات البيضاء المجاورة الأقل ثراءً.. وحتى البعض من أفراد الـ(كويكرز) والتي عادةً ما كانت العربة الحنطور تمر بهم وهم يأتون ويذهبون على أقدامهم.. ويحملون أحذيتهم من أربطتها على أكتافهم.. ولم يكن السيد ولا الناس من الطبقة الراقية يقف ليعرض على هؤلاء الـ(كويكرز) توصيلهم وكان (كونتا) سعيداً بذلك.

وعندما تنتهي الصلاة والتراتيل يخرج الجميع للخارج.. ويصافحون الواعظ.. وقد لاحظ (كونتا) باستمتاع كيف أن كلاً من الـ(كويكرز) وهؤلاء من طبقة السيد يتسمون ويلمسون أطراف قبعاتهم كلٌ للآخر.. ويتصرفون وكأنهم أيضاً بيضاً.. ولكن عندما ينتشرون ويفردون غذاءهم تحت الشجر كان مبنى الكنيسة دائماً هو الفاصل بين الطبقتين حيث تجلس كل طبقة في الفناء المواجه للطبقة الآخرى.

وبينما هو منتظر يشاهد هذه الطقوس الرزينة مع بقية السائقين في أحد الأيام قال روزيي هامساً بما يكفي فقط أن يسمعه الآخر ون:

- يبدو لي أن الناس البيض لا يستمتعون بطعامهم أكثر من عبادتهم..

وفكر (كونتا) في نفسه أنه خلال كل السنوات التي عرف فيها (بيل) استطاعت أن تدعي بأن لديها أعمالاً شاقة عاجلة في كل مرة يحين فيها أحد اجتماعاتها اليسوعية في صف الزنوج.. ولكن طوال الطريق من مخزن الغلال كان يسمع ما يكفي من صخب السود وصياحهم.. أُعجِبَ بأسلوب عبادة (الطوبوب) الأكثر هدوءاً.

بعد أسبوع فقط ذكرته (بيل) باجتماع المخيم الكبير الذي نوت أن تذهب إليه في آخر يوليو.. كان هذا المخيم أكبر أحداث الصيف في كل عام منذ أن أتى إلى المزرعة.. وفي كل سنة من قبل كان يجد عذراً حتى لا يذهب إليه.. وقد دهش لأن لديها برود أعصاب لتطلب منه ذلك.. كان يعرف القليل عما يجري في تلك المجتمعات الضخمة في حدود ما يتعلق بدين (بيل) الوثني في نظره.. والذي لا يريد أي جزء منه.. ولكن مرة أخرى أصرت (بيل) وقالت بسخرية:

- أعرف كم تكره دائماً ذهابي إلى هناك.. ولكني فقط أردت أن أخبرك مقدماً بوقت كاف.. حتى تضع ذلك ضمن خططك.

لم يستطع (كونتا) أن يفكر في رد ذكي.. ولم يرغب في أن يبدأ جدالاً على أية حالة رغم أنه لا ينوي الذهاب: سأفكر في الأمر.

وبحلول اليوم السابق على الاجتماع عندما توقف بالحنطور أمام البيت الأبيض بعد رحلة لحاضرة المقاطعة قال السيد:

لن أحتاج العربة غداً يا (طوبي) ولكني أعطيت (بيل) والنساء الأُخريات تصريحاً للذهاب إلى اجتماع المخيم غداً وقلت أنه لا بأس لو أنك صحبتهم في العربة.

كان (كونتا) يحترق من الغضب ومن المؤكد أن (بيل) هي التي تآمرت عليه هكذا.. ربط الجوادين في مربطهما خلف مخزن الغلال دون أن يعني بحل طقميهما واتجه مباشرة إلى الكوخ.. نظرت إليه (بيل) نظرةً واحدةً وهي تقف في المدخل وقالت:

- لم أجد أي طريقة أخرى لاصطحاب (كيزي) إلى هناك لتعميدها.

- ماذا ؟

- أعنى تعميدها في الكنيسة.

- أي كنيسة ؟ هل تعنين دين ربك ؟

- لا تدعنا نبدأ ذلك مرةً ثانيةً.. ليس هناك ما يمكنك أن تفعله معي.. إن الآنسة (آن) طلبت من أهلها أن تأخذ (كيزي) إلى قاعة الاجتماع يوم الأحد وأن تجلس في الخلف بينما يصلون في الأمام ولكنها لا تستطيع الذهاب إلى أي كنيسة بيضاء ما لم تُعمد.

- إذن لن نذهب إلى الكنيسة.

- أنت لا زالت لا تفهم أيها الأفريقي.. هل تفهم ؟ أنه شرف أن يُطلب الذهاب إلى الكنيسة.. أنت تقول (لا) وبعد ذلك في الحال سنرسل لجمع القطن.

...

عندما بدأت الرحلة في صباح اليوم التالي جلس (كونتا) صلباً هو يحملق أمامه مباشرة من مقعد القيادة رافضاً أن ينظر للخلف حتى لابنته الضاحكة المُثارة وهي جالسة في حجر أمها بين النساء الآخريات.. ولفترة كن يثرثرن فيما بينهن ثم بدأن يغنين : نحن نتسلق سلم يعقوب.. أوه.. نحن نتسلق سلم يعقوب يا جنود الصليب.. كان (كونتا) ممتعضاً للغاية لدرجة أنه بدأ ضرب اللجام على عارضة البغال مما جعل الحنطور يندفع بقوة ملقياً بالركاب للأمام.. ولكن يبدو أنه لم يفعل ذلك بالقوة الكافية لتصدمهم بسقف الحنطور.. بل أنه كان يسمع (كيزي) بصوتها الحاد تقرأ وسط بقية النساء.. فكر في مرارة أن (الطوبوب) ليس في حاجة لسرقة طفلته إذا كانت أمها نفسها تنوي أن تتنازل لهم عنها.

كان هناك عربات مزدحمة مثل عربتهم آتية من المزارع الأخرى عبر الطُرق الجانبية وهم يتبادلون التحيات على طول الطرق.. وزاد شعور (كونتا) بالمهانة أكثر فأكثر.. عندما وصلوا أرض المخيم المقام في نجيل ممتد مزدهر كان (كونتا) في حالة لا تسمح له بمشاهدة باقي الحناطير التي كانت هناك أو تلك التي كانت تصل من كل الاتجاهات.. وعندما توقفت كل عربة بخروج الركاب في ضجة وهم يهللون ويلوحون ويصرخون وسرعان ما ينضمون إلى (بيل) والآخرين الذين كانوا أنه لم يسبق له أن شاهد كل هؤلاء السود على أرض (الطوبوب) وبدأ ينتبه.. بينما جمعت النساء سلال طعامهم في مجموعة من الشجيرات بينما بدأ الرجال يتوافدون على هضبة صغيرة في وسط المروج.. بينما ربط (كونتا) البغال بوتد دقه في الأرض.. ثم جلس على الأرض خلف العربة ولكن بطريقة يستطيع بها أن يرى كل ما يجري من أمور.. وبعد فترة كان كل الرجال قد اتخذوا جلستهم متقاربين على الأرض بجوار قمة الهضبة فيما عدا أربعة ظهر أنهم أكبر الرجال سناً فقد ظلوا واقين.. وعندئذ وكأن هناك إشارة متفقاً عليها صاح الرجل الذي بدا أنه أكبر هم سناً وكان شديد السواد وشديد النحافة وله لحية بيضاء أزاح رأسه للخلف وصاح بصوت عال نحو المكان الذي فيه النساء: أقول يا أطفال المسيح !

لم يكن (كونتا) قادراً على تصديق عينيه.. أو أذنيه وهو يراقب النساء يدُرنَّ بحدة ويصحن في صوت واحد: نعم أيها الرب !

ثم أتين مهرولاتٍ محتشداتٍ ليجلسن خلف الرجال المجتمعين.. كان (كونتا) مندهشاً لأن ذلك ذكره كثيراً بالطريقة التي يجلس بها الناس في (جوفور) في اجتماع مجلس الحكماء مرة كل شهر قمري صاح العجوز ثانية : أقول أننا جميعاً أطفال المسيح !

- نعم أيها الرب !

تقدم الرجال الثلاثة العجائز إلى الأمام من الأكبر سناً واحداً بعد الآخر يصيح كل منهم :

- سيأتي وقت سنصبح جميعاً عبيداً لله.

صاح كل الجالسين على الأرض: نعم أيها الرب !

- اجعل نفسك مستعداً لأن يسوع مستعد.

- نعم أيها الرب !

- هل تعرفون ماذا قال لي الأب المقدس الآن ؟ أنه يقول ليس هناك أحدٌ غريب.

ارتفع صياح جماعي.. حتى أن (كونتا) شعر ببعض الإثارة.. وأخيراً هدأ الجمهور بالدرجة التي سمحت له بسماع ما يقوله الرجل الأشيب.

- يا أطفال الرب ! هناك الأرض الموعودة.. هناك كل فرد يؤمن بالله سيذهب إلى هناك.. وهؤلاء الذين يؤمنون فإنهم سيعيشون إلى الأبد.

وسرعان ما كان الرجل العجوز يُقسمُ بغزارة وذراعاه يتطوحان في الهواء.. وجسده ينتفض من تراتيله.. وصوته يرن بالانفعال :

- إنه يقول لنا في الإنجيل أن الحمل والأسد سينامان معاً.. ولن يكون هناك سادة وعبيد بعد ذلك.. وإنما كلنا سنصبح أطفال الرب.

ثم قفزت إحدى النساء وأخذت تنتفض.. وهى تقول:

- أوه يا يسوع.. أوه يا يسوع.. أوه يا يسوع..

دفع ذلك بعض النساء الأخريات للالتفاف حولها.. وخلال دقائق كان العديد من النساء يصحن ويدرن حول أنفسن.. وصاحت واحدة منهن: أنا طفل الرب ! ثم تسقط على الأرض وكأنما تلقت ضربة على رأسها.. وظلت في مكانها ترجف.. انضمت إليها أخريات وبدأن يتأوهن ويتقلبن على العشب.. وامرأة أخرى كانت تتقافز في اهتياج ثم تخشبت وهي تصرخ بأعلى صوتها: أيها الرب.. أنت يسوع !

وعندما بدأ الصراخ والتلوي يخف تذكر (كونتا) أن هذه الطريقة هى نفسها التي كان ينتهي بها الرقص في (جوفور).. ثم بدأن ينهض واحدةً بعد الأخرى من فوق الأرض ويصحن نحو الأُخريات: إن ظهري يؤلمني جداً إلى أن تحدثت مع الرب.

قال لي: انهضي وقفي ولم أعد شعر بالألم.. لم أقابل ربي يسوع إلى أن أنقذ روحي.. والآن أنا أضع حبي له فوق أي شخص آخر.

وكان هناك أخريات ثم قاد أحد الرجال العجائز الصلاة وعدما انتهى صاح الجميع.. آمين.. وبدأ يغني بصوت عال بروح رهيبة:

أنا لدى حذاء وأنت لديك حذاء وكل أطفال الرب لديهم أحذية وعندما أذهب إلى السماء سأضع حذائي وسأسير فوق كل سماء الرب الذي سيساعدني وكل شخص سيقول عن مساعدة الرب هناك.. ساعدني !

ساعدني ! أنني سأسير فوق سماء الرب.

وبينما يغنون الأغنية كانوا قد نهضوا واقعين من فوق الأرض واحداً بعد الآخر وبدؤوا يسيرون ببطء شديد يتبعون الرجل الأشيب الواعظ إلى أسفل الهضبة وعبر المروج.. وعندما انتهت الأغنية كانوا قد وصلوا إلى ضفاف بركة على الجانب الآخر حيث استدار الواعظ يواجههم وعلى جانبيه العجائز الثلاثة الآخرون.

ورفع ذراعيه لأعلى وقال :

- والآن أيها الإخوة والأخوات حان الوقت للخاطئين الذين لم يكفروا عن ذنوبهم أن يغسلوا خطاياهم في نهر الأردن.

صاحت النساء الواقفات على الضفة: " أوه.. نعم ! ".

لقد حان الوقت لإطفاء نار جهنم في المياه المقدسة في الأرض الموعودة.

كل هؤلاء المستعدين للغطس من أجل الروح القدس ويرتفعون ثانية مع الرب عليهم أن يظلوا واقفين.. والبقية منكم الذين لم يعموا أو ليسوا مستعدين ليسوع عليهم أن يجلسوا.

بينما (كونتا) يشاهد في دهشة.. جلس الجميع عدا أحد عشر أو أثنى عشر واحداً.. ظلوا واقفين وبينما اصطف الآخرون على حافة الماء سار الواعظ.. وأقوى الثلاثة العجائز مباشرة إلى البركة وهم يقفون ويستديرون.. بينما غطسوا حتى مفاصلهم.. ثم وجه الواعظ الحديث إلى الفتاة المراهقة التي كانت أول من في الصف وقال: هل أنت مستعدة يا طفلتي ؟

وعندما أومأت بنعم قال: هيا تقدمي !

أمسك العجوزان بذراعيها وقاداها إلى البركة وهي تتخبط وتقابل الآخرين في وسطها.. ثم وضع يده اليمنى على جبين الفتاة.. بينما أكبر العجائز قبض على كتفيها بكلتا يديه من الخلف.. وشدد العجوزان الآخران من قبضتيهما على ذراعيها ثم قال الواعظ :

- أيها الرب دع هذه الطفلة تغتسل.. وتتنظف.. ثم دفعها للخلف.. بينما سحبها الرجل الموجود خلفها من كتفيها.. ثم دفعها لأسفل إلى أن أصبحت تحت الماء.. عندما ارتفعت فقاعات الهواء إلى السطح وبدأت ساقاها تضربان الماء وتنثرانه أداروا أنظارهم نحو السماء وظلوا ضاغطين بقوة.. وسرعان ما بدأت تركل في وحشية وتقوس جسدها بعنف وكل ما كانوا يفعلونه هو إبقاؤها تحت الماء صاح الواعظ.. وعلا صوته فوق الفوضى العارمة.. ثم سحبها لأعلى فوق الماء وهي تشهق محاولة التنفس وتنفث الماء من فمها وتصارع في جنون وهم شبه حاملين لها عائدين للشاطئ وإلى ذراعي أمها المنتظرة.. ثم تحولوا نحو الثاني في الصف وهو ولد في بداية العشرينات والذي وقف يحملق فيهم وهو مرعوب وعاجز عن الحركة.. لقد جروه تقريباً .. ثم التالي كان رجلاً في منتصف العمر.. ثم فتاه صغيرة في الثانية عشرة.. ثم امرأة عجوز تستطيع بالكاد أن تسير.. وقد اقتيدوا واحداً بعد الآخر إلى البركة وتعرضوا لنفس العذاب الذي لا يصدق.

لماذا فعلوا ذلك ؟ أي نوع من الآلهة القساة يطلب مثل هذا العذاب لهؤلاء المؤمنين به ؟

كيف يمكن أن توصل شخصاً إلى مرحلة الغرق تقريباً حتى تغسل شروره ؟

كان عقل (كونتا) مزدحماً بالأسئلة ولا يستطيع الإجابة عن أي منها.. إلى أن سحب آخر فرد من الماء وهو يرفس.. فكر أن الأمر لابد قد انتهى.. ولكن الواعظ وأمسك وجهه بكمه المبلل ووقف في البركة وتحدث ثانيةً:

- والآن هل هناك واحد من بينكم يود أن يقدس ابنه ويكرسه لـ يسوع في هذا اليوم المقدس ؟

نهضت أربع نساء كانت أولهن (بيل) وهي ممسكة بـ (كيزي) من يدها.. قفز (كونتا) بجوار العربة من المؤكد أنهم لن يفعلوا.. ولكن وقتها رأى (بيل) تشق طريقها إلى شاطئ البِركة.. وبدأت تسير ببطء وهي غير واثقة في البداية ثم أسرع فأسرع نحو الجمهور على حافة الماء.

وعندما أشار الواعظ لـ (بيل) مالت لأسفل لتلتقط (كيزي) بين ذراعيها وتهرول بقوة نحو الماء.. لأول مرة من خمسة وعشرين عاماً منذ أن قُطِعَتْ قدم كونت بدأ يجري ولكنه عندما وصل إلى البركة وقدمه تؤلمه كانت (بيل) واقفة وسط البركة بجوار الواعظ.. لهث حتى يسترد أنفاسه.. وفتح فمه لينادي عندما بدأ الواعظ يتحدث:

- أيها الأحباء لقد اجتمعنا هنا للترحيب بشاة أخرى تنضم إلى القطيع ! ما اسم الطفلة أيتها الأخت ؟

- (كيزي) أيها المحترم.

بدأ هو يضع يده اليسرى تحت رأس (كيزي) ويغلق عينها: أيها الرب.

صاح (كونتا) بصوت رهيب: (لا) !

استدارت رأس (بيل) بسرعة وعيناها تخترقان عينيه.. وقف الواعظ ينظر بينه وبينها مراتٍ.. ثم بدأت عينا (كيزي) تطرفان وهمست (بيل): اصمتي يا طفلة !

وأحس (كونتا) بنظرات العداء حوله.. وسكن كل شيء قطعت (بيل) الصمت.:

- الأمر على ما يرام أيها المبجل.. هذا زوجي الأفريقي.. أنه لا يفهم وسأشرح له فيما بعد.. هيا استمر.

كان (كونتا) مذهولاً جداً لدرجة أنه لم يستطيع الكلام ورأى الواعظ يهز كتفيه بلا اكتراث ويستدير نحو (كيزي) ويغلق عينيها ثم بدأ ثانية.

- أيها الرب بإيمانك المقدس بارك هذه الطفلة.. ما هو اسمها مرة ثانية يا أخت ؟

- (كيزي).

- بارك هذه الطفلة (كيزي) وخذها معك إلى تلك الأرض الموعودة.

بعد ذلك غمس الواعظ يده اليمنى في الماء.. ونثر بضعة قطرات على وجه (كيزي) وصاح آمين.

استدارت (بيل) حاملةً (كيزي) إلى الشاطئ.. وخرجت من الماء.. ووقفت تتساقط منها المياه أمام (كونتا) الذى شعر بالحماقة والعار.. فنظر لأسفل إلى قدميها الملوثتين بالطين.. ثم رفع عينيه ليتقابلا مع عينيها المبللتين بالدموع.. ووضعت (كيزي) بين ذراعيه قائلاً :

- لا بأس إنها فقط مبتلة.

أخذت يده الخشنة تدلك وجه (كيزي) قالت بيل:

- كل هذا الجري لابد أنك جائع.. أنا واثقة بذلك دعنا نذهب لنأكل.. لقد أحضرت دجاجاً محمراً.. وبيضاً.. وفطيرةً حلوة بالكاسترد لن تشبع منها.

قال (كونتا): تبدو جيدة.

أخذت (بيل) بذراعه وسارا ببطء عائدين عبر المروج إلى حيث توجد سلة الرحلات الخاصة بهما على العشب في ظل شجرة جوز.



الصداقة والعبودية

قالت (بيل) لـ (كيزي) في إحدى الليالي في الكوخ :

إنك ستبلغين سن السابعة من العمر.. والشباب من عمال الحقول في سنك يخرجون الآن ليعملوا مثل (نوح) لذلك ستتعلمين كيف يكون لك بعض الفائدة في البيت الكبير.

كانت (بيل) تعلم كيف يشعر والدها نحو هذه الأمور فنظرت (كيزي) نحو (كونتا) وهي غير متأكدة فقال: هل سمعت ما قالته أمك ؟

كان غير مقتنع ولكن (بيل) سبق أن ناقشته في الأمر وكان مضطراً للموافقة على أنه من الأفضل لـ (كيزي) أن تبدأ في أداء بعض العمل الظاهر أمام السيد (وولر) بدلاً من الاستمرار كرفيقة لعب للآنسة (آن) كان في نفسه يحب أكثر فكرة أن تجعل ابنته من نفسها ذات فائدة كما في (جوفور) حيث كانت الأمهات يبدأن في تعليم بناتهن في سن (كيزي) المهارات التي تمكن الآباء فيما بعد من طلب ثمن جيد لهن كعرائس من الزوج المنتظر.. كان ذلك هو الشعور بالكرامة والميراث العريق الذي كان لا يزال مصراً على غرسه فيها.

فكر أنه من الأفضل الآن أن يعلم ابنته المزيد عن مولدها الأصلي دون خوف أن تكتشف (بيل) ذلك.

وأثناء سيره على طريق (سبورتسلفانيا) المُترب كان يقول لها أسماء الأشياء بالـ(ماندينكا) التي يمران بها عبر الطريق.. أشار إلى شجرة وقال (بيرو) ثم إلى الطريق وقال (سيلو) وعندما مرا ببقرةٍ ترعى قال (نينسيموزد) وفوق كوبري صغير قال (سيلو) وفي مرة أصابهما مطر مفاجئ فصاح (سانجيو) وهو يشير إلى المطر.. وعندما عادت الشمس للظهور أشار إليها وقال (تيلو) وكانت (كيزي) تراقب فمه بانتباه وهو يقول كل كلمة..

ثم تقلد ما تراه بشفتيها وتكرره إلى أن يتفق النطق.. وسرعان ما بدأت تشير بنفسها إلى الأشياء وتسأله عن أسمائها بالـ(ماندكا) وفي أحد الأيام كانت في ظل البيت الكبير عندما لكزته (كيزي) في ضلوعه وطرقت بأصابعها على أذنه وهمست: ماذا تسمى رأسي ؟

رد عليها (كونتا) هامساً : كونتيجو.

وهكذا علمها تقريباً كل أسماء الأشياء المحيطة بها.. وفي يومٍ سألته (كيزي):

- هل لي جدة ؟

- عندك جدتان : أمي وأم أمك.

- ولماذا هما ليسا معنا ؟

- أنهما لا تعلمان أين نحن.. هل تعرفين أين نحن ؟

- نحن في الخنطور.

- أعني أين نعيش ؟

- في مزرعة السيد (وولر).

- وأين هي ؟

أشارت إلى نهاية الطريق وقالت هناك ثم فقدت اهتمامها بالموضوع وقالت:

- أخبرني المزيد عن البق والأشياء التي مثله ومن أين تأتي ؟

- حسناً.. هناك النمل الأحمر الضخم الذي يستطيع أن يعبر الأنهار.. فوق الأوراق وهي تخوض الحرب وتسير مثل الجيش وتبني تلالاً وتعيش فيها طولها أطول من الرجل.

- إنها تبدو مخيفة.. هل سرت فوقها ؟

-كل مخلوق له الحق في أن يكون هنا تماماً مثلك وحتى العشب حي وله روح مثل الناس تماماً..

- إذن لا يجب أن أسير فوق العشب بعد الآن وأظل في الحنطور.

ابتسم (كونتا) وهو يقول لها:

- لم تكن هناك حناطير أو عربات في الوطن الذي أتيت منه كنا نسير إلى أي مكان نذهب إليه وفي مرة سرت أربعة أيام مع أبي طوال الطريق إلى عمي في قريتهما الجديدة.

- وكم يبعد ؟

- أم أقل لك مراتٍ عدة أنني لا أعرف من أين جئت ؟

لقد ظننت أنك من أفريقيا وهل (جامبيا) التي تتحدث عنها في أفريقيا ؟

- (جامبيا) وطن في أفريقيا و(جوفور) قرية في (جامبيا).

- وأين هو أبوك ؟

- يعيش في الوطن عبر المياه الكبرى.

-كم حجم تلك المياه الكبرى ؟

- أنها كبيرةٌ جداً لدرجة أن السفينة استغرقت حوالي أقمارٍلتعبيرها.

- أربعة ماذا ؟

- أقمار.. مثل أشهر.

- ولماذا لا تقول أشهر.

- لأن قمر هي كلمة شهر عندي.

- وماذا تسمى سنة ؟

- مطر.

صمتت (كيزي) فترة تفكر ثم قالت :

- كيف استطعت أن تعبر المياه الكبرى ؟

- في قارب ضخم.

- أكبر من قارب التجديف الذي رأيناه يصطاد الناس فيه ؟

- كبير جداً بما يكفي ليحمل مائة شخص.

- وكيف لا تغرق ؟

- كم تمنيت لو أنها غرقت.. لأننا كنا جميعاً مرضى سنموت على أية حال.

- وكيف مرضت ؟

- لقد مرضت من الرقاد في حجرتنا.. تقريباً كل منا كان فوق الآخر..

- ولماذا لم تذهب إلى دورة المياه؟

- لأن (الطوبوب) كانوا يقيدوننا بالسلاسل.

- ومن هم (الطوبوب).

- أولئك الناس البيض.

- ولماذا قيدوكم ؟ هل فعلتم شيئاً خطأ ؟

- لقد كنت فقط بالخارج في الغابة حول المكان الذي أعيش فيه في قريتي (جوفور) أبحث عن قطعة من الخشب حتى أصنع طبلة وقد أمسكوا بي وأخذوني.

- وكم كان عمرك ؟

- سبعة عشر عاماً.

وهل سألوا والدك ووالدتك إن كنت تريد الذهاب ؟

نظر إليها غير مصدق وقال:

- لقد كان من الممكن أن يأخذوهما أيضاً لو أمكنهم ذلك.. وحتى اليوم عائلتي لا تعرف أين أنا.

- هل لك إخوة وأخوات ؟

- كان لي ثلاثة أخوة.. لقد كبروا جميعاً.. وأظنهم الآن رجالاً.. ومن المحتمل أن لهم أطفالاً مثلك.

- وهل ستذهب يوماً ما لرؤيتهم ؟

- لا نستطيع الذهاب إلى أي مكان.. فقط إلى مزرعة السيد (جون) ونحن لا نتأخر بالخارج لأنهم يطلقون الكلاب علينا عند غروب الشمس.. لأننا ملكهم مثل هذه الجياد التي تجر العربة.

- مثلما أنا ملك أمي ؟

- أنت صغيرة وهذا يختلف.

- تقول الآنسة (آن) أنها تريدني ملكاً لها.

- أنت لست دمية تلعب بها.

- أنا ألعب معها أيضاً.. وهي تقول لي إنني أحسن صديقاتها.

- لا يمكن أن تكوني صديقة وأنت عبدة.

- كيف هذا يا أبي ؟

- لأن الأصدقاء لا يملك أي منهم الآخر .

- ألست أنت وأمي ملك كل منكما للآخر ؟ ألستما صديقين ؟

- الأمر ليس متشابهاً.. نحن ننتمي كل منا للآخر لأننا نريد ذلك لأن كلاً منا يحب الآخر .

- حسناً.. أنا أحب الآنسة (آن) لذلك أريد أن أكون ملكاً لها.

- لا يمكن أن ينجح ذلك أبداً.

- ماذا تعني ؟.

- لن تكوني سعيدة عندما تكبرين.

- وأنت كذلك..أراهن أنك لست سعيداً.

- أنت على حق في ذلك.

- أوه يا أبي.. أنا لا استطيع أبداً أن أتركك أنت وأمي.

- وتوقعي يا ابنتي العزيزة أننا لن نسمح لك أبداً بالذهاب.

ريتشموند

في وقت متأخر من بعد الظهر جاء سائق والد السيد (وولر) من (إينفيلد).. وأحضر له دعوة لحضور حفل عشاء على شرف رجل أعمال مهم من (ريتشموند) توقف ليلة هو في طريقة إلى (فريد ريكسبرج).

كانت هناك حوالي دستة من الحناطير قد توقفت خارج بيت (إينفيلد) الضخم عندما وصل (كونتا) مع السيد بعد حلول الظلام مباشرة.

ورغم أن (كونتا) كان هناك في العديد من المرات خلال السنوات الثماني منذ زواجه من (بيل) وفقط خلال الأشهر القليلة الماضية عندما قررت الطاهية البدينة السوداء (هاتي) التي كانت متيمة به أن تبدأ الكلام معه مرة أخرى منذ أن أحضر (كيزي) مع الآنسة (آن) في أحد الأيام لزيارة جديها.. والليلة عندما ذهب (كونتا) إلى باب المطبخ للتحية وبحث عن شيء يأكله دعته للزيارة بينما هي ومساعدتها وأربع من الخادمات أكملن استعدادهن للعشاء.. ظن (كونتا) أنه لم يسبق له أن رأى مثل هذه الكمية من الطعام سألته (هاتي) :

- كيف حال ابنتك الصغيرة التي تشبه البودنج ؟

قال (كونتا) :

- هي بخير.. أن (بيل) تعلمها كيف تطهو الآن.. وقد جاءتني بكعكة تفاح صنعتها بنفسها.

- يا لهذه الكتكوتة الصغيرة.. كم هي رائعة!!

استدارت (هاتي) إلى أكبر واحدة من الخادمات وقالت :

- نحن مستعدات.. هيا اذهبي.. وأخبري السادة.

وعندما اختفت المرأة خلال الباب الدوار قالت للأخريات :

- سآتي وراءكن جميعاً بالعصا لو أنكم أسقطتن نقطة واحدة من الحساء على الفرش وأنتن تضعن السلاطين.

بعد دقائق قليلة عادت إحدى الخادمات وهمست باهتمام في أذن (هاتي) ثم هرعت عائدة فاستدارات (هاتي) :

- هل تذكر منذ أشهر قليلة عندما هوجمت إحدى سفن التجارة في مكان ما على المياه الكبيرة بفرنسا.

أومأ (كونتا) بالإيجاب وقال :

- لقد قال عازف الكمان أن الرئيس (آدمز) غضب جداً لدرجة أنه أرسل كل أسطول الولايات المتحدة لسحقهم.

- حسناً.. هذا ما فعله ولقد أخبرتني لوينا الآن أن الرجل القادم من (ريتشموند) قال أنهم استولوا على ثمانين سفينة من ملك فرنسا.. وقالت أنهم هنا على استعداد للغناء والرقص لتلقين فرنسا درساً.

بينما هي تتكلم بدأ (كونتا) في التهام الطبق المليء بالطعام والذي وضعته أمامه.. بينما تعجب من منظر الروزبيف بالذات.. وكذا اللحم المفروم.. والديك الرومي.. والدجاج.. والبط التي انشغلت بترتيبها على صواني كبيرة استعداداً لتقديمها.. كان قد ابتلع بضعة قضمات من البطاطس الحلوة بالزبدة عندما عادت النساء الخادمات إلى المطبخ وهن محملات بالأواني الفارغة والملاعق.

وبعد فترة عادت النساء الخادمات للخروج مرة ثانية بصواني عليها أكوام من الطعام ولوت (هاتي) وجهها وقالت :

- أمامنا حوالي أربعين دقيقة لكي يستعدوا للحلوى أنك كنت ستقول شيئاً قبل الآن ؟

قال (كونتا) : كنت سأقول فقط أن ثمانين سفينة لا تشكل أي اختلاف عندي.. منذ وقت طويل والناس البيض يتعاركون مع بعضهم البعض.. يبدو أنهم لا يشعرون بالسعادة إلا إذا تعاركوا.

قالت هاتي: ولكن مع من يتعاركون.. في العام الماضي كان أحد الخلاسيين يقود تمرداً ضد المدعو (توسان) وكان من الممكن أن ينجح لو لم يرسل الرئيس سفنه إلى هناك لمساعدة (توسان).

قال (كونتا) : لقد سمعت السيد (وولر) يقول أن (توسان) ليس لديه خبرة كافية ليصبح حتى جنرالاً.. فما باله بحكم مقاطعته.. وقال أن مجرد مشاهدة كل العبيد الذين تحرروا في (هاييتي) سينتهي بهم الأمر إلى الفوضى أكثر مما كان حالهم مع أسيادهم.. طبعاً هذا هو ما يأمله الناس البيض.. ولكني أتوقع أنهم في حالٍ أفضل من عملهم في المزارع.

قالت إحدى الخادمات عندما عادت وسمعت الحديث:

هذا بالضبط ما يتكلمون فيه الآن مسألة العبيد الأحرار.. إنهم يقولون أن عددهم كبير جداً وهم ثلاثة عشر ألفاً في (فرجينيا) ويقول القاضي أنه سيحرر كل عبيده حتى لا يفعلوا شيئاً خطيراً مثل انضمام الزنوج إلى أسيادهم في تلك الثورة.. أو مثل ذلك الزنجي الذي اكتشف الأعشاب التي تشفى كل شيء تقريباً.. وقال القاضي أن يحس أن السادة لهم الحق في أن يكتبوا في وصاياهم تحرير كل الزنوج المخلصين.. ولكنه هو وكل الموجودين هنا ضد الـ(كويكرز) وبعض الناس البيض الذين يطلقون سراح الزنوج مقابل لا شيء وقال القاضي : إن بعض القوانين الجديدة ستصدر لتحريك هذا الحق قريباً.

توجهت الخادمة إلى الباب وسألت (هاتي) :

ما رأيك فيما قاله ذلك السيد (ألكساندر هاميلتون) في الشمال من أن الزنوج المُحررين جميعاً يجب إعادتهم إلى أفريقيا لأن الزنوج والبيض مختلفون.. عن بعضهم تماماً ولن يتفقوا معاً أبداً ؟

قال (كونتا) :

أنه على حق.. هذا ما اعتقده.. ولكن البيض يقولون ذلك ومع ذلك يظلون يحضرون المزيد منا قالت (هاتي) :

- هل تعرف ماذا سأفعل ؟ أضعهم في (جورجيا) و(كارولينا) ليستمروا في زراعة القطن ونفس السبب فإن العديد من السادة في المنطقة يبيعون الزنوج إلى الشمال مقابل ضعف أو ثلاثة أضعاف ما دفعوه.

قال (كونتا):

- يقول (فيدلر) أن السادة الكبار في الجنوب لديهم العديد من المراقبين المتبجحين يقودون زنوجهم مثل البغال لتنظيف من أجل حقول القطن الجديدة.

- نعم.. لهذا السبب امتلأت الصحف مؤخراً بالإعلانات عن الهاربين.

عندئذ بدأت الخادمات في العودة إلى المطبخ بالأطباق المتسخة والصواني..

كان (كونتا) يتمتع بالتهام إحدى الفطائر.. ووجد نفسه يتذكر إحدى العبيد الهاربين المُعلنُ عنهم مؤخراً في الجازيت والذي يقول :

(خلاسية طويلة.. وصدرها عريض.. على أحد جانبيه ندبة جرح عميق.. أفريقية كاذبة قد تظهر تصريح مرور مزور لأن سيدها السابق علمها بعض القراءة والكتابة تدعي فيها أنها عبدة محررة).

جلست (هاتي) بثقل وقالت:

هل تعرف شيئاً ؟ سأكون سعيدة عندما أعود إلى سريري هذه الليلة !

إنها مثل القطط

لعدة سنوات حتى الآن كان (كونتا) ينهض قبل الفجر مبكراً عن أي واحدٍ آخر من صف العبيد لدرجة أن البعض منهم كان مقتنعاً أن ذلك الأفريقي يستطيع أن يرى في الظلام مثل القطط.. أي شيء كانوا يظنونه به كان يتقبله طالما تركوه في حاله ينسل بعيداً إلى مخزن الغلال حيث يستطيع أن يواجه أول بشائر النهار وهو محشور بين بالتين من التين يؤدي صلاة الصبح.. وبعد ذلك يضع بعض التين في علف الجوادين رغم أنه يعرف أن (بيل) و(كيزي) لابد أنهما قد اغتسلتا.. وارتدتا ملابسهما.. واستعدتا للقيام بأعمالهما في البيت الكبير.. وأن رئيس عمال الحقول (كاتوا) قد استيقظ وخرج ابن إيدا (نوح) والذي سرعان ما سيدق الجرس ليوقظ باقي العبيد..

كان يراقب كل شيء في هدوء خاصةً ضجيج (كيزي) والآنسة (آن) في المزرعة.. وفي مرة عندما كان (كونتا) يراقبهما وهما تدفعان عربة عبر الفناء وهما تقهقهان وتصرخان كان على وشك العودة للداخل عندما شاهد (نوح) واقفاً بجوار كوخ (كاتوا) وهو أيضاً يراقبهما.. التقت عيونهما ونظر كل منهما إلى الآخر فترة طويلة قبل أن يستديروا مبتعدين.. تساءل (كونتا) عما كان يفكر فيه (نوح) وتملكه إحساس غريب بشأن ذلك.

كان (نوح) أكبر من (كيزي) بعامين.. ولكن هذا الاختلاف لم يكن كبيراً بالدرجة التي تفسر لماذا لم يصبح الاثنان أصدقاء.. فضلاً عن زميلي لعب ماداما هما الطفلين الوحيدين في المزرعة.

لاحظ (كونتا) أنهما كلما مر كل منهما بالقرب من الآخر فإنهما يتظاهران وكأن كلا منهما لم يرَ الآخر.. لم يكن يستطيع أن يتصور السبب لأنهما حتى في سنهما الصغيرة يعرفان أن عبيد البيت لا يختلطون بعبيد الحقول.. وأياً كان السبب فإن (نوح) يقضي يومه مع الآخرين في الحقول.. بينما (كيزي) تكنس.. وتمسح.. وتلمع النحاس.. وتنظف وترتب حجرة السيد.. و(بيل) أن تراجع ذلك فيما بعد..

وفي أيام الآحاد وعندما كانت الآنسة (آن) تأتي للزيارة فإن (كيزي) بطريقة ما تنجح بأعجوبة في إنهاء أعمال ها في نصف الوقت وتقضي الإثنان بقية اليوم تلعبان فيما عدا في منتصف النهار عندما يحدث أن يعود السيد للبيت من أجل تناول الغداء وعندئذ يأكل هو والآنسة (آن) في غرفة الطعام و(كيزي) واقفة خلفهما وهي تروح بغصن مورق لإبعاد الذباب بينما تذهب (بيل) وتعود لتقدم الطعام وتراقب في حدة البنتين وهى تحذرهما قائلة: إذا فكرتما في الضحك في حضور السيد فإنني سأسلخكما..

وكان كونتي يفكر فيما يمكن أن يجعلوا ابنته تفعله هناك في المنزل الكبير.. ولكن كل ما كان يستطيعه هو أن ينتظر إلى ما بعد ظهر الأحد عندما تنتهي الكنيسة وتعود الآنسة (آن) إلى والديها.. وبعد الظهر عادة ما يكون السيد (وولر) إما يستريح أو يقضي وقته مع رفيق أو صديق في بهو الاستقبال.. وتكون (بيل) في الخارج مع العمة (سوكي) والأخت (ماندي) في اجتماعهما الأسبوعي اليسوعي.. ويكون (كونتا) حراً ليقضي ساعتين أخريين غاليتين مع ابنته.. وعندما يكون الجو حسنا فقد يسير بطول السور المغطي بالأغصان الذي كان يذهب إليه منذ تسع سنوات قبل أن تولد (كيزي) ليفكر في اسم لها.. وهناك يراه الجميع ممسكاً بيد (كيزي) الطرية في يده.. ويسيران متمهلين إلى نهاية الترعة الصغيرة.. ثم يجلسان متجاورين معاً تحت ظل شجرة يأكلان ما أحضرته (كيزي) معها من المطبخ.. وعادةً ما يبدآن في الكلام.. ومعظم الأوقات وهو يتكلم كانت تقاطعه باستمرار بالأسئلة أغلبها قد تبدأ بعبارة كيف حدث.. ولكن في يوم من الأيام لم يستطيع (كونتا) أن يفتح فمه قبل أن تنظر إليه في لهفة وتقول:

- ألا تريد أن تعرف ماذا علمتني الآنسة (آن) أمس؟

أنه لم يهتم قط بسماع أي شيء له صلة بتلك الفتاة البيضاء البلهاء التي لا تكف عن القهقهة ولكنه لم يرغب في جرح مشاعر (كيزي) فقال: أنا أنصت !

قالت تتلو عليه ما سمعته:بطرس أكل قرع العسل.. كان له زوجة ولا يستطيع الاحتفاظ بها.. فوضعها داخل قرعة عسل حيث حبسها جيداً.

سألها: هل هذا كل ما في الأمر ؟

أومأت بنعم وقالت: ألم تعجبك ؟

فكر أن هذا بالضبط ما كان يتوقعه من الآنسة (آن) منتهى الغباء والبلاهة قال: أنت تحكينها بطريقة جيدة حقاً.

قالت وعيناها تومضان: ولكنك تستطيع أن تقولها بنفس الجودة مثلي.. هيا يا أبي ! قلها لي مجرد مرة واحدة.

- أبعديني عن تلك الآنسة.

بدأ متبرماً أكثر من اللازم.. ولكنها ظلت تلح عليه.. وبذل مجهوداً متعثراً لتكرار العبارات السخيفة فقط حتى تتركه في حاله.. وقبل أن تحثه على تكرار اللحن مرة ثانية خطر على بال (كونتا) أن يتلو شيئاً آخر عليها.. ربما بعضاً من آيات القرآن الكريم حتى تعرف كم هي جميلة ثم أدرك أن تلك الآيات قد لا يكون لها أي معنى مثل بطرس.. بطرس بالنسبة لها لقد سمعت بالفعل عن حكاية التمساح والصبي الصغير حاول أن يقول لها حكاية السلحفاة الكسول التي تحدثت مع الفهد الغبي لتحمله عن أن تركبه بأن أقنعته أنها مريضة لا تستطيع السير.. سألته (كيزي) عندما انتهى من حكايته: أين سمعت كل تلك الحكايات؟

سمعتها عندما كنت في مثل سنك من الجدة الحكيمة العجوز (نيوبوتو).. لقد كانت صلعاء الرأس مثل البيضة.. ولم يكن لها أسنان ولكن لسانها الحاد عوضها عن صلعتها.. وفقدها لأسنانها.. وكانت تحبنا نحن الصغار وكأننا أبناؤها.

ضحك في سعادة عندما تذكرها.. سألته (كيزي): ألم يكن لها أبناءً صغار ؟.

-كان لديها اثنان عدما كانت صغيرة من زمن بعيد قبل أن تأتي إلى (جوفور).. ولكنها أسرا بعيداً في معركة بين قريتها وقبيلة أخرى واعتقد أنها لم تشف من الصدمة.

صمت (كونتا) وقد ذهل من فكرة لم يسبق أن خطرت له على بال كان يود أن يخبر (كيزي) عن أختيها غير الشقيقتين.. وأن ما حدث لـ (نيوبوتو) حدث لأمها (بيل) ولكنه كان يعلم أنه سيضايقها فضلاً عن (بيل) التي لم تتحدث عن الأمر منذ أخبرته عن ابنتيها المفقودتين في ليلة مولد (كيزي).. ولكنه أمل ألا يكون هو أيضاً واحدٌ من هؤلاء الذين قُيِدوا بالسلاسل بجوار العبيد على السفينة وقد انتزعوا بعيداً عن أمهاتهم ؟

ألم يحدث ذلك أيضاً مع الآلاف الذين أتوا من قبله ؟ ومن بعده ؟ وجد نفسه يتمتم: لقد أحضرونا إلى هنا عرايا.

رفعت (كيزي) رأسها بقوة ولكنه لم يستطيع التوقف.

إنهم حتى حرمونا من أسمائنا.. أنهم أصبحوا مثلك ممن وُلِدَ هنا لا يعرفون من هم.. ولكنك من (آل كونتي) مثلي تماماً لا تنسى أبداً ذلك.. لقد كان آباؤنا تجاراً ورحالة ورجال دين مباركين منذ مئات السنين.. وجاءوا من تلك الأرض المسماة مالي هل تفهمين ما أعنيه ؟

قالت في طاعة: نعم يا أبي!!

ولكنه كان يعلم أنها لم تفهم.

خطرت على باله فكرة التقط عصا.. وسوى مساحة فوق التراب بينهما ثم صف بعض الحروف بالعربية.. وقال وهو يشير إلى الأحرف ببطء بأصبعه: ها هو اسمي (كونتا) كينتي .

نظرت وهي مبهورة وقالت: والآن يا أبي.. اكتب اسمي.

كتبه.. فضحكت.. وقالت وهي تضحك: هل هذا اسمي (كيزي)؟ هل تعلمني كيف أكتبه ؟

قال (كونتا) في كآبة: لا يصلح ذلك.

بدأ أنها جُرحت: ولم لا ؟

في أفريقيا الأولاد فقط يتعلمون كيف يكتبون ويقرأون.. والبنات لم يتعودن على ذلك.. وكذلك هنا.

كيف حدث إذن أن أمي تقرأ وتكتب ؟

قال في كآبة: لا تتحدثي عن ذلك.. هل تسمعين ؟ البيض لا يحبون أن يتعلم أحد منا القراءة ولا الكتابة.. لأننا نحن الزنوج كلما قل ما نعرفه قلت متاعبنا.

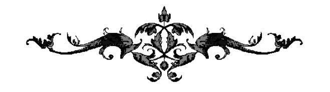
- ولكني لا أسبب أي متاعب.

- إذا لم نسرع ونعود إلى الكوخ فإن أمك ستسبب المتاعب لنا.

نهض (كونتا) وبدأ السير.. ثم وقف واستدار.. عندما أدرك أن (كيزي) ليست بجواره.. وإنما لا زالت عند ضفة النهر تحملق في حصاة رأتها قال لها: هيا بنا الآن..

نظرت نحوه وعاد نحوها ومد لها يده وقال: أقول لك ماذا.. التقطي هذه الحصاة وخذيها معك وأخفيها في مكانٍ ما آمن.. وإذا لم تبوحي بأي شيء عنها.. فإنني في صباح أول شهر قمري قادم سأدعك تلقين بها في قرعتي.

قالت في فرح: أوه يا أبي ؟



تخدير لعبيد المزرعة

حان الوقت تقريباً كي تلقي (كيزي) بحصاةٍ أخرى في قرعة (كونتا) بعد حوالي سنة من صيف 1800 عندما أخبر السيد (بيل) أنه ذاهب إلى فريد ريكسبرج لمدة أسبوع تقريباً في عمل.. وقد رَتَبَ الأمر بحيث يأتي شقيقه جون ليرعي الأمور أثناء غيابه.. وعندما سمع (كونتا) الأخبار كان أكثر اضطرباً من معظم الزنوج لأنه كان يكره أن يترك (بيل) و(كيزي) معرضتين لمالكه القديم أكثر مما يكرهه من أن يضطر لأن يكون بعيداً عنهما كل تلك المدة.. طبعاً لم يقل شيئاً عن وساوسه ولكن في صباح الرحيل عندما غادر الكوخ ليربط الخيل بالعربة دهش عندما بدأ كأن (بيل) قرأت أفكاره تقريباً.. وقالت:

- أن السيد (جون) ليس مثل أخيه ولكني أعرف كيف أتعامل مع أمثاله.. ثم أن الأمر سوى أسبوع واحد لذلك لا تقلق علينا أبداً لأننا سنكون بخير.. قال (كونتا) وهو يأمل ألا تكتشف أنه يكذب: لستُ قلقاً.

ركع ليقبل (كيزي) وهمس في أذنها: لا تنسى حصاة الشهر الجديد.

فغمزت بعينها في تآمر.. بينما تظاهرت (بيل) بأنها لم تسمع.. رغم أنها كانت تعرف أنهما يفعلان ذلك من تسعة أشهر.

وخلال اليومين التاليين لغياب السيد.. سار كل شيء على خير ما يرام.. رغم أن (بيل) كانت متضايقة من كل ما يفعله أو يقوله السيد (جون).. وكرهت بشكل خاص كيف أنه كان يجلس لوقت متأخر في غرفة المكتب ليلاً وهو يشرب أحسن ما لدى سيدها من ويسكي ومن الزجاجة مباشرةً.. ويُدخن سيجاره الضخم الأسود ذا الرائحة الكريهة وينثر الرماد على السجادة.. ومع ذلك ظل السيد (جون) لا يتدخل كثيراً في نظام (بيل) المعتاد وكان يجلس معظم الوقت مع نفسه.

ولكن صباح اليوم الثالث كانت (بيل) بالخارج تكنس الفناء الخارجي الأمامي عندما جاء رجل أبيض فوق جواد مطقم بالجلد وهو يجري وقفز من فوقه.. وطلب مقابلة السيد.. ثم غادر الرجل بنفس العجلة لتحضر إلى حجرة المكتب كان يبدو مهتزاً بشدة.. وخطر على بال (بيل) أن شيئاً رهيباً حدث لـ (كونتا) والسيد.. كانت واثقة بذلك عندما أمرها فجأة أن تجمع كل العبيد في الفناء الخلفي.. اجتمع الكل ووقفوا صفاً واحداً متوترين من الخوف عندما فُتِحَ البابُ الزجاجي وخرج نحوهم.. وكان لديه في حزامه مسدس.. أخذ يفحص وجوههم ببرود وقال:

- لقد سمعت لتوي أن بعض زنوج (ريتشموند) خططوا لمؤامرة تستهدف خطف الحاكم.. وذبح أهل (ريتشموند) البيض.. وحرق المدينة.. تطلع العبيد كل في وجه الآخر في دهشة عندما استمر قائلاً:

- ولكن بفضل الرب وبعض الزنوج الأذكياء الذين اكتشفوا الأمر وأخبروا سادتهم في الوقت المناسب.. تم سحق المؤامرة والقبض على معظم الزنوج الذين خطوا لها.. وهناك دوريات مسلحة على الطرق بحثاً عن الآخرين.. وعلينا أن نتأكد من أن أحداً منهم لن يأتي إلى هنا الليلة.. وفي حالة ما إذا أصابت أحدكم نعرة التمرد فإنني سأقوم بمطاردته ليل نهار.. وغير مسموح لأيٍ منكم أن يضع قدمه خارج هذا المكان.. ولا أريد أي اجتماعات..(وهو يضع يده على مسدسه) لست صبوراً ولا رحيماً مع الزنوج مثل أخي.. وأي واحد يفكر حتى في الخروج عن الصف والنظام فإنه سينال رصاصة بين عينيه.. والآن اذهبوا !

كان السيد (جون) عند كلمته.. لأنه خلال اليومين التاليين أصاب (بيل) بالجنون بإصراره على مراقبة (كيزي) وأن تتذوق طعامه قبل أن يأكله.. وكان يجوب الحقول على ظهر الجواد أثناء النهار.. ويجلس في الشرفة الأمامية ليلاً والبندقية أمامه.. وكانت يقظته مطلقة لدرجة أن الزنوج لم يتجاسروا حتى في مناقشة الثورة فيما بينهم.. وبعد أن تلقى السيد (جون) الجريدة وقرأها أحرقها في المدفأة.. وعندما زاره أحد السادة الجيران بعد ظهر أحد الأيام أمر (بيل) أن تترك المنزل وقبعا يثرثران في غرفة المكتب بعد أن أغلقا النوافذ.

لذلك أصبح من المستحيل على أي شخص أن يعرف المزيد عن المؤامرة.. أو ما صحبها من فوضى.. وهو ما جعل (بيل) والآخرين يشعرون بقلق رهيب ليس على (كونتا) لأنه سيكون آمناً مع السيد.. وإنما على (فيدلر) الذي رحل في اليوم السابق ليعزف في حفل راقص اجتماعي كبير في (ريتشموند).. وكان الزنوج يستطيعون فقط أن يتخيلوا ما الذي يحدث للسود الغرباء هناك على يد البيض الثائرين غضباً والذين أصابهم الرعب.

لم يكن (فيدلر) قد عاد بعد عندما رجع (كونتا) والسيد بعد ثلاثة أيام وقد قطعوا رحلتهم بسبب الثورة.. وبعد رحيل السيد (جون) في وقت متأخر من ذلك اليوم خفت القيود الصارمة التي فرضها بعض الشيء.. وإن لم تُرفع نهائياً.. وكان السيد شديد البرود مع الجميع.. عندما كان (كونتا) و(بيل) بمفردهما في كوخهما استطاع أن يخبرها عما سمعه في (فريدركسبرج) من أن السود المتمردين الذين تم أسرهم قد عُذِبوا حتى يساعدوا السلطات في الإحاطة بالمتورطين الآخرين.. والبعض اعترف أن التمرد قد خططه حداد حر اسمه (جابرييل بروسر) الذي جند حوالي مائتين من الرجال السود من جزارين وبستانيين وسعاة وجرسونات وعمال مناجم الحديد وصانعي الحبال وعمال مناجم الفحم والبحارة وحتى الوُعاظ.. وقد مشطت الميليشيات البلاد بحثاً عن المشتبه فيهم.. ولا يزال (بروسر) هارباً حيث سرت الإشاعات من أن بعض الدوريات من البيض الفقراء كانوا ينشرون الرعب في الطرقات.. وأن بعض السادة كانوا يضربون العبيد لمجرد أية إثارة تحدث مهما كانت صغيرة إلى أن مات بعضهم بالفعل.. قالت (بيل):

- يبدو أن أملنا الوحيد هو أن نموت جميعًا.. وما لم يقتلونا جميعاً فلن يكون لديهم أي عبيد على الإطلاق .

سألها (كونتا) وهو يشعر بالخجل عما إذا كان (فيدلر) عاد فهزت رأسها نفياًوقالت: كلنا كنا قلقين جداً عليه ولكن لأن (فيدلر) رجل فن فإنه حتماً سيعود.

لم يوافقها (كونتا) كلية: لكنه لم يعد للبيت بعد.

وعندما لم يعد (فيدلر) في اليوم التالي كتب السيد رسالة للشريف يعلمه بالأمر.. وأخبر (كونتا) أن يسلمها في حاضرة المقاطعة.. رأى الشريف يقرأ الرسالة ويهز رأسه في صمت.. ثم أثناء عودة (كونتا) للبيت قطع ثلاثة أميال وهو يحملق في حزن في الطريق أمامه متسائلاً: إن كان سيرى (فيدلر) مرةً ثانيةً.. وأحس بأنه يعتبره صديقاً حمياً رغم كثرة شربه للخمور وسبابه الدائم.. ساعتها ظن (كونتا) أنه يسمع صوتاً يقول له: إلى أين تظن نفسك ذاهب بحق الجحيم.

ثم عاد الصوت على جانبي الطريق ولكنه لم يشاهد أحداً ثم فجأة سمع: أليس معك تصريح يا ولد ؟ أنت في متاعب جمة.. وهناك صعد (فيدلر) من إحدى الحُفر وهو ممزق الملابس.. ومجروح.. ومغطي بالطين يحمل صندوقه المحطم.. وقد ابتسم ملء شدقيه.. أطلق (كونتا) صيحةً كبيرة.. وقفز من حيث كان جالساً وفي ثوان كان هو و(فيدلر) يتعانقان ويدوران حول بعضهما وهما يضحكان صاح (فيدلر): أنت صورة طبق الأصل من الأفريقي الذي أعرفه.. ولكن لا يمكن أن تكون هو.. لأنه لم يكن يظهر لأحدٍ كم هو سعيد بلقائه !

قال (كونتا) وهو يضحك: لست أدري لماذا فعل ذلك؟

(فيدلر): إنه لقاءٌ طيب مع رجل زحف على يديه وقدميه كل الطريق عائداً من (ريتشموند).. لمجرد أن يرى وجهك القبيح..

أوضحت جدية (كونتا) مدى قلقة واهتمامه وقال: هل كان الأمر سيئاً يا (فيدلر) ؟

- سيئاً حتى فوق الوصف..

أخذ (كونتا) حقيبة (فيدلر) الملوثة بالطين.. وصعدا معاً إلى العربة.. ثم استمر (فيدلر) يحكى بلا توقف: إن أهل (ريتشموند) من البيض خائفين لدرجة الجنون.. ورجال الميليشيات يوقفون الزنوج في أي مكان.. ومن ليس معه تصريح سفر يضعونهم في أقرب سجن.. والمحظوظون منهم من شراذم الـ(كويكرز) الذين يجوبون الشوارع كالكلاب الضالة يقفزون على الزنوج ويضربونهم حتى الموت..

حتى يصعب التعرف عليهم.. لقد توقف الحفل الراقص الذي كنت أعزف فيه في منتصفه عندما وصلت أول أخبار الثورة.. كان السيدات والسادة يصرخون ويجرون في دوائر.. والسادة يوجهون البنادق نحونا نحن الزنوج على منصة الفرقة الموسيقية.. ووسط كل هذه الفوضى تسللت إلى المطبخ واختبأت في الجراج إلى أن ذهب الجميع.. ثم صعدت من نافذة وأخذت الشوارع الخلفية بعيداً عن الضوء.. ووصلت إلى طرف المدينة.. وفجأة سمعت الصياح خلفي.. ثم مجموعة كاملة من الأقدام تجري في نفس الطريق الذي أسير فيه.. أخبرني شيء ما أنهم ليسوا سوداً ولكني لم انتظر حتى أتبين.. قطعت الناصية التالية وأنا أطير منخفضاً.. ولكنني سمعتهم يلحقون بي.. كنت على وشك أن أتلو صلاتي الأخيرة عندما شاهدت شرفة منخفضة اختبأت تحتها.. لقد كان المكان ضيقاً تحتها.. وأخذت أدخل أكثر عندما سمعت الـ(كويكرز) يجرون ومعهم المشاعل وهم يصيحون: أمسكوا هذا الزنجي.

اصطدمت بشيء ضخم وطري ووجدت كفاً يوضع على فمي وصوت زنجي يقول (في المرة القادمة أطرق الباب).

لقد كان حارساً ليلياً لمستودع بضائع رأى الغوغاء وهم يمزقونه إرباً.. ولم تكن لديه النية للخروج من تحت الشرفة حتى الربيع القادم إذا لم يمت قبل هذا الموعد.. بعد ذلك بمدة تمنيت أن أكون محظوظاً واتجه مرةً ثانيةً نحو الغابة.. كان هذا من خمسة أيام.. وكان باستطاعتي أن أنجح في ذلك في أربعة أيام..

ولكن كان هناك الكثير من الدوريات على الطرق.. وكان عليَّ أن أظل في الغابات آكل التوت.. وأنام في الجحور مع الأرانب.. كان كل شيء على ما يرام إلى الأمس على بعد بضعة أميالٍ شرقاً هنا عندما جاءت حفنة من الـ(كويكرز) الأنذال حقاً وأمسكت بي في العراء.. كانوا يقومون بضرب أى زنجي بالسياط.. وربما كانوا يشنقونه لأنني رأيت حبلاً معهم.. أخذوا يرمونني للأمام والخلف وهم يسألوني عمن أنا ملكه ؟ وإلى أين أظن أنني ذاهب.. لم يهتموا بما كنت أقوله وأنني عازف كمان.. توقفوا وهم يظنون أني اكذب وصاحوا.. إذن دعنا نسمعك إذن..

دعنى أقول لك شيئاً يا أفريقي.. لقد فتحت صندوق الكمان ولن تسمع في حياتك عزفاً موسيقياً.. مثل الذي عزفته هناك وسط الطريق.. لقد لعبت كديك رومي في العشب.. وأنت تعرف أن معظم الـ(كويكرز) يحبون ذلك.. وقد سخنت وتحمست وجعلتهم جميعاً يتراقصون ويصفقون ويصيحون ويضربون أقدامهم بالأرض.. ولم أكف إلا بعد أن شبعوا وقالوا لي أن أذهب في طريقي مباشرةً إلى البيت.. ولكني لم أفعل لأنني كنت اختفي في أية حفرة كلما شاهدت حصاناً أو عربة حنطور أو عربة نقل إلى أن جاءت عربتك.. وها أنا ذا !

بينما يسيران بالعربة في الطريق الضيق المؤدي إلى البيت الكبير سُرعان ما سمعوا صياحاً بعد ذلك رأوا العبيد يجرون إلى الشارع لمقابلة العربة.. قال (فيدلر): أحس أن شخصاً ما كان ضائعاً من هنا !

ورغم أن (فيدلر) كان يبتسم.. فإن (كونتا) كان يحس بمدى تأثر الرجل.. وابتسم لنفسه قائلاً: يبدو أنك ستقول الحكاية من أولها مرة ثانية.

سأله (فيدلر): وهل تظن أن هناك ما منعني من الكلام أبداً.. هيا بنا فأنا موجود هنا لأقصها.



إعدام المتآمرين

في الشهور التالية تم أسر ومحاكمة وإعدام المتآمرين واحداً بعد الآخر.. وأخيراً تم إعدام (جابرييل بروسر) نفسه.. وبدأت أخبار ثورة (ريتشموند) تخفت تدريجياً.. وكذلك التوترات التي نتجت عنها.. ومرة أخرى عادت السياسة هي موضوع المناقشات الرئيسي بين السادة وأصدقائهم وبالتالي في صف العبيد.. وبقدر الإمكان استطاع (كونتا) و(بيل) و(فيدلر) جمع النقاط مما سمعوه تلصصاً بطرق مختلفة حول انتخابات الرئيس القادم.. كان سيدٌ اسمه (آرون بار) قد عقد صداقة مع السيد المشهور (توماس (جيفرسون) والذي نال الوظيفة أخيراً بفضل مساندة السيد القوي (ألكساندر (هاميلتون) والسيد (بار) وهو عدو لدود للسيد هاملتون وعُيِّنَ نائباً للرئيس.

بدا أن أحداً لا يعرف شيئاً كثيراً عن السيد (بار) ولكن (كونتا) عرف من أحد سائقي حنطور أنه ولد في (فرجينيا) ليس بعيداً عن مزرعة (مونتسيللو) الخاصة بالسيد (جيفرسون) أنه ليس هناك من هو أفضل منه .. وشارك (كونتا) الخبر قائلاً:

- لقد أخبرني ذلك السائق أن السيد (جيفرسون) لن يسمح للمراقبين بأن يضربوا العبيد بالسياط أبداً.. وأنهم جميعاً يأكلون جيداً.. والنساء يغزلن وينسجن كل ملابسهن.. وهو يؤمن بأن يدعهن يتعلمن مختلف الحرف.. وبعد عودة السيد (جيفرسون) من رحلة طويلة قابله عبيده على بعد ميلين من المزرعة.. وحلوا الجياد وشدوا العربة بأنفسهم في سعادة طوال كل المسافة إلى بيت مونتسيللو الكبير حيث حملوه على أكتفاهم إلى الدرج المؤدي للباب.

أصدر (فيدلر) صوتاً كخوار الخنزير وقال أن كل شخص يعرف أن العديد من الزنوج أطفال السيد (جيفرسون) من امرأة مجنسة اسمها (سالي هاميلتون).

قال(كونتا): لقد سمعت أن السيد (جيفرسون) يقول أن الرق سيئاً بالنسبة للبيض مثل السود.. واتفق مع السيد (هاميلتون) أنه لن يكون هناك فرق كبير بالنسبة للبيض والسود لو تعلموا كيف يعيشون معاً في سلام.. ويقولون أن السيد (جيفرسون) يريد أن يرانا أحراراً وليس متسكعين حول بلده.. ويفضل أن يعيدنا ثانية بالسفن إلى أفريقيا تدريجياً دون أي فوضى.

قال (فيدلر): من الأفضل للسيد (جيفرسون) أن يتكلم مع تجار العبيد لأنه على ما يبدو أن لديهم فكرة مختلفة عن الجهة التي تذهب إليها السفن بالعبيد.

قال (كونتا): عندما يذهب السيد إلى مزارع أخرى فإنني أسمع عن مجموعات من الناس يُباعون.. وعائلاتٍ كاملةً كانت تعيش معاً هنا تباع إلى الجنوب بواسطة أسيادهم.. بل إن أحد تجار العبيد مر أمس على الطريق ولوح بيده وابتسم.. ولمس حافة قبعته ولكن السيد تظاهر بأنه لم يره.

قال (فيدلر): إن تجار العبيد يلتصقون في المدن مثل الذباب.. وآخر مرة ذهبت فيها إلى (فريد ريكسبرج) كانوا يطنون حولي وأنا رجل عجوز مجفف إلى أن أظهرت تصريحي.. لقد رأيت عجوزاً زنجياً أشيب يباع نظير ستمائة دولار.. والشاب الصحيح يصل ثمنه إلى هذا.. ولكن العجوز الزنجي لا يهدأ.. لقد كانوا يهزونه في المزاد وهو يصيح: أنتم أيها الناس البيض جميعاً.. لقد جعلتم أرض الرب جحيماً لشعبنا.. ولكن يوم الحساب سيأتي.. وستُلقون جميعاً في الجحيم الذي أتيتم به.. أنها عندما ستبدأ لن تنتهي.. وعندئذ كانوا يجرونه للخارج.. وكان الزنجي العجوز يبدو أنه واعظ أو شيء مشابه من الطريقة التي كان يتصرف بها.

لاحظ (كونتا) إثارة (بيل) المفاجئة وسألته: ذلك الرجل هل هو أسود حقيقي ونحيف جداً وله لحية بيضاء وندبة جرح طويلة على رقبته ؟

نظر إليها (فيدلر) مذهولاً: نعم.. أنه كذلك.. هل تعرفيه ؟

نظرت (بيل) إلى (كونتا) وكأنها على وشك البكاء: إن هذا الواعظ هو الذي عمد (كيزي).

...

كان (كونتا) يزور (فيدلر) في وقت متأخر في اليوم التالي عندما طرق (كاتوا) على الباب صاح (فيدلر): ما الذي تفعله هنا بالخارج.. هيا ادخل.

دخل (كاتوا) وسعد كل من (فيدلر) و(كونتا) جداً لأنه جاء.. لقد عبر كل منهما عن رغبته المتبادلة في أن يزداد قربهما من رئيس عمال الحقول القوي الرزين كما كان البستاني العجوز.. بدا (كاتوا) غير مرتاح.. وقال:

- فقط أود أن أقول أنه قد يكون حسناً لو أنكما لا تقولا كل الأسرار التي تسمعونها حول العديد من الناس الذين يُباعون في الجنوب.. والسبب الذي يجعلني أقول لكما هذا أن الناس في الحقول بدؤوا يخافون من أن يباعوا.. أنهم لا يستطيعون أن يركزوا على أعمالهم.

واتفق الثلاثة على أنه من الأفضل لو تشاركوا هم فقط واحتفظوا لأنفسهم دون حتى (بيل) في الأخبار الأكثر إرهاباً.. والتي قد تثير مخاوف الآخرين بلا داع.. ولكن في إحدى الليالي في الكوخ بعد أسبوع تقريباً نظرت (بيل) لزوجها وهي تغزل وقالت:

يبدو أن هناك بعض الإشاعات حولنا.. والناس البيض قد كفوا عن بيع العبيد.. أم أن البعض يخفون الأمر.. زمجر (كونتا) في ارتباك ودهش فمن المحتمل أن بقية العبيد قد خمنوا أنه و(فيدلر) لم يعودا يخبرانهم بكل ما يعرفانه.. ولذلك بدأ يعيد حكايات بيع العبيد مرةً ثانيةً بعد حذف التفاصيل غير السارة.. ولكنه أكد على عمليات الهروب الناجحة مظهراً غباء وجهل المطاردين.

وفي يوم أخبرهم عن الجزار الخلاسي وسايس الجراح الأسود اللذين سرقا جواد وعربة حنطور وملابس أنيقة وقبعة ارتداها الخلاسي.. وادعى أنه رجل ثرى من السادة.. وهو يسب ويلعن بصوت عال الزنجي سائق الحنطور كلما اقتربا من إحدى دوريات البيض التي يقابلانها أثناء سير الحنطور السريع نحو الشمال هناك حيث الحرية.. وفي مرة ثانية حكى(كونتا) عن عبدٍ لا يقل عنهما جسارة..كان دائماً ما يسرع نحو المطاردين.. ثم يقف فجأة ويفرد أمامهم مستنداً كبيراً مطبوعاً.. ويشرح لهم شفاهةً مهمته العاجلة المكلف بها من جانب سيده.. وهو بذلك يقامر دائماً بأن الـ(كويكرز) معظمهم أميون لذا يدعونه يستمر بدلاً من الاعتراف بجهلهم للقراءة.. وكان (كونتا) غالباً ما يجعل الزنوج يضحكون وهو يحكي مثل تلك الروايات.. مثل كيف أن هاربين سود آخرين اتقنوا تماماً حالة التأتأة التي تثير تقزز المطاردين البيض.. ويقولون لهم أن يستمروا في طريقهم بدلاً من قضاء ساعات في سؤالهم بلا جدوى أو فهم.. وفي إحدى الليالي جعل (كونتا) الزنوج ينفجرون ضحكاً حول أحد العبيد قالوا له أنه وصل إلى الأمان في الشمال عندما قفز بقوة أمام سيده الذي كان يطارده بحرارة.. واستدعى هو في الحال رجل شرطة قال له وهو يصرخ في هيستيريا وظل يصيح: ساعدني يا ربي ! أنا لم تقع عيناي أبداً على هذا الرجل الأبيض.

وقنع الجمهور المتجمع مع رجل الشرطة بأن الرجل الأبيض مدعٍ.. فأمر رجل الشرطة الرجل الأبيض الثائر أن يهدأ ويرحل وإلا قبض عليه للإزعاج.

استطاع (كونتا) لسنوات طويلة أن يتجنب الذهاب بالقرب من مزاد العبيد منذ اليوم الذي رأى فيه الفتاة الزنجية التي نادت عليه دون جدوى لينقذها.. ولكن في يوم بعد الظهر قاد (كونتا) سيده إلى الميدان العام في حاضره المقاطعة في اللحظة الذي كان يدور فيها مزاد بيع العبيد.. والدلال يصيح: هيا.. هيا ! أيها السادة الأجلاء (سبورتسلفانيا) أقدم لكم أحسن مجموعة من الزنوج رأيتموها في حياتكم..

وبينما الدلال يصيح في الجمهور كان مساعده الشاب البدين مثل العجل يشد امرأةً عجوز إلى المنصة صائحاً طباخه ماهرة.. ولكنها بدأت تصرخ في هيستيريا وتلوح في جنون إلى رجل أبيض وسط الجمهور: يا سيدي فيليب ! يا سيدي فيليب.. إنك تتظاهر وكأنك نسيت أنني خدمتك وأخوتك ووالدكم عندما كنتم جميعاً صغاراً.. أعرف أنني عجوز ولا فائدة كبيرة مني.. ولكن أرجوك يا سيدي احتفظ بي.. سأعمل من أجلك بكل نشاط.. أرجوك فقط لا تدعهم يضربوني بالسياط حتى الموت في الجنوب.. أمره سيده: قف بالحنطور يا (كونتا) !

أحس (كونتا) بدمائه تبرد وهو يوقف الحنطور.. لماذا بعد كل تلك السنوات من عدم اهتمامه بمزادات العبيد يريد السيد (وولر) أن يشاهد مزادهم ؟ هل هو يفكر في شراء واحدٍ أم ماذا ؟ أم هل هو انفجار المرأة الذي يفطر القلب ؟ إنها مهما صرخت وانتحبت فإنها لن تثير سوى الضحكات.. وبعدها اشتراها تاجر بسبعمائة دولار.. أخذت تصيح ومساعد التاجر يزيحها بخشونة نحو زريبة العبيد: ساعدنى يا ربي.. يا يسوع ساعدني.. ابعد يدك السوداء عني أيها الزنجي!

كانت تصرخ.. والناس يضجون ضحكاً.. وعض (كونتا) على شفتيه وهو يمنع سقوط دموعه.. ثم صاح الدلال ثانيةً: تحفة المجموعة.. الشاب الفتى الزنجي يا سادة !

صعد بعد ذلك على المنصة شابٌ أسود يحملق في حقد بصدره العريض وعضلاته البارزة وجسده القوي وقد تملكه الغضب.. وقد تقاطعت على جسده ندب حمراء عميقة من أثر ضربات حديثة جداً بالسياط.. قال الدلال:

- هذا العبد يحتاج فقط بعض التذكر بالتزام الأدب وسيشفى من جراحه بسرعة.. أنه يستطيع أن يصرع بغلاً أرضاً.. ويجمع أربعمائة رطل من القطن في اليوم.. انظروا إليه.. أنه صخرةٌ حقيقة.. أنه فولاذ بلا ثمن !

ووصل ثمن الشاب إلى ألف وأربعمائة دولار.. غامت عينا (كونتا) مرة ثانية عندما اقتيدت امرأة خلاسية ومعها طفل إلى المنصة.. وصاح الدلال:

- اثنان بثمنٍ واحد.. أو واحد وواحد مجاناً حسب ما تنظرون للأمر.. أن الطفل الزنجي الذي تنفس لأول مرة يساوي مائة دولار.

أصبح الأمر لا يحتمل عندما صعد العبد التالي مسحوباً بسلاسله.. وأوشك (كونتا) أن يسقط من فوق مقعده كانت فتاة مراهقة تصرخ في رعب.. سمع الدلال يبدأ البيع:

- خادمة منزل ممتازة ومدربة.. ويمكن اعتبارها من أحسن سلالات للتربية.

غمر بعينه بطريقة موحية وفاحشة.. ودعا المزايدين لمشاهدتها وفحصها عن قرب.. فجأة أرخى ياقة ثوب الفتاة المصنوع من الخيش الذي سقط حتى قدميها وهي تصرخ وتتجنب وتضع كفيها في محاولة لتغطية عريها من أصابع المشاهدين المزدحمين.. وقد مال البعض منهم مادين أيديهم ليفحصوها قال السيد آمراً: هذا يكفي ! دعنا نرحل من هنا.

جاء الأمر قبل أن يرحل (كونتا) تلقائياً بعد أن ضاقت روحه وكان يرى الطريق بصعوبة أمامهما وهما عائدان نحو المزرعة وعقله يجري بسرعة ويدور.. ماذا لو كانت الفتاة هي (كيزي)؟ وماذا لو كانت الطاهية هي زوجته (بيل)؟ وماذا لو بيع الاثنان بعيداً عنه؟ أو هو بعيداً عنهما؟ لقد كان حتى مجرد التفكير في الأمر رهيباً جداً.ً ولكنه لم يفكر في شيء سواه.. وحتى قبل أن تصل العربة الحنطور إلى البيت الكبير أحسن (كونتا) بالإيحاء أن هناك شيئاً ما خطأ.. ربما لأنه كان مساء صيف دافئ.. ومع ذلك لم يشاهد أحد من أهل صف الزنوج يتسكع أو يجلس في الخارج.. أنزل السيد أمام باب البيت الكبير.. وحل الجياد بسرعة ووضعها في الإسطبل.. ثم توجه مباشرةً إلى المطبخ حيث كان يعرف أن (بيل) تُعدُ الآن عشاء السيد.. لم تسمعه حتى سألها خلال الباب الزجاجي: هل أنت بخير ؟

استدارت بسرعة وعيناها متسعتان من الصدمة وقالت: أوه يا (كونتا) لقد كان تاجر العبيد هنا.. لقد سمعت صفارة (كونتا) تنطلق من الخارج في الحقول وجريت إلى النافذة الأمامية

وبعد دقيقة رأيت ذلك الرجل ذا المظهر الحضري يهبط من فوق جواده.. وقد شعرت بل هو.. رحماك يا ربي.. لقد فتحت الباب في الوقت الذي صعد الدرج يطلب مقابلة سيدي أو سيدتي.. قلت له أن السيدة في القبر.. والسيد طبيب يقوم بزيارة المرضى.. أعطاني بطاقة صغيرة عليها كتابة.. وقال أن أعطيها لسيدي.. وأخبره أنه سيعود.. حسناً لقد خشيت أن أعطى البطاقة لسيدي وأخيراً وضعتها على مكتبه.. جاء نداء من حجرة الجلوس:(بيل).. أوشكت أن تسقط الملعقة همست لزوجها: انتظر.. سأعود.

انتظر (كونتا) وهو لا يكاد يتنفس.. ويتوقع الأسوأ إلى أن رأى (بيل) وهي عائدة وعلى وجهها تعبير الارتياح.. لقد قال أنه يريد عشاء مبكراً.. البطاقة لم ترفع من فوق المكتب حيث تركها ولكنه لم يقل عنها شيئاً.. ولذلك لم أقل له أنا أيضاً شيئاً.

بعد العشاء أطلعت (بيل) عمال الحقول على آخر التطورات بعد أن أطلق (كاتوا) صفارة التحذير وبدأت العمة (سوكي) تصيح: يا إلهي ! لقد كنا جميعاً نعتقد أن السيد سيبيع بعضنا.. قالت (بيل): لن أسمح لأحد أن يضربنا بعد الآن.

وأخيراً قال (فيدلر): السيد ليس واحداً من هؤلاء الذين يبيعون زنوجهم.. وهو واحد لديه أموال طائلة لذلك ليس في حاجة لأن يبيع زنجياً لدفع ديونه مثل العديد منهم.

تمنى (كونتا) أن يعتبر الآخرون أن جهود (فيدلر) من أجل طمأنتهم مقنعة أكثر منه.. بينما كانت (بيل) أقل أملاً وقالت: أعرف السيد أو اعتقد أنني أعرفه.. وهو لم يبع قط أي شخص عدا سائق الحنطور إياه (لوثر) وذلك لأنه رسم الخريطة لمساعدة فتاة على الهرب.. والآن لن يتخلص السيد من أي منا دون سبب معقول.. هل هناك من يقول أنه سيفعل ؟.. ولم يرد أحد.



العبيد أموالٌ مستثمرة

استمع (كونتا) لحوار السيد مع أحد أبناء عمومته المفضلين الذي أحضره إلى البيت من أجل العشاء.. وهما جالسان داخل الحنطور المنطلق.. كان السيد يقول:

- في مزاد حاضرة المقاطعة من يومين دهشت أنه في كل يوم يباع عمال الحقول مرتين أو ثلاث رغم إحضارهم من سنوات قلائل.. ومن الإعلانات التي أقرأها في الـ (جازيت) نجارون وبناءون وحدادون وهم في الحقيقة عبيد مدربون تقريباً على كل الحرف من سروجية.. وصناع أشرعة السفن.. وموسيقيين.. يصل أثمانهم إلى ألفين وخمسمائة دولار للفرد..

صاح ابن عم السيد: إنه نفس الأمر في كل مكان منذ زراعة القطن.. وهناك أكثر من مليون عبد وهم موجودون بالفعل.. وقيل لي أن السفن تحضر عدداً كافياً من العبيد الجُدد لتوفير المطلوب للأراضي في أقصى الجنوب.. ولمقابلة احتياجات مصانع الشمال.. إن الذي يقلقني هو هذا العدد الكبير من المزارعين ولهفتهم على الحصول على مكاسب كبيرة قد يبدؤون في اكتشاف أن ولايتنا (فرجينيا) تفقد دون شك أحسن نوعيات عبيدها.. حتى أفضل المواليد وهذا في حد ذاته منتهى الغباء.

السيد: غباء !؟ أليس في (فرجينيا) عبيد أكثر من احتياجاتها ؟

- إنهم يكلفون في الحفاظ عليهم أكثر مما يؤدونه من أعمال.

- ربما اليوم ولكن كيف لنا أن نعرف احتياجاتنا بعد خمس أو عشر سنوات من الآن ؟ هل كنا نتوقع هذه الطفرة في القطن الآن منذ عشر سنوات؟ ثم أنني لم اتفق قط على قولك أن العبيد يكلفون كثيراً.. أليسوا هم الذين يزرعون ويحصدون ما يأكلونه ؟ ثم أنهم يتوالدون.. وكل طفل زنجي يولد يساوي مالاً بالنسبة لك أيضاً.. والعديد منهم قادرون جداً على تعلم مهارات تجعلهم أكثر قيمة.. وأنا مقتنع أن العبيد والأرض أحسن الاستثمارات.. ولن أبيع أبداً أي عبد ملكي لنفس السبب ..فهم عماد نظامنا وعموده الفقري.

-

- ربما كان النظام قد بدأ في التغيير دون أن تدرك ذلك.. انظر إلى هؤلاء الأدعياء ذوي الياقات الحمراء الذين يفأفئون في أحاديثهم.. والذين يدورون حولنا وكأنهم دخلوا طبقة الزُراع لمجرد أنهم اشتروا واحدة أو اثنين من العبيد المحطمين لإنهاء أعمالهم حتى الموت لزيادة محصولاتهم التي تثير الشفقة من القطن والتبغ.. إنهم لا يستحقون إلا الاحتقار.

- ولكن ذوي الياقات الحمراء يبدو أنهم يتكاثرون حتى أسرع من الزنوج.. وربما يزدادون في العدد فوق أرضنا وفي الأعمال.

- قهقه السيد وقد بدأ مسروراً من أفكاره: حسناً.. لا أظن أن لدينا الكثير لتقلق بشأنه.. طالما فقراء البيض يتنافسون مع السود الأحرار لشراء العبيد الكسر.

- انضم إليه ابن عمه في الضحك وقال: نعم.. أليس هذا أمر غير معقول ؟ لقد سمعت أن نصف الزنوج الأحرار في المدن يعملون ليل نهار ليوفروا المال الكافي لشراء أقاربهم ثم يطلقون سراحهم.

- قال السيد: لهذا السبب لدينا العديد جداً من العبيد الأحرار في الجنوب.

- قال ابن عمه: اعتقد أننا نسمح بالعديد منهم في (فرجينيا).. إنهم ليسوا فقط يفسدون قوة العمل عندنا فحسب عن طريق شرائهم لأقاربهم.. وإنما يخلقون عدداً كبيراً من العبيد السود الأحرار.. وهم أيضاً جذور الثورات.. ولن نستطيع أبداً أن ننسى بسهولة ذلك الحداد في (ريتشموند).

- قال السيد: هذا صحيح ولكني ما مازلت اعتقد أنه بالقوانين الجيدة والصارمة الكافية يمكن أن نبقيهم في أماكنهم وجعل محدثي الشغب منهم عبرة.. وبعدها يمكن معظمهم أن يستخدم لأغراض نافعة في المدن.. لقد قلت ذلك لتوي إنهم يسيطرون على معظم المهن.

-

- قال ابن العم: في الرحلات التي أقوم بها رأيت بنفسي مدى انتشار ذلك.. إنهم عمال في مخازن البضائع.. وفي الموانى وتجار وحانوتية وبستانية.. وهم أُحسن طهاة وموسيقيين بالطبع.. وسمعت أنه لا يوجد حتى حلاق أبيض واحد في كل مدينة لينشريج وأنا أفضل أن أنمي لحيتي.. ولا أدع أبداً واحداً منهم يقترب من رقبتي وفي يده موسى.

ضحك الاثنان ولكن السيد بعد ذلك عادة جاداً :

- أعتقد أن المدن تسبب لنا مشاكل اجتماعية أكبر مما يسببها السود الأحرار.. أعني بذلك تجار العبيد زلقي اللسان والموثوق بهم.. لقد سمعت أن معظمهم كانوا ملاك حانات سابقين ومنجمين ومدرسين عديمي الخبرة ومحامين ووُعاظ وما شابه ذلك.. وقد اقترب مني ثلاثة أو أربعة منهم في عاصمة المقاطعة.. وقدموا أسعاراً غير مسبوقة لعبيدي.. بل أن واحداً منهم واتته الوقاحة لأن يترك بطاقة في بيتي هنا.. وبقدر اهتمامي إلا أنهم جميعاً أفاقون بلا أي وازع.

وصلوا إلى بيت السيد (وولر) وبدأ (كونتا) وكأنه لم يسمع شيئاً مما قالوه.. قفز إلى الأرض لمساعدتهما على الخروج.. وعندما وصلا إلى الداخل واغتسلا بعد الرحلة المتربة استقرا في حجرة المكتب.. ونادى السيد على (بيل) لتحضر لهم المشروبات.. وقد عرف كل شخص في المزرعة من (كونتا) الحقيقة فالسيد ليست لديه أي نية لبيعهم.. ولم يمر وقت طويل بعد العشاء إلا و(كونتا) يكرر على صف العبيد المتلهفين كل المحادثة بقدر ما استطاع نقلها.

ساد الصمت لحظة.. ثم تكلمت (ماندي): السيد وابن عمه تحدثاً عن الزنوج الأحرار الذي يقتصدون من أجل شراء حرية أقاربهم.. أريد أن أعرف كيف استطاع الزنوج الأحرار تحرير أنفسهم ؟

قال (فيدلر): حسناً كل مجموعة أسياد من عبيد المدينة يدعونهم يتعلمون المهن.. ثم يؤجرونهم في الخارج.. ويمنحوهم بعضاً من أجرهم مثلما يفعله السيد معي.. وبعد عدة سنوات.. عشر.. أو خمس عشر سنة من التوفير إذا كان محظوظاً يستطيع الزنجي الأجير أن يعطي سيده المال ليحرر نفسه.

سأله (كاتوا): ألهذا السبب تظل مشغولاً بالعزف على الكمان ؟

قال (فيدلر): أنا أفعل ذلك لأنني أحب أن أرى البيض يرقصون.

- ألم توفر ما يكفي لتحرير نفسك ؟

- لو كان معا ما يكفي لتحريري ما بقيت هنا لأراك تسألني هذا السؤال.

ضحك الجميع وقال (كاتوا) في إلحاح: هل اقتربت إذن ؟ حسناً ولكن إذا حصلت على الحرية ماذا ستفعل.

- سأسابق الريح إلى الحدود واتجه إلى الشمال.. سمعت أن بعض الزنوج الأحرار يعيشون أفضل بكثير من العديد من البيض.. وهذا يبدو حسناً بالنسبة لي.. وأتوقع أن أتحرك إلى الخطوة التالية لأحد الخلاسيين الراقين وأبدأ التحدث باللهجة الأرستقراطية.. وارتدى الحرير مثلما يفعلون.. وأبدأ في العزف على القيثارة.. واذهب إلى الاجتماعات لمناقشة الكتب.. وأربى الزهور وأشياء أخرى مثل هذه.

عندما خف الضحك سألت العمة (سوكي): ماذا تظنون جميعاً فيما يقوله البيض دائماً من أن الخلاسيين والمخلطين ينجحون في أعمالهم لأن الجزء الأبيض من دمائهم يجعلهم أكثر ذكاء منا ؟

قالت (بيل) دون تعليق: حسناً.. الرجال البيض يخلطون ما يكفي من الدماء.

صاح (فيدلر) محاولاً أن يبدو وكأنه تلقى إهانة: حافظي على كلامك لأنك تتحدثين عن مراقب أمي جاهل.

أوشك (كاتوا) أن يسقط من فوق مقعده من الضحك إلى أن ضربت (بيل) رأسه من الخلف بكفها.. استمر (فيدلر) في حديثه: كونوا جادين ! لقد سألت العمة (سوكي) سؤالاً أنوي أن أجيب عنه.. إذا كنتم تحكون حسب الجنس مثلي إذا فأعلموا أن الزنوج فاتحي اللون أذكياء.. وخذوا مثال على ذلك (بنجامين بانيكر) ذو البشرة البنية.. والذي يسميه البيض (عبقري الأصابع).. والذي يدرس حتى النجوم والقمر.. وهناك عدد لا يحصى من الزنوج الأذكياء السود.. مثلنا جميعاً.

قالت بيل: لقد سمعت السيد يتحدث عن (جيمس ديرهام) الطبيب الزنجي في (نيوأورليانز) أعلن أنه يعرف أكثر من الطبيب الأبيض الذي علمه وهو أسود مثلنا أيضاً.

قال (فيدلر): سأخبركم عن شخصٍ آخر.. لقد رأيت صوراً لبعض الوعاظ العظام الذين بدؤوا في كنائس الزنوج ومعظمهم سود جداً لدرجة أنه من الصعوبة أن تراهم ما لم يفتحوا أفواههم.. وماذا عن ذلك (فيليس ويبتلي) الذي يكتب أشعاراً يقول عنها الناس البيض أنها ممتازة.. وكذلك (جوستافوس ناس) الذي يؤلف كتباً ؟ كلاهما جاء مباشرةً من أفريقيا مثل (كونتا) وليس بهم أي نقطة من الدم الأبيض.. ومع ذلك لا يبدوان غبيين على الإطلاق بالنسبة لي !.

ثم ضحك (فيدلر) وقال: لأنه دائماً هناك زنوج أغبياء.. مثل (كاتوا)!.

نهض (فيدلر) وقفز وانطلق بعدو.. و(كاتوا) خلفه يصيح: سأمسك بك وسأغرس رأسك في الأرض.

عندما كف الباقون عن القهقهة تكلم (كونتا): أضحكوا ما شئتم.. كل الزنوج هم مثل البيض على حد سواء.. ونقطة واحدة من دم الزنجي يعني زنجي حتى لو كانت أكثر بياضاً منهم.. لقد أرسل قائد فرنسي اسمه نابليون عبر المياه الكبيرة جيشاً ضخماً استطاع بعد معارك ضارية وحمامات دم استعادة (هاييتي) من السود.. ومن محرروهم الجنرال (توسان) الذي كان قد دُعيَّ للعشاء من قِبل قائد الجيش الفرنسي.. وارتكب غلطة قبول الدعوة.. وأثناء الوليمة أمسك السُقاةُ بـ (توسان).. وأوثقوه ودفعوا به إلى سفينة متجهة إلى فرنسا حيث أُخِذَ إلى هناك مكبلاً بالسلاسل أمام نابليون.

قال له (فيدلر): أعرف كيف تشعر بالنسبة لـ توسان.. ولا أريد منك أن تظن أنني آخذ الأمر على محمل الاستخفاف.. ولكن لديَّ خبرٌ لست بقادرٍ على الاحتفاظ به دقيقة أخرى.

حملق (كونتا) في (فيدلر) وهو متضايق أكثر لدرجة أنه كان على وشك الانفجار.. ما الخبر الذي يمكن أن يكون حسناً لدرجة أن يؤثر على احترام المرء لمهانة أعظم قائد أسود على مر الزمان ؟ قال (فيدلر) وهو مذهول من الإثارة:

- لقد فعلتها.. إنني لن أمكث هنا سوى شهر واحد.. سألني (كاتوا) كم اقتصدت؟ ولكن كان ينقصني بضعة دولارات.. والآن لقد نجحت في تحقيق ذلك مع آخر رحلة.. لقد اقتضى مني الأمر العزف أكثر من تسعمائة مرة من أجل رقص البيض.. ولم أكن أعرف أني سأنجح أبداً لذلك حصلت على السبعمائة دولار التي أخبرني عنها السيد من زمن بعيد أن على أن أكسبها لاشتري لنفسي حريتي.

كان (كونتا) مذهولاً لدرجة تمنعه من الكلام.

قال (فيدلر) وهو يفتح مرتبته ويخرج محتوياتها على الأرض من مئات الدولارات منثورة عند قدميه: انظر هنا ! ثم انظر هناك !

سحب حقيبة من تحت السرير وأفرغ فوقها المال.. مئات من العملات المعدنية من كل فئة: حسناً يا أفريقي ! ألن تقول شيئاً أم ستظل واقفاً فاغراً فمك ؟

قال كونا: لست أدري ماذا أقول !

- ما رأيك في أن تقول مبروك ؟

- إن الأمر يبدو رائعاً لدرجة لا تصدق.

- إن الأمر حقيقي.. لقد عددتها ألف مرة.. بل أنني حصلت على زيادة لأشترى بها حقيبة ملابس مقواة..

لم يكن (كونتا) يصدق ذلك.. إن الـ (فيدلر) سيكون حراً.. إنه ليس مجرد حلم.. شعر (كونتا) بأنه يضحك ويبكي على نفسه أكثر من بكاءه على رحيل صديقه الذى بات وشيكاً.. ركع (فيدلر) وبدأ جمع المال وهو يقول:

- اسمع.. أنت أصم وأبكم بالنسبة لما رأيته حتى صباح الغد.. اتفقنا ؟ وذلك حتى أذهب لمقابلة سيدي.. وأخبره بأن ثروته ستزيد سبعمائة دولار.. أنك ستستعد مثله تماماً عندما تراني أرحل.. أليس كذلك؟

قال (كونتا): سأكون سعيداً بالنسبة لك.. وليس بالنسبة لي.

- إذا كنت تحاول أن تجعلني أشعر بالرثاء لك فإنني سأشتري لك حريتك أيضاً.. ولكن يجب عليك الانتظار بعض الوقت.. لقد استغرق الأمر مني ثلاثة وثلاثين عاماً أعزف الكمان حتى أصبح حراً.

عندما عاد (كونتا) إلى كوخه بدأ يشعر بالشوق إلى (فيدلر) بالفعل.. أساءت (بيل) فهم حزنه بالأسى على (توسان) لذلك لم يكن مضطراً لإخفاء أو شرح ما يشعر به.. وعندما ذهب إلى كوخ (فيدلر) في صباح اليوم التالي بعد إطعام الجياد وجد الكوخ خالياً.. لذلك ذهب ليسأل (بيل) إن كان (فيدلر) بالداخل مع السيد.. ردت: لقد رحل منذ ساعة.. بدا وكأنه رأى شبحاً.. ما خبره ؟ وما الذي كان يريده من السيد على أي حال ؟

سألها (كونتا): ما الذي قاله عندما خرج ؟

- لم يقل شيئاً.. أقول لك أنه مر بي.. وكأنه لم يرني.

دون كلمة سار (كونتا) خارج الباب الزجاجي.. وعاد إلى صف الزنوج و(بيل) تنادي عليه: إلى أين أنت ذاهب ؟ ولما لم يرد عليها قالت: حسناً.. لا تخبرني بشيء فأنا مجرد زوجتك !

وكان (كونتا) قد اختفى.. وبعد أن سأل من حوله وهو يقرع باب كل كوخ.. بل وحتى مد رأسه إلى الداخل في خصوصية شاغليها.. ثم توجه إلى سياج مخزن الغلال.. وبعد أن سار مسافة سمع الألحان البطيئة الحزينة لأغنية كان قد سمعها من السود في اجتماع مخيم الرب يغنونها ذات مرة.. ولكن هذه المرة كانت تعزف على كمان.. كان (فيدلر) ينتحب وهو يسير ببطء بجوار السياج.. أسرع (كونتا) في خطواته إلى أن ظهر أمامه منظر شجرة بلوط ممتدة فوق جدول ماء بالقرب من حافة أملاك السيد (وولر).. وعندما اقترب أكثر رأى آثار حذاء (فيدلر) ممتدة إلى ما خلف الشجرة

وعندئذ توقف العزف وكذلك (كونتا) وهو يحس فجأة وكأنه دخيل.. وقف ثانياً منتظراً أن يستأنف العزف.. ولكن طنين النحل وخزير ماء الجدول كانت هى الأصوات الوحيدة التي تكسر السكون.. أخيراً تحرك (كونتا) حول الشجرة وواجه (فيدلر) كانت نظرة واحدة هي كل ما يحتاج ليعرف ماذا حدث.. لقد ذهب النور عن وجه صديقه.. وانطفأ البريق المعتاد في عينيه.. جاء صوت (فيدلر) مشروخاً: هل تريد بعض الحشو لمرتبتك ؟

لم يقل (كونتا) شيئاً.. بدأت الدموع تسيل على خدي (فيدلر) ومسحها وكأنها حمض لاذع وجاءت كلماته في اندفاع: لقد أخبرته أنني حصلت على النقود لشراء حريتي.. كل بنس منها.. ونظر إلى السقف وهنأني على توفيري كل هذا القدر.. همهم وتمتم دقيقةً ثم قال لي إذا أردت الحرية فإن السبعمائة دولار يمكن أن تكون دفعة أولى لأنه بالنسبة للأعمال التجارية لابد أن يؤخذ في الاعتبار كيف أن أسعار العبيد قد ارتفعت منذ أن تحدثنا.. وقال أنه الآن لا يستطيع أن يقبل أقل من ألف وخمسمائة دولار على الأقل ثمناً لعازف كمان جيد مثلي.. وأنه يستطيع أن يحصل على ألفين وخمسمائة لو أراد أن يبيعني لشخصٍ آخر.. وقال أنه آسف حقاً.. ولكن يأمل أن أفهم أن العمل عمل.. وإنه لابد أن يحصل على عائد عادل لاستثماره.

بدأ (فيدلر) ينتحب دور خجل وقال: لقد قال أن كوني حراً لن ينفعني على أية حال.. ولكنه يتمنى لي الحظ الحسن في الحصول على البقية إذا أصررت على طلبي.. وطلب مني وأنا خارج أن أطلب من (بيل) أن تحضر له القهوة.

صمت ووقف (كونتا) في مكانه بلا حركة.. صرخ (فيدلر) فجأة وهو يطوح ذراعيه للأمام والخلف وألقى بكمانه في الجدول: ابن الزانية هذا !

أراد (كونتا) أن يلتقط الكمان من الجدول قبل أن يغرق فرأى أنه مكسور.

***

بعد شهور قليلة.. عندما عاد (كونتا) إلى البيت هو والسيد.. كانت (بيل) قلقة لأن كليهما كان متعباً حتى إنهما لم يستطيعا أكل وجبة عشاء جيدة التى أعدتها.. كانت حمى غريبة قد بدأت تغزو المقاطعة.. وكان الرجلان يرحلان مبكرين أكثر من المعتاد كل صباح ويعودان متأخرين أكثر في الليل.. كان السيد باعتباره طبيب المقاطعة عليه أن يواصل مقاومة العدوى.

كان (كونتا) متهالكاً للغاية لدرجة أنه ألقى بجسده فوق المقعد الهزاز وهو يحملق ساهماً في النار لدرجة أنه حتى لم يشعر بـ (بيل) وهي تتحسس جبينه وتخلع حذاءه.. ومرت نصف الساعة قبل أن يدرك فجأة أن (كيزي) ليست في حجرتها كالمعتاد لتريه بعض اللعب التي صنعتها أو تثرثر حول ما فعلته طوال النهار سأل فجأة: أين الطفلة ؟

قالت (بيل): لقد نامت في الفراش من ساعة.

سأل وهو ينتصب في جلسته: هل هي مريضة ؟

- لا.. وإنما منهكة من اللعب.. لقد أتت الآنسة (آن) اليوم ـ وغيرت (بيل) الموضوع ـ بينما روزبي ينتظر ليعيدها إلى البيت أخبرني أنه سمع (فيدلر) يعزف في الليلة قبل الماضية في حفل كان روزبي قد صحب السيد (جون) إليه في (فريدريكسبرج) وقال أنه تعرف على (فيدلر) بصعوبة.. وأن عزفه لم يعد نفس العزف.. ولم أخبره أنا نفسي أن (فيدلر) ليس نفس الشخص منذ أن اكتشف أنه ليس حراً.

قال (كونتا): يبدو أنه لم يعد يهتم بأي شيء.

- يبدو ذلك.. وهو مستمر في الاحتفاظ بذلك في نفسه.. ويكاد لا يومئ مجيباً لأي شخص فيما عدا (كيزي) عندما تحضر له العشاء وتجلس معه حتى ينتهي من تناوله.. أنها الوحيدة التي يريد أن يفعل معها أي شيء.. بل إنه حتى لم يعد يقضي معك أي وقت.

قال (كونتا) بطريقة غريبة: ما الذي جرى.. الحُمى انتشرت في المنطقة.. أنني لست على استعداد لقضاء أي وقت في أي زيارة.

- نعم لقد لاحظت ذلك.. إنك لن تجلس هنا حتى منتصف الليل.. وعليك أن تذهب مباشرةً للسرير.

- دعيني في حالي يا امرأة.. أنا بخير.

قالت (بيل) في تصميم وهي تمسك بيده لتساعده: الآن أنت لست بخير.

قادته إلى غرفة النوم دون مقاومة.. وجلس (كونتا) على حافة السرير بينما ساعدته هى في خلع ملابسه.. ثم استلقى وهو يزفر قالت له: استدر وأعطني ظهرك لأدلكه.

أطاعها وبدأت تدلك رقبته بأصابعها الصلبة تأوه فقالت له: ما الأمر ؟.. هل أدلك بهذه القسوة ؟

ـ ثم وهي تضغط لأسفل أكثر حتى وسط ظهره ـ هل هنا يؤلمك ؟

قالت وهي تخفف من لمساتها لتداعبه: أن الأمر لا يبدو كما تقول.

-كل ما هناك أنني متعب وأريد النوم طوال الليل..

- قالت وهي تطفئ الشمعة وتصعد إلى جواره.. سنرى.. وحاولت دون جدوى !

ولكنها عندما قدمت الإفطار لسيدها في الصباح التالي كان عليها أن تخبره بأن (كونتا) غير قادر على النهوض من فراشه.. قال السيد وهو يخفي ضيقه: محتمل أن يكون ذلك من الحمى.. أنت تعرفين ما تفعلينه معه.. وفي نفس الوقت هناك وباء ينتشر ولابد أن يكون لديَّ سائق.

- نعم يا سيدي.. هل لديك اعتراض على عامل الحقل (نوح) ؟ إنه يكبر بسرعة لدرجة أنه أصبح في حجم الرجل.. وهو يتعامل مع البقال جيداً.. ويستطيع أن يقود الجياد أيضاً.

-كم عمره الآن.

- أنه أكبر من ابنتي (كيزي) بسنتين.. وهذا يجعل سنه ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً على ما أظن.

قال السيد: إنه صغيرٌ جداً.. اذهبي وأخبري عازف الكمان أن يتولى ذلك أنه لا يعمل كثيراً في الحديقة.. أو حتى في العزف على الكمان مؤخراً.. اجعليه يربط الخيول ويأتي إلى هنا الآن؟

في طريقها إلى كوخ (فيدلر) خمنت (بيل) أنه إما لن يهتم.. أو سيغضب جداً من الأمر.. ولكنه عندما علم أن (كونتا) مريض اهتم جداً لدرجة أنها اضطرت أن تمنعه من التوقف عند كوخها قبل أن يصحب السيد.

ومن هذا اليوم كان (فيدلر) رجلاً مختلفاً.. وبالتأكيد ليس أسعد مما كان يتظاهر به خلال الشهور القليلة الماضية.. ولكنه كان مُهتماً ومُقدراً ولا لتعب أثناء قيادته لحنطور السيد على طول المقاطعة وعرضها ليل نهار.. ثم يعود إلى البيت ليساعد (بيل) في العناية بـ (كونتا) والآخرين في صف الزنوج الذين أصيبوا أيضاً بالحمى.

ولم يمر وقت طويل إلا وأصبح العديد من الناس مرضى سواء في المزرعة أو خارجها لدرجة أن السيد حث (بيل) على العمل معه كممرضة.. وكان ينقلها الفتى (نوح) في العربة التي يجرها البغل للعناية بالسود واعترفت لـ (فيدلر): إن لدى سيدي أدويته وأنا لي أدويتي.

فبعد أن تستخدم أدوية السيد كانت تعطي مرضاها لبختها السرية المصنوعة من الأعشاب الجافة مخلوطة بالماء لدرجة الغليان ثلاث مرات.. لدرجة أنها كانت تقسم أنها فعالة أكثر وأسرع من العديد من أدوية البيض.. وقد اعترفت للأخت (ماندي) والعمة (سوكي) أن ما يمكن أن يشفيهم حقاً هي أنها تركع على ركبتها بجوار سرير المريض وتصلي من أجلهم وتقول: ما يهبه الرب للإنسان يأخذه بعيداً إذا أراد ذلك.

ولكن البعض من مرضاها ماتوا بالفعل.. ولما كانت حالة (كونتا) تزداد سوءاً بإطراد رغم كل ما فعله السيد و(بيل) فإن صلواتها أصبحت أكثر فأكثر حمية.. وكانت تصرفات (كونتا) الغريبة والعنيدة والصامتة قد نسيها تماماً.. وكذلك كانت هي متعبة لدرجة تمنعها من النوم.. وتجلس بجوار سريره كل ليلة وهو مستلق وعرقه يسيل بغزارة.. ويسعل.. ويتأوه.. وأحياناً ما يخرف في حالة من الذهول.. كومت فوقه العديد من الألحفة لخدم موجات التشنجات التى تعتريه.. وكانت تمسك بيده الساخنة والجافة بين يديها وهي خائفة لدرجة اليأس من ألا تستطيع أن تقول له أن الأمر استغرق منها كل هذه السنين لتدرك أنه رجل من معدن ممتاز وأخلاق قوية.. لم تعرف أبداً مثله.. وكم أحبته بعمقٍ شديد.. استمر في غيبوبة لمدة ثلاثة أيام عندما أتت الآنسة (آن) لزيارة السيد ووجدت (كيزي) في الكوخ مع (بيل) والأخت (ماندي) والعمة (سوكي) ولكنهن يبكين ويصلين.. عادت الآنسة (آن) وهي تبكي هي الأخرى.. بدأ غريباً أنها تريد أن تقرأ شيئاً من الإنجيل من أجل والد (كيزي).. ولكنها لا تعرف ماذا يصح أن تقرأ منه في الإنجيل.. لذلك طلبت منه أن يتفضل ويريه لها.. ونهلت عينا السيد من عيني ابنة أخيه الحبيبة الدامعتين.. ونهض من فوق الأريكة وفتح خزانة الكتب وأخرج إنجيله الكبير الأسود.. وبعد لحظة تفكير فتحه على صفحة وأشار بسبابته إلى النقطة التي عليها أن تبدأ منها.. عندما سرى الحديث بين العبيد أن الآنسة (آن) ستقرأ شيئاً سرعان ما تجمع الكل خارج كوخ (كونتا) و(بيل) وبدأت تقرأ:

- الرب هو راعيني.. ويجعلني استلقى في المراعى الخضراء وهو يقودني في طرقات الصواب من أجل اسمه.. نعم.. رغم أنني أمشى في وادي ظل الموت.. فإنني أخشى أي شر لأن هؤلاء الذين هم معى فإنهم يبكون معي ويريحوني.

توقفت ثانية لتأخذ نفساً عميقاً.. ونظرت لأعلى في الوجوه التي تراقبها.. تأثرت الأخت (ماندي) بعمق ولم تستطيع أن تمنع نفسها من أن تصيح: أرجوك أيها الرب أن تسمع هذه الطفلة التي كبرت وعرفت كيف تقرأ جيداً.. ووسط ضجيج الدعوات من الآخرين تعجبت (آدا) أم (نوح).. إن الأمر يبدو وكأنها بالأمس فقط تجري في حضانتها.. كم عمرها ؟

قالت (بيل) بفخر وكأنها ابنتها: إنها تجاوزت الرابعة عشر بقليل.. أرجوكِ أن تقرئي لي قليلاً يا حلوتي.. أحمر وجه (آن) من هذه المجاملات وقرأت آخر أية من المزمور الثالث والعشرين.

ما بين العلاج والصلوات أظهر (كونتا) بعد أيام قليلة علامات بداية الشفاء كانت (بيل) تعلم أنه سيكون بخير عندما حملق فيها.. ونز من حول عنقه قدم الأرنب الجافة.. وكيس نبات الحليتين اللذين ربطتهما (بيل) هناك لتبعد المزيد من سوء الحظ والمرض.. وعرفت (كيزي) ذلك عندما همست في أذنه أنه في صباح القمر الجديد الماضي وضعت حصاة في قرعته.. ووجدت على وجهه المشدود ابتسامة عريضة.. واستيقظ (كونتا) في أحد الأيام صباحاً فزعاً على صوت عزف كمان بجواره قال (كونتا) وهو يفتح عينيه: لابد أني أحلم.

قال (فيدلر): لابد أنك لا تحلم.. لقد مرضت وتعبت من القيادة لسيدك الذي يذهب إلى الجحيم.. لقد أحدث ثقوباً محترقة في معطفي بسبب نظره إلى ظهري.. لقد حان الوقت لتنهض.



كيزي تتعلم القراءة والكتابة

جلس (كونتا) منتصباً في سريره في اليوم التالي عندما سمع (كيزي) تدخل الكوخ وهي تضحك وتثرثر مع الآنسة (آن) التي كانت في إجازة من المدرسة.. وسمعهما يسحبان مقعدين ليجلسا أمام المائدة في الغرفة المجاورة.. سألت الآنسة (آن) في جدية وهي تلعب دور المدرسة: هل ذاكرت دروسك يا (كيزي) ؟

ردت (كيزي) وهي تكتم ضحكها: نعم يا سيدي.

- حسناً جداً.. ما هذا ؟

بعد فترة صمت قصيرة سمع (كونتا) وهو ينصت بشدة (كيزي) تتلعثم وهي لا تستطيع أن تتذكر قالت الآنسة (آن): إنه حرف دال والآن ما هذا ؟

في الحال ردت (كيزي) في انتصار: هذه الدوائر هي حرف أوو.

ضحكت الفتاتان في سعادة: حسناً.. أنت لم تنسيه الآن ما هذا ؟

عرف من صمت (كيزي) أنها لا تعرف فصاحت الآنسة آن: كلب ! هل تسمعيني ؟ لا تنسى (ك. ل . ب) ! لابد أن تتعلمي الحروف جيداً ثم سنتمرن على كيف نصنع كلمات.

بعد أن غادرت البنتان الكوخ استلقى (كونتا) وهو يفكر بعمق.. لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يحس ببعض الفخر من مقدرة (كيزي) على التعلم.. ومن ناحية أخرى لم يستطع أن يهضم أن عقلها تحشوه أشياء خاصة بـ (الطوبوب) وبدت مؤخراً لا تهتم بالحديث عن أفريقيا.. ولكنه تساءل أن كان عليه أن يعيد التفكير في قراره أن يعلمها كيف تقرأ العربية.. ولكنه فكر في أن ذلك سيكون سخيفاً تماماً مثل تشجيعها على الاستمرار في دروسها مع الآنسة (آن) ليفرض أن السيد (وولر) اكتشف أن (كيزي) يمكنها أن تقرأ بأي لغة.. ستكون هذه طريقة جيدة لإنهاء تعليم البنت البيضاء لابنته.. وأيضاً أفضل أنها قد تنهي علاقتهما.. ولكن المشكلة هي أن (كونتا) لا يستطيع أن يتأكد من أن السيد سينهي الوضع عند هذا الحد..

عموماً تخلص عازف الكمان من قيادة حنطور السيد.. وعاد هو لعمله.. ولكن حتى بعد رحيل الآنسة (آن) وليلة بعد ليلة و(بيل) تحيك أو تغزل في مقعدها الهزاز.. أما المدفأة فكان (كونتا) ينحني على المائدة وقلمه الرصاص يكاد يلمس خده وهو يحاكي في عناية الكلمات التي أعطتها الآنسة (آن) لـ (كيزي) أو من شريحة ممزقة من جرائد السيد التي استغنى عنها.. كان يجلس وظهره لهما.. وكان أحياناً ما يسمع (كيزي) تشارك أمها (بيل) رغم أن (كيزي) كانت تعلم بقدرة أمها على القراءة والكتابة بنفسها وقد تشرح لـ (كيزي): والآن هذا حرف " أ " يا أمي وهذا "أوو" وهو دائرة صغيرة.. وفي الوقت المناسب بدأت تنتقل إلى الكلمات تماماً كما فعلت الآنسة (آن) معها: هذا كلب.. وهذه قطة.. وهذه (كيزي) وهذا هو اسمك (ب ي ل) ما رأيك ؟ اكتبيها الآن.

وقد تتظاهر (بيل) تماماً بأنها تصارع القلم وهي تخط الكلمة متعمدةً أن ترتكب بعض الأخطاء حتى تتاح الفرصة لـ (كيزي) لتصحيحها وتقول (كيزي) في فخرٍ أن لديها شيئاً ما تعلمه لأمها.. أنت تحبين دائماً أن أريك يا أمي.. أنك تكتبين جيداً مثل ما أفعل.

وفي إحدى الليالي أرسلت (بيل) ابنتها للفراش.. وبعد ذلك مباشرة استلقت بجوار (كونتا) وقالت في هدوء: لم يعد الأمر لعبة.. هذه الطفلة تعرف بالفعل أكثر مني.. فقط أتمنى أن يسير الأمر على ما يرام.. رحماك يا ربي !

وعلى مدى الشهور التالية استمرت (كيزي) والآنسة (آن) في زيارة كل منهما الأخرى غالباً في العطلات الأسبوعية.. وبعد فترة بدأ (كونتا) يكتشف أو يحس بسرعة أن هناك تباعد خفيف وبطئ في علاقة البنتين.. وقلت زيارات الآنسة (آن) تدريجياً.. وبدأت تنضج نحو الأنوثة النسائية التي تفصلها عن (كيزي) بأربع سنوات.. وأخيراً اقترب الحدث الهام في حياة الآنسة (آن) وهو بلوغها السادسة عشرة من عمرها.. ولكن قبل ثلاثة أيام من الحفلة التي خطط لها امتطت الآنسة العنيدة صلبة الرأس جوادها وجرت به في غضب إلى منزل السيد (وولر)

وقالت له بين دموعها الغزيرة! أن أمها المريضة مصابة بإحدى نوبات صداعها في محاولة منها لإلغاء الحفل.. وبمزيدٍ من الدلال وتأثر عينيها ذات الرموش الطويلة توسلت إلي عمها أن يكون حفلها في بيته بدلاً من بيت أبيها.. كان السيد (وولر) غير قادر على رفض أي شيء تطلبه منه.. فقال لها: نعم بالطبع.. وعندها اندفع (روزيي) عبر كل المقاطعة ليخطر عشرات المراهقين من الضيوف بتغيير العنوان.. وساعدت (بيل) و(كيزي) الآنسة (آن) في الاستعدادات المهووسة التي أتت في آخر دقيقة.. وقد أتموها بالكاد في الوقت المناسب.. وساعدت (كيزي) الآنسة (آن) في ارتداء تنوره الحفلة.. وفي النزول لتحية ضيوفها.. ولكن عندئذ كما أخبرت (بيل) (كونتا) أنه فيما بعد ومنذ اللحظة التي وصلت فيها أولى العربات تصرفت الآنسة (آن) فجأة وكأنها لا تعرف (كيزي) قط.. وأنها ظلت مرتدية للمريلة المنشاة الرسمية لتدور حول الضيوف تحمل صواني المنعشات إلى أن جاءت الطفلة المسكينة تتخبط في المطبخ وقد ذرفت كل دموعها.. وفي تلك الليلة في الكوخ كانت (كيزي) لا تزال تبكي و(بيل) تحاول أن تسري عنها قائلة:

- إنها فقط وجدت نفسها في فوضى وارتباك يا حلوتي.. وعقلها مشغول بمثل تلك الأمور وليس معنى هذا أنها لا تفكر فيك.. فهى لم تقصد أي إساءة.. وهذا الوقت والسن دائماً ما يأتيان لكل منا.. فعندما تكبرين وسط الناس البيض فيتحين عليك فقط أن تسيري في طريقك وهم يسيرون في طريقهم.

جلس (كونتا) وهو مهتاج بنفس الانفعالات التي شعر بها عندما رأى لأول مرة الآنسة (آن) تلعب مع طفلته (كيزي) في سلتها.. وعبر السنوات الاثنى عشر من وقتها للآن طلب من الله في العديد من المرات أن ينهي تقارب بنت الطوبوب من ابنته (كيزي).. ورغم أن صلواته أخيراً استُجبت لكن لا يزال ذلك يؤلمه ويغضبه أن يرى ابنته مجروحةً بهذا العمق.. وكان من الضروري وبالتأكيد أن تتعلم من هذه التجربة.. وعندما رأى ذلك التوتر الذي عليه (بيل) وهي تتكلم مع ابنتها شعر ببعض الأمل أن (بيل) قد شفيت بعض الشيء من عاطفتها الكبيرة المرضية نحو تلك الآنسة الشابة الخادعة.

استمرت الآنسة (آن) في زيارة السيد (وولر) رغم أن الزيارات قلت كثيراً جداً عن الماضي حيث قال روزبي لـ (بيل) أن الآنسة أصبحت مشغولة أكثر بالسادة الشباب.. وعندما كانت تقوم بالزيارة كانت تُقبلُ دائماً (كيزي).. وعادةً ما كانت تحضر معها ثوباً قديماً لـ (بيل) لتضبطه على (كيزي) التي كانت أضخم منها جسدياً رغم أنها أصغر منها سناً.. ولكن أصبح الآن وكأن الأمر اتفاقاً غير معلن بينهما كانت كلتاها تقضيان حوالي نصف الساعة معاً تسيران وتتحدثان في هدوء في الفناء الخلفي بالقرب من صف العبيد.. بعدها ترحل (آن).. وتقف (كيزي) دائماً تراقبها.. ثم تسير بسرعة عائدة إلى كوخها.. وتنهمك في الدراسة.. وعادةً ما تقرأ وتكتب حتى وقت العشاء.. وظل (كونتا) لا يحب ذكر قدراتها المتزايدة على الكتابة والقراءة.. ولكنه تقبل كونها لابد أن تجد شيئاً تشغل به نفسها بعد أن فقدت الآن رفيقة عمرها.. لقد كانت (كيزي) نفسها تقترب من سن المراهقة.. وفكر أن ذلك من المحتمل أن يشكل لهما مساحة كاملة من الوساس.

بعد الكريسماس مباشرةً في العام التالي 1803 هبت الريح.. وأسقطت ندفاً غزيرة من الثلج.. إلا أن بعض الأماكن في الطريق اختفت.. وأصبحت لا يمكن اختراقها بالنسبة للجميع عدا العربات الضخمة.. وعندما كان السيد يخرج رداً للضرورة كان عليه أن يمتطي أحد الجياد ويبقى (كونتا) في المزرعة ليساعد (كاتوا) و(نوح) و(فيدلر) على إبقاء الممر نظيفاً.. وقطع الأخشاب من أجل النيران.. انعزل صف العبيد في مكانهم حتى من جريدة السيد التي توقفت عن الوصول حوالي شهر بسبب الثلج.. وظلوا يتكلمون عن آخر مقتطفات الأخبار التي وصلت إليهم.. وسعادة السادة البيض من الطرق التي يحكم بها الرئيس (جيفرسون) ورغم تحفظات السادة المبدئية نحو وجهات النظر التي تتعلق بالعبيد.. فإن الرئيس (جيفرسون) منذ تولى السلطة خفض حجم الجيش والبحرية وبالتالي خفض من الدين العام.. بل وألغى ضريبة الأملاك الشخصية.. وهذا العمل الأخير قال عنه (فيدلر) أنه أثر بشكل خاص على طبقة السادة.. ولكن (كونتا) قال أنه عندما قام بآخر رحلة له في حاضرة المقاطعة قبل أن تحاصرهم الثلوج.. فقد بدا أن البيض بالنسبة له أكثر إثارة حول شراء الرئيس (جيفرسون) لأرض (لويزيانا) مقابل ثلاثمائة دولار للهكتار.

وبعد ظهر أحد الأيام وصل راكب أسود وسط عاصفة ثلجية مع رسالة عاجلة لمريض قدمها للسيد.. ورسالة أخرى أزعجت صف الزنوج.. تقول أنه في زنزانة رطبة على جبل فرنسي بعيد أرسل نابليون الجنرال توسان هناك حيث تُوفى من البرد والجوع.. وبعد ثلاثة أيام كان (كونتا) لا يزال يشعر بالصدمة والإحباط عندما عاد إلى كوخه بعد ظهر أحد الأيام ليأخذ قدحاً من الحساء الساخن.. وأزال الثلج من فوق حذائه.. ثم دخل وخلع قفازه ووجد (كيزي) ممدةً على حشيتها في الحجرة الأمامية ووجهها مشدود وخائف.. شرحت (بيل) وهي تقدم له كوباً من الأعشاب وتأمرها بالجلوس لتشربه.. أنه شلل الأطفال وأحس (كونتا) أن هناك أكثر من ذلك أخفوه عنه.. ثم عندما قضى بضع دقائق في الدفء الشديد في الكوخ المغلق جيداً ساعدته خياشيمه على أن يخمن أن (كيزي) تمر بأول دورية شهرية لها.

لقد راقب ابنته (كيزي) وهي تكبر وتنضج تقريباً كل يوم حتى الآن حوالي ثلاثة عشر سنة مطرية.. وأخيراً تقبل في نفسه أن نضوجها إلى مرحلة الأنوثة ليس سوى أمر محتم.. ومع ذلك بطريقة ما شعر بأنه غير مهيأ على الإطلاق لهذا الدليل اللاذع.. وبعد يوم آخر في السرير عادت (كيزي) للحركة في الكوخ.. ثم إلى العمل في البيت الكبير.. وبدا أن (كونتا) أثناء الليل قد لاحظ لأول مرة كيف أن ابنته الطفلة التي كانت ذات جسم نحيل قد نضج.. شعر بنوع من الخوف المحرج والمربك ورأى أنها إلى حد ما أصبح لها ثديان في حجم حبة المانجو.. وأن ردفيها بدءا يتكوران.. وبدت حتى أنها تسير في طريق أقل طفولة.. والآن كلما دخل حجرة النوم التي تفصلها ستارة عن الحجرة الأمامية حيث تنام (كيزي) بدأ يشيح بعينيه وعندما يحدث ألا تكون (كيزي) مرتدية ملابسها بالكامل كان يحس أنها تشعر بنفس شعوره.

والتي كانت تبدو له أحياناً من الماضي البعيد.. كانت (بيل) ستقوم بتعليم ابنتها كيف تجعل جلدها يلمع باستخدام زبدة شجر الشيا.. وكيف تلون شفتيها بطريقة جميلة حسب الموضة.. وتحني كفيها وكعبيها باستخدام مسحوق من سناج الأواني وحلل الطهي.. وكانت (كيزي) في سنها الحالية تجذب بالفعل أنظار الرجال الذين يبحثون لأنفسهم عن عروس شابة عذراء حسنة التربية.. بل تحمس (كونتا) أمام فكرة أن تمارس (كيزي) الحياة الزوجية بعد مراسم الزفاف السليمة..

وإن كان الآن في وطنه فإنه كان ليتحمل مسؤولياته في تقييم دقيق للصفات الشخصية والخلفية العائلية لأي رجل يريد الزواج من ابنته من أجل أن يختار أكثرهم مثالية.. وكان أيضاً سيقرر أي ثمنٍ يطلبه لابنته العروس.

ولكن بعد فترة أحس بأنه من المثير للسخرية أنه لا يزال يفكر في تلك العادات والتقاليد الأفريقية.. ليس لأنها لا تُراعي ولا تُحترم هنا فحسب.. وإنما أيضاً يمكن أن يتعرض بسببها للاستهزاء لو ذلك حتى للسود الآخر ين.

وفي الحال بدأ يفكر في(نوح) لقد أحب دائماً الفتى.. وهو في سن الخامسة عشر أكبر من (كيزي) بسنتين بدأ (نوح) لا يقل نضجاً وجدية وشعوراً بالمسئولية عن كونه قوياً.. وكلما زاد تفكير (كونتا) في الأمر كان الشيء الوحيد الذي وجده ناقصاً عند (نوح) في الحقيقة هو أنه لم يبد عليه أنه يظهر أقل اهتمام شخصي بـ (كيزي)..

فما بال الأمر و(كيزي) نفسها بدت تتصرف وكأن (نوح) غير موجود أصلاً.. أخذ (كونتا) يفكر ملياً لماذا لم يعد أي منهما مهتماً بالآخر على الأقل أن يكونا صديقين ؟ على أية حال كان (نوح) طبق الأصل منه هو شخصياً عندما كان شاباً.. وبالتالي فإنه يستحق انتباه (كيزي) إن لم يكن إعجابها.. وتساءل أليس هناك شيء يستطيع أن يفعله ليؤثر عليهما.. ويوجه كلاً منهما نحو طريق الآخر ؟ ولكن (كونتا) شعر وقتها أنها أحاسيس وربما لن يتواءما معاً.. قرر أن أحكم شيء هو أن يهتم بشؤونه هو.. وكما سمع (بيل) تقولها بصراحة عندما يجري سائل الحياة العاطفية في عروق الشابين واللذين يعيشان هنا معاً في نفس صف الزنوج فإن الطبيعة ستأخذ مجراها ودعا الله أن تأخذ الطبيعة مجراها بالنسبة لـ (كيزي) و(نوح).

كيزي .. ونوح

اسمعي هنا يا فتاة لا تدعيني أبداً أسمع هز ذيلك حول ذلك المدعو (نوح) بعد ذلك أنني سأحطم عصا غليظة عليك في الحال.. كان (كونتا) متجهاً إلى البيت ووقف في مكانه على بعد خطوتين أو ثلاثة من باب الكوخ ووقف ينصت إلى (بيل) وهي مستمرة في الحديث:

- لماذا ؟ أنت لم تبلغي بعد حتى السادسة عشر من عمرك.. ما الذي سيظنه أبوك لو تصرفت بهذه الطريقة؟

استدار في هدوء وعاد إلى نهاية الممر ليحظي بالخصوصية في مخزن الغلال.. وليفكر فيما سمعه.. هل (بيل) لم تر الأمر بنفسها ولكن أحداً أخبرها بذلك.. أشك أنها العمة (سوكي) أو الأخت (ماندي) كان يعرف هاتين العجوزين الحيزبونين.. لو كان الأمر هكذا فمن المستحيل أن تقلق منه (بيل) لأن الأمر سيكون مجرد أقاويل نساء.. ولكن ماذا إذا لم يكن الأمر بريئاً ؟ هل كانت (كيزي) تستعرض نفسها في زهو أمام (نوح) ؟ وإذا كانت قد فعلت فعلاً شيئاً ليشجعها ؟ لقد بدأ أنه شاب شريف قويم الأخلاق ولكن من يدري ؟ لم يكن (كونتا) واثقاً فيما يشعر به أو يفكر فيه.. على أية حال كما قالت (بيل) فإن ابنتها ليست إلا في الخامسة عشر.. وهي بالنسبة لعادات أهل الطوبوب ما زالت صغيرة جداً على التفكير في الزواج.. أدرك أنه لم يكن يشعر فقط أنه مستعد للتفكير في (كيزي) وهي تتسكع وبطنها منتفخ كما سبق أن رأى العديد من البنات اللاتي في سنها وربما أصغر.

إذا تزوجت من (نوح) مع ذلك فقد فكر أنه على الأقل سيكون طفلها أسود.. وليس واحداً من هؤلاء الأطفال المخلطين الشاحبين نتيجة اغتصاب أمهاتهم بواسطة سادتهن أو مراقبيهم القذرين.

وفي الأسابيع القليلة التالية عندما أُتيحت الفرصة لـ (كونتا) راقب ابنته (كيزي) خلسةً ليعرف أن كانت تدحرج ردفيها ومؤخرتها.. ولكنها لم تفعل ذلك قط ولكن في مرة أو مرتين كان كلاهما يؤخذ دهشة عندما يدخل عليها الكوخ وهي تدور حول نفسها مرات ومرات هي تهز رأسها وتهمهم حالمةً مع نفسها.. كذلك ألقى (كونتا) نظرةً يقظة على (نوح)

ولاحظ الآن أن كلاً من (كيزي) و(نوح) يومئ كل منهما للآخر على عكس ما كان يحدث في الماضي ويبتسمان كلما التقيا.. أو كان كل منهما على مرأى من الآخر بعيداً عن أي شيء.. وكلما أمعن الفكر في الأمر خمن بقوة أن كليهما يخفي ببراعة عواطفه.. وبعد فترة قرر (كونتا) أنه لن يكون هناك ضرر في حديث (كيزي) و(نوح) معاً على الملأ وفي اصطحابه لها إلى مخيم الاجتماع أو في حفلات الرقص التي تُعقد كل صيف حيث كان من المفضل أن يكون (نوح) هو شريكها بدلاً من بعض الغرباء الحمقى.. والحقيقة أنه كان من الممكن أنه بعد سنة مطرية أخرى أو ما شابه ذلك بالنسبة لهما قد يجعل (نوح) من (كيزي) رفيقة ممتازة.

بدأ يلوح داخل (كونتا) أن (نوح) بدأ يراقبه وتوقع (كونتا) في عصبية أن الفتى يحاول أن يستجمع شجاعته وأعصابه ليطلب منه أن يتزوج (كيزي).. كان (كونتا) خارج المخزن يلمع حنطور الضيوف عندما أوحى له شيء أن ينظر لأعلى ورأى (نوح) الأسود الضخم يسير متعمداً على الممر من صف العبيد.. وعندما وصل إلى (كونتا) تكلم بلا تردد وكأنه تمرن على كلماته.

أرجو أن تعلم أنك الشخص الوحيد الذي استطيع أن أثق به.. لابد أن أخبر شخصاً ما.. لن أستطيع أن أعيش هذه الطريقة بعد الآن.. لابد أن أهرب.. كان (كونتا) مذهولاً لدرجة أنه في البداية لم يستطيع أن يفكر في شيء يقوله.. وقف في مكانه يحملق إلى (نوح) وأخيراً عثر (كونتا) على بعض الكلمات: إنك لن تهرب إلى أي مكان مع (كيزي) !

- لا.. لا أريد أن أوقعها في أية متاعب.

أحس (كونتا) بالإحراج وبعد فترة قال: أظن أحياناً أن كل شخص يحب الهرب.

أخذت عينا (نوح) تغوصان في عيني (كونتا) وقال: لقد أخبرتني (كيزي) أن السيدة (بيل) قالت إنك هربت مرات عديدة.. أومأ (كونتا) ووجهه لا يزال لا يظهر شيئاً عن كيفية تفكيره هو نفسه عندما كان في مثل سنه.. وكان وقتها قد وصل لتوه.. وسيطرت عليه فكرة الهرب..

وكان يقضي كل يوم ينتظر ويراقب لأقرب فرصة مواتية في عذاب لا يحتمل.. لقد رسخ في عقله بسرعة إدراك أنه إذا لم تكن (كيزي) تعلم رغبة (نوح).. فإنها عندما يختفي محبوبها فجأة فمن المؤكد أنها ستشعر بالتحطم ثانيةً بعد أن تحطم قلبها أولاً من فتاة الطوبوب البيضاء.. وفكر أن ذلك لن يساعده.. فكر أن أي شيء سيقوله لـ (نوح) لابد أن يفكر فيه بعناية.. قال في جدية: لن أقول لك أن تهرب أو لا تهرب.. ولكن فكر في أن تكون مستعداً للموت إذا ما أمسكوا بك.

قال (نوح): أنا لا أخطط لأن يمسكوا بي.. لقد سمعت أن أهم شيء هو أن أتبع نجم الشمال وأن مختلف الـ(كويكرز) البيض والسود الأحرار سيساعدونك على الاختباء نهاراً.. وتصبح حراً عندما تصل أوهايو.

فكر (كونتا) كم هو قليل ما يعرفه (نوح).. كيف يمكنه أن يفكر بأن الهروب بهذه البساطة.. ولكنه أدرك عندئذ أن (نوحًا) ما يزال صغير مثلما كان هو ومعظم العبيد.. نادراً ما وضع (نوح) قدمه خارج المزرعة.. لهذا كان معظم الذين هربوا عادة من عمال المزارع كثيراً ما يؤسرون بسرعة وهم يدمون من جروحهم من الأشجار الشائكة.. وشبه ميتين جوعاً ويتخبطون في الغابات والمستنقعات المليئة بحيات رقطاء وأفاعي سامة.. تذكر (كونتا) بسرعة الهروب والجري والكلاب والبنادق والسياط والفأس.. قال وهو يندم على كلامه بعد أن نطقه:

- أنت لا تعرف عن أي شيء تتكلم يا فتى.. الأمر ليس بهذه السهولة.. هل سمعت عن الكلاب المتعطشة للدماء التي يستخدمونها.

أدخل (نوح) يده في جيبه وسحب مطواة.. وضغط عليها فانفتح سلاحها وقد صقل شفرتاه حتى أصبحت تلمع بشدة وقال: اعتقد أن الكلاب الميتة لا تأكل أحداً.

لقد قال (كاتوا)ا) عن (نوح) أنه لا يخشى شيئاً.. قال (نوح) وهو يقفل المدية ويعيدها إلى جيبه: فقط لن أدع شيئاً يمنعني.

قال (كونتا): الآن إذا أردت أن تهرب.. فإنك ستهرب.. عليك فقط أن تتأكد أن (كيزي) لن تشارك في هذا.. لم يبد على (نوح) أنه تضايق.. تلاقت أعينهما: لا.. ولكني عندما أصل إلى الشمال.. سأعمل لكي أشتري لها حريتها.. إنك لن تقول لها شيئاً من هذا.. هل ستفعل ؟

تردد (كونتا) هذه المرة ثم قال: هذا بينك وبينها.

قال (نوح): سأخبرها في الوقت المناسب.

باندفاع عفوي أمسك (كونتا) بيد الشاب بين يديه: أتمنى أن تنجح في ذلك.

قال (نوح) قبل أن يستدير ويتجه إلى صف العبيد: حسناً.. سأراك فيما بعد.

جلس (كونتا) في تلك الليلة في الغرفة الأمامية شارداً وهو يحملق إلى وميض اللهب الصادر عن كتلة خشب السندان التى تحترق داخل المدفأة.. مما جعل كلاً من (بيل) و(كيزي) تعرفان من التجارب الماضية أنه من غير المجدي محاولة الحديث معه.. أخذت (بيل) تحيك الملابس في هدوء و(كيزي) كالعادة منكبة على المائدة تمارس الكتابة.. وعند شروق الشمس قرر (كونتا) أن يطلب من الله أن يمنح (نوح) الحظ السعيد.. فكر مجدداً أنه إذا هرب (نوح) فعلاً فإن ذلك سيسحق ثقة (كيزي).. رفع بصره لأعلى وراقب (كيزي) ووجهها وعيناها تتحركان ببطء وسكون وتتابع أصابعها على الصفحة.. أن حياة كل الزنوج على ما يبدو مليئة كلها بالعذاب والمعاناة ولكنه تمنى أن يجنبها بعضاً منها.



أين نوح ؟؟

بعد أسبوع من بلوغ (كيزي) سن السادسة عشرة.. وفي الصباح عندما كان عمال الحقول في صف العبيد يتجمعون كالعادة ليبدؤوا أعمالهم اليومية سأل أحدهم في فضول: أين هو (نوح) ؟

وكان (كونتا) بالمصادفة واقفاً يتكلم مع (كاتوا) وعرف في الحال أنه رحل.. رأى الجميع يتجمعون حول (كيزي) وهي تصارع كي تحافظ على قناع الدهشة غير المكترثة.. تلاقت أعينهما فأشاحت بوجهها قالت أم (نوح) لـ (كاتوا)ا: إنه كان بالخارج هنا معك.

ذهب (كاتوا) ليطرق بشده على باب الكوخ المغلق الذي كان يشغله في يوم ما البستاني العجوز والذى ورثه (نوح) مؤخراً في عيد ميلاده الثامن عشر.. دفع (كاتوا) الباب فانفتح واندفع للداخل وهو يصيح غاضباً.. (نوح) ثم خرج وقد بدأ عليه القلق وقال: هذا ليست عادته.

أمر الجميع أن يذهبوا بسرعة ويبحثوا في الأكواخ.. ودورات المياه.. وحجرات المخازن.. والحقول.. جرى الجميع في كل الاتجاهات.. وتطوع (كونتا) أن يبحث في مخزن الغلال ونادى بصوت عال (نوح).. (نوح) من أجل أن يسمعه من هم بالقرب منه رغم أنه كان يعلم أنه لا حاجة للنداء.. توقفت الحيوانات في خاناتها عن مضغ تبن الصباح لتنظر إليه في استغراب.. ثم تلصص من خلال الباب ورأى أنه لا يوجد أحد قادم في اتجاهه.. فأسرع بالدخول ثانية ليصعد بسرعة إلى صندرة التين حيث حشر نفسه وصلى للمرة الثانية لله أن ينجح (نوح) في هروبه.

أرسل (كاتوا) وهو قلق بقية العمال إلى الحقول للقيام بأعمالهم.. وأخبرهم أنه و(فيدلر) سينضمان إليهم فيما بعد.. تطوع (فيدلر) في حكمةٍ أن يساعد في أعمال الحقل منذ أن هبط دخله من العزف على الكمان بشكل واضح.. همهم (فيدلر) لـ (كونتا) وهما في الفناء الخلفي: صدقني أنه هرب.

زمجر (كونتا) وقالت (بيل): إنه لم يضل الطريق أبداً ولم ينم بالخارج ليلاً.

ثم قال (كاتوا) ما كان يدور في أذهانهم جميعاً: لابد أن أخبر السيد.. رحماك يا ربي !

بعد مشاورة سريعة أوصت (بيل) ألا يخبر السيد (وولر) إلا بعد تناول إفطاره.. فربما يكون الصبي قد تسلل بعيداً ثم خاف وعاد بسبب الظلام ثانية ما لم تمسك به بعض الدوريات.

قدمت (بيل) للسيد الإفطار الذي يفضله من الخوخ المغطى بالكريمة الدسمة والجوز المقلي والبيض المقلي وزبده التفاح الساخنة وبسكويت بالزبدة وانتظرته إلى أن طلب قدحه الثاني من القهوة ابتلعت ريقها ثم قالت: يا سيدي ! لقد طلب مني (كاتوا) أن أخبرك أنه لا يجد (نوح) في أي مكان هذا الصباح.

وضع السيد قدمه جانباً وتجهم وجهه: أين هو ؟ هل تحاولين أن تخبريني أنه بالخارج.. أو يسكر أو يتسكع في مكان ما ؟ وتظنين أنه سيعود متسللاً اليوم ؟ أم تقولين إنك تظنين أنه يحاول الهرب؟

ارتجفت (بيل) وقالت: كلنا نقول أنه يبدو أنه ليس هنا وقد بحثنا في كل مكان.

أخذ السيد (وولر) يتأمل قدحه: سأمنحه فرصة حتى هذه الليلة.. لا حتى الصباح الباكر قبل أن أتخذ إجراء.

- يا سيدي أنه ولد طيب.. ويعمل جيداً طوال حياته ولم يسبب لك أو لأحد أي متاعب.

نظر إلى (بيل) وقال دون أي تعبير: إذا كان قد حاول الهرب فسيندم.

- نعم يا سيدي !

هرعت (بيل) إلى الفناء حيث أخبرت الآخرين ما قاله لها السيد.. وما أن أسرع (كاتوا) و(فيدلر) نحو الحقول إلا ونادى السيد (وولر) على (بيل) طالباً الحنطور.. وطوال النهار بينما كان (كونتا) يقود الحنطور من مريضٍ لآخر كان كل تفكيره منصباً في هروب (نوح) لدرجة الحزن والخوف لما سيقابل الفتى من أشواكٍ.. وعوائق.. وكلاب.. وأحس بمدى الأمل والعذاب اللذين تحس بهما (كيزي) وتعاني منهما.

قالت العمة (سوكي): ذلك الولد ترك مكانه هنا.. لقد رأيت ذلك في عينيه.

قالت الأخت (ماندي): حسناً.. أعلم أنه لم يعد صغيراً.. وكان يسرق من أجل أن يسكر.. لقد بح صوت أمه من البكاء.

الأم: ابني لم يحدثني أبداً عن الهروب.. يا ربي ! هل تظنون جميعاً أن السيد سيبيعه ؟

لم يرد عليها أحد.. وعندما عادوا إلى كوخهم انفجرت (كيزي) باكيةً.. شعر (كونتا) بالعجز ولسانه معقود.. ولكن (بيل) ذهبت للمائدة دون أن تقول شيئاً.. ووضعت ذراعها حول ابنتها التي كانت تنتحب وأرخت رأسها على بطنها.

جاء يوم الثلاثاء دون أن تظهر أي علامة لظهور (نوح) وأمر السيد (وولر) (كونتا) أن يقوده إلى حاضرة الإقليم حيث ذهب مباشرة إلى مقر سجن سبورتسبرج.. وبعد نصف ساعة خرج مع الشريف وأمر (كونتا) فجأة أن يربط حصان الشريف خلف الحنطور ويقوده للبيت.. قال السيد:

- إننا سنوصل الشريف عند طريق كريك.

ظل الشريف يتكلم عندما تحركت العربة: العديد من الزنوج يهربون هذه الأيام ولا أستطيع أن أكف عن ملاحقتهم.. أنهم يفضلون أن يجربوا حظهم بالمخاطرة داخل الغابات عن أن يباعوا في الجوب.

قال السيد (وولر): منذ أن تملكت المزرعة لم أبع أي واحد من عبيدي ما لم يخالف قواعدي وهم يعرفون ذلك جيداً.

قال الشريف: ولكن القليل من الزنوج يقدرون السادة الطيبين يا دكتور وأنت تعرف ذلك.. هل تقول أن ذلك الولد في حوالي الثامنة عشر ؟ حسناً أخمن أنه مثل من في سنه من عمال الحقول يرتكبون أخطاءًا مشينة لدرجة محاولة تعويضها في الشمال.. إذا كان زنجياً خادماً بالبيوت فإنهم عادة مخادعون وثرثارون ويحاولون أن يتظاهروا بأنهم زنوج أحرار.. أو أنهم تاهوا من أسيادهم أو كلفهم أسيادهم بمهام ونسوا تصاريح المرور.. ويحاولون أن يصلوا إلى (ريتشموند) أو أي مدينة أخرى كبرى حيث يستطيعون بسهولة أكثر الاختباء بين أعداد الزنوج الكبيرة هناك.

تصلب جسم (كونتا) بينما توقف الشريف فترة ثم قال: هل حدث أن عرفت أن له فتاة في مكان ما لأن هؤلاء الشباب الصغير الفحل يثورون ويتركون البغل في الحقل ويهربون.

قال السيد: بقدر معلوماتي أنه ليس كذلك ولكن هناك فتاة هي ابنة طاهيتي وما زالت صغيرة في الخامسة عشر أو السادسة عشرة إذا صح تقديري ولست أدري إن كانا يتغازلان أم لا ؟

أوشك (كونتا) أن يكف عن التنفس قال الشريف: أعرف أنهن يحملن وهن في سن الثانية عشرة.. والعديد من تلك البغايا يجذبن حتى الرجال البيض والأولاد الزنوج يفعلون أي شيء !

رغم غضب (كونتا) الجامح سمع السيد وهو يقول في برود: أنني أقوم بأقل اتصال ممكن مع عبيدي ولا أعرف أو اهتم بأمورهم الشخصية.

بعد ذلك خف توتر السيد في حديثه: حسب تفكيرك فإن ذلك الولد قد يكون قد انسل ليرى بنتاً من مزرعة أخرى.

لست أدرى وبالطبع فإن الآخرين لن يقولوا لو كانوا يعرفون.. والحقيقة أي شيء يمكن أن يحدث.. عموماً هذه أول مرة يحاول فيها الولد أن يهرب.

قال الشريف وقد أصبح أكثر تحفظاً وحرصاً في حديثه: لقد أخبرتني أنه ولد على أرضك ولم يسافر أبداً ؟

قال السيد: اعتقد أنه ليس لديه أية فكرة حتى كيف حتى يصل إلى (ريتشموند).. فما باله بالذهاب إلى الشمال.

قال الشريف: إن الزنوج يتبادلون المعلومات لقد قبضنا على بعضهم كانوا عملياً لديهم خرائط في رؤوسهم عن الأماكن التي قيل لهم أن يهربوا إليها وأين يختفون.. ويعزي الكثير من ذلك إلى البيض من محبي الزنوج مثل الـ(كويكرز) والـ(ميتوديست)

ولكن ما دام لم يذهب إلى أي مكان ولم يحاول الهرب أبداً من قبل.. وكذلك لم يسبب لك أي متاعب.. فإن الأمر يبدو لي أنه بعد ليلتين في الغابات فإنه سيعود وهو خائف وجائع حتى الموت.. إن الزنوج يتحركون بقوة إذا خلت معدتهم وهذا سيوفر لك أن تعلن في الجازيت.. أو تأجر بعض ماسكي العبيد ومعهم كلابهم لمطاردته.. فهو ليس واحداً من هؤلاء الزنوج الخارجين على القانون والشرسين الذي يتسكعون هنا وهناك من المستنقعات والغابات الآن ويقتلون ماشية الناس وخنازيرهم كما يفعلون مع الأرانب.

قال السيد (وولر): أتمنى أن تكون على حق.. ولكن أياً كانت الحالة فقد خالف قواعدي بالرحيل دون إذني لذلك سأبيعه للشمال في الحال.

ضغطت يدا (كونتا) بقوة على اللجام وقال الشريف: إنه يساوى ألفاً ومائتين أو ألفاً وخمسمائة دولار.. لقد كتبت لي أوصافه.. وسأنقلها لدوريات المقاطعة.. وإذا قبضنا عليه أو عرفنا شيئاً فسأعلمك به حالاً.

وعند صباح السبت وبعد الإفطار كان (كونتا) يمشط جسد حصان خارج مخزن الغلال عندما ظن أنه سمع صفارة (كاتوا).. مد عنقه وسمعها مرة ثانية.. قام بربط الحصان بسرعة إلى موقع قريب وجرى إلى الممر وهو يعرج إلى الكوخ.. من نافذته الأمامية استطاع أن يرى من هناك تقريباً الطريق الرئيسي المتقاطع مع مدخل البيت الكبير وهو يعلم أن صفارة (كاتوا) قد أقلقت (بيل) و(كيزي) أيضاً.. ثم شاهد العربة تجري فوق المدخل.. وشاهد وهو يشعر بخوف مفاجئ.. الشريف يقود العربة يا الله ! يا رحيم ! هل قبضوا على (نوح) ؟ وبينما يراقب الشريف يهبط دفعت غريزة (كونتا) المدربة طويلاً إلى محاولة الإسراع وتزويد الجواد المرهق بالماء والطعام ودلكه ولكنه شعر

وكأنه أصيب بالشلل في مكانه ولم يبتعد عن نافذة الكوخ والشريف يسرع إلى الباب الكبير صاعداً الدرج الواسع بسرعة.. مرت دقائق قليلة قبل أن يرى (كونتا) (بيل) وهي تكاد تتعثر خارجة من الباب الخلفي.. بدأت تجري وتملك (كونتا) فوضى واضطراب رهيب في اللحظة تقريباً التي أوشكت أن تنزع باب الكوخ من مفصلاته.. كان وجهها ملتوياً وتعلوه الدموع وصاحت: الشريف والسيد يتحدثان مع (كيزي).

خدرت كلماتها (كونتا) وللحظة وقف فقط يحملق إليها غير مصدق ثم فجأة أمسك بها وهزها بشدة: ما الذي يريدانه ؟

كان صوتها يرتفع ويختنق ويتقطع واستطاعت أن تخبره أنه ما كان الشريف يدخل المنزل أمام السيد حتى صاح منادياً على (كيزي) أن تأتي من حجرته في الدول الثاني حيث كانت تعمل على ترتيبها.. وعندما سمعته ينادي عليها وهى في المطبخ جرت بأقصى سرعة إلى البهو المؤدي إلى غرفة المكتب حيث تعودت الإنصات منه.. ولكني لم تستطع أن تسمع شيئاً واضحاً سوى أنه كان غاضباً لدرجة الجنون.

شهقت (بيل) وابتلعت ريقها: ثم سمعت السيد يدق جرسي.. فجريت من هناك حتى أبدو وكأنني آتية من المطبخ ولكن السيد كان منتظراً في المدخل وقد أمسك بيده أكرة الباب.. لم يسبق لي أبداً أن رأيته كما كان معي.. أخبرني وهو بارد كالثلج أن أخرج من البيت وأبقى خارجه إلى أن يستدعيني.

تحركت بي إلى النافذة الصغيرة وهي تحدق إلى البيت الكبير وهي غير قادرة على تصديق ما قالته.

يا إلهي ! ما الذي يريده الشريف من ابنتي ؟

كان عقل (كونتا) يصارع في يأس بحثاً عن شيء يفعله هل يندفع إلى الحقول على الأقل ليحذر هؤلاء الذين يعملون هناك ؟ ولكن غريزته أنه يمكن أن يحدث لها أي شيء لو ذهب.

عندما مرت (بيل) خلال الستارة إلى حجرة نومهما وهي تتوسل إلى يسوع بكل قواها كان بالكاد يستطيع أن يمنع نفسه من الثورة والصياح وأن عليه الآن أن يرى ما حاول خلال أربعين عاماً أن يصدقه حول كونه ساذجاً وأنه خدع حول طيبة السادة أو الطوبوب..

صاحت (بيل) فجأة وبنفس السرعة عبرت الستارة: سأعود ثانيةً إلى هناك.

راقبها (كونتا) وهي تختفي داخل المطبخ.. ما الذي ستفعله.. خرج يجري وراءها وتطلع خلال الباب الزجاجي.. كان المطبخ خالياً.. والباب الداخلي مغلقاً.. دخل وهو يغلق الباب الزجاجي في هدوء وسار على أطراف أصابعه عبر المطبخ.. وقف هناك ويد على الباب والثانية مضمومة وأصاخ السمع لأقل صوت ولكن كل ما ستطاع أن يسمعه هو أنفاسه المتلاحقة ثم سمع صوت (بيل) تنادي برقة: يا سيدي ؟

ولكن لم يأتي أي رد.. فنادت ثانيةً بصوت أعلى وسمع باب حجرة المكتب ينفتح وقالت:

أين ابنتي (كيزي) يا سيدي ؟

قال بصوت كالصخر: إنها تحت التحفظ.. إننا لا نريد أن تهرب واحدة أخرى.

قالت (بيل) بصوت رقيق استطاع (كونتا) أن يسمعه بصعوبة: أنا فقط لا أفهم يا سيدي.. أن تلك الطفلة لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة بالخارج يا سيدي !

بدأ السيد يقول شيئاً ثم سكت.. ثم قال: من المحتمل أنك لا تعرفين حقاً ما فعلته.. أن الولد (نوح) تم القبض عليه.. ولكنه طُعِن بالسكين رجلي الدورية طعنات خطرة عندما شكا في التصريح المزور الذي أظهره.. وبعد أن استسلم بالقوة اعترف أخيراً أن التصريح لم اكتبه أنا وإنما بواسطة ابنتك.. وقد اعترفت بذلك للشريف.

ساد الصمت لحظات احتضار طويلة.. ثم سمع (كونتا) صرخة وخطوات تجري.. عندما فتح الباب اندفعت (بيل) وتجاوزته وهي تزيحه جانباً بقوة رجل خارج الباب الخلفي.. كان البهو خالياً وانغلق باب حجرة المكتب.. جرى وراءها ولحق بها عند باب الكوخ بدأت (بيل) في الصراخ وأحس هو بأن شيئاً بداخله قد انفجر.. إن السيد سيبيع (كيزي) أنا أعرف ذلك.. أنه سيفعلها.

اختنق صوت (كونتا) وهو يصرخ: سأذهب وأحضرها.

اندفع إلى الخارج وهو يعرج نحو البيت الكبير ومنه إلى المطبخ بقدر ما يستطيع من سرعة و(بيل) ليست بعيدة وراءه.. دفع الباب بغضب وفتحته ودخل مندفعاً إلى نهاية البهو الممنوع السير فيه.. استدار السيد والشريف بسرعة غير مصدقين عندما انفتح باب الغرفة بقوة.. وقف (كونتا) هناك فجأة وعيناه تحترقان وتنبعث منهما الرغبة في القتل.. صرخت (بيل) من خلفه.

- أين هي طفلتنا ؟ لقد أتينا لنأخذها.

رأى (كونتا) يد الشريف اليمنى تتسلل نحو جراب مسدسه.. بينما قال السيد بصوت من بين أسنانه: اخرج !

سحبت يد الشريف المسدس وهو يقول لـ (كونتا): ألم تسمع أيها الزنجي ؟

كان (كونتا) متوتراً وهو ينوي الاندفاع نحوه عندما صاح صوت (بيل) مرتجفاً خلفه قف.. وأحس بها تشد ذراعه في يأس.. ثم أخذت قدماه تتحركان عبر مدخل الباب.. وفجأة أغلق الباب خلفهما بعنف وسمعا صوت المفتاح يدور بحدة.

بينما (كونتا) يجثم وزوجته في ذل وقد غرقا في عارهما سمعاً حديثاً متوتراً مكتوماً بين السيد والشريف.. ثم سمعا صوت قدمين تتحركان وهي تنشج في ضعف.. كان ذلك صوت بكاء (كيزي) وصوت الباب الأمامي يصفق.. انفجرت (بيل) في الصياح وخرجت من الباب الخلفي ووراءها (كونتا).

- (كيزي) يا طفلتي (كيزي) يا إلهي لا تدعهم يبيعونها.

وصلت (كاتوا) في الوقت الذي كانت فيه (بيل) تنوح في جنون وهي تتقافز لأعلى وأسفل مع (كونتا) الذي كان يحتضنها بقوة وقد سقطا على الأرض.. كان السيد (وولر) يهبط الدرج الأمامي متقدماً الشريف الذي كان يجر (كيزي) خلفه وهي تنتحب وتشد نفسها للخلف في نهاية سلسلة.

- أمي.. أمي.

قفز (كونتا) و(بيل) من فوق الأرض.. وذهبا في ثورة غضب حول جانب البيت الكبير مثل أسدين يهجمان.. سحب الشريف مسدسه وصوبه نحو (بيل) مباشرة وقف في مكانهما وحملقت إلى (كيزي) وصاحت بقوة: إنك لم تفعلي الشيء الذي يقولونه ؟

راقب الجميع احتضار (كيزي) عدما أحمرت عيناها الدامعتان وهي ترد في طريقة صامتة وهي تتطلع لكل من (بيل) و(كونتا) والسيد والشريف على التوالي ولكنها لم تقل شيئاً ارتجفت (بيل): يا إلهي العظيم ! أرجوك.. الرحمة يا سيدي ! أنها لم تقصد أن تفعل ذلك ! أنها لم تكن تعرف ما الذي تفعله إن الآنسة (آن) هي التي علمتها القراءة والكتابة.

تكلم السيد (وولر) بلهجة باردة: القانون هو القانون.. لقد خالفت أحكامي وقواعدي لقد ارتكبت جريمة.. وكان من الممكن أن تشارك في جريمة اغتيال.. وقد عرفت أن أحد الرجلين البيض قد يموت.

- إنها ليست هي التي طعنت الرجل يا سيدي.. لقد عملت من أجلك منذ أن كبرت لتحمل إناء تبولك.. وأنا طهوت وانتظرت عند قدمك طوال أربعين عاماً.

ثم أشارت إلى (كونتا) وتلعثمت: وهو عمل من أجلك تقريباً نفس المدة.. أليس لهذا حساب عندك ؟

لم ينظر السيد (وولر) نحوها وقال: إنكما كنتا تقومان بعملكما.. إنها ستباع وهذا كل ما هناك.

صاحت بيل: إن الطبقة الدنيا من البيض يفرقون بين العائلات وأنت ليس من هذا النوع.

أشار السيد (وولر) في غضب إلى الشريف الذي جر (كيزي) بخشونة نحو العربة قطعت (بيل) عليها طريقهما صائحة: إذن يعني أنا وأباها معها لا تفرقنا.

نبح الشريف بصوت غاضب وهو يزيحها بعيداً بعنف: ابتعدي عن طريقنا !

قفز (كونتا) مزمجراً كالفهد وصرع الشريف للأرض وصاحت (كيزي) أنقذني يا أبي.. فأمسك بها من وسطها.. وبدأ يشد في جنون في سلسلتها وعندما اصطدمت يد المسدس الخاص بالشريف بأذنه.. شعر (كونتا) برأسه ينفجر وهو يتكوم على ركبتيه.. اندفعت (بيل) نحو الشريف.. ولكن ذراعه الممتدة أطاحت بها وأفقدتها توازنها وسقطت.. وهو يدفع (كيزي) خلف عربته وأغلق قفلاً على سلسلتها.. قفز الشريف وهو شبه مخدر متطوحاً إلى المقعد.. ثم ألهب ظهر الجواد بالسوط الذي اندفع.. للأمام قافزًا ساحباً العربة وهي تتقافز بينما نهض (كونتا) وهو يتطوح.. كان دائخاً ورأسه يدق وتجاهل المسدس وذهب يعدو صارخاً وراء العربة التي ازدادت سرعتها كانت (كيزي) تصرخ بأعلى صوتها : يا آنسة (آن) يا آنسة (آن) مرات ومرات.. وكانت الصرخات تأتي وكأنها معلقة في الهواء خلف العربة السريعة فوق الطريق الرئيسي.

بدأ (كونتا) يتعثر ويشهق طلباً للهواء وأصبحت العربة على بعد نصف ميل من البيت عندما وقف لوقت طويل ينظر خلفها إلى أن استقر الغبار.. وأصبح الطريق ممتداً وخالياً على مدى البصر.. استدار السيد وسار بسرعة كبيرة وهو منكس الرأس عائداً إلى البيت ماراً بـ (بيل) المكومة وهي تنتحب عند أسفل درجة.. بينما (كونتا) يسير منوماً.. وجاء يعرج ببطء عبر الممر الرئيسي عندما ومض في عقله ذكرى أفريقيا.. وبالقرب من واجهة البيت الكبير خفض جسده لأسفل وأخذ يتلصص فيما حوله.. حدد آخر أثر لقدم (كيزي) العاري المطبوع على التراب.. واندفع نحو الكوخ.. لقد قال أسلافه القدامي أن التراب الغالي إذا حُفِظَّ في مكانٍ ما يمكن أن يضمن عودة (كيزي)

من حيث بدأت آثار قدميها.. اندفع خلال باب الكوخ المفتوح.. وعيناه تمسحان الغرفة وتقعان على قرعته التى تحتوي على الحصيات.. قفز إلى هناك.. وفي لحظة قبل أن يفتح يديه ليسقطها في التراب أدرك أن ابنته (كيزي) قد ذهبت.. وربما لن تعود أنه قد لا يرى (كيزي) مرة ثانية أبداً.. التوى وجهه في ألم..

وألقى بتراب الأثر نحو سقف الغرفة.. وانفجرت الدموع من عينيه.. وانتزع قرعته عالياً فوق رأسه وفمه مفتوح في صرخة صامتة.. وألقى بالقرعة للأرض بكل قوته حيث اصطدمت بأرض الكوخ الصلبة.. طارت حصياته الستمائة واثنتين وستين والتي تمثل كل شهر من عمره الضائع البالغ خمساً وخمسين سنة في كل اتجاه.



اغتصاب

استلقت (كيزي) دائخة وضعيفة في الظلام على بعض الأجولة من الخيش في الكوخ الذي دفعت إلى داخله عندما وصلت العربة المقفلة بعد الغسق بقليل.. تساءلت في إبهام عن الوقت يبدو أن هذه الليلة ستستمر للأبد.. بدأت تلتوي وتشد وتحاول أن تدفع نفسها أن تفكر في أي شيء لا يرعبها.. أخيراً وللمرة المائة حاولت التركيز حول تصور كيف يمكنها الوصول إلى الشمال حيث سمعت كثيراً عن أن الناس السود هناك يمكنهم الحصول على الحرية إن أُحِسنَتْ تربيتهم.. وإذا أخطأت الطريق فقد تذهب إلى أعماق الجنوب حيث يقال أن الناس هناك أسوأ من السيد (وولر).. ما هو الشمال؟ إنها لا تعرفه.. أقسمت في مرارة أنها ستهرب بأية حال.

أحست وكأن دبوساً دخل في سلسلة ظهرها عندما سمعت أول صرير لباب الكوخ قفزت واقفة وتقهقرت في الظلام ورأت شبحاً يدخل خلسة وكفه تحمل لهب شمعة.. رأت وتعرفت على وجه الرجل الذي اشتراها.. ورأت أن يده الأخرى تمسك بسوط قصير اليد معد للاستخدام.. ولكن النظرة الخبيئة اللزجة على وجهه هي التي جمدتها في مكانها.. قال لها ورائحة أنفاسه المشوبة بالشرب توشك أن تخنقها: أفضل إلا أوذيك على الإطلاق .

أحست بنيته.. أنه يريد أن يفعل بها ما يفعله والدها مع أمها عندما تسمع أصواتاً غريبة من خلال حجرتها المغطاة بالستارة بعد أن يظنا أنها نامت.. لقد أراد أن يفعل ما شجعها (نوح) عليه عندما ذهبا يتمشيان عند نهاية السور.. عندما أوشكت عدة مرات أن تستسلم له خاصةً في تلك الليلة التي رحل فيها.. ولكنه أخافها جداً عندما صاح بصوت مبحوش خشن: أنا أريدك معي أنت وطفلي.

قالت في نفسها: إن الرجل الأبيض لابد أن يكون مجنوناً إذا ظن أنها ستسمح له أن يفعل ذلك بها.

قال الرجل الأبيض بكلمات متلعثمة: ليس عندي وقت لألعب معك الآن.

أخذت (كيزي) تفكر كيف تفل من جواره لتهرب وسط الليل ؟ ولكنه بدأ وكأنه يقرأ ما تنويه.. تحرك جانباً قليلاً.. وأدار الشمعة ليسقط بعضاً من شمعها المصهور على قاعدة المقعد الوحيد المكسور في الكوخ.. وتذبذبت الشعلة لأعلى.. تراجعت (كيزي) للخلف.. وأحست بكتفيها تحتك بجدران الكوخ.. قال: أليس لديك ذكاء كاف لتعرفي أنني سيدك الجديد ؟

راقبها وهو يبتسم ابتسامة كريهة وقال: أنت بغي جميلة جداً.. ربما أيضاً أطلق سراحك.. وعندها قفز وأمسك بـ (كيزي).. نزعت نفسها وتحررت.. فانتفض وأحضر سوطه وهو يلعن في غضب وألهب به ظهر عنقها وهو يقول: سأسلخ جلدك ؟

أخذت (كيزي) تتنفس كحيوان متوحش ونشبت أظافرها في وجهه المتلوي ولكنه أجبرها ببطء على الرقاد أرضاً.. دفعته لأعلى ولكنه أجبرها لأسفل ثانيةً.. ثم أصبح الرجل على ركبتيه بجوارها وإحدى يديه تكتم صرخاتها.. من فضلك يا سيدي ! حشا الرجل الخيش القذر في فمها إلى أن استسلمت.. وبينما تطوح ذراعيها في احتضار.. وتُقوس ظهرها لتلقي به من فوقها ضرب رأسها على الأرض مرة.. ومرة.. ومرات.. ثم بدأ يصفعها في إثارة أكثر فأكثر إلى أن شعرت بأن ثوبها انتزع لأعلى.. ومُزقت ملابسها الداخلية.. أخذت في جنون تحاول أن تبصق الخيش الذي يكتم صرخاتها.. وأحست بيديه تتحركان في أماكن حساسة من جسمها.. ضربها ضربة أخرى وأحست بألم قاتل وأن حواسها أوشكت أن تنفجر.. وظلت هكذا إلى أن فقدت الوعي.. وفي الفجر المبكر طرفت (كيزي) بعينها.. وفتحتها.. كانت غارقةً في العار.. وجدت شابة سوداء تنحني عليها تنظفها بأسفنجه وماء بالصابون.. وعندما فتحت (كيزي) عينيها ثانيةً رأت أن وجه هذه المرأة يبدو بلا تعبير وكأنها تغسل ملابس.. وكأن هذه واحدة من المهام العديدة التي كُلفت بأدائها في حياتها.. أخيراً ألقت المرأة بمنشفة نظيفة على (كيزي) ونظرت إلى وجهها وقالت المرأة بهدوء وهي تجمع الخرق القذرة: اعتقد أنك لست على استعداد للكلام الآن.

استعدت للرحيل وحملت الأشياء تحت إبطها.. ومالت ثانية واستخدمت يدها الحرة لتسحب جوالاً من الخيش لتغطي معظم جسد (كيزي) وقالت قبل أن تخرج من باب الكوخ: سأحضر لك شيئاً تأكلينه بعد قليل.

استلقت (كيزي) هناك وهي تحس وكأنها معلقةً وسط الهواء.. حاولت أن تفكر أن الشيء غير المعقول والذي لا يمكن أن تفكر في حدوثه قد حدث بالفعل.. ولكن الآلام الممضة في أجزائها الخاصة الممزقة ذكرتها بأنه حدث.. أحسست بعدم نظافة عميقة.. وشعور بالعار لا يمكن أن تمحوه.. حاولت أن تغير من وضعها.. ولكن بدا وكان الآلام تقتلها.. أبقت على جسدها ساكناً وألصقت الجدار بشدة عليها وكأنها تمنع نفسا من أي ثورة غضب ولكن الآلام ازدادت سوءاً.

تسارع عقل (كيزي) عبر الماضي إلى ما قبل أربعة أيام..كانت تستطيع أن ترى وجه والديها المرعوبين وصرخات رعبها وهي تختفي عن بعد.. كانت لا تزال تحس بنفسها وهي تصارع لتهرب من التاجر الأبيض من مقاطعة (سبورتسلفانيا) والذي سلمها له الشريف.. لقد أوشكت أن تتسل هاربةً عندما ادعت أن عليها أن تذهب لدورة المياه.. وأخيراً وصلوا إلى مدينة صغيرة حيث استطاع التاجر أن يبيعها بعد مداولات طويلة ومتعبة إلى هذا السيد الجديد الذي انتظر حتى يأتي الليل ليغتصبها.. أبي وأمي آه أن الصراخ والنداء عليهما لن يصل إليهما.. ولكنهما لا يعرفان حتى أين هي.. ومن يدري ما حدث لهما ؟ أنها تعرف أن السيد (وولر) لا يمكن أن يبيع أحد ملكه ما لم يخالف قواعده.

و(نوح) ماذا عن (نوح) ؟ أنه في مكان ما ضُرِبَ حتى الموت ؟ مرة ثانية تذكرت: عندما طلب منها (نوح) غاضباً أن تثبت له حبها.. لابد أن تستخدم مهارتها في الكتابة لتزوير تصريح سفر له يظهره إذا ما رأوه.ٍ وأوقفوه.. وسأله ضباط الدوريات أو أي أبيض متشكك.. تذكرت تصميمه الحازم المطبوع على وجهه وهو يتعهد لها أنه ما أن يصل إلى الشمال.. ويوفر بعض المال القليل من الوظيفة التي سيعثر عليها بسرعة

فإنه سيتسلل ثانيةً إلى هنا ويأخذها إلى الشمال أيضاً من أجل بقية حياتهما معاً.. انتحبت مرةً ثانيةً.. أنها الآن تعلم أنها لن تراه ثانيةً.. وكذلك والديها ما لم..!!.. قفزت أفكارها مع أمل مفاجئ لقد أقسمت الآنسة (آن) منذ أيام طفولتها أنها إذا ما تزوجت بشاب وسيم وغني وسيد.. فإن (كيزي) ستكون وصيفتها الوحيدة الشخصية.. وفيما بعد ستجعلها هي تعتنى بأطفالها الذين سيملؤون البيت.. هل من الممكن أنها عندما تكتشف أن (كيزي) ذهبت فإنها ستنطلق في الصراخ والتوسل للسيد وولر.. إن الآنسة (آن) يمكن أن تطوح به وتطويه أكثر من أي شخص على الأرض.. هل يمكن أن يرسل السيد إلى بعض الرجال تجار العبيد ليعرف إلى من باعها ليستعيدها؟

ولكن سرعان ما انصب بداخلها شلال جديد من الحزن.. لقد أدركت أن الشريف يعرف بالضبط من هو تاجر العبيد ؟ لقد كان من الممكن أن يصلوا إليها الآن.

لقد أحست بأنها أكثر ضياعاً.. وأنها مهجورة جداً.. ما حدث لها أنها فقط أحببت (نوح) وعندما أحست ببعض اللزوجة بين ساقيها عرفت أنها لا تزال تدمي.. ولكن الألم خف.

عندما أصدر الباب صريراً وهو ينفتح ثانية قفزت (كيزي) واقفةً.. وتراجعت للخلف ضد الجدار قبل أن تدرك أنها المرأة.. كانت تحمل إناء ينبعث منه البخار مع سلطانية ومعلقة.. وجلست (كيزي) بعنف على التراب عندما وضعت المرأة الإناء على المائدة.. ثم غرفت بعض الطعام في السلطانية حيث وضعتها أسفل بجوار (كيزي).. تظاهرت (كيزي) بأنها لم تشاهد لا الطعام ولا المرأة التي جلست القرفصاء بجوارها وهي تتحدث.. وكأن كلٌ منهما تعرف الأخرى من سنين.

- أنا طاهية البيت الكبير.. أنا أسمي (ماليزي) فما أسمك ؟

- أخيراً أحست (كيزي) بالسخافة إذا لم ترد: أنا (كيزي) يا آنسة (ماليزي).

تمتمت المرأة في رضا: يبدو أنك حسنة التربية.

نظرت إلى العصيدة التي لم تلمسها السلطانية.. وقالت لها: أعتقد أن الطعام سيبرد ولن يكون جيداً.

بدت الآنسة (ماليزي) مثل العمة (سوكي) أو الأخت (ماندي) التقطت في تردد المعلقة وتذوقت العصيدة ثم بدأت تأكل بعضها ببطء سألت الآنسة (ماليزي): كم عمرك ؟

- أنا في السادسة عشر يا سيدتي.

نظرت الآنسة (ماليزي) إلى (كيزي) وقالت أريد أن أقول لك إن سيدك رجل يحب النساء الزنجيات خاصة الصغيرات مثلك.. لقد تعود أن يعتدي على وأنا لست أكبر منك إلا بتسع سنوات.. ولكنه كف بعد أن أحضر السيدة.. وجعلني الطاهية.. وأعمل هنا في نفس البيت التي تعيشين فيه حمداً لله توقعي أنك سترينه هنا بانتظام.

رأت (كيزي) ويدها ترتفع بسرعة إلى فمها قالت: يا حلوتي.. أن عليك أن تدركي أنك امرأة زنجية.. والنوع الذي يفضله سيدك الأبيض.. وإما أن تستسلمي.. أو يجعلك تتمنين لو أنك استسلمت بطريقة أو أخرى.. ودعيني أقول لك أن هذا السيد ينال دائمًا ما يريده.. والحقيقة أنني لم أعرف أحداً مثله يغضب بطريقته.. وكل شيء يمكن أن يسير على ما يرام إذا ما تركت الأمور تسير هكذا.. إنه بسرعة يحمر وجهه ويسخن.. وكأنه أصيب بالجنون.

أخذت أفكار (كيزي) تتلاحق.. ما أن يحل الظلام عليها أن تهرب قبل أن يعود مرةً ثانيةً.. بدأ وكأن الآنسة (ماليزي) قرأت أفكارها: لا تحاولي حتى التفكير في الهروب إلى أي مكان يا حلوتي.. أنه فقط سيجعلهم يطاردونك بهذه الكلاب الدموية.. وستصبحين في فوضى وأسوأ وضعاً.. عليك فقط أن تهدئ من روعك.. والأيام الأربعة.. أو الخمسة المقبلة لن يأتي إلى هنا على أية حال.. أنه هو ومدربه الأسود الجبان قد رحلا من أجل إحدى مباريات الديوك في منتصف الطريق عبر المقاطعة.. أن السيد لا يهتم بشيء أكثر من اهتمامه بمعارك الديوك.

أخذت الآنسة (ماليزي) تثرثر دون انقطاع حول كيف أن السيد كبر إلى سن المراهقة كفقير من الـ(كويكرز).. واشترى تذكرة يانصيب بخمسة وعشرين سنتاً ربح بها ديكاً مقاتلاً جيداً جعله يبدأ الطريق ليصبح واحداً من أنجح ملاك مباريات الديوك.

قاطعتها (كيزي) أخيراً: ألا ينام أبداً مع زوجته ؟

قالت الآنسة (ماليزي): نعم أنه يفعل.. كل ما هناك أنه يحب النساء.. إنك لن تريها كثيراً لأنها تخاف منه لدرجة الموت.. وهي تحافظ على أن تظل هادئة وتغلق على نفسها الباب.. أنها أصغر منه بكثير.. أنها ربما لم تتجاوز الرابعة عشر.. وكانت (كويكرز) فقيرة مثله عندما تزوجها وأحضرها إلى هنا.. ولكنها اكتشفت أنه لا يهتم كثيراً بها كما يهتم بالديوك.

بينما استمرت الآنسة (ماليزي) في ثرثرتها حول السيد وزوجته وديوكه سرحت أفكار (كيزي) بعيداً مرة ثانية في أفكار الهرب إلى أن قالت لها (ماليزي): يا فتاه.. هل أنت منتبهة لما أقول ؟

ردت بسرعة: نعم يا سيدتي.

زالت تكشيرة (كيزي) وقالت: حسناً سأحدثك أفضل عندما نزداد تعارفاً.

فحصت (كيزي) في اختصار وقالت: من أين أنت ؟

وعندما قالت (كيزي) أنها من سبورتسبرج قالت: لم يسبق لي أن سمعت عنها أبداً.. على أية حالة هنا مقاطعة كيسوبل في شمال (كارولينا).

وعندما ظهر على وجه (كيزي) أنه ليس لديها أي فكرة عن هذه البلدة رغم أنها سمعت كثيراً عن شمال (كارولينا) وأنها قريبة إلى حد ما من (فرجينيا) سألتها (ماليزي): اسمعي هنا ألا تعرفين أبداً اسم السيد ؟

وعندما نظرت إليها (كيزي) في بلاهة قالت: أنه السيد (توم.. ليا) وأظن أن هذا يجعلك (كيزي ليا).

أعلنت (كيزي) في احتجاج: إن أسمي (كيزي) وولر.

وبسرعة تذكرت كل ما حدث لها على يدي السيد (وولر) الذي تحمل اسمه وبدأت في البكاء فصاحت الآنسة (ماليزي): لا داعي لأن تستمري هكذا يا حلوتي ! أنت تعلمين أن الزنوج يحملون أسماء سادتهم.. وأسماء الزنوج ليس لها أهمية.. أي شيء يصلح لمناداتهم به.

قالت (كيزي): أن اسم أبي الأفريقي الحقيقي هو (كونتا) كينتي.

بدا أن الآنسة (ماليزي) قد أخذتها الدهشة: لا تقولي هذا.. لقد سمعت أن واحداً من جدود جدودي كان واحداً من الأفارقة أيضاً.. وقالت لي أمي أن أمها أخبرتها أنه كان أسود كالقطران وعلى وجهه ندوب كالزجاج على خديه.. ولكن أمي لم تقل أبداً أسمه.. هل تعرفين اسم أمك أيضاً ؟

- طبعاً أعرفه أنه (بيل) وهي طاهية البيت الكبير مثلك.. وأبي يقود العربة الحنطور الخاصة بالسيد.

لم تستطع الآنسة (ماليزي) أن تصدق: أنت أتيت من والدك وأمك مباشرة إلى هنا ! يا إلهي ! هناك العديدات منا لا يعرفن آباءهن ولا أمهاتهن لأنهن يُبعن بعيداً عنهم.

عندما أحست بأن الآنسة (ماليزي) على استعداد للرحيل أحست (كيزي) فجأة الخوف من تركها بمفردها وبحثت عن وسيلة لمد المحادثة فقالت: إنك تتحدثين مثل أمي تماماً.

ذهلت الآنسة (ماليزي) ثم شعرت بالسرور: أتوق أن تكون امرأة مسيحية طيبة.

ترددت (كيزي) في أن تسأل عن شيء مر بذهنها: أي نوع من العمل سيعطونه لي هنا يا آنسة (ماليزي) بدت الآنسة (ماليزي) مذهولة من السؤال فقالت: ما الذي ستفعلينه هنا ؟ ألم يخبرك السيد عن عدد الزنوج هنا ؟ يا طفلتي العزيزة إنك تكملين خمسة بالضبط بما في ذلك (مينجو) الزنجي العجوز الذي يعيش بين الديوك.. وأنا أقوم بالطهي والغسيل وأعمال البيت.. والأخت (سارة) والعم (بومبي) يعملان في الحقل حيث ستذهبين أيضاً.

رفعت الآنسة (ماليزي) حاجبيها دهشة من امتعاض (كيزي) وسألتها: أي عمل كنت تفعلينه حيث كنت ؟

ردت (كيزي) بصوت مضطرب: التنظيف في البيت الكبير.

- لقد تصورت ذلك عندما رأيت يديك الناعمتين.. لذلك من الأفضل لك أن تستعدي لبعض الجروح والبثور عند عودة السيد قريباً.

رأت الآنسة (ماليزي) أن تخفف من قسوتها بعض الشيء: يا لك من مسكينة.. انصتي إليَّ.. لقد تعودت على مكان لأناس أغنياء.. ولكن هذا واحد من البيض الفقراء.. تعذب وكافح حتى تملك وبني بيتاً ليس إلا ذا وجهة كبيرة لتجعلهم يبدون أحسن مما هم عليه.. والعديد من الـ(كويكرز) مثله موجودين في هذه المنطقة.. ولديهم حكمة تقول (ازرع مزرعة من مائة هكتار بواسطة أربعة زنوج).. حسناً وهو مضطر إلى زيادة هذا العدد إلى خمسة لأنه اشترى ثمانين هكتاراً أخرى.. وهي ما تكفي لأن يدعي أنه سيد.. أن عمله الكبير في المائة ديك التي يساعده الزنجي (مينجو) في تربيتها وتدريبها للدخول في المعارك والمراهنات.. والشيء الوحيد الذي ينفق عليه السيد نقوداً هو الديوك.. أنه كان يقسم للسيدة في يوم ما أن الديوك ستجعلهم أغنياء.. أنه يسكر ويقول لها أنه في يوم ما سيبني لها بيتاً كبيراً به ستة أعمدة في الواجهة.. وسيرتفع إلى طابقين..

وأنه حتى سيكون أحسن من بيوت الأغنياء الحقيقيين الموجودين هنا.. والتي تزعجهم كثيراً لأنهم لا يزالون (كويكرز) فقراء كما بدأوا.. والحقيقة أن السيد يدعي أنه يقتصد من أجل بناء هذا البيت الكبير الفخم.. أنني أعرفه جيداً أنه بخيل لدرجة أنه لا يريد أن يكون عنده فتى إسطبل.. فما بالك بزنجي لينقله للأماكن كما يفعل معظم السادة.. أنه يقوم بإعداد عربته وحنطوره ويسرج جواده بنفسه ويقوم بقيادتها.. أن السيدة لا تستطيع حتى أن تغلي الماء وهو يحب الأكل فضلاً عن أنه يحب أن يظهر بأن لديه زنوجاً يخدمون في البيت عندما يحضر الضيوف..

ويجب أن يدعو الضيوف على العشاء محاولاً التظاهر.. خاصة إذا ربح كثيراً من الرهان.. ولكن على أية حال كان عليه أن يكتشف أن العم (بومبي) والأخت (سارة) لا يستطيعان الفلاحة كما يجب.. وأن عليه أن يحصل على شخص آخر.. وهكذا اشتراك هل تعرفين كم ثمنك ؟

قالت (كيزي) في ضعف: لا.

- حسناً.. اعتقد أن ستمائة أو سبعمائة دولار حسب الأسعار.. لقد سمعته يقول : أن الزنوج يكلفون كثيراً اليوم.. وباعتبارك شابة صغيرة وقوية وتبدين كامرأة ولادة مما سيجعله يحصل على أطفال زنوج مجاناً.

عندما ظلت (كيزي) لا تنطق.. تحركت الآنسة (ماليزي) أقرب إلى الباب ووقفت: الحقيقة لن أدهش إذا لصقك سيدي مع واحدٍ من الزنوج الأقوياء الذين يحتفظ بهم السادة في أماكنهم ليؤجروهم.. ولكني اعتقد أنه سيجعلك تنجبين منه هو.



كيزي حامل

كان الحديث مقتضباً: يا سيدي إنني سأنجب طفلاً.

حسناً.. ما الذي تتوقعين مني أن أفعل بشأنه ؟ أعرف أنه ليس من صالحك أن تتظاهري بالمرض حتى تقفي عن العمل.. ولكنه بدأ يأتي إلى (كيزي) في كبينتها أقل من المعتاد عندما بدأت بطنها تكبر.. كانت تعمل كالعبدة تحت الشمس الحارقة.. ومرت (كيزي) بحالات من الدوار.. وكذلك من العمل بالحقل بدأت قرح مؤلمة مليئة بالسائل تنفجر في راحتي يديها من الاحتكاك بيد مجرفتها الخشنة.. كانت تجز النبتات وهي تحاول ألا تبتعد عن العم (بومبي) الخبير القصير والقوي.. وأخته الغريبة ذات اللون البني الفاتح (سارة).. واللذين أحست أنهما لا يزالان لم يستقر رأيهما بشأنها.. وكانت تسرح بذاكرتها للخلف لتسترجع كل شيء سمعت أمها تقوله حول إنجاب الصغار.. كانت تحس بأنها قد تتنازل عن أي شيء مقابل أن تكون (بيل) بجوارها الآن.. ورغم شعورها بالمهانة لتضخم بطنها بالطفل.. وأن عليها أن تواجه أمها التي حذرتها مكرراً من العار الذي قد يقع عليها إذا استمرت في الاختفاء خلف المكان مع ذلك المدعو (نوح).. وأن ينتهي الأمر بهما إلى التقارب الشديد.. كانت (كيزي) تعلم أن تلك الأمور يجب أن تتعلمها من أمها.

بل إنها تكاد تسمع صوت (بيل) يقول لها في حزن كما كانت تفعل كثيراً عما تعتقد أنه كان السبب في الموت المأسوي للزوجة.. وطفل السيد (وولر) من تلك السيدة المسكينة الصغيرة التى لم تكن صحتها تسمح لها بولادة ذلك الطفل الضخم.. وتساءلت هل هي قوية البنية بما يكفي.. هل هناك أي وسيلة لتعرف ؟ تذكرت ذات مرة عندما كانت هي والآنسة (آن) قد جحظت عيونهما وهما تريان بقرة تلد عجلاً.. ثم ما يقوله لها الكبار حول نوبات المخاض التي تؤدي إلى خروج الأطفال.. ربما كان على الأمهات أن تسحبهم بطرقهن الرهيبة.

بدأ أن النساء الأكبر منها الآنسة (ماليزي) والأخت (سارة) لا يلاحظن كبر بطنها باهتمام لذلك قررت (كيزي) في غضب أنه ضياع من الوقت أن تفضي بمخاوفها لهما.. تماماً كما هو الحال مع السيد (ليا) بالطبع سيكون أقل اهتماماً وهو يركب جواده حول المزرعة ويصرخ بالتهديدات في كل واحد يحس أنه لا يعمل بالسرعة الواجبة.

وعندما جاء الطفل في شتاء **1806** عملت الأخت (سارة) كداية لها.. وبعدما بدأ أنه أنين لن ينتهي وصراخ مستمر وكأنها ستنفلق إلى أجزاء استلقت (كيزي) وهي تستحم في عرقها وتحملق في تعجب إلى الطفل الباسم المتلوي الذي كانت الأخت (سارة) ممسكةً به لأعلى.. لقد كان ولداً ولكن بشرته بدت تشبه المخلطين.. وعندما رأت الأخت (سارة) قلق (كيزي) طمأنتها:

- إن الأطفال المواليد حديثاً يستغرقون حوالي الشهر حتى يغمق لونهم تماماً يا عزيزتي.

ولكن خوف (كيزي) ازداد عمقاً وهي تفحص طفلها عدة مرات في اليوم.. وعندما مر شهر علمت أن ابنها سيكون لونه الدائم بنياً بلون ثمرة البيكان.. تذكرت أمها وهي تتفاخر: ليس هنا على أرض السيد سوى زنوج قح.

وحاولت ألا تفكر في الأطفال (الساسو بورد) كالأبنوس وهو الاسم الذي أطلقه والدها الأسود على هؤلاء المخلطين.. لوت فمها لقد أحست بالامتنان لأن والديها ليسا موجودين ليريا ويشاركاها ذلك العار.. ولكنها كانت تعلم أنها لن تكون أبداً قادرة على رفع رأسها عالياً مرة ثانية.. حتى وإن لم يريا ابنها مرةً واحدة.. لأن كل ما على الآخرين هو أن يقارنوا بين لونها ولون ابنها ليعلموا ماذا حدث.. تذكرت (نوح) وأحست بمزيد من العار لقد سمعته يقول لها: هذه آخر فرصة لنا قبل أن أرحل يا حبيبتي.. كيف يمكن لك ألا تعطيني ؟.. وتمنت في يأس لو أنها فعلت.. وأن يكون هذا الطفل من (نوح).. على الأقل كان سيكون أسود.

قالت الآنسة (ماليزي) في صباح أحد الأيام.. وقد لاحظت كيف تبدو (كيزي) غريبة وهي تمسك بطفلها بجوارها.. وكأنها وجدت أنه من الصعب عليها حتى أن تنظر إليها وهو طفلها.

- ما شأنكِ يا امرأة؟ أنت لست سعيدة ومعك طفل جميل وكبير مثله.. يا عزيزتي إن ما يجعلك تنشغلين لا داعي لأن تقلقي بشأنه.. ليس هناك أي فرق لأنه بمرور الأيام والليالي لن يهتم أحد بل لن يذكروه.. لقد أصبح الآن العديد من المخلطين مثل الزنوج سواء بسواء.. أنها الطريقة التي تسير بها الأمور وهذا كل ما هناك.

كانت عينا الآنسة (ماليزي) تتوسلان لعيني (كيزي): وسترين أن السيد لن يطالبك أبداً بالطفل بأي طريقة على الإطلاق.. كل ما سيراه هو صغير.. هو ليس مضطراً لأن يدفع ثمنه.. وأنه سيظل بالمزرعة مثلك.. لذا فإن الأمر الوحيد الذي يجب عليك أن تشعرى به هو هذا الطفل الضخم اللطيف.. وأنه ملكٌ لكِ.

هذا المنطق في رؤية الأمور ساعد (كيزي) في جمع شتات نفسها على الأقل إلى حدٍ ما.. وسألت: ولكن ما الذي سيحدث عندما أحياناً بطريقة أو أخرى تقع عينا السيدة على هذا الطفل يا آنسة (ماليزي) ؟

- أعرف أن هذا ليس جيداً.. أتمنى أن أحصل على بنس واحد عن كل امرأة بيضاء تعرف أن زوجها لديه أطفال من الزنجيات.. المهم أنا أتوقع أن السيدة ستشعر بالغيرة.. لأنه على ما يبدو أنها غير قادرة على الإنجاب..

وفي الليلة التالية جاء السيد (ليا)إلى الكوخ بعد حوالي شهر من مولد الطفل.. ومال على السرير وهو ممسكًا بشمعة بالقرب من وجه الطفل النائم: آه.. لا بأس بشكله وحجمه الكبير.

فتح بسبابته إحدى راحتي الطفل الصغير وقال: حسناً.. أن عطلة نهاية الأسبوع كافية كإجازة وستعودين إلى الحقل يوم الإثنين.

قالت في غباء: ولكن يا سيدي.. يجب أن أبقى لأرضعه.

انفجرت ثورة غضبه في أذنيها وهو يأمرها: اخرسي وافعلي ما تؤمرين به.. لقد انتهى عصر تدليلك.. خذي هذا الطفل معك إلى الحقل.. وإلا سآخذه وأبيعه بسرعة البرق.

خافت وانفجرت بسذاجة في البكاء لمجرد أن يباع ابنها بعيداً عنها وصاحت: حاضر يا سيدي.

عندما شاهد في عينيها خضوع المُحطم.. سرعان ما خف غضبه.. ولكن عندئذ بدأت (كيزي) تحس وهي غير مصدقة أنه في الحقيقة قد أتى عمداً ليضاجعها مرةً ثانيةً.. الآن.. حتى والطفل نائم بجوارها أخذت تتوسل إليه صادقة: يا سيدي.. يا سيدي ليس بهذه السرعة أنا لم أشف جيداً بعد يا سيدي ؟

ولكنه عندما تجاهلها ببرود.. قاومت حتى انطفأت الشمعة.. بعدها تحملت العذاب والمحنة في هدوء وهي مرعوبة من أن يستيقظ الطفل.. أنهى السيد مهمته القذرة.. ونهض استعداداً للرحيل.. ثم قال في الظلام: حسناً.. لابد أن نسميه شيئاً.

كانت (كيزي) مستلقية وأنفاسها متقطعة.. قال: اسمه (جورج) وهذا على اسم أكثر الزنوج عملاً شاقاً رأيته في حياتي.

وبعد فترة صمت استمر السيد وكأنه يتحدث مع نفسه: نعم (جورج) غداً سأكتبه في إنجيلي.. نعم هذا اسم جميل (جورج) ثم خرج.

نظفت (كيزي) نفسها ثم استلقت على ظهرها ثانيةً.. وهي غير واثقة على أي شيء يجب أن تثور.. لقد سبق أن فكرت من قبل إما (كونتا) أو (كنتي)كاسم مثالي رغم أنها لم تكن واثقة برد فعل السيد حول هذين الاسمين المجهولين..

ولكنها لم تجرؤ على إشعال غضبه بأي اعتراض على الاسم الذي اختاره.. فكرت في رعب جديد عما يمكن أن يظن والدها الأفريقي في ذلك.. وهي تعرف ما يوليه من أهمية للأسماء.. وتذكرت (كيزي) كيف أن والدها أخبرها أنه في وطنه كانت تسمية الأبناء أهم شيء على الإطلاق لأن الأبناء يصبحون رجال أسرهم.

استلقت تفكر كيف أنها لم تفهم أبداً لماذا والدها كان يشعر باستمرار بالمرارة نحو عالم البيض الطوبوب كما كان يسميهم.. وتذكرت (بيل) وهي تقول لها: أنت طفلة محظوظة يا عزيزتي لأنك في الحقيقة لا تعرفين ماذا يعني كونك زنجية.. وأتعشم من الرب الرحيم ألا تكتشفي ذلك أبداً.

حسناً.. لقد اكتشفت.. وبدأ أنه لا يوجد حدود هناك للأحزان التي يستطيع البيض أن يسببوها للناس السود.. ولكن أسوأ شيء فعلوه كما يقول (كونتا) هو إبقاؤهم جهلاء بمن يكونون.. وأن يبعدوهم عن أن يكونوا بشراً على الإطلاق.. لقد أخبرتها أمها:

- السبب في أن والدك استولى على مشاعري من أول وهلة هو أنه كان أكثر الرجال فخراً بنفسه رأيته في حياتي.. وقبل أن تستغرق في النوم قررت (كيزي) مهما كان أصل طفلها.. أو لونه.. وأي اسم أجبرها السيد على إعطائه له.. فإنها لن تنظر إليه أبداً على أنه حفيد رجل أفريقي.



كيزي تعود للعمل

لما كان العم (بومبي) لم يقل أكثر من كيف الحال ؟ لـ (كيزي) عندما يراها في الصباح فإنها دهشت وتأثرت بعمق عندما جاءت إلى الحقل مع طفلها لأول يوم عمل بعد عودتها اقترب منها العم (بومبي) في خجل ولمس حافة قبعته القش الملوثة بالعرق وأشار إلى الأشجار عند حافة الحقل وقال: إنك تستطعين أن تضعي الطفل تحتها.

لم تكن واثقة بما كان يعنيه.. وضاقت عيناها وهي تحاول أن ترى شيئاً تحت إحدى الأشجار وسرعان ما رطبت الدموع عينيها لأنها عندها ذهبت إلى هناك وجدت أنه مرقد صغير على سطحه عشب طري طازج وطويل وأوراق خضراء.. فردت (كيزي) جوالها النظيف المصنوع من القطن على الوسادة المحشوة بالليف ووضعت الطفل عليها.. بكى الطفل قليلاً ولكن بربتها عليه.. وأصواتها الحانية سرعان ما كان يهدأ.. انضمت إلى رفيقاتها اللذين كانا يعملان في التبغ وقالت: أقدر لك صنيعك يا عمي (بومبي).

تمتم.. وأخذ يحصد التبغ أسرع محاولاً أن يخفي حرجه.. وعلى فترات كانت (كيزي) تسرع لتطمئن على طفلها.. وكل ثلاث ساعات عندما يبدأ في الصراخ كانت تجلس وتدعه يرضع من أحد ثدييها المنتفخين باللبن.. قالت لها الأخت (سارة) بعد عدة أيام وهي توجه الكلام إلى (كيزي) ولكنها كانت تلقي نظرة سريعة على (بومبي): ابنك تحت رعايتنا جميعاً لأنه لا يوجد شيء آخر سواه يسترعى انتباهنا.

والآن عندما ينتهي كل يوم عمل عند غروب الشمس.. كانت الأخت (سارة) تصر على حمل الطفل بينما تأخذ (كيزي) محشاتها عند العودة إلى صف الزنوج الذي لم يكن أكثر من أربع كبائن صغيرة مثل الصناديق بها نافذة واحدة بالقرب من شجرة كستناء كبيرة.. وعادةً ما كان ينزل الظلام المبكر في الوقت الذي تشعل (كيزي) الأغصان في مدفأتها الصغيرة لتطهو شيئاً من حصتها المتبقية التي تقدم صباح كل سبت بواسطة السيد (ليا).. كانت تأكل بسرعة ثم تستلقي على مرتبتها المحشورة بأوراق الذرة وهي تلعب مع (جورج) ولكنها لا ترضعه إلا إذا دفعه الجوع إلى البكاء..

ثم ترضعه حتى يمتلئ.. ثم تحمله فوق كتفها وهي تدعك ظهره لتساعده على التجشؤ.. وبعدها تلعب معه ثانيةً.. كانت تبقيه مستيقظاً معها إلى أقصى وقت متأخر من الليل قبل أن يستطيع أن يتناول رضعته الأخيرة حتى لا تضطر لإيقاظه وسط الليل.. وكان خلال هذه الفترة قد يحضر السيدة مرة أو مرتين أسبوعياً ليجبرها على أرضاء رغباته القذرة.. وكان دائماً تنبعث منه رائحة الشراب.. ولكنها قررت من أجل صالح الطفل وصالحها على حد سواء ألا تحاول مقاومته بعد ذلك.. كانت تشعر بالقذارة وهي مستقلية ساكنة.. وتحس بالبرد حتى ينتهي وينهض في تلذذ قذر.. بينما تظل مستقلية في مكانها وقد أغمضت عينيها وهي تسمع صوت ربع السنت الذي يلقيه دائماً فوق المائدة إلى أن يرحل.. وكانت (كيزي) تتساءل إن كانت السيدة هي الأخرى مستقلية وهي متيقظة أيضاً في البيت الكبير والذي كان قريباً على مرمى السمع.. ما الذي تفكر فيه وكيف تشعر عندما يأتي السيد إلى فراشها وهو لا يزال تفوح منه رائحة الشراب ؟

وأخيراً بعد إرضاع (جورج) مرتين قبل شروق الشمس تغرق في نوم عميق ليوقظها العم (بومبي) بعدها بطرقه على الباب لتنهض.. تأكل (كيزي) إفطارها.. وترضع ابنها ثانيةً قبل أن تصل الأخت (سارة) لتحمل الطفل للخارج إلى أحد الحقول.. كان هناك حقول منفصلة للذرة والقطن والتبغ وقد بنى العم (بومبي) حالياً مظلة محمية في شجرة عند حافة كل حقل.

وعندما ينتهي السيد والسيدة من وجبة منتصف النهار كانا دائماً ما يرحلان بسرعة في رحلتهما الأسبوعية بالحنطور.. وأثناء غيابهما قد يتجمع العبيد الذين لا يزيد عددهم على أصابع اليد الواحدة حول شجرة الكستناء لمدة ساعة.. والآن وقد انضمت (كيزي) وابنها إليهم فإن الآنسة (ماليزي) والأخت (سارة) يبدآن بسرعة حربهما حول من يستطيع أن يمسك بـ (جورج) الذي لا يكف عن الحركة.. وكان العم (بومبي) الذي ينفخ دخان غليونه وهو جالس يبدو أنه يستمتع بالحديث مع (كيزي) لأنها تنصت إليه بمزيد من الاحترام.. ونادراً ما تقاطعه كما تفعله المرأتان الأكبر سناً.. قال في إحدى المرات:

- هذا المكان لم يكن سوى غابات لا يساوي الفدان فيها خمسين سنتاً.. وكان أول زنجي فيها اسمه (جورج) مثل صغيرك هذا.. لقد كان من الواضح أن السيد استغل هذا الزنجي حتى الموت.

عندما رأى (بومبي) (كيزي) وهي تشهق توقف وسأل: ما الأمر ؟

سرعان ما استجمعت نفسها وقالت: لا شيء.

عندما أتيت إلى هنا كان السيد قد جعل ذلك الزنجي المسكين يختص بقطع الأشجار ونزع الجذور.. وإزالة الأشجار والشجيرات بما يسمح بالحرث من أجل الزراعة لأول محصول.. ثم في يوم كنت أنا والزنجي ننشر كتل الخشب على ألواح من أجل ذلك البيت الكبير .. يا إلهي لقد سمعت ذلك الصوت المميز.. ونظرت لأعلى من مكاني ورأيت (جورج) الزنجي وعيناه تدوران وأمسك بصدره ثم سقط ميتاً هكذا.

غيرت (كيزي) الموضوع: منذ أن أتيت إلى هنا ظللت أسمع أنكم جميعاً تسمعون عن صراع الديكة ولم أسمع ن ذلك أبداً.

قالت الآنسة (ماليزي): حسناً.. أنا أيضاً سمعت نوع من الديكة الشرسة ولدت وربيت ودربت لتقتل بعضها البعض.. والرجال يراهنون بالكثير من الأموال عليها.

تدخلت الأخت (سارة): الوحيد الذي يمكنه أن يقول لك المزيد عنهم هو ذلك العجوز الزنجي (مينجو) الذين يعيش هناك مع الدجاج.

عندما شاهدت الآنسة (ماليزي) (كيزي) فاغرةً فمها صاحت: ألم أقل لك ذلك في أول يوم أتيت فيه إلى هنا.. كل ما هنالك أنك لم تريه بعد.. وربما لن تريه أبداً.

قالت الأخت (سارة): لقد كنت هنا لمدة أربعة عشر عاماً.. ولم أرَ هذا الزنجي العجوز أكثر من ثماني أو عشر سنوات.. أنه فقط يفضل أن يكون بين الدجاج عن الناس.. والحقيقة أعتقد أن أمه باضته !

بينما اشتركت (كيزي) في الضحك مالت الأخت (سارة) نحو الآنسة (ماليزي) وقد مدت ذراعيها: دعيني احمل هذا الطفل.

سلمت الآنسة (ماليزي) الطفل في حقد وقالت: حسناً على أية حال الدجاج تأخذ سيدنا وسيدتنا من التجول بينا وقد وضعا على وجهيها مظهراً بسبب المرض.

قام بحركة كبرى لتقليدهما.. ذلك السيد الذي يرفع يده لأعلى عندما يتقابل مع بعض الأغنياء المارين في عرباتهم.. وإصبعه يشبه الغراسة في حركته.. ومنديل السيدة يرفرف بشدة إلى أن توشك أن تسقط من الحنطور.. ووسط القهقهة العالية احتاجت الآنسة (ماليزي) فترة زمنية حتى تستعيد هدوءها.. ثم بينما تمد يدها لتستعيد الطفل ثانية ولكن الأخت (سارة) صاحت في حدة: انتظري أنا لم أحمله سوى دقيقة.

أسعد (كيزي) أن تراهم يتنافسون على حمل طفلها.. وأن تراقب العم (بومبي) يشاهد في هدوء ثم يبتسم في سعادة إذا حدث ونظر الطفل نحوه.. بينما يأتي بحركات مضحكة بوجهه وأصابعه ليجذب انتباه الطفل.. كان (جورج) يحبو بعد أشهر قليلة عندما بدأ يصرخ طالباً الرضاعة.. كانت (كيزي) على وشك أن ترفعه عندما قالت الآنسة (ماليزي): دعيه يقف قليلاً يا حلوتي أن هذا الطفل كبير بما يكفي لأكل شيء ما الآن.

أسرعت الآنسة (ماليزي) إلى كوخها.. وعادت بعد لحظات قليلة وراقبها الجميع وهي تستخدم خلف المعلقة لهرس نصف كوب من خبز الذرة والمرق ثم رفعت (جورج) إلى حجرها ووضعت جزءاً صغيراً بالمعلقة في فمه.. وقد أشرق وجه الجميع عندما التهم الخليط كالذئب.. وفتح شفتيه ليلهف المزيد.

أصبح (جورج) الآن يجرب السير.. وعندما كانوا في الحقول ربطت (كيزي) حبلاً صغيراً حول وسطه لتحديد المدى الذي يسير فيه.. ولكنها سرعان ما اكتشفت أنه رغم ذلك كان يلتقط الطين والحشرات الزاحفة ويأكلها.. وقد اتفق الجميع على ضرورة عمل شيء اقترحته الآنسة (ماليزي) التى قالت: طالما أنه ليس في حاجة إلى الرضاعة بعد الآن.. عليكم أن تتركوه معي أنا أستطيع أن أضع عيني جيداً عليه بينما أنت في الحقل.

حتى الأخت (سارة) وجدت أن ذلك معقول.. ورغم أن (كيزي) كانت تكره ذلك فقد بدأت تسلم (جورج) إلى مطبخ البيت الكبير قبل أن تغادر للحقل كل صباح.. ثم تستعيده عند عودتها.. أوشكت أن تتراجع عندما كانت أول كلمة نطق بها هي (ماليزي).. ولكنه سرعان ما قال لها (مامي) الأمر الذي أبهجها وأثارها.. ثم كانت الكلمة التالية هي (بومبي) التي جعلت الرجل العجوز يبدو وكأنه ابتلع الشمس الساطعة.. وبعدها تبعها بكلمة (سارة).

بعد بلوغه العام كان (جورج) يمشي دون مساعدة.. وببلوغه الشهر الخامس عشر كان يسابق نفسه وهو يظهر مرحه وبهجته لأنه أصبح معتمداً على نفسه.. والآن أصبح ممنوعاً على أحد أن يحمله ما لم يكن نعسان.. أو لا يشعر بأنه على ما يرام.. وهو ما يحدث نادراً لأنه والحقيقة كان ينفجر صحة ونمواً بفضل حشوه اليومي بواسطة الآنسة (ماليزي) بأحسن ما يقدمه المطبخ من طعام.. والآن خلال ما بعد ظهر أيام الآحاد عندك تنهمك (كيزي) والثلاثة الكبار في الحديث كانوا يضعون أعينهم على الطفل وهو يلعب بمفرده.. وسرعان ما تتلوث حفاضاته المبتلة بالتراب الذي يضاهيه في اللون.. كان (جورج) سعيداً وهو يعلو فرع شجرة.. وكذلك إمساكه بخنفساء أو مطاردة فراشة اليعسوب.. ولهثه وراء الدجاج الذي يدفعه إلى الهرب خوفاً وبحثاً عن مكان آخر..

وفي أحد أيام الأحد ضحكت النساء الثلاث في هيستريا أمام منظر العم (بومبي) وهو يقفز قفزات قصيرة بطريقة غريبة محاولاً أن يحصل على نسيم بسيط ليرفع الطائرة الورقية التي صنعها للولد المبهور.. صاحت الأخت (سارة) تنبه (كيزي): دعيني أخبرك يا بنت.. أنت لا تعرفين حقاً ما تريه أمامك.. منذ أن أتى هذا الطفل إلى هنا فإن (بومبي) ما أن كان يدخل كوخه حتى يصعب علينا رؤيته إلا في صباح اليوم التالي.

قالت (كيزي): حسناً لقد شعرت بالخير عندما وضع الملجأ الصغير لـ (جورج) عندما أحضرته إلى هنا أول مرة في الحقل.

قالت الأخت (سارة): أنت تحسين بالخير.. هذا الطفل يسعدنا جميعاً.

استطاع العم (بومبي) أن يجذب المزيد من انتباه (جورج) عندما بدأ يخبره بالحكايات وهو في سن الثانية.. وعند غروب يوم الأحد وتحول الأمسيات إلى البرد كان العم (بومبي) يشعل ناراً صغيرة من الخشب الأخضر ليبعد الناموس بحيث كانت النساء الثلاث يضعن مقاعدهن حول النار.. ويجد (جورج) أكثر أوضاعه راحة لمشاهدة حركات وجه العجوز ويديه.. وهو يقص عليه قصة الأرنب والدب وسلسلة.. لا تنتهي من القصص والحكايات لدرجة أن (سارة) صاحت: إنني لم أكن أحلم أبداً أنك تعرف كل هذه الحكايات.

قال لها العم (بومبي) وهو يحدجها بنظرة ماكرة: هناك كمية هائلة من الأمور لا تعرفينها عني.

رفعت الأخت (سارة) رأسها وهزتها في احتقار شديد: أف.. لا يوجد أحد إذن يحاول أن يعرفها.

تأفف العم (بومبي) في رزانة وضحك فقالت (كيزي): يا آنسة (ماليزي) أنا سأقول لك شيئاً.. الأخت (سارة) والعم (بومبي) متحاملان على بعضهما لدرجة تثير الأعصاب.. ولكني أحياناً يسودني شعور أنه وكأن كلاً منهما يغازل الآخر .

أخذت عيناً الآنسة (ماليزي) تفحصان (كيزي) ثم قالت: نحن كبار في السن.. وهكذا الأمر ولكن كونك صغيرة يا عزيزتي وليس لديك أحد.. وهذا الأمر يختلف.. لقد تمنيت فقط لو أن السيد اشترى شخصاً يمكنك أن ترتبطي به وهو في مثل سنك.

- نعم يا آنسة (ماليزي) ولا أنكر ذلك.. لأنني فعلاً أفكر فيه.. ولكن السيد لن يفعل ذلك.

أحست بالامتنان لأن أحد منهم لم يذكر أبداً أو حتى ألمح إلى ما لابد أنهن يعرفنه ويجري بينها وبين السيد.. على الأقل لم يذكروا ذلك أبداً في حضورها.. استمرت في الحديث: ما دمنا قد تقاربنا فإنه رجل عرفته في المكان الذي أتيت منه.. وما زلت أفكر فيه كثيراً.. لقد كنا سنتزوج ولكن كل الأمور اختلطت وتدهورت والحقيقة هذا هو السبب في حضوري إلى هنا.

وأخبرتها كيف كانت مع (نوح) وما انتهت إليه.

- إنني أقول لنفسى أنه لا يزال يواصل في جدية البحث عني وأن الأمر سينتهي بنا يوماً ما بأن نتقابل وجهاً لوجه.

كان تعبير (كيزي) وكأنها تصلي: وإذا ما حدث ذلك يا آنسة (ماليزي) أقول لك الحقيقة أن لا أحد منا سيقول أي كلمة.. واعتقد أن كلاً منا سيمسك بيد الآخر.. وآتى إلى هنا لأقول لك وداعاً وآخذ (جورج) وأرحل.. إنني لن أسأل أو اهتم إلى أين سنذهب.. ولن أنسى فقط آخر شيء قاله لي سنقضي بقية حياتنا معاً.

انقطع صوت (كيزي) وإذا بها و(ماليزي) تنخرطان في البكاء وبعد ذلك مباشرة عادت (كيزي) لكوخها.

وفي صباح أحد الأيام بعد أسابيع قليلة كان (جورج) في البيت الكبير يساعد الآنسة (ماليزي) في إعداد وجبة الظهر.. عندما دعت الأخت (سارة) (كيزي) إلى كوخها لأول مرة منذ أن أتت لمزرعة (ليا) حملقت (كيزي) إلى الجدران المزدحمة للغاية.. لقد كانت كلها مغطاة بحزم من الجذور الجافة.. والأعشاب معلقة في شماعات ومسامير تشهد على أن الأخت (سارة) تدعي أنها قادرة على شفاء كل الأمراض طبيعياً.. أشارت إلى العقد الوحيد عندها وقالت: اجلسي يا بنت !

جلست (كيزي) واستمرت الأخت (سارة) في حديثها: سأخبرك بشيء لا يعرفه أي شخص.. لقد كانت أمي امرأة عرافة من (لويزيانا) وهي التي علمتني كيف أكشف عن المستقبل جيداً.. هل تريدين أن أقرأ مستقبلك ؟

في الحال تذكرت (كيزي) تلك الأوقات عندما كان كل من العم (بومبي) والآنسة (ماليزي) يذكران أن الأخت (سارة) دليها موهبة قراءة الطالع فقالت: نعم.. إنني أود ذلك يا أخت (سارة).

قرفصت الأخت (سارة) على الأرض.. وسحبت صندوقاً كبيراً من تحت السرير.. أخرجت منه صندوقاً أصغر.. وأخرجت ملء كفيها أشياءاً جافة ذات شكل غامض.. واستدارت ببطء نحو (كيزي).. رتبت بعناية الأشياء إلى رسم متناسق.. وأخرجت عصاً تشبه اليد من تحت ثوبها.. وبدأت تهزها بقوة.. مالت للأمام إلى أن لمست جبهتها الأشياء على الأرض.. وبدا وكأنها تصارع حتى تنصب ظهرها عندما بدأت الحديث في لهجة عالية غير عادية.

أكره أن أخبرك ما تقوله الأرواح.. أنك لن ترى أبداً أمك وأباك بعد الآن لأنهما سيغادران هذا العالم.

انفجرت (كيزي) في النحيب.. وتجاهلتها الأخت (سارة) كليةً.. وأعادت ترتيب الأشياء ثانية ثم هزتها وهزتها عدة مرات أكثر من ذي قبل إلى أن استعادت (كيزي) سيطرتها على نفسها واختفى نحيبها.. ومن خلال عينيها الغائمتين حملقت في خوف عندما اهتز الصولجان وارتجف

ثم بدأت الأخت (سارة) في صوت شبه مسموع: يبدو أن هذا الطفل لن يكون له حظ حسن.. فقط الرجل الذي تحبينه أيضاً.. ولكن الأرواح تقول لي من الأفضل قول الحقيقة.. وأن تكفي حتى عن الأمل.

قفزت (كيزي) واقفة وهي ترتجف وهذه المرة صاحت الأخت (سارة) المهتاجة: صه.. صه.. لا تزعجي الأرواح الأخت ! صه.. صه !.

ولكن (كيزي) استمرت في الصراخ واندفعت خارجة وعبرت الممر إلى كوخها.. ثم صفقت بابها عندما انفتح باب العم (بومبي) وظهرت وجوه السيد و(السيدة ليا) و(جورج) والآنسة (ماليزي) فجأة في نوافذ البيت الكبير والمطبخ.. كانت (كيزي) تلطم وتنتحب فوق حشيشها من ورق الذرة عندما اندفع (جورج) داخل الكوخ وهو يصيح: أمي.. أمي.. ما الأمر ؟

كان وجهها تغطيه الدموع وصرخت في هيستيريا في وجهه: أخرس !



جورج يسأل عن أبيه

ببلوغ (جورج) سن الثالثة بدأ يظهر عزماً على مساعدة كبار العبيد قالت الآنسة (ماليزي) وهي تضحك: يا إلهي أنه يحاول أن يحمل لي بعض الماء وهو بالكاد يستطيع رفعه.

وفي مرة ثانية قالت: الكلب لم يكف عن ضرب صندوقي الخشبي إلا بعد أن حطمه وألقى بخشبة في المدفأة.

سألها في إحدى الليالي: لماذا أنا لست أسوداً مثلكم يا أمي ؟

شهقت (كيزي) وقالت: الناس يولدون باللون الذى يختاره لهم الرب.. ولكن لمرات عديدة كان يطرح نفس السؤال مراتٍ.. ومرات: من هو أبي يا أمي ؟ لماذا لم أشاهده أبداً ؟

كانت (كيزي) تتأثر وتقول له بلهجة تهديد: فقط عليك أن تغلق فمك.

ولكنه بعد ساعات تستلقي مستيقظة بجواره ولا تزال تحس بجرحه وتعبيره الحائر.. وفي صباح اليوم التالي تسلمه إلى الآنسة (ماليزي) وهى تعتذر له قائلة: لقد أصبحت عصبية لأنك تسأل أسئلة كثيرة.. ولكنها كانت تعلم أن شيئاً أفضل من الواجب أن يقال له يمكن لكليهما أن يفهمها ويقبلاه.. أنه طويل وأسود كالليل وبالكاد يبتسم وهو ينتمي إليك مثلي تماماً فيما عدا أنك تناديه جدي.. بدأ أن (جورج) كان مهتماً وملتهفاً على سمع المزيد أخبرته أن جده جاء في سفينة من أفريقيا إلى مكانٍ ما.. قالت أمه أنهم يسمونه (بابلس) وقالت أن شقيقا لسيدها (وولر) قد أحضره إلى مزرعته في (سبورتسلفانيا) ولكنه حاول أن يهرب.. لم تكن واثقة أن باستطاعتها أن تخفف الجزء التالي من الحكاية فقررت أن تحضرها قائلة: وعندما استمر في الهرب بعيداً قطعوا نصف قدمه.

التوى وجه (جورج) ممتعضاً وسأل: كيف فعلوا به ذلك يا أمي ؟

- لقد أوشك أن يقتل بعض مطاردي الزنوج.

- يطاردونهم لماذا ؟

- حسناً.. هؤلاء الزنوج كانوا هاربين.

- وممن كانوا هاربين ؟

- من سادتهم البيض.

- وما الذي فعله البيض لهم؟

أصيبت بالضيق والإحباط فصاحت: أغلق فمك وابتعد عني.. أنت تزعجني حتى الموت.

ولكن (جورج) لم يكن يصمت طويلاً لأن شهيته لمعرفة المزيد عن جده الأفريقي لم تشبع أبداً..

- وماذا عن أفريقيا هذه يا أمي ؟ وهل هناك أولاد صغار في أفريقيا ؟ ما اسم جدي مرةً ثانيةً ؟ وأكثر مما كانت تأمله فإن (جورج) بدأ يبني في نفسه صورة لجده.. وفي حدود تحملها حاولت (كيزي) أن تساعده في ذلك بحكايات من مخزن معلومات وذكرياتها ؟.

- يا ولدي.. كم أتمنى لو أنك سمعته يغني بعض الأغاني الأفريقية لي ونحن راكبان في الحنطور وكنت بنتاً صغيرة في مثل سنك الآن.

وأحياناً ما تجد (كيزي) نفسها تبتسم وهي تتذكر في سعادة كيف اعتادت الجلوس على مقعد الحنطور الضيق المرتفع بجوار والدها وهما ذاهبان على طول طرق (سبورتسلفانيا) الحارة المتربة.. وكيف أنه في أوقات أخرى كانت تسير هي و(كونتا) متشابكي الأيدي على طول السياج المؤدي إلى الجدول والذي عليه فيما بعد سارت يداً بيد مع (نوح) وقالت لـ (جورج):

- جدك كان يحب أن يخبرني عن أشياء باللغة الأفريقية.. مثل تسميته للكمان بـ (كو) وتسميته للنهر بـ (كامبي بولونجو) ومجموعة كاملة من الكلمات المسلية مثلها.

وتمنت لو أن والدها موجود حتى يستطيع أن يعلم حفيده أيضاً بعض الكلمات الأفريقية.. طغى عليها حبها له ووعدته بالمزيد فيما بعد.. ثم وضعته وهو يحتج في سريره.



جورج يعمل في الحقول

عندما حلت السنة السادسة من عمر (جورج) وهذا يعني أن عليه أن يبدأ العمل في الحقول انفطر قلب الآنسة (ماليزي) لفقدها رفيقها في المطبخ.. ولكن (كيزي) والأخت (سارة) سعدتا لأنهما استعادتاه أخيراً.. ومن أول يوم عمل لـ (جورج) في الحقل بدأ وكأنه يراه مملكة جديدة من المغامرات.. وتابعت العيون (جورج) وهو يجري في المكان يلتقط الصخور التي قد تكسر حافة محراث العم (بومبي).. وكان يتجول وهو يحضر لكل منهم دلواً من الماء البارد للشرب الذي اضطر لرفعه من البئر في نهاية الحقل.. بل أنه حتى ساعدهم في زراعة القطن والذرة وإسقاط بعض البذور في الصفوف المحروثة.. وعندما كان الثلاثة الكبار يضحكون من غبائه وجهوده الدائبة في استخدام العزاقة التي كانت يدها أطول منه.. كانت ابتسامته الواسعة تدل على روحه المعنوية العالية.. وكان ضحكهم يزداد عندما يصر (جورج) على أن يقول للعم (بومبي) أنه يستطيع أن يحرث الأرض.. ثم يكتشف أنه ليس طويلاً بالقدر الذي يمكنه من الإمساك بذراعي المحراث.. ثم يضم ذراعيه حول الجوانب ويصيح في البغل.. هيا انهض..

وفي إحدى الليالي اقترح على أمه تغيير الروتين:

- يا أمي ! أنت تعملين بمشقة طوال النهار.. لماذا لا تستلقي وتستريحي من الطهي ؟ بل أنه أحياناً كان يحاول أن يأمرها بأن تستريح وفي أوقات بدأ لـ (كيزي) وكان ابنها يحاول أن يملأ مكان الرجل الذي أحسته أنه ينقص حياتها.. لقد كان (جورج) مستقلاً للغاية ومكتفياً ذاتياً بالنسبة لولد صغير لدرجة أنه من حين لآخر عندما يصاب بالبرد أو بعض الإصابات الصغيرة فإن الأخت (سارة) كانت تصر على علاجه بأعشابها الطبية.. وتنهي (كيزي) مهمتها بمزيد من الحب.. وأحياناً وهم مستلقيان قبل النوم قد يجعل (كيزي) تبتسم في نفسها من الخيالات التي يشاركها فيها هناك في الظلام ويهمس:

- أنا سأذهب إلى نهاية ذلك الطريق الكبير.. وأرفع رأسي.. وأرى الدب الضخم العجوز وهو يجري ويبدو مثل الحصان الكبير.. وأنادي عليه: يا سيد دب (هاي) يا سيد دب عليك فقط أن تستعد لي حتى أقلبك من الداخل للخارج لأنك لن تؤذي أمي.. أو أحياناً قد بحث وبحث ثم يقنع أمه المتعبة أخيراً لأن تنضم إليه في غناء بعض الأغاني التي سمع الآنسة (ماليزي) تغنيها عندما كان يقضي أيامه معها في المطبخ في البيت الكبير .. وقد يتردد داخل الكوخ الصغير صوتهما الثنائي الرقيق بأغنية (أوه ماري) لا تبكي.. (أوه ماري) لا تتأوهي لأن جيش فرعون القديم قد مات غرقاً.. (أوه ماري) لا تبكي.. وأحياناً عندما لا يوجد ما يجذب (جورج) غير ذلك داخل الكوخ فإن الصبي ذات الستة أعوام الذي لا يهدا قد يتمطى أمام المدفأة.. ويبري عصا بحجم أصبعه من أحد طرفيها.. ثم يوجهها نحو النيران لتحترق في طرفها.. ويصبح كالفحم صانعاً نوعاً من القلم الرصاص.. ثم يرسم به على لوحة من البلوط الأبيض الخطوط البسيطة التي تحدد وجوه الناس أو الحيوانات.. وفي كل مرة يفعل ذلك كانت (كيزي) تمسك أنفاسها وهي تخاف أن يرغب (جورج) بعد ذلك أن يتعلم الكتابة والقراءة.. ولكن من الواضح أن الفكرة لم تخطر على باله.. واهتمت (كيزي) جيداً ألا تذكر أبداً الكتابة والقراءة واللتين أرعباها طوال حياتها.. والحقيقة أنه خلال سنوات (كيزي) فى مزرعة (ليا) لم تمسك أبداً أي قلم رصاص أو حبر ولا كتاب ولا جريدة.. ولم تذكر لأحد أنها كانت في يوم ما تعرف الكتابة والقراءة.. وعندما فكرت في ذلك كانت تتساءل إذا كانت لا تزال تستطيع القراءة والكتابة فهل سترغب في استخدام ذلك لأي غرض.. وعندئذ قد تتهجى في رأسها بعض الكلمات التي تحس أنها لا تزال تذكرها صحيحة.. وبتركيز عميق قد تتصور في عقلها كيف يمكن أن تبدو تلك الكلمات وهي مكتوبة ليس لأنها كانت متأكدة من كيف تبدو كتابتها الآن.. وأحياناً قد يغريها الأمر ولكنها تظل عند قسمها مع نفسها إلا تكتب أو تقرأ.

وأكثر ما اشتاقت له من الكتابة والقراءة هو غياب الأخبار عما يحدث في العالم حول المزرعة.. وتذكرت كيف أن أباها كان يقص عليهم ما يعرفه عندما يعود من رحلاته مع السيد (وولر) ولكن كل الأخبار الخارجية كان أمراً نادراً هنا في هذه المزرعة المتواضعة والمنعزلة.. والزنوج كانوا يعرفون ماذا يجري بالخارج عندما يكون عند السيدة والسيد (ليا) أحياناً ضيوف على العشاء.. وخلال واحدة من تلك الدعوات بعد ظهر أحد أيام الأحد عام 1812 جرت الآنسة (ماليزي) إليهم من البيت الكبير.. وأخبرتهم أن الضيوف هناك يتحدثون حول أخبار الحرب مع إنجلترا التى يبدو أنها سترسل حمولات سفن كاملة من الجنود من هناك إليهم.. فقالت الأخت (سارة): إنهم لا يرسلونهم هنا ضدنا نحن.. وإنما لقتال البيض.

سأل العم (بومبي): حسناً.. ما دام الأمر هناك في مكان ما من الشمال وليس في أي مكان حولنا هنا فالأمر لا أهمية له عندي وفي تلك الليلة سأل الصغير (جورج) حاد السمع (كيزي):

- ما هي الحرب يا أمي ؟

فكرت فترة قبل أن ترد: أنها مجموعة من الناس يتعاركون ضد بعضهم البعض.

- يتحاربون على ماذا ؟

- يتنازعون شيئاً مافيما بينهم.

- حسناً.. مالذي يحس كل من البيض وإنجلترا أنهم يحبونه للعراك معاً من أجله.

- يا ولد.. إنني لن انتهي من أن أشرح ذلك أي شيء !

بعد نصف ساعة بدأت (كيزي) تبتسم في نفسها في الظلام عندما بدأ (جورج) يغني إحدى أغاني الآنسة (ماليزي) لا تكاد تسمع وكأنه يغنيها لنفسه.. سأقوم بارتداء ثوبي الطويل الأبيض.. هناك عند ضفة النهر.. لن أعرف شيئاً عن الحرب بعد الآن..

وبعد وقت طويل جداً دون مزيد من الأخبار وخلال إحدى حفلات الغذاء في البيت الكبير نقلت (ماليزي) ؟ أنهم يقولون أن إنجلترا استولت على إحدى المدن هناك في الشمال اسمها (ديترويت) ثم مرة ثانية بعد شهور أخرى قالت أن السيد والسيدة والضيوف كانوا يتناقشون في انفعال عن سفينة ضخمة للولايات المتحدة تسمى (أولد ابرونسايذر) ويقولون أنها أغرقت العديد من سفن الإنجليز بواسطة مدافعها الأربعة والأربعين.

صاح العم (بومبي): واو ! أنها كافية لإغراق سفينة (نوح).

ثم في يوم أحد عام 1814 كانت الآنسة (ماليزي) قد أخذت معها (جورج) ليساعدها في المطبخ عندما جاء طائراً إلى صف العبيد وقد انحبست أنفاسه برسالة:

- الآنسة (ماليزي) تقول أن أخبركم جميعاً أن جيش إنجلترا قد سحق خمسة آلاف من جنود الولايات المتحدة وأحرق كل من الكابيتول والبيت الأبيض.

قالت (كيزي): يا إلهي ! أين هذا ؟

قال العم (بومبي): أنه في (واشنطون دي سي) وهي بعيدة عن هنا.

صاحت الأخت (سارة): ليتقاتلوا كيفما شاؤوا طالما كان ذلك بعيداً عنا..

وخلال وليمة غذاء جاءت الآنسة (ماليزي) مسرعة لتقول لهم : أن هناك أخبارٌ بأن سفن إنجلترا تضرب حصناً كبيراً بالقرب من بالتيمور.

وكانت الآنسة (ماليزي) تتكلم نصف الوقت وتغني النصف الآخر.. وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم كان هناك ضجة غريبة بالخارج.. وسارع الكبار لفتح أبواب أكواخهم.. ووقفوا مندهشين.. كان (جورج) قد غرس ريشة ديك رومي طويلة في شعره.. وكان يقفز عالياً وهو يضرب عصا على قرعة جافة ويغني بصوت عال.. من نسخته الخاصة التي نقلها عن الآنسة (ماليزي):

- أوه هاي هل يمكنك أن ترى..
- هناك على ضوء الفجر المبكر..
- وعلى ضوء الصواريخ الوضاءة الحمراء..
- أوه.. ذلك النجم الساطع على الراية المرفرفة..
- أوه الأرض القديمة الحرة والوطن والشجعان.

خلال عام آخر كانت موهبة (جورج) على التقليد قد أصبحت التسلية المفضلة بين العبيد.. والطلب المفضل من (جورج) هو تقليد السيد (ليا) أولاً كان يتأكد من أن السيد (ليا) ليس في أي مكان قريب.. ثم تضيق عيناه ويكشر وجهه.. ويقول بصوت ممطوط غاضب:

- اسمعوا أيها الزنوج.. اجعلوا هذا الحقل من القطن نظيفاً قبل غروب الشمس.. وإلا لن تنالوا جميعاً أي حصصٍ من الأكل.

كان الكبار يهتزون ضحكاً ويعلنون فيما بينهم: هل سبق أن رأيتم أحداً مثل هذا الصغير ؟ لكن عليه فقط أن يكون حذراً.

كان (جورج) يحتاج فقط إلى ملاحظة قصيرة لأحدهم ليسارع بتقليده بطريقة كوميدية بما فيهم واحد من الضيوف وهو واعظ أبيض كان قد أخذه السيد ليعظ في العبيد بعد الغداء.. وعندما تمعن (جورج) في العجوز الغامض (مينجو) الذي يمرن ديوك السيد كان (جورج) في الحال يقلد بإتقان مشيته العرجاء.. ثم أمسك بشدة بدجاجتين متصارعتين من سيقانهما.. ثم أخذ يدفعهما بسرعة للأمام والخلف.. وكان كل منهما يهدد الآخر وهو يقول: أيها الوغد الوضيع الضخم العجوز القميء شبيه الصقر أنا سأنزع عينيك للخارج.

وترد الدجاجة الثانية في احتقار: أنت لا شيء سوى نصف حفنة من الريش.

وصباح السبت التالي وبينما السيد (ليا) يوزع كالمعتاد حصص العبيد كانت (كيزي) والأخت (سارة) والآنسة (ماليزي) والعم (بومبي) يقفون في احترام أمام أكواخهم لتلقي حصتهم عندما جاء (جورج) مندفعاً من حول أحد الأركان يطارد جرذاً.. ثم توقف وقد أوشك أن يصطدم بالسيد (ليا) الذي كان شبه مستمتع وقال بلهجة فظة: ما الذي تفعله لتستحق حصتك هيا يا ولد ؟

أوشك الأربعة الكبار أن ينهاروا عندما شد (جورج) ذو السنوات التسع كتفيه وقال في ثقة وهو ينظر في عيني السيد مباشرة: حسناً.. أنا أعمل في حقولك واعظ يا سيدي !

ذهل السيد (ليا) وقال:حسناً.. دعنا نسمع موعظتك إذن.

اتسعت خمسة أزواج من العيون المذهولة عندما خطا (جورج) للخلف خطوة وأعلن: هذا الواعظ الأبيض الذي أرسلته إلى هنا يا سيدي.. ثم فجأة أخذ يشوح بذراعيه وهو يقول :

إذا توقعت أن العم (بومبي) قد يأخذ خنزير السيد فأخبر السيد.. وإذا رأيت الآنسة (ماليزي) تأخذ دقيق السيدة.. فأخبر السيدة.. لأنكم جميعاً من هذا النوع الطيب من الزنوج.. وتعاملون معاملة طيبة من سيدكم الطيب.. وسيدتكم الطيبة.. ثم عندما تموتون جميعاً ربما تذهبون إلى مطبخ السماء.. كان السيد (ليا) قد تضاعف ضحكه قبل أن ينتهي (جورج).. وعليه فقد لمعت أسنانه البيضاء وانطلق الفتى في إحدى أغنيات الآنسة (ماليزي) المفضلة.

إنه أنا.. إنه أنا !

يا ربي أنا وقف في حاجة إلى الصلاة !

ليس من الواعظ ولا من القس وإنما مني أنا يا ربي

أنا واقف أحتاج للصلاة !

لم يسبق لأحد من الكبار أن رأى السيد (ليا) يضحك بكل هذه القوة.. كان من الواضح أنه تأثر وأمسك بكتفي (جورج) وهو يقول: يا ولد ! أنت تعظ هنا في أي وقت تشاء.

ثم ترك السلة ليوزعوا حصصهم فيما بينهم.. ورحل السيد عائداً إلى البيت الكبير وهو يهز كتفيه ويلقي نظرات من وراء ظهره على (جورج) الذي وقف سعيداً مبتسماً.

خلال أسابيع في هذا الصيف عاد السيد (ليا) من رحلة وقد أحضر ريشتي طاووس طويلتين وأرسل الآنسة (ماليزي) إلى الحقول لتحضر (جورج) أمر الولد بعناية كيف يحرك الريشتين للأمام والخلف وراء الضيوف الذين دعاهم للغداء في يوم الأحد القادم.

كانت تعليمات (السيدة ليا) بأن الولد لابد أن يأتي إلى البيت الكبير نظيفاً تماماً وملابسه مغسولة.. ومُنشاة.. ومكوية.. كان (جورج) متحمساً للغاية لدوره الجديد.. وحول كل الانتباه الذي ناله من السيد والسيدة.. حتى أنه كان لا يكاد يسيطر على نفسه.

كان الضيوف لا يزالون في البيت الكبير عندما تسللت الآنسة (ماليزي) من المطبخ وجرت إلى صف العبيد وهي لم تعد قادرة على عدم نقل الأخبار لمستمعيها المشتاقين المتلهفين: دعوني أخبركم جميعاً.. هذا الصغير أكثر من اللازم.

ثم وصفت (جورج) وهو يلوح بريشتي الطاووس وهو يلوي رسغيه.. ويحني نفسه للأمام والخلف جالباً المزيد من الهواء للسيد والسيدة.. وبعد تناول الحلوى كان السيد يصب النبيذ عندما بدأ وكان فكرة ومضت في عقله فقال: هاي يا ولد ! أسمعنا بعض الوعظ.

وأعلنت أنها تعتقد أن الصغير كان يتمرن لأنه بسرعة بعد أن طلب منه السيد ذلك طلب واحداً من كتب الإنجيل وأعطاه السيد واحداً.. يا إلهي لقد قفز ذلك الصغير على واحد من أجمل مقاعد السيدة المطرزة.. ثم ملأ غرفة الطعام بالوعظ.. ودون أن يطلب منه أحد ذلك أخذ يغني بأعلى صوته.. وعندئذ جريت عائدة بسرعة إلى البيت الكبير تاركة (كيزي) والأخت (سارة) والعم (بومبي) يهزون رؤوسهم ويبتسمون في فخر.

***

لقد حقق (جورج) نجاحاً باهراً لدرجة أن (السيدة ليا) بدأت عند عودتها من رحلات ما بعد الظهر بالحنطور كل أحد مع السيد تخبر الآنسة (ماليزي) أن ضيوف الغداء السابق الذين تقابلهم دائماً ما يسألونها عن (جورج) وبعد فترة بدأت (السيدة ليا) المنعزلة عادةً تعبر عن غرامها الشخصي به..

والله وحده يعلم أنها لم يسبق لها أن أحبت أي زنجي.. هذا ما أعلنته الآنسة (ماليزي) بدأت (السيدة ليا) تدريجياً تجد أعمالاً لـ (جورج) يقوم بها بالداخل أو حول البيت الكبير إلى أن بلغ سن الحادية عشر فبدا لـ (كينزي) أنه يقضي نصف وقته بالخارج بدونهم.

وبسبب تهويته بالريش في كل غداء جعل (جورج) مستمراً في غرفة الطعام ليسمع أحاديث البيض.. وبدأ يلتقط المزيد من الأخبار من الآنسة (ماليزي).. وفور مغادرة الضيوف يقول (جورج) بفخر كل ما سمعته أذناه للمستمعين من العبيد.. ودهشوا عندما سمعوا كيف أن أحد الضيوف قال أن حوالي ثلاثة آلاف زنجي حر من مختلف الأماكن قد عقدوا اجتماعاً في (فيلاديلفيا) وأرسلوا بعض القرارات إلى الرئيس (ماديسون[1]) تفيد بأن كلاً من الزنوج الأحرار والعبيد قد بنوا هذا الوطن وساعدوا في القتال في كل الحروب.. وأن الولايات المتحدة لا يمكن أن تنكر أن نصيب الجرحى من الزنوج أكثر من البيض.

وأضاف (جورج) أن السيد قال: أي غبيٍ هذا الذى يستطيع أن يرى أن على الزنوج الأحرار أن يبتعدوا عن الوطن.

في آخر وليمة غداء قال (جورج) أن البيض كانوا غاضبين لدرجة أن وجوههم احمرت غضباً عند مناقشة آخر الأخبار حول تمردات العبيد الضخمة في جزر غرب الأنديز.

يا إلهي ! كان من الواجب أن تسمعوا ما كان يجري هناك حول بحارة السفن وهم يقولون أن العبيد الزنوج في جزر (الأنديز) يحرقون المحاصيل والمباني بل ويضربون ويطيحون ويشنقونهم البيض ممن كانوا سادتهم.

(1) جيمس ماديسون (16 مارس 1751 - 28 يونيو 1836) هو رابع رئيس للولايات المتحدة خلال الفترة من (1809 : 1817) وعُرف بأبى الدستور.. ولعب دوراً هاماً في وضع دستور الولايات المتحدة عام 1787 بالتعاون مَع ألكسندر هاميلتون وجون جاي.. وكان من بين الزعماء الرئيسيين المؤيدين لمغزى الدستور في الصحف الفيدرالية في عام 1788 قام بإنشاء الحزب الجمهوري الديموقراطي في منتصف التسعينيات من القرن الثامن عشر بالتعاون الوطيد مع توماس جفرسون.. وأسس حركة جراس رووتس (جذور العشب Grass Roots) ذات النشاط السياسي والتي انتصرت في انتخابات عام 1800 والتي يشار إليها بثورة 1800 وقام بمضاعفة مساحة الدولة عندما قام بصفقة شراء ولاية لويزيانا من فرنسا أثناء توليه منصب سكرتير دولة.. وعندما أصبح رئيساً أعلن الحرب على بريطانيا التي عرفت بحرب 1812 أو الحرب الأمريكية والتي انتهت عام 1815 وسادت بعدها البلاد روح قومية.

وفيما بعد وصف أحد ضيوف الغداء مشاعره عن قرب عرض يسمونه المسرح الكوميدي وهو يبدو مثل المسرحيات الفكاهية التي يدهن فيها الممثلون البيض وجوههم بمسحوق (فلين) محروق ويغنون مثل الزنوج.. وفي غداء أحد آخر قال (جورج) عن مناقشة تخص الهنود :

قال واحد من الرجال البيض أن قبائل (الشيروكي[1]) تستولي على حوالي ثمانية ملايين هكتار من احتياجات البيض.. وقال أن الحكومة ستهتم بهم من الآن بسبب تدخل رجال بيض مهمين خاصة السيدين (ديفي كروكت) و(دانيال ويبستر).

وفي يوم أحد من عام 1818 نقل (جورج) أن أحد الضيوف أعلن أن جمعية المستعمرات الأمريكية تحاول أن ترسل سفناً محملة بالزنوج إلى ليبيريا في مكان ما من أفريقيا.. وقد ضحك البيض على الزنوج الأحرار وقالوا لهم أن في ليبريا يوجد أشجار لحم الخنزير المقدد وشرائحه مدلاة منها مثل الأوراق.. وتلك الأشجار بمجرد أن تقطعها تسحب منها كل ما تشتهيه من شراب.. وقد أقسم السيد أنه بقدر اهتمامه فإنهم لا يضعون الزنوج الأحرار بالسرعة الكافية.

(1) الشيروكي (Cherokee) قبيلة من قبائل الهنود الحمر كانت تستوطن جنوب شرق الولايات المتحدة.. تركزت تجمعاتهم في ولايات جورجيا وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية والجزء الشرقي من ولاية تينيسي.. تحكي التقاليد الشفاهية التي تناقلتها قبائل الشيروكي وسجلها بعض المؤرخين وعلماء السلالات في القرن التاسع عشر أن القبيلة هاجرت في العصور الغابرة من منطقة البحيرات العظمى باتجاه الجنوب في القرن التاسع عشر أطلق المستوطنون البيض للولايات المتحدة على خمس من قبائل السكان الأصليين اسم "القبائل الخمس المتحضرة" وكانت قبيلة الشيروكي من ضمن هذه القبائل.. ووفقاً لإحصاء عام 2000 في الولايات المتحدة بلغ عدد أفراد الشيروكي أكثر من 300 ألف شخص.. وهي بذلك الأكبر من بين 563 قبيلة معترف بها فيدرالياً في الولايات المتحدة.. وقد تم إبادة جزء كبير من شعب الشيروكي عن طريق الغزاة الإسبان ثم المستوطنين الأوروبيين وذلك سواء عن طريق القتل أو التشريد أو بسبب أن الأوروبيين جلبوا بعض الأمراض معهم التي لم يكن شعب الشيروكي يكتسب مناعة ضدها.. وتعترف الحكومة الأمريكية بثلاث من قبائل الشيروكي.. وتتخذ كل من "أمة الشيروكي" و"جماعة الكيتواه المتحدة"من مدينة تاليكواه بولاية أوكلاهوما مقراً لزعامتها حيث أُجبِرَّ هذان القسمان على الانتقال قسراً إلى تلك المدينة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.. بينما توجد جماعة الشيروكي الشرقية في مدينة شيروكي بولاية كارولينا الشمالية.

قاطعته الأخت (سارة) قائلةً: اللعنة ! إنني لن أذهب أبداً إلى أفريقيا وبها كل هؤلاء الزنوج فوق الأشجار مثل القردة.

سألتها (كيزي) في حدة: من أين حصلت على هذه المعلومات ؟ لقد أتى أبي من أفريقيا وهو لم يعش أبداً على تلك الأشجار.

تلعثمت الأخت (سارة) في مهانة وهي تقول: حسناً كل شخص يكبر هنا يسمع ذلك.

قال العم (بومبي) وهو يلقي عليها نظرة جانبية: لا تفكري في ذلك.. فلن تأخذك أي سفينة إلى أي مكان لأنك لست زنجية حرة.

قالت الأخت (سارة) بحدة وهي ترفع رأسها وتلقي بمخاطها فوق التراب: حسناً.. إنني ما كانت سأذهب لو كنت حرة.

كانت تشعر بالضيق من العم (بومبي) و(كيزي) وأظهرت ضيقها بأنها لم تتمن لهما ليلة سعيدة عندما انسحب الجمع الصغير إلى أكواخهم.. وبدورها كانت (كيزي) تغلي من داخلها حيال الأخت (سارة) لتلميحاتها الوضيعة حول والدها العاقل والمحترم جداً وأرضها الأفريقية الحبيبة.

وقد دهشت وسرت عندما اكتشفت أنه حتى (جورج) كان متوتراً وغاضباً مما شعر أنه سخرية من جدوده الأفارقة.. رغم أنه بدأ متردداً في أن يقول أي شيء ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه أن يقول: مامي ! يبدو أن الأخت (سارة) تتحدث عما لا يجب.. أليس كذلك ؟

وافقته (كيزي) مؤكدة: نعم.. هذه هي الحقيقة.

جلس (جورج) لفترة قبل أن يتكلم ثانيةً في تردد: يا أمي ! ألا يمكن أن تحدثيني أكثر عنهم ؟

أحست (كيزي) بطوفان من تأنيب الضمير لأنها خلال الشتاء الماضي كانت متضايقة جداً من (جورج) وأسئلته التي لا تنتهي حول جده لدرجة أنها منعته من السؤال بعدها.. لكنها قالت له هذه المرة برقة: كثيراً جداً من الأوقات حاولت أن أصف لك شيئاً لم أقله لك عن جدك.. أعرف أنك لا تنسى شيئاً.. ولكني مستعدة لأن أخبرك عن أي شيءٍ مرة ثانية إذا أردت.

هدأ (جورج) ثانية لفترة ثم قال: يا أمي ذات مرة أخبرتني أن جدى قد أعطاك شعوراً أن أهم شيء ظل يحتفظ به في عقله هو إخبارك بالأمور الأفريقية.

قالت (كيزي) وهي ساهمة: نعم أن الأمر كذلك.

وبعد فترة صمت ثانية قال (جورج): يا أمي لقد كنت أفكر أنه تماماً كما فعلت بالنسبة لي فإنني سأخبر أطفالي عن جدهم.

ابتسمت (كيزي) لقد كانت هذه طبيعة ابنها الوحيد أن يناقش وهو في سن الثانية عشر مسألة أطفاله.. وعندما بدأ نجاح (جورج) يتصاعد مع السيد والسيدة فقد مُنِحَ المزيد من الحريات.. ومن حين لآخر خاصة أثناء فترات ما بعد ظهر أيام الأحد عندما يقومان برحلات الحنطور.. كان (جورج) يتسكع في مكان ما يخصه أحياناً لساعات تاركاً كبار العبيد يتحدثون فيما بينهم.. وهو يقوم بفضول باستكشاف كل ركن في المزرعة.. وفي واحد من هذه الآحاد عاد وأخبر (كيزي) أنه قضى ما بعد الظهر يزور الرجل العجوز الذي يعتني بديوك السيد المقاتلة:

- لقد ساعدته في الإمساك بديك ضخم ضاع.. وبعدها أخذت أنا والرجل العجوز نتحدث معاً.. وأنا لم يسبق لي أبداً أن شاهدت مثل ذلك الدجاج يا أمي.. أنها مقاتلة.. وتتصارع.. وتتقافز في عششها محاولةً أن تهاجم كل منها الآخر لتتعارك معه.. لقد سمح لي الرجل العجوز أن التقط بعض الحشائش وإطعامها وقد فعلت.. وقال لي أنه يتحمل مصاعب كثيرة في تربيتها كما تفعل الأمهات في تربية صغارها.. لقد أراني الرجل العجوز كيف يدلك ظهور الديكة.. ورقابها.. وأرجلها ليساعدها على أن تقاتل أحسن ما يكون.

حذرته قائلةً: من الأفضل أن تبقى بعيداً عن هناك.. أنت تعرف أن السيد لا يسمح لأي شخص بالاختلاط بالدجاج.

- العم (مينجو) يقول أنه سيطلب من السيد أن يدعني اذهب إلى هناك.. ومساعدته في إطعام الدجاج.

وفي صباح اليوم التالي.. وفي الطريق إلى الحقول أخبرت (كيزي) الأخت (سارة) عن آخر مغامرات (جورج) سارت (سارة) صامتة ثم قالت:

- سأقول لك فقط القليل حول (جورج) على أية حال.. أنه سيصبح ما لا يمكن أن تسميه زنجياً عادياً.. أنه سيستمر في الدخول في شيء جديداً طالما كان على قيد الحياة.



مينجو يحتاج إلى مساعد

قال العم (مينجو): إنه يتصرف باعتباره حسن التربية.. ويبدو أنه مفيد يا سيدي.. بهذا أنهى وصفه للولد الذي يعيش هناك في صف العبيد.. ولكن اسمه نسى أن يسأله عنه.

وعندما وافق السيد (ليا) في الحال على أن يمنحه فترة تجربة كان (مينجو) مسروراً جداً طالما كان يحتاج إلى مساعد منذ سنوات طويلة.. ولكنه لم يدهش في الحقيقة كان مدركاً تماماً من أن السيد مهتم بتقدم مدرب ديوك المباريات في السن وصحته غير المضمونة لأنه خلال الأشهر الستة أو السبعة الماضية كان يسقط في نوبات مرضية متزايدة ومتكررة من السعال.. وكان يعرف أيضاً أن مجهودات السيد لشراء عبد صغير واعد كصبي متدرب قد وصل إلى أسماع أصحاب الديوك المقاتلة الأخرى في المنطقة.. والذين كانوا لا يميلون إلى مساعدته.. وقال له أحدهم ذات مرة : يجب أن تكون عاقلاً إذا كان أظهر أي صبي علامات وقدرات متميزة.. ولا تظن أنني سأبيعه.. ولو دربه ذلك العجوز (مينجو) خمس أو عشر سنوات من الآن.. فإنني سأراك ستهزمني به.

ولكن السبب الأكبر قبولاً في موافقة السيد (ليا) السريعة كان يعرفه (مينجو) وهو أن الموسم السنوي هذا العام لمصارعة الديوك في (كازديل) يمكن أن يفتتح قريباً مع مباراة العام الجديد الكبرى.. وإذا أطعم الولد ببساطة الديوك الصغيرة فإن (مينجو) سيكون قادراً على قضاء وقت أطول بكثير في تدريب وإعداد الديوك الناضجةحديثاً.

وفي صباح أول يوم لـ (جورج) في العمل أراه (مينجو) كيف يُطعِم مجموعات الديوك الصغيرة في أعشاشها العديدة.. وكانت كل عشة بها مجموعة من الطيور ذات الحجم والسن المتقارب.. وعندما رأى (مينجو) أن الولد يؤدي بطريقة مقبولة.. سمح له بعد ذلك بتغذية الديوك الأكبر سناً والتي لم تبلغ في الحقيقة عاماً وإنما تحاول أن تقاتل بعضها البعض من أعشائها الثلاثة داخل سورها ذي القضبان المتحرك.. وخلال الأيام التالية جعل (مينجو).. (جورج) مستمراً دون توقف في إطعام الطيور بالذرة المجروشة.. وقشر بيض النعام.. والبرغل النظيف.. وجمع فحم الخشب.. وتغيير مياه النافورة الموجودة في العلب ثلاث مرات يومياً.

ولم يحلم (جورج) أبداً أنه سيشعر يوماً بالخوف من الدجاج خاصة في المراحل التي تبدأ فيها نمو أعرافها وأن تنمي ريشاً لامع الألوان وهي تندفع بلا خوف وعيونها البلورية تومض في تحد.. وإذا كان بعيداً عن العم (مينجو) ومراقبته المباشرة فإن (جورج) قد يضحك أحياناً بصوت مرتفع كيف أن بعض الديوك في مرحلة ما ترجع رؤوسها للخلف وتصيح بشكل غريب ومرتفع من حناجرها وكأنها تحاول أن تتنافس مع صيحات ديوك (مينجو) المعتادة ذات السنوات الست أو السبع.. وكل منها يحمل جروح العديد من المعارك الماضية والتي يسميها (ديوك الصيد) والتي يطعمها بنفسه.. وقد سمع (جورج) الآنسة (ماليزي) تقول أن السيد لا يسمح حتى للسيد (ليا) بالنزول إلى حيث الدجاج.. ولكنها أكدت لها في مهانة أن هذا آخر شيء تريد رؤيته.

ودارت السنوات .. وتعاقبت الأجيال .. وكبر جورج.. وتزوج.. وأنجب ابنًا أسماه (توم) .. وتُوفيت (كيزي).. وكانت قد زرعت في عقل وقلب ابنها (جورج) حب جده الأكبر (كونتا كينتي) وأوصته أن ينقل كل ما سمعه منها عن جده إلى أبناءه .. وأحفاده.. بالرغم من أنها شخصيًا كانت قد أصبحت لا تعرف عنه .. ولا عن والدتها أي شيء.. ولكنها كانت متيقنة من أنهما قد ماتا كما أخبرتها العرافة .

ووصل إبراهام لينكولن إلى حكم الولايات المتحدة.. وقام بتحرير العبيد .

وتزوج أبناء (توم) لينجب (هيلي) أحد أبناءه (إليكس) مؤلف هذا العمل .

عودة من الفلاش باك:

ونعود إلى الكنيسة..

طرنا بجسد أبي إذن إلى أركانساس حيث أقيم احتفال آخر حُشِدَ بأصدقاءه من جامعة (باين بلاف) والتي كان فيها عميداً لكلية الزراعة بعد أن استكمل أربعين عاماً من التدريس.. وكما كنا نعلم رغبته فقد سرنا بالسيارة بجسده عبر حرم الجامعة.. ومرتين على طول الطريق الذي توجد عليه تلك اللافتة بالقرب من الكلية والمكتوب عليها (ممر س.. أ.. هايلي).

وبعد انتهاء مراسم احتفال باين باف أخذنا جثمان والدنا إلى حيث كان سابقاً قد أخبرنا أنه يريد أن يرقد هناك في مقابر المحاربين القدماء في (ليتل روك) وتتبعنا نعشه حيث نقل إلى القسم (16) وقفنا وشاهدنا والدنا وهو ينزل قبره رقم (1429) نحن الذين كان هو والدنا وأعضاء الجيل السابع من (كونتاكينتي) سرنا مبتعدين بسرعة.. فقد كنا متفقين على ألا نبكي.

وهكذا انضم أبي إلى الآخرين هناك في السماء.. وأشعر أنهم بالقطع يشاهدون ويرشدون.. وأنا أشعر أيضاً أنهم يشاركوني الأمل في أن هذه القصة عن شعبنا يمكن أن تساعد في إحياء التراث حول حقيقة أنه الأرجح أن قصص التاريخ كتبها الفائزون.

تمت

فهرس الرواية